

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أحمد الله أولاً ، حمداً كثيراً متوالياً ؛ وإن كان يتضاهل دون حق جلاله حمد الحامدين .
وأصلى وأسلم على رسله ثانياً صلاة تستغرق مع سيد البشر سائر المرسلين .
وأستحيره تعالى ثالثاً فيما انبعت عزمي من تحرير كتاب في إحياء علوم الدين .
وأنتدب لقطع تمجيك رابعاً أيها العاذل المتغالي في العذل من بين زمرة الجاحدين ، المسرف في التفرغ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أحيا علوم الدين فأينعت بعد اضمحلالها ، وأعيا فهم الملحددين عن دركها فرجعت بكلامها ،
أحمده وأستكين له من مظالم أنقضت الظهور بأثقالها ؛ وأعبده وأستعين به لعصام الأمور وعضاها ، وأشهد
أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة وافية بحصول الدرجات وظلالها ؛ واقية من حلول الدركات وأموالها ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أطلع به فجر الإيمان من طلبة القلوب وضلالها ، وأسمع به وقر الآذان وجلا به
زين القلوب بصقالها ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم صلاة لا قاطع لا اتصالها .
وبعد : فلما وفق الله تعالى لإكمال الكلام على أحاديث إحياء علوم الدين ، في سنة إحدى وخمسين تعذر الوقوف
على بعض أحاديثه فأخرت تبييضه إلى سنة ستين فظفرت بكثير مما عذب عني عليه ثم شرعت في تبييضه في مصنف
متوسط حجمه وأنا مع ذلك متباطئ في إكمله غير متمعز لتركه وإهماله إلى أن ظفرت بأكثر ما كنت لم أقف
عليه وتكرر السؤال من جماعة في إكمله فأجبت وبادرت إليه ولكني اختصرته في غاية الاختصار ليسهل تحصيله
وحمله في الأسفار فاقصرت فيه على ذكر طرف الحديث وصحايه ومخرجه وبيان صحته أو حسنه أو ضعف مخرجه
فإن ذلك هو المقصود الأعظم عند أبناء الآخرة بل وعند كثير من المحدثين عند المذاكرة والمناظرة وأبين ما ليس له
أصل في كتب الأصول ، والله أسأل أن ينفع به إنه خير مسئول .

فإن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بعزوه إليه وإلا عزوته إلى من خرجه من بقية الستة
وحيث كان في أحد الستة لم أعزه إلى غيرها إلا لغرض صحيح بأن يكون في كتاب التزم مخرجه الصحة أو يكون
أقرب إلى لفظه في الإحياء وحيث كرر المصنف ذكر الحديث ، فإن كان في باب واحد منه اكتفيت بذكره أول
مرة وربما ذكرته فيه ثانياً وثالثاً لغرض أو لذهول عن كونه تقدم ، وإن كرره في باب آخر ذكرته ونهت على أنه
قد تقدم وربما لم أنه على تقدمه لذهول عنه ، وحيث عزوت الحديث لمن خرجه من الأئمة فلا أريد ذلك اللفظ
بعينه بل قد يكون بلفظه وقد يكون بمعناه أو باختلاف على قاعدة المستخرجات ، وحيث لم أجد ذلك الحديث ذكرت
ما ينفي عنه غالباً وربما لم أذكره . وسميته :

المعنى عن حمل الأسفار في الأسفار : في تخرج ما في الإحياء من الأخبار

جعلته الله خالصاً لوجهه الكريم ووسيلة إلى النعيم المقيم .

والإنكار من بين طبقات المنكرين الغافلين؛ فلقد حل عن لسان عقدة الصمت وطوقى عهدة الكلام وقلادة النطق: ما أنت مثار عليه من العمى عن جلية الحق، مع اللجاج في نصرة الباطل وتحسين الجهل، والتشغيب على من آثر النزوع قليلاً عن مراسم الخلق ومال ميلاً يسيراً عن ملازمة الرسم إلى العمل بمقتضى العلم طمعاً في نيل ما تبعده الله تعالى به من تزكية النفس وإصلاح القلب، وتداركاً لبعض ما فرط من إضاعة العمر يائساً عن تمام حاجتك في الحيرة وانحيازاً عن عمار من قال فيهم صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله سبحانه بعلمه»^(١)، ولعمري لأنه لاسبب لإصرارك على التكبر إلا الداء الذى عم الجسم الغفير بل شمل الجماهير من القصور عن ملاحظة ذروة هذا الأمر والجهل بأن الأمر إداة والخطب جدّ والآخرة مقبلة والدنيا مدبرة والأجل قريب والسفر بعيد والزاد طفيف والخطر عظيم والطريق سدّ، وما سوى الخالص لوجه الله من العلم والعمل عند الناقد البصير ردّ وسلوك طريق الآخرة مع كثرة الغوائل من غير دليل ولا رفيق متعب ومكث: فأدلة الطريق هم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، وقد شغل منهم الزمان ولم يبق إلا المترسمون وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان واستغواهم الطغيان، وأصبح كل واحد بما جل حظه مشغولاً، فصار يرى المعروف منكراً والمنكر معروفاً حتى ظل علم الدين مندرساً، ومنار الهدى في أقطار الأرض منطمساً، ولقد خيلوا إلى الخلق أن لا علم إلا فتوى حكومة تستعين به القضاة على فصل الخصام عند تهاوش الطعام، أو حذل يتدرع به طالب المباحة إلى الغلبة والإلحاح أو يجمع مزخرف يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام، إذ لم يروا ما سوى هذه الثلاثة مصيدة للحرام وشبكة للحطام.

فأما علم طريق الآخرة وما درج عليه السلف الصالح مما سماه الله سبحانه في كتابه: فقها وحكمة وعلماً وضياء ونوراً وهداية ورشداً، فقد أصبح من بين الخلق مطويماً وصار نسياً منسياً.

ولما كان هذا ثلماً في المدين ملأاً وخطباً مدلهماً، رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهماً، لإحياء لعلوم الدين، وكشفاً عن مناهج الأئمة المتقدمين، وإيضاحاً لمباهى العلوم النافعة عند النبيين والسلف الصالحين.

وقد أسسته على أربعة أرباع وهي: ربيع العبادات، وربيع العادات، وربيع المهلكات، وربيع المنجيات. وصدرت الجملة بكتاب العلم لأنه غاية المهتم لا تكشف أولاً عن العلم الذى تعبد الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم الأعيان بطلبه، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «طلب العلم فريضة على كل مسلم»^(٢)، وأميز فيه العلم النافع من الضار، إذ قال صلى الله عليه وسلم «نعوذ بالله من علم لا ينفع»^(٣)، وأحقق ميل أهل العصر عن شاكلة الصواب، وانخداعهم بلامع السراب، واقتناعهم من العلوم بالقشر عن الباب.

ويشتمل ربيع العبادات على عشرة كتب:

كتاب العلم، وكتاب قواعد العقائد، وكتاب أسرار الطهارة، وكتاب أسرار الصلاة، وكتاب أسرار الزكاة، وكتاب أسرار الصيام، وكتاب أسرار الحج، وكتاب آداب تلاوة القرآن، وكتاب الأذكار والدعوات، وكتاب ترتيب الأوراد في الأوقات.

أحاديث الخطبة

(١) حديث «أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه» رواه الطبراني في الصغير والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف (٢) حديث «طلب العلم فريضة على كل مسلم» رواه ابن ماجه من حديث أنس وضمفه أحمد والبيهقي وغيرهما (٣) حديث «نعوذ بالله من علم لا ينفع» رواه ابن ماجه من حديث جابر بإسناد حسن.

وأما ربيع العادات فيشتمل على عشرة كتب :

كتاب آداب الأكل ، وكتاب آداب النكاح ، وكتاب أحكام الكسب ، وكتاب الحلال والحرام ، وكتاب آداب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق ، وكتاب العزلة ، وكتاب آداب السفر ، وكتاب السماع والوجد ، وكتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة .

وأما ربيع المهلكات فيشتمل على عشرة كتب :

كتاب شرح عجائب القلب ، وكتاب رياضة النفس ، وكتاب آفات الشهوتين : شهوة البطن وشهوة الفرج ، وكتاب آفات اللسان ، وكتاب آفات الغضب والحقد والحسد ، وكتاب ذم الدنيا ، وكتاب ذم المال والبخل ، وكتاب ذم الجاه والرياء ، وكتاب ذم الكبر والعجب ، وكتاب ذم الغرور .

وأما ربيع المنجيات فيشتمل على عشرة كتب :

كتاب التوبة ، وكتاب الصبر والشكر ، وكتاب الخوف والرجاء ، وكتاب الفقر والزهد ، وكتاب التوحيد والتوكل ، وكتاب المحبة والشوق والأس والرضا ، وكتاب النية والصدق والإخلاص ، وكتاب المراقبة والمحاسبة ، وكتاب التفكير ، وكتاب ذكر الموت .

فأما ربيع العبادات فأذكر فيه من خفايا آدابها ودقائق سننها وأسرار معانيها ما يضطر العالم العامل إليه ، بل لا يكون من علماء الآخرة من لا يطلع عليه ، وأكثر ذلك مما أهمل في فن الفقهيّات .

وأما ربيع العادات فأذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق وأغوارها ودقائق سننها وخفايا الورع في مجاريها وهي مما لا يستغنى عنها متدين .

وأما ربيع المهلكات فأذكر فيه كل خلق مذموم ورد القرآن بإماطته وتركية النفس عنه وتطهير القلب منه ، وأذكر من كل واحد من تلك الأخلاق حدّه وحقيقته ، ثم أذكر سببه الذي منه يتولد ، ثم الآفات التي عليها تترتب ثم العلامات التي بها تتعرف ، ثم طرق المعالجة التي بها منها يتخلص ، كل ذلك مقروناً بشواهد الآيات والأخبار والآثار .

وأما ربيع المنجيات فأذكر فيه كل خلق محمود وخصلة مرغوب فيها من خصال المقربين والصدّيقين التي بها يتقرب العبد من رب العالمين وأذكر في كل خصلة حدّها وحقيقتها وسببها الذي به تجتلب وثمرتها التي منها تستفاد وعلامتها التي بها تتعرف وفضيلتها التي لأجلها فيها يرغب مع ما ورد فيها من شواهد الشرع والعقل ؛ ولقد صنف الناس في بعض هذه المعاني كتباً ، ولكن يتميز هذا الكتاب عنها بخمسة أمور (الأول) حل ما عقده وكشف ما أجملوه (الثاني) ترتيب ما بددوه ونظم ما فرقوه (الثالث) إيجاز ما طولوه وضبط ما قرروه (الرابع) حذف ما كرروه وإثبات ما حرروه (الخامس) تحقيق أمور غامضة اعتاصت على الأفهام لم يتعرض لها في الكتب أصلاً إذ الكل وإن تواردوا على منهج واحد فلا مستنكر أن يتفرد كل واحد من السالكين بالتنبيه لأمر يخصه ويفعل عنه رفقاؤه ، أو لا يفعل عن التنبيه ولكن يسهو عن إمراده في الكتب ، أو لا يسهو ولكن يصرفه عن كشف الغطاء عنه صارف ؛ فبهذه خواص هذا الكتاب مع كونه حاوياً لمجامع هذه العلوم .

ولإنما حلّني على تأسيس هذا الكتاب على أربعة أرباع أمران : أحدهما - وهو الباعث الأصلي - أن هذا الترتيب في التحقيق والتفهم كالضرورة لأن العلم الذي يتوجه به إلى الآخرة ينقسم إلى علم المعاملة وعلم المكاشفة ، وأغنى

بعلم المكاشفة ما يطلب منه كشف المعلوم فقط ، وأعنى بعلم المعاملة ما يطلب منه مع الكشف العمل به والمقصود من هذا الكتاب علم المعاملة فقط دون علم المكاشفة التي لارخصة في إيداعها الكتب وإن كانت هي غاية مقصد الطالبين ومطعم نظر الصديقين ، وعلم المعاملة طريق لإليه ولكن لم يتكلم الأنبياء صلوات الله عليهم مع الخلق إلا في علم الطريق والإرشاد إليه . وأما علم المكاشفة فلم يتكلموا فيه إلا بالرمز والإيماء على سبيل التمثيل والإجمال ، علماً منهم بقصور أفهام الخلق عن الاحتمال - والعلماء ورثة الأنبياء - فالعلم سبيل إلى العدول عن نهج التأسى والافتداء ثم إن علم المعاملة ينقسم إلى علم ظاهر ، أعنى العلم بأعمال الجوارح - وإلى علم باطن - أعنى العلم بأعمال القلوب والجاري على الجوارح إما عادة وإما عبادة ، والوارد على القلوب التي هي بحكم الاحتجاب عن الحواس من عالم الملكوت إما محمود وإما مذموم فبالواجب انقسم هذا العلم إلى شطرين ظاهر وباطن والشطر الظاهر المتعلق بالجوارح انقسم إلى عادة وعبادة ، والشطر الباطن المتعلق بأحوال القلب وأخلاق النفس انقسم إلى مذموم ومحمود ، فكان المجموع أربعة أقسام ولا يشذ نظر في علم المعاملة عن هذه الأقسام . الباعث الثاني . أني رأيت الرغبة من طلبة العلم صادقة في الفقه الذي صلح عند من لا يخاف الله سبحانه وتعالى المتدرع به إلى المباهاة والاستظهار بجأهه ومنزلته في المنافسات وهو مرتب على أربعة أرباع والمترين بزى المحبوب محبوب فلم أبعد أن يكون تصوير الكتاب بصورة الفقه تلطفاً في استدراج القلوب ولهذا تلتفت بعض من رام استمالة قلوب الرؤساء إلى الطب فوضعه على هيئة تقويم النجوم موضوعاً في الجداول والرقوم وسماه تقويم الصحة ليكون أنسهم بذلك الجنس جاذباً لهم إلى المطالعة والتلطف في اجتذاب القلوب إلى العلم الذي يفيد حياة الأبد أهم من التلطف في اجتذابها إلى الطب الذي لا يفيد إلا صحة الجسد، فتمرة هذا العلم طب القلوب والأرواح المتوصل به إلى حياة تدوم أبد الآباد ، فأين منه الطب الذي يعالج به الأجساد وهي معرضة بالضرورة للفساد في أقرب الآماد ؟ فنسأل الله سبحانه التوفيق للرشاد والهدى ، إنه كريم جواد .

كتاب العلم

وفيه سبعة أبواب

(الباب الأول) في فضل العلم والتعليم والتعلم (الباب الثاني) في فرض العين وفرض الكفاية من العلوم وبيان حد الفقه والكلام من علم الدين وبيان علم الآخرة وعلم الدنيا (الباب الثالث) فيما تعده العامة من علوم الدين وليس منه ، وفيه بيان جنس العلم المذموم وقدره (الباب الرابع) في آفات المناظرة وسبب اشتغال الناس بالخلاف والجدل (الباب الخامس) في آداب المعلم والمتعلم (الباب السادس) في آفات العلم والعلماء والعلامات الفارقة بين علماء الدنيا والآخرة (الباب السابع) في العقل وفضله وأقسامه وما جاء فيه من الأخبار .

الباب الأول

في فضل العلم والتعليم والتعلم وشواهد من النقل والعقل

فضيلة العلم

شواهد من القرآن قوله عز وجل (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط) فانظر

كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه وثني بالملائكة وثالث بأهل العلم؛ وناهيك بهذا شرفاً وفضلاً وجلاءً ونبلاً. وقال الله تعالى ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما: للعلماء درجات فرق المؤمنين بسبعائة درجة ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام. وقال عز وجل ﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ وقال تعالى ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ وقال تعالى ﴿ قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾ وقال تعالى ﴿ قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به ﴾ تبييناً على أنه اقتدر بقوة العلم. وقال عز وجل ﴿ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ﴾ بين أن عظم قدر الآخرة يعلم بالعلم. وقال تعالى ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولو ردهه لى الرسول ولما أوى الأمر منهم لعله الذين يستنبطونه منهم ﴾ وذو حكمة فى الوقائع لى استنباطهم وألحق رتبتهم برتبة الأنبياء فى كشف حكم الله. وقيل فى قوله تعالى ﴿ يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم - يعنى العلم - وريشاً - يعنى اليقين - ولباس التقوى ﴾ يعنى الحياء. وقال عز وجل ﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم ﴾ وقال تعالى ﴿ فلنقصد عليهم لعلم ﴾ وقال عز وجل ﴿ بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ﴾ وقال تعالى ﴿ خلق الإنسان عليه البيان ﴾ وإنما ذكر ذلك فى معرض الامتنان. وأما الأخبار فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين ويلهمه رشده،^(١) وقال صلى الله عليه وسلم العلماء ورثة الأنبياء،^(٢) ومعلوم أنه لارتبة فوق النبوة ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة. وقال صلى الله عليه وسلم، يستغفر للعالم ما فى السموات والأرض^(٣) وأى منصب يريد على منصب من تشتغل ملائكة السموات والأرض بالاستغفار له. وقال صلى الله عليه وسلم: إن الحكمة تزيد الشريف شرفاً وترفع المملوك حتى يدرك مدارك الملوك^(٤)، وقد نهى بهذا على ثمراته فى الدنيا، ومعلوم أن الآخرة خير وأبقى. وقال صلى الله عليه وسلم: دخلت لانيكونان فى مناقق: حسن سمعت وفقه فى الدين^(٥) ولا تشكن فى الحديث لنفاق بعض فقهاء الزمان؛ فانه ما أراد به الفقه الذى ظننته، وسيأتى معنى الفقه. وأدنى درجات الفقيه أن يعمل أن الآخرة خير من الدنيا، وهذه المعرفة إذا صدقت وغلبت عليه برئى بها من النفاق والرياء. وقال صلى الله عليه وسلم: أفضل الناس المؤمن العالم الذى إن احتجج لى نفع وإن استغنى عنه أغنى نفسه^(٦)، وقال صلى الله عليه وسلم: الإيمان عريان ولباسه التقوى وزينته الحياء وثمرته العلم^(٧) وقال صلى الله عليه وسلم: أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد: أما أهل العلم فدلوا الناس على ما جاءت به الرسل، وأما أهل الجهاد فجاهدوا بأسياهم

كتاب العلم : الباب الأول

- (١) حديث (من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين ويلهمه رشده) متفق عليه من حديث معاوية دون قوله (ويلهمه رشده) وهذه الريادة عند الطبرانى فى الكبير (٢) حديث (العلماء ورثة الأنبياء) أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه من حديث أبي الدرداء (٣) حديث (يستغفر للعالم ما فى السموات والأرض) هو بعض حديث أبي الدرداء المتقدم حديث (الحكمة تزيد الشريف شرفاً . . . الحديث) أخرجه أبو نعيم فى الحلية، وابن عبد البر فى بيان العلم، وعبد الفى الأزدي فى آداب الحديث من حديث أنس بإسناد ضعيف (٥) حديث (خصلتان لا يجتمعان فى مناقق . . . الحديث) أخرجه الترمذى من حديث أبي هريرة وقال حديث غريب (٦) حديث (أفضل الناس المؤمن العالم . . . الحديث) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان موقوفاً على أبي الدرداء بإسناد ضعيف ولم أره مرفوعاً (٧) حديث (الإيمان عريان . . . الحديث) أخرجه الحاكم فى تاريخ نسابور من حديث أبي الدرداء بإسناد ضعيف

على ما جاءت به الرسل (١) . وقال صلى الله عليه وسلم « لموت قبيلة أيسر من موت عالم (٢) » ، وقال عليه الصلاة والسلام « الناس معادن كمعادن الذهب والفضة ، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا » (٣) وقال صلى الله عليه وسلم « يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء (٤) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من السنة حتى يؤديها إليهم كنت له شفيحاً وشهيداً يوم القيامة (٥) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « من حمل من أمتي أربعين حديثاً لقي الله عز وجل يوم القيامة فتميتها عالماً (٦) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « من تفقه في دين الله عز وجل كفاه الله تعالى ما أهله ورزقه من حيث لا يحتسب (٧) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « أوحى الله عز وجل لى إبراهيم عليه السلام : يا إبراهيم لاني علمت أحب كل علم (٨) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « العالم أمين الله سبحانه في الأرض (٩) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « صنّفان من أمتي إذا صلحوا صلح الناس وإذا فسدوا فسد الناس : الأمراء والفقهاء (١٠) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « إذا أتى على يوم لأزداد فيه علماً يقربني إلى الله عز وجل فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم (١١) » ، وقال صلى الله عليه وسلم في تفضيل العلم على العبادة والشهادة « فضل العالم على العابد كفضل على أدنى رجل من أصحابي (١٢) » ، فانظر كيف جعل العلم مقارناً لدرجة النبوة وكيف حظ رتبة العمل المجرد عن العلم وإن كان العابد لا يخلو عن علم بالعبادة التي يواظب عليها ولولاه لم تكن عبادة؟ وقال صلى الله عليه وسلم « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب (١٣) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء (١٤) » ، فأعظم بمرتبة هي تلوا النبوة وفوق الشهادة مع ما ورد في فضل الشهادة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما عبد الله تعالى بشيء أفضل من فقه في الدين ، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ، ولكل شيء عماد وعماد هذا الدين الفقه (١٥) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « خير دينكم أيسره وخير العبادة الفقه (١٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « فضل المؤمن العالم على

- (١) حديث « أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد ... الحديث » أخرجه أبو نعيم في فصل العالم المهيب من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف (٢) حديث « لموت قبيلة أيسر من موت عالم » أخرجه الطبراني وابن عبد البر من حديث أبي الدرداء ، وأصل الحديث عند أبي الدرداء (٣) حديث « الناس معادن ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة .
- (٤) حديث « يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودماء الشهداء » أخرجه ابن عبد البر من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف .
- (٥) حديث « من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من السنة حتى يؤديها إليهم كنت له شفيحاً وشهيداً يوم القيامة » أخرجه ابن عبد البر في العلم من حديث ابن عمر وضعفه (٦) حديث « من حمل من أمتي أربعين حديثاً لقي الله يوم القيامة فتميتها عالماً » أخرجه ابن عبد البر من حديث أنس وضعفه (٧) حديث « من تفقه في دين الله كفاه الله همه .. الحديث » رواه الخطيب في التاريخ من حديث عبد الله بن جزء الربيدي بإسناد ضعيف (٨) حديث « أوحى الله لى إبراهيم بالبراهيم لاني علمت أحب كل علم » ذكره ابن عبد البر تعليقا ولم اطفر له بإسناد (٩) حديث « العالم أمين الله في الأرض » أخرجه ابن عبد البر من حديث معاذ بسند ضعيف (١٠) حديث « صنّفان من أمتي إذا صلحوا صلح الناس .. الحديث » أخرجه ابن عبد البر وأبو نعيم من حديث ابن عباس بسند ضعيف (١١) حديث « إذا أتى على يوم لأزداد فيه علماً يقربني ... الحديث » أخرجه الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحية وار عبد البر في العلم من حديث عائشة بإسناد ضعيف (١٢) حديث « فضل العالم على العابد كفضل على أدنى رجل من أصحابي » أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة وقال حسن صحيح (١٣) حديث « وصل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان ، وهو قطعة من حديث أبي الدرداء المتقدم (١٤) حديث « يشفع يوم القيامة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء » رواه ابن ماجه من حديث عثمان بن عفان بإسناد ضعيف (١٥) حديث « ما عبد الله بشيء أفضل من فقه في الدين ... الحديث » رواه الطبراني في الأوسط ، وأبو بكر الأجرى في كتاب فضل العلم ، وأبو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف . وعند الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عباس بسند ضعيف « فقيه أشد على الشيطان من ألف عابد » (١٦) حديث « خير دينكم أيسره وأفضل العبادة الفقه » أخرجه ابن عبد البر من حديث أنس بسند ضعيف ، والشطر الأول عد أحمد من حديث محمد بن ابن الأدرع بإسناد جيد ، والشطر الثاني عند الطبراني من حديث ابن عمر بسند ضعيف

المؤمن العابد بسبعين درجة^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إنكم أصبحتم في زمن كثير فقهاؤه قليل قرائه وخطبائه قليل سائلوه كثير محطوه ، العمل فيه خير من العلم . وسيأتى على الناس زمان قليل فقهاؤه كثير خطبائه قليل محطوه كثير سائلوه ، العلم فيه خير من العمل^(٢) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « بين العالم والعابد مائة درجة بين كل درجتين حضرا الجواد المضمربسبعين سنة^(٣) » ، وقيل : يارسول الله ، أى الأعمال أفضل ؟ فقال ، العلم بالله عز وجل ، فقبل : أى العلم تريد ؟ قال صلى الله عليه وسلم « العلم بالله سبحانه ، فقيل له : نسأل عن العمل وتجييب عن العلم ! فقال صلى الله عليه وسلم « إن قليل العمل ينفع مع العلم بالله ، وإن كثير العمل لا ينفع مع الجهل بالله^(٤) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « يعث الله سبحانه العاد يوم القيامة ثم يعث العلماء ثم يقول : يا معشر العلماء ، إنى لم أضع علمى فيكم إلا لعلى بكم ولم أضع علمى فيكم لأعذبكم ، اذهبوا فقد غفرت لكم^(٥) » ، نسأل الله حسن الخاتمة . وأما الآثار فقد قال على بن أبى طالب رضى الله عنه لكميل : يا كميل ، العلم حير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلم حاكم والمال محكوم عليه ، والمال تنقصه النفقة ، والعلم يزكو بالإنفاق . وقال على أيضا رضى الله عنه : العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد ، وإذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلثة لا يسدها إلا خلف منه وقال رضى الله عنه نظما :

ما الفخر إلا لأهل العلم لإهم على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرئ ما كان يحسه والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففر بعلم تعش حيا به أبدا الناس مرتى وأهل العلم أحياء

وقال أبو الأسود : ايس شيء أعز من العلم ، الملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك وقال ابن عباس رضى الله عنهما : خير سليمان بن داود عليهما السلام بين العلم والمال والملك فاختر العلم فأعطى المال والملك معه ، وسئل ابن المبارك : من الناس ؟ فقال : العلماء . قيل : فن الملوك ؟ قال : الزهاد . قيل : فن السفلة ؟ قال : الذين يأكلون الدنيا بالدين ولم يجعل غير العالم من الناس لأن الخاصية التى يتميز بها الناس عن سائر البهائم هو العلم ؛ فالإنسان لإنسان بما هو شريف لأجله ، وليس ذلك بقوة شخصه ، فان الجمل أقوى منه ، ولا بعظمه فإن الفيل أعظم منه ، ولا بشجاعته فإن السبع أشجع منه ، ولا بأكاهة فإن الثور أوسع بطنا منه ، ولا ليجماع فإن أخس العصافير أقوى على السفاد منه ، بل لم يخلق إلا للعلم . وقال لعص العلماء : ليت شعرى أى شيء أدرك من فاته العلم ، وأى شيء فاته من أدرك العلم . وقال عليه الصلاة والسلام « من أوتى القرآن فرأى أن أحدا أوتى خيرا منه فقد حقر ما عظم الله تعالى ، وقال فتح الموصلى رحمه الله : أليس المريض إذا منع الطعام والشراب والدواء يموت ؟ قالوا : بلى قال : كذلك القلب إذا منع عنه الحكمة والعلم ثلاثة أيام يموت . ولقد صدق فإن غذاء القلب العلم والحكمة وبهما حياته ، كما أن غذاء الجسد الطعام ، ومن فقد العلم فقلبه مريض وموته لازم ولكنه لا يشعر به ؛ إذ حب الدنيا

(١) حديث (فصل المؤمن العالم على المؤمن العابد بسبعين درجة) . أخرجه ابن عدى من حديث أبى هريرة بإسناد ضعيف ولا يبنى على حديث عبد البر بن عوف . (٢) حديث (إنكم أصبحتم في زمان كثير فقهاؤه... الحديث) أخرجه الطبراني من حديث حزام بن حكيم عن عمه ، وقيل عن أبيه وإسناده ضعيف (٣) حديث (بين العالم والعابد مائة درجة) الأصهبانى فى الترغيب والترهيب من حديث ابن عمر عن أبيه وقال (سبعون درجة) بسند ضعيف ، وكذا رواه صاحب مسند الفردوس من حديث أبى هريرة (٤) حديث (قيل يارسول الله أى الأعمال أفضل فقال العلم بأية... الحديث) أخرجه ابن عبد البر من حديث أنس بسند ضعيف (٥) حديث (يعث الله العباد يوم القيامة ثم يعث العلماء... الحديث) رواه الطبراني من حديث أبى موسى بسند ضعيف .

وشغله بها أبطل إحساسه ؛ كما أن غلبة الخوف قد تبطل ألم الجراح في الحال وإن كان واقعا ؛ فإذا حط الموت عنه أعباء الدنيا أحس بهلاكه وتحسر تحسراً عظيماً لا ينفعه وذلك كإحساس الآمن خوفاً والمفتيق من سكره بما أصابه من الجراحات في حالة السكر أو الخوف ، فنعوذ بالله من يوم كشف الغطاء فإن الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا . وقال الحسن رحمه الله : يوزن مداد العلماء بدم الشهداء فيرجح مداد العلماء بدم الشهداء . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : عليكم بالعلم قبل أن يرفع ، ورفعته موت رواته ، فوالذي نفسى بيده ليودنّ رجال قتلوا في سبيل الله شهداء أن يبغتهم الله علماء لما يرون من كرامتهم ، فإن أحداً لم يولد عالماً وإنما العلم بالتعلم . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلى من إحيائها ، وكذلك عن أبي هريرة رضي الله عنه وأحمد بن حنبل رحمه الله . وقال الحسن في قوله تعالى ﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ﴾ إن الحسنة في الدنيا هي العلم والعبادة ، وفي الآخرة هي الجنة . وقيل لبعض الحكماء : أى الأشياء تقتنى ؟ قال : الأشياء التي إذا غرقت سفينتك سبحت معك ، يعنى العلم وقيل . أراد بغرق السفينة هلاك بدنه بالموت . وقال بعضهم : من اتخذ الحكمة لجاما اتخذها الناس إماما ، ومن عرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار . وقال الشافعي رحمه الله عليه : من شرف العلم أن كل من نسب إليه ولو في شيء حقير فرح ، ومن رفع عنه حزن . وقال عمر رضي الله عنه : يا أيها الناس عليكم بالعلم فإن الله سبحانه رداه يحبه ، فمن طلب بابا من العلم رده الله عز وجل رداه ، فإن أذنب ذنباً استعبته ثلاث مرات ثلثا يسلبه رداه ذلك وإن تطاول به ذلك الذنب حتى يموت . وقال الأحنف رحمه الله : كاد العلماء أن يكونوا أربابا وكل عز لم يوطد بعلم فألى ذل مصيره . وقال سالم بن أبي الجعد : اشتراى مولاي بثلاثمائة درهم وأعتقني ، فقلت بأى شيء أحترف ؟ فاحترفت بالعلم فامت لي سنة حتى أتاني أمير المدينة زائراً فلم أذن له . وقال الزبير بن أبي بكر : كتب إلى أبي بكر بالعراق : عليك بالعلم فإنك إن افتقرت كان لك مالا ، وإن استغنيت كان لك جمالا . وحكى ذلك في وصايا لقمان لابنه قال : يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتك فإن الله سبحانه يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بوابل السماء . وقال بعض الحكماء : إذا مات العالم بكاه الحوت في الماء والطير في الهواء ويفقد وجهه ولا ينسى ذكره . وقال الزهري رحمه الله : العلم ذكر ولا تحبه إلا ذكرا الرجال .

فضيلة التعلم

أما الآيات فقوله تعالى ﴿ فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ﴾ وقوله عز وجل ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ وأما الأخبار فقوله صلى الله عليه وسلم « من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة (١) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاء بما يصنع (٢) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « لأن تغدو فتتعلم بابا من العلم خير من أن تصلي مائة ركعة (٣) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « باب من العلم يتعلمه الرجل خير له من الدنيا وما فيها (٤) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « اطلبوا العلم

(١) حديث (من سلك طريقاً يطلب فيه علماً... الحديث) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٢) حديث (من سلك طريقاً يطلب فيه علماً... الحديث) أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم وصححه من حديث صفوان بن صالح (٣) حديث (لأن تغدو فتتعلم باباً من الخير خير من أن تصلي مائة ركعة) أخرجه ابن عبد البر من حديث أبي ذر وليس لسانه بذلك ، والحديث عند ابن ماجه بلفظ آخر (٤) حديث (باب من العلم يتعلمه الرجل خير له من الدنيا) أخرجه ابن حبان في روضة القلاء ، وابن عبد البر موقوفاً على الحسن البصري ، ولم أره مرفوعاً إلا بلفظ (خير له من مائة ركعة) رواه الطبراني في الأوسط بسند ضيف من حديث أبي ذر

ولو بالصين^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « طلب العلم فريضة على كل مسلم » ، وقال عليه الصلاة والسلام « العلم خزان مفاتيحها السؤال ، ألا فاسألوا فإنه يوجر فيه أربعة . السائل والعالم والمستمع والمحب لهم »^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم « لا ينبغي للجاهل أن يسكت على جهله ولا للعالم أن يسكت على علمه »^(٣) ، وفي حديث أبي ذر رضى الله عنه « حضور مجلس عالم أفضل من صلاة ألف ركعة وعبادة ألف مريض وشهود ألف جنازة ، فقيل يا رسول الله ، ومن قراءة القرآن ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « وهل ينفع القرآن إلا بالعلم ؟ »^(٤) ، وقال عليه الصلاة والسلام « من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيى به الإسلام فينبهه وبين الأنبياء في الجنة درجة واحدة »^(٥) ، وأما الآثار فقال ابن عباس رضى الله عنهما ذلك طالبا فمزت مطلوبيا . وكذلك قال ابن أبي مليكة رحمه الله : ما رأيت مثل ابن عباس ، إذا رأيت رأيت أحسن الناس وجها . وإذا تكلم فأعرب الناس لسانا وإذا أفتى فأكثر الناس علما . وقال ابن المبارك رحمه الله : عجبت لمن لم يطلب العلم كيف تدعوه نفسه إلى مكرمة ؟ وقال بعض الحكماء : إني لا أرحم رجلا كرحمتي لأحد رجلين : رجل يطلب العلم ولا يفهم ، ورجل يفهم العلم ولا يطلبه . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : لأن أتعلم مسألة أحب إلى من قيام ليلة . وقال أيضا : كن عالما أو متعلما أو مستمعا ولا تكن الرابع فتهلك . وقال عطاء : مجلس علم يكفر سبعين مجلساً من مجالس اللهب . وقال عمر رضى الله عنه : موت ألف عابد قائم الليل صائم النهار أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه . وقال الشافعى رضى الله عنه : طلب العلم أفضل من النافلة . وقال ابن عبد الحكم رحمه الله : كنت عندما كنت أقرأ عليه العلم فدخل الظهر لجمعت الكتب لأصلى فقال : يا هذا ما الذى قمت إليه بأفضل مما كنت فيه إذا صحت النية . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : من رأى أن الغدو إلى طلب العلم ليس بجهد فقد نقص في رأيه وعقله .

فضيلة التعليم

أما الآيات فقوله عز وجل : ﴿ ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ والمراد هو التعليم والإرشاد . وقوله تعالى ﴿ وإذا أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب ليبيننه للناس ولا يكتمونه ﴾ وهو إيجاب للتعليم . وقوله تعالى ﴿ وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾ وهو تحريم للكتمان كما قال تعالى في الشهادة ﴿ ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « ما أتى الله عالما علما إلا وأخذ عليه من الميثاق ما أخذ على النبيين أن يبينوه للناس ولا يكتموه »^(٦) ، وقال تعالى ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً ﴾ وقال تعالى ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ وقال تعالى ﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ وأما الأخبار فقوله صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذاً رضى الله عنه إلى اليمن « لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها »^(٧)

(١) حديث « اطلبوا العلم ولو بالصين » أخرجه ابن عدى والبيهقى في المدخل والشعب من حديث أنس ، وقال البيهقى : متنه مشهور وأسانيده ضعيفة (٢) حديث (العلم خزان مفاتيحها السؤال ... الحديث) رواه أبو نعم من حديث علي صرفوعا بإسناد صحيح (٣) حديث « لا ينبغي للجاهل أن يسكت على جهله » أخرجه الطبراني في الأوسط وابن مردويه في التفسير وإن السنن وأبو نعم في رياضة المتعلمين من حديث جابر بسند ضعيف (٤) حديث أبي ذر (حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة ... الحديث) ذكره ابن الجوزى في الموضوعات من حديث عمر ولم أجده من طريق أبي ذر (٥) حديث « من جاءه الموت وهو يطلب العلم ... الحديث » أخرجه الدارمى وابن السنن في رياضة المتعلمين من حديث الحسن ، وقيل : هو ابن علي ، وقيل : هو ابن يسار البصرى مهسلا (٦) حديث « ما أتى الله عالما علما إلا وأخذ عليه من الميثاق ما أخذ على النبيين ... الحديث » أخرجه أبو نعم في فضل العالم العفيف من حديث ابن مسعود بنحوه ، وفي الخلفيات نحوه من حديث أبي هريرة (٧) حديث قال لمعاذ حين بعثه إلى اليمن « لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث معاذ ، وفي الصحيحين من حديث سهل ابن سعد أنه قال ذلك لعل

وقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم « من تعلم باباً من العلم ليعلم الناس أعطى ثواب سبعين صديقاً ^(١) » ، وقال عيسى صلى الله عليه وسلم : من علم وعمل وعلم فذلك يدعى عظيماً في ملكوت السموات . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا كان يوم القيامة يقول الله سبحانه للعابدين والمجاهدين : ادخلوا الجنة ، فيقول العلماء بفضل علمنا تعبدوا وجاهدوا ، فيقول الله عز وجل : أنتم عندي كبعض ملائكتي اشفعوا تشفعوا فيشفعون ثم يدخلون الجنة ^(٢) » ، وهذا إنما يكون بالعلم المتعدى بالتعليم لا العلم اللازم الذي لا يتعدى . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل لا ينتزع العلم انتزاعاً من الناس بعد أن يؤتيم إياه ولكن يذهب بذهاب العلماء ، فكلماً ذهب عالم ذهب بما معه من العلم ، حتى إذا لم يبق إلا رؤساء جهالا إن سئلوا أفتوا بغير علم فيضلون ويضلون ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « من علم علماً فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار ^(٤) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « نعم العطية ونعم الهدية كلمة حكمة تسمعها فتطوى عليها ثم تحملها إلى أخ لك مسلم تعلمه إياها تعدل عبادة سنة ^(٥) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله سبحانه وما والاه أو معلماً أو متعلماً ^(٦) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله سبحانه وملائكته وأهل سمواته وأرضه حتى النملة في جحرها حتى الحوت في البحر ليضلون على معلم الناس الخير ^(٧) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « ما أفاد المسلم أخاه فائدة أفضل من حديث حسن بلغه فبلغه ^(٨) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « كلمة من الخير يسمعها المؤمن فيعلمها ويعمل بها خير له من عبادة سنة ^(٩) » ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فرأى مجلسين أحدهما يدعون الله عز وجل ويرغبون إليه والثاني يعدلون الناس ، فقال « أما هؤلاء فيسألون الله تعالى فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم ، وأما هؤلاء فيعدلون الناس وإنما بعثت معلماً ثم عدل إليهم وجلس معهم ^(١٠) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « مثل ما بعثني الله عز وجل به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكانت منها بقعة قبلت الماء فأنبتت الكلا والعشب الكثير ، وكانت منها بقعة أمسكت الماء فنفع الله عز وجل بها الناس فثربوا منها وسقوا وزرعوا ، وكانت منها طائفة قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً ^(١١) » ، اهـ ، فالأول ذكره مثلاً للبتغ بعلمه ، والثاني ذكره مثلاً للنافع ، والثالث للحرور منهما

(١) حديث « من تعلم باباً من العلم ليعلم الناس أعطى ثواب سبعين صديقاً » رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن مسعود بسند ضعيف (٢) حديث « إذا كان يوم القيامة يقول الله تعالى للعابدين والمجاهدين ادخلوا الجنة ... الحديث » أخرجه أبو العباس الذهبي في العلم من حديث ابن عباس بسند ضعيف (٣) حديث « إن الله لا ينتزع العلم انتزاعاً من الناس ... الحديث » متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو (٤) حديث « من علم علماً فكتمه ألجمه يوم القيامة بلجام من نار » رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة ، قال الترمذي : حديث حسن (٥) حديث « نعم العطية ونعم الهدية كلمة حكمة تسمعها ... الحديث » أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس نحوه بإسناد ضعيف (٦) حديث « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها ... الحديث » أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة ، قال الترمذي حسن غريب . (٧) حديث « إن الله وملائكته وأهل السموات وأهل الأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر ليضلون على معلم الناس الخير » أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة وقال غريب ، وفي نسخة : حسن صحيح (٨) حديث « ما أفاد المسلم أخاه فائدة أفضل من حديث حسن .. الحديث » أخرجه ابن عبد البر من رواية محمد بن المنكدر مرسل نحوه ، ولأبي نعيم من حديث عبد الله بن عمرو « ما أهدى مسلم لأخيه هدية أفضل من كلمة تزيده هدى أو ترده عن ردى » (٩) حديث « كلمة من الحكمة يسمعها المؤمن يعمل بها ويعلمها ... الحديث » أخرجه ابن المبارك في الرهد والرقائق من رواية زيد بن أسلم مرسل نحوه ، وفي مسند الفردوس من حديث أبي هريرة بسند ضعيف « كلمة حكمة يسمعها الرجل خير له من عبادة سنة » (١٠) حديث : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم على أسحابه فرأى مجلسين أحدهما يدعون الله ... الحديث : أخرجه ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو بسند ضعيف . (١١) حديث « مثل ما بعثني الله به من العلم والهدى ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي موسى

وقال صلى الله عليه وسلم « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : علم ينتفع به ^(١) الحديث ، وقال صلى الله عليه وسلم « الدال على الخير كفاعله ^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « لاحسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله عز وجل حكمة فهو يقضى بها ويعلمها الناس ، ورجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الخير ^(٣) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « على خلفائى رحمة الله ، قيل : ومن خلفائك ؟ قال « الذين يحيون سنتى ويعلمونها عباد الله ^(٤) » ، وأما الآثار فقد قال عمر رضى الله عنه : من حدث حديثاً فعمل به فله مثل أجر من عمل ذلك للعمل . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : مسلم الناس الخير يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر . وقال بعض العلماء : العالم يدخل فيما بين الله وبين خلقه فليتنظر كيف يدخل . وروى أن سفیان الثوري رحمه الله قدم عسقلان فكث لايسأله لإنسان ، فقال : اكروالى لاخرج من هذا البلد ، هذا بلد يموت فيه العلم . وإنما قال ذلك حرصاً على فضيلة التعليم واستبقاء العلم به وقال عطاء رضى الله عنه : دخلت على سعيد بن المسيب وهو يبكي ، فقلت : ما بك ؟ قال : ليس أحد يسألني عن شيء . وقال بعضهم : العلماء سراج الأزمنة ، كل واحد مسموح زمانه يستضيء به أهل عصره . وقال الحسن رحمه الله : لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم : أى أهم بالتعليم يخرجون الناس من حد البهيمية إلى حد الإنسانية . وقال عكرمة : إن لهذا العلم ثمناً . قيل وما هو ؟ قال : أن تضعه فيمن يحسن حمله ولا يضيعه . وقال يحيى بن معاذ : العلماء أرحم بأمة محمد صلى الله عليه وسلم من آبائهم وأمهاتهم . قيل : وكيف ذلك ؟ قال لأن آباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا وهم يحفظونهم من نار الآخرة . وقيل : أول العلم الصمت ثم الاستماع ثم الحفظ ثم العمل ثم نشره . وقيل : علم عسلك من يجمل وتعلم من يعلم ما يجمل ؛ فإنك إذا فعلت ذلك علمت ما جهلت وحفظت ما علمت . وقال معاذ بن جبل في التعليم والتعلم ورأيته أيضاً فرغوا « تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه من لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قرابة ، وهو الأئیس في الوحدة ، والصاحب في الخلوة ، والدليل على الدين ، والمصبر على السراء والضراء ، والوزير عند الأخلاء ، والقريب عند الغرباء ، ومنار سبيل الجنة ، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة سادة هداة ، يقتدى بهم ، أدلة في الخير تقتص آثارهم وترمق أفعالهم وترغب الملائكة في خلقتهم وبأجنتها تمسحهم ، وكل رطب ويابس لهم يستغفر حتى حيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه والسماء ونجومها ^(٥) ، لأن العلم حياة القلوب من العمى . ونور الأبصار من الظلم ، وقوة الأبدان من الضعف ، يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى ، والتفكر فيه يعدل بالصيام ، ومدارسته بالقيام ، به يطاع الله عز وجل وبه يعبد ، وبه يوحد وبه يمجّد ، وبه يتورع ، وبه توصل الأرحام وبه يعرف الحلال والحرام ، وهو إمام والعمل تابعه ، يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء . نسأل الله تعالى حسن التوفيق .

(١) حديث (لذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ... الحديث) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة

(٢) حديث (الدال على الخير كفاعله) أخرجه الترمذى من حديث أنس وقال غريب . ورواه مسلم وأبو داود والترمذى وصححه عن أبي مسعود البدرى باللفظ (من دل على خير فله مثل أجر فاعله) (٣) حديث (لا حسد إلا في اثنتين ... الحديث)

متفق عليه من حديث ابن مسعود (٤) حديث (على خلفائى رحمة الله ... الحديث) رواه ابن عبد البر في العلم ، والهروى في ذم الكلام من حديث الحسن ، فقيل هو ابن على وقيل ابن يسار المصرى فيكون صرسلا ، وابن السنن وأبى نعيم في رياضة المتعلمين من حديث على بن مسعود . (٥) حديث معاذ (تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية وطلبه عبادة .. الحديث بطوله) رواه

أبو الشيخ ابن جبان في كتاب الثواب ، وابن عبد البر وقال : ليس له إسناده قوى

في الشواهد العقلية

اعلم أن المطلوب من هذا الباب معرفة فضيلة العلم ونفاسته ، ومالم تفهم الفضيلة في نفسها ولم يتحقق المراد منها لم يمكن أن تعلم وجودها صفة للعلم أو لغيره من الخصال ، فلقد ضل عن الطريق من طمع أن يعرف أن زيدا حكيم أم لا ، وهو لعدم يفهم معنى الحكمة وحقيقتها . والفضيلة مأخوذة من الفضل وهي الزيادة ؛ فإذا تشارك شيان في أمر واختص أحدهما بمزيد يقال فضله وله الفضل عليه مهما كانت زيادته فيما هو كمال ذلك الشيء كما يقال : الفرس أفضل من الحمار بمعنى أنه يشاركه في قوة الحمل ويزيد عليه بقوة الكثر والفرّ وشدة العدو وحسن الصورة ، فلو حرص حمار اختص سلعة زائدة لم يقل إنه أفضل ؛ لأنّ تلك زيادة في الجسم ونقصان في المعنى وليست من الكمال في شيء ، والحيوان مطلوب لمغناه وصفاته لاجسده ؛ فإذا فهمت هدالم يحف عليك أن العلم فضيلة إن أخذته بالإضافة إلى سائر الأوصاف ، كما أن للفرس فضيلة إن أخذته بالإضافة إلى سائر الحيوانات ؛ بل شدة العدو فضيلة في الفرس وليست فضيلة على الإطلاق ، والعلم فضيلة في ذاته وعلى الإطلاق من غير إضافة ؛ فإنه وصف كمال الله سبحانه وبه شرف الملائكة والأنبياء ، بل الكيس من الخيل خير من البليد فهو فضيلة على الإطلاق من غير إضافة . واعلم أن الشيء النفيس المرغوب فيه ينقسم إلى ما يطلب لغيره ، وإلى ما يطلب لذاته ، وإلى ما يطلب لغيره ولذاته جميعا فما يطلب لذاته أشرف وأفضل مما يطلب لغيره ، والمطلوب لغيره : الدراهم والدنانير فإنهما حيران لامنفعة لهما ، ولولا أن الله سبحانه وتعالى يسر قضاء الحاجات بهما لكانا والحصباء بمثابة واحدة . والذي يطلب لذاته : فالسعادة في الآخرة ولذة النظر لوجه الله تعالى . والذي يطلب لذاته ولغيره فكسلامة البدن ، فإن سلامة الرجل مثلا مطلوبة من حيث إنها سلامة للبدن عن الألم ومطلوبة للشيء والتوصل إلى المآرب والحاجات ، وبهذا الاعتبار إذا نظرت إلى العلم رأيت له لذيذا في نفسه فيكون مطلوبا لذاته ، ووجدته وسيلة إلى دار الآخرة وسعادتها وذريعة إلى القرب من الله تعالى ولا يتوصل إليه إلا به ، وأعظم الأشياء رتبة في حق الآدمي السعادة الأبدية وأفضل الأشياء ماهو وسيلة إليها ولن يتوصل إليها إلا بالعلم والعمل ولا يتوصل إلى العمل إلا بالعلم بكيفية العمل ، فأصل السعادة في الدنيا والآخرة هو العلم فهو إذن أفضل الأعمال ، وكيف لا وقد تعرف فضيلة الشيء أيضاً بشرف ثمرته ! وقد عرفت أن ثمرة العلم القرب من رب العالمين والاتحاق بأفق الملائكة ومقارنته للملائكة الأعلى ، هذا في الآخرة وأما في الدنيا فالعز والوقار ونفوذ الحكم على الملوك ولزوم الاحترام في الطباع حتى إن أغبياء الترك وأجلاف العرب يصادفون طباعهم مجبولة على التوقير لشيوخهم لاختصاصهم بمزيد علم مستفاد من التجربة بل البهيمة بطبعها توقر الإنسان لشعورها بتميز الإنسان بكمال مجاوز لدرجتها : هذه فضيلة العلم مطلقا ثم تختلف العلوم كما سيأتى بيانه وتفاوت لا محالة فضائلها بتفاوتها . وأما فضيلة التعليم والتعلم فظاهرة مما ذكرناه ، فإن العلم إذا كان أفضل الأمور كان تعلمه طلبا للأفضل فكان تعليمه إفادة للأفضل ، وبيانه أن مقاصد الخلق مجموعة في الدين والدنيا ولا نظام للدين إلا بنظام الدنيا ، فإن الدنيا مزرعة الآخرة وهي الآلة الموصلة إلى الله عز وجل لمن اتخذها آلة ومنزلا لمن اتخذها مستقرا ووطنا ؛ وليس ينتظم أمر الدنيا إلا بأعمال الآدميين . وأعمالهم وحرفهم وصناعاتهم تنحصر في ثلاثة أقسام :

(أحدها) أصول لا أقوام لا دونهما ، وهي أربعة : الزراعة ، وهي للطعم . والحياكة ، وهي لللبس . والبناء ،

وهو للسكن . والسياسة ، وهي للتأليف والاجتماع والتعاون على أسباب المعيشة وضبطها .
 (الثاني) ماهى مهية لكل واحدة من هذه الصناعات وغادمة لها : كالحداثة فإنها تخدم الزراعة وجملة من الصناعات بإعداد آلاتها كالحلجة والغزل فإنها تخدم الحياكة بإعداد عملها .
 (الثالث) ماهى متممة للأصول ومزينة ، كالطحن والخبز للزراعة ؛ وكالقصارة والخياطة للحياكة ؛ وذلك بالإضافة إلى قوام أمر العالم الأرضى مثل أجزاء الشخص بالإضافة إلى جملة فإنها ثلاثة أضرب أيضا : إما أصول كالقلب والكبد والدماغ ؛ وإما خادمة لها كالمعدة والعروق والشرايين والأعصاب والأوردة ، وإما مكملة لها ومزينة كالأظفار والأصابع والحاجبين ، وأشرف هذه الصناعات أصولها ، وأشرف أصولها السياسة بالتأليف والاستصلاح ولذلك تستدعى هذه الصناعة من الكمال فيمن يتكفل بها مالا يستدعية سائر الصناعات ، ولذلك يستخدم لأحالة صاحب هذه الصناعة سائر الصناعات والسياسة فى استصلاح الخلق وإرشادهم إلى الطريق المستقيم المنجى فى الدنيا والآخرة على أربع مراتب : الأولى - وهى العليا : سياسة الأنبياء عليهم السلام وحكمهم على الخاصة والعامة جميعاً فى ظاهرم وباطنهم . والثانية : الخلفاء والملوك والسلاطين وحكمهم على الخاصة والعامة جميعاً ولكن على ظاهرم لاعلى باطنهم . والثالثة : العلماء بالله عز وجل وبدينه الذين هم ورثة الأنبياء ، وحكمهم على باطن الخاصة فقط ، ولا يرتفع فهم العامة على الاستفادة منهم ولا تنتهى قوتهم إلى التصرف فى ظواهرهم بالإلزام والمنع والشرع .
 والرابعة : الوعاظ وحكمهم على بواطن العوام فقط ؛ فأشرف هذه الصناعات الأربع بعد النبوة لإفادة العلم وتهذيب نفوس الناس عن الأخلاق المذمومة المهلكة وإرشادهم إلى الأخلاق المحمودة المسعدة وهو المراد بالتعليم ؛ وإنما قلنا إن هذا أفضل من سائر الحرف والصناعات لأن شرف الصناعات يعرف بثلاثة أمور : إما بالالتفات إلى الغريرة التى بها يتوصل إلى معرفتها كفضل العقول العقلية على اللغوية : إذ تدرك الحكمة بالعقل ، واللغة بالسمع ، والعقل أشرف من السمع ؛ وإما بالنظر إلى عموم النفع كفضل الزراعة على الصياغة ، وإما بملاحظة المحل الذى فيه التصرف كفضل الصياغة على الدباغة : إذ محل أحدهما الذهب ومحل الآخر جلد الميتة ؛ وليس يخفى أن العلوم الدينية وهى فقه طريق الآخرة إنما تدرك بكمال العقل وصفاء الذكاء ، والعقل أشرف صفات الإنسان كما سيأتى بيانه ؛ إذ به تقبل أمانة الله ، وبه يتوصل إلى جوار الله سبحانه . وأما عموم النفع فلا يستراب فيه فإن نفعه وثمرته سعادة الآخرة .
 وأما شرف المحل فكيف يخفى والمعلم متصرف فى قلوب البشر ونفوسهم ، وأشرف موجود على الأرض جنس الإنس وأشرف جزء من جواهر الإنسان قلبه ، والمعلم مشغول بتكمله وتجليته وتطهيره وسياقته إلى القرب من الله عز وجل ، فتعليم العلم من وجه : عبادة الله تعالى ، ومن وجه خلافة الله تعالى ، وهو من أجل خلافة الله ؛ فإن الله تعالى قد فتح على قلب العالم العلم الذى هو أخص صفاته . فهو كالحازن لأنفس خرائته ؛ ثم هو مأذون له فى الإنفاق منه على كل محتاج إليه ؛ فأى رتبة أجل من كون العبد واسطة بين ربه سبحانه وبين خلقه فى تفريرهم إلى الله لئلا يسيئتهم إلى جنة المسأوى ، جعلنا الله منهم بكرمه ؛ وصلى الله على كل عبد مصطنق .

الباب الثانى

فى العلم المحمود والمذموم وأقسامهما وأحكامهما

وفيه بيان ما هو فرض عين وما هو فرض كفاية ، وبيان أن موقع الكلام والفقه من علم الدين إلى أى حد هو وتفضيل علم الآخرة .

بيان العلم الذي هو فرض عين : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : طلب العلم فريضة على كل مسلم ، وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم : اطلبوا العلم ولو بالصين ، واختلف الناس في العلم الذي هو فرض على كل مسلم ، فتمزقوا فيه أكثر من عشرين فرقة ، ولا نطيل بنقل التفصيل ، ولكن حاصله أن كل فريق نزل الوجود على العلم الذي هو بصدده ، فقال المتكلمون : هو علم الكلام ، إذ به يدرك التوحيد ويعلم به ذات الله سبحانه وصفاته ، وقال الفقهاء : هو علم الفقه إذ به تعرف العبادات والحلال والحرام وما يحرم من المعاملات وما يحل ، وعنوا به ما يحتاج إليه الآحاد دون الوقائع النادرة ، وقال المفسرون والمحدثون : هو علم الكتاب والسنة ، إذ بهما يتوصل إلى العلوم كلها . وقال المتصوفة : المراد به هذا العلم ، فقال بعضهم : هو علم العبد بحاله ومقامه من الله عز وجل . وقال بعضهم : هو العلم بالإخلاص وآفات النفوس وتمييز لمة الملك من لمة الشيطان . وقال بعضهم : هو علم الباطن ، وذلك يجب على أقوام مخصوصين هم أهل ذلك وصرّفوا اللفظ عن عمومه . وقال أبو طالب المسكي : هو العلم بما يتضمنه الحديث الذي فيه مباني الإسلام ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ^(١) ، إلى آخر الحديث ، لأن الواجب هذه الخمس فيجب العلم بكيفية العمل فيها وبكيفية الوجود . والذي ينبغي أن يقطع به المحصل ولا يستريب فيه ما سندرته : وهو أن العلم كما قدمناه في خطبة الكتاب ينقسم إلى علم معاملة وعلم مكاشفة ، وليس المراد بهذا العلم إلا علم المعاملة . والمعاملة التي كلف العبد العاقل البالغ العمل بها ثلاثة : اعتقاد ، وفعل ، وترك ؛ فإذا بلغ الرجل العاقل بالاحتلام أو السنّ ضحوة نهار مثلاً فأقول واجب عليه تعلم كلتي الشهادة وفهم معناهما وهو قول : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، وليس يجب عليه أن يحصل كشف ذلك لنفسه بالنظر والبحث وتحريّر الأدلة ، بل يكفيه أن يصدق به ويعتقده جزماً من غير اختلاج ريب واضطراب نفس ، وذلك قد يحصل بمجرد التقليد والسماع من غير بحث ولا برهان ؛ إذ اكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجلاف العرب بالتصديق والإقرار من غير تعلم دليل ^(٢) . فإذا فعل ذلك فقد أدى واجب الوقت وكان العلم الذي هو فرض عين عليه في الوقت تعلم الكلمتين وفهمهما ، وليس يلزمه أمر وراء هذا في الوقت ، بدليل أنه لو مات عقيب ذلك مات مطيعاً لله عز وجل غير عاص له ، وإنما يجب غير ذلك بعوارض تعرض وليس ذلك ضرورياً في حق كل شخص بل يتصور الانفكاك وتلك العوارض إما أن تكون في الفعل وإما في الترك وإما في الاعتقاد . أما الفعل : فبأن يعيش من ضحوة نهاره إلى وقت الظهر فيتجدد عليه بدخول وقت الظهر تعلم الطهارة والصلاة ، فإن كان صحيحاً وكان بحيث لو صبر إلى وقت زوال الشمس لم يتمكن من تمام التعلم والعمل في الوقت بل يخرج الوقت لو اشتغل بالتعلم ، فلا يبعد أن يقال : الظاهر بقاؤه فيجب عليه تقديم التعلم على الوقت . ويحتمل أن يقال : وجوب العلم الذي هو شرط العمل بعد وجوب العمل فلا يجب قبل الزوال ، وهكذا في بقية الصلوات فإن عاش إلى رمضان تجدد بسببه وجوب تعلم الصوم : وهو أن وقته من الصبح إلى غروب الشمس ؛ وأن الواجب فيه النية والإمساك عن الأكل والشرب والوقوع ، وأن ذلك يتهادى إلى رؤية الهلال أو شاهدين ؛ فإن تجدد له مال أو كان له مال عند بلوغه لزمه تعلم ما يجب عليه من الزكاة ، ولكن لا يلزمه في الحال إنما يلزمه عند

الباب الثاني

(١) حديث (بن الإسلام على خمس ... الحديث) متفق عليه من حديث ابن عمر (٢) حديث : اكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجلاف العرب بالتصديق والإقرار من غير تعلم دليل : مشهور في كتب السير والحديث ؛ فعند مسلم قصة صمام بن ثعلبة .

تمام الحول من وقت الإسلام؛ فإن لم يملك إلا الإبل لم يلزمه إلا تعلم زكاة الإبل، وكذلك في سائر الأصناف، فإذا دخل في أشهر الحج فلا يلزمه المبادرة إلى علم الحج مع أن فعله على التراخي فلا يكون تعلمه على الفور، ولكن ينبغي لعلماء الإسلام أن ينبهوه على أن الحج فرض على التراخي على كل من ملك الزاد والراحلة إذا كان هو مالكا حتى ربما يرى الحزم لنفسه في المبادرة فعند ذلك إذا عزم عليه لزمه تعلم كيفية الحج ولم يلزمه إلا تعلم أركانه وواجباته دون نوافله، فإن فعل ذلك نفل فعله أيضاً نفل فلا يكون تعلمه فرض عين وفي تحريم السكوت عن التنبيه على وجوب أصل الحج في الحال نظر يليق بالفقه، وهكذا التدرج في علم سائر الأفعال التي هي فرض عين. وأما التروك فيجب تعلم علم ذلك بحسب ما يتجدد من الحال، وذلك يختلف بحال الشخص إذ لا يجب على الأبكم تعلم ما يحرم من الكلام، ولا على الأعمى تعلم ما يحرم من النظر، ولا على البدوى تعلم ما يحرم الجلوس فيه من المساكن، فذلك أيضاً واجب بحسب ما يقتضيه الحال، فما يعلم أنه ينفك عنه لا يجب تعلمه وما هو ملابس له يجب تنبيهه عليه كما لو كان عند الإسلام لا بساً للحريز، أو جالساً في الغصب، أو ناظراً إلى غير ذي محرم، فيجب تعريفه بذلك وما ليس ملاسماً له ولكنه يصدد التعرض له على القرب كالأكل والشرب فيجب تعليمه، حتى إذا كان في بلد يتعاطى فيه شرب الخمر وأكل لحم الخنزير فيجب تعليمه ذلك وتنبيهه عليه، وما وجب تعليمه وجب عليه تعلمه. وأما الاعتقادات وأعمال القلوب فيجب عليها بحسب الخواطر، فإن خطر له شك في المعاني التي تدل عليها كتبنا الشهادة فيجب عليه تعلم ما يتوصل به إلى إزالة الشك. فإن لم يخطر له ذلك ومات قبل أن يمتد أن كلام الله سبحانه قديم وأنه مرئي وأنه ليس محلاً للحوادث إلى غير ذلك مما يذكر في المعتقدات، فقد مات على الإسلام إجماعاً، ولكن هذه الخواطر المرجحة للاعتقادات بعضها يخطر بالطبع وبعضها يخطر بالسمع من أهل البلد، فإن كان في بلد شاع فيه الكلام وتناطق الناس بالبدع فينبغي أن يصاب في أول بلوغه عنها بتلقي الحق، فإنه لو ألقى إليه الباطل لوجبت إزاتته عن قلبه وربما عسر ذلك، كما أنه لو كان هذا المسلم تاجراً وقد شاع في البلد معاملة الربا وجب عليه تعلم الحذر من الربا، وهذا هو الحق في العلم الذي هو فرض عين ومعناه العلم بكيفية العمل الواجب، فن علم العلم الواجب ووقت وجوبه فقد علم العلم الذي هو فرض عين، وما ذكره الصوفية من فهم خواطر العدو وملة الملك حق أيضاً ولكن في حق من يتصدى له، فإذا كان الغالب أن الإنسان لا ينفك عن دواعي الشر والرياء والحسد فيلزمه أن يتعلم من علم ربح المهلكات ما يرى نفسه محتاجاً إليه، وكيف لا يجب عليه وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه»^(١) ولا ينفك عنها بشر، وبقية ما سنذكره من مذمومات أحوال القلب كالكبر والعجب وأخواتها تتبع هذه الثلاث المهلكات، ولزالتها فرض عين، ولا يمكن إزالتها إلا بمعرفة حدودها ومعرفة أسبابها ومعرفة علاماتها ومعرفة علاجها؛ فإن من لا يعرف الشر يقع فيه، والعلاج هو مقابلة السبب بضده، وكيف يمكن دون معرفة السبب والمسبب، وأكثر ما ذكرناه في ربح المهلكات من فروض الأعيان، وقد تركها الناس كافة اشتغالا بما لا يعني. ومما ينبغي أن يبادر في إلقائه إليه إذا لم يكن قد انتقل عن ملة إلى ملة أخرى: الإيمان بالجنة والنار والحشر والنشر حتى يؤمن به ويصدق، وهو من تنمة كلمتي الشهادة، فإنه بعد التصديق بكونه عليه السلام رسولا

(١) حديث (ثلاث مهلكات: شح مطاع... الحديث) أخرجه ابنزبار والعاشراني وأبو نعيم والبيهقي في الشعب من حديث

ينبغي أن يفهم الرسالة التي هو مبلغها : وهو أن من أطاع الله ورسوله فله الجنة ، ومن عصاهما فله النار ، فإذا انتبهت لهذا التدرج علمت أن المذهب الحق هو هذا ، وتحققت أن كل عبد هو في مجارى أحواله في يومه وليلته لا يخلو من وقائع في عبادته ومعاملاته عن تجدد لوازم عليه فيلزمه السؤال عن كل ما يقع له من التوارد ويلزمه المبادرة إلى تعلم ما يتوقع وقوعه على القرب غالباً ؛ فإذا تبين أنه عليه الصلاة والسلام إنما أراد بالعلم المعرف بالآلاف واللام في قوله صلى الله عليه وسلم ؛ طلب العلم فريضة على كل مسلم ؛ علم العمل الذي هو مشهور الوجوب على المسلمين لا غير ؛ فقد اتضح وجه التدرج ووقت وجوبه ، والله أعلم .

بيان العلم الذي هو فرض كفاية

اعلم أن الفرض لا يميز عن غيره إلا بذكر أقسام العلوم والعلوم بالإضافة إلى الغرض الذي نحن بصده تنقسم إلى شرعية وغير شرعية ؛ وأخى بالشرعية ما استفيد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، ولا يرشد العقل إليه مثل الحساب ، ولا التجربة مثل الطب ، ولا السماع مثل اللغة ؛ فالعلوم التي ليست بشرعية تنقسم إلى ما هو محمود وإلى ما هو مذموم وإلى ما هو مباح ، فالمحمود ما يرتبط به مصالح أمور الدنيا كالطب والحساب وذلك ينقسم إلى ما هو فرض كفاية وإلى ما هو فضيلة وليس بفريضة ؛ أما فرض الكفاية فهو علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا كالطب ، إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان . وكالحساب ؛ فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والموارث وغيرهما . وهذه هي العلوم التي لو خلا البلد عن يقوم بها حرج أهل البلد . وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين . فلا يتعجب من قولنا إن الطب والحساب من فروض الكفايات فإن أصول الصناعات أيضاً من فروض الكفايات كالزراعة والحياكة والسياسة بل الحياطة . فإنه لو خلا البلد من الحياطة تسارع الهلاك إليهم وخرجوا بتعرضهم أنفسهم للهلاك . فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء وأرشد إلى استعماله وأعد الأسباب لتعاطيه . فلا يجوز التعرض للهلاك بإهماله . وأما ما يعد فضيلة لا فريضة فالتعمق في دقائق الحساب وحقائق الطب وغير ذلك مما يستغنى عنه . ولكنه يفيد زيادة قوة في القدر المحتاج إليه . وأما المذموم فعلم السحر والطلسمات وعلم الشعبة والتلبيسات . وأما المباح منه فالعلم بالأشعار التي لا يخطئ فيها . وتواريخ الأخبار وما يجري مجراه .

أما العلوم الشرعية وهي المقصودة بالبيان ؛ فهي محمودة كلها ولكن قد يلتبس بها ما يظن أنها شرعية وتكون مذمومة فتقسم إلى المحمودة والمذمومة . أما المحمودة فلها أصول وفروع ومقدمات ومتمات وهي أربعة أضرب (الضرب الأول) الأصول ؛ وهي أربعة كتاب الله عز وجل وسنة رسول الله عليه السلام وإجماع الأمة وآثار الصحابة والإجماع أصل من حيث إنه يدل على السنة فهو أصل في الدرجة الثالثة . وكذا الأثر فإنه أيضاً يدل على السنة . لأن الصحابة رضی الله عنهم قد شاهدوا الوحي والتنزيل وأدركوا بقرائن الأحوال ما غاب عن غيرهم عيانه وربما لا تحيط العبارات بما أدرك بالقرائن . فن هذا الوجه رأى العلماء الاقتداء بهم والتسك بآثارهم وذلك بشرط مخصوص على وجه مخصوص عند من يراه ولا يليق بيانه بهذا الفن (الضرب الثاني) الفروع ؛ وهو ما فهم من هذه الأصول لا بموجب ألفاظها بل بيمان تنبه لها العقول فاتسع بسببها الفهم حتى فهم من اللفظ الملفوظ به غيره كما فهم من قوله عليه السلام لا يقضى القاضي وهو غضبان ^(١) ، أنه لا يقضى إذا كان خائفاً أو جائعاً أو متألماً بمرض .

(١) حديث (لا يقضى القاضي وهو غضبان) متفق عليه من حديث أبي بكر .

وهذا على ضربين : أحدهما : يتعلق بمصالح الدنيا ويحويه كتب الفقه والمتكفل به الفقهاء وهم علماء الدنيا . والثاني : ما يتعلق بمصالح الآخرة وهو علم أحوال القلب وأخلاقه الحمودة والمدمومة وما هو مرضى عند الله تعالى ، وما هو مكروه وهو الذي يحويه الشطر الأخير من هذا الكتاب ، أعني جملة كتاب إحياء علوم الدين ، ومنه العلم بما يترشح من القلب على الجوارح في عباداتها وعاداتها ، وهو الذي يحويه الشطر الأول من هذا الكتاب . (والضرب الثالث) المقدمات ، وهي التي تجرى منه مجرى الآلات كعلم اللغة والنحو ؛ فإنهما آلة لعلم كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وليست اللغة والنحو من العلوم الشرعية في أنفسهما ، ولكن يلزم الخوض فيهما بسبب الشرع إذ جاءت هذه الشريعة بلغة العرب وكل شريعة لا تظهر إلا بلغة فيصير تعلم تلك اللغة آلة ومن الآلات علم كتابة الخط لأن ذلك ليس ضرورياً إذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) أمياً . ولو تصور استقلال الحفظ بجميع ما يسمع لاستغنى عن الكتابة ، ولكنه صار بحكم العجز في الغالب ضرورياً (الضرب الرابع) المتمات : وذلك في علم القرآن ؛ فإنه ينقسم إلى ما يتعلق باللفظ كتعلم القراءات ومخارج الحروف وإلى ما يتعلق بالمعنى كالتفسير ؛ فإن اعتياده أيضاً على النقل ، إذ اللغة بمجرد ما تستقل به وإلى ما يتعلق بأحكامه كعرفة الناسخ والمنسوخ والعام والخاص والنص والظاهر . وكيفية استعمال البعض منه مع البعض ، وهو العلم الذي يسمى أصول الفقه ويتناول السنة أيضاً . وأما المتمات في الآثار والأخبار فالعلم بالرجال وأسمائهم وأنسابهم وأسماء الصحابة وصفاتهم ، والعلم بالعدالة في الرواة ، والعلم بأحوالهم ليميز الضعيف عن القوي ، والعلم بأعمارهم ليميز المرسل عن المسند وكذلك ما يتعلق به ؛ فهذه هي العلوم الشرعية وكلها محمودة بل كلها من فروض الكفايات . فإن قلت : لم ألحقت الفقه بعلم الدنيا ؟ فاعلم أن الله عز وجل أخرج آدم عليه السلام من التراب وأخرج ذريته من سلالة من طين ومن ماء دافق ، فأخرجهم من الأضلاب إلى الأرحام ومنها إلى الدنيا ثم إلى القبر ثم إلى العرض ثم إلى الجنة أو إلى النار ؛ فهذا مبدئهم وهذا غايتهم وهذه منازلهم . وخلق الدنيا زاداً للمعاد ليتناول منها ما يصلح للترود ؛ فلو تناولوها بالعدل لانقطع الخصومات وتعطل الفقهاء ولكنهم تناولوها بالشهوات فتولدت منها الخصومات فست الحاجة إلى سلطان يسوسهم واحتياج السلطان إلى قانون يسوسهم به ؛ فالفقيه هو العالم بقانون السياسة وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعا بحكم الشهوات ؛ فكان الفقيه معلم السلطان ومرشده إلى طرق سياسة الخلق وضبطهم لينتظم باستقامتهم أمورهم في الدنيا ، ولعمري إنه متعلق أيضاً بالدين . لكن لا بنفسه بل بواسطة الدنيا ؛ فإن الدنيا مزرعة الآخرة ، ولا يتم الدين إلا بالدنيا . والمملك والدين توأمان ؛ فالدين أصل والسلطان حارس ، وما لأصل له فهدوم ، وما لاحارس له فضائع ، ولا يتم المملك والضبط إلا بالسلطان وطريق الضبط في فصل الحكومات بالفقه . وكما أن سياسة الخلق بالسلطنة ليس من علم الدين في الدرجة الأولى ؛ بل هو معين على ما لا يتم الدين إلا به ، فكذلك موقفة طريق السياسة فعلوم أن الحج لا يتم إلا ببذرة تحرس من العرب في الطريق ولكن الحج شيء وسلوك الطريق إلى الحج شيء ثان ، والقيام بالحراسة التي لا يتم الحج إلا بها شيء ثالث ، ومعرفة طرق الحراسة وحيلها وقوانينها شيء رابع ، وحاصل فن الفقه معرفة طرق السياسة والحراسة ويدل على ذلك ما روى مسنداً لا يفتي الناس إلا لثلاثة : أمير أو مأمور

(١) حديث : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمياً : أي لا يحسن الكتابة : أخرجه ابن مردويه في التفسير من حديث عبد الله بن عمر مرفوعاً « أنا محمد بن أبي الأعمى » وفيه ابن أبي عمير ، ولأن جبان والدارقطني والمالك والبيهقي وصبغته من حديث ابن مسعود « قولوا اللهم صل على محمد النبي الأعمى » ولابن خنيس من حديث البراء « وأخذ الكتاب وليس يحسن يكتب » .

أو متكلف (١) ، فالإمام هو الإمام وقد كانوا هم المفتون ، والمأمور نائبه ، والمتكلف غيرهما : وهو الذى يتقصد تلك العهدة من غير حاجة . وقد كان الصحابة رضى الله عنهم يحتزون عن الفتوى ، حتى كان يحيل كل منهم على صاحبه ، وكانوا لا يحتزون إذا سئلوا عن علم القرآن وطريق الآخرة . وفى بعض الروايات بدل المتكلف : المرأتى ؛ فإن من تقصد خطر الفتوى وهو غير متعين للحاجة فلا يقصد به إلا طلب الحياه والمال . فإن قلت : هذا إنناستقام لك فى أحكام الجراحات والحدود والغرامات وفصل الخصومات ، فلا يستقيم فيما يشتمل عليه ربيع العبادات من الصيام والصلاة ولا فيما يشتمل عليه ربيع العادات من المعاملات من بيان الحلال والحرام ، فاعلم أن أقرب ما يتكلم الفقيه فيه من الأعمال التى هى أعمال الآخرة ثلاثة : الإسلام والصلاة والزكاة والحلال والحرام ؛ فإذا تأملت منتهى نظر الفقيه فيها علمت أنه لا يجاوز حدود الدنيا إلى الآخرة ، وإذا عرفت هذا فى هذه الثلاثة فهو فى غيرها أظهر . أما الإسلام فيتكلم الفقيه فيما يصح منه وفيما يفسد وفى شروطه وليس يلتفت فيه إلا إلى اللسان . وأما القلب فخارج عن ولاية الفقيه لعزل رسول الله صلى الله عليه وسلم أرباب السيوف والسلطنة عنه حيث قال « هلا شققت عن قلبه ؟ » (٢) ، الذى قتل من تكلم بكلمة الإسلام معذرا بأنه قال ذلك من خوف السيف ، بل يحكم الفقيه بصحة الإسلام تحت ظلال السيوف ، مع أنه يعلم أن السيف لم يكشف له عن نيته ولم يدفع عن قلبه غشاوة الجهل والحيرة ، ولكنه مشير على صاحب السيف فإن السيف تمتد إلى رقبته واليد تمتد إلى ماله وهذه الكلمة باللسان تعصم رقبته وماله مادام له رقبة ومال ، وذلك فى الدنيا ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « امرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قاتلها فقد عصموا منى دماءهم وأموالهم » (٣) ، جعل أثر ذلك فى الدم والمال . وأما الآخرة فلا نضع فيها الأموال بل أنوار القلوب وأسرارها وإخلاصها ، وليس ذلك من الفقه ، وإن خاض الفقيه فيه كان كما لو خاض فى الكلام والطب وكان خارجا عن فنه . وأما الصلاة فالفقيه يفتى بالصحة إذا أتى بصورة الأعمال مع ظاهر الشروط وإن كان غافلا فى جميع صلواته من أولها إلى آخرها مشغولا بالتفكير فى حساب معاملاته فى السوق إلا عند التكبير ، وهذه الصلاة لا تنتفع فى الآخرة ، كما أن القول باللسان فى الإسلام لا ينعف ، ولكن الفقيه يفتى بالصحة أى أن مافعله حصل به امتثال صيغة الأمر وانقطع به عنه القتل والتعزير ، فأما الخشوع وإحضار القلب الذى هو عمل الآخرة وبه ينعف العمل الظاهر لا يتعرض له الفقيه ولو تعرض له لكان خارجا عن فنه ، وأما الزكاة فالفقيه ينظر إلى ما يقطع به مطالبة السلطان حتى إنه إذا امتنع عن أدائها فأخذها السلطان قهرا حكم بأنه برئت ذمته . وحكى أن أبا يوسف القاضى كان يهب ماله لزوجته آخر الحول ويستوهب مالها إسقاطا للزكاة ، فخكى ذلك لأبي حنيفة رحمه الله فقال ذلك من فقهه . وصدق فإن ذلك من فقه الدنيا ولكن مضرت فى الآخرة أعظم من كل جنائية ، ومثل هذا هو العلم الضار . وأما الحلال والحرام فالورع عن الحرام من الدين ، ولكن الورع له أربع مراتب (الأولى) الورع الذى يشترط فى عدالة الشهادة ؛ وهو الذى يخرج بتركه الإنسان عن أهلية الشهادة والقضاء والولاية وهو الاحتراز عن الحرام الظاهر (الثانية) ورع الصالحين : وهو التوقى من الشبهات التى يتقابل فيها الاحتمالات . قال صلى الله عليه وسلم « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » (٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم « الإثم حزاز القلوب » (٥) ، (الثالثة) ورع

(١) حديث « لا يفتى الناس إلا ثلاثة . . . الحديث » أخرجه ابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن حده بلفظ « لا يفتى على الناس » وأسناده حسن . (٢) حديث « هلا شققت عن قلبه » أخرجه مسلم من حديث أسامة بن زيد (٣) حديث « امرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله . . . الحديث » متفق عليه من حديث أنى هريرة وعمر وابن عمر (٤) حديث « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » أخرجه الترمذى وصححه والنسائى وابن حبان من حديث الحسن بن على (٥) حديث « الإثم حزاز القلوب » أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان من حديث ابن مسعود ، ورواه العدى فى مسنده موثوقا عليه

المتقين وهو ترك الحلال المحض الذى يخاف منه أداؤه إلى الحرام . قال صلى الله عليه وسلم « لا يكون الرجل من المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة مما به بأس »^(١) ، وذلك مثل التورع عن التحدث بأحوال الناس خيفة من الانجرار إلى الغيبة ، والتورع عن أكل الشهوات خيفة من هيجان النشاط والبطر المؤدى إلى متارفة المحظورات (الرابعة) ورع الصديقين وهو الإعراض عما سوى الله تعالى خوفاً من صرف ساعة من العمر إلى ما لا يفيد زيادة قرب عند الله عز وجل وإن كان يعلم ويتحقق أنه لا يفضى إلى حرام ، فهذه الدرجات كلها خارجة عن نظر الفقيه إلا الدرجة الأولى : وهو ورع الشهود والقضاء وما يقدر في العدالة والقيام بذلك لا ينفي الإنم في الآخرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو ابصت « استمت قلبك وإن أفتركت وإن أفتركت وإن أفتركت »^(٢) ، والفقيه لا يتكلم في حازات القلوب وكيفية العمل بها بل فيما يقدر في العدالة فقط ، فإن جميع نظر الفقيه مرتبط بالدنيا التي بها صلاح طريق الآخرة ، فإن تكلم في شيء من صفات القلب وأحكام الآخرة فذلك يدخل في كلامه على سبيل التطبيل كما قد يدخل في كلامه شيء من الطب والجساب والنجوم وعلم الكلام ، وكما تدخل الحكمة في الذر والشعر . وكان سفيان الثوري وهو إمام في علم الظاهر يقول : إن طلب هذا ليس من زاد الآخرة ، كيف وقد اتفقوا على أن الشرف في العلم العمل به فكيف يظن أنه علم الظاهر واللعان والسلم والإجارة والصرف ، ومن تعلم هذه الأمور ليتقرب بها إلى الله تعالى فهو مجنون ، وإنما العمل بالقلب والجوارح في الطاعات ، والشرف هو تلك الأعمال * فإن قلت : لم سويت بين الفقه والطب إذ الطب أيضا يتعلق بالدنيا وهو صحة الجسد وذلك يتعلق به أيضا صلاح الدين ، وهذه التسوية تخالف إجماع المسلمين ؟ فأعلم أن التسوية غير لازمة بل بينهما فرق ، وأن الفقه أشرف منه من ثلاثة أوجه (أحدها) أنه علم شرعى إذ هو مستفاد من النبوة ، بخلاف الطب فإنه ليس من علم الشرع (الثاني) أنه لا يستغنى عنه أحد من سالكى طريق الآخرة ألبتة لا الصحيح ولا المريض . وأما الطب فلا يحتاج إليه إلا المرضى وهم الأقلون (الثالث) أن علم الفقه مجاور لعلم طريق الآخرة لأنه نظر في أعمال الجوارح ، ومصدر أعمال الجوارح ومنشؤها صفات القلوب ، فالمحمود من الأعمال يصدر عن الأخلاق المحمودة المنجية في الآخرة ، والمذموم يصدر من المذموم ، وليس يخفى اتصال الجوارح بالقلب . وأما الصحة والمرض فذئبئها صفاة في الزواج والأخلاق وذلك من أوصاف البدن لا من أوصاف القلب ، فهما أضيف الفقه إلى الطب ظاهر شرفه ، وإذا أضيف علم طريق الآخرة إلى الفقه ظهر أيضا شرف علم طريق الآخرة * فإن قلت : فصل لى علم طريق الآخرة تفصيلا يشير إلى تراجمه وإن لم يمكن استقصاء تفاصيله . فأعلم أنه قدسان : علم مكاشفة وعلم معاملة ، فالقسم الأول علم المكاشفة وهو علم الباطن وذلك غاية العلوم ، فقد قال بعض العارفين : من لم يكن له نصيب من هذا العلم أخاف عليه سوء الخاتمة ، وأدنى نصيب منه التصديق به وتسليمه لأهله . وقال آخر : من كان فيه خصلتان لم يفتح له شيء من هذا العلم : بدعة ، أو كبر . وقيل : من كان محبا للدنيا أو مصراً على هوى لم يتحقق به وقد يتحقق بسائر العلوم ، وأقل عقوبة من ينكره أنه لا يذوق منه شيئاً ويثمد على قوله :

وارض لمن غاب عنك غيبته فذاك ذنب عقابه فيه

وهو علم الصديقين والمقربين ، أعنى علم المكاشفة فهو عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتركيبته من صفاته

(١) حديث « لا يكون الرجل من المتقين حتى يدع ما لا بأس به .. الحديث » أخرجه الترمذى وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث عطية السمدى . (٢) حديث « استمت قلبك وإن أفتركت » أخرجه أحمد من حديث وابصة .

المذمومة ، وينكشف من ذلك النور أمور كثيرة كان يسمع من قبل أسماءها فيتوهم لها معاني بحملة غير متضحة ، فتتضح إذ ذاك حتى تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه ، وبصفاته الباقيات التامات ، وبأفعاله ، وبحكمه في خلق الدنيا والآخرة ، ووجه ترتيبه للأخرة على الدنيا ، والمعرفة بمعنى البتوة والنبي ، ومعنى الوحي ، ومعنى الشيطان ، ومعنى لفظ الملائكة والشياطين ، وكيفية معاداة الشياطين للإنسان ، وكيفية ظهور الملك للأنبياء ، وكيفية وصول الوحي إليهم ، والمعرفة بملكوت السموات والأرض ، ومعرفة القلب وكيفية تصادم جنود الملائكة والشياطين فيه ، ومعرفة الفرق بين لمة الملك و لمة الشيطان ، ومعرفة الآخرة والجنة والنار و عذاب القبر والصراط والميزان والحساب ، ومعنى قوله تعالى ﴿ اقرأ كتابك كنى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾ ومعنى قوله تعالى ﴿ وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾ ومعنى لقاء الله عز وجل والنظر إلى وجهه الكريم ومعنى القرب منه والنزول في جواره ، ومعنى حصول السعادة بمرافقة الملائكة الأعلى ومقارنة الملائكة والنبیین ، ومعنى تفاوت درجات أهل الجنان حتى يرى بعضهم البعض كما يرى الكوكب الدرزي في جوف السماء إلى غير ذلك مما يطول تفصيله ، إذ للناس في معاني هذه الأمور بعد التصديق بأصولها مقامات شتى ، فبعضهم يرى أن جميع ذلك أمثلة وأن الذي أعدّه الله لعباده الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وأنه ليس مع الخلق من الجنة إلا الصفات والأسماء . وبعضهم يرى أن بعضها أمثلة وبعضها يوافق حقائقها المفهومة من ألفاظها ، وكذا يرى بعضهم أن منتهى معرفة الله عز وجل الاعتراف بالاجتراف عن معرفته ، وبعضهم يدعى أمورا عظيمة في المعرفة بالله عز وجل ، وبعضهم يقول حدّ معرفة الله عز وجل ما انتهى إليه اعتقاد جميع العوام : وهو أنه موجود عالم قادر سميع بصير متكلم ، فعنى بعلم المكاشفة أن يرتفع الغطاء حتى تتضح له جليلة الحق في هذه الأمور اتصاحا يجرى مجرى العيان الذي لا يشك فيه ، وهذا ممكن في جوهر الإنسان لولا ان مرآة القلب قد تراكم صدورها وخبثها بقاذورات الدنيا ، وإعما نغنى بعلم طريق الآخرة : العلم بكيفية تصقيل هذه المرأة عن هذه الخبائث التي هي الحجاب عن الله سبحانه وتعالى وعن معرفة صفاته وأفعاله ، وإنما تصفيتها وتطهيرها بالكف عن الشهوات والافتداء بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم في جميع أحوالهم ، فبقدر ما ينجلي من القلب ويحاذى به شطر الحق يتألا فيه حقائقه ، ولا سبيل إليه إلا بالرياضة التي يأتي تفصيلها في موضعها ، وبالعلم والتعليم ، وهذه هي العلوم التي لا تسطر في الكتب ولا يتحدث بها من أنعم الله عليه بشيء منها إلا مع أهله ، وهو المشارك فيه على سبيل المذاكرة ، وبطريق الأسرار ، وهذا هو العلم الخفي الذي أرادته صلى الله عليه وسلم بقوله « إن من العلم كهيئة المسكون لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله تعالى ، فإذا نطقوا به لم يفهمه إلا أهل الاغترار بالله تعالى فلا تحقروا علما آتاه الله تعالى علما منه ، فإن الله عز وجل لم يحقره إذ آتاه إياه ^(١) ، وأما القسم الثاني : وهو علم المعاملة ، فهو علم أحوال القلب : أما ما يحمد منها فكالصبر ، والشكر ، والخوف ؛ والرءاء ، والرضا ، والزهد ، والتقوى ، والقناعة ، والسحاء ، ومعرفة المنّة لله تعالى في جميع الأحوال ، والإحسان ، وحسن الظن ، وحسن الخلق ، وحسن المعاشرة ، والصدق ، والإخلاص ، فمعرفة حقائق هذه الأحوال وحدودها وأسبابها التي بها تكسب وثمرتها وعلامتها ومعالجتها ما صعب منها حتى يقوى وما زال حتى يعود من علم الآخرة ،

(١) حديث « إن من العلم كهيئة المسكون ... الحديث » رواه أبو عبد الرحمن السلمي في الأربعين له في التصوف من حديث أبي هريرة بإسناد ضيف .

وأما ما يذم ، نخوف الفقر ، وسخط المقدور ، والغفل ، والحقد ، والحسد ، والغش ، وطلب العلو ، وحب الثناء ، وحب طول البقاء في الدنيا للتمتع ، والكبر ، والرياء ، والغضب ، والأذنة ، والعداوة ، والبخضاء والطمع ، والبخل ، والرغبة ، والبذخ ، والأشر ، والبطر ، وتعظيم الأغنياء ، والاستهانة بالفقراء ، والفخر ، والخيلاء ، والتنافس ، والمباهاة والاستكبار عن الحق ، والخوض فيما لا يعنى ، وحب كثرة الكلام ، والصلف ، والتزين للخلق ، والمداهنة ، والعجب ، والاشتغال عن عيوب النفس بعيوب الناس ، وزوال الحزن من القلب ، وخروج الخسئية منه ، وشدة الانتصار للنفس إذا نالها الذل ، وضيف الانتصار للحق ، واتخاذ إخوان العلاية على عداوة السر ، والأمن من مكر الله سبحانه وتعالى في سلب ما أعطى ، والابتكال على الطاعة ، والمكر ، والخيانة ، والمحادعة وطول الأمل ، والقسوة ، والفظاظة ، والفرح بالدنيا والأسف على فواتها ، والأنس بالمخلوقين والوحشة لرفاقهم والجفاء ، والطيش ، والمعجلة ، وقلة الحياء ، وقلة الرحمة ، فهده وأمثالها من صفات القلب مغارس الفواحش ومنابت الأعمال المحظورة . وأضدادها - وهى الأخلاق الحمودة - منبع الطاعات والقربات ، فالعلم بحدود هذه الأمور وحققاتها وأسبابها وثمراتها وعلاجها هو علم الآخرة ، وهو فرض عين في فتوى علماء الآخرة ، فالمرعز غنها هالك بسطوة ملك الملوك في الآخرة ، كما أن المرعز عن الأعمال الظاهرة هالك بسيف سلاطين الدنيا بحكم فتوى فقهاء الدنيا ، فنظر الفقهاء في فروض العين بالإضافة إلى صلاح الدنيا ، وهذا بالإضافة إلى صلاح الآخرة . ولو سئل فقيه عن معنى من هذه المعاني حتى عن الإخلاص مثلاً أو عن التوكل أو عن وجه الاحتراز عن الرياء لتوقف فيه مع أنه فرض عينه الذى في إهماله هلاكه في الآخرة ، ولو سأله عن اللعان والظهار والسبق والرمى لسرد عليك مجلدات من التفريعات الدقيقة التى تنقضى الدهور ولا يحتاج إلى شيء منها ، وإن احتسج لم تغل البلد عن يقوم بها ويكفيه مؤنة التعب فيها ، فلا يزال يتم فيها ليلاً ونهاراً وفي حفظه ودرسه يغفل عما هو مهم في نفسه في الدين ، وإذا روجع فيه قال : اشتغلت به لأنه علم الدين وفرض الكفاية ويلبس على نفسه ويعلى غيره في تعلمه ، والفظن يعلم أنه لو كان غرضه أداء حتى الأمر في فرض الكفاية لقدم عليه فرض العين ، بل قدم عليه كثيراً من فروض الكفائيات ؛ فكم من بلدة ليس فيها طبيب إلا من أهل الذمة ولا يجوز قبول شهادتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه ، ثم لا نرى أحداً يشتغل به ، ويتهاترون على علم النقه لاسيما الخلافات والجذليات والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع ؛ فليت شعرى كيف يرخص فقهاء الدين في الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة وإهمال ما لا تأتم به ؟ هل لهذا سبب إلا أن الطب ليس يتيسر الوصول به إلى تولى الأوقاف والوصايا وحياسة مال الأيتام وتقلد القضاء والحكومة والتقدم به على الأفران والتسلط به على الأعداء ؟ هيئات هيئات ، قد اندرس علم الدين بتليبس العلماء السوء ؛ فآله تعالى المستعان وإليه الملاذ في أن يعيننا من هذا الغرور الذى يسخط الرحمن ويضحك الشيطان ، وقد كان أهل الورع من علماء الظاهر مقزين بفضل علماء الباطن وأرباب القلوب : كان الإمام الشافعى رضى الله عنه يجلس بين يدي شيبان الراعى كما يقعد الصبي في المكتب ويسأله : كيف يفعل في كذا وكذا ؟ فيقال له : مثلك يسأل هذا البدوى ؟ فيقول : إن هذا وفق لما أغفلناه . وكان أحمد بن حنبل رضى الله عنه ويحيى بن معين يختلفان إلى معروف الكرخى ولم يكن في علم الظاهر بمنزلةهما وكانا يسألانه ، وكيف وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما قيل له كيف تفعل إذا جاءنا أمر لم نجد في كتاب ولا سنة ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : سلوا الصالحين واجعلوه شورى

ينهم^(١) ، ولذلك قيل : علماء الظاهر زينة الأرض والملك ، وعلماء الباطن زينة السماء والملكوت . وقال الجنيد رحمه الله قال السري شيخى يوماً : إذا قت من عندى فمن تجالس ؟ قلت : المحاسبي ، فقال : نعم خذ من علمه وأدنه ، ودع عنك تشقيقه الكلام وردة على المتكلمين ، ثم لما وليت سمعته يقول : جعلك الله صاحب حديث صوفياً ولا جعلك صوفياً صاحب حديث : أشار إلى أن من حصل الحديث والعلم ثم تصوف أفلح ، ومن تصوف قبل العلم خاطر بنفسه . فإن قلت : فلم لم تورد في أقسام العلوم : الكلام والفلسفة ، وتبين أنهما مدمومان أو محمردان ؟ فأعلم أن حاصل ما يشتمل عليه علم الكلام من لادلة التي ينتفع بها ، فالقرآن والأخبار مشتملة عليه ، وما خرج عنهما فهو إما مجادلة مذمومة وهي من البدع كما سيأتي بيانه ، وإما مشاعبة بالتعلق بمناقضات الفرق لها ، وتطويل بنقل لمقالات التي أكثرها ترهات وهذيانات تزدريها الطباع وتمجها الاسماع ، وبمضها حوض هيا لا يتعلق بالدين ولم يكن شيء منه مألوفاً في العصر الأول وكان الخوض فيه بالكلية من البدع ، ولكن تغير الآن حكمه إذ حدث البدعة الصارفة عن مقتضى القرآن والسنة ، ونبت جماعة لفقها لها شبيهاً ورتبوا فيها كلاماً مؤلفاً ، فصار ذلك المحذور بحكم الضرورة مأذوناً فيه ، بل صار من فروض الكفايات وهو القدر الذي يقابل به المبتدع إذا قصد الدعوة إلى البدعة ، وذلك إلى حد محدود - سذكره في الباب الذي يلي هذا إن شاء الله تعالى - وأما الفلسفة فليست علماً برأسها بل هي أربعة أجزاء (أحدها) الهندسة والحساب ، وهما مباحان كما سبق ولا يمنع عنهما إلا من يحاف عليه أن يتجاوز بهما إلى علوم مذمومة ؛ فإن أكثر الممارسين لها قد خرجوا منهما إلى البدع ، فيصان الضعيف عنهما - لا لعينهما - كما يصان عصبي عن شاطئ النهر خيفة عليه من الوقوع في النهر وكما يصان حديث العهد بالإسلام عن مخالطة الكفار خوفاً عليه ، مع أن القوى لا يندب إلى مخالطتهم (الثاني) المنطق وهو بحث عن وجه الدليل وشروطه ، ووجه الحد وشروطه ، وهما داخلان في علم الكلام (الثالث) الإلهيات ، وهو بحث عن ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته ؛ وهو داخل في الكلام أيضاً ، والفلاسفة لم ينفردوا فيها بنمط آخر من العلم ، بل انفردوا بمذاهب : بعضها كفر وبعضها بدعة ، وكما أن الاعتزال ليس علماً برأسه بل أصحابه طائفة من المتكلمين وأهل البحث والنظر انفردوا بمذاهب باطلة ، فكذلك الفلاسفة (الرابع) الطبيعيات ، وبعضها مخالف للشرع والدين والحق ، فهو جهل وليس بعلم حتى نوره في أقسام العلوم ، وبعضها بحث عن صفات الاجسام وخواصها وكيفية استحالتها وتغيرها ، وهو شبيه بنظر الاطباء ؛ إلا أن الطبيب ينظر في بدن الإنسان على الخصوص من حيث يمرض ويصح ، وهم ينظرون في جميع الاجسام من حيث تتغير وتتحرك ؛ ولكن للطب فضل عليه وهو أنه محتاج إليه . وأما علومهم في الطبيعيات فلا حاجة إليها فإذن الكلام صار من جملة الصاعات الواجبة على الكفاية حراسة لقلوب العوام عن تخيلات المبتدعة ، وإنما حدث ذلك بحدوث البدع كما حدثت حاجة الإنسان إلى استئجار البدرقة في طريق الحج بحدوث ظلم العرب وقطعهم الطريق ؛ ولو ترك العرب عدوانهم لم يكن استئجار الحراس من شروط طريق الحج ؛ فلذلك لو ترك المبتدع هذيانه لما افتقر إلى الزيادة على ما عهد في عصر الصحابة رضی الله عنهم ؛ فليعلم المتكلم حذره من الدين وأن موقعه منه موقع الحارس في طريق الحج ؛ فإذا تجرد الحارس للحراسة لم يكن من جملة الحاج ، والمتكلم إذا تجرد للمناظرة والمدافعة ولم يسلك طريق الآخرة ولم يشتغل بتعهد

(١) حديث : قيل له كيف فعل إذا جاء أمر لم نجد في كتاب الله ولا سنة رسوله ؟ ... الحديث . رواه الطبراني من حديث ابن عباس وفيه عبد الله بن كيدان ضعه الجمهور .

العاب وصلاحه لم يكن من جملة علماء الدين أصلا ، وليس عند المتكلم من الدين إلا العقيدة التي شاركه فيها سائر العوام وهي من جملة أعمال ظاهر القلب واللسان ، وإنما يتميز عن العامى بصنعة المجادلة والحراسة ، فأما معرفة الله تعالى وصفاته وأفعاله وجميع ما أشرنا إليه في علم المكاشفة فلا يحصل من علم الكلام ، بل يكاد أن يكون الكلام حجابا عليه وماذا عنه ، وإنما الوصول إليه بالمجاهدة التي جعلها الله سبحانه مقدمة للهداية حيث قال تعالى ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾ * فإن قلت : فقد رددت حد المتكلم إلى حراسة عقيدة العوام عن تشويش المبتدعة ، كما أن حد البذرقة حراسة أقنعة الحجيج عن نهب العرب ، ورددت حد الفقيه إلى حفظ القانون الذي به يكف الساطان شر بعض أهل العدوان عن بعض ، وهاتان رتبتان نازلتان بالإضافة إلى علم الدين ، وعلماء الأمة المشهورون بالفضل هم الفقهاء والمتكلمون وهم أفضل الخلق عند الله تعالى ، فكيف تنزل درجاتهم إلى هذه المنزلة السافلة بالإضافة إلى علم الدين ؟ فاعلم أن من عرف الحق بالرجال حار في متاهات الضلال ، فاعرف الحق تدرف أهله إن كنت سالكا طريق الحق ، وإن قنعت بالتقليد والنظر إلى ما اشتهر من درجات الفضل بين الناس فلا تغفل عن الصحابة وعلو مناصبهم ، فقد أجمع الذين عرضت بذكهم على تقدمهم وأنهم لا يدرك في الدين شأوهم ولا يشق غبارهم ولم يكن تقدمهم بالكلام والفقهاء بل بعلم الآخرة وسلوك طريقها ، وما فضل أبو بكر رضى الله عنه الناس بكثرة صيام ولا صلاة ولا بكثرة رواية ولا فتوى ولا كلام ، ولكن بشيء وقر في صدره ^(١) كما شهد له سبب المرسلين صلى الله تعالى عليه وسلم ؛ فابكن حرصك في طلب ذلك السر فهو الجوهر النفيس والدر المكنون ، ودع عنك ما تطابق أكثر الناس عليه وعلى تفخيمه وتعظيمه لاسباب ودواع يطول تفصيلها ، فلقد قبض رسوا ، الله صلى الله عليه وسلم عن آلاف من الصحابة رضى الله عنهم كلهم علماء بالله ، أثنى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن فيهم أحد يحسن صنعة الكلام ، ولا نصب نفسه للفتيا منهم أحد إلا بضعة عشر رجلا ، ولقد كان ابن عمر رضى الله عنهما منهم ، وكان إذا سئل عن الفتيا يقول للسائل : اذهب إلى فلان الأمير الذي تقلد أمور الناس ، وضعها في عنقه لإنشارة إلى أن الفتيا في القضايا والاحكام من توابع الولاية والسلطة ، ولما مات عمر رضى الله عنه قال ابن مسعود : مات تسعة أعشار العلم ، فقيل له : أتقول ذلك وفينا جلة الصحابة ؟ فقال : لم أرد علم الفتيا والاحكام إنما أريد العلم بالله تعالى ، أفترى أنه أراد صنعة الكلام والجدل ، فما بالك لا تحرص على معرفة ذلك العلم الذي مات بموت عمر تسعة أعشاره ، وهو الذى سد باب الكلام والجدل وضرب ضييعا بالذرة لما أورد عليه سؤالا في تعارض آيتين في كتاب الله ، وهجره وأمر الناس بهجره وأما قولك إن المشهورين من العلماء هم الفقهاء والمتكلمون ، فاعلم أن ما ينال به الفضل عند الله شيء وما ينال به الشهرة عند الناس شيء آخر ؛ فلقد كان شهرة أبي بكر الصديق رضى الله عنه بالخلافة وكان فضله بالسر الذى وقر في قلبه وكان شهرة عمر رضى الله عنه بالسياسة وكان فضله بالعلم بالله الذى مات تسعة أعشاره بموته ، وبقصده التقرب إلى الله عز وجل في ولايته وعدله وشفقته على خلقه ، وهو أمر باطن في سره ، فأما سائر أفعاله الظاهرة فيتصور صدورها من طالب الجاه والاسم والسمعة والراغب في الشهرة ، فتكون الشهرة فيما هو المهلك ، والفضل فيما هو سوسر لا يطلع عليه أحد ، فالفقهاء والمتكلمون مثل الخلفاء والقضاة والعلماء ، وقد انقسموا ، فمنهم من أراد الله سبحانه بعله وقتواه وذبه عن

(١) حديث « ما فضل أبو بكر الناس بكثرة صلاة ولا كثرة صيام ... الحديث » أخرجه الترمذى الحكيم في النوادر من

قول أبي بكر بن عبد الله المزنى ولم أجده مرغوما

سنة نبيه ولم يطلب به رياء ولا سمعة ، فأولئك أهل رضوان الله تعالى وفضلهم عند الله لعملهم بعلمهم وإرادتهم وجه الله سبحانه بفتواهم وانظرهم ، فإن كل علم عمل فإنه فعل مكتسب ، وليس كل عمل علما ، والطبيب يقدر على التقرب إلى الله تعالى بعلمه فيكون مثابا على علمه من حيث إنه عامل لله سبحانه وتعالى به ، والسلطان يتوسط بين الخلق لله فيكون مرضيا عند الله سبحانه ومثابا ، لامن حيث إنه متكفل بعلم الدين ، بل من حيث هو متقلد بعمل يقصد به التقرب إلى الله عز وجل بعلمه . وأقسام ما يتقرب به إلى الله تعالى ثلاثة : علم مجرد وهو علم المكاشفة ، وعمل مجرد وهو كمدل السلطان مثلا وضبطه للناس ، ومركب من عمل وعلم وهو علم طريق الآخرة فإن صاحبه من العلماء والعمال جميعا ، فانظر إلى نفسك أتكون يوم القيامة في حزب علماء الله ، وأعمال الله تعالى ، أوفى حزبيهما فتضرب سهمك مع كل فريق منهما ، فهذا أهم عليك من التقليد لمجرد الاشتهار كما قيل :

خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

على أننا سنقتل من سيرة فقهاء السلف ما تعلم به أن الذين انتحلوا مذاهبهم ظلومهم وأنهم من أشد خصماتهم يوم القيامة فإنهم ما تصدوا بالعلم إلا وجه الله تعالى ، وقد شوهدهم من أحوالهم ما هو من علامات علماء الآخرة كاستيائى بيانه في باب علامات علماء الآخرة ، فإنهم ما كانوا متجردين لعلم الفقه ، بل كانوا مشتغلين بعلم القلوب ومراقبين لها ، ولكن صرفهم عن التدريس والتصنيف فيه ماصرف الصحابة عن التصنيف والتدريس في الفقه ، مع أنهم كانوا فقهاء مستقلين بعلم الفتوى والصوراف والدواعى متيقنة ، ولا حاجة إلى ذكرها .

ونحن الآن نذكر من أحوال فقهاء الإسلام ما تعلم به أن ما ذكرناه ليس طعننا فيهم بل هو طعن فيمن أظهر الاقتداء بهم منتحلا مذاهبهم وهو مخالف لهم في أعمالهم وسيرهم ، فالفقهاء الذين هم زعماء الفقه وقادة الخلق - أعنى الذين كثر أتباعهم في المذاهب خمسة : الشافعى ، ومالك ، وأحمد بن حنبل ، وأبو حنيفة ، وسفيان الثوري رحمه الله تعالى . وكل واحد منهم كان عابدا وزاهدا عالما بعلوم الآخرة وفقهيا في مصالح الخلق في الدنيا ومربدا بفقهه وجه الله تعالى ، فهذه خمس حصل اتبعهم فقهاء العصر من جعلتها على خصلة واحدة وهى التشمير والمبالغة في تفاريع الفقه ، لأن الخصال الأربع لا تصلح إلا للآخرة ، وهذه الخصلة الواحدة تصلح الدنيا والآخرة ، إن أريد بها الآخرة قل صلاحها للدنيا شمرها لها وادعوا بها مساهبة أولئك الأئمة ، وهيات أن تقاس الملائكة بالحدادين ، ولنورد الآن من أحوالهم ما يدل على هذه الخصال الأربع ، فإن معرفتهم بالفقه ظاهرة .

أما الإمام الشافعى رحمه الله تعالى فيدل على أنه كان عابدا : ما روى أنه كان يقسم الليل ثلاثة أجزاء : ثلثا للعلم ، وثلثا للعبادة . وثلثا للنوم . قال الربيع : كان الشافعى رحمه الله يحتم القرآن في رمضان ستين مرة كل ذلك في الصلاة . وكان البويطى أحد أصحابه يحتم القرآن في رمضان في كل يوم مرة . وقال الحسن الكرايسى : بت مع الشافعى غير ليلة فكان يصلى نحو من ثلث الليل فما رأته يزيد على خمسين آية ، فإذا أكثر فائة آية ، وكان لا يمر بأية رحمة إلا سأل الله لنفسه وجميع المسلمين والمؤمنين ، ولا يمر بأية عذاب إلا تعوذ فيها وسأل النجاة لنفسه وللمؤمنين ، وكأما جمع له الرجاء والخوف معا ، فانظر كيف يدل اقتصاره على خمسين آية على تبحره في أسرار القرآن وتدبره فيها وقال الشافعى رحمه الله : ما شبعت مند ست عشرة سنة لأن الشيع يتقل المدن ويقسى القلب ويزيل الفطنة ويجلب الوم ويضعف صاحبه عن العبادة ، فانظر إلى حكمته في ذكر آفات الشيع ، ثم في جده في العبادة ، إذ طرح الشيع لاجلها ، ورأس التعبد لتقليل الطعام . وقال الشافعى رحمه الله : ما حلفت بالله تعالى لا صادقا ولا كاذبا قط ، فانظر

إلى حرمة وثوقه لله تعالى ، ودلالة ذلك على علمه بجلال الله سبحانه . وسئل الشافعي رضي الله عنه عن مسألة فسكت ، فقيل له : ألا تحبب رحمة الله ؟ فقال : حتى أدرى الفضل في سكوتي أوفي جوابي ؟ فانظر في مراقبته للسانه مع أنه أشد الأعضاء تسلطا على الفقهاء وأعصاها عن الضبط والقهر ، وبه يستبين أنه كان لا يتكلم ولا يسكت لا لنيل الفضل وطلب الثواب . وقال أحمد بن يحيى بن الوزير : خرج الشافعي رحمه الله تعالى يوما من سوق القناديل متبمناه فإذا رجل يسفه على رجل من أهل العلم ، فالتفت الشافعي إلينا وقال : نزهوا أسماعكم عن استماع الخناكا تنزهون ألسنتكم عن النطق به ، فإن المستمع شريك القائل ، وإن السفیه لينظر إلى أخبث شيء في إنائه فيحرص أن يفرغه في أوعيتكم ولو ردت كلمة السفیه لسعد رادها كما شق بها قائلها . وقال الشافعي رضي الله عنه : كتب حكيم إلى حكيم : قد أوتيت علما فلا تدنس عليك بظلمة الذنوب فتبقي في الظلمة يوم يسعى أهل العلم بنور علمهم . وأما زهده رضي الله عنه فقد قال الشافعي رحمه الله : من ادعى أنه جمع بين حب الدنيا وحب خالقها في قلبه فقد كذب . وقال الحميدي : خرج الشافعي رحمه الله إلى اليمن مع بعض الولاة فانصرف إلى مكة بعشرة آلاف درهم فضرب له خباء في موضع خارجا من مكة فكان الناس يأتونه ، فما برح من موضعه ذلك حتى فرقه كلها . وخرج من الحمام مرة فأعطى الحماني مالا كثيرا . وسقط سوطه من يده مرة فرفعه لإنسان إليه فأعطاه جزاء عليه خمسين دينارا . وسخاوة الشافعي رحمه الله أشهر من أن تحكى ورأس الزهد السخاء ، لأن من أحب شيئا أمسكه ولم يفارق المال إلا من صغرت الدنيا في عينه وهو معنى الزهد . ويدل على قوة زهده وشدة خوفه من الله تعالى واشتغال همه بالآخرة : ما روى أنه روى سفيان بن عيينة حديثا في الرقائق فغشى على الشافعي فقيل له : قد مات ، فقال : ان مات فقد مات أفضل زمانه . وما روى عبد الله بن محمد البلوي قال : كنت أنا وعمر بن نباتة جلوسا نتناكر العباد والزهاد فقال لي عمر : ما رأيت أروع ولا أفصح من محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه : خرجت أنا وهو والحارث بن أبيب إلى الصفا وكان الحارث تلميذ الصالح المري فافتتح يقرأ وكان حسن الصوت ، فقرأ هذه الآية عليه ﴿ هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ فرأيت الشافعي رحمه الله وقد تغير لونه واقشعر جلده واضطرب اضطرابا شديدا وخر مفسيا عليه فلما أفاق جعل يقول : أعوذ بك من مقام الكاذبين وإعراض الغافلين ، اللهم لك خضعت قلوب العارفين وذلت لك رقاب المشتاقين ، إلهي هب لي جودك وجلتني بسترِكَ واعف عن تقصيري بكرم وجهك . قال : ثم مشى وانصرفنا فلما دخلت بغداد وكان هو بالعراق فقعدت على الشط أتوضأ للصلاة إذ مر بي رجل فقال لي : يا غلام أحسن وضوءك أحسن الله إليك في الدنيا والآخرة ، فالتفت فإذا أنا برجل يتبعه جماعة ، فأسرعت في وضوئي وجعلت أقفو أثره ، فالتفت إلى فقال : هل لك من حاجة ؟ فقلت : نعم ، تعلني بما علمك الله شيئا ، فقال لي اعلم أن من صدق الله نجا ، ومن أشفق على دينه سلم من الردى ، ومن زهد في الدنيا قرت عيناه بما يراه من ثواب الله تعالى غدا ، أفلا أزيدك ؟ قلت : نعم . قال من كان فيه ثلاث خصال فقد استكمل الإيمان : من أمر بالمعروف واتمى ونهى عن المنكر وانتهى ، وحافظ على حدود الله تعالى ، ألا أزيدك ؟ قلت بلى ، فقال : كن في الدنيا زاهدا وفي الآخرة راغبا وصدق الله تعالى في جميع أمورك تتج مع الناجين ، ثم مضى ، فسألت : من هذا ؟ فقالوا : هو الشافعي فانظر إلى سقوطه مفسيا عليه ثم إلى وعظه كيف يدل ذلك على زهده وغاية خوفه ! ولا يحصل هذا الخوف والزهد إلا من معرفة الله عز وجل فإنه ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ ولم يستفد الشافعي رحمه الله هذا الخوف والزهد من علم كتاب السلم والإجارة وسائر كتب الفقه ، بل هو من علوم الآخرة المستخرجة من القرآن والأخبار

إذ حكم الأولين والآخريين مودعة فيهما . وأما كونه عالماً بأسرار القلب وعلوم الآخرة فتدبره من الحكم المسأورة عنه ، وروى أنه سئل عن الرياء فقال على البديهة : الرياء فتنة عقدها الهوى حيال أبصار قلوب العلماء فنظروا إليها بسوء اختيار النفوس فأحبطت أعمالهم . وقال الشافعي رحمه الله تعالى : إذا أنت خضت على عملك العجب فانظر رضا من تطلب ؟ وفي أي ثواب ترغب ؟ ومن أي عقاب ترهب ؟ وأي عافية تشكر ؟ وأي بلاء تذكر ؟ فإنك إذا تفكرت في واحد من هذه الخصال صغر في عينك عملك ، فانظر كيف ذكر حقيقة الرياء وعلاج العجب وهما من كبار آفات القلب ! وقال الشافعي رضي الله عنه : من لم يصن نفسه لم ينفعه عليه . وقال رحمه الله : من أطاع الله تعالى بالعلم نفعه سره . وقال : ما من أحد إلا له محب ومبغض ، فإذا كان كذلك فكأن مع أهل طاعة الله عز وجل ، وروى أن صد القاهر بن عبد العزيز كان رجلاً صالحاً ورعاً وكان يسأل الشافعي رضي الله عنه عن مسائل في الورع والشافعي رحمه الله يقبل عليه لورعه ، وقال للشافعي يوماً : أيما أفضل الصبر أو المحنة أو التمكن ، فقال الشافعي رحمه الله : التمكن درجة الأنبياء ، ولا يكون التمكن إلا بعد المحنة ، فإذا امتحن صبراً وإذا صبراً ممكن ؛ ألا ترى أن الله عز وجل امتحن إبراهيم عليه السلام ثم مكنته ، وامتحن موسى عليه السلام ثم مكنته ، وامتحن أيوب عليه السلام ثم مكنته ، وامتحن سليمان عليه السلام ثم مكنته وآتاه ملكاً ، والتمكين أفضل الدرجات ، قال الله عز وجل ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ﴾ وأيوب عليه السلام بعد المحنة العظيمة مكنته ، قال الله تعالى ﴿ وآتيناه أهله ومثلهم معهم - الآية ﴾ فهذا الكلام من الشافعي رحمه الله يدل على تبخره في أسرار القرآن وإطلاعه على مقامات السائرين إلى الله تعالى من الأنبياء والأولياء ، وكل ذلك من علوم الآخرة . وقيل للشافعي رحمه الله : متى يكون الرجل عالماً ؟ قال : إذا تحقق في علم الدين فعله وعرض لسائر العلوم فذخر فيها فاته فعند ذلك يكون عالماً ، فإنه قيل لجالينوس إنك تأمر الداء الواحد بالأدوية الكثيرة المجمععة ! فقال : إنما المقصود منها واحد وإنما يجعل معه غيره لتسكن حدته لأن الأفراد قاتل ، فهذا وأمثاله مما لا يحصى يدل على علو رتبته في معرفة الله تعالى وعلوم الآخرة . وأما إرادته بالفقه والمناظرة فيه وجه الله تعالى : فيدل عليه ما روى عنه قال : وددت أن الناس اتتبعوا بهذا العلم وما نسب إلى شيء منه ، فانظر كيف اطلع على آفة العلم وطلب الاسم له وكيف كان منزه القلب عن الالتفات إليه مجرد النية فيه لوجه الله تعالى . وقال الشافعي رضي الله عنه . ما نظرت أحداً قط فأحببت أن يخطئني . وقال : ما كتبت أحداً قط إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويؤمن ويكون عليه رعاية من الله تعالى وحفظ ، وما كتبت أحداً قط وأنا أبالي أن يبين الله الحق على لساني أو على لسانه : وقال : ما أوردت الحق والحجة على أحد فقبلها مني إلا هبته واعتقدت محبته ، ولا كبرني أحد على الحق ودافع الحجة إلا سقطت من عيني ورفضته ، فهذه العلامات هي التي تدل على إرادة الله تعالى بالفقه والمناظرة ، فانظر كيف تابعه الناس من جملة هذه الخصال الخمس على خصلة واحدة فقط ، ثم كيف خالفوه فيها أيضاً ، ولهذا قال أبو ثور رحمه الله : ما رأيت ولا رأيت الرأون مثل الشافعي رحمه الله تعالى . وقال أحمد بن حنبل رضي الله عنه : ما صليت صلاة منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو للشافعي رحمه الله تعالى ، فانظر إلى إنصاف الناس إلى درجة المدح والوقار به الأفران والأمثال من العلماء في هذه الأعمار وما بينهم من المشاحنة والبغضاء لتعلم تصغيرهم في دعوى الاقتداء بهؤلاء ، ولكنة دعائه له قال له ابنه : أي رجل كان الشافعي حتى تدعوه كل هذا الدعاء ؟ فقال أحمد : يا بني كان الشافعي رحمه الله تعالى كالشمس للدينيا وكالعافية للناس ، فانظر هل لهدين من خلف وكان أحمد رحمه الله يقول : ما مس أحد بيده محبرة إلا وللشافعي رحمه الله في ضيقه منة . وقال يحيى بن سعيد القطان :

ما صليت صلاة منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو فيها للشافعي لما فتح الله عز وجل عليه من العلم ووقفه للسداد فيه .
وانتصر على هذه التبعة من أحواله فان ذلك خارج عن الحصر ، وأكثر هذه المناقب نقلناه من الكتاب الذي صنفه
الشيخ نصر بن إبراهيم المقدسي رحمه الله تعالى في مناقب الشافعي رضي الله عنه وعن جميع المسلمين .

وأما الإمام مالك رضي الله عنه فانه كان أيضا متحليا بهذه الخصال الخمس ، فانه قيل له : ما تقول يا مالك في
طالب العلم ؟ فقال : حسن جميل ولكن انظر إلى الذي يلزمك من حين تصبح إلى حين تسمى فالزمه ، وكان رحمه الله
تعالى في تعظيم علم الدين مبالغا ، حتى كان إذا أراد أن يتحدث توضأ وجلس على صدر فراشه وسرح لحيته واستعمل
الطيب وتمكن من الجلوس على وقار وهيبة ثم حدث ، فقيل له في ذلك فقال : أحب أن أعظم حديث رسول الله
صلى الله عليه وسلم . وقال مالك : العلم نور يجعله الله حيث يشاء وليس بكثرة الرواية ، وهذا الاحترام والتوقير يدل
على قوة معرفته بجلال الله تعالى . وأما إرادته وجهه الله تعالى بالعلم فيدل عليه قوله : الجدل في الدين ليس بشيء .
ويدل عليه قول الشافعي رحمه الله : إني شهدت مالكا وقد سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنتين وثلاثين
منها : لأدرى . ومن يرد غير وجهه الله تعالى بعلمه فلا تسمح نفسه بأن يقر على نفسه بأنه لا يدري ، ولذلك قال
الشافعي رضي الله عنه : إذا ذكر العلماء فمالك النجم الثاقب ، وما أحد أمن على من مالك . وروى أن أبا جعفر
المنصور منعه من رواية الحديث في طلاق المسكرة ثم دس عليه من يسأله ، فروى على ملاءم الناس : ليس على
مسكرة طلاق ، فضربه بالسياط ، ولم يترك رواية الحديث . وقال مالك رحمه الله : ما كان رجل صادقا في حديثه
ولا يكذب إلا متع بعقله ولم يصبه مع الهرم آفة ولا خرف . وأما زهده في الدنيا فيدل عليه ما روى أن المهدي
أمير المؤمنين سأله فقال له : هل لك من دار ؟ فقال : لا ولكن أحدثك « سمعت ربيعة بن أبي عبد الرحمن يقول :
نسب المرء داره ، وسأله الرشيد : هل لك دار ؟ فقال : لا ، فأعطاه ثلاثة آلاف دينار وقال : اشتر بها دارا فأخذها
ولم ينفقها ، فلما أراد الرشيد الشخوص قال لمالك رحمه الله : ينبغي أن تخرج معنا فاني عزمت على أن أحمل الناس
على الموطأ كما حمل عثمان رضي الله عنه الناس على القرآن ، فقال له : أما حمل الناس على الموطأ فليس إليه سبيل ،
لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم افترقوا بعده في الأمصار فحدثوا ، فمعد كل أهل مصر علم وقد قال صلى الله
عليه وسلم « اختلاف أممي رحمة ^(١) » وأما الخروج معك فلا سبيل إليه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المدينة
خير لهم لو كانوا يعلمون ^(٢) » ، وقال عليه الصلاة والسلام « المدينة تنفي خبيثها كما ينفي الكبر خبث الحديد ^(٣) » وهذه
دنايركم كما هي إن شئتم فخذوها وإن شئتم فدعوها ، يعني أنك إنما تكلفني مفارقة المدينة لما اصطغمته إلى فلا أوتر الدنيا
على مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهكذا كان زهد مالك في الدنيا . ولما حلت إليه الأموال الكثيرة من أطراف
الدنيا لانتشار علمه وأصحابه كان يفرقها في وجوه الخير ودل سخاؤه على زهده وقلة حبه للدنيا وليس الزهد فقد
المال : وإنما الزهد فراغ القلب عنه ولقد كان سليمان عليه السلام في ملكه من الزهاد . ويدل على احتقاره للدنيا
ما روى عن الشافعي رحمه الله أنه قال : رأيت على باب مالك كراعا من أفراس خراسان ويقال مصر مارأيت أحسن
منه فقلت لمالك رحمه الله : ما أحسنه فقال : هو هدية مني إليك يا أبا عبد الله ، فقلت : دع لنفسك منها دابة تركبها

(١) حديث « اختلاف أممي رحمة » ذكره البيهقي في رسالته الأشعرية تديماً وأسنده في المدخل من حديث ابن عباس بلفظ
« اختلاف أصحابي لكم رحمة » وإسناده ضعيف (٢) حديث « المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » متفق عليه من حديث سفيان
ابن أبي زهير (٣) حديث « المدينة تنفي خبيثها » . الحديث « متفق عليه من حديث أبي هريرة .

فقال : إني أستحي من الله تعالى أن أطأ تربة فيها نبي الله صلى الله عليه وسلم بحافر دابة فانظر إلى سخامه إذ وهب جميع ذلك دفعة واحدة وإلى توقيره لتربة المدينة ويدل على إرادته بالعلم وجه الله تعالى واستحقاقه للدين : ما روى أنه قال دخلت على هرون الرشيد فقال لي : يا أبا عبد الله ينبغي أن تختلف إلينا حتى يسمع صبياننا منك الموطأ . قال : فقلت أعز الله مولانا الأمير ، إن هذا العلم منكم خرج فان أتم أعزتموه عزوان أتم أذلتتموه ذل والعلم يؤتى ولا يأتي ، فقال : صدقت ، اخرجوا إلى المسجد حتى تسمعوا مع الناس .

وأما أبو حنيفة رحمه الله تعالى فلقد كان أيضا عابدا زاهدا ، بالله تعالى ، خائما منه ، مريدا وجه الله تعالى بعلمه ، فأما كونه عابدا فيعرف بما روى عن ابن المبارك أنه قال : كان أبو حنيفة رحمه الله له مروءة وكثرة صلاة . وروى حماد بن أبي سليمان أنه كان يحيي الليل كله . وروى أنه كان يحيي نصف الليل فتر يوما في طريق فأشار إليه إنسان وهو يمشي فقال لآخر : هذا هو الذي يحيي الليل كله ، فلم يزل بعد ذلك يحيي الليل كله وقال : أنا أستحي من الله سبحانه أن أوصف بما ليس في من عبادته . وأما زهده فقد روى عن الربيع بن عاصم قال : أرسلني يزيد بن عمر بن هبيرة فقدمت بأبي حنيفة عليه ، فأراده أن يكون حاكما على بيت المال فأبى ، فضربه عشرين سوطا . فانظر كيف هرب من الولاية واحتمل العذاب قال الحكم بن هشام الثقفي : حدثت بالشام حديثا في أبي حنيفة أنه كان من أعظم الناس أمانة وأراده السلطان على أن يتولى مغانيم خزائمه أو يضرب ظهره فاختر عذابهم له على عذاب الله تعالى . وروى أنه ذكر أبو حنيفة عند ابن المبارك ، فقال : أتذكرون رجلا عرضت عليه الدنيا بخذا فبهرها ففتر منها . وروى عن محمد بن شجاع عن بعض أصحابه أنه قيل لأبي حنيفة : قد أمر لك أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور بعشرة آلاف درهم . قال : فارضى أبو حنيفة ، قال : فلما كان اليوم الذي توقع أن يؤتى بالمال فيه صلى الصبح ثم تمشى بثوبه فلم يتكلم ، فحاه رسول الحسن بن قحطبة بالمال ، فدخل عليه ، فلم يكلمه ، فقال بمض من حضر : ما يكلمنا إلا بالكلمة بعد الكلمة ، أي هذه عادته . فقال : ضعوا المال في هذا الجراب في زاوية البيت ، ثم أوصى أبو حنيفة بعد ذلك بمشاع بيته وقال لابنه : إذا مت ودفنتموني فخذ هذه البكرة واذهب بها إلى الحسن ابن قحطبة فقل له خذ وديعتك التي أودعتها أبا حنيفة . قال ابنه : ففعلت ذلك ، فقال الحسن : رحمة الله على أبيك فلقد كان شحيحا على دينه . وروى أنه دعى إلى ولاية القضاء فقال : أنا لا أصلح لهذا ، فقيل له : لم ؟ فقال : إن كنت صادقا فأصلح لها ، وإن كنت كاذبا فالكاذب لا يصلح للقضاء . وأما علمه بطريق الآخرة وطريق أمور الدين ومعرفته بالله عز وجل فيدل عليه شدة خوفه من الله تعالى وزهده في الدنيا ، وقد قال ابن جريج : قد بلغني عن كوفيك هذا النعمان بن ثابت أنه شديد الخوف لله تعالى . وقال شريك النخعي : كان أبو حنيفة طويل الصمت طأم الفسك قليل المحادثة للناس ، فهذا من أوضاع الأمارات على العلم الباطني والاشتغال بمهمات الدين ، فمن أوتي الصمت والزهد فقد أوتي العلم كله ، فهذه نبذة من أحوال الأئمة الثلاثة .

وأما الإمام أحمد بن حنبل وسفيان الثوري رحمهما الله تعالى فاتباعهما أقل من أتباع هؤلاء ، وسفيان أقل أتباعا من أحمد ، ولكن اشتهاهما بالورع والزهد أظهر ، وجميع هذا الكتاب مشحون بحكايات أفعالهما وأقوالهما فلا حاجة إلى التفصيل الآن ، فانظر الآن في غير هؤلاء الأئمة الثلاثة وتأمل أن هذه الأحوال والأقوال والأفعال في الإعراض عن الدنيا والتجرد لله عز وجل هل يشرها مجرد العلم بفروع الفقه من معرفة السلم والإجارة والظهار والإيلاء واللعان ، أو يشرها علم آخر أعلى وأشرف منه ، وانظر إلى الذين ادعوا الاقتداء هؤلاء أصدقاؤا في دعواهم أم لا

الباب الثالث

فيما يعده العامة من العلوم المحمودة وليس منها

وفيه بيان الوجه الذي قد يكون به بعض العلوم مذموماً وبيان تبديل أسامي العلوم وهو الفقه والعلم والتوحيد والتذكير والحكمة وبيان القدر المحمود من العلوم الشرعية والقدر المذموم منها .

بيان علة ذم العلم المذموم لعلك تقول : العلم هو معرفة الشيء على ما هو به وهو من صفات الله تعالى فكيف يكون الشيء علماً ويكون مع كونه علماً مذموماً ؟ فاعلم أن العلم لا يذم لعينه وإنما يذم في حق العباد لأحد أسباب ثلاثة (الأول) أن يكون مؤدياً إلى ضرر ما إما لصاحبه أو لغيره ، كما يدم علم السحر والطلسمات وهو حق ، إذ شهد القرآن له وأنه سبب يتوصل به إلى التفرقة بين الزوجين ، وقد سحر^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم ومرض بسببه حتى أخبره جبريل عليه السلام بذلك وأخرج السحر من تحت حجر في قعر بئر ، وهو نوع يستفاد من العلم بخواص الجواهر وبأمور حسابية في مطالع النجوم ، فيتخذ من تلك الجواهر هيكل على صورة الشخص المسحور ويرصد به وقت مخصوص من المطالع وتقرن به كلمات يتلفظ بها من الكفر والفحش المخالف للشرع ، ويتوصل بسببها إلى الاستعانة بالشياطين ، ويحصل من مجموع ذلك بحكم إجراء الله تعالى العادة أحوال غريبة في الشخص المسحور ، ومعرفة هذه الأسباب من حيث إنها معرفة ليست بدمومة ولكنها ليست تصلح إلا للإضرار بالخلق والوسيلة إلى الشر شر ، فكان ذلك هو السبب في كونه علماً مذموماً ، بل من اتبع ولياً من أولياء الله ليقتله وقد اختفى منه في موضع حرير إذا سأل الظالم عن محله لم يجز تنبيهه عليه ؛ بل وجب الكذب فيه ؛ وذكر موضعه إرشاد وإفادة علم بالشيء على ما هو عليه ، ولكنه مذموم لأدائه إلى الضرر (الثاني) أن يكون مضراً بصاحبه في غالب الأمر ، كعلم النجوم ، فإنه في نفسه غير مذموم لذاته ، إذ هو قسبان : قسم حسابي ، وقد نطق القرآن بأن مسير الشمس والقمر محسوب ، إذ قال عز وجل ﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾ وقال عز وجل ﴿ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ﴾ . والثاني : الأحكام ، وحاصله يرجع إلى الاستدلال على الحوادث بالأسباب وهو يضاهي استدلال الطبيب بالنبض على ما سيحدث من المرض ، وهو معرفة مجرى سنة الله تعالى وعادته في خلقه ولكن قد ذمه الشرع . قال صلى الله عليه وسلم ؛ إذا ذكر القدر فأمسكوا ، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا ، وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا^(٢) . وقال صلى الله عليه وسلم ؛ أخاف على أمتي بعدى ثلاثاً : حيف الأئمة ، والإيمان بالنجوم ، والتكديب بالقدر^(٣) . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : تعلموا من النجوم ما تهتدون به في البر والبحر ثم أمسكوا ، وإنما زجر عنه من ثلاثة أوجه : أحدها : أنه مضر بأكثر الخلق ، فإنه إذا ألقى إليهم أن هذه الآثار تحدث تحقير سائر الكواكب ، وقع في نفوسهم أن الكواكب هي المؤثرة ، وأنها الآلهة المدبرة لأنها جواهر شريفة سماوية ، ويعظم وقعها في القلوب فيبقى القلب ملتفتاً إليها ، ويرى الخير والشر محدوداً أو مرجحاً من جهتها ،

الباب الثالث

(١) حديث « سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم » متفق عليه من حديث عائشة

(٢) حديث « إذا ذكر القدر فأمسكوا ... الحديث » رواه الطبراني من حديث ابن مسعود بإسناد حسن

(٣) حديث « أخاف على أمتي بعدى ثلاثاً : حيف الأئمة ... الحديث » أخرجه ابن عبد البر من حديث أبي محجن بإسناد ضعيف

وينمحي ذكر الله سبحانه عن القلب ، فإن الضميف يقصر نظره على الوسائط ، والعالم الراسخ هو الذى يطالع على أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره سبحانه وتعالى ، ومثال نظر الضميف إلى حصول ضوء الشمس عقيب طلوع الشمس ، مثال التلمة لو خلق لها عقل وكانت على سطح قرطاس وهى تنظر إلى سواد الخط يتجدد ، فتعتقد أنه فعل القلم ولا تترقى فى نظرها إلى مشاهدة الأصابع ، ثم منها إلى اليد ، ثم منها إلى الإرادة المحركة اليد ، ثم منها إلى الكاتب القادر المرید ، ثم منه إلى خالق اليد والقدرة والإرادة ؛ فأكثر نظر الخلق مقصور على الأسباب القريبة السافلة . مقطوع من الترقى إلى مسبب الأسباب ؛ فهذا أحد أسباب النهى عن النجوم . وثانيها : أن أحكام النجوم تخمين محض ليس يدرك فى حق آحاد الأشخاص لا يقيناً ولا طناً ، فالحكم به حكم بجهل ، فيكون ذمه على هذا من حيث إنه جهل لا من حيث إنه علم ، فلقد كان ذلك معجزة لإدريس عليه السلام فيما يحكى وقد اندرس وانمحي ذلك العلم وانمحق ، وما يتفق من إصابة المجمع على ندور فهو اتفاق لأنه قد يطالع على بعض الأسباب ولا يحصل المسبب عقيبها إلا بعد شروط كثيرة ليس فى قدرة البشر الاطلاع على حقائقها ، فإن اتفق أن قدر الله تعالى بقية الأسباب وقعت الإصابة ، وإن لم يقدر خطأ ، ويكرن ذلك كتخمين الإنسان فى أن السماء تمطر اليوم مهما رأى الغيم يجتمع وينبعث من الجبال فيتحرك ظنه بذلك ، وربما يحمى النهار بالشمس ويذهب الغيم ، وربما يكون بخلافه ، ومجرد الغيم ليس كافياً فى مجيء المطر وبقية الأسباب لا تدرى ، وكذلك تخمين الملاح أن السفينة تسلم اعتماداً على ما ألفه من العادة فى الرياح ولتلك الرياح أسباب خفية هو لا يطالع عليها ، فتارة يصيب فى تخمينه وتارة يخطئ ، ولهذا العلة يمنع القول عن النجوم أيضاً . وثالثها : أنه لا فائدة فيه ، فأقل أحواله أنه خوض فى فضول لا يعنى وتضييع العمر الذى هو أنفس بضاعة الإنسان فى غير فائدة وذلك غاية الخسران ؛ فقد مر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل والناس مجتمعون عليه فقال « ما هذا ؟ فقالوا : رجل علامة . فقال : بماذا ؟ قالوا بالشعر وأنساب العرب . فقال : علم لا ينفع وجهل لا يضر^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إنما العلم آية محكمة أو سنة قائمة أو فريضة عادلة ، فإذا خروا فى النجوم وما يشبهه اقتحام خطر وخوض فى جهالة من غير فائدة ، فإن ما قدر كائن ، والاحتراز منه غير ممكن ، بخلاف الطب فإن الحاجة ماسة إليه وأكثر أدلته بما يطالع عليه ، وبخلاف التعبير وإن كان تخميناً لأنه جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ولا خطر فيه (السبب الثالث) الخوض فى علم لا يستفيد الخائض فيه فائدة علم ، فهو مذموم فى حقه كتعلم دقيق العلوم قبل جليلها ، وخفيها قبل جليلها ، وكالبحث عن الأسرار الإلهية ، إذ يطالع الفلاسفة والمتكلمون إليها ولم يستقلوا بها ، ولم يستقل بها وبالوقوف على طرق بعضها إلا الأنبياء والأولياء ، فيجب كف الناس عن البحث عنها وردهم إلى ما نطق به الشرع ، ففى ذلك مقنع للوفيق ، فكم من شخص خاض فى العلوم واستضر بها ولولم يخض فيها لكان حاله أحسن فى الدين مما صار إليه ولا ينكر كون العلم ضاراً لبعض الناس كما يضر لحم الطير وأنواع الحلوى اللطيفة بالصلى الرضيع ، بل رب شخص ينفعه الجهل ببعض الأمور ، فلقد حكى أن بعض الناس شكاً إلى طيب عقم امرأته وأنها لا تلد ، فجلس الطيب نبضها وقال : لا حاجة لك إلى دواء الولادة فانك ستموتين إلى

(١) حديث : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل والناس مجتمعون فقال « ما هذا ؟ فقالوا : رجل علامة ... الحديث » أخرجه ابن عبد البر من حديث ابن مبررة وصعبه . وفى آخر الحديث « إنما العلم آية محكمة ... إلى آخره » ومدته القطعة عند أبي داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو

أربعين يوماً ، وقد دل النبض عليه ، فاستشعرت المرأة الخوف العظيم وتخصص عليها عيشها ، وأخرجت أمواليها وفرقتها ، وأوصت ، وبقيت لا تأكل ولا تشرب حتى انقضت المدة فلم تمت ، لحاء زوجها إلى الطبيب وقال له : لم تمت ، فقال الطبيب : قد علمت ذلك لجامعها الآن فإنها تلد ؛ فقال : كيف ذلك؟ قال : رأيتها سميئة وقد انعقد الشحم على مم رحها ، فعلمت أنها لا تهزل إلا بحوف الموت ، فحوفتها بذلك حتى هزلت وزال المانع من الولادة : فهذا ينهك على استشعار خطر بعض العلوم ويفهمك معنى قوله صلى الله عليه وسلم « نعوذ بالله من علم لا ينفع »^(١) ، فاعتبر بهذه الحكاية ولا تكن مجاثماً عن علوم ذمها الشرع وزحر عنها ، ولازم الاقتداء بالصحابه رضى الله عنهم ، واقتصر على اتباع السنة ، فالسلامة في الاتباع ، والخطر في البحث عن الأشياء والاستقلال ، ولا تنكر الحجج برأيك ومعتوك ودليلك وبرهانك وزعمك أني أبحث عن الأشياء لأعرفها على ما هي عليه ، فأى ضرر في التفكير في العلم فإن ما يعود عليك من ضرره أكثر ، وكم من شيء تطلع عليه فيضرك اطلاعك عليه ضرراً يكاد يهلكك في الآخرة إن لم يتداركك الله برحمته . واعلم أنه كما يطلع الطبيب الحاذق على أسرار في المعالجات يستبعد ما من لا يعرفها فكذلك الأنبياء أطباء القلوب والعلماء بأسباب الحياة الآخروية ، فلا تتحكم على سننهم بمعتوك فتهلك ، فكم من شخص يصيبه عارض في أصبعه فيقتضى عقله أن يطلبه ، حتى يذهب الطبيب الحاذق أن علاجه أن يطفى الكف من الجانب الآخر من البدن فيستبعد ذلك غاية الاستبعاد من حيث لا يعلم كيفية انشعاب الأعصاب ومنابتها ووجه التفافها على البدن ؟ فهكذا الأمر في طريق الآخرة ، وفي دقائق سنن الشرع وآدابه ، وفي عقائده التي تعبد الناس بها أسرار ولطائف ليست في سعة العقل وقوته الإحاطة بها ، كما أن في خواص الأحجار أموراً عجائب غاب عن أهل الصنعة عليها حتى لم يقدر أحد على أن يعرف السبب الذي به يجذب المغناطيس الحديد ؛ فالعجائب والغرائب في العقائد والأعمال ، وإفادتها لصفاء القلوب ونقاها وطهارتها وتركيتها وإصلاحها للترقى إلى جوار الله تعالى وتعرضها لنفحات فضله أكثر وأعظم مما في الأدوية والعقاقير ، وكما أن العقول تقصر عن إدراك منافع الأدوية مع أن التجربة سبيل إليها فبالعقول تقصر عن إدراك ما ينفع في حياة الآخرة مع أن التجربة غير متطرفة إليها ، وإنما كانت تتطرق إليها لورجع إلينا بعض الأموات فأخبرنا عن الأعمال المقبولة النافعة المقربة إلى الله تعالى زلني وعن الأعمال المبعدة عنه ، وكذا عن العقائد ، وذلك مما لا يطمع فيه فيكفيك من منفعة العقل أن يهديك إلى صدق النبي صلى الله عليه وسلم ويفهمك موارد إشاراته ، فاحزل العقل بعد ذلك عن التصرف ولازم الاتباع فلا تسلم إلا به والسلام ؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إن من العلم جهلاً وإن من القول عيا »^(٢) ، ومعلوم أن العلم لا يكون جهلاً ولكنه يؤثر تأمير الجهل في الإضرار . وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم « قليل من التوفيق خير من كثير من العلم »^(٣) ، وقال عيسى عليه السلام : ما أكثر الشجر وليس كلها بثمر وليس كلها بطيب ، وما أكثر العلوم وليس كلها بنافع !

بيان ما بديل من ألقاظ العلوم

اعلم أن منشأ التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية تحريف الأسماء المحمودة وتبديلها ونقلها بالأغراض

(١) حديث « نعوذ بالله من علم لا ينفع » أخرجه ابن عبد البر من حديث جابر بسند حسن ، وهو عند ابن ماجه بلفظ « نعوذوا » وقد تقدم . (٢) حديث « إن من العلم جهلاً ... الحديث » رواه أبو داود من حديث بريدة وفي أسناده من يجهل . (٣) حديث « قليل من التوفيق خير من كثير من العلم » لم أجده أصلاً ، وقد ذكره صاحب الدرر من حديث أبي الدرداء ، وقال « العقل بدل العلم » ، ولم يخرج له ولده في مسنده

الفاسدة إلى معان غير ما أرادها السلف الصالح والقرن الأول ، وهي خمسة ألفاظ : الفقه ، والعلم ، والتوحيد ، والتذكير ، والحكمة ؛ فهذه أسام محمودة ، والمتصفون بها أرباب المناصب في الدين ، ولكنها نقلت الآن إلى معان مذمومة ، فصارت القلوب تنفر عن مذمة من يتصف بمعانيها ليشيوع لإطلاق هذه الاسام عليهم (اللفظ الأول) الفقه ؛ فقد تصرفوا فيه بالتخصيص لا بالنقل والتحويل ؛ إذا خصصوه بمعرفة الفروع الغريبة في الفتاوى والوقوف على دقائق علما واستكثار الكلام فيها وحفظ المقالات المتعلقة بها ؛ فن كان أشد تعمقا فيها وأكثر اشتغالا بها يقال هو الأفتة ، واند كان اسم الفقه في العصر الأول مطلقا على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الاعمال وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على القلب ؛ ويدلك عليه قوله عز وجل ﴿ ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ﴾ وما يحصل به الإنذار والتخويف هو هذا الفقه دون تفريدات الطلاق والعتاق واللعان والسلم والإجارة ؛ فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف ، بل التجرد له على الدوام يقسى القلب وينزع الخشية منه كما نشاهد الآن من المتجردين له . وقال تعالى ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ﴾ وأراد به معاني الإيمان دون الفتاوى ؛ ولعمري إن الفقه والفهم في اللغة اسمان بمعنى واحد ، وإنما يتكلم في عادة الاستعمال به قديما وحديثا . قال تعالى ﴿ لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ﴾ الآية ؛ فأحال قلة خوفهم من الله واستعظامهم سطوة الخلق على قلة الفقه ؛ فانظر إن كان ذلك نتيجة عدم الحفظ لتفريعات الفتاوى ، أو هو نتيجة عدم ما ذكرناه من العلوم . وقال صلى الله عليه وسلم « علماء فقهاء ^(١) ، للذين وفدوا عليه . وسئل سعد بن إبراهيم الزهري رحمه الله أى أهل المدينة أفتة ؟ فقال : أفتاهم الله تعالى ؛ فكأنه أشار إلى ثمرة الفقه ، والتقوى ثمرة العلم الباطني دون الفتاوى والأفضية . وقال صلى الله عليه وسلم « ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه ؟ قالوا بلى ، قال : من لم يقنط الناس من رحمة الله ، ولم يؤمنهم من مكر الله ، ولم يؤسهم من روح الله ، ولم يدع القرآن رغبة منه إلى مساواه ^(٢) ، ولما روى أنس بن مالك قوله صلى الله عليه وسلم « لأن أقعد مع قوم يذكرون الله تعالى من غدوة إلى طلوع الشمس أحب إلى من أن أعتق أربع رقاب ^(٣) » ، قال : فالتفت إلى زيد الرقاشي وزياد الغيري وقال : لم تكن مجالس الذكر مثل مجالسكم هذه يقص احدكم وعظه على أصحابه ويسرد الحديث سردا ، إنما كنا نقعد فنذكر الإيمان وتدبر القرآن وتتفقه في الدين ونعد نعم الله علينا تفقها ، فسمى تدبر القرآن وعد النعم تفقها . قال صلى الله عليه وسلم « لا يفقه العبد كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله ، وحتى يرى للقرآن وجوها كثيرة ^(٤) » ، وروى أيضا موقوفا على أبي الدرداء رضى الله عنه مع قوله « ثم يقبل على نفسه فيكون لها أشد متنا ، وقد سأل فرقد السبخي الحسن عن الشيء فأجاب ، فقال : إن الفقهاء يخالفونك ؛ فقال الحسن رحمه الله : تمكثك أمك فريقد ، وهل رأيت فقيها بعينك ؟ إنما الفقيه الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة البصير بدينه المداوم على عبادة ربه الورع الكاف نعمة عن أعراض المسلمين العفيف عن أموالهم الناصح لجماعتهم ؛ ولم يقل في جميع ذلك : الحافظ لفروع الفتاوى ، ولست أقول إن اسم الفقه لم يكن متناولا للفتاوى في الأحكام الظاهرة ، ولكن كان بطريق

(١) حديث « علماء حكماء فقهاء » رواه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الزهد ، والحلي في التاريخ من حديث سويد بن الحارث بإسناد ضعيف (٢) حديث « ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه ... الحديث » رواه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق ، وأبو بكر بن السنن وابن عبد البر من حديث علي . وقال ابن عبد البر : أكثرهم يوقفونه عن علي (٣) حديث أنس « لأن أقعد مع قوم يذكرون الله تعالى من غدوة إلى طلوع الشمس ... الحديث » رواه أبو داود بإسناد حسن . (٤) حديث « لا يفقه العبد كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله ... الحديث » أخرجه ابن عبد البر من حديث شداد بن أوس وقال : لا يصح منه وما .

العموم والشمول أو بطريق الاستتباع ؛ فكان لإطلاقهم له على علم الآخرة أكثر . فبان من هذا التخصيص تليس بعث الناس على التجرد له والإعراض عن علم الآخرة وأحكام القلوب ، ووجدوا على ذلك معيناً من الطبع ، فإن علم الباطن غامض والعمل به عسير ، والتوصل به إلى طلب الولاية والقضاء والجاه والمال متعذر ، فوجد الشيطان مجالاً لتحسين ذلك في القلوب بواسطة تخصيص اسم الفقه الذي هو اسم محمود في الشرع (اللفظ الثاني) العلم : وقد كان يطلق ذلك على العلم بالله تعالى وبآياته وبأفعاله في عباده وخلقه ، حتى أنه لما مات عمر رضى الله عنه قال ابن مسعود رحمه الله ، لقد مات تسعة أعشار العلم فمترفه بالآلاف واللام ثم فسره العلم بالله سبحانه وتعالى ، وقد تصرفوا فيه أيضاً بالتخصيص حتى شهروه في الأكثر بمن يشتغل بالمناظرة مع الخصوم في المسائل الفقهية وغيرها ؛ فيقال : هو العالم على الحقيقة ، وهو الفحل في العلم ، ومن لا يمارس ذلك ولا يشتغل به يعد من حملة الضعفاء ولا يعدونه في زمرة أهل العلم . وهذا أيضاً تصرف بالتخصيص ، ولكن ما ورد من فضائل العلم والعلماء أكثره في العلماء بالله تعالى وبأحكامه وبأفعاله وصفاته . وقد صار الآن مطلقاً على من لا يحيط من علوم الشرع بشيء سوى رسوم جدلية في مسائل خلافية ، فيعد بذلك من فحول العلماء مع جهله بالتفسير والأخبار وعلم المذهب وغيره ، وصار ذلك سبباً مهلكاً لخلق كثير من أهل الطلب للعلم (اللفظ الثالث) التوحيد : وقد جعل الآن عبارة عن صناعة الكلام ومعرفة طريق المجادلة والإحاطة بطرق مناقضات الخصوم والقدرة على التشنق فيها بتكثير الأسئلة وإثارة الشبهات وتأليف الإلزامات ، حتى لقب طوائف منهم أنفسهم بأهل العدل والتوحيد وسمى المتكلمون العلماء بالتوحيد ، مع أن جميع ما هو خاصة هذه الصناعة لم يكن يعرف منها شيء في العصر الأول بل كان يشتد منهم التكبير على من كان يفتح باباً من الجدل والمهارة ؛ فأما ما يشتمل عليه القرآن من الأدلة الطاهرة التي تسبق الأذهان إلى قبولها في أول السماع فلقد كان ذلك معلوماً للكل ، وكان العلم بالقرآن هو العلم كله ، وكان التوحيد عندهم عبارة عن أمر آخر لا يفهمه أكثر المتكلمين ، وإن فهموه لم يتصفوا به : وهو أن يرى الأمور كلها من الله عز وجل رؤية تقطع التفاته عن الأسباب والوسائط ، فلا يرى الخير والشركه إلا منه جل جلاله ؛ فهذا مقام شريف لإحدى ثمراته التوكل كما سيأتي بيانه في كتاب التوكل . ومن ثمراته أيضاً ترك شكايه الخلق ، وترك الغضب عليهم ، والرضا والتسليم لحكم الله تعالى . وكانت إحدى ثمراته قول أنى بكر الصديق رضى الله عنه لما قيل له في مرضه أنظلك لك طبيبياً فقال : الطيب أمرضى ، وقول آخر لما مرض فقيل له ماذا قال لك الطبيب في مرضك ؟ فقال : قال لي إنى فعال لما أريد .

وسياتى في كتاب التوكل وكتاب التوحيد شواهد ذلك . والتوحيد جو هو نفيس وله قشران : أحدهما أهد عن اللب من الآخر ، فخصص الناس الاسم بالقشر وبصنعة الحراسة للقشر وأهملوا اللب بالكلية ؛ فالقشر الأول : هو أن تقول بلسانك لا إله إلا الله ، وهذا يسمى توحيداً مناقضاً للتثليث الذى صرح به النصارى ، ولكنه قد يصدر من المنافق الذى يخالف سره جهره . والقشر الثانى : أن لا يكون فى القلب مخالفة وإنكار لمفهوم هذا القول بل يشتمل ظاهر القلب على اعتقاده وكذلك التصديق به وهو توحيد عوام الخلق والمتكلمون كما سبق حراس هذا القشر عن تشويش المبتدعة . والثالث : وهو اللباب - أن يرى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع التفاته عن الوسائط ، وأن يعبد عبادة يفرد بها فلا يعبد غيره ، ويخرج عن هذا التوحيد أتباع الهوى ، فكل متبع هواه فقد اتخذ هواه معبوده . قال الله تعالى ﴿ أهرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « أبيض إله عبد فى الأرض »

(٥ - إحياء علوم الدين - ١)

عند الله تعالى هو الهوى ^(١) ، وعلى التحقيق من تأمل عرف أن عابد الصنم ليس يعبد الصنم وإنما يعبد هواه ، إذ نفسه مائلة إلى دين آباؤه فيتبع ذلك الميل ، ويميل النفس إلى المألوفات أحد المعاني التي يعبر عنها بالهوى ، ويخرج من هذا التوحيد التسنخ على الخلق والاتفات إليهم ، فإن من يرى الشكل من الله عز وجل كيف يتسنخ على غيره ، فلقد كان التوحيد عبارة عن هذا المقام وهو مقام الصديقين ، فانظر إلى ماذا حول وبأى قشر قنع منه ، وكيف اتخذوا هذا معتصماً في التمدح والتفاخر بما اسمه محمود مع الإفلاس عن المعنى الذي يستحق الحمد الحقيقي ، وذلك كإفلاس من يصبح بكرة ويتوجه إلى القبلة ويقول ﴿ وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض خنيماً ﴾ وهو أول كذب يماخ الله به كل يوم إن لم يكن وجه قلبه متوجهاً إلى الله تعالى على الخصوص : فإنه إن أراد بالوجه وجه الظاهر فما وجهه إلا إلى الكعبة وما صرفه إلا عن سائر الجهات ، والكعبة ليست جهة للذي فطر السموات والأرض . حتى يكون المتوجه إليها متوجهاً إليه ، تعالى عن أن تحده الجهات والأقطار . وإن أراد به وجه القلب وهو المطلوب المتعبد به فكيف يصدق في قوله وقلبه متردد في أوطاره وحاجاته الدنيوية ومتصرف في طلب الخيل في جمع الأموال والجاه واستكثار الأسباب ، ومتوجه بالكلية إليها ، فتى وحه وجهه للذي فطر السموات والأرض وهذه الكلمة خبر عن حقيقة التوحيد ، فالمرحده هو الذي لا يرى إلا الواحد ولا يوجه وجهه إلا إليه ، وهو امتثال قوله تعالى ﴿ قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾ وليس المراد به القول باللسان ، وإنما اللسان ترجمان يصدق مرة ويكذب أخرى . وإنما موقع نذر الله تعالى المترجم عنه هو القلب ، وهو معدن التوحيد ومنبعه (اللفظ الرابع) الذكر والتذكير ، فقد قال الله تعالى ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ وقد ورد في الثناء على مجالس الذكر أحبار كثيرة كقوله صلى الله عليه وسلم : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا . قيل : وما رياض الجنة ؟ قال . مجالس الذكر » ^(٢) ، وفي الحديث : « إن لله تعالى ملائكة سياحين في الدنيا سوى ملائكة الخلق إذا رأوا مجالس الذكر ينادي بعضهم بعضاً ألا هلموا إلى بعيتكم فأتونهم ويخفون بهم ويستمعون . ألا فاذكروا الله وذكروا أنفسكم » ^(٣) ، ونقل ذلك إلى ما ترى أكثر العواظ في هذا الزمان يواظبون عليه وهو القصص والأشعار والتطعم والطامات ، أما القصص فهي بدعة ، وقد وردت في السلف عن الحلوس إلى القصص وقالوا لم يكن ذلك في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٤) ولا في زمن أبي بكر ولا عمر رضي الله عنهما ، حتى ظهرت الفتنة وظهر القصص وروى أن ابن عمر رضي الله عنهما حرج من المسجد فقال : ما أخرجني إلا القاص ولولاه لما خرجت . وقال ضمرة : قلت لسفيان الثوري نستقبل القاص بوحدهنا ؟ فقال ولوا البدع ظهوركم ، وقال ابن عون : دخلت على ابن سيرين فقال : ما كان اليوم من خبر ؟ فقلت : نهى الأمير القصاص أن يقصوا . فقال : وفق للصواب . ودخل الأعمش جامع البصرة فرأى قاصاً يقص ويقول : حدثنا الأعمش ، فتوسط الحلقة وجعل يلتفت شعر لبطه ، فقال القاص ، يا شيخ ، ألا تستحي ؟ فقال : لم ؟ أنا في سنة وأنت في كذب ، أنا الأعمش وما حدثتك وقال أحد ، أكثر الناس كذباً القصاص والسؤال . وأخرج علي رضي الله عنه القصاص من مسجد جامع البصرة ،

(١) حديث « أهدس له عد في الأرض عند الله هو الهوى » أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة بإسناد ضعيف .

(٢) حديث « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ... الحديث » أخرجه الترمذي من حديث أس وحسنه .

(٣) حديث « إن لله ملائكة سياحين في الهواء سوى ملائكة الخلق ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة دون قوله في الهواء والترمذي « سياحين في الأرض » وقال مسلم سياره .

(٤) حديث : لم تكن القصص في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم . رواه ابن ماجه من حديث عمر بإسناد حسن

فلما سمع كلام الحسن البصرى لم يخرجه إذا كان يتكلم في علم الآخرة والتفكير بالموت والتفنيه على عيوب النفس وآفات الأعمال وخواطر الشيطان ووجه الخذر منها ويذكر بآلاء الله ونعمائه وتقصير العبد في شكره ويعرف حقارة الدنيا وعبوبها وتصرفها ونكث عهدها وخطر الآخرة وأهوالها ، فهذا هو التذكير المحمود شرعا الذى روى الحث عليه في حديث أبي ذر رضى الله عنه حيث قال « حضور مجلس ذكر أفضل من صلاة ألف ركعة . وحضور مجلس علم أفضل من عيادة ألف مريض ، وحضور مجلس علم أفضل من شهود ألف جنازة ، فقيل : يا رسول الله ، ومن قراءة القرآن ؟ قال : وهل تنفع قراءة القرآن إلا بالعلم ^(١) ، وقال عطاء رحمه الله : مجلس ذكر يكفر سبعين مجلسا من مجالس اللهو ، فقد اتخذ المزخرفون هذه الأحاديث حجة على تزكية أنفسهم ، ونقلوا اسم التذكير إلى خرافاتهم : وذهلوا عن طريق الذكر المحمود ، واشتغلوا بالقصص التى تتطرق إليها الاختلافات والزيادة والتقص وتخرج عن القصص الواردة في القرآن وتزيد عليها ، فان من القصص ما ينفع سماعه ، ومنها ما يضر وإن كان صدقا . ومن فتح ذلك الباب على نفسه اختلط عليه الصدق بالكذب والنافع بالضار ، فمن هذا نهى عنه ، ولذلك قال أحمد بن حنبل رحمه الله : ما أوحج الناس إلى قاص صادق ، فان كانت القصة من قصص الأنبياء عليهم السلام فيما يتعلق بأموال دينهم وكان القاص صادقا صحيح الرواية فليست أرى بها بأسا ، فليحذر الكذب وحكايات أحوال تولى إلى هفوات أو مساهلات يقصر فهم العوام عن درك ممانيتها أو عن كونها هفوة نادرة مردفة بتفكيرات متداركة بحسنات تغطي عليها ، فان العامى يعتصم بذلك في مساهلاته وهفواته ، ويمهد لنفسه عذرا فيه ، ويحتج بأنه حكي كيت وكيت عن بعض المشايخ وبعض الأكابر ، فكلنا لصدد المعاصى ، فلا غرو إن عصيت الله تعالى فقد عصاه من هو أكبر منى ، ويفيده ذلك جراءة على الله تعالى من حيث لا يدري ، فبعد الاحتراز عن هذين المخذورين فلا بأس به ، وعند ذلك يرجع إلى القصص المحمودة وإلى ما يشتمل عليه القرآن ، ويصح في الكتب الصحيحة من الأخبار ، ومن الناس من يستحيز وضع الحكايات المرغبة في الطاعات ويزعم أن قصده فيها دعوة الخلق إلى الحق ، فهذه من نزعات الشيطان ، فإن في الصدق مندوحة عن الكذب ، وبما ذكر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم غنية عن الاختراع في الوعظ ، كيف وقد كره تكلف السجع وعند ذلك من التصنع . قال سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه لابنه عمر وقد سمعه يسجع - : هذا الذى يبغضك إلى لا فضيت حاجتك أبدا حتى تتوب - وقد كان جاءه في حاجة - وقد قال صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن رواحة في سجع من ثلاث كلمات « لياك والسجع يا ابن رواحة ^(٢) ، فكان السجع المخذور المتكلف ما زاد على كلمتين : ولذلك لما قال الرجل في دية الجنين : كيف ندى من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح ولا استهل ، ومثل ذلك بطل . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « أجمع كسجع الأعراب ^(٣) ، وأما الأشعار فتكثيرها في المواعظ مذموم . قال الله تعالى ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون ﴾ ألم تر أنهم في كل واد يبيمون ﴿ وقال تعالى ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾ وأكثر ما اعتاده الوعاظ من الأشعار : ما يتعلق بالتواصف في العشق وجمال المعشوق وروح الوصال وألم الفراق ، والمجلس لا يحوى إلا أجلافا العوام ، وبواطنهم مشحونة بالشهوات ، وقلوبهم غير منفكة عن الالتفات إلى الصور المليحة ؛ فلا تحرك الأشعار من قلوبهم إلا ما هو مستكن

(١) حديث أبي ذر « حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة » تقدم في الباب الأول

(٢) حديث « لياك والسجع يا ابن رواحة » لم أجده هكذا ، ولأحمد وأبو داود وابن السني وأبو نعيم في كتاب الرياضة من حديث عائشة بإسناد صحيح أنها قالت للمائب لياك والسجع فان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا لا يسجعون ولا ينحبان واجتنب السجع ، وفي البخارى نحوه من قول ابن عباس (٣) حديث « أجمع كسجع الأعراب » أخرجه مسلم من حديث المغيرة

فيها فقتشعل فيها نيران الشهوات ، فيزعقون ويتواجدون ؛ وأكثُر ذلك أو كله يرجع إلى نوع فساد ، فلا ينبغي أن يستعمل من الشعر إلا ما فيه موعظة أو حكمة على سبيل استشهاد واستئناس . وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن من الشعر لحكمة (١) » ، ولو حوى المجلس الخواص الذين وقع الاطلاع على استغراق قلوبهم بحب الله تعالى ولم يكن معهم غيرهم ، فإن أوامك لا يضر معهم الشعر الذى يشير ظاهره إلى الخلق ، فإن المستمع ينزل كل ما يسمعه على ما يستولى على قلبه ، كما سيأتى تحقيق ذلك فى كتاب السماع ، ولذلك كان الجنيد رحمه الله يتكلم على بضعة عشر رجلا ، فإن كثروا لم يتكلم ، وما تم أهل مجلسه قط عشرين وحضر جماعة باب دار ابن سالم ، فقيل له : تكلم فقد حضر أصحابك ، فقال : لا ، ما هؤلاء أصحابي ، إنما هم أصحاب المجلس ، إن أصحابي هم الخواص : وأما الشطح : فغنى به صنفين من الكلام أحدثه بعض الصوفية (أحدهما) الداوى الطويلة العريضة فى العشق مع الله تعالى والوصال المغنى عن الأعمال الظاهرة حتى ينتهى قوم إلى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجاب والمشاهدة بالرؤية والمشاهدة بالخطاب ، فيقولون : قيل لنا كذا ، وقلنا كذا ، ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلاج الذى صلب لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس ، ويستشهدون بقوله أنا الحق ، وبما حكى عن أبي يزيد البسطامى أنه قال سبحان سبحان ، وهذا فن من الكلام عظيم ضرره فى العوام ، حتى ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم وأظهروا مثل هذه الداوى ، فإن هذا الكلام يستلذه الطبع إذ فيه البطالة من الأعمال مع تزكية النفس بدرك المقامات والأحوال ، فلا تعجز الأغبياء عن دعوى ذلك لأنفسهم ولا عن تلفف كلمات مخبلة مزحرفة ، ومهما أنكر عليهم ذلك لم يعجزوا عن أن يقولوا : هذا إنكار مصدره العلم والجدال ، والعلم حجاب ، والجدال عمل النفس ، وهذا الحديث لا يلوح إلا من الباطن بمكاشفة نور الحق ، فهذا ومثله مما قد استطار فى البلاد شرره وعظم فى العوام ضرره ، حتى من نطق بشيء منه فقتله أفضل فى دين الله من إحياء عشرة ، وأما أبو يزيد البسطامى رحمه الله فلا يصح عنه ما يحكى وإن سمع ذلك منه فلعله كان يحكىه عن الله عز وجل فى كلام يردده فى نفسه ، كما لو سمع وهو يقول « لئنى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى ، فإنه ما كان ينبغي أن يفهم منه ذلك إلا على سبيل الحكاية (الصنف الثانى) من الشطح كلمات غير مفهومة لها ظواهر راقية وفيها عبارات هائلة وليس وراءها طائل ، إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها بل يصدرها عن خبط فى عقله وتشويش فى خياله لقلته إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه وهذا هو الأكثر . وإما أن تكون مفهومة له ولكنه لا يقدر على تفهيمها وإيرادها بعبارة تدل على ضميره ، لقلته ممارسته للعلم وعدم تعلمه طريق التعبير عن المعانى بالألفاظ الرشيقة ، ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلا أنه يشوش القلوب ويدهش العقول ويحير الأذهان ، أو يحمل على أن يفهم منها معانى ما أريدت بها ويكون فهم كل واحد على مقتضى هواه وطبعه . وقد قال صلى الله عليه وسلم « ما حدث أحدكم قوما بحديث لا يفقهونه إلا كان فتنة عليهم (٢) » ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم « كلوا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون أتريدون أن يكذب الله ورسوله (٣) » ، وهذا فيما يفهمه صاحبه ولا يبلغه عقل المستمع ، فكيف فيما لا يفهمه قائله . فإن كان يفهمه القائل دون المستمع فلا يحل ذكره . وقال عيسى

(١) حديث « إن من الشعر لحكمة » أخرجه البخارى من حديث أبي بن كعب

(٢) حديث « ما حدث أحدكم قوما بحديث لا يفقهونه إلا كان فتنة عليهم » رواه العقيلي فى الضعفاء وابن السنى وأبو نعيم فى الرىاء من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف ، واسلم فى مقدمة صحيحه موقوفا على ابن مسعود (٣) حديث « كلوا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون ... الحديث » رواه البخارى موقوفا على على ، ورقمه أبو منصور الديلى فى مستند الفردوس من طريق أبي نعيم

عليه السلام : لاتضعوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ، كونوا كالطبيب الرفيق يضع الدواء في موضع الداء . وفي لفظ آخر من وضع الحكمة في غير أهلها فقد جهل ، ومن منعها أهلها فقد ظلم ؛ إن للحكمة حقا وإن لها أهلا ، فأعط كل ذي حق حقه . وأما الطامات فيدخلها ما ذكرناه في الشطح ؛ وأمر آخر يخصها وهو صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة لا يسبق منها إلى الأفهام فائدة ، كدأب الباطنية في التأويلات ؛ فهذا أيضا حرام وضرره عظيم ؛ فإن الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ وسقط به منفعة كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ فإن ما يسبق منه إلى الفهم لا يوثق به والباطن لا يضبط له ، بل تتعارض فيه الخواطر ويمكن تنزيله على وجوه شتى ؛ وهذا أيضا من البدع الشائعة العظيمة الضرر ، وإنما قصد أصحابها الإغراب ؛ لأن النفوس مائلة إلى الغريب ومستلذة له ؛ وبهذا الطريق توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها وتنزيلها على رأيهم كما حكيناه من مذاهبهم في كتاب المستظهر المصنف في الرد على الباطنية . ومثال تأويل أهل الطامات قول بعضهم في تأويل قوله تعالى ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ أنه إشارة إلى قلبه وقال هو المراد فرعون وهو الطاعى على كل إنسان . وفي قوله تعالى ﴿ وأن ألق عصاك ﴾ أى ما يتوكل عليه ويعتمده مما سوى الله عز وجل فينبغى أن يليقه . وفي قوله صلى الله عليه وسلم « تسجروا فإن في السحور بركة »^(١) ، أراد به الاستغفار في الأسحار وأمثال ذلك حتى يحرفون القرآن من أوله إلى آخره عن ظاهره ، وعن تفسيره المنقول عن ابن عباس وسائر العلماء وبعض هذه التأويلات يعلم بطلانها قطعاً ، كتنازل فرعون على القلب ؛ فإن فرعون شخص محسوس تواتر إلينا النقل بوجوده ودعوة موسى له وكأبي جهل وأبي لهب وغيرهما من الكفار وليس من جنس الشياطين والملائكة فلم يدرك بالحس حتى يتطرق التأويل إلى ألفاظه ، وكذا حمل السحور على الاستغفار ، فإنه كان صلى الله عليه وسلم يتناول الطعام ويقول : تسجروا^(٢) ، وهلموا إلى الغذاء المبارك^(٣) ، فهذه أمور يدرك بالتواتر والحس بطلانها نقلاً ، وبعضها يعلم بغالب الظن ، وذلك في أمور لا يتدلى بها الإحساس ؛ فكل ذلك حرام وضلالة وإفساد للدين على الخلق ، ولم ينقل شيء من ذلك عن الصحابة ولا عن التابعين ولا عن الحسن البصرى مع إكبابه على دعوة الخلق ووعظهم ، فلا يظهر لقوله صلى الله عليه وسلم « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار »^(٤) ، معنى إلا هذا الخط ؛ وهو أن يكون عرصه ورأيه تقرير أمر وتحقيقه ، فيستجر شهادة القرآن إليه ، ويحمله عليه ، من غير أن يشهد لتنزيله عليه دلالة لفظية لغوية أو نقلية ، ولا ينبغى أن يفهم منه أنه يجب أن لا يفسر القرآن بالاستنباط والفكر ، فإن من الآيات ما نقل فيها عن الصحابة والمفسرين حسنة معان وستة وسبعة . ونعلم أن جميعها غير مسموع من النبي صلى الله عليه وسلم ، فإنها قد تكون متنافية لا تقبل الجمع ، فيكون ذلك مستنبطاً بحسن الفهم وطول الفكر ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضى الله عنه « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل »^(٥) ،

(١) حديث « تسجروا فإن في السحور بركة » متفق عليه من حديث أنس (٢) حديث « تناول الطعام و السحور » رواه البخارى من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم وزيد بن ثابت تسجراً (٣) حديث « هلموا إلى الغذاء المبارك » رواه أبو داود والنسائي وابن حبان من حديث العراب بن سارية وضعفه ابن القطان .

(٤) حديث « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » أخرجه الترمذى من حديث ابن عباس وحسنه ، وهو عند أبي داود من رواية ابن العبد ، وعند النسائي في الكبرى (٥) حديث « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » قاله لابن عباس رواه البخارى من حديث ابن عباس دون قوله « وعلمه التأويل » وهو بهذه الرياء عند أحمد وابن حبان والحاكم وقال صحيح الإسناد

ومن يستجيز من أهل الطامات مثل هذه التأويلات مع علمه بأنها غير مرادة بالألفاظ ويرغم أنه يقصد بها دعوة الخلق إلى الخالق يضاهاى من يستجيز الاختراع والوضع على رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هو في نفسه حق ولكن لم ينطق به الشرع ، كن يضع في كل مسألة يراها حقا حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم فذلك ظلم وضلال ودخول في الوعيد المفهوم من قوله صلى الله عليه وسلم « من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار »^(١) ، بل الشر في تأويل هذه الألفاظ أطم وأعظم ، لأنها مبدلة للثمة بالألفاظ ، وقاطعة طريق الاستفادة والفهم من القرآن بالكلية فقد عرفت كيف صرف الشيطان دواعى الخلق عن العلوم المحمودة إلى المدمومة ، فكل ذلك من تلبيس علماء السوء بتبديل الأسمى فإن اتبعت هؤلاء اعتمادا على الاسم المشهور من غير التفات إلى ما عرف في العصر الأول كنت كمن طلب الشرف بالحكمة باتباع من يسمى حكيمًا ، فإن اسم الحكيم ، صار يطلق على الطيب والشاعر والمنجم في هذا العصر ، وذلك بالغفلة عن تبديل الألفاظ (اللفظ الخامس) وهو الحكمة ، فإن اسم الحكيم صار يطلق على الطيب والشاعر والمنجم حتى على الذى يدرج القرعة على أكف السوادية في شوارع الطرق . والحكمة هى التى أنهى الله عز وجل عليها فقال تعالى ﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « كلمة من الحكمة يتعلمها الرجل خير له من الدنيا وما فيها »^(٢) ، فانظر ما الذى كانت الحكمة عبارة عنه ، وإلى ماذا نقل ، وقس به بقية الألفاظ واحترز عن الاغترار بتلبيسات علماء السوء ، فإن شرهم على الدين أعظم من شر الشياطين ، إذ الشيطان بواسطتهم يتدرج إلى انتزاع الدين من قلوب الخلق ، ولهذا لما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شر الخلق أبى وقال « اللهم اغفر ، حتى كثرروا عليه فقال « هم علماء السوء »^(٣) ، فقد عرفت العلم الحمود والمذموم ومثار الالتباس وإليك الخيرة فى أن تنظر لنفسك فتقتدى بالسلف . أوتتدلى بحبل الغرور وتتشبه بالخلاف ، فكل ما ارتضاه السلف من العلوم قد اندرس ، وما أكب الناس عليه فأكثره مبتدع ومحدث ، وقد صح قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء » فقيل : ومن الغرباء ؟ قال ، الذين يصلحون ما أفسده الناس من سننى والذين يحيون ما أماتوه من سننى »^(٤) ، وفى آخر « هم المتمسكون بما أنتم عليه اليوم »^(٥) ، وفى حديث آخر « الغرباء ناس قليل صالحون بين ناس كثير ، من يبعضهم فى الخلق أكثر من يحبهم »^(٦) ، وقد صارت تلك العلوم غريبة بحيث يمت ذاكرها ، ولذلك قال الثورى رحمه الله : إذا رأيت العالم كثير الأصدقاء فاعلم أنه مخلط ، لأنه إن نطق بالحق أبغضوه .

بيان القدر الحمود من العلوم المحمودة

اعلم أن العلم بهذا الاعتبار ثلاثة أقسام : قسم هو مذموم قليله وكثيره وقسم هو محمود قليله وكثيره ، وكلما كان أكثر كان أحسن وأفضل وقسم يحمد منه مقدار الكفاية ولا يحمد الفاضل عليه والاستقصاء فيه ، وهو مثل

(١) حديث « من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » متفق عليه من حديث أنى هريرة وعلى وأس .
(٢) حديث « كلمة من الحكمة يتعلمها الرجل خير له من الدنيا » تقدم بحوه (٣) حديث لما سئل عن شر الخلق أبى وقال « اللهم اغفر » الحديث . رواه الدارمى بحوه من رواية الأحوس بن حكيم عن أبيه مرسل وهو ضعيف ، ورواه الثوري من حديث مما زاد سند ضعيف .
(٤) حديث « بدأ الإسلام غريبا .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث أنى هريرة مختصرا ، وهو بتامه عند الترمذى من حديث عمرو بن عوف وحسنه (٥) حديث « هم المتمسكون بما أنتم عليه اليوم » يقوله فى وصف الغرباء ، لم ار له أصلا .
(٦) حديث « الغرباء ناس قليلون صالحون » أخرجه أحمد بن حنبل من حديث عبد الله بن عمرو .

أحوال البدن ، فان منها ما يحمده قليله وكثيره كالصحة والحمال ، ومنها ما يدم قليله وكثيره كالقبح وسوء الخلق ، ومنها ما يحمده الاقتصاد فيه كبدل المال فان التبذير لا يحمده فيه وهو بذل ، وكالشجاعة فان التهور لا يحمده فيها ، وإن كان من جنس الشجاعة فكذلك العلم . فالقسم المذموم منه قليله وكثيره هو مالا فائدة فيه في دين ولا دنيا ، إذ فيه ضرر يغلب نفعه كعلم السحر والطلسمات والنجوم ، فبعضه لافائدة فيه أصلاً ، وصراف العمر الذي هو أنفوس ما يملكه الإنسان إليه إضاعة ، وإضاعة النفيس مذمومة . ومنه ما فيه ضرر يزيد على ما يظن أنه يحصل به من قضاء وطرف في الدنيا ، فان ذلك لا يعتد به بالإضافة إلى الضرر الحاصل عنه . وأما القسم المحمود إلى أقصى غايات الاستقصاء فهو العلم بالله تعالى وبصماته وأفعاله ، وسننه في خلقه . وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا ، فان هذا علم مطلوب لذاته وللتوصل به إلى سعادة الآخرة ، وبذل المقدور فيه إلى أقصى الجهد قصور عن حد الواجب ، فانه البحر الذي لا يدرك غوره وإنما يحوم الحائمون على سواحله وأطرافه بقدر ما يسر لهم ، وما خاص أطرافه إلا الأنبياء والأولياء والراشخون في العلم على اختلاف درجاتهم بحسب اختلاف قوتهم وتفاوت تقدير الله تعالى في حقهم ، وهذا هو العلم الممكنون الذي لا يسطر في الكتب ، ويعين على التنبيه له التعلم ومشاهدة أحوال علماء الآخرة ، كما سيأتي علامتهم ، هذا في أول الأمر ويعين عليه في الآخرة المحاهدة والرياضة وتصفية التلب وتفريغه عن علائق الدنيا والتشبه فيها بالأنبياء والأولياء ، ليتضح منه لسلك ساع إلى طله بقدر الرزق لا بقدر الجهد ولكن لاغنى فيه عن الاجتهاد ، فالمجاهدة مفتاح الهداية لا مفتاح لها سواها ، وأما العلوم التي لا يحمده منها إلا مقدار مخصوص فهي العلوم التي أوردناها في فروع الكفايات ، فإن في كل علم منها اقتصاراً وهو الأقل ، واقتصاداً وهو الوسط ، واستقصاء وراه ذلك الاقتصاد لا مرد له إلى آخر العمر ، فكن أحد رجلين : إما مشغولاً بنفسك ، وإما متفرغاً لغيرك بعد الفراغ من نفسك ، ولرباك أن تشتغل بما يصلح غيرك قبل إصلاح نفسك ، فان كنت المشغول بنفسك فلا تشتغل إلا بالعلم الذي هو فرض عليك بحسب ما يقتضيه حالك ، وما يتعلق منه بالأعمال الطاهرة من تعلم الصلاة والطهارة والصوم ، وإنما الأهم الذي أهمله الكل علم صفات القلب وما يحمده منها وما يدم ، إذ لا ينفك بشر عن الصفات المذمومة مثل الحرص والحسد والرياء والكبر والعجب وأخواتها وجميع ذلك مهلكات ، وإهمالها من الواجبات ، مع أن الاشتغال بالأعمال الظاهرة يضاهي الاشتغال بطلاء ظاهر البدن عند التأذى بالجرب والدمامل والتهاون بإخراج المادة بالمصد والإسهال ، وحسوية العلماء يشيرون بالأعمال الظاهرة كما يشير الطريقة من الأطباء بطلاء ظاهر البدن ، وعلماء الآخرة لا يشيرون إلا بتطهير الباطن وقطع مواد الشر بإفساد منابتها وقلع مغارسها من القلب ، وإنما فرع الأكثرين إلى الأعمال الظاهرة عن تطهير القلوب لسهولة أعمال الجوارح واستصعاب أعمال القلوب ، كما يفرع إلى طلاء الظاهر من يستصعب شرب الأدوية المرة ، فلا يزال يتعب في الطلاء ويريد في المواد وتتضاعف به الأمراض ، فان كنت مريداً للآخرة وطالباً للنجاة وهارباً من الهلاك الأبدى فاشتغل بعلم العلل الباطنة وعلاجها على ما فصلناه في ربيع المهلكات ، ثم ينجو بك ذلك إلى المقامات المحموده المذكورة في ربيع المنجيات لا محالة ، فان القلب إذا فرغ من المذموم امتلأ بالمحمود ؛ والأرض إذا نقيت من الحشيش نبت فيها أصناف الزرع والرياحين ، وإن لم تفرغ من ذلك لم تنبت ذلك ، فلا تشتغل بفروض الكفاية لاسيما وفي زمرة الخلق من قد قام بها فان مهلك نفسه فيها به صلاح غيره سفيه ، فاشد حماقة من دخلت الأفاعى والعقارب تحت ثيابه وهمت بقتله وهو يطلب مدبة يدفع بها الذباب عن غيره عن لا يغييه ولا ينجيه مما يلاقه من تلك الحيات والعقارب إذا همت به . وإن تفرغت من نفسك وتطهيرها وقدرت على ترك ظاهر الإثم وباطنه وصار ذلك ديدنا

لك وعادة متيسرة فيك - وما أبعد ذلك منك - فاشتغل بفروض الكفايات وراع التدرج فيها ؛ فأبتدى* ، بكتاب الله تعالى ثم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم بعلم التفسير وسائر علوم القرآن من علم الماسخ والمنسوخ والمفصول والموصول والمحكم والمتشابه وكذلك في السنة ، ثم اشتغل بالفروع وهو علم المذهب من علم الفقه دون الخلاف ، ثم بأصول الفقه ؛ وهكذا إلى بقية العلوم على ما يتسع له العمر ويساعد فيه الوقت ؛ ولا تستغرق عمرك في فن واحد منها طلباً للاستقصاء ؛ فإن العلم كثير والعمر قصير ، وهذه العلوم آلات ومقدمات وليست مطلوبة لعينها بل لغيرها ، وكل ما يطلب لغيره فلا ينبغي أن ينسى فيه المطلوب ويستكثر منه ؛ فاقصر من شائع علم اللغة على ماتفهم منه كلام العرب وتطرق به ، ومن غريبه على غريب القرآن وغريب الحديث ودع التعمق فيه ، واقصر من النحو على ما يتعلق بالكتاب والسنة فما من علم إلا وله اقتصار واقتصاد واستقصاء . ونحن نسير إليها في الحديث والتفسير والفقه والكلام لتقيس بها غيرها ، فالإقتصار في التفسير ما يبلغ ضعف القرآن في المقدار كما صنفه على الواحدي النيسابوري وهو الرحيز ؛ والاقتصاد ما يبلغ ثلاثة أضعاف القرآن كما صنفه من الوسيط فيه وما وراء ذلك استقصاء مستغنى عنه فلا مرد له إلى انتهاء العمر . وأما الحديث فالإقتصار فيه تحصيل ما في الصحيحين بتصحيح نسخة على رجل خبير بعلم متن الحديث . وأما حفظ أسامي الرجال فقد كفيت فيه بما تحمله عنك من قبلك ؛ ولك أن تعول على كتبهم ، وليس يلزمك حفظ متون الصحيحين ولكن تحصله تحصيلاً تقدر منه على طلب ما تحتاج إليه عند الحاجة ؛ وأما الاقتصاد فيه فأن تضيف إليهما ما خرج عنهما مما ورد في المسندات الصحيحة . وأما الاستقصاء فما وراء ذلك إلى استيعاب كل ما نقل من الضعيف والقرى والصحيح والسقيم مع معرفة الطرق الكثيرة في النقل ومعرفة أحوال الرجال وأسمائهم وأوصافهم . وأما الفقه فالإقتصار فيه على ما يجريه مختصر المزني رحمه الله وهو الذي رتناه في حلاصة المختصر ، والاقتصاد فيه ما يبلغ ثلاثة أمثاله وهو القدر الذي أوردناه في الوسيط من المذهب ، والاستقصاء ما أوردناه في البسيط إلى ما وراء ذلك من المطولات . وأما الكلام فقصوده حماية المعتقدات التي نقلها أهل السنة من السلف الصالح لاغير ؛ وما وراء ذلك طلب لكشف حقائق الأمور من غير طريقتها ، ومقصود حفظ السنة تحصيل رتبة الإقتصار منه بمعتقد مختصر ؛ وهو القدر الذي أوردناه في كتاب قواعد العقائد من حلة هذا الكتاب ، والاقتصاد فيه ما يبلغ قدر مائة ورقة وهو الذي أوردناه في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد ، ويحتاج إليه لمناظرة مبتدع ومعارضة بدعته بما يفسدها وينزعها عن قلب النامي ، وذلك لا ينفع إلا مع العوام قبل اشتداد تعصبهم ، وأما المبتدع بعد أن يعلم من الجدل ولو شيئاً يسيراً فقلما ينفع منه الكلام ؛ فإنك إن ألحمته لم يترك مذهبه وأحال بالقصور على نفسه وقدر أن عند غيره جواراً ما وهو عاجز عنه ، وإنما أنت ملبس عليه بقوة المجادلة . وأما النامي إذا صرف عن الحق بنوع جدل يمكن أن يرد إليه بمثله قبل أن يشتد التعصب للأهواء ؛ فإذا اشتد تعصبهم وقع اليأس منهم ؛ إذ التعصب سبب يرسخ العقائد في النفوس وهو من آفات علماء السوء ؛ فإنهم يبالغون في التعصب للحق وينظرون إلى المخالفين بعين الازدراء والاستحقار ، فتنبعث منهم الدعوى بالمكافأة والمقابلة والمعاملة ، وتتوفر بواعثهم على طلب نصره الباطل ، ويقوى غرضهم في التمسك بما نسبوا إليه ، ولو جاءوا من جانب اللطف والرحمة والنصح في الخلوة - لافى معرض التعصب والتحقير - لانجحوا فيه ، ولكن لما كان الجاه لا يقوم إلا بالاستتباع ولا يستميل الاتباع مثل التعصب واللعن والشتم للخصوم ، اتخذوا التعصب عادتهم وآلتهم ، وسموه ذباً عن الدين ونفضالاً عن المسلمين ، وفيه على التحقيق هلاك الخلق ورسوخ البدعة

في النفوس . وأما الخلافيات التي أحدثت في هذه الأعصار المتأخرة وأبدع فيها من التحريرات والتصنيفات والمجادلات ما لم يعهد مثلها في السلف فإياك وأن تحوم حولها ، واجتنبها اجتناب السم القاتل فإنها الداء العضال وهو الذي رد الفقهاء كلهم إلى طلب المنافسة والمباهاة على ما سيأتيك تفصيل غواها وأفاتها . وهذا الكلام ربما يسمع من قائمه فيقال : الناس أعداء ما جهلوا فلا تظن ذلك ، وعلى الخير سقطت . فاقبل هذه النصيحة من ضيع العرفيه زمانا ، وزاد فيه على الأولين تصنيفا وتحقيقا وجدلا وبيانا ، ثم ألهمه الله رشده وأطلعه على عيبه فهجره واشتغل بنفسه : فلا يفترنك قول من يقول الفتوى عماد الشرع ولا يعرف علله إلا بعلم الخلاف ، فإن علل المذهب مذكورة في المذهب ، والزيادة عليها مجادلات لم يعرفها الأولون ولا الصحابة وكانوا أعلم لعل الفتاوى من غيرهم ، بل هي مع أنها غير مفيدة في علم المذهب ضارة مفسدة لذوق الفقه ، فإن الذي يشهد له حدس المقتى إذا صح ذوقه في الفقه لا يمكن تمثيته على شروط الجدل في أكثر الأمر ، فمن ألف طبعه رسوم الجدل أذعن ذهنه لمقتضيات الجدل وجبن عن الإذعان لذوق الفقه ، ولما يشتغل به من يشتغل لطلب الصيت والجاه ويتعال بأنه يطلب علل المذهب ، وقد ينفض عليه العمر ولا تصرف همته إلى علم المذهب ، فكمن من شياطين الجن في أمان ، واحترز من شياطين الإنس فإنهم أراحوا شياطين الجن من التعب في الإغواء والإضلال ، وبالجملة فالمرضى عند العقلاء أن تقدّر نفسك في العالم وحدك مع الله وبين يديك الموت والعرض والحساب والجنة والنار ، وتأمل فيما يعنيك مما بين يديك ، ودع عنك ما سواه والسلام . وقد رأى بعض الشيوخ بعض العلماء في المنام فقال له : ما خبر تلك العلوم التي كنت تجادل فيها وتماظر عليها فبسط يده ونفخ فيها وقال : طاحت كلها هباء منثورا وما انتفعت إلا بركتين خلصتا لي في جوف الليل . وفي الحديث « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ^(١) » ، ثم قرأ ﴿ ما ضربه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون ﴾ وفي الحديث في معنى قوله تعالى ﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ ﴾ الآية : « هم أهل الجدل الذين عناهم الله بقوله تعالى : فاحذرهم ^(٢) » ، وقال بعض السلف : يكون في آخر الزمان قوم يخلق عليهم باب العمل ويفتح لهم باب الجدل . وفي بعض الأخبار إنكم في زمان ألهمتم فيه العمل وسيأتي قوم يلهمون الجدل ^(٣) وفي الخبر المشهور « ابغض الخلق إلى الله تعالى الألد الخصم ^(٤) » ، وفي الخبر « ما أتى قوم المطلق إلا منعوا العمل » ^(٥) والله أعلم .

الباب الرابع

في سبب إقبال الخلق على علم الخلاف وتفصيل آفات المناظرة والجدل وشروط إباحتها

اعلم أن الخلافه بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم تولاهم الخلفاء الراشدون المهديون وكانوا أئمة علماء بالله تعالى فقهاء في أحكامه وكانوا مستقلين بالفتاوى في الأفضية ، فكانوا لا يستعينون بالفقهاء إلا نادرا في وقائع لا يستغنى فيها عن المشاورة ، فتفرغ العلماء لعلم الآخرة وتجزدوا لها ، وكانوا يتدافعون الفتاوى وما يتعلق بأحكام الخلق من الدنيا ، وأقبلوا على الله تعالى بكنه اجتهادهم كما نقل من سيرهم ، فلما أفضت الخلافه بعدهم إلى أقوام تولوها

(١) حديث « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل » رواه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي أمامة . قال

الترمذي : حسن صحيح

(٢) حديث « هم أهل الجدل الذين عنى الله بقوله فاحذرهم » متفق عليه من حديث عائشة (٣) حديث « إنكم في زمان

ألهمتم فيه العمل وسيأتي قوم يلهمون الجدل » لم أجده (٤) حديث « أبغض الخلق إلى الله الألد الخصم » متفق عليه من حديث عائشة (٥) حديث « ما أتى قوم المطلق إلا منعوا العمل » لم أجده أصلا .

بغير استحقاق ولا استقلال بعلم الفتاوى والأحكام ، اضطروا إلى الاستعانة بالفقهاء وإلى استصحابهم في جميع أحوالهم لاستفتائهم في مجارى أحكامهم ، وكان قد بقي من علماء التابعين من هو مستمر على الطراز الأول وملازم صفو الدين ومواطب على سمت علماء السلف ، فكانوا إذا طلبوا هربوا وأعرضوا ؛ فاضطر الخلفاء إلى الإلحاح في طلبهم لتولية القضاء والحكومات ، فرأى أهل تلك الأعصار عز العلماء وإقبال الأئمة والولاية عليهم مع إعراضهم عنهم ، فاشترأبو لطلب العلم توصلاً إلى نيل العز ودرك الجاه من قبل الولاية ؛ فأكبوا على علم الفتاوى وعرضوا أنفسهم على الولاية ، وتعزفوا إليهم ، وطلبوا الولايات والصلات منهم ، فنهى من حرم ومنهم من أنجح ، والنجاح لم يخجل من ذل الطلب ومهانة الابتذال ، فأصبح الفقهاء - بعد أن كانوا مطلوبين - طابئين ، وبعد أن كانوا أعزة بالإعراس عن السلاطين أذلة بالإقبال عليهم ، إلا من وفقه الله تعالى في كل عصر من علماء دين الله ، وقد كان أكثر الإقبال في تلك الأعصار على علم الفتاوى والأفضية لشدّة الحاجة إليها في الولايات والحكومات ، ثم ظهر بعدهم من الصدور والأمراء من يسمع مقالات الناس في قواعد العقائد ومالك نفسه إلى سماع الحجج فيها : فعملت رغبته إلى المناظرة والمجادلة في الكلام فأكب الناس على علم الكلام وأكثروا فيه التصانيف ، ورتبوا فيه طرق المجادلات واستخرجوا فنون المناقضات في المقالات ، وزعموا أن غرضهم الذب عن دين الله والنضال عن السنة وقمع المبتدعة ، كما زعم من قبلهم أن غرضهم بالاشتغال بالفتاوى الدين وتقلد أحكام المسلمين ، لإشفاقاً على خلق الله ونصيحة لهم . ثم ظهر بعد ذلك من الصدور من لم يستصوب الخوض في الكلام وفتح باب المناظرة فيه . لما كان قد تولد من ففتح بابه من التعصبات الفاحشة والخصومات الفاشية المنفضية إلى إهراق الدماء وتحريب البلاد ، ومالت نفسه إلى المناظرة في الفقه وبيان الأولى من مذهب الشافعي وأبى حنيفة رضى الله عنهما على الخصوص ، فترك الناس الكلام وفنون العلم واثالوا على المسائل الخلافية بين الشافعي وأبى حنيفة على الخصوص ، وتساهلوا في الخلاف مع مالك وسفيان وأحمد رحمهم الله تعالى وغيرهم ، وزعموا أن غرضهم استنباط دقائق الشرع وتقرير علل المذهب وتمهيد أصول الفتاوى ، وأكثروا فيها التصانيف والاستنباطات ورتبوا فيها أنواع المجادلات والتصنيفات وهم مستمرّون عليه إلى الآن ، ولستأ ندرى ما الذى يحدث الله فيما بعدنا من الأعصار ؟ فهذا هو الباعث على الإكباب على الخلافات والمناظرات لا غير ولو مالت نفوس أرباب الدنيا إلى الخلاف مع إمام آخر من الأئمة أو إلى علم آخر من العلوم لمالوا أيضاً معهم ، ولم يسكنوا عن التعامل بأن ما اشتغلوا به هو علم الدين وأن لا مطلب لهم سوى التقرب إلى رب العالمين

بيان التلبس في تشبيه هذه المناظرات بمشاورات الصحابة ومفاوضات السلف

أعلم أن هؤلاء قد يستدرجون الناس إلى ذلك بأن غرضنا من المناظرات المباحة عن الحق ليتضح ، فإن الحق مطلوب والتعاون على النظر في العلم وتوارد الخواطر مفيد ومؤثر ، هكذا كان عادة الصحابة رضى الله عنهم في مشاوراتهم كتشاورهم في مسألة الجد والأخوة وحد شرب الخمر ووجوب الغرم على الإمام إذا أخطأ ، كما نقل من لجباض المرأة جنيها خوفاً من عمر رضى الله عنه ؛ وكما نقل من مسائل الفرائض وغيرها وما نقل عن الشافعي وأحمد بن محمد بن الحسن ومالك وأبى يوسف وغيرهم من العلماء رحمهم الله تعالى . ويطلعك على هذا التلبس ما ذكره وهو أن التعاون على طلب الحق من الدين ولكن له شروط وعلامات ثمان ، الأول : أن لا يشتغل به وهو من

فروض الكفايات من لم يتبرخ من فروض الأعيان ، ومن عليه فرض عين فاشتغل بفرض كفاية وزعم أن متصدده الحق فهو كذاب . ومثاله من يترك الصلاة في نفسه ويتجرد في تحصيل الثياب ونسجها ويقول عرضي أستر عورة من يصلي عرياناً ولا يجد ثوباً ؛ فإن ذلك ربما يتفق ووقوعه ممكن كما يزعم الفقيه أن وقوع النوادر التي عنها البحث في الخلاف ممكن . والمشتغلون بالمناظرة مهملون لأمور هي فرض عين بالاتفاق ومن توجه عليه رد ودبحة في الحال فقام وأحرم بالصلاة التي هي أقرب القربات إلى الله تعالى عصى به ، فلا يكفي في كون الشخص مطيعاً كون فعله من جنس الطاعات مالم يراع فيه الوقت والشروط والترتيب . الثاني : أن لا يرى فرض كفاية أهم من المناظرة فإن رأى ما هو أهم وفعل غيره عصى بفعله وكان مثاله مثال من يرى جماعة من العطاش أشرفوا على الهلاك وقد أهلهم الناس وهو قادر على إحيائهم بأن يسقيهم الماء فاشتغل بتعلم الحجامة ، وزعم أنه من فروض الكفايات ولو خلا البلد عنها لهلك الناس وإذا قيل له في البلد جماعة من الحجاجين وفيهم غنية فيقول هذا لا يخرج هذا الصل عن كونه فرض كفاية . فحال من يفعل هذا ويهمل الاشتغال بالواقعة الملمة بجماعة العطاش من المسلمين كحال المشتغل بالمناظرة وفي البلد فروض كفايات مهمة لا قائم بها فأما الفتوى فقد قام بها جماعة ولا يخلو بلد من جملة الفروض المهمة ولا يلتفت الفقهاء إليها وأقربها الطب ؛ إذ لا يوجد في أكثر البلاد طبيب مسلم يجوز اعتياده شهادته فيما يعول فيه على قول الطبيب شرعاً ولا يرغب أحد من الفقهاء في الاشتغال به ، وكذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو من فروض الكفايات وربما يكون المناظر في مجلس مآظرتة مشاهداً للحريير ملبوساً ومفروشاً وهو ساكت وينظر في مسألة لا يتفق وقوعها قط وإن وقعت قام بها جماعة من الفقهاء ، ثم يزعم أنه يريد أن يتقرب إلى الله تعالى بفروض الكفايات . وقد روى أنس رضي الله عنه أنه قيل يا رسول الله متى يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ فقال عليه السلام : إذا ظهرت المداهنة في خياركم والفاحشة في شراركم وتحول الملك في صغاركم والفقح في أراذلكم^(١) ، الثالث : أن يكون المناظر مجتهداً يفتي برأيه لا بذهب الشافعي وأبي حنيفة وغيرهما حتى إذا ظهر له الحق من مذهب أبي حنيفة ترك ما وافق رأي الشافعي وأفتى بما ظهر له كما كان يفعل الصحابة رضي الله عنهم والأئمة . فأما من ليس له رتبة الاجتهاد وهو حكم كل أهل العصر وإنما يفتي فيما يسأل عنه ناقلاً عن مذهب صاحبه فلو ظهر له ضعف مذهبه لم يجزه أن يتركه ، فأى فائدة له في المناظرة ومذهبه معلوم وليس له الفتوى بغيره ؟ وما يشكل عليه يلزمه أن يقول : لعل عند صاحب مذهبي جواباً عن هذا فإني لست مستقلاً بالاجتهاد في أصل الشرع ؛ ولو كانت مباحثته عن المسائل التي فيها وجهان أو قولان لصاحبه لكان أشبه ، فإنه ربما يفتي بأحدهما فيستفيد من البحث ميلاً إلى أحد الجانبين ولا يرى المناظرات جارية فيها قط ، بل ربما ترك المسألة التي فيها وجهان أو قولان وطلب مسألة يكون الخلاف فيها مبتوتاً . الرابع : أن لا يناظر إلا في مسألة واقعة أو قريبة الوقوع غالباً فإن الصحابة رضي الله عنهم ما تشاوروا إلا فيما تجدد من الوقائع أو ما يغلب وقوعه كالفرائض ، ولا ترى المناظرين يهتمون بانتقاد المسائل التي تعم البلوى بالفتوى فيها بل يطلبون الطبوليات التي تسمع فيتسع مجال الجدل فيها كيف كان الأمر ،

الباب الرابع

(١) حديث أنس «قيل يا رسول الله متى يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . الحديث» أخرجه ابن ماجه بإسناد حسن .

وربما يتركون ما يكثر وقوعه ويقولون هذه مسألة خبرية أو هي من الزوايا وليست من الطبوليات ، فن العجائب أن يكون المطلب هو الحق ثم يتركون المسألة لأنها خبرية ومدرك الحق فيها هو الإخبار أو لأنها لأنها ليست من الطبول فلا تطول فيها الكلام . والمقصود في الحق أن يقصر الكلام ويبلغ الغاية على القرب لا أن يطول .

الخامس : أن تكون المناظرة في الخلوة أحب إليه وأهم من المحافل وبين أظهر الأكاير والسلطين فإن الخلوة أجمع للفهم وأحرى بصفاء الذهن والفكر ودرك الحق ، وفي حضور الجمع ما يحرك دواعي الرياء ويوجب الحرص على نصرة كل واحد نفسه محملاً أو مبطلا ، وأنت تعلم أن حرصهم على المحافل والجامع ليس لله وأن الواحد منهم يخلو بصاحبه مدة طويلة فلا يكلمه وربما يقترح عليه فلا يجيب وإذا ظهر مقدم أو انتظم جمع لم يغادر في قوس الاحتيال منزما حتى يكون هو المتخصص بالكلام . السادس : أن يكون في طلب الحق كناشدا ضالة لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يده أو على يد من يعاونه ويرى رفيقه مميئا لا خصما ويشكره إذا عرفه الخطأ وأظهر له الحق ، كما لو أخذ طريقاً في طلب ضالته فبها صاحبه على ضالته في طريق آخر فإنه كان يشكره ولا يذمه ويكرمه ويفرح به ؛ فهكذا كانت مشاورات الصحابة رضی الله عنهم حتى أن امرأة ردت على عمر رضی الله عنه ونهته على الحق وهو في خطبته على ملا من الناس فقال : أصابت امرأة وأخطأ رجل . وسأل رجل عليا رضی الله عنه فأحابه فقال : ليس كذلك يا أمير المؤمنين ولكن كذا كذا فقال : أصبت وأخطأت وفوق كل ذي علم عليم . واستدرك ابن مسعود على أبي موسى الأشعري رضی الله عنهما فقال أبو موسى : لا تسألوني عن شيء وهذا الخبر بين أظهركم . وذلك لما سئل أبو موسى عن رجل قاتل في سبيل الله فقتل فقال : هو في الجنة . وكان أمير الكوفة فقام ابن مسعود فقال : أعد على الأمير فلعله لم يفهم ؟ فأعادوا عليه فأعاد الجواب فقال ابن مسعود . وأنا أقول إن قتل فأصاب الحق فهو في الجنة . فقال أبو موسى : الحق ما قال . وهكذا يكون إنصاف طالب الحق ؟ ولو ذكر مثل هذا الآن لأقل فقيه لأنكره واستبمده وقال : لا يحتاج إلى أن يقال أصاب الحق فإن ذلك معلوم لكل أحد . فانظر إلى مناظري زمانك اليوم كيف يسود وجه أحدهم إذا اتضح الحق على لسان خصمه وكيف يتجمل به وكيف يجهد في مجادته بأقصى قدرته وكيف يذم من أحمه طول عمره ثم لا يستحي من تشبيه نفسه بالصحابة رضی الله عنهم في تعاونهم على النظر في الحق ؟ السابع : أن لا يمنع معينه في النظر من الانتقال من دليل إلى دليل ومن إشكال إلى إشكال ، فهكذا كانت مناظرات السلف ؛ ويخرج من كلامه جميع دقائق الجدل المبتدعة فيأله عليه كقوله : هذا لا يلزمي ذكره ، وهذا يناقض كلامك الأول فلا يقبل منك ؛ فإن الرجوع إلى الحق مناقض للباطل ويجب قبوله . وأنت ترى أن جميع المجالس تنقضي في المدافعات والمجادلات حتى يقيس المستدل على أصل بعلة يظنها فيقال له : ما الدليل على أن الحكم في الأصل معلل بهذه العلة ؟ فيقول : هذا ما ظهر لي ؛ فإن طهر لك ما هو أوصح منه وأولى فاذكره حتى أنظر فيه . فيبصر المعارض ويقول فيه معان سوى ما ذكرته وقد عرفتها ولا أذكرها إذ لا يلزمي ذكرها ، ويقول المستدل عليك لإيراد ما تدعيه وراء هذا ويصر المعارض على أنه لا يلزمه ويتوخى مجالس المناظرة بهذا الجنس من السؤال وأمثاله ولا يعرف هذا المسكين أن قوله : إنى أعرفه ولا أذكره إذ لا يلزمي ، كذب على الشرع ؛ فإنه إن كان لا يعرف معناه وإنما يدعيه ليعجز خصمه فهو فاسق كذاب عصى الله تعالى وتعرض لسخطه بدعواه معرفة هو حال عنها وإن كان صادقا فقد فسق بإخفائه ما عرفه من أمر الشرع . وقد سأله أخوه المسلم ليفهمه وينظر فيه فإن كان قويا رجع إليه وإن كان ضعيفا أظهر له ضعفه وأخرجه عن ظلمة الجهل إلى نور العلم . ولا خلاف أن إظهار

ما علم من علوم الدين بعد السؤال عنه واحب لازم فعنى قوله : لا يلزمنى ؛ أى فى شرع الجدل الذى أبدعناه بحكم التشهى والرغبة فى طريق الاحتيال والمصارعة بالكلام لا يلزمنى وإلا فهو لازم بالشرع ، فإنه بامتاعه عن الذكر إما كاذب وإما فاسق فتفحص عن مشاورات الصحابة ومفاوضات السلف رضى الله عنهم هل سمعت فيها ما يضاهى هذا الجنس وهل منع أحد من الانتقال من دليل إلى دليل ومن قياس إلى أثر ومن خبر إلى آية ؟ بل جميع مناظراتهم من هذا الجنس إذ كانوا يذكرون كل ما يخطر لهم كما يخطر وكانوا ينظرون فيه . الثامن : أن يناظر من يتوقع الاستفادة منه بمن هو مشتغل بالعلم . والغالب أنهم يحترزون من مناظرة الفحول والأكابرة خوفاً من ظهور الحق على ألسنتهم فيرغبون فيمن دونهم طمعاً فى ترويج الباطل عليهم ووراء هذه شروط دقيقة كثيرة ولكن فى هذه الشروط الثمانية ما يهديك إلى من يناظر الله ومن يناظر لعله . واعلم بالجملة أن من لا يناظر الشيطان وهو مستول على قلبه وهو أعدى عدوه ولا يزال يدعو إلى هلاكه ثم يشتغل بمناظرة غيره فى المسائل التى يحتهد فيها مصيب أو مساهم للمصيب فى الأجر فهو ضحكة الشيطان وعبرة للخلصين ولذلك شمت الشيطان به لما غمسه فيه من ظلمات الآفات التى تعددها ونذكر تفاصيلها ؛ فنسأل الله حسن العون والتوفيق .

بيان آفات المناظرة وما يتولد منها من مهلكات الأخلاق

اعلم وتحقق أن المناظرة الموضوعية لقصد الغلبة والإلغام وإظهار الفضل والشرف والتشديق عند الناس وقصد المباهاة والمراة واستمالة وجوه الناس هى منبع جميع الأخلاق المذمومة عند الله المحمودة عند الله إبليس . ونسبها إلى الفواحش الباطنة من الكبر والعجب والحسد والمنافسة وتزكية النفس وحب الجاه وغيرها كنسبة شرب الخمر إلى الفواحش الظاهرة من الزنا والقذف والقتل والسرقة . وكما أن الذى خير بين الشرب والفواحش وسائر الفواحش استصغر الشرب فأقدم عليه فدعا ذلك إلى ارتكاب بقية الفواحش فى سكره فكذلك من غاب عليه حب الإلغام والغلبة فى المناظرة وطلب الجاه والمباهاة دعا ذلك إلى إضمار الحباثت كلها فى النفس وهيئ فيه جميع الأخلاق المذمومة . وهذه الأخلاق ستأتى أدلة مذمتها من الأخبار والآيات فى ربح المهلكات . ولكننا نشير الآن إلى مجامع ما تهيج المناظرة فتنها الحسد ؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب »^(١) ، ولا ينفك المناظر عن الحسد فانه تارة يغلب وتارة يغلب وتارة يحمد كلامه وأخرى يحمد كلام غيره . فما دام يبقى فى الدنيا واحد يذكره بقوة العلم والنظر أو يظن أنه أحسن منه كلاماً وأقوى نظراً فلا بد أن يحسده ويحب زوال النعم عنه وانصراف القلوب والوجوه عنه إليه . والحسد نار محرقة فمن بلى به فهو فى العذاب فى الدنيا وللعذاب الآخرة أشد وأعظم ؛ ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما : خذوا العلم حيث وجدتموه ولا تقبلوا قول الفقهاء بعضهم على بعض فإنهم يتغايبون كما تتغايب الثيوس فى الزرية . ومنها التكبر والترفع على الناس فقد قال صلى الله عليه وسلم « من تكبر وضعه الله ومن تواضع رفعه الله »^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله تعالى « العظمة لإزارى والكبرياء رداً فمن نازعنى فيهما قصمته »^(٣) ، ولا ينفك المناظر عن التكبر على

(١) حديث « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » أخرجه أبو داود من حديث أبى هريرة ، وقال البخارى : لا يصح . وهو عند ابن ماجه من حديث أس بن ساد ضعيف ، وفى تاريخ بغداد بإسناد حسن
(٢) حديث « من تكبر وضعه الله .. الحديث » أخرجه الحطيب من حديث عمر بن ساد صحيح وقال : غريب من حديث الثورى « وابن ماجه نحوه من حديث أبى سعيد بسند حسن . (٣) حديث « الكبرياء رداً والعظمة لإزارى .. الحديث » أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن حبان من حديث أبى هريرة وهو عند مسلم بلفظ « الكبرياء رداؤه » من حديث أبى هريرة وأبى سعيد .

الأفان والأمثال والترفع إلى فوق قدره حتى إنهم ليتقاتلون على مجلس من المحاسن يتنافسون فيه في الارتفاع والانخفاض والقرب من وسادة الصدر والبعد عنها والتقدم في الدخول عند مضائق الطرق، وربما يتعمال الغي والمكار الخداع منهم بأنه ينبغي صيانة عز العلم، « وأن المؤمن منزه عن الإذلال لنفسه ^(١) » فتعبر عن التواضع الذي أثنى الله عليه وسائر أنبيائه بالذل وعن التكبر الممقوت عند الله بعز الدين تحريفاً للاسم وإضلالاً للخلق به كما فعل في اسم الحكمة والعلم وغيرهما. ومنها الحقد فلا يكاد المناظر يخلو عنه. وقد قال صلى الله عليه وسلم « المؤمن ليس بحقود ^(٢) »، وورد في ذم الحقد ما لا يخفى. ولا ترى مناظراً يتقدر على أن لا يضره حقداً على من يحرك رأسه من كلام خصمه ويتوقف في كلامه فلا يقابله بحسن الإصغاء بل يضطر إذا شاهد ذلك إلى إصهار الحقد وتربيته في نفسه وغاية تماسكه الإخفاء بالفتاق وترشيح منه إلى الظاهر لا محالة في غالب الأمر. وكيف ينمك عن هذا ولا يتصور اتفاق جميع المستمعين على ترحيح كلامه واستحسان جميع أحواله في إيراده وإصداره؟ بل لو صدر من خصمه أدنى سبب فيه قلة مبالاة بكلامه انغرس في صدره حقد لا يقاحه مدى الدهر إلى آخر العمر. ومنها العيبة وقد شبهها الله بأكل الميتة ولا يزال المناظر مثابراً على أكل الميتة فانه لا ينفك عن حكاية كلام خصمه ومذمته، وغاية تحفظه أن يصدق فيما يحكيه عليه ولا يكذب في الحكاية عنه فيحكي عنه لا محالة ما يدل على قصور كلامه وعجزه وقصان فضله وهو الغيبة، فأما الكذب فبهتان وكذلك لا يقدر على أن يحفظ لسانه عن التعرض لعرض من يعرض عن كلامه ويصغى إلى خصمه ويقبل عليه حتى ينسبه إلى الجهل والحماقة وقلة الفهم والبلادة. ومنها تركية النفس، قال الله سبحانه وتعالى ﴿ فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ وقيل للحكيم: ما الصدق القبيح؟ فقال: ثناء المرء على نفسه. ولا يخلو المناظر من الثناء على نفسه بالقوة والغلبة والتقدم على الأفان ولا ينفك في أتماء المناظرة عن قوله: لست بمن يخفى عليه أمثال هذه الأمور وأنا المتفنن في العلوم والمستقل بالأصول وحفظ الأحاديث وغير ذلك مما يتمدح به تارة على سبيل الصلف وتارة للحاجة إلى ترويح كلامه. ومعلوم أن الصلف والتمدح مذمومان شرعا وعقلا ومنها التجسس وتتبع عورات الناس، وقد قال تعالى ﴿ ولا تجسسوا ﴾ والمناظر لا ينفك عن طلب عورات أقرانه وتتبع عورات خصومه حتى إنه ليخبر بمرور مناظر إلى بلده فيطلب من يخبر بواطن أحواله ويستخرج بالسؤال متابعه حتى يعدها ذخيرة لنفسه في إفصاحه وتخجيله إذا مست إليه حاجة حتى إنه ليستكشف عن أحوال صباه وعن عيوب بدنه ففساه يعثر على هفوة أو عيب به من قرع أو غيره، ثم إذا حس بأدنى غلبة من جهته عرض به إن كان متماسكا ويستحسن ذلك منه ويعد من لطائف التسبب ولا يمتنع عن الإفصاح به إن كان متبجحا بالسفاهة والاستهزاء، كما حكى عن قوم من أكابر المناظرين المعدودين من فخرهم. ومنها الفرح لمساءة الناس والغم لسائرهم ومن لا يجب لأخيه المسلم ما يجب لنفسه فهو بعيد من أحلاق المؤمنين، فكل من طلب المباهاة بإظهار الفضل يسره لا محالة ما يسوء أقرانه وأشكاله الذين يسامونه في الفضل ويكون التباغص بينهم كما بين الضرائر فكما أن إحدى الضرائر إذا رأت صاحبها من بعيد ارتعدت فرائصها واضفرت لونها فكندا ترى المناظر إذا رأى مناظر تغير لونه واضطرب عليه فكره فكأنه يشاهد شيطانا ماردا أو سبعا ضاريا، وأين الاستئناس والاسترواح الذي كان يجري بين علماء الدين عند اللقاء وما نقل عنهم من المؤاخاة والتناصر والتسامح في السراء

(١) حديث « نهى المؤمن عن إذلال نفسه » أخرجه الترمذي وصححه ابن ماجه من حديث حذيفة « لا ينبغي للمؤمن أن يذل

نفسه » (٢) حديث « المؤمن ليس بحقود » لم أوف له على أصل .

والضراء حتى قال الشافعي رضي الله عنه : العلم بين أهل الفضل والعقل رحم متصل ؟ فلا أدري كيف يدعى الاقتداء
بمنهجه جماعة صار العلم بينهم عداوة قاطعة ! فهل يتصور أن ينسب الأنايس بينهم مع طلب الغلبة والمباهاة هيئات هيئات
وناهيك بالشر شراً أن يلزمك أخلاق المنافقين ويبرئك عن أخلاق المؤمنين والمتقين . ومنها النفاق فلا يحتاج إلى
ذكر الشواهد في ذمه وهم مضطرون إليه فإنهم يلقون الخصوم ومحبيهم وأشياهم ولا يجدون بداً من التودد إليهم
باللسان وإظهار الشوق والاعتداد بمكانهم وأحوالهم ، ويعلم ذلك المخاطب والمخاطب وكل من يسمع منهم أن ذلك
كذب وزور ونفاق وتجور فإنهم متوددون بالأسنة متباغضون بالقلوب نعوذ بالله العظيم منه ؛ فقد قال صلى الله عليه
وسلم : إذا تعلم الناس العلم وتركوا العمل وتحابوا بالأسنن وتباغضوا بالقلوب وتقاطعوا في الأرحام لغنم الله
عند ذلك فأصمهم وأعمى أوصارهم^(١) ، رواه الحسن وقد صح ذلك بمشاهدة هذه الحالة . ومنها الاستكبار عن الحق
وكرهته والحرص على الماراة فيه حتى إن أبغض شيء إلى المناظر أن يظهر على لسان خصمه الحق ومنها ظهر تشمر
لجده وإنكاره بأقصى جهده وبذل غاية إمكانه في المخادعة والمكر والحيلة لدفعه حتى تصير الماراة فيه عادة طبيعية
فلا يسمع كلاماً إلا وينبعث من طبعه داعية الاعتراض عليه حتى يغلب ذلك على قلبه في أدلة القرآن وألفاظ الشرع
فيضرب البعض منها بالبعض ، والمرء في مقابلة الباطل محذور إذ ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ترك المراء
بالحق على الباطل . قال صلى الله عليه وسلم : من ترك المراء وهو مبطل بنى الله له بيتاً في ربض الجنة ومن ترك المراء
وهو محق بنى الله له بيتاً في أعلى الجنة^(٢) ، وقد سوى الله تعالى بين من افتري على الله كذباً وبين من كذب بالحق
فقال تعالى ﴿ ومن أظلم ممن افتري على الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه ﴾ وقال تعالى ﴿ من أظلم ممن كذب على
الله وكذب بالصدق إذ جاءه ﴾ ومنها الرياء وملاحظة الخلق والجهد في استمالة قلوبهم وصرف وجوههم . والرياء
هو الداء العضال الذي يدعو إلى أكبر الكبائر - كما سيأتي في كتاب الرياء - والمناظر لا يقصد إلا الظهور عند الخلق
وانطلاق أسنتهم بالثناء عليه ؛ وهذه عشر خصال من أمهات الفواحش الباطنة سوى ما يتفق لغير المتماسكين منهم من
الخصام المؤدى إلى الضرب والسك والطمع وتمزيق الثياب والأخذ باللحى وسب الوالدين وشم الاستاذين والقذف الصريح
فإن أولئك ليسوا بمدودين في زمرة الناس المعتبرين وإنما الأكارب والعقلاء منهم هم الذين لا ينفكون عن هذه الخصال
العشر ، نعم قد يسلم بعضهم من بعضها مع من هو ظاهر الانحطاط عنه أو ظاهر الارتفاع عليه أو هو بعيد عن بلده
وأسباب معيشته ، ولا ينفك أحد منهم عنه مع أشكاله المقارنين له في الدرجة . ثم يتشعب من كل واحدة من هذه
الخصال العشر عشر أخرى من الرذائل لم نطول بدكرها وتفصيل آحادها مثل : الأنفة ، والنفس ، والبغضاء ،
والطمع ، وحب طلب المال ، والحماة للتمكن من الغلبة ، والمباهاة ، والأشر ، والبطر ، وتعظيم الأغنياء والسلاطين
والتردد إليهم والأخذ من حرامهم ، والتجمل بالخيول والمراكب والثياب المحظورة ، والاستحقار للناس بالفخر
والخيلاء ، والخوض فيما لا يعني ، وكثرة الكلام ، وخروج الخشبة والخوف والرحمة من القلب ، واستيلاء
النفلة عليه حتى لا يدري المصلي منهم في صلواته ما صلى وما الذي يقرأ ومن الذي يناجيه ؟ ولا يحس بالخشوع من
قلبه مع استغراق العمر في العلوم التي تعين في المناظرة مع أنها لا تنفع في الآخرة : من تحسين العبارة وتسجيل اللفظ

(١) حديث : إذا تعلم الناس العلم وتركوا العمل وتحابوا بالأسنن وتباغضوا بالقلوب ... الحديث « أخرجه للطبراني من حديث سلمان
بإسناد ضعيف (٢) حديث : من ترك المراء وهو مبطل ... الحديث « أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أنس مع
اختلاف . قال الترمذي ! حسن .

وحفظ النوادر إلى غير ذلك من أمور لا تحصى . والمناظرون يتفاوتون فيها على حسب درجاتهم ولهم درجات شتى ولا ينفك أعظمهم ديناً وأكثرهم عقلاً عن جمل من مواد هذه الأخلاق وإنما غاية إخفاؤها ومجاهدة النفس بها . واعلم أن هذه الرذائل لازمة للمشتغل بالتدكير والوعظ أيضاً إذا كان قصده طلب القبول وإقامة الجاه ونيل الثروة والعزة وهي لازمة أيضاً للمشتغل بعلم المذهب والفتاوى إذا كان قصده طلب القضاء وولاية الأوقاف والتقدم على الأقران . وبالجملة هي لازمة لكل من يطلب بالعلم غير ثواب الله تعالى في الآخرة فالعلم لا يهمل العالم بل يهلكه هلاك الأبد أو بحياة الأبد ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لا ينفعه الله بعلمه ، فلقد ضره مع أنه لم ينفعه ؛ وليته نجا منه رأساً برأس ؛ وهيات هيات فخطر العلم عظيم ؛ وطالبه طلب الملك المؤبد ، والنعم السرمد ، فلا ينفك عن الملك أو الهلك ؛ وهو كطالب الملك في الدنيا ، فإن لم يتفق له الإصابة في الأموال لم يطمع في السلامة من الإذلال بل لا بد من لزوم أفصح الأحوال ؛ فإن قلت : في الرخصة في المناظرة فائدة وهي ترغيب الناس في طلب العلم إذ لولا حب الرياسة لاندرست العلوم ؛ فقد صدقت فيما ذكرته من وجه ولكنه غير مفيد إذ لولا الوعد بالكرة والصلحان واللعب بالعصافير ما رغب الصبيان في المكتب وذلك لا يدل على أن الرغبة فيه محمودة ، ولولا حب الرياسة لاندرس العلم . ولا يدل ذلك على أن طالب الرياسة ناج بل هو من الذين قال صلى الله عليه وآله وسلم فيهم « إن الله ليؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم ^(١) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ^(٢) » ، فطالب الرياسة في نفسه هالك وقد يصلح بسببه غيره إن كان يدعو إلى ترك الدنيا وذلك فيمن كان ظاهر حاله في ظاهر الأمر ظاهر حال علماء السلف ولكنه يضمّر قصد الجاه ، فثاله مثال الشمع الذي يحترق في نفسه ويستضيء به غيره فصلاح غيره في هلاكه وأما إذا كان يدعو إلى طلب الدنيا فثاله مثال النار المحرقة التي تأكل نفسها وغيرها . فالعلماء ثلاثة : إما مهلك نفسه وغيره وهم المصرحون بطلب الدنيا والمقبلون عليها ، وإما مسعد نفسه وغيره وهم الداعون الخلق إلى الله سبحانه ظاهر أو باطناً ، وإما مهلك نفسه مسعد غيره وهو الذي يدعو إلى الآخرة وقد رفض الدنيا في ظاهره وقصده في الباطن قبول الخلق وإقامة الجاه ، فإتجر من أى الأقسام أنت ومن الذى اشتغلت بالاعتداد له ؟ فلا تظنن أن الله تعالى يقبل غير الخالص لوحه تعالى من العلم والعمل . وسيأتيك في كتاب الرياء بل في جميع ربيع المهلكات ما ينفي عنك الريبة فيه إن شاء الله تعالى .

الباب الخامس

في آداب المتعلم والمعلم

أما المتعلم فآدابه ووظائفه الظاهرة كثيرة ولكن تنظم تفاريقها عشر حل :

الوظيفة الأولى : تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومنه نوم الأوصاف إذ العلم عبادة القلب وصلاة السر وقرينة الباطن إلى الله تعالى ؛ وكما لا تصح الصلاة التي هي وظيفة الجوارح الظاهرة إلا بتطهير الظاهر عن الأحداث والأخبار فكذلك لا تصح عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته عن خبائث الأخلاق وأنجاس

(١) حديث « إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم » أخرجه النسائي من حديث أنس بإسناد صحيح .

(٢) حديث « إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

الأوصاف. قال صلى الله عليه وسلم « بنى الدين على النظافة »^(١) ، وهو كذلك باطنا وظاهرا قال الله تعالى ﴿ إنما المشركون نجس ﴾ تنبيها للعقول على الطهارة والنجاسة غير مقصورة على الظواهر بالحس فالمشرك قد يكون تظيف الثوب مغسول البدن ولكنه نجس الجوهر أى باطنه ماطخ بالحجائث . والنجاسة عبارة عما يجتنب ويطلب البعد منه وخجائث صفات الباطن أهم بالاجتناب فإنها مع خبثها في الحال مهلكات في المآل . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ، لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ^(٢) ، والقلب بيت هو منزل الملائكة ومهبط آرهم ومحل استقرارهم ؛ والصفات الرديئة مثل والغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب وأخواتها كلاب ناجحة فأنى تدخله الملائكة وهو مشحون بالكلاب ونور العلم لا يقذفه الله تعالى في القلب إلا بواسطة الملائكة ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء ﴾ وهكذا ما يرسل من رحمة العلوم إلى القلوب إنما تتولاها الملائكة الموكلون بها وهم المقدسون المطهرون المبرهون عن الصفات المذمومات فلا يلاحظون لإلطيا ولا يمرون بما عندهم من خزان رحمة الله إلا طيبا طاهرا . ولست أقول المراد بلهط البيت ، هو القلب وبالكلب ، هو الغضب والصفات المذمومة ولكنى أقول هو تنبيه عليه ، وفرق بين تعبير الطواهر إلى البواطن وبين التنبيه للباطن من ذكر الظواهر مع تقرير الظواهر ، ففارق الباطنية بهذه الدقيقة ، فإن هذه طريق الاعتبار وهو ملك العلماء والأبرار إذ معنى الاعتبار أن يبر ما ذكر إلى غيره فلا يقتصر عليه كما يرى العاقل مصيبة لغيره فيكون فيها له عبرة بأن يعبر منها إلى التنبيه لكونه أيضا عرضة للمصائب وكون الدنيا بصدد الانقلاب ، فعبره من غيره إلى نفسه ومن نفسه إلى أصل الدنيا عبرة محمودة فاعبر أنت أيضا من البيت الذى هو بناء الخلق إلى القلب الذى هو بيت من بناء الله تعالى ومن الكلب الذى ذم لصفته - لالصورته - وهو ما فيه من سببية ونجاسة إلى الروح السكبكية وهى السببية . واعلم أن القلب المشحون بالغضب والشه إلى الدنيا والتكلب عليها والحرص على التمزيق لأعراض الناس كلب في المعنى وقلب في الصورة ، فنور البصيرة يلاحظ المعاني لا الصور . والصورة في هذا العالم غالبية على المعاني والمعاني باطنة فيها . وفى الآخرة تتبع الصور المعاني وتقلب المعاني . فذلك يحشر كل شخص على صورته المنسوبة « فيحشر الممزق لأعراض الناس كلبا ضاريا . والشه إلى أموره ذمبا عاديا ، والمتكبر عليهم في صورة نمر ، وطالب الرياسة في صورة أسد »^(٣) . وقد وردت بذلك الأخبار وشهده الاعتبار عند ذوى البصائر والأنصار « فإن قلت : كم من طالب بردى الأخلاق حصل العلوم فهيات ما أبعد عن العلم الحقيقي النافع فى الآخرة الجالب للسعادة فإن من أوائل ذلك العلم أن يظهر له أن المعاصى سموم قاتلة مهلكة وهل رأيت من يتناول سما مع علمه بكونه سما قاتلا ؟ إنما الذى تسمعه من المترسمين حديث يلقونه بألسنتهم مرة ويرددونه بقلوبهم أخرى وليس ذلك من العلم فى شيء . قال ابن مسعود رضى الله عنه ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم نور يقذف فى القلب . وقال بعضهم : إنما العلم الخشية لقوله تعالى ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ وكأنه أشار إلى أخص ثمرات العلم . ولذلك قال بعض المحققين : معنى قولهم « تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا الله » ، أن العلم أبى وامتنع علينا فلم تنكشف لنا حقيقة وإنما حصل لنا

الباب الخامس

(١) حديث « بنى الدين على النظافة » لم أحده هكذا . وفى الضمراء لان حيار من حديث عائشة « تنظفوا فان الاسلام تظيف » وللطبرانى فى الأوسط سند ضعيف جداً من حديث ابن مسعود « النظافة الدعوى إلى الأيمان » (٢) حديث « لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب » متفق عليه من حديث أبى طلحة الأصارى (٣) حديث « حصر المرق لأعراض الناس فى صورة كلب ضار ... الحديث » أخرجه الثعلبى فى التفسير من حديث البراء بسند ضعيف .

حديثه وألفاظه . فإن قلت : أرى جماعة من العلماء والفقهاء المحققين برزوا في الفروع والأصول وعدوا من جملة الفحول وأخلافهم ذميمة لم يتطهروا منها ؟ فيقال : إذا عرفت مراتب العلوم وعرفت علم الآخرة استبان لك أن ما اشتغلوا به قليل الغناء من حيث كونه علما وإنما غناؤه من حيث كونه عملا لله تعالى إذا قصد به التقرب إلى الله تعالى وقد سبقت إلى هذا إشارة . وسيأتيك فيه مزيد بيان وإيضاح إن شاء الله تعالى . الوظيفة الثانية : أن يقلل علاقته من الاشتغال بالدنيا ويبعد عن الأهل والوطن فإنَّ العلاقة شاغلة وصارفة (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) ومهما توزعت السكرة قصرت عن درك الحقائق ولذلك قيل : العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيك كلك فإذا أعطيتك كلك فأنت من إعطائه إياك بعضه على خطر ، والفكرة المتوزعة على أمور متفرقة كجدول تفرق مائه فنشفت إلا . من بعضه واختطف الهواء بعضه فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ المردوع . الوظيفة الثالثة : أن لا يتكبر على العلم ولا يتامر على معلم بل يلتقي إليه زمام أمره بالكلية في كل تفصيل ويدعن النصيحة إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق . وينبغي أن يتواضع لمعلمه ويطلب الثواب والشرف بخدمته . قال السعدي صلي زيد بن ثابت على جنازة فخرت إليه بغلته ليركبها لجاه ابن عباس فأخذ بركابه فقال زيد : خل عنه يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ابن عباس : هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء فقبل زيد بن ثابت يده وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا صلى الله عليه وسلم (١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : ليس من أخلاق المؤمن التعلق إلا في طلب العلم (٢) ، فلا ينبغي لطالب العلم أن يتكبر على المعلم ومن تكبره على المعلم أن يستكف عن الاستفادة إلا من المرموقين المشهورين وهو عين الحماقة فإن العلم سبب النجاة والسعادة ، ومن يطلب مهريا من سبع ضار يفترسه لم يفرق بين أن يرشده إلى الهرب مشهور أو خامل ، وضراوة سباع النار بالجهال بالله تعالى أشد من ضراوة كل سبع فالحكمة ضالة المؤمن يفتتها حيث يظفر بها ويتقلد المنة لمن ساقها إليه كائنا من كان ؛ فلذلك قيل :

العلم حرب للفتى المتعالى كالسيل حرب للسكان العالي

فلا ينال العلم إلا بالتواضع وإلقاء السمع قال الله تعالى ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ ومعنى كونه ذا قلب أن يكون قابلا للعلم فهما ، ثم لاتعينه القدرة على الفهم حتى يلتقي السمع وهو شهيد حاضر القلب ليستقبل كل ما أتى إليه بحسن الإصغاء والضراعة والشكر والفرح وقبول المنة . فليكن المتعلم لمعلمه كأرض دمشق نالت مطرا غزيرا فتشربت جميع أجزائها وأذغنت بالكلية لقبوله . ومهما أشار عليه المعلم بطريق في التعلم فليقلده وليدع رأيه فإن خطأ مرشده أضع له من صوابه في نفسه إذ التجربة تطلع على دقائق يستغرب سماعها مع أنه يعظم نفعها ، فكم من مريض محروور يعالجه الطبيب في بعض أوقاته بالحرارة ليزيد في قوته إلى حد يحتمل صدمة العلاج فيعجب منه من لاخبرة له به ، وقد نبه الله تعالى بقصة الخضر وموسى عليهما السلام حيث قال الخضر ﴿ إنك لن تستطع معي صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا ﴾ ثم شرط عليه السكوت والتسليم فقال ﴿ فإن اتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا ﴾ ثم لم يصبر ولم يزل في مراودته إلى أن كان ذلك سبب الفراق بينهما . وبالجملة كل متعلم استبقى لنفسه رأيا واختيارا

(١) حديث « أخذ ابن عباس بركاب زيد بن ثابت » وقوله « هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء » أخرجه الطبراني والحاكم والبيهقي في المدخل إلا أنهم قالوا « هكذا فعل » قال الحاكم : صحيح الإسناد على شرط مسلم (٢) حديث « ليس من أخلاق المؤمن التعلق إلا في طلب العلم » أخرجه ابن عدي من حديث معاذ وأبي أمامة باسنادين صحيحين

دون اختيار المعلم فاحكم عليه بالإخفاق والخسران .

* فإن قلت : فقد قال الله تعالى ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ فالسؤال مأمور به ؟ فاعلم أنه كذلك ولكن فيما يأذن المعلم في السؤال عنه فإن السؤال عما لم تبلغ مرتبتك إلى فهمه مذموم ، ولذلك منع الخضر موسى عليه السلام من السؤال : أى دع السؤال قبل أوانه فالمعلم أعلم بما أنت أهل له وبأوان الكشف . ومعلم يدخل أوان الكشف في كل درجة من مراتب الدرجات لا يدخل أو ان السؤال عنه . وقد قال على رض الله عنه : إن من حق العالم أن لا تكثر عليه بالسؤال ولا تعنته في الجواب ، ولا تلج عليه إذا كسل ولا تأخذ بثوبه إذا نهض ، ولا تفضي له سرا ولا تغتابن أحدا عنده ولا تطلبن عثرته ، وإن زل قبلت معذرتة ، وعليك أن توقره وتعظمه لله تعالى مادام يحفظ أمر الله تعالى ، ولا تجلس أمامه ، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته .

الوظيفة الرابعة ؛ أن يحتز الخائض في العلم في مبدأ الأمر عن الإضعاف إلى اختلاف الناس ، سواء كان ماخاض فيه من علوم الدنيا أو من علوم الآخرة : فإن ذلك يدهش عقله ويحير ذهنه ويفتر رأيه ويؤيسه عن الإدراك والاطلاع ، بل ينبغى أن يتقن أولاً الطريق الحميدة الواحدة المرصية عند أستاذه ، ثم بعد ذلك يصفى إلى المذاهب والشبه . وإن لم يكن أستاذه مستقلاً باختيار رأى واحد وإنما عاداته نقل المذاهب وما قيل فيها فليحذر منه فإن لإصله أكثر من إرشاده فلا يصلح الأعمى لقود العميان وإرشادهم ، ومن هداحاله يعد في عمى الخيرة وتيه الجهل ، ومنع المبتدئ عن الشبه يضاهى منع الحديث العهد بالإسلام عن مخالطة الكفار ، وندب القوى إلى النظر في الاختلافات يضاهى حث القوى على مخالطة الكفار ؛ ولهذا يمنع الجبان عن التهجم على صف الكفار ويندب الشجاع له . ومن الغفلة عن هذه الدقيقة طن بعض الضعفاء أن الاقتداء بالأقوياء فيما ينقل عنهم من المساهلات جائز ، ولم يدر أن وظائف الأقوياء تخالف وظائف الضعفاء . وفي ذلك قال بعضهم : من رآني في البداية صار صديقا ، ومن رآني في النهاية صار زنديقا ، إذ النهاية ترد الأعمال إلى الباطن وتسكن الجوارح إلا عن روائب الفرائض ؛ هيتراى الناظرين أنها بطالة وكسل وإهمال ، وهيئات فذلك مرابطة القلب في عين الشهود والحضور وملازمة الذكر الذي هو أفضل الأعمال على الدوام ؛ وتشبه الضعيف بالقوى فيما يرى من ظاهره أنه هفوة يضاهى اعتذار من يلقي نجاسة يسيرة في كوز ماء ويتعلم بأن أضعاف هذه النجاسة قد بلقي في البحر والبحر أعظم من الكوز فما جاز للبحر فهو للكوز أحوز . ولا يدري المسكين أن البحر بقوته يحيل النجاسة ماء فتقلب عين النجاسة باستيلائه إلى صفته ، والقليل من النجاسة يظلب على الكوز ويحمله إلى صفته ، ومثل هذا جوز للتبي صلى الله عليه وسلم مالم يجوز لغيره حتى أبيض له تسع نسوة (١) إذ كان له من القوة ما يتعدى منه صفة العدل إلى نساته وإن كثرن ، وأما غيره فلا يقدر على بعض العدل بل يتعدى ما يبين من الضرر إليه حتى ينجر إلى مصيبة الله تعالى في طلبه رضاهن . فا أطلع من قاس الملائكة بالحدادين

الوظيفة الخامسة : أن لا يدع طالب العلم فنا من العلوم المحمودة ولا نوعا من أنواعه إلا وينظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته ، ثم إن ساعده العمر طلب التبصر فيه وإلا اشتغل بالأهم منه واستوفاه وتطرف من البقية ؛ فإن العلوم متعاونه وبعضها مرتبط ببعض ، ويستفيد منه في الحال الانفكاك عن عداوة ذلك العلم بسبب

(١) حديث « أبيض له صلى الله عليه وسلم تسعة نسوة » وهو معروف . وفي الصحيحين من حديث ابن عباس « كان عد النبي صلى الله عليه وسلم تسع ... الحديث » .

جهله ؛ فإن الناس أعداء ما جهلوا قال تعالى ﴿ وإذ لم يهتدوا به فسيفولون هذا إلفك قديم ﴾ . قال الشاعر :

ومن يك ذا فم مر مريض * يجد مرا به الماء الزلالا

فالعلوم على درجاتها إما سالكة بالعبد إلى الله تعالى ، أو معينة على السلوك نوعاً من الإعانة ، ولها منازل مرتبة في القرب والبعد من المقصود ، والقوام بها حفظة كحفاظ الرباطات والثغور ، ولكل واحد رتبة وله بحسب درجته أجر في الآخرة إذا قصد به وجه الله تعالى .

الوظيفة السادسة : أن لا يخوض في فن من فنون العلم دفعة بل يراعى الترتيب ويبتدئ بالأهم . فإن العمر إذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالباً فالحزم أن يأخذ من كل شيء أحسنه ويكتفي منه بسمه ويصرف جهام فوته في الميسور من علمه إلى استكمال العلم الذي هو أشرف العلوم وهو علم الآخرة أعني قسمي المعاملة والمكاشفة ، فعناية المعاملة المكاشفة . وغاية المكاشفة معرفة الله تعالى ؛ ولست أعني به الاعتقاد الذي يتلقفه العاى ورائة أو تلقفا ؛ ولا طريق تحرير الكلام والمجادلة في تحصيل الكلام عن مرواغات الخصوم كما هو غاية المتكلم ، بل ذلك نوع يقين هو ثمرة نور يقذفه الله تعالى في قلب عبد طهر بالمجاهدة باطنه عن الخبايا حتى يفتى إلى رتبة إيمان أبي بكر رضى الله عنه الذى لو وزن إيمان العالمين لرجح^(١) كما شهد له به سيد البشر صلى الله عليه وسلم ، فاعندى أن ما يعتقد العاى ويرتبه المتكلم الذى لا يزيد على العاى إلا فى صنعة الكلام ، ولأجله سميت صناعته كلاماً ، وكان يعجز عنه عمر عثمان وعلى وسائر الصحابة رضى الله عنهم ، حتى كان يفضلهم أبو بكر بالسر الذى وقر فى صدره . والعجب ممن يسمع مثل هذه الأقوال من صاحب الشرع - صلوات الله وسلامه عليه - ثم يزدري ما يسمعه على وفقه ويزعم أنه من ترهات الصوفية وأن ذلك غير معقول ؛ فينبغى أن نتكلم فى هذا فعنده ضيعة رأس المال ، فكن حريصاً على معرفة ذلك السر الخارج عن بضاعة الفقهاء والمتكلمين ولا يرشدك إليه إلا حرصك فى الطلب .

وعلى الجملة فأشرف العلوم وغايتها معرفة الله عز وجل وهو بحر لا يدرك منتهى غوره ، وأقصى درجات البشر فيه رتبة الأنبياء ثم الأولياء ثم الذين يلونهم . وقد روى أنه روى صورة حكيمين من الحكماء المتقدمين فى مسجد وفى يد أحدهما رقعة فيها : إن أحسنت كل شيء فلا تظن أنك أحسنت شيئاً حتى تعرف الله تعالى وتعلم أنه مسبب الأسباب وموجد الأشياء . وفى يد الآخر كنت قبل أن أعرف الله تعالى أشرب وأظماً ، حتى إذا عرفته رويت بلا شرب

الوظيفة السابعة : أن لا يخوض فى فن حتى يستوفى الفن الذى قبله ؛ فإن العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً وبعضها طريق إلى بعض ، والموفق من راعى ذلك الترتيب والتدرج . قال الله تعالى ﴿ الذين آتيناكم الكتاب يتلونه حق تلاوته ﴾ أى لا يجاوزون فناحتى يحكموه علماً وعملاً ، وليكن قصده فى كل علم يتجراه الترقى إلى ما هو فوقه ؛ فينبغى ألا يحكم على علم بالفساد لوقوع الخلف بين أصحابه فيه ، ولا بخطأ واحد أو آحاد فيه ، ولا بمخالفتهم موجب عليهم بالعمل ؛ فترى جماعة تركوا النظر فى العقليات والفقهييات ، متعللين فيها بأنها لو كان لها أصل لأذركه أربابها ؛ وقد مضى كشف هذه الشبه فى كتاب (معيار العلم) وترى طائفة يعتقدون بطلان الطب لخطأ شاهدوه من طبيب ، وطائفة اعتقدوا صحة النجوم لصواب اتفق لواحد ، وطائفة اعتقدوا بطلانه لخطأ اتفق لآخر . والكل خطأ ، بل

(١) حديث « لو وزن إيمان أبي بكر إيمان العالمين لرجح » أخرجه ابن عدى من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف ؛ ورواه البيهقى فى الشعب مرفوعاً على عمر بإسناد صحيح .

ينبغي أن يعرف الشيء في نفسه ، فلا كل علم يستقل بالإحاطة به كل شخص ولذلك قال على رضى الله عنه : لا تعرف الحق بالرجال . اعرف الحق تعرف أهله

الوظيفة الثامنة : أن يعرف السبب الذى به يدرك أشرف العلوم ، وأن ذلك يراد به شيان : أحدهما : شرف الثمرة والثاني : وثاقة الدليل وقوته ، وذلك كعلم الدين وعلم الطب فان ثمرة أحدهما الحياة الأبدية وثمره الآخر الحياة الفانية فيكون علم الدين أشرف . ومثل علم الحساب وعلم النجوم فان علم الحساب أشرف لوثاقته أدلته وقوتها وإن نسب الحساب إلى الطب كان الطب أشرف باعتبار ثمرته والحساب أشرف باعتبار أدلته وملاحظة الثمرة أولى : ولذلك كان الطب أشرف وإن كان أكثره بالتخمين . وبهذا تبين أن أشرف العلوم العلم بالله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله والعلم بالطريق الموصل إلى هذه العلوم فياكأن ترغب إلا فيه وأن تحرص إلا عليه .

الوظيفة التاسعة : أن يكون قصد المتعلم في الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة وفي المآل القرب من الله سبحانه والترقى إلى جوار الملأ الأعلى من الملائكة والمقربين ، ولا يقصد به الرياسة والمال والجاه وعبارة السفهاء ومباهاة الأفران وإن كان هذا مقصده طالب لا محالة الأقراب إلى مقصوده وهو علم الآخرة : ومع هذا فلا ينبغي له أن ينظر بعين الحفارة إلى سائر العلوم أعنى علم الفتاوى وعلم النحو واللغة المتعلقين بالكتاب والسنة وغير ذلك مما أوردناه في المقدمات والمتمات من ضروب العلوم التي هي فرض كفاية ، ولا تفهم من غلونا في التناء على علم الآخرة تهجين هذه العلوم فالتكفلون بالعلوم كالتكفلين بالثغور والمرابطين بها والغزاة المجاهدين في سبيل الله فهمه المقاتل ومنهم الردء ومنهم الذى يسقيهم الماء ومنهم الذى يحفظ دوابهم ويتعهدهم ولا يتفك أحد منهم عن أجره إذا كان قصده إعلاء كلمة الله تعالى دون حيازة الغنائم فكذلك العلماء قال الله تعالى ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ وقال تعالى ﴿ هم درجات عند الله ﴾ والفضيلة نسبية . واستحقاقنا للصيافة عند قياسهم بالملوك لا يدل على حقارتهم إذا قيسوا بالكناسين فلا تظن أن ما نزل عن الرتبة القصوى سائط القدر بل الرتبة العليا للأنبياء ثم الأولياء ثم العلماء الراحمين في العلم ثم للصلحين على تفاوت درجاتهم وبالجملة ﴿ فن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ ومن قصد الله تعالى بالعلم أى علم كان نفعه ورفعه لا محالة . الوظيفة العاشرة : أن يعلم نسبة العلوم إلى المقصد كما يؤثر الرفيع القريب على البعيد والمهم على غيره . ومعنى المهم ما يهملك - ولا يهملك إلا شأنك في الدنيا والآخرة . وإذا لم يمكنك الجمع بين ملاذ الدنيا ونعيم الآخرة كما نطق به القرآن وشهد له من نور البصائر ما يجرى مجرى العيان فالأهم ما يبقى أبد الأباد وعند ذلك تصير الدنيا منزلاً وبدن مركباً والأعمال سعيّاً إلى المقصد ولا مقصد إلا لقاء الله تعالى ففيه النعيم كله وإن كان لا يعرف في هذا العالم قدره إلا الآفلون . والعلوم بالإضافة إلى سعادة لقاء الله سبحانه والنظر إلى وجهه الكريم - أعنى النظر الذى طلبه الأنبياء وفهموه دون ما سبق إلى فهم العوام والمتكلمين - على ثلاث مراتب تفهمها بالموازنة بمثال وهو أن العبد الذى علق عتقه وتمكينه من الملك بالحج وقيل له إن حججت وأتممت وصلت إلى العتق والملك جميعاً وإن ابتدأت بطريق الحج والاستعداد له وعافك في الطريق مانع ضرورى فلك العتق والخلاص من شقاء الرق فقط دون سعادة الملك فله ثلاثة أصناف من الشغل ، الأول . تهيئة الأسباب بشراء الناقة وخرز الراوية وإعداد الزاد والراحلة والثاني السلوك ومفارقة الوطن بالتوجه إلى الكعبة منزلاً بمد منزل . والثالث : الاشتغال بأعمال الحج ركناً بعد ركناً ثم بعد الفراغ والنزوع عن هيئة الإحرام وطواف الوداع استحق التعرض للملك والسلطنة ، وله في كل مقام منازل من أول إعداد الأسباب إلى آخره ،

من أول سلوك البوادي إلى آخره ، ومن أول أركان الحج إلى آخره . وليس قرب من ابتداء بأركان الحج من السعادة كقرب من هو بعد في إعداد الزاد والراحلة ولا كقرب من ابتداء بالسلوك بل هو أقرب منه ، فالعلوم أيضاً ثلاثة أقسام : قسم يجرى مجرى إعداد الزاد والراحلة وشراء الناقة وهو علم الطب والفقہ وما يتعلق بمصالح البدن في الدنيا . وقسم يجرى مجرى سلوك البوادي وقطع العقبات وهو تطهير الباطن عن كدورات الصمات وطلوع تلك العقبات الشائخة التي يعجز عنها الأولون والآخرون إلا الموفقين فهذا سلوك الطريق وتحصيل علمه كتحصيل علم جهات الطريق ومنازله وكما لا ينفي علم المنازل وطرق البوادي دون سلوكها كذلك لا يعني علم تهذيب الأخلاق دون مباشرة التهذيب ولكن المباشرة دون العلم غير ممكن . وقسم ثالث يجرى مجرى نفس الحج وأركانه وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وأفعاله وجميع ما ذكرناه في تراجم المكاشفة وههنا حجة وفوز بالسعادة والنجاة حاصلة لكل سالك للطريق إذا كان غرضه المقصد الحق وهو السلامة . وأما الفوز بالسعادة فلا يناله إلا العارفون بالله تعالى وهم المقربون المنعمون في حوار الله تعالى بالروح والريحان وجنة النعيم وأما المموعون دون ذروة الكمال فلهم النجاة والسلامة كما قال الله عز وجل ﴿ فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين ﴾ وكل من لم يتوجه إلى المقصد ولم يتهض له أو اتهمض إلى جهته لا على قصد الامتثال والعبودية بل لغرض عاجل فهو من أصحاب الشمال ومن الضالين فله نزل من حميم وتصلية حميم . واعلم أن هذا هو حق اليقين عند العلماء الراغبين أعني أنهم أدركوه بمشاهدة من الباطن هي أقوى وأجلى من مشاهدة الأنصار وترقوا فيه عن حد التقليد لمحرد السماع ، وحالمهم حال من أخبر فصدق ثم شاهد فحقق وحال غيرهم حال من قبل بحس التصديق والإيمان ولم يحظ بالمشاهدة والعيان . فالسعادة وراء علم المكاشفة وعلم المكاشفة وراء علم المعاملة التي هي سلوك طريق الآخرة وقطع عقبات الصفات . وسلوك طريق محو الصفات المذمومة وراء علم الصفات وعلم طريق المعالجة وكيفية السلوك في ذلك وراء علم سلامة البدن ومساعدة أسباب الصحة . وسلامة البدن بالاجتماع والتظاهر والتعاون الذي يتوصل به إلى الملابس والمطعم والمسكن وهو منوط بالسلطان وقانونه في ضبط الناس على منهج العدل والسياسة في ناصية الفقيه . وأما أسباب الصحة في ناصية الطبيب ومن قال « العلم علمان : علم الأبدان وعلم الأديان ، وأشار به إلى الفقه أراد به العلوم الظاهرة الشائعة للعلوم العريضة الباطنة » فإن قلت : لم شبهت علم الطب والفقہ بإعداد الزاد والراحلة ؟ فأعلم أن الساعي إلى الله تعالى لينال قربه هو القلب دون البدن ولست أعني بالقلب اللحم المحسوس بل هو من أسرار الله عز وجل لا يدركه الحس ولطيفة من لطائفه تارة يعبر عنه بالروح وتارة بالنفس الملمسة ، والشرع يعبر عنه بالقلب لأنه المطية الأولى لذلك السر وبواسطته صار جميع الدن مطية وآلة لتلك اللطيفة ، وكشف الغطاء عن ذلك السر من علم المكاشفة وهو مضمون به بل لارخصة في ذكره ، وغاية المأذون فيه أن يقال هو جوهر نفيس ودرّ عزيز أشرف من هذه الأجرام المرئية ولما هو أمر إلهي كما قال تعالى ﴿ ويستلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ﴾ وكل المخلوقات منسوبة إلى الله تعالى ولكن نسبتها أشرف من نسبة سائر أعضائه البدن فله الخلق والأمر جميعاً ، والأمر أعلى من الخلق . وهذه الجوهرة النفيسة الحاملة لأمانة الله تعالى المتقدمة بهذه الرتبة على السموات والأرضين والجبال إذ أبين أن يحملها وأشفقن منها من عالم الأمر : ولا يفهم من هذا أنه تعريض بقدمها فإن القائل بقدم الأرواح مغرور جاهل لا يدري ما يقول فلنقبض عنان البيان عن هذا الفتن وهو وراء ما نحن بصده . والمقصود أن هذه اللطيفة هي الساعية إلى قرب الرب لأنها من أمر الرب فنه مصدرها وإليه

مرجمها ، وأما البدن فطبيعتها التي تركيبها وتسعى بواسطتها ، فالبدن لها في طريق الله تعالى كالثاقبة للبدن في طريق الحج وكالراوية الخازنة المساء الذي يفتقر إليه البدن فكل علم مقصده مصلحة البدن فهو من جملة مصالح المطية . ولا يخفى أن الطب كذلك فإنه قد يحتاج إليه في حفظ الصحة على البدن ولو كان الإنسان وحده لاحتاج إليه : والفقهاء يفارقه في أنه لو كان الإنسان وحده ربما كان يستغنى عنه ولكنه خلق على وجه لا يمكنه أن يعيش وحده إذ لا يستقل بالسعى وحده في تحصيل طعامه بالحراثة والزرع والحلب والطبخ وفي تحصيل الملابس والمسكن وفي إعداد آلات ذلك كله فاضطر إلى المخالطة والاستماعة . ومهما اختلط الناس وثار شهوراتهم تجاذبوا أسباب الشهوات وتنازعوا وتقاتلوا وحصل من قتالهم هلا كههم بسبب التنافس من خارج كما يحصل هلا كههم بسبب تضادا الأخلاط من داخل ، وبالطب يحفظ الاعتدال في الأخلاط المتنازعة من داخل ، وبالسياسة والعدل يحفظ الاعتدال في التنافس من خارج ، وعلم طريق اعتدال الأخلاط طب ، وعلم طريق اعتدال أحوال الناس في المعاملات والأفعال فقه . وكل ذلك لحفظ البدن الذي هو مطية فالمتجرد لعلم الفقه أو الطب إذا لم يجاهد نفسه ولا يصلح قلبه كالمتمرد لشراء الثاقبة وعلفها وشراء الراوية وخرزها إذا لم يملك بادية الحج . والمستغرق عمره في دقائق الحسابات التي تحرى في مجادلات الفقه كالمستغرق عمره في دقائق الأسباب التي بها تستحكم الخيوط التي تخرز بها الراوية للحج . ونسبة هؤلاء من السالكين لطريق إصلاح القلب الموصل إلى علم المكاشفة كنسبة أوثاك إلى سالكى طريق الحج أو ملابسى أركانه : فتأمل هذا أولا واقبل النصيحة بجاننا ممن قام عليه ذلك غالبا ولم يصل إليه إلا بعد جهد جهيد وحرارة تامة على مبانة الخلق العامة والخاصة في النزوع من تقليدهم بمجرد الشهوة ، فهذا القدر كاف في وظائف المعلم .

بيان وظائف المرشد المعلم

اعلم أن الإنسان في علمه أربعة أحوال كحالة في اقتناء الأموال : إذ لصاحب المال حال استعادة فيكون مكتسبا ، وحال ادخار لما اكتسبه فيكون به غنيا عن السؤال . وحال إنفاق على نفسه فيكون منتفعا ، وحال بذل لغيره فيكون به سخيا متفضلا وهو أشرف أحواله . فكذلك العلم يقتنى كما يقتنى المال فله حال طلب واكتساب وحال تحصيل يعنى عن السؤال وحال استبصار وهو التفكير في المحصل والتمتع به وحال تبصير وهو أشرف الأحوال : فمن علم وعمل وعلم فهو الذى يدعى عظيما في ملكوت السموات فإنه كالشمس تضى لغيرها وهى مضيئة فى نفسها وكالمسك الذى يطيب غيره وهو طيب والذى يعلم ولا يعمل به كالدفت الذى يفيد غيره وهو حال عن العلم وكالمسن الذى يشحد غيره ولا يقطع والإبرة التى تكسو غيرها وهى عارية وذباله المصباح تضى لغيرها وهى تحترق كاقيل :

ما هو إلا ذباله وقدت تضى للناس وهى تحترق

ومهما اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمرا عظيما وخطرا جسيما فليحفظ آدابه ووظائفه (الوظيفة الأولى) الشفقة على المتعلمين وأن يجريهم بغيره قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما أنا لكم مثل الوالد لولده ^(١) » بأن يقصد إنقاذهم من نار الآخرة وهو أهم من إنقاذ الوالدين ولدهما من نار الدنيا : ولذلك صار حق المعلم أعظم من حق الوالدين فإن الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الفانية والمعلم سبب الحياة الباقية . ولولا المعلم لانساق ما حصل من جهة الأب إلى الهلاك الدائم وإنما المعلم هو المفيد للحياة الآخروية الدائمة أعنى معلم علوم الآخرة أو علوم

(١) حديث « إنما أنا لكم مثل الوالد لولده » أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة

الدنيا على قصد الآخرة لا على قصد الدنيا ، وأما التعليم على قصد الدنيا فهو هلاك وإهلاك نعوذ بالله منه . وكما أن حق أبناء الرجل الواحد أن يتحابوا ويتعاونوا على المقاصد كلها فكذلك حق تلامذة الرجل الواحد التحاب والتوادد ولا يكون إلا كذلك إن كان مقصدهم الآخرة ولا يكون إلا التحاسد والتباغض إن كان مقصدهم الدنيا . فإن العلماء وأبناء الآخرة مسافرون إلى الله تعالى وسالكون إليه الطريق من الدنيا ، وسنوها وشهورها منازل الطريق . والترافق في الطريق بين المسافرين إلى الأمصار سبب التوادد والتحاب فكيف السفر إلى الفردوس الأعلى والترافق في طريقه ؟ ولا ضيق في سعادة الآخرة فلذلك لا يكون بين أبناء الآخرة تنازع ولا سعة في سمادات الدنيا فلذلك لا ينفك عن ضيق التزاحم . والعالون إلى طلب الرياسة بالعلوم خارجون عن موجب قوله تعالى (إنما المؤمنون إخوة) وداخون في مقتضى قوله تعالى (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) (الوظيفة الثانية) أن يقتدى لصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه فلا يطلب على إفادة العلم أجرا ولا يقصد به جزاء ولا شكراً بل يعلم لوجه الله تعالى وطلباً للتقرب إليه ولا يرى لنفسه منة عليهم وإن كانت المنة لازمة عليهم بل يرى الفضل لهم إذ هذبوا قلوبهم لأن تقرب إلى الله تعالى بزيارة العلوم فيها ، كالذي يعيرك الأرض لتزرع فيها لنفسك زراعة فنفعتك بها تزيد على منفعة صاحب الأرض فكيف تقلده منة وثوابك في التعليم أكثر من ثواب المتعلم عند الله تعالى ؟ ولولا المتعلم ما نلت هذا الثواب فلا تطلب الأجر إلا من الله تعالى كما قال عز وجل (ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله) فإن المال وما في الدنيا خادم البدن والبدن مركب النفس ومطيتها والمخدوم هو العلم إذ به شرف النفس . فمن طلب بالعلم المال كان كمن مسح أسفل مداسه بوجهه لينظفه فجعل المخدوم خادماً والمخدوم مخدوماً وذلك هو الانتكاس على أم الرأس ، ومثله هو الذي يقوم في العرض الأكبر مع المجرمين ناكس رؤوسهم عند ربهم . وعلى الجملة فالفضل والمنة للمعلم فانظر كيف انتهى أمر الدين إلى قوم يرمون أن مقصودهم التقرب إلى الله تعالى بما هم فيه من علم الفقه والكلام والتدريس فيهما وفي غيرهما ؟ فانهم يبذلون المال والجاه ويتحملون أصناف الذل في خدمة السلاطين لاستطلاق الجرايات ولوتركوا ذلك لتروا ولم يختلف إليهم ثم يتوقع المعلم من المتعلم أن يقوم له في كل نائبة وينصر وليه ويعادى عدوه وينتمض جهاراً له في حاجاته ومسخرها بين يديه في أوطاره : فإن قصر في حقه ثار عليه وصار من أعدى أعدائه . فأخس عالم يرضى لنفسه بهذه المنزلة ثم يفرح بها ثم لا يستحي من أن يقول غرضي من التدريس نشر العلم تقرباً إلى الله تعالى ونصرة لدينه فانظر إلى الأمارات حتى ترى ضروب الاغترارات (الوظيفة الثالثة) أن لا يدع من نصيح المتعلم شيئاً وذلك بأن يمنعه من التصدي لرتبة قبل استحقاقها والتشاغل بعلم خفي قبل الفراغ من الجلي ثم ينبهه على أن الغرض بطلب العلوم القرب إلى الله تعالى دون الرياسة والمباهاة والمنافسة ، ويقدم تقييح ذلك في نفسه بأقصى ما يمكن فليس ما يصلحه العالم الفاجر بأكثر مما يفسده : فإن علم من باطنه أنه لا يطلب العلم إلا للدنيا نظر إلى العلم الذي يطلبه فإن كان هو علم الخلاف في الفقه والجدل في الكلام والفتاوى في الخصومات والأحكام فيمنعه من ذلك فإن هذه العلوم ليست من علوم الآخرة ولا من العلوم التي قيل فيها « تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون لإلله ، وإنما ذلك علم التفسير وعلم الحديث وما كان الأولون يشتغلون به من علم الآخرة ومعرفة أخلاق النفس وكيفية تهذيبها فإذا تعلمه الطالب وقصد به الدنيا فلا بأس أن يتركه فإنه يثمر له طمعا في الوعظ والاستبناح ولكن قد يتنبه في أثناء الأمر أو آخره إذ فيه العلوم المخوفة من الله تعالى المحقرة للدنيا المعظمة للآخرة ، وذلك

يوشك أن يؤدي إلى الصواب في الآخرة حتى يتعظ بما يعظ به غيره . ويجرى حب القبول والجاه مجرى الحب الذى ينثر حوالى الفح ليقتنص به الطير وقد فعل الله ذلك بعباده إذ جعل الشهوة ليصل الخلق بها إلى بقاء النسل . وخلق أيضا حب الجاه ليكون سببا لإحياء العلوم وهذا متوقع فى هذه العلوم فأما الخلافيات المحضة ومجادلات الكلام ومعرفة التفاريع الغريبة فلا يزيد التجرد لها مع الإعراض عن غيرها إلا قسرة القلب وغفلة عن الله تعالى وتماديا فى الضلال وطلبا للجاه إلا من تداركه الله تعالى برحمته أو مزج به غيره من العلوم الدينية . ولا برهان على هذا كالتجربة والمشاهدة فانظر واعتبر واستبصر لتشاهد تحقيق ذلك فى العباد والبلاد والله المستعان . وقد روى سفيان الثورى رحمه الله حزينا فقيلا له : مالك ؟ فقال : صرنا متجرا لأبناء الدنيا يلزمنا أحدهم حتى إذا تعلم جعل قاضيا أو عاملا أو قهرمانا (الوظيفة الرابعة) وهى من دقائق صناعة التعليم أن يزحر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ولا يصرح . وطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ فإن التصريح بهتك حجاب الهيئة ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف ويهيج الحرص على الإصرار إذ قال صلى الله عليه وسلم وهو مرشد كل معلم « لو منع الناس عن فت البعر لفتوه وقالوا ما نهينا عنه إلا وفيه شيء (١) ، وينهك على هذا قصة آدم وحواء عليهما السلام وما نهيا عنه ؛ فما ذكرت القصة معك لتكون سمرأ بل لتتنبه بها على سبيل العبرة ولأن التعريض أيضا يميل النفوس الفاصلة والأذهان الذكية إلى استنباط معانيه ويفيد فرح التفتن لمعناه رغبة فى العلم به ليعلم أن ذلك مما لا يعزب عن فطنته (الوظيفة الخامسة) أن المتكفل ببعض العلوم ينبغى أن لا يقبح فى نفس المتعلم العلوم التى وراه ، كعلم اللغة إذ عاداته تقيح علم الفقه . ومعلم الفقه عاداته تقيح علم الحديث والتفسير وأن ذلك نقل محض وسماع وهو شأن المعجائر ولا نثار للعقل فيه ، ومعلم الكلام ينفر عن الفقه ويقول : ذلك هروع وهو كلام فى حيض النسوان وأين ذلك من الكلام فى صفة الرحمن ؟ فهده أخلاق مذمومة للمعلمين ينبغى أن تجتنب بل المتكفل بعلم واحد ينبغى أن يوسع على المتعلم طريق التعلم فى غيره وإن كان متكفلا بعلم فلينبغى أن يراعى التدرج فى ترقية المتعلم من رتبة إلى رتبة (الوظيفة السادسة) أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقى إليه مالا يبلغه عقله فينفره أو يخبط عليه عقله اقتداء فى ذلك بسيد البشر صلى الله عليه وسلم حيث قال « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نزل الناس منازلهم ونكلمهم على قدر عقولهم (٢) ، فليتب إليه الحقيقة إذا علم أنه يستقل بفهمها وقال صلى الله عليه وسلم « ما أحد يحدث قوما بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة على بعضهم ، وقال على رضى الله عنه - وأشار إلى صدره - « إن ههنا لعلومنا جملة لو وحدت لها حملة ، وصدق رضى الله عنه فقلوب الأبرار قبور الأسرار . فلا ينبغى أن يفشى العالم كل ما يعلم إلى كل أحد ؛ هذا إذا كان يفهمه المتعلم ولم يكن أهلا للانتفاع به فكيف فيما لا يفهمه ؟ وقال عيسى عليه السلام : لا تملقوا الجواهر فى أعناق الخنازير فإن الحكمة خير من الجواهر ومن كرهها فهو شر من الخنازير « ولذلك قيل : كل لكل عبد بمعيار عقله وزن له بميزان فهمه حتى تسلم منه وينتفع بك وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار : وسئل بعض العلماء عن شئ فلم يجب فقال السائل : أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من كتم علما نافعا جاء يوم القيامة ملجأ بلجام من نار (٣) ، فقال :

(١) حديث « لو منع الناس عن فت البعر لفتوه ... الحديث » لم أجده (٢) حديث « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نزل الناس منازلهم ... الحديث » روياه فى جزء من حديث أبي بكر بن الشيخير من حديث عمر أخضر منه . وعبد أبي داود من حديث عائشة « أنزلوا الناس منازلهم » (٣) حديث « من كتم علما نافعا جاء يوم القيامة ملجأ بلجام من نار » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي سعيد بإسناد ضعيف ؛ وتقدم حديث أبي هريرة بنحوه .

اترك اللحم واذهب فإن جاء من يفقه وكتمته فلياجمني فقد قال الله تعالى (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم) تنديها على أن حفظ العلم بمن يفسده ويضره أولى ، وليس الظلم في إعطاء غير المستحق بأقل من الظلم في منع المستحق :

أأنثر درا بين سارحة النعم فأصبح محزوبا براعية الغم
لأنهم أمسوا بجهل لقدره فلا أنا أصحى أن أطوقه بهم
فإن لطف الله اللطيف بلطفه وصادمت أهلا للعلوم وللحكم
نشرت مفيداً واستفدت مودة وإلا فمحزون لدى ومكتم
فمن منج الجهال علما أضاعه ومن منع المستوحين فقد ظلم

(الوظيفة السابعة) أن المتعلم المتاصر ينبغي أن يلتقي إليه الجلي اللائق به ولا يذكر له وراء هذا تدقيقا وهو يدخره عنه فإن ذلك يفتر رغبته في الجلي ويشوش عليه قلبه ويوهم إليه البخل به عنه إذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم دقيق . فما من أحد إلا وهو راض عن الله سبحانه في كمال عقله وأشد هم حماقة وأضعفهم عقلا هو أفرحهم بكامل عقله . وبهذا يعلم أن من قيد من العوام بقيد الشرع ورسخ في نفسه العقائد المأثورة عن السلف من غير تشبيه ومن غير تأويل وحسن مع ذلك سريره ولم يحتمل عقله أكثر من ذلك فلا ينبغي أن يشوش عليه اعتقاده بل ينبغي أن يخلى وحرفته ، فإنه لو ذكر له تأويلات الظاهر اتحل عنه قيد العوام ولم يتيسر قيده بقيد الخوض فيرتفع عنه السد الذي بينه وبين المعاصي وينقلب شيطانا مريدا بهلك نفسه وعبره ؛ بل لا ينبغي أن يحاص مع العوام في حقائق العلوم الدقيقة بل يقتصر مهمهم على تعليم العبادات وتعليم الأمانة في الصاعات التي هم بصددتها ويملا قلوبهم من الرغبة والرهبة في الجنة والنار كما نطق به القرآن ولا يحزك عليهم شبهة فإنه ربما تطلعت الشبهة بقلبه ويحسر عليه حلها فيشقى ويهلك . وبالجملة لا ينبغي أن يفتح للعوام باب البحث فإنه يعطل عليهم صناعاتهم التي بها قوام الخلق ودوام عيش الخواص (الوظيفة الثامنة) أن يكون المعلم عاملا بعلمه فلا يكذب قوله فله لأن العلم يدرك بالابصار والعمل يدرك بالابصار وأرباب الابصار أكثر . فإذا خالف العمل العلم منع الرشد وكل من تناول شيئا وقال للناس لا تناولوه فإنه سم مهلك يحزر الناس به واتهموه وزاد حرصهم على ما نهوا عنه فيقولون لولا أنه اطيب الأشياء وألذها لما كان يستأثر به . ومثل المعلم المرشد من المسترشدين مثل النقش من الطين والظل من العود فكيف ينتقش الطين بما لا نقش فيه ومتى استوى الطل والعود أعوج ؟ ولذلك قيل في المعنى :

لأنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

وقال الله تعالى (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) ولذلك كان وزر العالم في معاصيه أكثر من وزر الجاهل إذ يزل برلته عالم كبير ويقتدون به . ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها . ولذلك قال على رضي الله عنه قسم ظهري رجلان ؛ عالم مهتك وجاهل متنسك ؛ فالجاهل يفر الناس بتنسكه ، والعالم يفرهم بتهتكه . والله اعلم .

الباب السادس

في آفات العلم وبيان علامات علماء الآخرة والعلماء السوء

قد ذكرنا ماورد من فضائل العلم والعلماء ، وقد ورد في العلماء السوء تشديدات عظيمة دلت على أنهم أشد الخلق عذابا يوم القيامة . فن المهمات العظيمة معرفة العلامات الفارقة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة ونعني بعلماء الدنيا

علماء السوء الذين قصدهم من العلم التنعم بالدنيا والتوصل إلى الجاه والمنزلة عند أهلها قال صلى الله عليه وسلم : إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه ، وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا يكون المرء عالماً حتى يكون بعلمه عاملاً (١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : العلم علمان : علم على اللسان فذلك حجة الله تعالى على خلقه وعلم في القلب فذلك العلم النافع (٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : يكون في آخر الزمان عباد جهال وعلماء فاسق (٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولتماروا به السفهاء ولتصرفوا به وجره الناس اليكم فن فعل ذلك فهو في النار (٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : من كتم علماً عنده أجهه الله بلجام من نار ، وقال صلى الله عليه وسلم : لانا من غير الدجال أخوف عليكم من الدجال . فقيل : وما ذلك ؟ فقال : من الأئمة المضلين (٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم : من ازداد علماً ولم يزد هدى لم يزد من الله إلا بعداً (٦) ، وقال عيسى عليه السلام : إلى متى تصفون الطريق للدجلين وأتم مقيمون مع المتحيرين ، فهذا وغيره من الأخبار يدل على عظيم خطر العلم فإن العالم إما متعرض لهلاك الأبد أو لسعادة الأبد ولأنه بالخوض في العلم قد حرم السلامة إن لم يدرك السعادة . وأما الآثار فقد قال عمر رضي الله عنه : إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة المناقاة العليم . قالوا : وكيف يكون منافقاً عليهما ؟ قال : عليم اللسان جاهل القلب والعمل . وقال الحسن رحمه الله : لا تكن ممن يجمع علم العلماء وطرائف الحكماء ويجرى في العمل مجرى السفهاء . وقال رجل لأبي هريرة رضي الله عنه : أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه فقال : كني بترك العلم لإضاعة له . وقيل لإبراهيم بن عيينة : أي الناس أطول ندماً ؟ قال : أما في عاجل الدنيا فصانع المعروف إلى من لا يشكره وأما عند الموت فعالم مفقود . وقال الخليل بن أحمد : الرجال أرومة ، رجل يدرى ويدرى أنه يدرى بذلك عالم فاتبعوه ، ورجل يدرى ولا يدرى أنه يدرى فذلك نائم فأيقظوه ، ورجل لا يدرى ويدرى أنه لا يدرى فذلك مسترشد فأرشدوه ، ورجل لا يدرى ولا يدرى أنه لا يدرى فذلك جاهل فإرضه . وقال سفيان الثوري رحمه الله : يهتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل . وقال ابن المبارك : لا يزال المرء عالماً ما طلب العلم فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل . وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : إنى لأرحم ثلاثة : عزيز قوم ذل وغني قوم افتقر وعالم تلب به الدنيا . وقال الحسن : عقوبة العلماء موت القلب ، وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة وأنشدوا :

عجبت لمبتاع الضلالة بالهدى ومن يشتري ديناه بالدين اعجب
واعجب من هدين من باع دينه بدنيا سواه فهو من ذين اعجب

الباب السادس

(١) حديث « لا يكون المرء عالماً حتى يكون بعلمه عاملاً » أخرجه ابن حبان في كتاب روضة العقلاء ، والبيهقي في المدخل موقوفاً على أبي الدرداء ولم أجده مرهوقاً (٢) حديث « العلم علمان علم على اللسان ... الحديث » أخرجه الترمذي الحكيم في النوادر وابن عبد البر من حديث الحسن مرسلًا بإسناد صحيح ، وأسنده الخطيب في التاريخ من رواية الحسن عن جابر بإسناد جيد وأعله ابن الجوزي (٣) حديث « يكون في آخر الزمان عباد جهال وعلماء فاسق » أخرجه الحاكم من حديث أس وهو ضعيف (٤) حديث « لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء » أخرجه ابن ماجه من حديث جابر بإسناد صحيح (٥) حديث « لانا من غير الدجال أخوف عليكم من الدجال » الحديث » أخرجه أحمد من حديث أبي ذر بإسناد جيد (٦) حديث « من ازداد علماً ولم يزد هدى لم يزد من الله إلا بعداً » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس وحديث على بإسناد ضعيف إلا أنه قال « زهداً » وروى ابن حبان في روضة العقلاء موقوفاً على الحسن « من ازداد علماً لم يزد من الدنيا حرصاً لم يزد من الله إلا بعداً » وروى أبو الفتح الأزدي في الضعفاء من حديث على « من ازداد بالله علماً لم يزد من الدنيا حباً ازداد الله عليه غضباً »

وقال صلى الله عليه وسلم « إن العالم ليعذب عذاباً يطيف به أهل النار استعظماً لشدة عذابه ^(١) » ، أراد به العالم الفاجر . وقال أسامة بن زيد : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أفتابه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى فيطيف به أهل النار فيقولون مالك فيقول كنت أمر بالخير ولا آتية وأنهى عن الشر وآتية ^(٢) » ، وإنما يضاعف عذاب العالم في مصيئته لأنه عصى عن علم ولذلك قال الله عز وجل ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ لأنهم جحدوا بعد العلم ، وجعل اليهود شراً من النصارى مع أنهم ما جعلوا لله سبحانه ولداً ولا قالوا : إنه ثالث ثلاثة ، إلا أنهم أنكروا بعد المعرفة إذ قال الله ﴿ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ وقال تعالى ﴿ فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلغنة الله على الكافرين ﴾ وقال تعالى - في قصة بلعام بن باعوراء - ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتينا آياتنا فانسخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ﴾ حتى قال ﴿ فثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾ فكذلك العالم الفاجر فان بلغام ألقى كتاب الله تعالى فأخذ إلى الشهوات فشبّه بالكلب أى سواء ألقى الحكمة أو لم يؤث فهو يلهث إلى الشهوات . وقال عيسى عليه السلام : مثل علماء السوء مثل قناة الحش ظاهرها جص وباطنها نتن ، ومثل القبور ظاهرها عامر وباطنها عظام الموتى : فهذه الأخبار والآثار تبين أن العالم الذى هو من أبناء الدنيا أخص حالاً وأشد عذاباً من الجاهل . وأن الفاسقين المقربين هم علماء الآخرة ولهم علامات : فمنها أن لا يطلب الدنيا بعلمه فان أقل درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا وخستها وكدورتها وانصرامها وعظم الآخرة ودوامها وصفاء نعيمها وجلالة ملكها ويعلم أنهما متضادتان وأنهما كالضرتين مهما أرسيت إحداها أسخطت الأخرى وأنهما ككفتى الميزان مهما رجحت إحداها خفت الأخرى وأنهما كالشرق والمغرب مهما قربت من أحدهما بعدت عن الآخر وأنهما كقذحين أحدهما ملوئ والآخر فارغ فيفقد ما تصب منه في الآخر حتى يتملى بفرغ الآخر . فان من لا يعرف حقارة الدنيا وكدورتها وامتزاج لذاتها بألمها ثم انصرام ما يصفو منها فهو فاسد العقل . فان المشاهدة والتجربة ترشد إلى ذلك فكيف يكون من العلماء من لا عقل له ؟ ومن لا يعلم عظم أمر الآخرة ودوامها فهو كافر مسلوب الإيمان فكيف يكون من العلماء من لا إيمان له ومن لا يعلم مضادة الدنيا للآخرة وأن الجمع بينهما طمع فى غير مطمع ؟ فهو جاهل بشرائع الانبياء كلهم بل هو كافر بالقرآن كله من أوله إلى آخر فكيف يعد من زمرة العلماء ؟ ومن علم هذا كله ثم لم يؤثر الآخرة على الدنيا فهو أسير الشيطان قد أهلكته شهوته وغلبت عليه شقوته فكيف يعد من حزب العلماء من هذه درجته ؟ وفي أخبار داود عليه السلام حكاية عن الله تعالى « إن أدنى ما أصنع بالعالم إذا أثر شهوته على محبتي أن أحرمه لذيذ مناجاتي ، ياداد ولا تسأل عنى عالماً قد أسكرته الدنيا فيصدك عن طريق محبتي أولئك قطاع الطريق على عبادى ، يادادو إذا رأيت لى طالباً فكن له خادماً ؛ يادادو من رد إلى هاربا كتبتيه جهيدا ومن كتبتيه جهيدا لم أعذبه أبداً » ولذلك قال الحسن رحمه الله : عقوبة العلماء موت القلب وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة . ولذلك قال يحيى بن معاذ : إنما يذهب بهاء العلم والحكمة إذا طلب بهما الدنيا . وقال سعيد بن المسيب رحمه الله : إذا رأيت العالم يغشى الأمراء

(١) حديث « إن العالم يعذب عذاباً يطيف به أهل النار . الحديث » لم أجده بهذا اللفظ وهو معنى حديث أسامة المذكور بعده

(٢) حديث أسامة بن زيد « يؤتى بالعالم يوم القيامة ويلقى في النار فتندلق أفتابه . الحديث » متفق عليه باللفظ « الرجل »

فهو لص ، وقال عمر رضى الله عنه : إذا رأيتم للعالم محباً للدنيا فاتهم مرة على دينكم فإن كل محب يخوض فيما أحب وقال مالك بن دينار رحمه الله : قرأت في بعض الكتب السالفة إن الله تعالى يقول إن أهون ما أصنع بالعالم إذا أحب الدنيا أن أخرج حلاوة مناجاتي من قلبه . وكتب رجل إلى أخ له : إنك قد أوتيت علماً فلا تطفن بور عليك بظلمة الذنوب فتبقي في الظلمة يوم يسعى أهل العلم في نور علمهم ، وكان يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله يقول لعلماء الدنيا : يا أصحاب العلم قصوركم فيصريه ويوتكم كسروية وأثوابكم ظاهرية وأخفافكم جالوتية ومراكبكم قارونية وأوانيكم فرعونية وما تمكم جاهلية ومذاهبكم شيطانية فأين الشريعة المحمدية ؟ قال الشاعر :

وراعى الشاة يحمى الذئب عنها فكيف إذا الرعاة لها ذئاب ؟

وقال الآخر :

يامعشر القسراء يا ملح البلد ما يصلح الملح إذا الملح فسد ؟

وقيل لبعض العارفين : أتري أن من تكون المعاصي قرة عينه لا يعرف الله ؟ قال لاشك أن من تكون الدنيا عنده آثر من الآخرة أنه لا يعرف الله تعالى . وهذا دون ذلك بكثير ولا تظن أن ترك المال يكفي في اللحوق بعلماء الآخرة فإن الجاه أضر من المال . ولذلك قال بشر « حدثنا » باب من أبواب الدنيا فإذا سمعت الرجل يقول « حدثنا » فأنما يقول : أوسعوا لي . ودهن بشر بن الحرث بضعة عشر ما بين قطرة وقوصرة من الكتب وكان يقول : أنا أشتى أن أحدث ، ولو ذهبت عنى شهوة الحديث لحديث ، وقال هو وغيره : إذا اشتيت أن تحدث فاسكت فإذا لم تشته تحدث . وهذا لأن التلذذ بجاه الإفادة ومنصب الإرشاد أعظم لذة من كل تتم في الدنيا فمن أجاب شهوته فيه فهو من أبناء الدنيا . ولذلك قال الثوري : فتنة الحديث أشد من فتنة الأهل والمال والولد وكيف لا تخاف فتنته وقد قيل لسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً) وقال سهل رحمه الله : العلم كاه دنيا والآخرة منه العمل به والعمل كاه هباء إلا الإخلاص . وقال : الناس كلهم موتى إلا العلماء والعلماء سكارى إلا العاملين والعاملون كلهم مغرورون إلا المحلصين والمخلص على وجل حتى يدري ماذا يختم له به . وقال أبو سليمان المداراني رحمه الله : إذا طلب الرجل الحديث أو تزوج أو سافر في طلب المعاش ، فقد ركن إلى الدنيا وإنما أراد به طلب الأسانيد العالية أو طلب الحديث الذي لا يحتاج إليه في طلب الآخرة ، وقال عيسى عليه السلام : كيف يكون من أهل العلم من مسيره إلى آخرته وهو مقبل على طريق دنياه وكيف يكون من أهل العلم من يطلب الكلام ليخبر به لا ليعمل به ؟ وقال صالح بن كيسان البصرى : أدركت الشيوخ وهم يتعوذون بالله من الفاجر العالم بالسنة . وروى أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من طلب علماً مما يبتغى به وجه الله تعالى ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة (١) » ، وقد وصف الله علماء السوء بأكل الدنيا بالعلم ووصف علماء الآخرة بالخشوع والزهد . فقال عز وجل في علماء الدنيا (وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً) وقال تعالى في علماء الآخرة (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً أولئك لهم أجرهم عند ربهم) وقال بعض السلف : العلماء يحشرون في زمرة الأنبياء والقضاة يحشرون في زمرة السلاطين . وفي معنى القضاة كل فقيه قصده طلب الدنيا بعلمه . وروى

(١) حديث أبي هريرة « من طلب علماً مما يبتغى به وجه الله ليصيب به عرضاً... الحديث » أخرجه أبو داود وابن ماجه

أبو الدرداء رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « أوحى الله عز وجل إلى بعض الأنبياء : قل للذين يتفقهون لغير الدين ويتعلمون لغير العمل ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة يلبسون للناس مسوك الكباش وقلوبهم كقلوب الذئب ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمرّ من الصبر لرباي يجادعون وبي يستهزئون لأفتحن لهم فتنة تذر الحليم حيران (١) ، وروى الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « علماء هذه الأمة رحلان : رجل آتاه الله علماً فبذله للناس ولم يأخذ عليه طمعاً ولم يشتري به ثمناً فذلك يصلى عليه طبر السماء وحيتان الماء ودواب الأرض والكرام الكاتبون يقدم على الله عز وجل يوم القيامة سيداً شريفاً حتى يوافق المرسلين ، ورجل آتاه الله علماً في الدنيا ففطن به على عباد الله وأخذ عليه طمعاً واشترى به ثمناً فذلك يأتي يوم القيامة ملجأ بلجام من نار ينادى مناد على رؤوس الخلائق هدا فلان بن فلان آتاه الله علماً في الدنيا ففطن به على عباده وأخذ به طمعاً واشترى به ثمناً فيعذب حتى يفرغ من حساب الناس (٢) ، وأشد من هذا ما روى « أن رجلاً كان يخدم موسى عليه السلام فجعل يقول حدثني موسى صني الله حدثني موسى نجي الله حدثني موسى كلسم الله حتى أترى وكثر ماله فنقده موسى عليه السلام فجعل يسأل عنه ولا يحس له خبراً حتى حاه رجل ذات يوم وفي يده خنزير وفي عنقه جبل أسود فقال له موسى عليه السلام : أتعرف فلانا ؟ قال : نعم قال هو هذا الخنزير ، فقال موسى : يارب أسألك أن ترده إلى حاله حتى أسأله بم أصابه هذا ؟ فأوحى الله عز وجل إليه : لو دعوتني بالذي دعاني به آدم فن دونه ما أجبته فيه ولكن أخبرك لم صنعت هذا به ؟ لأنه كان يطلب الدنيا بالدين ، وأغلظ من هذا ما روى معاذ بن جبل رضى الله عنه موقوفاً ومرفوعاً في رواية عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع (٣) ، وفي الكلام تميمق وزيادة ولا يؤمن على صاحبه الخطأ وفي الصمت سلامة وعلم . ومن العلماء من يخون علمه فلا يجب أن يوجد عند غيره فذلك في الدرك الأول من النار . ومن العلماء من يكون في علمه بمنزلة السلطان إن رد عليه شيء من علمه أو تهوون بشيء من حقه عضب فذلك في الدرك الثاني من النار . ومن العلماء من يجعل علمه وغرائب حديثه لأهل الشرف واليسار ولا يرى أهل الحاجة له أهلاً فذلك في الدرك الثالث من النار . ومن العلماء من ينصب نفسه للفتيا فيفتي بالخطأ والله تعالى يبغض المتكفين فذلك في الدرك الرابع من النار . ومن العلماء من يتكلم بكلام اليهود والنصارى ليعزر به علمه فذلك في الدرك الخامس من النار . ومن العلماء من يتخذ علمه مروءة وتبلاً وذكرراً في الناس فذلك في الدرك السادس من النار . ومن العلماء من يستغزه الزهو والعجب فان وعظ عنف وإن وعظ أنف فذلك في الدرك السابع من النار . فعليك يا أخى بالصمت فيه تغلب الشيطان . وإياك أن تضحك من غير عجب أو تمشي في غير أرب . وفي خبر آخر « إن العبد لينشر له من الثناء ما يملأ ما بين المشرق والمغرب وما يزن عند الله جناح بموصة (٤) ، وروى أن الحسن حمل إليه رجل من حراسان كيساً بعد انصرافه من مجلسه فيه خمسة آلاف درهم وعشرة أثواب من رقيق البن وقال . يا أبا سعيد هذه نفقة وهذه كسوة ؟ فقال الحسن . عافاك الله تعالى ، ضم اليك نفقتك وكسوتك فلا حاجة لنا بذلك إنه من

(٢) حديث أبي الدرداء « أوحى الله إلى بعض الأنبياء : قل للذين يتمقهون لغير الدين . الحديث » أخرجه ابن عسيدر بإسناد ضعيف (٢) حديث ابن عباس « علماء هذه الأمة رحلان . . الحديث » أخرجه الطبراني في الأوسط بإسناد صحيح (٣) حديث معاذ « من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع . . الحديث » أخرجه أبو داود وابن الجوزي في الموضوعات (٤) حديث « إن العبد لينشر له من الثناء ما بين المشرق والمغرب وما يزن عند الله جناح بموصة » لم أجده هكذا وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة « إنه يأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بموصة »

جالس مثل مجلسي هذا وقبل من الناس مثل هذا لقي الله تعالى يوم القيامة ولا خلاق له . وعن جابر رضى الله عنه موقوفا ومرفوعا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا تجلسوا عند كل عالم إلا إلى عالم يدعوكم من خمس إلى خمس : من الشك إلى اليقين ، ومن الرياء إلى الإخلاص ، ومن الرغبة إلى الزهد ، ومن الكبر إلى التواضع ، ومن العداوة إلى النصيحة ^(١) ، وقال تعالى ﴿ نخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم ﴾ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن ﴿ الآية ، فعرف أهل العلم بإيثار الآخرة على الدنيا . ومنها أن لا يخالف فعله قوله بل لا يأمر بالشئ ما لم يكن هو أول عامل به . قال الله تعالى ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ﴾ وقال تعالى ﴿ كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ وقال تعالى في قصة شعيب ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ وقال تعالى ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾ وقال تعالى ﴿ واتقوا الله واسمعوا ﴾ وقال تعالى لعيسى عليه السلام ﴿ يا ابن مريم عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحي مني ﴾ ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مررت ليلة أسرى في بأقوام تقرض شفاهم بمقاريض من نار فقلت : من أنتم ؟ فقالوا : كنا نأمر بالخير ولا نأتمى ونهى عن الشر ونأتمى ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم « هلاك أمتي عالم فاجر وعابد جاهل ، وشر الشرار شرار العلماء ، وخير الخياري خيار العلماء ^(٣) ، وقال الأوزاعي رحمه الله : شككت المواويس ما تجد من نتن جيف الكفار فأوحى الله إليها : بطون علماء السوء أنتم بما أنتم فيه . وقال الفصيل بن عياض رحمه الله : بلغني أن الفسقة من العلماء يبدأ بهم يوم القيامة قبل عدة الأوثان . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : ويل لمن لا يحلم مرة ويول لمن يعلم ولا يعمل سبع مرات . وقال الشعبي : يطلع يوم القيامة قوم من أهل الجنة على قوم من أهل النار فيقولون لهم : ما أدخلكم النار وإنما أدخلنا الله الجنة بفضل تأديبكم وتعليمكم ؟ فيقولون إنا كنا نأمر بالخير ولا نفعله ونهى عن الشر ونفعله . وقال حاتم الأصم رحمه الله ليس في القيامة أشد حسرة من رجل علم الناس علما فعملوا به ولم يعمل هو به ففازوا بسبه وهلك هو . وقال مالك ابن دينار : إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت مرعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا . وأنشدوا :

ما واعظ الناس قد أصبحت متبهما إذ عبت منهم أمورا أنت تأتميا

أصحت تصحهم بالوعظ محتدا فالمواقات لعمرى أنت جانيها

تعيب دنيا وناسا راغبين لها وأنت أكثر منهم رغبة فيها

لا تنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

وقال آخر :

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : مررت بحجر بمكة مكتوب عليه « اقلبنى تعتبر ، فقلبتة فإذا عليه مكتوب « أنت بما تعلم لا تعمل فكيف تطلب علم ما لم تعلم » ؟ وقال ابن السبكي رحمه الله : كم من مدكر بالله ناس الله ! وكم من محترف بالله جرى على الله : وكم من مقرب إلى الله بعيد من الله ! وكم من داع إلى الله فاز من الله ! وكم من تال كتاب الله منسوخ عن آيات الله ! وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : لقد أعربنا في كلامنا فلم نلحن ولحننا في أعمالنا فلم نعرب . وقال الأوزاعي : إذا جاء الإعراب ذهب الخشوع . وروى مكحول عن عبد الرحمن بن غنم أنه قال : حدثني عشرة

(١) حديث جابر « لا تجلسوا عند كل عالم . . الحديث » أخرجه أبو نعيم في الحلية وابن الجوزي في الموضوعات

(٢) حديث « مررت ليلة أسرى في بأقوام تقرض شفاهم بمقاريض من نار . . الحديث » أخرجه ابن جبان من حديث أنس .

(٣) حديث « هلاك أمتي عالم فاجر وشر الشرار شرار العلماء . . الحديث » أخرجه الداريمى من رواية الأحوص بن حكيم عن

أبيه مرسل آخر الحديث نحوه وقد تقدم ولم أجد صدر الحديث

من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا ، كنا ندرس العلم في مسجد قباء إذ خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال . تعلموا ما شئتم أن تعلموا فإن يأجركم الله حتى تعملوا (١) ، وقال عيسى عليه السلام : مثل الذي يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل امرأة زنت في السر فحملت فظهر حملها فافتضحت فكذلك من لا يعمل بعلمه يفضحه الله تعالى يوم القيامة على رموس الأشهاد . وقال معاذ رحمه الله : احذروا زلة العالم لأن قدره عند الخلق عظيم فيتبعونه على زلته . وقال عمر رضي الله عنه : إذا زل العالم زل يزلته علم من الخلق ، وقال عمر رضي الله عنه : ثلاث بهن ينهدم الزمان إحداهن زلة العالم . وقال ابن مسعود : سيأتي على الناس زمان تملح فيه عدوية القلوب فلا ينتفع بالعلم يومئذ علمه ولا متعلمه فتكون قلوب علماءهم مثل السباخ من ذوات الملح ينزل عليها قطر السماء فلا يوجد لها عدوية ، وذلك إذا مالت قلوب العلماء إلى حب الدنيا وإيثارها على الآخرة فعند ذلك يسلبها الله تعالى ينابيع الحكمة ويطنق مصابيح الهدى من قلوبهم فيخبرك عالمهم حين تلقاه أنه يحشى الله بلسانه والفجور ظاهر في عمله ، فما أخصب الآسن يومئذ وما أجذب القلوب فوالله الذي لا إله إلا هو ما ذلك إلا لأن المعلمين علموا لغير الله تعالى والمعلمين تعلموا لغير الله تعالى . وفي التوراة والإنجيل مكتوب : لا تطلبوا علم ما لم تعلموا حتى تعملوا بما علمتم . وقال حذيفة رضي الله عنه : إنكم في زمان من ترك فيه عشر ما يعلم هلك ، وسيأتي زمان من عمل فيه بعشر ما يعلم نجا وذلك لكثرة البطالين . واعلم أن مثل العالم مثل القاضي وقد قال صلى الله عليه وسلم « القضاة ثلاثة : قاض قضي بالحق وهو يعلم فذلك في الجنة وقاض قضي بالجور وهو يعلم أولا يعلم فهو في النار وقاض قضي بغير ما أمر الله به فهو في النار (٢) » ، وقال كعب رحمه الله : يكون في آخر الزمان علماء يزهدون الناس في الدنيا ولا يزهدون ، ويخوفون الناس ولا يخافون ، وينهون عن غشيان الولاية ويأتونهم ، ويؤثرون الدنيا على الآخرة يأكلون بألسنتهم ، يقربون الأغنياء دون الفقراء ، يتغايرون على العلم كما تتغايرون النساء على الرجال ؛ بغضب أحدهم على جلسه إذا جالس غيره ، أولئك الجبارون أعداء الرحمن . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان ربما يسوفكم بالعلم ، فقيل : يا رسول الله وكيف ذلك ؟ قال صلى الله عليه وسلم : يقول اطلب العلم ولا تعمل حتى تعلم فلا يزال للعلم قائلاً وللعمل مسوفاً حتى يموت وما عمل (٣) » ، وقال سري السقطي (اعتزل رجل للتعب كان حريصاً على طلب علم الظاهر فسأله فقال : رأيت في النوم قائلاً يقول لي « إلى كم تضيع العلم صيعة لك الله ، فقلت . إنى لأحفظه فقال « حفظ العلم العمل به » ، فتركت الطلب وأقبلت على العمل . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : (ليس العلم بكثرة الرواية وإنما العلم الخشية) وقال الحسن : تعلموا ما شئتم أن تعلموا فوالله لا يأجركم الله حتى تعملوا فإن السفهاء همته الرواية والعلماء همته الرعاية : وقال مالك رحمه الله : إن طلب العلم لحسن وإن نشره لحسن وإذا صححت فيه النية ولكن انظر ما يلزمك من حين تصبح إلى حين تمشي فلا تؤثرن عليه شيئاً . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : أنزل القرآن ليعمل به فانتخذهم دراسته عملاً وسيأتي قوم يثقفونه مثل القناة ليسوا بخياركم والعالم الذي لا يعمل كالمرضى الذي يصف الدواء وكالجائع الذي يصف لذائذ الأاطعمة ولا يجدها . وفي مثله قوله تعالى ﴿ ولكم الويل مما تصفون ﴾ وفي الخبر « إنما أخاف على أمتي زلة عالم

(١) حديث عبد الرحمن بن غنم عن عمرة من أصحابه « تعلموا ، اشتم أن تعلموا فلن يأجركم الله حتى تعملوا » علقه ابن عبد البر وأسنداه ابن عمري وأبو نعيم والطيب - في كتاب اقتضاء العلم بالعمل - من حديث معاذ فقط - بسند ضيف ورواه الدارمي موقوفاً على معاذ بسند صحيح .

(٢) حديث « القضاة ثلاثة .. الحديث » أخرجه أصحاب السنن من حديث بريدة وهو صحيح

(٣) حديث « إن الشيطان ربما يسوفكم بالعلم . الحديث » في الجامع من حديث أسد بصيف

وجدال مناقق في القرآن^(١) ، ومنها أن تكون عنايته بتحصيل العلم النافع في الآخرة المرغوب في الطاعات مجتنباً للعلوم التي يقل نفعها ويكثر فيها الجدال والقييل والقال . فشال من يعرض عن علم الأعمال ويشغل بالجدال مثل رجل مريض به علل كثيرة وقد صادف طبيباً حاذقاً في وقت ضيق يخشى فواته فاشتغل بالسؤال عن خاصية العقاقير والأدوية وغرائب الطب وترك مهمه الذي هو مؤاخذ به ، وذلك محض السفه . وقد روى « أن رجلاً جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : علمني من غرائب العلم ، فقال له : ما صنعت في رأس العلم ؟ فقال : ومارس العلم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم ، هل عرفت الرب تعالى ؟ قال : نعم ، فما صنعت في حقه ؟ قال : ما شاء الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : هل عرفت الموت ؟ قال نعم ، قال : فما أعددت له ؟ قال : ما شاء الله ، قال صلى الله عليه وسلم : إذهب فأحكّم ما هناك ثم تعال نعلمك من غرائب العلم^(٢) » بل ينبغي أن يكون المتعلم من حنّس ماروي عن حاتم الأصم - تلميذ شقيق الباخى رضى الله عنهما - أنه قال له : شقيق منذ كم صحبتني ؟ قال حاتم : منذ ثلاث وثلاثين سنة ، قال : فما تعلمت مني في هذه المدة ؟ قال : ثمان مسائل ، قال شقيق له : إنا لله وإنا إليه راجعون ذهب عمري معك ولم تتعلم إلا ثمان مسائل ؟ قال : يا أستاذ لم أتعلم غيرها وإني لا أحب أن أكذب ، فقال هات هذه الثمان مسائل حتى أسمعها ، قال حاتم : نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد يحب محبوباً فهو مع محبوبه إلى القبر فاذا وصل إلى القبر فارقه فجعلت الحسنات محبوبي فاذا دخلت القبر دخل محبوبي معي . فقال : أحسنت يا حاتم فما الثانية ؟ فقال : نظرت في قول الله عز وجل ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ﴾ فعلمت أن قوله سبحانه وتعالى هو الحق فأجهدت نفسي في دفع الهوى حتى استقرت على طاعة الله تعالى . الثالثة أني نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل من محه شيء له قيمة ومتمدار رفعة وحفظه ثم نظرت إلى قول الله عز وجل ﴿ ما عندكم ينفذ وما عند الله باق ﴾ فكلما وقع معي شيء له قيمة ومتمدار وجهته إلى الله لسبق عهده محفوظاً . الرابعة : أني نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يرجع إلى المال ولإل الحسد والشرف والنسب فنظرت فيها فإذا هي لا شيء ثم نظرت إلى قول الله تعالى ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ فعملت في التقوى حتى أكون عند الله كريماً ، الخامسة : أني نظرت إلى هذا الخلق وهم يطعن بعضهم في بعض ويلعن بعضهم بعضاً وأصل هذا كله الحسد ثم نظرت إلى قول الله عز وجل ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ﴾ فتركت الحسد واجتنت الخلق وعلت أن القسمه من عند الله سبحانه وتعالى فتركت عداوة الخلق عني . السادسة : نظرت إلى هذا الخلق يبغى بعضهم على بعض ويفاتل بعضهم بعضاً فرحمت إلى قول الله عز وجل ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ﴾ فعاديته وحده واجتهدت في أخذ حذري منه لأن الله تعالى شهد عليه أنه عدو لي فتركت عداوة الخلق غيره . السابعة : نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يطلب هذه الكسرة فيذل فيها نفسه ويدخل فيما لا يحل له ثم نظرت إلى قوله تعالى ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ فعملت أني واحد من هذه الدواب التي على الله رزقها فاستغلت بما لله تعالى على وتركت ما لي عنده . الثامنة : نظرت إلى هذا الخلق فرأيتهم كلهم متوكلين على مخلوق - هذا على ضيعته وهذا على تجارته وهذا على صناعته وهذا على صحة بدنه - وكل مخلوق متوكل على مخلوق مثله فرجعت إلى

(١) حديث « لانا أحاف على أمي زلة عالم .. الحديث » أخرجه الطبراني من حديث أبي الدرداء ، ولابن حبان نحوه من حديث عمرات بن حصين (٢) حديث « أن رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال علمني من غرائب العلم .. الحديث » رواه ابن السني وأبو نعيم في كتاب الرياضة لها ، وابن عبد البر من حديث عبد الله بن المنصور ومرسلاً وموضيعة جداً (٩ - لحياء علوم الدين - ١)

قوله تعالى (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) فتوكلت على الله عز وجل فهو حسبي، قال شقيق: يا حاتم وفقك الله تعالى فإني نزلت في علوم التوراة والإنجيل والزبور والفرقان العظيم فوجدت جميع أنواع الخير والديانة وهي تدور على هذه اثمان مسائل فمن استعملها فقد استعمل الكتب الأربعة فهذا الفن من العلم لا يهتم بإدراكه والتفطن له إلا علماء الآخرة فأما علماء الدنيا فيشتغلون بما يتييسر به اكتساب المال والجاه ويهملون أمثال هذه العلوم التي يمت الله بها الأنبياء عليهم السلام وقال الضحاك بن مزاحم: أدركتهم وما يتعلم بعضهم من بعض إلا الورع وهم اليوم ما يتعلمون إلا الكلام، ومنها أن يكون غير مائل إلى الترفه في المطعم والمشرب والتنعم في الملابس والتجمل في الأثاث والمسكن بل يؤثر الاقتصاد في جميع ذلك ويتشبه فيه بالسلف رحمهم الله تعالى ويميل إلى الاكتفاء بالأقل في جميع ذلك وكلما زاد إلى طرف القلة ميله ازداد من الله قربه وارتفع في علماء الآخرة حربه. ويشهد لذلك ما حكى عن أبي عبد الله الخواص - وكان من أصحاب حاتم الأصم - قال: دخلت مع حاتم إلى الري ومعنا ثلثمائة وعشرون رجلاً يريد الحج وعليهم الزرمانقات وليس معهم جراب ولا طعام فدخلنا على رجل من التجار متكشف يحب المساكين فأضافنا تلك الليلة فلما كان من الغد قال لحاتم: ألك حاجة فإني أريد أن أعود فقيها لنا هو عليل؟ قال حاتم عيادة المريض وبها فضل والنظر إلى الفقيه عبادة وأنا أيضاً أجد معك. وكان العليل محمد بن مقاتل - قاضي الري - فلما جئنا إلى الباب فإذا قصر مشرف حسن فبقى حاتم متفكراً يقول: باب عالم على هذه الحالة؟ ثم أذن لهم فدخلوا فإذا دار حستان فوراء واسعة تزهر وإذا بزة وستور فبقى حاتم متفكراً ثم دخلوا إلى المجلس الذي هو فيه وإذا بفرش وطيبة وهو رائد عليها وعند رأسه غلام ويده مذبذبة فقدم الزائر عند رأسه وسأل عن حاله وحاتم قائم فأومأ إليه ابن مقاتل أن اجلس فقال لأجلس فقال لعل لك حاجة فقال: نعم، قال: وما هي؟ قال: مسألة أسألك عنها قال: سل، قال: قم فاستو جالساً حتى أسألك. فاستوى جالساً قال حاتم: علمك هذا من أين أخذته؟ فقال: من الثقات حدثوني به، قال: عمن؟ قال: عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن؟ قال: عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: ورسول الله صلى الله عليه وسلم عمن؟ قال: عن جبرائيل عليه السلام عن الله عز وجل. قال حاتم فنبها أدهاء جبرائيل عليه السلام عن الله عز وجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأدهاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وأصحابه إلى الثقات وأدهاء الثقات إليك هل سمعت فيه من كان في داره إشراف وكانت سمعتها أكثر كان له عند الله عز وجل منزلة أكبر؟ قال: لا. قال: فكيف سمعت؟ قال: سمعت أنه من زهد في الدنيا ورغب في الآخرة وأحب المساكين وقدم لآخرته كانت له عند الله منزلة، قال له حاتم: فأنت بمن اقتديت بأبائنا صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم والصالحين رحمهم الله أم بفرعون وتمروذ أول من نبى بالجص والآجر؟ يا علماء السوء مثلكم يراه الجاهل للتكالب على الدنيا الراغب فيها فيقول: العالم على هذه الحالة: أفلا أكون أنا شراً منه؟ وخرج من عنده فزدد ابن مقاتل مرضاً وبلغ أهل الري ما جرى بينه وبين ابن مقاتل فقالوا له: إن الطنافسي بقزوين أكثر توسعاً منه. فسار حاتم متعمداً فدخل عليه فقال: رحمة الله أنا رجل أجمي أحب أن تعلمني مبتدأ ديني ومفتاح صلاتي كيف أتوضأ للصلاة؟ قال: نعم وكرامة يا غلام هات إنياء فيه ماء. فأتى به فقدم الطنافسي فتوضأ ثلاثاً ثلاثاً ثم قال: هكنا فتوضأ. فقال حاتم: مكانك حتى أتوضأ بين يديك فيكون أوكد لما أريد، فقام الطنافسي وقعد حاتم فتوضأ ثم غسل ذراعيه أربعاً أربعاً فقال الطنافسي: يا هذا أسرفت. قال له حاتم: فبماذا؟ قال غسلت ذراعيك أربعاً. فقال حاتم: يا سبحان الله العظيم أنا في كف من ماء أسرفت وأنت في جميع هذا كله لم تسرف؟ فسلم الطنافسي

أنه قصد ذلك دون التعلم فدخل منزله فلم يخرج إلى الناس أربعين يوماً فلما دخل حاتم بغداد اجتمع إليه أهل بغداد فقالوا : يا أبا عبد الرحمن أنت رجل ولكن أعجمى وليس بكلمك أحد إلا قطعته ، قال : معى ثلاث خصال أظهر بهن على خصمى أفرح إذا أصاب خصمى وأحزن إذا أخطأ وأحفظ نفسى أن لأحبل عليه . فبأن ذلك الإمام أحمد بن حنبل فقال : سبحان الله ما أعقله قوموا بنا إليه . فلما دخلوا عليه قال له : يا أبا عبد الرحمن ما السلامة من الدنيا ؟ قال : يا أبا عبد الله لا تسلم من الدنيا حتى يكون معك أربع خصال : تغفر للقوم جهلكم وتمتع جهلك منهم وتبذل لهم شيئك وتكون من شيئهم آيساً ، فإذا كنت هكذا سلمت ، ثم سار إلى المدينة فاستقبله أهل المدينة فقال : يا قوم أية مدينة هذه ؟ قالوا : مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فأين قصر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أصلى فيه ؟ قالوا : ما كان له قصر وإنما كان له بيت لاطئ بالأرض ، قال : فأين قصور أصحابه رضى الله عنهم ؟ قالوا : ما كان لهم قصور وإنما كان لهم بيوت لاطئة بالأرض ؛ قال حاتم : يا قوم فهذه مدينة فرعون ، فأخذوه وذهبوا به إلى السلطان وقالوا . هذا العجمى يقول هذه مدينة فرعون ، قال الوالى : ولم ذلك ؟ قال حاتم : لا تعجل على أنا رجل أعجمى غريب دخلت البلد فقلت مدينة من هذه فقلوا مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت فأين قصر وقص القصة ، ثم قال : وقد قال الله تعالى ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ﴾ فأنتم بمن تأسيتم أبرسول الله صلى الله عليه وسلم أم بفرعون أول من بى بالجص والآحر ؟ خلوا عنه وتركوه . فهذه حكاية سخام الأصم رحه الله تعالى . وسيأتى من سيرة السلف فى البذاذة وترك التجمل ما يشهد لذلك فى مواضعه . و تحقيق فيه أن التزين بالمباح ليس محرام ولكن الخوض فيه يوجب الأانس به حتى يشق تركه ، واستدامة الزينة لا تتمكن إلا بمباشرة أسباب فى الغالب يلزم من مراعاتها ارتكاب المعاصى من المداهنة ومراعاة الخلق ومراماتهم وأمور أخر هى محظورة والحزم اجتناب ذلك لأن من خاص فى الدنيا لا يسلم منها ألبته ولو كانت السلامة مبذولة مع الخوض فيها لكان صلى الله عليه وسلم لا يبالغ فى ترك الدنيا حتى نزع القميص المطرز بالعلم ^(١) ونزع خاتم الذهب فى أثناء الخطبة ^(٢) إلى غير ذلك مما سيأتى بيانه . وقد حكى أن يحيى بن يزيد التوفلى كتب إلى مالك ابن أنس رضى الله عنهما « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على رسوله محمد فى الأولين والآخرين ، من يحيى ابن يزيد بن عبد الملك إلى مالك بن أنس ، أما بعد فقد بلغتنى أنك تلبس الدقاق وتأكل الرقاق وتجلس على الوطىء وتجعل على بابك حاجباً وقد جلست مجلس العلم وقد ضربت إليك المطىء وارتحل إليك الناس واتخذوك إماماً ورضوا بقولك ؛ فاتق الله تعالى يا مالك وعليك بالتواضع . كنبت إليك بالنصيحة من كتابا ما طلع عليه غير الله سبحانه وتعالى والسلام ، فكتب إليه مالك « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على الله سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم . من مالك ابن أنس إلى يحيى بن يزيد سلام الله عليك ، أما بعد : فقد وصل إلى كتابك فوق من موقع النصيحة والشفقة والآدب أمتعتك الله بالتقوى وجزاك بالنصيحة خيراً وأسأل الله تعالى التوفيق ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، فأما ما ذكرت لى أنى آكل الرقاق وألبس الدقاق وأحتجب وأجلس على الوطىء فمنن نفعل ذلك ودمتغفر الله تعالى فقد قال الله تعالى ﴿ قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾ ولانى لأعلم أن ترك ذلك خير من الدخول فيه . ولا تدعنا من كتابك فلسنا ندعك من كتابنا والسلام » فانظر إلى إنصاف مالك إذ اعترف أن

(١) حديث « نزع القميص المطرز بالعلم » . تنفق عليه من حديث عائشة (٢) حديث « نزع الخاتم الذهب فى أثناء الخطبة » متفق عليه

من حديث ابن عمر .

ترك ذلك خير من الدحول فيه وأفتى بأنه مباح وقد صدق فيهما جميعا ومثل مالك في منصبه إذا سمحت نفسه بالإنصاف والاعتراف في مثل هذه النصيحة فتقوى أيضا نفسه على الوقوف على حدود المباح حتى لا يحمله ذلك على المراماة والمداهنة والتجاوز إلى المكروهات وأما غيره فلا يتدر عليه فالتعريح على التسعم بالمباح خطر عظيم وهو بعيد من الخوف والخشية وخاصة علماء الله تعالى الخشمية وخاصة الخشمية التباعد من مظان الخطر . ومنها أن يكون مستقصيا عن السلاطين فلا يدخل عليهم ألبته مادام يجد إلى الفرار عنهم سبيلا بل ينبغي أن يحتز عن مخالطتهم وإن جاءوا إليه فإن الدنيا حلوة خضرة وزمامها بأيدي السلاطين . والمخالط لا يخلو عن تكلف في طيب مرضاتهم واستمالة قلوبهم مع أنهم طلبة . ويجب على كل متدين الإنكار عليهم وتضييق صدرهم بإظهار ظلمهم وتقبح فعلهم فالداخل عليهم إما أن يلتفت إلى تجملهم فيزدري نعمة الله عليه أو يسكت عن الإنكار عليهم فيكون مداهنا لهم أو يتكلف في كلامه كلاما لمرضاتهم وتحسين حالهم وذلك هو الهب الصريح أو أن يطمع في أن ينال من دنياهم وذلك هو السحت وسيأتي في كتاب الحلال والحرام ما يجوز أن يؤخذ من أموال السلاطين وما لا يجوز من الإدرار والجواز وغيرها . وعلى الجملة فمخالطتهم مفتاح للشرور وعلماء الآخرة طريقهم الاحتياط . وقال صلى الله عليه وسلم « من بدا جفا - يعني من سكن البادية جفا - ومن اتبع الصيد غفل ومن أتى السلطان افتتن » (١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « سيكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتكرهون فمن أنكر فقد برئ ومن كره فقد سلم ولكن من رضى وتابع أبده الله تعالى . قيل : أفلا نقاتهم ؟ قال صلى الله عليه وسلم : لا ماصلوا » (٢) ، وقال سميان : في جهنم واد لا يسكنه إلا القراء الزأرون للبلوك . وقال حديفة : لياكم ومواقف الفتن ، قيل وما هي ؟ قال : أبواب الأمراء يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب ويقول فيه ما ليس فيه . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « العلماء أمناء الرسل على عباد الله تعالى ما لم يخالطوا السلاطين فإذا فعلوا ذلك فقد خابوا الرسل فاحذروهم واعتزلوهم » (٣) ، رواه أنس . وقيل للأعمش : ولقد أحربت العلم لكثرة من يأحده عنك فقال : لا تعجلوا تلك يموتون قبل الإدراك وتلك يلزمون أبواب السلاطين فهم شر الحلق والثلك الباقي لا يفلح منه إلا القليل . ولذلك قال سعيد بن المسيب رحمه الله : إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فاحترزوا منه فإنه لص . وقال الأوراعى ما من شيء أبغض إلى الله تعالى من عالم يزور عاملا . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « شرار العلماء الذين يأتون الأمراء وحيار الأمراء الذين يأتون العلماء » (٤) ، وقال فمكحول الدمثقى رحمه الله ، من تعلم القرآن وتفقه في الدين ثم صحب السلطان تملقا إليه وطمعا فيما لديه خاض في بحر من نار جهنم بعدد خطاه . وقال سمنون : ما أسمع بالعالم أن يؤتى إلى مجلسه فلا يوجد فيسئل عنه فيقال هو عند الأمير قال : وكنت أسمع أنه يقال إذا رأيتم العالم يجب الدنيا فاتهموه على دينكم حتى حربت ذلك ؛ إذ ما دخلت قط على هذا السلطان إلا وحاسبت نفسي بعد الخروج فأرى عليها الدرك وأنتم ترون ما ألقاه به من الغاظة والمطاطة وكثرة المخالمة لهواه ولوددت أن انجو من الدخول عليه كغافا مع أنى لأأخذ منه شيئا ولا أشرب له شربة ماء . ثم قال : وعلماء زماننا شر من علماء بني إسرائيل يخبرون السلطان بالرخص وبما يوافق

(١) حديث « من بدا جفا .. الحديث » أخرجه أبو داود والترمذى وحسه والنسائي من حديث ابن عباس

(٢) حديث « سيكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتكرهون .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث أم سلمة (٢) حديث

أنس « العلماء أمناء الرسل على عباد الله .. الحديث » أخرجه العقيلي في الضمراء ، وذكره ابن الجوزى في الموضوعات .

(٤) حديث « شرار العلماء الذين يأتون الأمراء وحيار الأمراء الذين يأتون العلماء » أخرجه ابن ماجه بالشرط الأول نحوه من حديث أبي هريرة بسند ضعيف .

هواه ولو أخبروه بالذى عليه وفيه نجاته لاستثقلهم وكره دخولهم عليه وكان ذلك نجاتهم عند ربهم. وقال الحسن: كان فيمن كان قبلكم رحل له قدم في الإسلام وصحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم - قال عبد الله بن المبارك عن به سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه - قال وكان لا يغشى السلاطين ويفر عنهم . فقال له بنوه : يأتى هؤلاء من ليس هو مثلك في الصحبة والقدم في الإسلام فلو أنبتهم ، فقال : يا بنى آتى حيفة قد أحاط بها قوم والله لئن استطعت لأشركهم فيها ؛ قالوا يا أبانا لاذن نهلك هرا لا قال ، يا بنى لأن أموت مؤمنا مهزولا أحب إلى من أن أموت منافقا سمينا قال الحسن : خصمهم والله إذ علم أن التراب يأكل اللحم والسمن دون الإيمان . وفى هذا إشارة إلى أن الداخل على السلطان لا يسلم من النفاق ألينة وهو مضاد للإيمان . وقال أبو ذر أسلمة : يا سلمة لا تغش أبواب السلاطين فإنك لا تصيب شيئا من دنياهم إلا أصابوا من دينك أفضل منه . وهذه فتنة عظيمة للعلماء وذريعة صعبة للشيطان عليهم لاسيما من له لهجة مقبولة وكلام حلو ، إذ لا يزال الشيطان يلقي إليه : أن فى وعطك لهم ودخولك عليهم ما يجرهم عن الظلم ويقم شعائر الشرع إلى أن يخيل إليه أن الدخول عليهم من الدين ، ثم إذا دخل لم يلبث أن يتلطف فى الكلام ويدهان وبحوض فى الثناء والإطراء وفيه هلاك الدين . وكان يقال : العلماء إذا عملوا عملا فإذا عملوا فإذا اشغلوا فقدوا فإذا فقدوا طلبوا فإذا طلبوا هربوا : وكتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى الحسن : أما بعد فأشرف على بأقوام أستعين بهم على أمر الله تعالى . فكتب إليه : أما أهل الدين فلا يريدونك وأما أهل الدنيا هلن تريدكم ولكن عليك بالأشراف فإنهم يصوبون شرفهم أن يدنسوه بالحياة . هذا فى عمر بن عبد العزيز رحمه الله وكان أرهد أهل زمانه ؛ فإذا كان شرط أهل الدين الهرب منه فكيف يستنسب طلب غيرهم ومحالطته ؛ ولم يزل السلف العلماء مثل الحسن والتورى وابن المبارك والفضيل وإبراهيم بن أدهم ويوسف بن أسباط يتكلمون فى علماء الدنيا من أهل مكة والشام وغيرهم إما ليلهم إلى الدنيا وإما لمخالطتهم السلاطين منها أن لا يكون مسارعا إلى الفتيا بل يكون متوقفاً ومحترزاً ما وجد إلى الخلاص سبيلا . فإن سئل عما يعلمه تحقيقاً بنص كتاب الله أو بص حديث أو إجماع أو قياس حتى أفتى ، وإن سئل عما يسك فيه قال : لأدرى ! وإن سئل عما يظنه باجتهاد وتحمين احتاط ودفن عن نفسه وأحال على غيره إن كان فى غيره غنية هذا هو الحزم لأن تقلد خطر الاحتجاج عظيم وفى الخبر « العلم ثلاثة : كتاب ناطق وسنة قائمة ولا أدرى ^(١) » قال السعبي : « لأدرى » نصف العلم . ومن سكت حيث لا يدري لله تعالى فليس بأقل أجرا ممن نطق لأن الاعتراف بالجهل أشد على النفس ههكذا كانت عادة الصحابة والسلف رضى الله عنهم . كان ابن عمر إذا سئل عن الفتيا قال : اذهب إلى هذا الأمير الذى تقلد أمور الناس وضرباً فى عمقه ؛ وقال ابن مسعود رضى الله عنه : إن الذى يفتى الناس فى كل ما يستفتونه لمخون ، وقال : جنة العالم « لأدرى » فإن أخطأها فقد أصيبت مقاتله . وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : ليس شيء أسند على الشيطان من عالم يتكلم بعلم ويسكت بعلم ، يقول : انظروا إلى هذا سكوته أشد على من كلامه . ووصف بعضهم الأبدال فقال : اكلمهم فاعة ونومهم غلبة وكلامهم ضرورة ؛ أى لا يتكلمون حتى يسألوا وإذا سئلوا ووجدوا من يكلمهم سكتوا فإن اضطروا أجابوا وكابوا بمدون الابتداء قبل السؤال من السهوة الحفية للكلام . ومر على وعبد الله رضى الله عنهما برحل يتكلم على الناس فقال : هذا يقول اعرفونى . وقال بعضهم : إنما العالم الذى إذا سئل عن المسئلة فكأنما يقلع صرسه . وكان ابن عمر يقول : تريدون

(١) حديث « العلم ثلاثة : كتاب ناطق وسنة قائمة ولا أدرى » أخرجه الخطيب فى أسما من روى عن مالك موقفاً على ابن عمر ولأبى داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر مره فوعا نحوه مع اختلاف وقد تقدم

أن تجعلونا جسرا تعبرون علينا إلى جهنم . وقال أبو حفص النيسابوري : العالم هو الذى يحاف عند السؤال أن يقال له يوم القيامة من أين أجت ؟ وكان إبراهيم التيمي إذا سئل عن مسألة يبكي ويقول : لم تحدوا غيرى حتى احتجتم إلى . وكان أبو العالية الرياحي وإبراهيم بن أدهم والثوري يتكلمون على الاثنين والثلاثة والنمر اليسير فإذا كثروا انصروا . وقال صلى الله عليه وسلم : ما أدري أعزير نبي أم لا ؟ وما أدري أتبع ملعون أم لا ؟ وما أدري ذو القرنين نبي أم لا ؟ (١) ، ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حير البقاع في الأرض وشرها قال : لا أدري ، حتى نزل عليه جبريل عليه السلام فسأله فقال : لا أدري ، إلى أن أعلمه الله عز وجل أن حير البقاع المساجد وشرها الأسواق (٢) ، وكان ابن عمر رضى الله عنهما يسئل عن عشر مسائل فيجيب عن واحدة ويسكت عن تسع . وكان ابن عباس رضى الله عنهما يجيب عن تسع ويسكت عن واحدة . وكان في الفقهاء من يقول : لا أدري ، أكثر ممن يقول : أدري ، منهم سميان الثوري ومالك بن أنس وأحمد بن حنبل والفضيل بن عياض وبشر بن الحرث . وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى : أدركت في هذا المسجد مائة وعشرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منهم أحد يسئل عن حديث أو فتيا إلا ودأن أخاه كفاه ذلك . وفي لفظ آخر : كانت المسئلة تعرض على أحدهم فيردها إلى الآخر ويردها الآخر إلى الآخر حتى تعود إلى الأول وروى أن أصحاب الصفة أهدى إلى واحد منهم رأس مشوي وهو في غاية الضر فأهداه إلى الآخر وأهداه الآخر إلى الآخر ؛ هكذا دار بينهم حتى رجع إلى الأول . فانظر الآن كيف انعكس أمر العلماء فصار المهروب منه مطلوباً والمطلوب مهروباً عنه ؟ ويشهد لحسن الاحتراز من تقلد الفتاوى ما روى مسنداً عن بعضهم . أنه قال : لا يفتي الناس إلا ثلاثة : أمير أو مأمور أو متكلف . وقال بعضهم : كان الصحابة يتدافعون أربعة أشياء : الإمامة والوصية والودية والفتيا . وقال بعضهم : كان أسرعهم إلى الفتيا أقلهم علماً واشدهم دفعا لها أورعهم . وكان شغل الصحابة والتابعين رضى الله عنهم في خمسة أشياء : قراءة القرآن وعمارة المساجد وذكر الله تعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وذلك لما سمعوه من قوله صلى الله عليه وسلم : كل كلام ابن آدم عليه لاله إلا ثلاثة : أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو ذكر الله تعالى (٣) ، وقال تعالى ﴿ لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ﴾ الآية . ورأى بعض العلماء بعض أصحاب الرأي من أهل الكوفة في المنام فقال : ما رأيت فيما كنت عليه من الفتيا والرأى ؟ فكره وجهه وأعرض عنه وقال : ما وجدناه شيئاً وما حدثنا عاقبته . وقال ابن حصين : إن أحدهم ليفتي في مسألة لو وردت على عمر بن الخطاب رضى الله عنه لجمع لها أهل بدر . فلم يزل السكوت دأب أهل العلم إلا عند الضرورة . وفي الحديث : إذا رأيت الرجل قد أوتى صمتاً وزهداً فاتبوا منه فإنه يلقي الحكمة (٤) ، وقيل العالم إما عالم عامة وهو المفتي وهم أصحاب السلاطين أو عالم خاصة وهو العالم بالتوحيد وأعمال القلوب ، وهم أصحاب الزوايا المتفرقون المنفردون . وكان يقال : مثل أحمد بن حنبل مثل دجلة كل احد يفتقر منها ، ومثل بشر بن الحرث مثل بئر عذبة منقطة لا يقصدها إلا واحد بعد واحد . وكانوا يقولون : فلان عالم

(١) حديث : ما أدري أعزير نبي أم لا .. الحديث ، أخرجه أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة

(٢) حديث : لما سئل عن خير البقاع وشرها قال لا أدري حتى نزل جبريل .. الحديث ، أخرجه أحمد وأبو يعلى والبرار

والحاكم وصححه ونحوه من حديث ابن عمر (٣) حديث : كل كلام ابن آدم عليه لاله إلا ثلاثة .. الحديث ، أخرجه الترمذي

وإبن ماجه من حديث أم حبيبة ، قال الترمذي حديث عرب (٤) حديث : لمن رأيت الرجل قد أوتى صمتاً وزهداً .. الحديث أخرجه

ابن ماجه من حديث ابن خلد باسناد ضعيف

وفلان متكلم وفلان أكثر كلاماً وفلان أكثر عملاً ، وقال أبو سليمان : المعرفة إلى السكوت أقرب منها إلى الكلام وقيل : إذا كثرت العلم قل الكلام وإذا كثرت الكلام قل العلم وكتب سلمان إلى أبي الدرداء رضى الله عنهما - وكان قد آخى بينهما رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١) . يا أخى بلغنى أنك قدمت طيباً تداوى المرضى ، فانظر فإن كنت طيباً فتكلم فإن كلامك شفاء وإن كنت متطيباً فالله الله لا تقتل مسلماً . فكان أبو الدرداء يتوقف بعد ذلك إذا سئل وكان أنس رضى الله عنه إذا سئل يقول : سلوا مولانا الحسن . وكان ابن عباس رضى الله عنهما إذا سئل يقول : سلوا حارثة ابن زيد وكان ابن عمر رضى الله عنهما يقول : سلوا سعيد بن المسيب . وحكى أنه روى صحابى فى حضرة الحسن عشرين حديثاً فسئل عن تفسيرها فقال : ما عندى إلا ما رويت ، فأخذ الحسن فى تفسيرها حديثاً حديثاً ، فتمجروا من حسن تفسيره وحفظه ! فأخذ الصحابى كفا من حصى ورماهم به وقال : تسألونى عن العلم وهذا الخبر بين أظهركم ومنها أن يكون أكثر اهتمامه بعلم الباطن ومراقبة القلب ومعرفة طريق الآخرة وسلوكه وصدق الرجاء فى انكشاف ذلك من المحاهدة والمراقبة فإن المحاهدة تفضى إلى المشاهدة ، ودقائق علوم القلب تتفجر بها ينابيع الحكمة من القلب ، وأما الكتب والتعليم فلا تنى بذلك بل الحكمة الخارجة عن الحصر والعدن إنما تتفتح بالمحاهدة والمراقبة ومباشرة الأعمال الظاهرة والباطنة والجلوس مع الله عز وجل فى الخلوة مع حضور القلب بصافى العسكرة والانقطاع إلى الله تعالى عما سواه فذلك مفتاح الإلهام ومنبع الكشف ، فكم من متعلم طال تعلمه ولم يقدر على معاونة مسموعه بكلمة ، وكم من مقتصر على المهتم فى التعلم ومتوفر على العمل ومراقبة القلب فتح الله له من لطائف الحكمة ما تحار فيه عقول ذوى الأبواب ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم^(٢) ، وفى بعض الكتب السالفة : يابى إسرائيل لا تقولوا العلم فى السماء من ينزل به إلى الأرض ولا فى تحوم الأرض من يصعد به ولا من وراء البحار من يعبر به ، العلم مجعول فى قلوبكم تأدبوا بين يدي بآداب الروحانيين وتحلقوا لى بأخلاق الصديقين أظهر العلم فى قلوبكم حتى يغطيكم ويغمركم . وقال سهل بن عبد الله التستري رحمه الله : حرج العلماء والعباد والزهاد من الدنيا وقلوبهم مقفلة ولم تفتح إلا قلوب الصديقين والشهداء . ثم تلا قوله تعالى (وعندنا معاتب الغيب لا يعلمها إلا هو) الآية ولولا أن إدراك قلب من له قلب بالنور الباطن حاكم على علم الظاهر لما قال صلى الله عليه وسلم : استفتت قلبك وإن أفتوك وأفتوك وأفتوك ، وقال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تعالى : لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به^(٣) . . . الحديث ، فكم من معان دقيقة من أسرار القرآن تخطر على قلب المتجزئين المذكر والمكر تحلو عنها كتب التفسير ولا يطلع عليها أفضل المفسرين وإذا انكشف ذلك للمريد المراقب وعرض على المفسرين استحسونه وعلموا أن ذلك من تنبيهات القلوب الزكية وألطف الله تعالى بالهمم العالية المتوجهة إليه . وكذلك فى علوم المكاشفة وأسرار علوم المعاملة ودقائق خواطر القلوب فإن كل علم من هذه العلوم بحر لا يدرك عمقه وإنما يحوصه كل طالب بقدر ما رزق منه وبحسب ما وفق له من حسن العمل وفى وصف هؤلاء العلماء قال على رضى الله عنه فى حديث طويل . القلوب أوعية وخيرها أوعاها للخير ، والناس ثلاثة عالم ربانى ومتعلم على سبيل النجاة وهمج رعاع اتباع لكل ناعق يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا

(١) حديث « مؤاخاة صلى الله عليه وسلم بين سلمان وأبي الدرداء » أخرجه البخارى من حديث أبي جعفر

(٢) حديث « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » أخرجه أبو نعيم فى الحلية من حديث أسى وضحه (٣) حديث

« لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت له سمياً وبصراً » متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ

« سمعه وبصره » وهو فى الحلية كما ذكره المؤلف من حديث أنس يستضعف

بنور العلم ولم يلبثوا الى ركن وثيق ، العلم حير من المال ، العلم بحرسك وانت تحرس المال والعلم يزكو على الإنفاق والمال ينقصه الإنفاق ، والعلم دين يدان به تكسب به الطاعة في حياته وجميل الأحدوثة بعد وفاته ؛ العلم حاكم والمال محكوم عليه ، ومنفعة المال تروى بزواله مات ، خزان الأموال وهم احباء والعلماء احياء باقون ما بقي الدهر ، ثم تنفس الصعداء وقال . هاهنا ههنا علما جما لو وجدت له حملة « بل اجد طالبا غير مأمور يستعمل آلة الدين في طلب الدنيا ويستطيل بنعم الله على اوليائه ويستظهر بحجته على خلقه ، او منقادا لأهل الحق لكن ينزرع الشك في قلبه بأول عارض من شبهة لا بصيرة له لاذا ولا ذاك ؛ أو منهوما باللدات سلس القياد في طلب الشهوات ، أو مغرى بجمع الأموال والادخار منقاداً لهواه أقرب شبها بهم الانعام السائمة ؛ اللهم هكذا يموت العلم إذا مات حاملوه ثم لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة إما ظاهر مكشوف وإما خائف مهوور لكيلا تبطل حجج الله تعالى وبيناته وكما وأين أولئك ؟ هم الأقلون عدداً الأعظمون قدراً أعيانهم مفتوحة وامثالهم في القلوب موحدة يحفظ الله تعالى بهم حججه حتى يودعوها من وراءهم ويزرعوها في قلوب أشباههم : هجم بهم العلم على حقيقة الامر فباشروا روح اليقين فاستلانوا ما استوعر منه المترفون وأنسوا بما استوحش منه الغافلون ، صحبر الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى أو تلك أولياء الله عز وجل من خلقه وأمنائه وعماله في أرضه والدعاة إلى دينه ثم بكى وقال : واشوقاه إلى رؤيتهم فهذا الذي ذكره أخيراً هو وصف علماء الآخرة وهو العلم الذي يستفاد أكثره من العمل والمراطة على المجاهدة . ومنها أن يكون شديد العناية بتقوية اليقين فإن اليقين هو رأس مال الدين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اليقين الإيمان كله ^(١) » فلا بد من تعلم علم اليقين أعني أوائله ثم يفتح للقلب طريقه ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « تعلموا اليقين ^(٢) » ومعناه جالسوا الموقنين واستمعوا منهم علم اليقين وواظبوا على الاقتداء بهم ليقرى يمينكم كما قرى يمينهم وقليل من اليقين خير من كثير من العمل . وقال صلى الله عليه وسلم « لما قيل له : رجل حسس اليقين كثير الذنوب ورجل مجتهد في العبادة قليل اليقين ، فقال صلى الله عليه وسلم : ما من آدمي إلا وله ذنوب ولكن من كان غريزته العقل وحييته اليقين لم تضره الذنوب لأنه كلما أذنب تاب واستغفر وندم فتكفر ذنوبه ويبقى له فضل يدخل به الجنة ^(٣) » ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إن من أقل ما أوتيتم : اليقين وعزيمة الصبر ومن أعطى حظاً منهما لم يبالي ما فانه من قيام الليل وصيام النهار ^(٤) » وفي وصية لقمان لابنه « يا بني لا يستطاع العمل إلا باليقين ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه ولا يقصر عامل حتى ينقص يقينه ، وقال يحيى بن معاذ إن للتوحيد نوراً وللشرك ناراً ، وإن نور التوحيد أحرق لسيئات الموحدين من نار الشرك لحسنات المشركين ، وأراد به اليقين ، وقد أشار الله تعالى في القرآن إلى ذكر الموقنين في مواضع دل بها على أن اليقين هو الرابطة للخيرات والسعادات « فإن قلت . فما معنى اليقين وما معنى قوته وضعفه فلا بد من فهمه أولاً ثم الاشتغال بطلبه وتعلمه فان مالا تفهم صورته لا يمكن طلبه ؟ فاعلم أن اليقين لفظ مشترك يطلقه فريقان لمعنيين مختلفين أما النظار والمتكلمون فيعبرون به عن عدم الشك إذ ميل النفس إلى التصديق بالشيء له أربع مقامات ، الأول أن يعتدل التصديق والتكذيب ويعبر عنه بالشك ، كما إذا سئلت عن

(١) حديث « اليقين الإيمان كله » أخرجه البيهقي في الزهد والحطيب في التاريخ من حديث ابن مسعود بإسناد حسن

(٢) حديث « تعلموا اليقين » أخرجه ابو نعيم من رواية ثور بن يزيد مرسل وهو معضل رواه ابن أبي الدنيا في اليقين من قول خالد بن معدان (٣) حديث قيل له . رجل حسس اليقين كثير الذنوب (أخرجه الزهري المحكم في الوارد من حديث أنس بإسناد مظلم) (٤) حديث (من أولى ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر . الحديث) لم أفه له على أصل . وروى ابن عبد البر من حديث معاذ (سأ أئزل الله شيئاً فعل من اليقين ولا قسم شيئاً بين الناس أقل من العلم) الحديث

شخص معين ، أن الله تعالى يعاقبه أم لا ؟ وهو محمول الحال عندك فإن نفسك لا تميل إلى الحكم فيه بإثبات ولا نفي بل يستوى عندك لإمكان الأمرين فيسمى هذا شكاً . الثاني . أن تميل نفسك إلى أحد الأمرين مع الشعور بإمكان نقيضه ولكنه إمكان لا يمنع ترجيح الأول ، كما إذا سئلت عن رجل تعرفه بالصلاح والتقوى أنه بعينه لو مات على هذه الحالة هل يعاقب ؟ فإن نفسك تميل إلى أنه لا يعاقب أكثر من ميلها إلى العقاب وذلك لظهور علامات الصلاح . ومع هذا فأنت تجوز اختفاء أمر مرجح للعقاب في باطنه وسريته فهذا التحوير مساوٍ لذلك الميل ولكنه غير دافع رجحانه فهذه الحالة تسمى ظناً . الثالث : أن تميل النفس إلى التصديق بشيء بحيث يغلب عليها ولا يخطر بالبال غيره ولو خطر بالبال تأني النفس عن قبوله ولكن ليس ذلك مع معرفة محققة إذ لو أحسن صاحب هذا المقام التأمل والإصغاء إلى التشكيك والتجوير اتسعت نفسه للتجوير ، وهذا يسمى اعتقاداً مقارباً لليقين وهو اعتقاد العوام في الشرعيات كلها إذ رسخ في نفوسهم بمجرد السماع حتى إن كل فرقة تثق بصحة مذهبها وإصابة إمامها ومتبوعها ، ولو ذكر لاحدهم إمكان خطأ إمامه نفر عن قبوله . الرابع المعرفة الحقيقية الحاصلة بطريق البرهان الذي لا يشك فيه ولا يتصور الشك فيه فإذا امتنع وجود الشك وإمكانه يسمى يقيناً عند هؤلاء ، ومثاله أنه إذا قيل للعاقل هل في الوجود شيء هو قديم ؟ فلا يمكنه التصديق به بالبديهة لأن القديم غير محسوس لا كالشمس والقمر فإنه يصدق بوجودهما بالحس وليس العلم بوجوده شيء قديم أزل ضرورياً مثل العلم بأن الاثنين أكثر من الواحد ومثل العلم بأن حدوث حادث بلا سبب محال ، فإن هذا أيضاً ضروري لمخى غريزة العقل أن تتوقف عن التصديق بوجود القديم على الاحتمال والبديهة ، ثم من الناس من يسمع ذلك ويصدق بالسماع تصديقا جزما ويستمر عليه وذلك هو الاعتقاد وهو حال جميع العوام . ومن الناس من يصدق به بالبرهان وهو أن يقال له . إن لم يكن في الوجود قديم فالموجودات كلها حادثة فإن كانت كلها حادثة فهي حادثة بلا سبب أو فيها حادث بلا سبب وذلك محال ، فالمودى إلى المحال محال ، فيلزم في العقل التصديق بوجود شيء قديم بالضرورة لأن الأقسام ثلاثة . وهي أن تكون الموجودات كلها قديمة أو كلها حادثة أو بعضها قديمة وبعضها حادثة فإن كانت كلها قديمة فقد حصل المطلوب إذ ثبت على الجملة قديم ، وإن كان الكل حادثاً فهو محال إذ يؤدي إلى حدوث بغير سبب فيثبت القسم الثالث أو الأول . وكل علم حصل على هذا الوجه يسمى يقيناً عند هؤلاء سواء حصل بنظر مثل ما ذكرناه أو حصل بحس أو بغريزة العقل كالعلم باستحالة حادث بلا سبب أو بتواتر ، كالعلم بوجود مكة أو بتجربة كالعلم بأن السقمونيا المطبوخ مسهل أو بدليل كما ذكرنا فشرط إطلاق هذا الاسم عندهم عدم الشك فكل علم لا شك فيه يسمى يقيناً عند هؤلاء وعلى هذا لا يوصف اليقين بالضعف إذ لا تنافوت في نفي الشك . الاصطلاح الثاني اصطلاح الفقهاء والمتصوفة وأكثر العلماء وهو أن لا يلتفت فيه إلى اعتبار التجوير والشك بل إلى استيلائه وغلبته على العقل : حتى يقال . فلان ضعيف اليقين بالموت مع أنه لا شك فيه ؛ ويقال : فلان قوى اليقين في إتيان الرزق مع أنه قد يجوز أنه لا يأتيه ، فهما مالت النفس إلى التصديق بشيء وغلب ذلك على القلب واستولى حتى صار هو المتحكم والمتصرف في النفس بالتجوير والمنع سمى ذلك يقيناً ولا شك في أن الناس يشتركون في القطع بالموت والانفكاك عن الشك فيه ، ولكن فيهم من لا يلتفت إليه ولا إلى الاستعداد له وكأنه غير موقن به . ومنهم من استولى ذلك على قلبه حتى استغرق جميع همه بالاستعداد له ولم يغادر فيه متسعاً لغيره فيعبر عن مثل هذه الحالة بقوة اليقين ، ولذلك قال بعضهم . مارأيت يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من

وكثيرها ، وكما يجتنب قليل السموم وكثيرها فكذلك يجتنب المعاصي قليلاً وكثيرها وصغيرها وكبيرها ؛ فاليقين بالمعنى الأول قد يوحد لعموم المؤمنين أما بالمعنى الثاني فيختص به المقربون ، وثمرة هذا اليقين صدق المراقبة في الحركات والسكنات الخطرات والمبالغة في التقوى والتحرز عن كل السيئات ، وكلما كان اليقين أغلب كان الاحتراز أشد والتشمير أبلغ . ومن ذلك ؛ اليقين بأن الله تعالى مطلع عليك في كل حال ومشاهد له واحس ضميرك وخفايا خواطرك وفكرك فهذا متيقن عند كل مؤمن بالمعنى الأول وهو عدم التسك وأما بالمعنى الثاني وهو المقصود فهو عزيز يختص به الصديقون ، وثمرته أن يكون الإنسان في حلوته متأدباً في جميع أحواله كالجالس بمشهد ملك معظم ينظر إليه فإنه لا يرال مطرقة متأدباً في جميع أعماله متماسكاً محتزراً عن كل حركة تخالف هيئة الأدب ويكون في فكرته الباطنة كهو في أعماله الظاهرة إذ يتحقق أن الله تعالى مطلع على سريره كما يطلع الخلق على ظاهره فتكون مبالغته في عمارة باطنه وتطهيره وتزيينه بعين الله تعالى الكائنة أشد من مبالغته في تزيين ظاهره لسائر الناس ، وهذا المقام في اليقين يورث الحياء والخوف والانكسار والذل والاستكانة والخضوع وجملة من الأخلاق المحمودة ، وهذه الأخلاق تورث أنواعاً من الطاعات رفيعة فاليقين في كل باب من هذه الأبواب مثل الشجرة وهذه الأخلاق في القلب مثل الأغصان المتفرعة منها وهذه الأعمال والطاعات الصادرة من الأخلاق كالثمار وكالأنوار المتفرعة من الأغصان فاليقين هو الأصل والأساس وله مجار وأبواب أكثر مما عددناه ، وسيأتي ذلك في ربيع المنجيات إن شاء الله تعالى . وهذا القدر كاف في معنى اللفظ الآن . ومما أن يكون حزينا منكسرا مطرقة صامتا يظهر أثر الخشية على هيئته وكسوته وسيرته وحركته وسكونه ونطقه وسكوته لا ينظر إليه ناظر إلا وكان نظره مذكراً لله تعالى وكانت صورته دليلاً على عمله فالجواد عينه مرآته وعلماء الآخرة يعرفون بسياهم في السكينة والدلة والتواضع ، وقد قيل ما ألبس الله عبدا لبسة أحسن من خشوع في سكينة فهي لبسة الأنبياء وسيا الصالحين والصديقين والعلماء وأما التهاوت في الكلام والتشدد والاستغراق في الضحك والحدة في الحركة والنطق فشكل ذلك من آثار البطر والأمن والغفلة عن عظيم عقاب الله تعالى وشديد سخطه وهو دأب أبناء الدنيا الغافلين عن الله دون العلماء به ، وهذا لأن العلماء ثلاثة كما قال سهل التستري رحمه الله : عالم بأمر الله تعالى لا بأيام الله وهم المفتون في الحلال والحرام وهذا العلم لا يورث الخشية ، وعالم بالله تعالى لا بأمر الله ولا بأيام الله وهم عموم المؤمنين ، وعالم بالله تعالى وبأمر الله تعالى وبأيام الله تعالى وهم الصديقون ، والخشية والخشوع إنما تغلب عليهم ، وأراد بأيام الله أنواع عقوباته الغامضة ونعمه الباطنة التي أفاضها على القرون السالفة واللاحقة فمن أحاط بعلمه بذلك عظم خوفه وظهر خشوعه . وقال عمر رضي الله عنه : تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والوقار والحلم وتواضعوا لمن تتعلمون منه وليتواضع لكم من يتعلم منكم ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم . ويقال ما أتى الله عبدا علما إلا آتاه معه حلما وتواضعوا وحسن خلق ورفقا فذلك هو العلم النافع . وفي الأثر : من آتاه الله علما وزهدا وتواضعا وحسن خلق فهو إمام المتقين . وفي الخبر : إن من خيار أمتي قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة الله ويكون سرا من خوف عذابه ، أبدانهم في الأرض وقلوبهم في السماء ، أرواحهم في الدنيا وعقولهم في الآخرة ، يتمشون بالسكينة ويتقربون بالوسيلة ^(١) ، وقال الحسن : الحلم وزير العلم والرفق أبوه والتواضع سرباله . وقال بشر بن الحارث من طلب

(١) حديث « إن من خيار أمتي قوماً يضحكون جهراً من سعة رحمة الله ويكون سرا من خوف عذابه .. الحديث » أخرجه

الحاكم والبيهقي في شعب الإيمان وضعفه من حديث عياض بن سليمان

الرياسة بالعلم فتترب إلى الله تعالى ببعضه فإنه ممقوت في السماء والأرض . ويروى في الإسرائيليات أن حكيمًا صنف ثلاثمائة وستين مصنفًا في الحكمة حتى وصف بالحكيم فأوحى الله تعالى إلى نبيهم . قل لفلان قدماءت الأرض نفاقًا ولم تردني من ذلك بشيء وإني لأقبل من نفاقك شيئًا . فندم الرجل وترك ذلك وخالط العامة في الأسواق وواكل بني إسرائيل وتواضع في نفسه فأوحى الله تعالى إلى نبيهم : قل له الآن وفقت لرضاي . وحكى الأوزاعي رحمه الله عن بلال بن سعد : أنه كان يقول ينظر أحدكم إلى الشرطي فيستعيز بالله منه وينظر إلى علما الدنيا المتصنعين للخلق المتشوفين إلى الرياسة فلا يمتقنهم وهم أحق بالمتقن من ذلك الشرطي . وروى أنه قيل : « يارسول الله أى الأعمال أفضل ؟ قال اجتناب المحارم ولا يزال فوك رطبًا من ذكر الله تعالى ، قيل : فأى الأصحاب خير ؟ قال صلى الله عليه وسلم صاحب إن ذكرت الله أعانك وإن نسيتك ذكرك ، قيل : فأى الأصحاب شر ؟ قال صلى الله عليه وسلم : صاحب إن نسيت لم يذكرك وإن ذكرت لم يعنك ، قيل : فأى الناس أعلم ؟ قال : أشدهم خشية ، قيل : فأخبرنا بخيارنا نجاسهم ، قال صلى الله عليه وسلم : الذين إذا رؤوا ذكر الله ، قيل : فأى الناس شر ؟ قال : اللهم غفرا ، قالوا : أخبرنا يارسول الله قال : العلماء إذا فسدوا (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن أكثر الناس أمانا يوم القيامة أكثرهم فكرًا في الدنيا وأكثر الناس ضحكًا في الآخرة أكثرهم بكاء في الدنيا وأشد الناس فرحًا في الآخرة أطولهم حزنا في الدنيا (٢) » ، وقال على رضى الله عنه في خطبة له : ذمتي رهينة وأنا به زعيم إنه لا يهيج على التقوى زرع قوم ولا يظمأ على الهدى سنخ أصل ، وإن أجهل الناس من لا يعرف قدره ، وإن أبغض الخلق إلى الله تعالى رجل قش علما أعار به في أغباش الفتنة سماه أشباه له من الناس وأرذلهم علما ولم يعش في العلم يوما سالما ، تكبر واستكبر فما قل منه وكفى خيرا مما كثر وألهى حتى إذا ارتوى من ماء آجن وأكثرت من غير طائل جالس للناس معلما لتخليص ما التبس على غيره ، فإن نزلت به إحدى المهمات هيأها من رأيه حشو الرأي فهو ومن قطع الشبهات في مثل نسج العنكبوت لا يدري أخطأ أم أصاب ؟ ركاب جهالات خباط عشوات لا يمتدر مما لا يعلم فيسلم ولا بعض على العلم بضرس قاطع فيغنم ، تبكى منه الدماء وتستجمل بقضائه الفروج الحرام لا ملىء والله بإصدار ما ورد عليه ولا هو أهل لما فؤض إليه أولئك الذين حلت عليهم المثالات وحقت عليهم السياحة والبكاء أيام حياة الدنيا . وقال على رضى الله عنه : إذا سمعتم العلم فاكظموا عليه ولا تخططوه بهزل فتمتجه القلوب . وقال بعض السلف : العالم إذا ضحك ضحكة حج من العلم حجة . وقيل : إذا جمع المعلم ثلاثا تمت النعمة بها على المتعلم : الصبر والتواضع وحسن الخلق . وإذا جمع المتعلم ثلاثا تمت النعمة بها على المعلم : العقل والآداب وحسن الفهم . وعلى الجملة فالأخلاق التي ورد بها القرآن لا ينفك عنها علماء الآخرة لأنهم يتعلمون القرآن للعمل لا للرياسة . وقال ابن عمر رضى الله عنهما : لقد عشنا برهة من الدهر وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن وتنزل السورة فيتعلم حلالها وحرامها وأوامرها وزواجرها وما ينبغى أن يقف عنده منها ، ولقد رأيت رجلا يؤتى أحدكم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته لا يدري ما أمره وما زاجره وما ينبغى أن يقف عنده ينثره الدقل (٣) . وفي خبر آخر بمثل معناه : كنا أصحاب رسول الله صلى الله

(١) حديث « قيل يارسول الله أى الأعمال أفضل » قال . اجتناب المحارم ولا يزال فوك رطبًا من ذكر الله . . الحديث « لم أجده هكذا بطوله ، وفي زيادات الزهد لاس المبارك من حديث الحسن مرسلًا « سئل النبي صلى الله عليه وسلم أى الأعمال أفضل . قال : أن تموت يوم تموت ولسانك رطب من ذكر الله تعالى » وللدائرى من رواية الأحوص بن حكيم عن أبيه مرسلًا « ألا إن شر الشر شرار العلماء ولن حير الخير خيار العلماء » وقد تقدم . (٢) حديث « إن أكثر الناس أمانا يوم القيامة أكثرهم خوفًا في الدنيا . . الحديث » لم أجده أصلا . (٣) حديث ابن عمر « لقد عشنا برهة من الدهر وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن الحديث » أخرجه الحاكم وصححه على شرط الشيخين والبيهقى

عليه وسلم أوتينا الإيمان قبل القرآن وستأتي بعدكم قوم يؤتون القرآن قبل الإيمان يقيمون حروفه ويضعون حدوده وحقوقه يقولون قرأنا فمن أقرأ منا وعلنا فمن أعلم منا ؟ فذلك حطهم ^(١) . وفي لفظ أولئك شرار هذه الأمة . وقيل خمس من الأخلاق هي من علامات علماء الآخرة مفهومة من خمس آيات من كتاب الله عز وجل : الخشية والخشوع والتواضع وحسن الخلق وإيثار الآخرة على الدنيا وهو الزهد ، فأما الخشية فن قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ وأما الخشوع فن قوله تعالى ﴿ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ وأما التواضع فن قوله تعالى ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وأما حسن الخلق فن قوله تعالى ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتُمْ لَكُمْ ﴾ وأما الزهد فن قوله تعالى ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلِكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ ولما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى ﴿ فَن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ فقيل له ما هذا الشرح ؟ فقال « إن النور إذا قذف في القلب انشرح له الصدر وانفسح » قيل : فهل لذلك من علامة ؟ قال صلى الله عليه وسلم « نعم » التجاني عن دار الغرور والإنيابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله ^(٢) ، ومنها أن يكون أكثر بحثه عن علم الأعمال وعمها يفسدها ويشوش القلوب ويهيج الوسواس ويشير الشر فإن أصل الدين التوق من الشر ولذلك قيل :

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه

ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

ولأن الأعمال الفعلية قريبة وأقضاها بل أعلاها المواظبة على ذكر الله تعالى بالقلب واللسان وإنما الشأن في معرفة ما يفسدها ويشوشها وهذا مما تكثر شعبه وبطول تفريعه ، وكل ذلك مما يغلب مسيس الحاجة إليه وتعم به البلوى في سلوك طريق الآخرة ، وأما علماء الدنيا فإنهم يتبمون غرائب التفريمات في الحكومات والأقضية ويتعبون في وضع صور تنقضي الدهور ولا تنقح أبدا ، وإن وقعت فإنما تقع لغيرهم لاهم ، وإذا وقعت كان في القائم بها كثرة ، ويتركون ما يلازمهم ويتكرر عليهم آتاء الليل وأطراف النهار في خواطرهم ووساوسهم وأعمالهم ، وما أبعاد عن السعادة من باع مهم نفسه اللازم يهيم غيره النادر لإيثارا للتقرب والقبول من الخلق على التقرب من الله سبحانه . وشرها في أن يسميه البطالون من أبناء الدنيا فاضلا محققا عالما بالدقائق وجزاؤه من الله أن لا ينتفع في الدنيا بقبول الخلق بل يتكدر عليه صفوه بنوائب الزمان ثم يرد القيامة مفلسا متحسرا على ما يشاهده من ربح العاملين وفوز المقربين وذلك هو الحسran المبين ، ولقد كان الحسن البصرى رحمه الله أشبه الناس كلاما بكلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأقربهم هديا من الصحابة رضى الله عنهم اتفقت الكلمة في حقه على ذلك وكان أكثر كلامه في خواطر القلوب وفساد الأعمال ووساس النفوس والصفات الخفية الغامضة من شهوات النفس ؛ وقد قيل له ؛ يا أبا سعيد إنك تتكلم بكلام لا يسمع من غيرك فن أين أخذته ؟ قال : من حذيفة بن اليمان . وقيل لحذيفة : نراك تتكلم بكلام لا يسمع من غيرك من الصحابة فن أين أخذته ؟ قال : خصني به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان الناس يسألونه عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه وعلمت أن الخير لا يسبقني علمه ^(٣) وقال مرة : فعلت أن من

(١) حديث « كنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أوتينا الإيمان قبل القرآن .. الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث جندب مختصراً مع اختلاف (٢) حديث « لما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (فن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) .. الحديث » أخرجه الحاكم والبيهقي في الزهد من حديث ابن مسعود

(٣) حديث حذيفة « كان الناس يسألون رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عن الخير وكنت أسأله عن الشر .. الحديث » أخرجه مختصراً .

لا يعرف الشر لا يعرف الخير . وفي لفظ آخر : كانوا يقولون يا رسول الله ما لمن عمل كذا وكذا ؟ يسألونه عن فضائل الأعمال وكنت أقول يا رسول الله ما يفسد كذا وكذا ؟ فلما رآني أسأله عن آفات الأعمال خصني بهذا العلم . وكان حذيفة رضى الله عنه أيضا قد خص بعلم المنافقين وأفرد بمعرفة علم النفاق وأسبابه ودقائق الفتن ، فكان عمر وعثمان وأكابر الصحابة رضى الله عنهم يسألونه عن الفتن العامة والخاصة ، وكان يسأل عن المنافقين فيخبر بعدد من بقي منهم ولا يخبر بأسمائهم ، وكان عمر رضى الله عنه يسأل عن بعسه هل يعلم فيه شيئا من النفاق ؟ فبرأه من ذلك ، وكان عمر رضى الله عنه إذا دعى إلى جنازة ليصلى عليها نظر فإن حضر حذيفة صلى عليها وإلا ترك ، وكان يسمى صاحب السر . فالعناية بمقامات القلب وأحواله دأب علماء الآخرة لأن القلب هو الساعى إلى قرب الله تعالى وقد صار هذا الفن غريبا مندوسا وإذا تعرض العالم لشيء منه استعرب واستبعد وقيل هذا تزويق المذكرين فأين التحقيق ؟ ويرون أن التحقيق في دقائق المجادلات ولقد صدق من قال :

الطرق شتى وطرق الحق ممردة والسالكون طريق الحق أفراد
لا يعرفون ولا تدرى مقاصدهم هم على مهمل يمشون قصاد
والناس في غفلة عما يراد بهم لجلهم عن سبيل الحق رقاد

وعلى الجملة فلا يميل أكثر الخلق إلا إلى الأسهل والأوفق لطباعهم فإن الحق مر والوقوف عليه صعب وإدراكه شديد وطريقه مستوعر ولا سيما معرفة صفات القلب وتطهيره عن الأخلاق المذمومة فإن ذلك نزع للروح على الدوام ، وصاحبه ينزل منزلة التراب للدواء يصبر على مرارته رجاء الشفاء وينزل منزلة من جعل مدة العمر صومه وهو يقاسى الشدائد ليكون فطره عند الموت ، ومتى تكثرت الرغبة في هذا الطريق ؟ ولذلك قيل : إنه كان في البصرة مائة وعشرين متكلمًا في الوعظ والتذكير ولم يكن من يتكلم في علم اليقين وأحوال القلوب وصفات الباطن إلا ثلاثة منهم - سهل التستري والصيحي وعبد الرحيم - وكان يجلس إلى أولئك الخلق الكثير الذى لا يحصى وإلى هؤلاء عدد يسير قلما يجاوز العشرة ، لأن النفيس العزيز لا يصلح إلا لأهل الخصوص وما ينزل للعموم فأمره قريب . ومنها أن يكون اعتماده في علومه على بصيرته وإدراكه بصفاء قلبه لا على الصحف والكتب ولا على تقليد ما يسمعه من غيره وإنما المقلد صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه فيما أمر به وقاله وإنما يقلد الصحابة رضى الله عنهم من حيث إن فعلهم يدل على سماعهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم إذا قلد صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم في تلقى أقواله وأفعاله بالقبول فينبغى أن يكون حريصا على فهم أسرارهم فإن المقلد إنما يفعل الفعل لأن صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم فعله ، وفعله لا بد وأن يكون لسرفيه فينبغى أن يكون شديد البحث عن أسرار الأعمال والأقوال فإنه إن اكتفى بحفظ ما يقال كان وعاء للعلم ولا يكون عالما . ولذلك كان يقال : فلان من أوعية العلم ؛ فلا يسمى عالما إذا كان شأنه الحفظ من غير اطلاع على الحكم والأسرار . ومن كشف عن قلبه الغطاء واستنار بنور الهداية صار في نفسه متبوعا مقلدا فلا ينبغى أن يقلد غيره . ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما : ما من أحد إلا يؤخذ من علمه ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) وقد كان تعلم من زيد بن ثابت الفقه وقرأ على أبي بن كعب ثم خالفهما في الفقه

(١) حديث ابن عباس « ما من أحد إلا يؤخذ من علمه ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم » أخرجه الطبرانى من حديثه

برقمه بلفظة « من قوله ويدع »

والقراءة جميعا . وقال بعض السلف : ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلناه على الرأس والعين وما جاءنا عن الصحابة رضی الله عنهم فنأخذ منه ونترك وما جاءنا عن التابعين فهم رجال ونحن رجال : وإنما فضل الصحابة لمشاهدتهم قرآن أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم واعتلاق قلوبهم أمورا أدركت بالقرآن فسددهم ذلك إلى الصواب من حيث لا يدخل في الرواية والعبارة إذ فاض عليهم من نور النبوة ما يحرسهم في الأكثر عن الخطأ . وإذا كان الاعتماد على المسموع من الغير تقليداً غير مرضى فالاعتماد على الكتب والتصانيف أبعد . بل الكتب والتصانيف محدثة لم يكن شيء منها في زمن الصحابة وصدر التابعين وإنما حدثت بعد سنة مائة وعشرين من الهجرة وبعد وفاة جميع الصحابة وجملة التابعين رضی الله عنهم وبعد وفاة سعيد بن المسيب والحسن وخيار التابعين ؛ بل كان الأقولون يكرهون كتب الأحاديث وتصنيف الكتب لئلا يشتغل الناس بها عن الحفظ وعن القرآن وعن التدبر والتذكر وقالوا : احفظوا كما كننا نحفظ . ولذلك كره أبو بكر وجماعة من الصحابة رضی الله عنهم تصحيح القرآن في مصحف وقالوا : كيف نعمل شيئاً ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وخافوا اتكال الناس على المصاحف وقالوا : نترك القرآن يتلقاه بعضهم من بعض بالتلقين والإقراء ليكون هذا شغلهم وهمهم ، حتى أشار عمر رضی الله عنه وبقية الصحابة بكتب القرآن خوفاً من تغافل الناس وتكاسلهم وحذراً من أن يقع نزاع فلا يوجد أصل يرجع إليه في كلمة أو قراءة من المتساهبات فانشرح صدر أبي بكر رضی الله عنه لذلك لجمع القرآن في مصحف واحد . وكان أحمد بن حنبل ينكر على مالك في تصنيفه الموطأ ويقول : ابتدع ما لم تفعله الصحابة رضی الله عنهم وقيل : أول كتاب صف في الإسلام كتاب ابن حريج في الآثار وحروف التفاسير عن مجاهد وعطاء وأصحاب ابن عباس رضی الله عنهم بمكة . ثم كتاب معمر بن راشد الصنعاني باليمن جمع فيه سننا مأثورة نبوية ، ثم كتاب الموطأ بالمدينة لمالك بن أنس ، ثم جامع سفيان الثوري . ثم في القرن الرابع حدثت مصنفات الكلام وكثر الخوض في الجدل والغوص في إبطال المقالات ، ثم مال الناس إليه وإلى القصص والوعظ بها فأخذ علم اليقين في الاندرا من ذلك الزمان فصار بعد ذلك يستغرب علم القلوب والتفتيش عن صفات النفس ومكايد الشيطان وأعرض عن ذلك إلا الأقولون ، فصار يسمى المجدال المتكلم عالماً والقاص المزخرف كلامه بالعبارات المسجعة عالماً ، وهذا لأن العوام هم المستمعون إليهم فكان لا يميز لهم حقيقة العلم من غيره ، ولم تكن سيرة الصحابة رضی الله عنهم وعلومهم ظاهرة عندهم حتى كانوا يعرفون بها مباينة هؤلاء لهم فاستمر عليهم اسم العلماء وتوارث اللقب خلف عن سلف وأصبح علم الآخرة مطويًا ، وغاب عنهم الفرق بين العلم والكلام إلا عن الخواص منهم كانوا إذا قيل لهم ؛ فلان أعلم أم فلان ؟ يقولون : فلان أكثر علماً وفلان أكثر كلاماً . فكان الخواص يدركون الفرق بين العلم وبين القدرة على الكلام . هكذا ضعف الدين في قرون سالفه فكيف الظن بزمانك هذا ؟ وقد انتهى الأمر إلى أن مظهر الإنكار يستهدف لنفسه إلى الجنون فالأولى أن يشتغل الإنسان بنفسه ويسكت . ومنها أن يكون شديد التوقى من محدثات الأمور وإن اتفق عليها الجمهور فلا يعرفه لإطبا الخلق على ما أحدث بعد الصحابة رضی الله عنهم وليكن حريصاً على التفتيش عن أحوال الصحابة وسيرتهم وأعمالهم وما كان فيه أكثر همهم اكان في التدريس والتصنيف والمناظرة والقضاء والولاية وتولى الأوقاف والوصايا واكل مال الأيتام ومخالطة السلاطين ومجاملتهم في العشرة ؟ ام كان في الخوف والحزن والتفكير المجاهدة ومراقبة الظاهر والباطن واجتناب دقيق الإثم وجليله والحرص على إدراك خفايا شهوات النفوس ومكايد الشيطان إلى غير ذلك

من علوم الباطن ؟ واعلم تحقيقاً أن أعلم أهل الزمان وأقربهم إلى الحق أشبههم بالصحابة وأعرههم بطريق السلف فمنهم أخذ الدين . ولذلك قال علي رضي الله عنه « خيرنا أتبعنا لهذا الدين » لما قيل له : خالفت فلانا . فلا ينبغي أن يكثر بمخالفة أهل العصر في موافقة أهل عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الناس رأوا رأياً فيما هم فيه لميل طباعهم إليه ولم تسمح نفوسهم بالاعتراف بأن ذلك سبب الحرمان من الجنة فادعوا أنه لا سبيل إلى الجنة سواه . ولذلك قال الحسن : محدثان أحدثا في الإسلام : رجل ذورأى سيء زعم أن الجنة لمن رأى مثل رأيه ، ومترف يعبد الدنيا لها يغضب ولها يرضى وإياها يطلب فارفضوها إلى النار . وإن رحلاً أصبح في هذه الدنيا بين مترف يدعو إلى دنياه وصاحب هوى يدعو إلى هواه وقد عصمه الله تعالى منهما يحن إلى السلف الصالح يسأل عن أفعالهم ويقتني آثارهم متعرض لأجر عظيم فكذلك كونوا . وقد روى عن ابن مسعود موقوفاً ومسنداً أنه قال : « إنما هما اثنتان الكلام والهدى ، فأحسن الكلام كلام الله تعالى ، وأحسن الهدى هدى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ألا وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن شر الأمور محدثاتها ، وإن كل محدثة بدعة ، وإن كل بدعة ضلالة ، ألا لا يطول عليكم الأمد ففتسروا قلوبكم ، ألا كل ما هو آت قريب ، ألا إن البعيد ما ليس بآت (١) » وفي خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس وأنفق من مال اكتسبه من غير معصية وخالف أهل الفقه والحكم وحائب أهل الزلل والمعصية ، طوبى لمن ذل في نفسه وحسنت حليقته وصلحت سريره وعزل عن الناس شره ، طوبى لمن عمل بعمله وأنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله ووسعته السنة ولم يعدها إلى بدعة (٢) » وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول : حسن الهدى في آخر الزمان خير من كثير من العمل ، وقال : أنتم في زمان حيركم فيه المسارع في الأمور وسيأتي بعدكم زمان يكون خيراً من المتشبه المتوقف لكثرة الشبهات . وقد صدق فمن لم يتوقف في هذا الزمان ووافق الجماهير فيما هم عليه وخاض فيما خاصوا فيه هلك كما هلكوا . وقال حذيفة رضي الله عنه : أعجب من هذا أن معروفكم اليوم منكر زمان قد مضى وأن منكركم اليوم معروف زمان قد أتى وإسكم لا تزالون بحير ما عرفتم الحق وكان العالم فيكم غير مستخف به . ولقد صدق فإن أكثر معارف هذه الأعصار مكرات في عصر الصحابة رضي الله عنهم إذ من غرر المعرفات في زماننا تزيين المساجد وتنجيدها وإنفاق الأموال العظيمة في دقائق عماراتها وفرش البسط الرفيعة فيها ، ولقد كان يعد فرش البراري في المسجد بدعة ، وقيل إنه من محدثات الحجاج . فقد كان الأولون قلما يجعلون بينهم وبين التراب حاجزاً . وكذلك الاشتغال بدقائق الجدل والمناظرة من أجل علوم أهل الزمان ويزعمون أنه من أعظم القربات ، وقد كان من المنكرات . ومن ذلك التلحين في القرآن والأذان . ومن ذلك التعسف في النظافة والوسوسة في الطهارة وتقدير الأسباب البعيدة في نجاسة الثياب مع التساهل في حل الأظعمة وتحريمها إلى نظائر ذلك . واقد صدق ابن مسعود رضي الله عنه حيث قال : أنتم اليوم في زمان الهوى فيه تابع للعلم وسيأتي عليكم زمان يكون العلم فيه تابعا للهوى . وقد كان أحمد بن حنبل يقول : تركوا العلم وأقبلوا على الغرائب ما أقل العلم فيهم والله المستعان . وقال مالك بن أنس رحمه الله : لم تكن الناس فيما مضى يسألون عن هذه الأمور كما يسأل الناس اليوم ولم يكن العلماء يقولون حرام ولا حلال ولكن أدركتهم يقولون مستحب ومكروه

(١) حديث ابن مسعود « إنما هما اثنتان الكلام والهدى » . الحديث « أخرجه ابن ماجه

(٢) حديث « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس وأنفق مالا اكتسبه » . الحديث « أخرجه أبو نعيم من حديث الحسين بن علي بسند ضعيف والبراز من حديث أس أول الحديث وآخره والطبراني والبيهقي من حديث ركب المصري وسط الحديث وكلها ضعيفة

(ومنه أنهم كانوا ينظرون في دقائق الكراهة والاستحباب فأما الحرام فكان لخصه ظاهراً) وكان هشام بن عروة يقول : لا تسألوه اليوم عما أحدثوه بأنفسهم فإنهم قد أصدوا له جواباً ولكن سلوهم عن السنة فإنهم لا يعرفونها . وكان أبو سليمان الداراني رحمه الله يقول : لا ينبغي لمن أهدى من الخير أن يعمل به حتى يسمع به في الأثر فيحمد الله تعالى إذا وافق ما في نفسه ، وإنما قال هذا لأن ما قد أبدع من الآراء قد قرع الأسماع وعلق بالقلوب وربما يشوش صفاء القلب فيتخيل بسببه الباطل حقاً فيحتاط فيه بالاستظهار بشهادة الآثار . ولهذا لما أحدث مروان المنبر في صلاة العيد عند المصلى قام إليه أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه فقال : يا مروان ما هذه البدعة ؟ فقال : إنها ليست بدعة إنما خير مما تعلم إن الناس قد كثروا فأردت أن يبلغهم الصوت ، فقال أبو سعيد : والله لا تأتون بخير عما أعلم أبدأ والله لأصليت وراءك اليوم ! وإنما أنكر ذلك عليه « لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتوكأ في خطبة العيد والاستسقاء على قوس أو عصا لا على المنبر^(١) ، وفي الحديث المشهور « من أحدث في ديننا ما ليس منه فهو رد^(٢) » ، وفي خبر آخر « من غش أمتي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، قيل : يا رسول الله وما غش أمتك ؟ قال : أن يبتدع بدعة يحمل الناس عليها^(٣) » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل ملكا ينادى كل يوم من خلف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تتله شعاعته^(٤) » ، ومثال الجاني على الدين بإبداع ما يخالف السنة بالنسبة إلى من يذنب ذنباً مثال من عصى الملك في قلب دولته بالنسبة إلى من خالف أمره في خدمة معينة ، وذلك قد يغفر له فأما في قلب الدولة فلا . وقال بعض العلماء : ماتكم فيه السلف بالسكوت عنه جفاء وما سكت عنه السلف فالكلام فيه تكلف . وقال غيره : الحق ثقيل من جاوزه ظلم ومن قصر عنه عجز ومن وقف معه اكتفى . وقال صلى الله عليه وسلم « عليكم بالنمط الأوسط الذي يرجع إليه العالي ويرتفع إليه التالئ^(٥) » ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : الضلالة لها حلاوة في قلوب أهلها قال الله تعالى ﴿ وذو الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً ﴾ وقال تعالى ﴿ أمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ﴾ فكل ما أحدث بعد الصحابة رضى الله عنهم مما جاوز قدر الضرورة والحاجة فهو من اللعب واللهو . وحكى عن إبليس لعنه الله أنه بث جنوده في وقت الصحابة رضى الله عنهم فرجعوا إليه محسورين فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : مارأينا مثل هؤلاء ما نصيب منهم شيئاً وقد أتعبونا ! فقال : إنكم لا تقدرون عليهم قد صحبوا نبيهم وشهدوا تنزيل ربهم ولكن سيأتى بعدكم قوم تتالون منهم حاجتكم . فلما جاء التابعون بث جنوده فرجعوا إليه منكسين فقالوا : مارأينا أعجب من هؤلاء نصب منهم الشيء بعد الشيء من الذنوب فإذا كان آخر النهار أخذوا في الاستغفار فيبدل الله سيئاتهم حسنات ! فقال : إنكم لن تتالوا من هؤلاء شيئاً لصحة توحيدهم واتباعهم لسنة نبيهم ولكن سيأتى بعد هؤلاء قوم تقر أعينكم بهم تلعبون بهم لعباً وتقودونهم بأزمة أهوائهم كيف شئتم إن استغفروا لم يعفر لهم ولا يتوبون فيبدل الله سيئاتهم

(١) حديث « كان يتوكأ في خطبة العيد والاستسقاء على قوس أو عصا » أخرجه الطبراني من حديث البراء ونحوه في يوم الأضحى ليس فيه الاستسقاء وهو ضعيف ، رواه في الصبير من حديث سعد القرطبي « كان إذا خطب في العيد خطب على قوس وإذا خطب في الجمعة خطب على عصا » وهو عند ابن ماجة بإسقاط « كان إذا خطب في الحرب خطب على قوس .. الحديث »
(٢) حديث « من أحدث في ديننا ما ليس فيه فهو رد » متفق عليه من حديث عائشة بإسقاط « في أمرنا . ا ليس منه » ، وعنه أبي داود « فيه » (٣) حديث « من غش أمتي فعليه لعنة الله .. الحديث » أخرجه الدارقطني في الأبرار من حديث أس بن سدة ضعيف جداً (٤) حديث « إن الله ملكا ينادى كل يوم من خلف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تتله شعاعته » لم أجد له أصلاً (٥) حديث « عليكم بالنمط الأوسط .. الحديث » أخرجه أبو عبيد في عريب الحديث موقوفاً على علي بن أبي طالب ولم أجده مرفوعاً .

حسناً ، قال : لخاص قوم بعد القرن الأول فبث فيهم الأهواء وزين لهم البدع فاستحلوها واتخذوها ديناً لا يستغفرون الله منها ولا يتوبون عنها فسلط عليهم الأعداء وقادوهم أين شاءوا . فإن قلت : من أين عرف قائل هذا ما قاله إبليس ولم يشاهد إبليس ولا حدثه بذلك ؟ فاعلم أن أرباب القلوب يكاشفون بأسرار الملكوت تارة على سبيل الإلهام بأن يحطر لهم على سبيل الورد عليهم من حيث لا يعلمون وتارة على سبيل الرؤيا الصادقة وتارة في اليقظة على سبيل كشف المعاني بمشاهدة الأمثلة - كما يكون في المنام - وهذا أعلى الدرجات وهي من درجات النبوة العالية كما أن الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة . فإياك أن يكون حظك من هذا العلم إنكاراً ما حاز حد تصورك ففيه هلك المتخذلقون من العلماء الزاعمون أنهم أحاطوا بعلوم العقول ، فالجهل خير من عقل يدعرك إلى إنكار مثل هذه الأمور لأولياء الله تعالى ، ومن أنكر ذلك لأولياء الله لزمه إنكار الأنبياء وكان خارجاً عن الدين بالكيفية . قال بعض العارفين : لما انقطع الأبدال في أطراف الأرض واستتروا عن أعين الجمهور لأنهم لا يطيقون النظر إلى علماء الوقت لأنهم عندهم جهال بالله تعالى وهم عند أنفسهم وعند الجاهلين علماء . قال سهل التستري رضي الله عنه : إن من أعظم المعاصي الجهل بالجهل والنظر إلى العامة واستماع كلام أهل الغفلة . وكل عالم خاض في الدنيا فلا ينبغي أن يصفى إلى قوله بل ينبغي أن يتم في كل ما يقول لأن كل إنسان يحوض فيما أحب ويدفع مالا يوافق محبوبه ، ولذلك قال الله عز وجل ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتع هواه وكان أمره فرطاً ﴾ والعوام العصاة أسعد حالاً من الجهال بطريق الدين المعتقدين أنهم من العلماء ؛ لأن العاصي معترف بتقصيره ويستعفف ويتوب وهذا الجاهل الظان أنه عالم وأن ما هو مشتغل به من العلوم التي هي وسائله إلى الدنيا عن سلوك طريق الدين فلا يتوب ولا يستغفر ؛ بل لا يزال مستمراً عليه إلى الموت . وإذ غلب هذا على أكثر الناس إلا من عصمه الله تعالى وانقطع الطمع من إصلاحهم فالأسلم لذي الدين المحتاط العزلة والانفراد عنهم - كما سيأتي في كتاب العزلة بيانه إن شاء الله تعالى - ولذلك كتب يوسف بن أسباط إلى حذيفة المرعشي : ما ظنك بمن بقى لا يجد أحداً يذكر الله تعالى معه إلا كان آتماً أو كانت مذاكرته معصية وذلك أنه لا يجد أهله ؟ ولقد صدق فإن محالطة الناس لا تنفك عن غيبة أو سماع غيبة أو سكوت على منكر وأن أحسن أحواله أن يفيد علماً أو يستفيدة ولو تأمل هذا المسكين وعلم أن إفادته لا تخلو عن شوائب الرياء وطلب الجمع والرياسة علم أن المستفيد إنما يريد أن يجعل ذلك آلة إلى طلب الدنيا ووسيلة إلى الشر فيكون هو معيناً له على ذلك ورداء وظهيراً ومهيباً لأسبابه كالذي يبيع السيف من قطاع الطريق . فالعلم كالسيف وصلاحه للخير كصلاح السيف للغزو ، ولذلك لا يرخص له في البيع من يعلم بقرائن أحواله أنه يريد به الاستعانة على قطع الطريق . فهذه اثنتا عشرة علامة من علامات علماء الآخرة تجمع كل واحدة منها جملة من أخلاق علماء السلف ؛ فكان أحد رحلين إما متصفاً بهذه الصفات أو معترفاً بالتقصير مع الإفراز به وإياك أن تكون الثالث فتانس على نفسك بأن تبدل آلة الدنيا بالدين وتشبه سيرة البطالين بسيرة العلماء الراغبين وتلتحق بجهلك وإنكارك بزمرة الهالكين الآيسين . نعوذ بالله من خدع الشيطان ، فيها هلك الجمهور . فنسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن لا تغره الحياة الدنيا ولا يغره بالله الفرور .

الباب السابع

في العقل وشرفه وحقيقته وأقسامه - بيان شرف العقل

اعلم أن هذا مما لا يحتاج إلى تكلف في إظهاره لا سيما وقد ظهر شرف العلم من قبل العقل والعقل منبع العلم ومطلعه وأساسه والعلم يجرى منه مجرى الثمرة من الشجرة والنور من الشمس والرؤية من العين فكيف لا يشرف ما هو وسيلة السعادة في الدنيا والآخرة؟ أو كيف يستتراب فيه والبهيمة مع قصور تمييزها تحشم العقل حتى إن أعظم البهائم بدنا وأشدها ضراوة وأقواها سطوة إذا رأى صورة الإنسان احتشمه وهابه لشعوره باستيلائه عليه لما خص به من إدراك الحيل . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « الشيخ في قومه كالنبي في أمته (١) ، وليس ذلك لكثرة ماله ولا لكبر شخصه ولا لزيادة قوته بل لزيادة تجربته التي هي ثمرة عقله . ولذلك ترى الأتراك والأكراد وأجلاف العرب وسائر الخلق مع قرب منزلتهم من رتبة البهائم يوقرون المشايخ بالطبع . ولذلك حين قصد كثير من المعاندين قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما وقعت أعينهم عليه واكتحلوا بغرته الكريمة هابوه وتراوى لهم ما كان يتلالا على ديباجة وجهه من نور النبوة وإن كان ذلك باطنا في نفسه بطون العقل فشرف العقل ما يدرك بالضرورة ؛ وإنما القصد أن يورد ما وردت به الأخبار والآيات في ذكر شرفه وقد سماه الله نورا في قوله تعالى ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة ﴾ وسمى العلم المستفاد منه روحا ووحيا وحياة فقال تعالى ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ﴾ وقال سبحانه ﴿ أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به في الناس ﴾ وحيث ذكر النور والطلعة أراد به العلم والجهل كقوله ﴿ يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « يا أيها الناس اعتلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل تعرفوا ما أمرتم به وما نهيتم عنه واعلموا أنه ينجدكم عند ربكم واعلموا أن المائل من أطاع الله وإن كان دميم النظر حقير الخطر دنى المنزلة رث الهيئة ، وأن الجاهل من عصى الله تعالى وإن كان جميل المطر عظيم الخطر شريف المنزلة حسن الهيئة فصيحاً نطقاً فالقردة والحنازير أعقل عند الله تعالى من عصاه ، ولا تعتبر بتعظيم أهل الدنيا لإياهم فإنهم من الخاسرين (٢) ، . وقال صلى الله عليه وسلم « أول ما خلق الله العقل ، فقال له : أقبل فأقبل ، ثم قال له : أدبر فأدبر ، ثم قال الله عز وجل وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا أكرم على منك ، بك آخذ وبك أعطى وبك أئيب وبك أعاقب (٣) ، « فإن قلت : فهذا العقل إن كان عرضا فكيف خلق قبل الأجسام ؟ وإن كان حوهرًا فكيف يكون جوهر قائم بنفسه ولا يتحيز ؟ فأعلم أن هذا من علم المكاشفة فلا يليق ذكره بعلم المعاملة ، وغرضنا الآن ذكر علوم المعاملة . وعن أنس رضى الله عنه قال « أثنى قوم على رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم حتى بالغوا فقال صلى الله عليه وسلم كيف عقل الرجل ؟ فقالوا : نخبرك عن اجتهاده في العبادة وأصناف الخير وتسلطنا عن عقله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « إن الأحق يصيب بجهله أكثر من فجور

الباب السابع في العقل

- (١) حديث « الشيخ في قومه كالنبي في أمته ، أخرجه ابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمر وأبو منصور الديلمي من حديث أبي رافع بسند صحيح .
- (٢) حديث « يا أيها الناس اعتلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل .. الحديث » أخرجه داود بن المجهر أحد الضعفاء في كتاب العقل .
- من حديث أبي هريرة ؛ وهو في مسند المارث بن أبي أسامة عن داود (٣) حديث « أول ما خلق الله العقل قال له أقبل . . الحديث » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي أرمأة وأبو نعيم من حديث عائشة بإسنادين صحيحين

الفاجر وإنما يرتفع العباد غدا في الدرجات الزلني من ربهم على قدر عقولهم (١) ، وعن عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما اكتسب رجل مثل فضل عقل يهدي صاحبه إلى هدى ويرده عن ردى وما تم إيمان عبد ولا استقام دينه حتى يكمل عقله » (٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم ولا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم عقله فعند ذلك تم إيمانه وأطاع ربه وعصى عدوه إبليس » (٣) ، وعن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لكل شيء دعامة ودعامة المؤمن عقله فيقدر عقله تكون عبادته أما سمعتم قول الفجار في النار (لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير » (٤)) وعن عمر رضى الله عنه أنه قال لثيم الدارى « ما الأسود فيكم ؟ قال : العقل ، قال : صدقت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سألتك فقال كما قلت ، ثم قال سألت جبريل عليه السلام ما الأسود ؟ فقال : العقل » (٥) ، وعن البراء بن عازب رضى الله عنه قال : كثرت المسائل يوما على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يا أيها الناس إن لكل شيء مطية ومطية المرء العقل وأحسنكم دلالة ومعرفة بالحجة أفضلكم عقلا » (٦) ، وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال « لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة أحد سمع الناس يقولون : فلان أشجع من فلان وفلان أبلى مالم يبيل فلان ونحو هذا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما هذا فلا علم لكم به ، قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : إنهم قاتلوا على قدر ما قسم الله لهم من العقل وكانت نصرتهم ونيتهم على قدر عقولهم فأصيب منهم من أصيب على منازل شتى فإذا كان يوم القيامة اقتسموا المنازل على قدر نياتهم وقدر عقولهم » (٧) ، وعن البراء بن عازب أنه صلى الله عليه وسلم قال « جد الملائكة واجتهدوا في طاعة الله سبحانه وتعالى بالعقل وجد المؤمنون من بنى آدم على قدر عقولهم فأعملهم بطاعة الله عز وجل أوفرهم عقلا » (٨) ، وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « قلت يا رسول الله بم يتفاضل الناس في الدنيا ؟ قال : بالعقل ، قلت : وفي الآخرة ؟ قال : بالعقل ، قلت : أليس إنما يميزون بأعمالهم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : يا عائشة وهل عملوا إلا بقدر ما أعطاهم عز وجل من العقل ؟ فيقدر ما أعطوا من العقل كانت أعمالهم ويقدر ما عملوا يميزون » (٩) ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لكل شيء آلة وعدة وإن آلة المؤمن العقل ولكل شيء مطية ومطية المرء العقل ولكل شيء دعامة ودعامة الدين العقل ولكل قوم غاية وغاية العباد العقل ولكل قوم داع وداعى العابدين العقل ولكل تاجر بضاعة وبضاعة المجتهدين العقل ولكل أهل بيت قيم وقيم بيوت الصديقين العقل ولكل خراب

(١) حديث أس « أئني قوم على رحل عند النبي صلى الله عليه وسلم حتى بالموا في النشاء فقال كيف عقل الرجل . . الحديث » أخرجه ابن الجبير في العقل بتمامه والترمذى الحكيم في النوادر مختصراً (٢) حديث عمر « ما اكتسب رجل مثل فضل عقل . الحديث » أخرجه ابن الجبير في العقل وعنه الحارث بن أنس (٣) حديث « إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم ولا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم عقله .. الحديث » أخرجه ابن الجبير من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده به والحديث عند الترمذى مختصراً دون قوله « ولا يتم » من حديث عائشة وصححه (٤) حديث أبي سعيد « لكل شيء دعامة ودعامة المؤمن عقلا .. الحديث » أخرجه ابن الجبير وعنه الحارث (٥) حديث عمر أنه قال لثيم الدارى « ما الأسود فيكم ، قال العقل قال صدقت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم .. الحديث » أخرجه ابن الجبير وعنه الحارث (٦) حديث البراء « كثرت المسائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أيها الناس إن لكل شيء مطية .. الحديث » أخرجه ابن الجبير وعنه الحارث (٧) حديث أبي هريرة « لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة أحد سمع الناس يقولون كان فلان أشجع من فلان .. الحديث » أخرجه ابن الجبير (٨) حديث البراء بن عازب « جد الملائكة واجتهدوا في طاعة الله بالعقل .. الحديث » أخرجه ابن الجبير كذلك وعنه الحارث في مسنده ، ورواه البيهقي في معجم الصحابة من حديث ابن عازب رجل من الصحابة غير البراء وهو بالسند الذى رواه ابن الجبير (٩) حديث عائشة « قلت يا رسول الله بأى شيء يتفاضل الناس في الدنيا قال بالعقل .. الحديث » أخرجه ابن الجبير والترمذى الحكيم في النوادر نحوه

عمارة وعمارة الآخرة العقل ، ولكل امرئ عقب ينسب إليه ويذكر به وعقب الصديقين الذي ينسبون إليه ويذكرون به العقل ولكل سفر فسطاط وفسطاط المؤمنين العقل (١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن أحب المؤمنين إلى الله عز وجل من نصب في طاعة الله عز وجل ونصح لعباده وكمل عقله ونصح نفسه فأبصر وعمل به أيام حياته فأفصح وأنجح (٢) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « أتمكم عقلا أشدكم لله تعالى خوفاً وأحسنكم هياماً أمركم به ونهى عنه نظراً وإن كان أقلكم تطوعاً (٣) » .

بيان حقيقة العقل وأقسامه

اعلم أن الناس اختلفوا في حد العقل وحقيقته وذهل الآكثرون عن كون هذا الاسم مطلقاً على معان مختلفة فصار ذلك سبب اختلاهم . والحق الكاشف للغطاء فيه أن العقل اسم يطلق بالاشتراك على أربعة معان - كما يطلق اسم العين مثلاً على معان عدة وما يجري هذا المجرى فلا ينبغي أن يطلب لجميع أقسامه حد واحد بل يفرد كل قسم بالكشف عنه - فالأول : الوصف الذي يفارق الإنسان به سائر البهائم وهو الذي استعد به لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية وهو الذي أراده الحارث بن أسد المحاسبي حيث قال في حد العقل : إنه غريزة يتعمق بها الإدراك العلوم النظرية وكأنه نور يقذف في القلب به يستمد لإدراك الأشياء ولم ينصف من أنكر هذا ورد العقل إلى مجرد العلوم الضرورية فإن الغافل عن العلوم والنائم يسميان عاقلين باعتبار وجود هذه الغريزة فيهما مع فقد العلوم . وكما أن الحياة غريزة بها يتعمق الجسم للحركات الاختيارية والإدراكات الحسية فكذلك العقل غريزة بها تتعمق بعض الحيوانات للعلوم النظرية ولو جاز أن يسوى بين الإنسان والحمار في الغريزة والإدراكات الحسية . فيقال لافرق بينهما إلا أن الله تعالى بحكم إجراء العادة يخلق في الإنسان علوماً وليس يخلقها في الحمار والبهائم لجاز أن يسوى بين الحمار والجماد في الحياة ، ويقال لافرق إلا أن الله عز وجل يخلق في الحمار حركات مخصوصة بحكم إجراء العادة . فإنه لو قدر الحمار جماداً ميتاً لو حب القول بأن كل حركة تشاهد منه فالله سبحانه وتعالى قادر على خلقها فيه على الترتيب المشاهد . وكما وجب أن يقال لم يكن مفارقه للجهد والحركات إلا بغريزة اختصت به عبر عنها بالحياة فكذا مفارقة الإنسان البهيمة في إدراك العلوم النظرية بغريزة يعبر عنها بالعقل وهو كالمرأة التي تفارق غيرها من الأجسام في حكاية الصور والألوان بصفة اختصت بها وهي الصقالة . وكذلك العين تفارق الجبهة في صفات وهيئات بها استعدت للرؤية فنسب هذه الغريزة إلى العلوم كمنسبة العين إلى الرؤية ونسبة القرآن والشرع إلى هذه الغريزة في سياقتها إلى انكشاف العلوم لها كمنسبة نور الشمس إلى البصر فكذا ينبغي أن تفهم هذه الغريزة . الثاني : هي العلوم التي تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميز بمجواز الجائزات واستحالة المستحيلات كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد وأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين في وقت واحد ، وهو الذي عناه بعض المتكلمين حيث قال في حد العقل : إنه بعض العلوم الضرورية كالعلم بمجواز الجائزات واستحالة المستحيلات وهو أيضاً صحيح في نفسه لأن هذه العلوم موجودة وتسميتها عقلاً ظاهراً وإنما الفاسد أن تنسب تلك الغريزة ويقال لا موجود إلا هذه العلوم . الثالث : علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال فإن من حسنكته التجارب وهذبهته المداهب يقال إنه عاقل في العادة ومن لا يتصف بهذه الصفة فيقال

(١) حديث ابن عباس « لسكر شيء آلة وعدة وإن آلة المؤمن العقل .. الحديث » أخرجه ابن الجبير عنه الحارث

(٢) حديث « إن أحب المؤمنين إلى الله من نصب في طاعة الله .. الحديث » أخرجه ابن الجبير عن حديث ابن عمر ، ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الردوس بإسناد آخر ضعيف (٣) حديث « أتمكم عقلاً أشدكم لله خوفاً .. الحديث » أخرجه ابن الجبير من حديث أبي قتادة

إنه غي غمر جاهل ، فهذا نوع آخر من العلوم يسمى عقلا . الرابع : أن تنتهي قوة تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور ويقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة ويقهرها فإذا حصلت هذه القوة سمي صاحبها عاقلا من حيث إن إقدامه وإحجامه بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب لا بحكم الشهوة الناحلة وهذه أيضا من حواص الإنسان التي بها يتميز عن سائر الحيوان ، فالأول : هو الآس والسنخ والمنبع . والثاني : هو الفرع الأقرب إليه . والثالث : فرع الأول والثاني ؛ إذ بقوة الغريزة والعلوم الضرورية تستمد علوم التجارب والرابع : هو الثمرة الأخيرة وهي الغاية القصوى ، فالأولان بالطبع والأخيران نالا كتساب . ولذلك قال على كرم الله وجهه :

رأيت العقل عقليين فطبوع ومسموع ولا ينفع مسموع إذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس وصوء العين ممنوع

والأول هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم « ما خلق الله عز وجل خلقا أكرم عليه من العقل ^(١) » ، والأخير هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم « إذا تقرب الناس بأبواب البر والأعمال الصالحة فتقرب أنت بعقلك ^(٢) » وهو المراد بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لأنى الدرءا رضى الله عنه « ازدد عقلا تردد من ربك قريبا ، فقال : بأى أنت وأمى وكيف لى بذلك ؟ فقال : اجتنب محارم الله تعالى وأد فرائض الله سبحانه تكن عاقلا واعمل بالصالحات من الأعمال تردد فى عاجل الدنيا رفعة وكرامة وتل فى آجل العقبى بها من ربك عز وجل القرب والعز ^(٣) » وعن سعيد بن المسيب « أن عمر وأبى بن كعب وأبى هريرة رضى الله عنهم دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله من أعلم الناس ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : العاقل ؟ قالوا : من أعبد الناس ؟ قال : العاقل . قالوا : فمن أفضل الناس ؟ قال العاقل قالوا : أليس العاقل من تمت مروءته وطهرت فصاحته وجادت كفه وعظمت منزلته ؟ فقال صلى الله عليه وسلم (وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين) إن العاقل هو المتقى وإن كان فى الدنيا حسيسا ذليلا ^(٤) » قال صلى الله عليه وسلم فى حديث آخر « إنما العاقل من آمن بالله وصدق رسله وعمل بطاعته ^(٥) » ، ويتبأن أن يكون أصل الاسم فى أصل اللغة لتلك الغريزة وكذلك فى الاستعمال وإنما أطلق على العلوم من حيث إنها ثمرتها كما يعرف الشيء بثمرته ويقال : العلم هو الخشية والعالم من يخشى الله تعالى . فإن الخشية ثمرة العلم فتكون كالحماز لغير تلك الغريزة ولكن ليس الغرض البحث عن اللغة . والمقصود أن هذه الأقسام الأربعة موجودة والاسم يطلق على جميعها ولا خلاف فى وجود جميعها إلا فى القسم الأول ، والصحيح وجودها بل هى الأصل . وهذه العلوم كأنها مضممة فى تلك العريرة بالفطرة ولكن تطورى الوجود إذا جرى سبب يخرجهما إلى الوجود حتى كأن هذه العلوم ليست شىء وارد عليها من خارج وكأنها كانت مستكنة فيها وطهرت ، ومثاله الماء فى الأرض فإنه يطهر بحمر البئر ويجمع ويتميز بالحس لا بأن يساق إليها شىء جديد ، وكذلك الدهن فى اللوز ، وماء الورد فى الورد ولذلك قال تعالى (وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم

(١) حديث « ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل » أخرجه الترمذى الحكيم فى السواد سند صحيح من رواية الحسن بن عدة من الصحابة (٢) حديث « إذا تقرب الناس أنواع البر فتقرب أنت بعقلك » أخرجه أبو نعيم فى الحلية من حديث على « إذا اكتسب الناس من أنواع البر ليتقربوا بها إلى ربنا عز وجل فاكسب أنت من أنواع العقل تسببهم بالرفقة والقرب » وإسناده ضعيف (٣) حديث « ازدد عقلا تردد من ربك قريبا .. الحديث » قاله لأبى الدرءا أخرجه ابن الجبير ومن طريقه الحارث بن أبى أسامة والترمذى الحكيم والنوادر (٤) حديث ابن المسيب « أن عمر وأبى بن كعب وأبى هريرة دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله من أعلم الناس فقال العاقل .. الحديث » أخرجه ابن الجبير (٥) حديث « إنما العاقل من آمن بالله وصدق رسله وعمل بطاعته » أخرجه ابن الجبير من حديث سعيد بن المسيب مرسلًا وفيه قصة

ألسنت بر بكم قالوا بلى ﴿ فالمراد به إقرار نفوسهم لا إقرار الألسنة فإنهم انقسموا في إقرار الألسنة حيث وجدت الألسنة والأشخاص إلى مقرولي واحد ولذلك قال تعالى ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾ معناه إن اجترت أحوالهم شهدت بذلك نفوسهم وبواطنهم ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ أى كل آدمى فطر على الإيمان بالله عز وجل بل على معرفة الأشياء على ما هي عليه أعنى أنها كالمضمنة فيها لقرب استعدادها للإدراك . ثم لما كان الإيمان مركزاً في النفوس بالفطرة انقسم الناس إلى قسمين : إلى من أعرض فنى وهم الكفار ، وإلى من أجل خاطره فتذكر فكان كمن حل شهادة فنىها بفطنة ثم تذكرها . ولذلك قال عز وجل ﴿ لعلمهم يتذكرون - وليتذكر أولوا الألباب - واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به - ونقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ وتسمية هذا النقط تذكر ليس ببعيد فكان التذكر ضربان ؛ أحدهما . أن يذكر صورة كانت حاضرة الوجود في قلبه لكن غابت بعد الوجود . والآخر : أن يذكر صورة كانت مضمنة فيه بالفطرة . وهذه حقائق ظاهرة للنظر بنور البصيرة ثقيلة على من يستروجه ^(١) السماع والتقليد دون الكشف والعيان . ولذلك تراه يتخبط في مثل هذه الآيات ويتعسف وفي تأويل التذكر بإقرار النفوس أنواعاً من التعسفات ويتخيل إليه في الأخبار والآيات ضروب من المناقضات وربما يغلب ذلك عليه حتى ينظر إليها بعين الاستحراق ويعتقد فيها التهاوت . ومثاله مثال الأعمى الذى يدخل داراً فيعثر فيها بالأواني المصفوفة في الدار فيقول : ما لهذه الأواني لا ترفع من الطريق وترد إلى مواضعها ؟ فيقال له : إنها في مواضعها وإنما الخلل في بصرك . فكذلك خلل البصيرة يحرى مجراه وأطمم منه وأعظم إذ النفس كالفارس والبدن كالفارس وعمى الفارس أضرم من عمى الفرس ولمشابهة بصيرة الباطن لبصيرة الظاهر قال الله تعالى (ما كذب الفؤاد ما رأى) وقال تعالى (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض) الآية وسمى ضده عمى فقال تعالى (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) وقال تعالى (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً) وهذه الأمور التي كشفت للأنبياء بعضها كان بالبصر وبعضها كان بالبصيرة وسمى الكل رؤية . وبالجملة من لم تكن بصيرته الباطنة ثاقبة لم يعلق به من الدين إلا قشوره وأمثله دون لبابه وحقائقه . فهذه أقسام ما ينطلق اسم العقل عليها .

بيان تفاوت النفوس في العقل

قد اختلف الناس في تفاوت العقل ولا معنى للاشتغال بنقل كلام من قل تحصيله بل الأولى والأهم المبادرة إلى التصريح بالحق . والحق الصريح فيه أن يقال إن التفاوت يتطرق إلى الأقسام الأربعة سوى القسم الثانى : وهو العلم الضرورى بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات . فإن من عرف أن الإثنين أكثر من الواحد عرف أيضاً استحالة كون الجسم في مكانين وكون الشيء الواحد قديماً حادثاً وكذا سائر النظائر وكل ما يدركه إدراكاً محققاً من غير شك ، وأما الأقسام الثلاثة فالتفاوت يتطرق إليها ، أما القسم الرابع وهو استيلاء القوة على قمع الشهوات فلا يخفى تفاوت الناس فيه بل لا يخفى تفاوت أحوال الشخص الواحد فيه ، وهذا التفاوت يكون تارة لتفاوت الشهوة إذ قد يقدر العاقل ترك بعض الشهوات دون بعض ولكن غير مقصور عليه . فإن الشاب قد يعجز عن ترك الزنا وإذا كبر وتم عقله قدر عليه وشهوة الرياء والرياسة تزداد قوة بالكبر لضعفها ، وقد يكون سببه التفاوت في العلم المعرف لعائلة تلك الشهوة ، ولهذا يقدر الطبيب على الاحتماء عن بعض الأاطعمة المضرة وقدم من يساويه في العقل على ذلك

(١) قوله « يستروجه » من الرواج أى يكون السماع والتقليد رأياً عنده فتأمل اه مصححه

إذا لم يكن طيباً وإن كان يعتقد على الجملة فيه مضرة لكن إذا كان علم الطبيب أتم كان خوفه أشد فيكون الخوف حداً للعقل وعدة له في قمع الشهوات وكسرها . وكذلك يكون العالم أقدر على ترك المعاصي من الحاهل لقوة علمه بضرر المعاصي وأغنى به العالم الحقيقي دون أرباب الطيالة وأصحاب الهذيان . فإن كان التفاوت من جهة الشهوة لم يرجع إلى تفاوت العقل وإن كان من جهة العلم فقد سمينا هذا الضرب من العلم عقلاً أيضاً فإنه يقوى غريزة العقل فيكون التفاوت فيما رحمت التسمية إليه وقد يكون بمجرد التفاوت في غريزة العقل فإنها إذا قويت كان قمعها للشهوة لا محالة أشد . وأما القسم الثالث وهو علوم التجارب فتفاوت الناس فيها لا ينكر فإنهم يتفاوتون بكثرة الإصابة وسرعة الإدراك ويكون سببه إما تفاوتاً في الغريزة وإما تفاوتاً في الممارسة ، فأما الأول وهو الأصل أغنى الغريزة فالتفاوت فيه لا سبيل إلى ححده فإنه مثل نور يشرق على النفس ويطلع صحبه ومبادئ لإشراقه عند سن التمييز ثم لا يزال ينمو ويزداد بما خفي التدريج إلى أن يتكامل بقرب الأربعين سنة ؛ ومثاله نور الصباح فإن أوائله تخفى خفاء يشق إدراكه ثم يتدرج إلى الزيادة إلى أن يكمل بطولوع قرص الشمس . وتفاوت نور البصيرة كتفاوت نور البصر والفرق مدرك بين الأعمش وبين حاد البصر بل سنة الله عز وجل حاربه في جميع خلقه بالتدرج في الإيجاد حتى إن غريزة الشهوة لا تظهر في الصبي عند البلوغ دفعة واحدة بل تظهر شيئاً فشيئاً على التدريج وكذلك جميع القوى والصفات ، ومن أنكرت تفاوت الناس في هذه الغريزة فكأنه منجلع عن رقة العقل ، ومن طن أن عقل النبي صلى الله عليه وسلم مثل عقل آحاد السوادية وأحلاف البوادي فهو أحسن في نفسه من آحاد السوادية وكيف ينكر تفاوت الغريزة ولولاه لما اختلف الناس في فهم العلوم ولما انقسموا إلى بليد لا يفهم بالفهم إلا بعد تعب طويل من المعلم وإلى ذكي يفهم بأدنى رمز وإشارة وإلى كامل تمنعت من نفسه حقائق الأمور بدون التعليم ؟ كما قال تعالى (يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار بور على بور) وذلك مثل الأنبياء عليهم السلام إذ يتضح لهم في بواطنهم أمور غامضة من غير تعلم وسماع ويعبر عن ذلك بالإلهام ، وعن مثله عبر النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال « إن روح القدس نفث في روعي : أحب من أحببت فإنك مفارقة وعش ماشئت فإنك ميت واعمل ماشئت فإنك مجزي به (١) » وهذا النمط من تعريف الملائكة للأنبياء يحالف الوحي الصريح الذي هو سماع الصوت بحاسة الأذن ومشاهدة الملك بحاسة البصر ولذلك أحبر عن هذا بالنفث في الروع ، ودرجات الوحي كثيرة والخصوص فيها لا يليق بعلم المعاملة بل هو من علم المكاشفة . ولا تطان أن معرفة درجات الوحي تستدعي منصب الوحي إذ لا يبعد أن يعرف الطبيب المريض درجات الصحة ويعلم العالم الفاسق درجات العدالة وإن كان خالياً عنها فالعلم شيء ووجود المعلوم شيء آخر فلا كل من عرف التوبة والولاية كان نبياً ولا ولياً ولا كل من عرف التقوى والورع ودقايقه كان تقياً وانقسام الناس إلى من يتلبه من نفسه ويفهم وإلى من لا يفهم إلا بتبنيه وتعليم وإلى من لا ينفعه التعليم أيضاً ولا التنبيه كانقسام الأرض إلى ما يجتمع فيه الماء يقوى فيتفجر بنفسه عيوناً وإلى ما يحتاج إلى الحفر ليخرج إلى القنوات وإلى ما لا ينفع فيه الحفر وهو اليابس وذلك لاختلاف جواهر الأرض في صفاتها فكذلك اختلاف النفوس في غريزة العقل . ويدل على تفاوت العقل من جهة القل : ما روى أن عبد الله بن سلام رضى الله عنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم في حديث طويل في آخره وصف عظم العرش وأن الملائكة قالت « يا ربنا هل خلقت شيئاً أعظم من العرش ؟

(١) حديث « إن روح القدس نفث في روعي : أحب من أحببت فإنك مفارقة . . الحديث » أخرجه الشيرازي في الألقاب من حديث سهل بن سعد نحوه ، والطبراني في الأوسط من حديث علي وكلاماً ضعيف

قال : نعم : العقل ، قالوا : وما بلغ من قدره ؟ قال : هيات لا يحاط بعله هل لكم علم بعدد الرمل ؟ قالوا : لا ، قال الله عز وجل : فإن خلقت العقل أصنافاً شتى كعدد الرمل فمن الناس من أعطى حنة ومنهم من أعطى حبتين ومنهم من أعطى الثلاث والأربع ومنهم من أعطى فرقا ومنهم من أعطى وسقا ومنهم من أعطى أكثر من ذلك ^(١) ، فإن قلت : فما بال أقوام من المتصوفة يذمون العقل والمعقول ؟ فاعلم أن السبب فيه أن الناس نقلوا اسم العقل المعقول إلى المحادلة والمناظرة بالمناقضات والإلزامات وهو صنعة الكلام فلم يقدرُوا على أن يقرروا عندهم أنكم أخطأتم في التسمية إذ كان لا يمتحنى عن قلوبهم بعد تداول الألسنة به ورسوخه في القلوب فذموا العقل والمعقول وهو المسمى به عندهم . فأما نور البصيرة التي بها يعرف الله تعالى ويعرف صدق رسله فكيف يتصور ذمه وقد أثنى الله تعالى عليه وإن ذم فما الذى لعدده يحمد ؟ فإن كان المحمود هو الشرع فبم علم صحة الشرع ؟ فإن علم بالعقل المدموم الذى لا يوثق به فيكون الشرع أيضاً مذموماً ولا يلتفت إلى من يقول : لأنه يدرك بعين اليقين ونور الإيمان لا بالعقل . فإننا نريد بالعقل : ما يريده بعين اليقين ونور الإيمان ، وهى الصفة الباطنة التي يتميز بها الآدمى عن الهائم حتى أدرك بها حقائق الأمور : وأكثر هذه التحجيبات إنما ثارت من جهل أقوام طلبوا الحقائق من الألفاظ فتخبطوا فيها لتخبط اصطلاحات الناس في الألفاظ ؛ فهذا القدر كاف في بيان العقل والله أعلم .

تم كتاب العلم بحمد الله تعالى ومنه ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء . يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب قواعد العقائد والحمد لله وحده أولاً وآخراً .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كتاب قواعد العقائد وفيه أربعة فصول

الفصل الأول

في ترجمة عقيدة أهل السنة في كلبى الشهادة التي هي أحد مباني الإسلام

فنقول وبالله التوفيق : الحمد لله المبدئ المعيد الفعال لما يريد ذى العرش المجيد والبطش الشديد الهادى صفوة العبيد إلى المنهج الرشيد والمسلك السديد المنعم عليهم بعد شهادة التوحيد بحراسة عقائدهم عن ظلمات التشكيك والترديد السالك بهم إلى اتباع رسوله المصطفى واقتفاء آثار صحبه الأكرمين المكرمين بالتأييد والتسديد المتجلى لهم في ذاته وأفعاله بمحاسن أوصافه التي لا يدركها إلا من ألقى السمع وهو شهيد المعروف إياهم أنه في ذاته واحد لا شريك له فرد لا مثيل له صمد لا صد له منفرد لا ند له وأنه واحد قديم لا أول له أزلى لا بداية له مستمر الوجود لا آخر له أبدى لا نهاية له قيوم لا انقطاع له دائم لا انصرام له لم يزل ولا يزال موصوفاً بنعوت الجلال

(١) حديث ابن سلام « سئل النبي صلى الله عليه وسلم » في حديث طويل في آخره وصف عظم الدرر وأن الملائكة قات يارب هل حلفت شيئاً أعظم من العرش الحديث أخرجه ابن الجبير من حديث أس بنامه والترمذى الحكيم والوادى مختصراً

(١٢ - لحياء علوم الدين - ١)

لا يقضى عليه بالانقضاء والانفصال بتصرم الآباد وانقراض الآحبال بل ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ﴾

التنزيه : وأنه ليس بجسم مصور ولا حوهر محدود مقدر وأنه لا يماثل والأجسام ولا في التقدير ولا في قبول الانقسام وأنه ليس بجوهر ولا تحله الجواهر ولا تعرض ولا تحله الأعراض بل لا يماثل موجودا ولا يماثله موجود ﴿ ليس كمثل شيء ﴾ ولا هو مثل شيء . وأنه لا يحده المقدر ولا تحويه الأقطار ولا تحيط به الجهات ولا تكتنفه الأرضون ولا السموات . وأنه مستو على العرش على الوجه الذي قاله وبالمعنى الذي أراد استواء منزها عن المهاسة والاستقرار والتمكن والحلول والانتقال لا يحمله العرش بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ومقهورون في قبضته . وهو فوق العرش والسماء وفوق كل شيء إلى تخوم الثرى ، فوقية لا تزيده قربا إلى العرش والسماء كما لا تزيده بعدا عن الأرض والثرى بل هو رفيع الدرجات عن العرش والسماء كما أنه رفيع الدرجات عن الأرض والثرى . وهو مع ذلك قريب من كل موجود وهو أقرب إلى العبد من جبل الوريد (وهو على كل شيء شهيد) إذ لا يماثل قربه قرب الأجسام كما لا تماثل ذاته ذات الأجسام وأنه لا يحل في شيء ولا يحل فيه شيء تعالى عن أن يحويه مكان كما تقدس عن أن يحده زمان بل كان قبل أن خلق الزمان والمكان وهو الآن على ما عليه كان . وأنه بأن عن خلقه بصفاته ليس في ذاته سواه ولا في سواه ذاته وأنه مقدس عن التغير والانتقال لا تحله الحوادث ولا تعتريه العوارض بل لا يرال في نعوت جلالة منزها عن الزوال وفي صفات كاله مستغنيا عن زيادة الاستكمال . وأنه في ذاته معلوم الوجود بالعقول مرئي الذات بالأبصار نعمة منه ولطفا بالآرار في دار القرار وإتماما منه للنعم بالنظر إلى وجهه الكريم .

الحياة والقدرة : وأنه تعالى حى قادر جبار قاهر لا يعتره قصور ولا عجز ولا تأخذه سنة ولا نوم ولا يعارضه فناء ولا موت وأنه ذو الملك والملكوت والعزة والجبروت له السلطان والقهر والخلق والأمر والسموات مطويات بيمينه والخلائق مهوورون في قبضته . وأنه المفرد بالخلق والاختراع المتوحد بالإيجاد والإبداع خلق الخلق وأعمالهم وقدر أرزاقهم وآجالهم لا يشد عن قبضته مقدور ولا يعزب عن قدرته تصاريف الأمور ، لا تخصي مقدراته ولا تتباهى معلوماته

العلم : وأنه عالم بجميع المعلومات محيط بما يجرى من تخوم الأرضين إلى أعلى السموات وأنه عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء بل يعلم ديبب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ويدرك حركة الذر في حو الهواء ويعلم السر وأخفى ، ويطلع على هواجس الضمائر وحركات الخواطر وخفيات السرائر يعلم قديم أزلى لم يزل موصوفا به في أزل الأزال لا يعلم متجدد حاصل في ذاته بالحلول والانتقال ،

الإرادة : وأنه تعالى مرید للسكائنات مدير للحادثات فلا يجرى في الملك والملكوت قليل أو كثير صغير أو كبير خير أو شر نفع أو ضرر إيمان أو كفر عرفان أو نكر فوز أو خسران زيادة أو نقصان طاعة أو عصيان إلا بقضائه وقدره وحكمته ومشيتته . فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن لا يخرج عن مشيتته لفنة ناظر ولا فلتة خاطر بل هو المبدئ المعيد الفعال لما يريد لا أراد لأمره ولا معقب لقضائه ولا مهرب لعبد عن معصيته إلا بتوفيقه ورحمته . ولا قوة له على طاعته إلا بمشيئته وإرادته فلو اجتمع الإنس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا في العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته ومشيتته لعجزوا عن ذلك . وأن إرادته قائمة بذاته في جملة صفاته لم يزل كذلك موصوفا بها

مريدا في أزاله لوجود الأشياء في أوقاتها التي قدرها ووجدت في أوقاتها كما أراده في أزاله من غير تقدم ولا تأخر بل وقعت على وفق علمه وإرادته من غير تبدل ولا تزيير . دبر الأمور لا بترتيب أفكار ولا ترصد زمان فلذلك لم يسغله شأن عن شأن .

السمع والبصر : وأنه تعالى سميع بصير يسمع ويرى ولا يعرب عن سمعه مسموع وإن خفى . ولا يغيب عن رؤيته مرئى وإن دق . ولا يحجب سمعه بعد ولا يدفع رؤيته ظلام . يرى من غير حدة وأحضان ويسمع من غير أصمخة وآذان كما يعلم بعين قلبه ويطنس بغير جارحة ويخلق بغير آلة إذ لا تشبه صفاته صفات الخلق كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق .

الكلام : وأنه تعالى متكلم آمرناه واعد متوعد بكلام أزلى قديم قائم بذاته لا يشبه كلام الخلق فليس بصوت يحدث من السلال هوأه أو اصطكاك أجرام ولا بحرف ينقطع بإطباق شفة أو تحريك لسان . وأن القرآن والتوراة والإنجيل والربور كتبه المنزلة على رسله عليهم السلام . وأن القرآن مقروء بالأسنة مكتوب في المصاحف محفوظ في القلوب وأنه مع ذلك قديم قائم بذات الله تعالى لا يقبل الانفصال والافتراق بالانتقال إلى القلوب والأوراق ، وأن موسى صلى الله عليه وسلم سمع كلام الله بغير صوت ولا حرف ، كما يرى الأبرار ذات الله تعالى في الآخرة من غير جوهر ولا عرض . وإذا كانت له هذه الصفات كان حيا عالما قادرا مريدا سميعا بصيرا متكلما بالحياة والقدرة والعلم والإرادة والسمع والبصر والكلام لا بمجرد الذات .

الأفعال : وأنه سبحانه وتعالى لا موجود سواه إلا وهو حادث بعمله وفائض من عدله على أحسن الوجوه وأكملها وأتمها وأعدلها وأنه حكيم في أفعاله عادل في أفضيته لا يقاس عدله بعدل العباد إذ العبد يتصور منه الظلم تصرفه في ملك غيره . ولا يتصور الظلم من الله تعالى فإنه لا يصادف لغيره ملكا حتى يكون تصرفه فيه ظلما ، فكل ما سواه من إنس وجن ومملك وشيطان وسما وأرض وحيوان ونبات وجماد وجوهر وعرض ومدرك ومحسوس حادث احترعه بقدرته بعد العدم اختراعا وأنشأه لإنشاء بعد أن لم يكن شيئا إذ كان موجودا وحده ولم يكن معه غيره فأحدث الخلق بعد ذلك لإظهارا لقدرته وتحقيقا لما سبق من إرادته ولما حق في الأزل من كلمته لا لا فتقاره إليه وحاجته . وأنه متفضل بالخلق والاختراع والتكليف لا عن وجوب ومتطول بالإعانة والإصلاح لا عن لزوم ، فله الفضل والإحسان والنعمة والامتنان إذ كان قادرا على أن يصب على عباده أنواع العذاب ويبتليهم بضروب الآلام والأوصاب ولو فعل ذلك لكان منه عدلا ولم يكن منه قبيحا ولا ظلما . وأنه عز وجل يشهد عباده المؤمنين على الطاعات بحكم الكرم والوعد لا بحكم الاستحقاق واللزوم له إذ لا يجب عليه لأحد فعل ولا يتصور منه ظلم ولا يجب لأحد عليه حق . وأن حقه في الطاعات واجب على الخلق بإيجابه على السنة أنبيائه عليهم السلام لا بمجرد العقل ولكنه بعث الرسل وأظهر صدقهم بالمعجزات الظاهرة فبلغوا أمره ونهيه ووعدوه وعيده فوجب على الخلق تصديقهم فيما جاءوا به .

(معنى الكلمة الثانية) وهى الشهادة للرسول بالرسالة وأنه بعث النبي الأمى القرشى محمدا صلى الله عليه وسلم برسالته إلى كافة العرب والعجم والجن والإنس فنسخ بشريعته الشرائع إلا ما قرره منها . وفضله على سائر الأنبياء وجملة سيد البشر . ومع كمال الإيمان بشهادة التوحيد وهو قول « لا إله إلا الله » ، ما لم تقترن بها شهادة الرسول وهو قولك ، محمد رسول الله ، وألزم الخلق تصديقه في جميع ما أخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة . وأنه لا يتقبل

إيمان عبد حتى يؤمن بما أخبر به بعد الموت ، وأوله : سؤال منكر ونكير وهما شخصان مهيبان هائلان يقعدان العبد في قبره سوياً ذا روح وجسد فيسألانه عن التوحيد والرسالة ويقولان له : من ربك وما دينك ومن نبيك (١) ؟ وهما فتانا القبر (٢) وسؤالها أول فتنة بعد الموت (٣) . وأن يؤمن بعذاب القبر (٤) وأنه حق وحكمه عدل على الجسم والروح على ما يشاء . وأن يؤمن بالميزان ذى الكفتين واللسان وصفته في العظم أنه مثل طبقات السموات والأرض توزن الأعمال بقدره الله تعالى ، والصنح يومئذ مثاقيل الذر والخردل تحقيقاً لتسام العدل ، وتوضع صحائف الحسنات في صورة حسنة في كفة النور فينقل بها الميزان على قدر درجاتها عند الله بفضل الله وتطرح صحائف السيئات في صورة قبيحة في كفة الظلمة فيخفف بها الميزان بعدل الله (٥) . وأن يؤمن بأن الصراط حق وهو جسر ممدود على متن جهنم أحد من السيف وأدق من الشعرة تزل عليه أقدام الكافرين بحكم الله سبحانه فتهدى بهم إلى النار وثبتت عليه أقدام المؤمنين بفضل الله فيساقون إلى دار القرار (٦) . وأن يؤمن بالحوض المورد حوض محمد صلى الله عليه وسلم يشرب منه المؤمنون قبل دخول الجنة وبعد جواز الصراط (٧) من شرب منه شربة لم يظلم بعدها أبداً عرضه مسيرة شهر مائة أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل حوله أباريق عددها بعدد نجوم السماء (٨) فيه ميزانان يصبان فيه من الكوثر (٩) . وأن يؤمن بالحساب وتفاوت الناس فيه إلى مناقش في الحساب وإلى مسامح فيه وإلى من يدخل

كتاب قواعد العقائد

(١) حديث « سؤال منكر ونكير » أخرجه الترمذى وصححه ابن حبان من حديث أبي هريرة « إذا قبر الميت - أو قال أحدكم - أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر وللآخر النكير » وفي الصحيحين من حديث أس « لمن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه وأنه ليسم قرع نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه .. الحديث » (٢) حديث « لهنما فتانا القبر » أخرجه أحمد وابن حبان من حديث عبد الله بن عمرو « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر فتاني القبر فقال عمر : أترد علينا عقولنا ؟ .. الحديث » (٣) حديث « لمن سؤالها أول فتنة بعد الموت » لم أجده (٤) حديث « عذاب القبر » أخرجه من حديث عائشة « لأنكم تفتنون أو تصدبون في قبوركم . الحديث » ولها من حديث أبي هريرة وعائشة « استضافته صلى الله عليه وسلم من عذاب القبر » (٥) حديث « الإيمان بالميزان ذى الكفتين واللسان وصفته في المظلم أنه مثل طباق السموات والأرض » أخرجه البيهقي في البعث من حديث عمر « قال : الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته ورسوله وتؤمن بالجنة والنار والميزان ... الحديث » وأصله عند مسلم ليس فيه ذكر الميزان ، ولأن داود من حديث عائشة « أما في ثلاثة مواطن لا يذكر أحد أحداً عند الميزان حتى يعلم أيهما أم يقبل ؟ » زاد ابن مردويه في تفسيره « قالت عائشة : أى حتى قد علمنا الموازين هي الكفتان فيوضع في هذه الشيء ويوضع في هذه الشيء فترجع لأحدهما وتخف الأخرى » والتزمى وحسنه من حديث أس « واطلبنى عند الميزان » ومن حديث عبد الله بن عمر في ! حديث البطاقة « فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة .. الحديث » وروى ابن شاهين في كتاب السنة عن ابن عباس « كفة الميزان كأطبق الدنيا كلها » (٦) حديث « الإيمان بالصراط وهو جسر ممدود على متن جهنم أحد من السيف وأدق من الشعر » أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة « ويضرب الصراط بين ظهراي جهنم » ولها من حديث أبي سعيد « ثم يضرب الجسر على جهنم » راد مسلم « قال أبو سعيد : لمن الجسر أدق من الشعر وأحد من السيف » ورفع أحمد من حديث عائشة والبيهقي في الشعب ، والبعث من حديث أس وضعه ؛ وفي البعث من رواية عبد الله بن عمير مسرلاً ومن قول ابن مسعود « الصراط كجد السيف » وفي آخر الحديث ما يدل على أنه مرفوع

(٧) حديث « الإيمان بالحوض وأنه يشرب منه المؤمنون » أخرجه مسلم من حديث أس في نزول (أنا اعطيناك الكوثر) « هو حوض ترد عليه أمي يوم القيامة آيته عدد النجوم » ولها من حديث ابن مسعود وعقبة ابن عامر وجندب رسل بن سعد « أنا فرطكم على الحوض » ومن حديث ابن عمر « أمالكم حوض كما بين جرباء وأدرج » وقال الطبراني « كما بينكم وبين جرباء وأدرج » وهو الصواب . وذكر الحوض في الصحيح من حديث أبي هريرة وأبي سعيد وعبد الله بن عمر وحذيفة وأبي ذر وحابس ابن سمرة وحارثة بن وهب وثوبان وعائشة وأم سلمة وأسماء (٨) حديث « من شرب منه شربة لم يظلم بعدها أبداً عرضه مسيرة شهر أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل حوله أباريق عدد نجوم السماء » من حديث عبد الله بن عمرو ولها من حديث أس « فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء » وفي رواية أسلم « أكثر من عدد النجوم » (٩) حديث « فيه ميزانان يصبان من الكوثر » أخرجه مسلم من حديث ثوبان « يمت فيه ميزانان يعدانه من الجنة أحدهما من ذهب والآخر من ورق

الجنة لغير حساب وهم المقربون فيسأل الله تعالى (١) من شاء من الأنبياء عن تبليغ الرسالة ومن شاء من الكفار عن تكذيب المرسلين (٢) ويسأل المنتدعة عن السنة (٣) ويسأل المسلمين عن الأعمال (٤) . وأن يؤمن بأخراج الموحدين من النار بعد الانتقام حتى لا يبق في جهنم موحد بفضل الله تعالى فلا يخلد في النار موحد (٥) . وأن يؤمن بشفاعة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء ثم سائر المؤمنين على حسب جاهه ومنزله عند الله تعالى ومن بقي من المؤمنين ولم يكن له شفيع أخرج بفضل الله عز وجل فلا يخلد في النار مؤمن بل يخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان (٦) . وأن يعتقد فضل الصحابة رضى الله عنهم وترتيبهم وأن أفضل الناس بعد النبي صلى الله عليه وسلم : أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضى الله عنهم (٧) . وأن يحسن الظن بجميع الصحابة ويثي عليهم كما أثنى الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم عليهم أجمعين (٨) فكل ذلك بما وردت به الأخبار وشهدت به الآثار فمن اعتقد جميع ذلك موقفاً به كان من أهل الحق وعصابة السنة وفارق رهط الضلال وحزب البدعة . فبسؤال الله كمال اليقين وحسن الثبات في الدين لنا ولكافة المسلمين برحمته إنه أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى .

(١) حديث « الإيمان بالحساب وتفاوت الخلق فيه إلى ما أفنى في الحساب ومسامح فيه وإلى من يدخل الجنة بغير حساب » أخرجه البيهقي في البعث من حديث عمر « فقال يا رسول الله ما الإيمان ، قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالآخرة والبعث من بعد الموت والحساب والجنة والنار والقدر كله .. الحديث » وهو عند مسلم دون ذكر « الحساب » وللشيخين من حديث عائشة « من بوقش الحساب عذب قالت قلت يقول الله تعالى ﴿ منوف يحاسب حساباً يعيرا ﴾ قال ذلك الرض » ولها من حديث ابن عباس « عرضت على الأمم فقيل هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب » وللمسلم من حديث أبي هريرة وعمران بن حصين « يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفاً بغير حساب » زاد البيهقي في البعث من حديث عمرو بن حريم « وأعطاني مع كل واحد من السبعين ألفاً سبعين ألفاً » زاد أحمد من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر بعده : هذه الريادة فقال « فهلا استردته قال قد استردته فأعطاني مع كل رجل سبعين ألفاً قال عمر فهلا استردته قال قد استردته فأعطاني هكذا — وقرج عبد الرحمن بن أبي بكر بين يديه . . . الحديث » (٢) حديث « سؤال من شاء من الأنبياء عن تبليغ الرسالة ومن شاء من الكفار عن تكذيب المرسلين » أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد « يدعى نوح يوم القيامة فيقول ليك وسعديك يا رب فيقول هل بلغت فيقول نعم فيقال لأنته فيقولون ما أتانا من نذير فيقول من يشهد لك فيقول محمد وأمتيه . . . الحديث » ولابن ماجه « يجيء النبي يوم القيامة . . . الحديث » وفيه « فيقال هل بلغت قومك . . . الحديث » (٣) حديث « سؤال المنتدعة عن السنة » رواه ابن ماجه من حديث عائشة « من تكلم ببيء من القدر مثل منته يوم القيامة » ومن حديث أبي هريرة « ما من داع يدعو إلى شيء إلا وقف يوم القيامة لارماد دعوة ما دعاه إليه وإن دعا رجل رجلاً » ولإسنادها ضيف (٤) حديث « سؤال المسلمين عن الأعمال » أخرجه أصحاب السنن ، من حديث أبي هريرة « إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته .. الحديث » وسيأتي في الصلاة . (٥) حديث « لأخراج الموحدين من النار حتى لا يبق فيها موحد بفضل الله سبحانه » أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة في حديث طويل « حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يدرك بالله شيئاً ممن أراد الله أن يرحمه ممن يقول لا إله إلا الله . الحديث » (٦) حديث شفاعة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء ثم سائر المؤمنين ومن بقي من المؤمنين ولم يكن لهم شفيع أخرج بفضل الله فلا يخلد في النار مؤمن بل يخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان » أخرجه ابن ماجه من حديث عثمان بن عفان « يشهد يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء » وقد تقدم في العلم . وللشيخين من حديث أبي سعيد الخدري « من وجدتم في قلبه مثقال حبة من خردل من الإيمان فأخرجوه » وفي رواية « من خير » وفيه « فيقول الله تعالى شمعت الملائكة وشفعت النبيون وشهد المؤمنون ولم يسبق إلا أرحم الراحمين فيقض قصة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط .. الحديث » (٧) حديث « أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي » أخرجه البخاري من حديث ابن عمر قال « كنا نسير بين الناس في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وخبرنا ما نكر ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان » ولأبي داود « كنا نقول ورسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أفضل أمة النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان رضى الله عنهم » زاد الطبراني « ويسمع ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ولا ينسكه » (٨) حديث « لحسان الظن بجميع الصحابة والثناء عليهم » أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن مسعود « الله في أصحابي لا يتخذونم غرضاً بئدي » وللشيخين من حديث أبي سعيد « لا تسبوا أصحابي » والطبراني من حديث ابن مسعود « لفا ذكر أصحابي فأمسكوا »

الفصل الثاني

في وجه التدرج إلى الإرشاد وترتيب درجات الاعتقاد . اعلم أن ما ذكرناه في ترجمة العقيدة ينبغي أن يقدم إلى الصبي في أول نشوه ليحفظه حفظاً ثم لا يزال ينكشف له معناه في كبره شيئاً فشيئاً ؛ فابتدأه الحفظ ثم الفهم ثم الاعتقاد والإيقان والتصديق به ، وذلك بما يحصل في الصبي بغير برهان . فمن فضل الله سبحانه على قلب الإنسان أن شرحه في أول نشوه للإيمان من غير حاجة إلى حجة وبرهان ، وكيف ينكر ذلك وجميع عقائد العوام مبادئها التلقين المجرد والتقليد المحض ؟ نعم يكون الاعتقاد الحاصل بمجرد التقليد غير خال عن نوع من الضعف في الابتداء على معنى أنه يقبل الإزالة بنقيضه لو أتى إليه فلا بد من تقويته وإثباته في نفس الصبي والعامى حتى يترسخ ولا يتزلزل . وليس الطزيق في تقويته وإثباته إن يعلم صنعة الجدل والكلام بل يشتغل بتلاوة القرآن وتفسيره وقراءة الحديث ومعانيه . ويشتغل بوظائف العبادات فلا يزال اعتقاده يزداد رسوخاً بما يقرع سمعه من أدلة القرآن وحججه وبما يرد عليه من شواهد الأحاديث وفوائدها وبما يسطع عليه من أنوار العبادات ووظائفها وبما يسرى إليه من مشاهدة الصالحين ومجالستهم وسماحهم وهياتهم في الخضوع لله عز وجل والخوف منه والاستكانة له فيكون أول التلقين كاللقاء بذر في الصدر ، وتكون هذه الأسباب كالسقى والتربية له حتى ينمو ذلك البذر يقوى ويرتفع شجرة طيبة راسخة أصلها ثابت وفرعها في السماء .^١ وينبغي أن يحرس سمعه من الجدل والكلام غاية الحراسة فإن ما يشوشه الجدل أكثر مما يمهده وما يفسده أكثر مما يصلحه بل تقويته بالجدل تضاهي ضرب الشجرة بالمدقة من الحديد رجاء تقويتها بأن تكثر أجزاؤها وربما يفتتها ذلك ويفسدها وهو الأغلب . والمشاهدة تكفيك في هذا بيانا فناهيك بالعيان برهانا . فقس عقيدة أهل الصلاح والتقى من عوام الناس بعقيدة المتكلمين والمجادلين فترى اعتقاد العامى في الثبات كالطورد الشاخ لا تحركه الدواهي والصواعق وعقيدة المتكلم الحارس اعتقاده بتقسيمات الجدل كحيط مرسل في الهواء تفيئه الرياح مرة هكذا ومرة هكذا إلا من سمع منهم دليل الاعتقاد فتلقفه تقليداً كما تلقف نفس الاعتقاد تقليداً ؛ إذ لا فرق في التقليد بين تعليم الدليل أو تعلم المدلول فتلقين الدليل شيء والاستدلال بالنظر شيء آخر بعيد عنه . ثم الصبي إذا وقع نشوه على هذه العقيدة إن اشتغل بكسب الدنيا لم يفتح له غيرها ولكنه يسلم في الآخرة باعتقاد أهل الحق ، إذ لم يكلف الشرع أجلاف العرب أكثر من التصديق الحازم بظاهر هذه العقائد ، فأما البحث والتفتيش وتكلف نظم الأدلة فلم يكلفوه أصلاً . وإن أراد أن يكون من سالكي طريق الآخرة وساعده التوفيق حتى اشتغل بالعمل ولازم التقوى ونهى النفس عن الهوى واشتغل بالرياضة والمجاهدة انفتحت له أبواب من الهداية تكشف عن حقائق هذه العقيدة بنور إلهي يقذف في قلبه بسبب المجاهدة تحقيقاً لوعده عز وجل إذ قال (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع الحسنيين) وهو الجوهر النفيس الذي هو عاية إيمان الصديقين والمقربين ، وإليه الإشارة بالسرى الذي قرئ في صدر أبي بكر الصديق رضي الله عنه حيث فضل به الخلق . وانكشف ذلك السرى بل تلك الأسرار له درجات بحسب درجات المجاهدة ودرجات الباطن في النظافة والطهارة عما سوى الله تعالى وفي الاستضاءة بنور اليقين وذلك كتفاوت الخلق في أسرار الطب والفقهاء وسائر العلوم إذ يختلف ذلك باختلاف الاجتهاد واختلاف الفطرة في الذكاء والفطنة وكما لا تنحصر تلك الدرجات فكذلك هذه (مسألة) فإن قلت : تعلم الجدل والكلام مذموم كتعلم النجوم أو هو

مباح أو مندوب إليه ؟ فاعلم أنّ للناس في هذا غلوا وإسرافا في أطراف فمن قائل إنه بدعة أو حرام وأنّ العبد إن لقي الله عز وجل بكل ذنب سوى الشرك خير له من أن يلقاه بالكلام ، ومن قائل إنه واجب وفرض إما على الكفاية أو على الأعيان وأنه أفضل الأعمال وأعلى القربات فإنه تحقيق لعلم التوحيد ونضال عن دين الله تعالى . وإلى التحريم ذهب الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان وجميع أهل الحديث من السلف . قال ابن عبد الأعلى رحمه الله سمعت الشافعي رضي الله عنه يوم ناظر حفصا الفرد - وكان من متكلمى المعتزلة - يقول : لأن يلقى الله عز وجل العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير من أن يلقاه بشيء من علم الكلام ولقد سمعت من حفص كلاما لا أقدر أن أحكيه ، وقال أيضا : قد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننته قط ولأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك خير له من أن ينظر في الكلام . وحكى الكرايسى أنّ الشافعي رضي الله عنه سئل عن شيء من الكلام ففضض وقال : سل عن هذا حفصا الفرد وأصحابه ، أخزاهم الله ، ولما مرض الشافعي رضي الله عنه دخل عليه حفص الفرد فقال له : من أنا ؟ فقال : حفص الفرد ، لا حفظك الله ولا رعاك حتى تتوب بما أنت فيه . وقال أيضا لو علم الناس ما في الكلام من الأهواء لفتروا منه فرارهم من الأسد ؟ وقال أيضا إذا سمعت الرجل يقول الاسم هو المسمى أو غير المسمى ؟ فاشهد بأنه من أهل الكلام ولا دين له . قال الزعفراني : قال الشافعي حكى في أصحاب الكلام أن يضربوا بالجرید ويطاف بهم في القبائل والعشائر ويقال : هدا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام ؟ وقال أحمد بن حنبل : لا يفلح صاحب الكلام أبدا ، ولا تكاد ترى أحداً نظر في الكلام إلا وفي قلبه دغل ، وبالغ في ذمه حتى هجر الحارث المحاسبى مع زهده وورعه بسبب تصنيفه كتابا في الرد على المبتدعة وقال له : ويحك ألسنت تحكى بدعتهم أو لا ثم ترد عليهم ألسنت تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة البدعة والتفكر في تلك الشبهات فيدعوهم ذلك إلى الرأى والبحث ! وقال أحمد رحمه الله : علماء الكلام زنادقة . وقال مالك رحمه الله : رأيت إن جاءه من هو أجدل منه أيدع دينه كل يوم لدين جديد ؟ يعنى أن أقوال المتجادلين تتفاوت . وقال مالك رحمه الله أيضا : لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء ؛ فقال بعض أصحابه - في تأويله - أنه أراد بأهل الأهواء أهل الكلام على أى مذهب كانوا . وقال أبو يوسف : من طلب العلم بالكلام ترندق . وقال الحسن : لا يجادلوا أهل الأهواء ولا تجالسوهم ولا تسمعوا منهم ، وقد اتفق أهل الحديث من السلف على هذا . ولا ينحصر ما نقل عنهم من التشديدات فيه وقالوا ما سكت عنه الصحابة - مع أنهم أعرف بالحقائق وأصح بترتيب الأنفاظ من غيرهم - إلا لعلمهم بما يتولد منه من الشر . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « هلك المتطعون هلك المتطعون هلك المتطعون ^(١) » ، أى المتعمقون في البحث والاستقصاء . واحتجوا أيضا بأن ذلك لو كان من الدين لكان ذلك أهم ما يأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعلم طريقه ويثنى عليه وعلى أربابه ، فقد علمهم الاستنباط ^(٢) ، وندبهم إلى علم الفرائض وأثنى عليهم ^(٣) ونهاهم عن الكلام في القدر وقال أمسكوا ^(٤) عن القدر . وعلى هذا استمر الصحابة رضي الله عنهم فالزيادة على الأستاذ طغيان وطم . وهم الأستاذون والقُدوة ونحن الاتباع والتلامذة . وأما الفرقة الأخرى فاحتجوا بأن قالوا : إن المحذور من الكلام إن كان هو لفظ الجوهر والعرض وهذه الاصطلاحات الغريبة التي لم تعدها الصحابة

(١) حديث « هلك المتطعون » أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود (٢) حديث أن النبي صلى الله عليه وسلم علمهم الإسهاء « أخرجه مسلم من حديث سلمة الفارسي (٣) حديث « ندبهم إلى علم الفرائض وأثنى عليهم » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة (تملوا الفرائض وعلوها الناس ... الحديث) وللمزمذى من حديث أس وأفرضهم زيد بن ثابت (٤) حديث (نهاهم عن الكلام في القدر وقال أمسكوا) تقدم في العلم

رضى الله عنهم فالأمر فيه قريب ، إذا ما من علم إلا وقد أحدث فيه اصطلاحات لأجل التفهيم كالحديث والتفسير والفقهاء ولو عرض عليهم عبارة النقص والكسر والتركيب والتعدية وفساد الوضع إلى جميع الأسئلة التي تورد على القياس لما كانوا يفقهونه . فأحداث عبارة للدلالة بها على مقصود صحيح كإحداث آنية على هيئة جديدة لاستعمالها في مباح ، وإن كان المحذور هو المعنى فنحن لانعنى به إلا معرفة الدليل على حدوث العالم ووحدانية الخالق وصفاته كما جاء في الشرع فنأين تحرم معرفة الله تعالى بالدليل ، وإن كان المحذور هو التشعب والتعصب والعداوة والبغضاء وما يفضى إليه الكلام فذلك محرم ويجب الاحتراز عنه كما أن الكبر والعجب والرياء وطلب الرياسة مما يفضى إليه علم الحديث والتفسير والفقهاء وهو محرم يجب الاحتراز عنه ولكن لا يمنع من العلم لأجل أدائه وإليه وكيف يكون ذكر الحجية والمطالبة بها والبحث عنها محظوراً وقد قال الله تعالى (قل هاتوا برهانكم) وقال عز وجل (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة) وقال تعالى (هل عندكم من سلطان بهذا) أى حجة وبرهان وقال تعالى (قل فته الحجة البالغة) وقال تعالى (ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه - إلى قوله - فبهت الذى كفر) إذ ذكر سبحانه احتجاج إبراهيم ومجادلته وإخامه خصمه فى معرض الثناء عليه وقال عز وجل (وتلك حجتنا آتيناها لإبراهيم على قومه) وقال تعالى (قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثر جدالنا) وقال تعالى فى قصة فرعون (وما رب العالمين - إلى قوله - أولوا جنتك بشئ مبين) وعلى الجملة فالقرآن من أوله إلى آخره محاجة مع الكفار فعمدة أدلة المتكلمين فى التوحيد قوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وفى النبوة (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) وفى البعث (قل يحيى الذى أنشأها أول مرة) إلى غير ذلك من الآيات والأدلة . ولم تزل الرسل صلوات الله عليهم يحاجون المتكبرين ويجادلونهم قال تعالى (وجادلهم بالتي هي أحسن) فالصحابه رضى الله عنهم أيضاً كانوا يحاجون المتكبرين ويجادلون ولكن عد الحاجة . وكانت الحاجة إليه قليلة فى زمانهم وأول من سن دعوة المبتدعة بالمجادلة إلى الحق : على ابن أبى طالب رضى الله عنه ، إذ بعث ابن عباس رضى الله عنهما إلى الخوارج فكلمهم فقال : ما تقومون على إمامكم ؟ قالوا : قاتل ولم يسب ولم يغتم ، فقال : ذلك فى قتال الكفار ! أرأيتم لو سبست عائشة رضى الله عنها فى سهم أحدكم أكنتم تستحلون منها ما تستحلون من ملككم وهى أمكم فى نص الكتاب ؟ فقالوا : لا ، فرجع منهم إلى الطاعة بمجادلته ألفان . وروى أن الحسن ناظر قدوريا فرجع عن القدر . وناظر على بن أبى طالب كرم الله وجهه رجلا من القدرية . وناظر عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يزيد بن عميرة فى الإيمان ، قال عبد الله : لو قلت إني مؤمن لقلت إني فى الجنة ؟ فقال له يزيد بن عميرة : يا صاحب رسول الله هذه زلة منك وهل الإيمان إلا أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث والميزان وتقيم الصلاة والصوم والزكاة ؟ ولنا ذوب لو نعمل أنها تغفر لنا لعلمنا أننا من أهل الجنة ، فمن أجل ذلك نقول إنا مؤمنون ولا نقول إنا من أهل الجنة . فقال ابن مسعود صدقت والله إنها منى زلة ، فينبغى أن يقال كان خوضهم فيه قليلا لا كثيرا وقصيرا لا طويلا وعند الحاجة لا بطريق التصنيف والتدريس واتخاذ صناعة ، ويقال أما قلة خوضهم فيه فانه كان لقلة الحاجة إذا لم تكن الدعة تظهر فى ذلك الزمان ، وأما القصر فقد كان الغاية لإحمام الخصم واعترافه وانكشاف الحق وازالة الشبهة ، فلو طال إشكال الخصم أو لجأه لطال لا محالة إلزامهم . وما كانوا يقدرون قدر الحاجة بميزان ولا مكيال بعد الشروع فيها ، وأما عدم تصديهم للتدريس والتصنيف فيه فهكذا كان دأبهم فى الفقه والتفسير والحديث أيضا ، فإن جاز تصنيف الفقه ووضع الصور النادرة التي لا تنفق إلا على الندور إما إدخار اليوم وقوعها وإن كان نادرا أو تشجيذا للخواطر فنحن أيضا نرتب طرق

المجادلة لتوقع وقوع الحاجة بشوران شبهة أو هيجان مبتدع أو لتشجيد الخاطر أو لادخار الحججة حتى لا يجزر عنها عمد الحاجة على البديهة والارتجال ، كمن يعد السلاح قبل القتال ليوم القتال فهذا ما يمكن أن يدكر للفريقين * فإن قلت : فما المختار عندك فيه ؟ فاعلم أن الحق فيه أن إطلاق القول بدمه في كل حال أو بحمده في كل حال خطأ بل لا بد فيه من تفصيل . فاعلم أولاً أن الشيء قد يحرم لذاته كالخمر والميتة وأعنى بقولي « لذاته » أن علة تحريمه وصف في ذاته وهو الإسكار والموت . وهذا إذا سئلنا عنه أطلقنا القول بأنه حرام ولا يلتفت إلى إباحة الميتة عند الاضطراب وإباحة تحريم الخمر إذا غص الإنسان بلقمة ولم يجد ما يسيغها سوى الخمر وإلى ما يحرم لغيره كالبيع على بيع أخيك المسلم في وقت الخيار والبيع وقت النداء ، وكأكل الطين فإنه يحرم لما فيه من الإضرار وهذا ينقسم إلى ما يضر قليلة وكثيره فيطلق القول عليه بأنه حرام كالسهم الذي يقتل قليلاً وكثيره ، وإلى ما يضر عند الكثرة فيطلق القول عليه بالإباحة كالعسل فإن كثيره يضر بالمحرور ، وكأكل الطين . وكأن إطلاق التحريم على الطين والخمر والتحليل على العسل التفات إلى أغلب الأحوال ؛ فإن تصدى شيء تقابلت به الأحوال فالأولى والأبعد عن الالتباس أن يوصل فنعود إلى علم الكلام ونقول : إن منه مفعلة وهي مضررة ، وهو باعتبار منفعة في وقت الانتفاع حلال أو مندوب إليه أو واجب كما يقتضيه الحال ، وهو باعتبار مضرته في وقت الاستضرار ومحل حرام أما مضرته فإثارة الشبهات وتحريك العقائد وإزالتها عن الجرم والتصميم فذلك مما يحصل في الابتداء ورجوعها بالدليل مشكوك فيه ، ويختلف فيه الأشخاص ، فهذا ضرره في الاعتقاد الحق . وله ضرر آخرى تأكيد اعتقاد المدعة المدعة وتثبيتته في صدورهم بحيث تنبعت دواعيهم ويشتد حرصهم على الإصرار عليه ولكن هذا الضرر بواسطة التعبد الذي يثور من الجدل ولذلك ترى المبتدع العامى يمكن أن يروى اعتقاده باللطف في أسرع زمان إلا إذا كان نشؤه في بلد يظهر فيها الجدل والتعصب فإنه لو اجتمع عليه الأولون والآخرون لم يقدروا على نزع الدعة من صدره بل الهوى والتعصب وبغض خصوم المخاديين وفرة المخالفين يستولى على قلبه ويمنعه من إدراك الحق حتى لو قيل له : هل تريد أن يكشف الله تعالى لك الغطاء ويعرفك بالعيان أن الحق مع حصمك لسكره ذلك حيلة من أن يفرح به حصمه ؟ وهذا هو الداء العضال الذي استطار في البلاد والعباد وهو نوع فساد أثاره المجادلون بالتعصب فهذا ضرره . وأما منفعته فقد ينظر أن فائدته تكشف الحقائق ومعرفتها على ما هي عليه وهيئات فليس في الكلام وفاء بهذا المطالب الشريف ولعل التخفيف والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف ، وهذا إذا سمعته من محدث أو حشوى ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا فاسمع هذا من خبر الكلام ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين وحاوز ذلك إلى التعمق في علوم أحر تناسب نوع الكلام وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود . ولعمري لا ينفك الكلام عن كشف وتعريف وإيضاح بعض الأمور ولكن على الدور في أمور جليلة تكاد تفهم قبل التعمق في صنعة الكلام بل منفعته شيء واحد وهو حراسة العقيدة التي ترجمناها على العوام وحفظها عن تشويشات المبتدعة بأنواع الجدل فإن العامى ضعيف يستغزه جدل المبتدع وإن كان فاسداً ، ومعارضة الفاسد بالفاسد تدفعه . والناس متعبدون بهذه العقيدة التي قدمناها إذ ورد الشرع بها لما فيها من صلاح دينهم ودينهم وأجمع السلف الصالح عليها والعلماء يتعبدون بحفظها على العوام من تلبيسات المبتدعة كما تعبد السلاطين بحفظ أموالهم عن تهجمات الطلبة والغصاب وإذا وقعت لإحاطة بضرره ومنفعته فينبغي أن يكون كالطبيب الحاذق في استعمال الدواء الخطر إذ لا يرضعه إلا في موضعه وذلك في وقت الحاجة وعلى قدر الحاجة . وتفصيله أن العوام المشتغلين بالحرف والصناعات يجب أن يتركوا على سلامة عقائدهم

التي اعتقدوها مهما تلقنوا الاعتقاد الحق الذي ذكرناه فإن تعليمهم الكلام ضرر محض في حقهم إذ ربما يثير لهم شكاً ويزلزل عليهم الاعتقاد ولا يمكن القيام بعد ذلك بالإصلاح . وأما العاصي المعتد للبدعة فينبغي أن يدعى إلى الحق بالتلطف لا بالتعصب وبالكلام اللطيف المنفع للنفس المؤثر في القلب القريب من سياق أدلة القرآن والحديث المزوج بغير من الوعظ والتحدير فإن ذلك أنفع من الجدل الموضوع على شرط المتكلمين ؛ إذ العاصي إذا سمع ذلك اعتقد أنه نوع صنعة من الجدل تعلمها المتكلم ليستدرج الناس إلى اعتقاده فإن عجز عن الجواب قدر أن المجادلين من أهل مذهبه أيضاً يتدرون على دفعه . فالجدل مع هذا ومع الأول حرام وكذلك مع من وقع في شك إذ يجب إزالته باللطف والوعظ والأدلة القريبة المقبولة البعيدة عن تعمق الكلام . واستقصاء الجدل إنما ينفع في موضع واحد وهو أن يفرض عاصي اعتقد البدعة بنوع جدل سمعه فيقابل ذلك الجدل بمثله فيعود إلى اعتقاد الحق وذلك فيمن ظهر له من الأناجيد بالمجادلة ما يمنعه عن القناعة بالمواعظ والتحذيرات العامة فقد انتهى هذا إلى حالة لا يشفيه منها إلا دواء الجدل فإز أن يلقي إليه . وأما في بلاد تكثر فيها البدعة ولا تختلف فيها المذاهب فيقتصر فيها على ترجمة الاعتقاد الذي ذكرناه ولا يتعرض للأدلة ويترص وقوع شبهة فإن وقعت ذكر بقدر الحاجة فإن كانت البدعة شائعة وكان يخاف على الصبيان أن يخدعوا فلا بأس أن يعلموا القدر الذي أودعناه كتاب الرسالة القدسية ليكون ذلك سبباً لدفع تأثير مجادلات المبتدعة إن وقعت إليهم وهذا مقدار مختصر وقد أودعناه هذا الكتاب لاختصاره فإن كان فيه ذكاء وتمنه بذكائه لموضع سؤال أو ثارت في نفسه شبهة فقد بدت العلة المحدورة وظهور الداء فلا بأس أن يرقى منه إلى القدر الذي ذكرناه في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد - وهو قدر حسين ورقة - وليس فيه خروج عن النظر في قواعد العقائد إلى غير ذلك من مباحث المتكلمين . فإن أقنع ذلك كفه عنه وإن لم يقنعه ذلك فقد صارت العلة مزمنة والداء غالباً والمرضى سارياً فليتلطف به الطبيب بقدر إمكانه وينتار قضاء الله تعالى فيه إلى أن ينكشف له الحق بتدبيره من الله سبحانه أو يستمر على الشك والشبهة إلى ما قدر له فالقدر الذي يحويه ذلك الكتاب وجنسه من المصنفات هو الذي يرجى نفعه .

فأما الخارج منه فثمان ؛ أحدهما : بحث عن غير قواعد العقائد كالبحث عن الاعتقادات وعن الأكوام وعن الإدراكات وعن الحوص في الرؤية هل لها ضد يسمى المنع أو العمى ؟ وإن كان ذلك واحد هو منع عن جميع ما لا يرى أو ثبت لكل مرئى يمكن رؤيته منع بحسب عدده إلى غير ذلك من الترهات المضلات . والقسم الثاني : زيادة تقرير تلك الأدلة في غير تلك القواعد وزيادة أسئلة وأحوبة وذلك أيضاً استقصاء لا يريد لإضلالاً وجهلاً في حق من لم يقنع ذلك القدر فرب كلام يزيد الإطناب والتقرير غموضاً . ولوقال قائل : البحث عن حكم الإدراكات والاعتقادات فيه فائدة تشجيع الخواطر . والخاطر آلة الدين كالسيف آلة الجهاد فلا بأس بتشجيعه كان كقولهم لعب الشطرنج يشجع الخاطر فهو من الدين أيضاً وذلك هوس فإن الخاطر يتشجع سائر علوم الشرع ولا يحاف فيها مضرة فقد عرفت بهذا القدر المذموم والقدر المحمود من الكلام والحال التي يندم فيها والحال التي يحمد فيها والشخص الذي ينتفع به والشخص الذي لا ينتفع به * فإن قلت : مهما اعترفت بالحاجة إليه في دفع المبتدعة والآل قد ثارت البدع وعمت البلوى وأرهقت الحاجة فلا بد أن يصير القيام بهذا العلم من فروض الكفايات كالقيام بحراسة الأموال وسائر الحقوق كالتصاوم والولاية وغيرها ؟ وما لم يشتغل العلماء بنشر ذلك والتدريس فيه والبحث عنه لا يدوم ولو ترك بالكلية لاندرس وليس في مجرد الطبع كفاية لحل شبه المبتدعة مالم

يتعلم فينبغي أن يكون التدريس فيه والبحث عنه أيضاً من فروض الكفايات بخلاف زمن الصحابة رضى الله عنهم فإن الحاجة ما كانت ماسة إليه . فاعلم أن الحق أنه لا بد في كل بلد من قائم بهذا العلم مستقل يدفع شبه المبتدعة التي نارت في تلك البلدة وذلك يدوم بالتعليم ولكن ليس من الصواب تدريسه على العموم كتدريس الفقه والتفسير فإن هذا مثل الدواء والفقه مثل الغذاء وضرر الغذاء لا يحدرو وضرر الدواء محذور لما ذكرنا فيه من أنواع الضرر . فالعالم الذى ينبغى أن يخصص بتعليم هذا العلم من فيه ثلاث خصال ؛ إحداهما : التجرد للعلم والحرص عليه ، فإن المحترف يمنع الشغل عن الاستتمام وإزالة الشكوك إذا عرضت . الثانية : الذكاء والفطنة والفصاحة فإن البليد لا ينتفع بفهمه والقدم لا ينتفع بحججه فيخاف عليه من ضرر الكلام ولا يرحى فيه نفعه . الثالثة : أن يكون في طبعه الصلاح والديانة والتقوى ولا تكون الشهوات غالبية عليه فإن الفاسق بأذى شبه ينخلع عن الدين فإن ذلك يحل عنه الحجر ويرفع للسد الذى بينه وبين الملاذ فلا يحرص على إزالة الشبهة بل يختصمها ليتخلص من أعباء التكليف فيكون ما يفسده مثل هذا المتعلم أكثر مما يصلحه . وإذا عرفت هذه الانقسامات اتضح لك أن هذه الحجة المحمودة في الكلام إنما هي من جنس حجج القرآن من الكلمات اللطيفة المؤثرة في القلوب الممتعة للنفوس دون التغلغل في التفسيات والتدقيقات التي لا يفهمها أكثر الناس وإذا فهموها اعتقدوا أنها شعوذة وصناعة تعلمها صاحبها للتليس ، فإذا قابله مثله في الصنعة قاومة . وعرفت أن الشافعى وكافة السلف إنما منعوا عن الخوص فيه والتجرد له لما فيه من الضرر الذى نهى عنه . وأن ما نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما من مناظرة الخوارج وما نقل عن علي رضى الله عنه من المناظرة في القدر وغيره كان من الكلام الجلى الظاهر وفي محل الحاجة وذلك محمود في كل حال . نعم قد تختلف الأعصار في كثرة الحاجة وقتها فلا يبعد أن يختلف الحكم لذلك فهذا حكم العقيدة التي تعبد الخلق بها وحكم طريق النضال عنها وحفظها فأما إزالة الشبهة وكشف الحقائق ومعرفة الأشياء على ما هي عليه وإدراك الأسرار التي يترجمها ظاهر ألفاظ هذه العقيدة فلا مفتاح له إلا المجاهدة وقمع الشهوات والإقبال بالكلية على الله تعالى وملازمة الفكر الصافى عن شوائب المجادلات وهي رحمة من الله عز وجل تفيض على من يتعرض لنفحاتها بقدر الرزق وبحسب التعرض وبحسب قبول المحل وطهارة القلب وذلك البحر الذى لا يدرك غوره ولا يبلغ ساحله (مسألة) فإن قلت : هذا الكلام يشير إلى أن هذه العلوم لها ظواهر وأسرار وبعضها جلى يبدو أولاً وبعضها خفى يتضح بالمجاهدة والرياضة والطلب الحثيث والفكر الصافى والسر الخالى عن كل شيء من أشغال الدنيا سوى المطلوب وهذا يكاد يكون مخالفاً للشرع إذ ليس للشرع ظاهر وباطن وسر وعلم بل الظاهر والباطن والسر والعلم واحد فيه ؟ فاعلم أن انقسام هذه العلوم إلى خفية وحلية لا ينكرها ذو بصيرة وإنما ينكرها القاصرون الذى تلقفوا في أوائل الصبا شيئاً وجمدوا عليه فلم يكن لهم ترقى إلى شأو العلاء ومقامات العلماء والأولياء وذلك ظاهر من أدلة الشرع قال صلى الله عليه وسلم « إن للقرآن ظاهراً وباطناً وحداً ومطلماً (١) » ، وقال على رضى الله عنه - وأشار إلى صدره - « إن ههنا علوماً حمة لو وجدت لها حمة . وقال صلى الله عليه وسلم « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم (٢) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « ما حدث أحد قوماً بحديث لم تبلغه عقولهم إلا كان فتنة عليهم (٣) » ، وقال الله تعالى (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) وقال

(١) حديث « إن للقرآن ظاهراً وباطناً .. الحديث » أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث ابن مسعود بنحوه (٢) حديث « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم .. الحديث » تقدم في العلم (٣) حديث (ما حدث أحد قوماً بحديث لم تبلغه عقولهم ... الحديث) تقدم في العلم

صلى الله عليه وسلم ، إن من العلم كهيئة المسكون لا يعلمه إلا العالمون بالله تعالى (١) ، الحديث إلى آخره كما أوردناه في كتاب العلم . وقال صلى الله عليه وسلم ، لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا (٢) ، فليت شعري إن لم يكن ذلك سرا منع من إفشائه لقصور الأفهام عن إدراكه أو لمعنى آخر فلم لم يذكره لهم ولا شك أنهم كانوا يصدقونه لو ذكره لهم ؟ وقال ابن عباس رضی الله عنهما في قوله عز وجل (الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ينزل الأمر بيهن) لو ذكرت تفسيره لرجتموني . وفي لفظ آخر : لقلتم إنه كافر ، وقال أبو هريرة رضي الله عنه : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاء من أما أحدهما فبثنته وأما الآخر لو بثنته لقطع هذا الحلقوم . وقال صلى الله عليه وسلم ، ما فضلكم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة ولكن سر وقر في صدره (٣) ، رضي الله عنه ولا شك في أن ذلك السر كان متعلقا بقواعد الدين غير خارج منها وما كان من قواعد الدين لم يكن خافيا بظواهره على غيره ، وقال سهل التستري رضي الله عنه : للعالم ثلاثة علوم : علم ظاهر يبذله لأهل الظاهر وعلم باطن لا يسمعه إظهاره إلا لأهله وعلم هو- بينه وبين الله تعالى لا يظلمه لأحد . وقال بعض العارفين : إفشاء سر الربوبية كفر . وقال بعضهم : للربوبية سر لو أظهر لبطلت النبوة ، وللنبوة سر لو كشف لبطل العلم ، وللعلماء بالله سر لو أظهروه ابطلت الأحكام ، وهذا القائل إن لم يرد بذلك بطلان النبوة في حق الضعفاء لقصور فهمهم فما ذكره ليس بحق بل الصحيح أنه لا تناقض فيه وأن الكامل من لا يطبق نور معرفته نور ورعه ، وملاك الورع النبوة (مسألة) فإن قلت : هذه الآيات والأخبار يتطرق إليها تأويلات فيبين لنا كيفية اختلاف الظاهر والباطن فإن الباطن إن كان مناقضاً للظاهر ففيه إبطال الشرع ، وهو قول من قال : إن الحقيقة خلاف الشريعة وهو كفر لأن الشريعة عبارة عن الظاهر والحقيقة عبارة عن الباطن وإن كان لا يناقضه ولا يحالفه فهو هو ويزول به الانقسام ولا يكون للشرع سر لا يفشى بل يكون الخفي والجلي واحد ؟ فاعلم أن هذا السؤال يحرك خطبا عظيما وينجز إلى علوم المكاشفة ويخرج عن مقصود علم المعاملة وهو غرض هذه الكتب فإن العقائد التي ذكرناها من أعمال القلوب وقد تعبدنا بتلقيها بالقبول والتصديق بعقد القلب عليها لا بأن يتوصل إلى أن ينكشف لنا حقائقها فإن ذلك لم يكلف به كافة الخلائق ، ولولا أنه من الأعمال لما أوردناه في هذا الكتاب ، ولولا أنه عمل ظاهر القلب لا عمل باطنه لما أوردناه في الشطر الأول من الكتاب وإنما الكشف الحقيقي هو صفة سر القلب وباطنه ولكن إذا اجتزت الكلام إلى تحريك حيايل في مناقضة الظاهر للباطن فلا بد من كلام وجيز في حله . فمن قال : إن الحقيقة تحالف الشريعة أو الباطن يناقض الظاهر فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان بل الأسرار التي يحتص بها المقربون بدركها ولا يشاركون الآكثرون في علمها ويمتنعون عن إفشائها إليهم ترجع إلى خمسة أقسام : القسم الأول : أن يكون الشيء في نفسه دقيقا تكل أكثر الأفهام عن دركه فيختص بدركه الخواص وعليهم أن لا يفسوه إلى غير أهله فيصير ذلك فتنة عليهم حيث تقصر أفهامهم عن الدرك . وإخفاء سر الروح وكف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيانه (٤) من هذا القسم فإن حقيقته بما تكل الأفهام عن دركه وتقصر الأوهام عن تصور كنهه . ولا تظن أن ذلك لم يكن مكشوفاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فإن من لم يعرف الروح فكأنه لم يعرف نفسه ومن لم يعرف نفسه

(١) حديث (من من العلم كهيئة المسكون .. الحديث) تقدم في العلم (٢) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا (كثيراً) أخرجه من حديث عائشة وأنس (٣) حديث (ما فضلكم أبو بكر بكثرة صيام . الحديث) تقدم في العلم (٤) حديث (كف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيان الروح) أخرجه الشيخان من حديث ابن مسعود حين سأله اليهود عن الروح قال (فأمسك النبي صلى الله عليه وسلم عن إفشائها .. الحديث)

فكيف يعرف ربه سبحانه ؟ ولا يبعد أن يكون ذلك مكشوفاً لبعض الأولياء والعلماء وإن لم يكونوا أنبياء ولكنهم يتأدون بأداب الشرع فيسكتون عما سكت عنه بل في صفات الله عز وجل من الخفايا ما تقصر أفهام الجماهير عن دركه ولم يذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم منها إلا الطواهر للأفهام من العلم والقدرة وغيرهما حتى فهمها الخلق بنوع مناسبة توهموها إلى علمهم وقدرتهم إذ كان لهم من الأوصاف ما يسمى علماً وقدرة فيتوهمون ذلك بنوع مقايضة . ولو ذكر من صفاته ما ليس للخلق مما يناسبه بعض المناسبة شيء لم يفهموه ، بل لذة الجماع إذا ذكرت للصبي أو العين لم يفهمها إلا بمناسبة إلى لذة المطعوم الذي يدركه ولا يكون ذلك فهما على التحقيق . والمحالفة بين علم الله تعالى وقدرته وعلم الخلق وقدرتهم أكثر من المحالفة بين لذة الجماع والأكل . وبالجملة فلا يدرك الإنسان إلا نفسه وصفات نفسه بما هي حاضرة له في الحال أو بما كانت له من قبل ثم بالمقايضة إليه يفهم ذلك لغيره ثم قد يصدق بأن بينهما تماوتا في الشرف والكمال فليس في قوة البشر إلا أن يثبت لله تعالى ما هو ثابت لنفسه من الفعل والعلم والقدرة وغيرها من الصفات مع التصديق بأن ذلك أكمل وأشرف فيكون معظم تحريره على صفات نفسه لا على ما اختص الرب تعالى به من الحلال . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك »^(١) ، وليس المعنى أنى أعجز عن التعبير عما أدركته بل هو اعتراف بالقصور عن إدراك كنهه جلاله . ولذلك قال بعضهم : ما عرف الله بالحقيقة سوى الله عز وجل . وقال الصديق رضي الله عنه : الحمد لله الذي لم يجعل للخلق سبيلاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته . ولتقبض عنان الكلام عن هذا النمط ولترجع إلى العرض وهو أن أحد الأقسام ما تكل الأفهام عن إدراكه ومن جملة الروح ومن حملته بعض صفات الله تعالى . ولعل الإشارة إلى مثله في قوله صلى الله عليه وسلم « إن لله سبحانه وتعالى سبعين حجاً من نور لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل من أدركه بصره »^(٢) ، القسم الثاني : من الخفيات التي تمتنع الأنبياء والصديقون عن ذكرها ما هو مفهوم في نفسه لا بكل الفهم عنه لكن ذكره يضمر ما كثر المستمعين ولا يضمر بالأنبياء والصديقين . وسر القدر الذي مسح أهل العلم من إفشائه من هذا القسم ، فلا يبعد أن يكون ذكر بعض الحقائق مضراً ببعض الخلق كما يضمر نور الشمس بأبصار الخفافيش وكما تضمر رياح الورد بالجعل ، وكيف يبعد هذا وقولنا إن الكفر والزنا والمعاصي والشور كاه بقضاء الله تعالى وإرادته ومشيتته حق في نفسه وقد أضمر سماعه بقوله إذ أوهم ذلك عندهم أنه دلالة على السفه ونقيض الحكمة والرصا بالقيح والظلم ؟ وقد ألد ابن الراوندي وطائفة من المحنولين بمثل ذلك . وكذلك سر القدر لو أفشى لأوهم عند أكثر الخلق عجزاً إذ تقصر أفهامهم عن إدراك ما يزيد ذلك الوهم عنهم ، ولو قال قائل : إن القيامة لو ذكر ميقاتها وأنها بعد ألف سنة أو أكثر أو أقل لكان مفهوماً ولكن لم يذكر لمصلحة العباد وخوفاً من الضرر فلعل المدّة اليها بعيدة فيطول الأمد ، وإذا استبطأت النفوس وقت العذاب قل أكثرائها ولعلها كانت هربية في علم الله سبحانه ولو ذكرت لعظم الخوف وأعرض الناس عن الأعمال وخربت الدنيا ، فهذا المعنى لو أتجه وصح فيكون مثالا لهذا القسم

(١) حديث (لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) أخرجه مسلم من حديث عائشة أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك في سجوده . (٢) حديث (إن لله سبعين حجاً من نور لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه) أدركه صره) أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب العظمة من حديث أبي هريرة (بين الله وبين الملائكة الذين حول العرش سبعون حجاً من نور) ولإسناده ضعيف . وفيه أيضاً من حديث أنس قال (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبرئيل هل ترى ربك ؟ قال إن ابني وبيته سبعين حجاً من نور) وفي الأكبر للطبراني من حديث سهل بن سعد (دون الله تعالى ألف حجاً من نور وطلمة) ولمسلم من حديث أبي موسى (حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه) ولابن ماجه (شيء أدركه بصره)

القسم الثالث : أن يكون الشيء بحيث لو ذكر صريحا لفهم ولم يكن فيه ضرر ولكن يكفى عنه على سبيل الاستعارة والرمز ليكون وقعه في قلب المستمع أغلب وله مصلحة في أن يعظم وقت ذلك الأمر في قلبه ، كما لو قال قائل ؛ رأيت فلانا يقلد الدر في أعناق الخنازير ؛ فكفى به عن إفساء العلم وبث الحكمة إلى غير أهلها فالمستمع قد يسبق إلى فهمه ظاهر اللفظ ، والمحقق إذا نظر وعلم أن ذلك الإنسان لم يكن معه در ولا كان في موضعه حنزير تفتن لدرك السر والباطن فيتماوت الناس في ذلك ، ومن هذا قال الشاعر :

رجلان حياط وآخر حائك متقابلان على السماك الأعزل

لازال ينسج ذاك خرقة مدبر ويحيط صاحبه ثياب المقبل

فانه عبر عن سبب سماوى في الإقبال والإدبار برجلين صانعين وهذا النوع يرجع إلى التعبير عن المعنى بالصورة التي تتضمن عين المعنى أو مثله ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « إن المسجد لينزوى من النخامة كما تنزوى الجلدة على النار ^(١) » وأنت ترى أن ساحة المسجد لا تنقبض بالنخامة ، ومعناه أن روح المسجد كونه معظما ورمى النخامة فيه تحقير له فيضاد معنى المسجدية مضادة النار لاتصال أجزاء الجلدة ، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم « أما يحشى الذى يرفع رأسه قبل الإمام أن يحول رأسه رأس حمار ^(٢) » ، وذلك من حيث الصورة لم يكن قط ولا يكون ؛ ولكن من حيث المعنى هو كائن إذ رأس الحمار لم يكن بحقيقته لكونه وشكله بل بحاصيته وهى البلادة والحق ، ومن رفع رأسه قبل الإمام فقد صار رأسه رأس حمار في معنى البلادة والحق وهو المقصود دون الشكل الذى هو قالب المعنى . إذ من غاية الحق أن يجمع بين الاقتداء وبين التقدم فإنهما متناقضان وإنما يعرف أن هذا السر على خلاف الظاهر إما بدليل عقلى أو شرعى ، أما العقلى فأن يكون حمله على الظاهر غير ممكن كقوله صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن ^(٣) » ، إذ لو قدشنا عن قلوب المؤمنين لم نجد فيها أصابع فلم أها كناية عن القدرة التي هى سر الأصابع وروحها الخفى ، وكى بالأصابع عن القدرة لأن ذلك أعظم وقعا في تفهم تمام الاقتدار . ومن هذا القبيل في كنياته عن الاقتدار قوله تعالى ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ فإن ظاهره مستمع إذ قوله « كن » ، إن كان حطانا للشيء قبل وجوده فهو محال إذا المعدوم لا يفهم الخطاب حتى يمثل وإن كان بعد الوجود فهو مستغن عن التكوين . ولكن لما كانت هذه الكناية أوقع في النفوس في تفهم غاية الاقتدار عدل إليها وأما المدرك بالشرع فهو أن يكون إحراؤه على الظاهر ممكنا ولكنه يروى أنه أريد به غير الظاهر كما ورد في تفسير قوله تعالى ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ﴾ الآية وأن معنى الماء ههما هو القرآن ومعنى الأودية هى القلوب وأن بعضها احتملت شيئا كثيرا وبعضها قليلا وبعضها لم يحتمل . والزبد مثل الكفر والنفاق فإنه وإن طهر وطفأ على رأس الماء فإنه لا يثبت والهداية التي تنفع الناس تمكث . وفي هذا القسم تعمق جماعة فأولوا ما ورد في الآخرة من الميران والصراط وغيرهما وهو بدعة إذ لم ينقل ذلك بطريق الرواية وإحراؤه على الظاهر غير محال فيجب إحراؤه على الظاهر . القسم الرابع : أن يدرك الإنسان الشيء جملة ثم يدركه تفصيلا بالتحقيق والذوق بأن يصير حالا ملاسبا له فيتفاوت العلماء ويكون الأول كالقشر والثاني كاللباب ، والأول كالظاهر والثاني كالباطن .

(١) حديث (إن المسجد لينزوى من النخامة .. الحديث) لم أحده أصلا (٢) حديث (أما يحشى الذى يرفع رأسه قبل الإمام .. الحديث) أخرجاه من حديث أنى هريرة (٣) حديث (قلب العهد بين أصبعين من أصابع الرحمن) أخرجاه من حديث عبد الله بن عمرو

وذلك كما يتمثل للإنسان في عينه شخص في العالمة أو على البعد فيحصل له نوع علم فإذا رآه بالقرب أو بعد زوال الظلام أدرك تفرقة بينهما ، ولا يكون الأخير ضد الأول بل هو استكمال له . فكذلك العلم والإيمان والتصديق ، إذ قد يصدق الإنسان بوجود العشق والمرض والموت قبل وقوعه ولكن تحققه به عند الوقوع أو كمال من تحققه قبل الوقوع بل للإنسان في الشهوة والعشق وسائر الأحوال ثلاثة أحوال متفاوتة وإدراكات متباينة ، الأول: تصديقه بوجوده قبل وقوعه . والثاني . عند وقوعه . والثالث : بعد تصرمه . فإن تحققك بالجوع بعد زواله يخالف التحقيق قبل الزوال وكذلك من علوم الدين ما يصير ذوقاً فيكمل فيكون ذلك كالباطن بالإضافة إلى ما قبل ذلك ، ففرق بين علم المريض بالصحة وبين علم الصحيح بها . ففي هذه الأقسام الأربعة تتفاوت الخلق وليس في شيء منها باطن يناقض الظاهر بل يتممه ويكمله كما يتمم اللب التشر والسلم . الخامس : أن يعبر بلسان المقال عن لسان الحال فالقاصر الفهم يقف على الظاهر ويعتقده بطقاً ، والبصير بالحقائق يدرك السر فيه وهذا كقول القائل : قال الجدار للوتدلم تشقني ؟ قال : سل من يدفني فلم يتركني ورائي الحجر الذي ورائي ؟ وهذا تعبير عن لسان الحال بلسان المقال ، ومن هذا قوله تعالى ﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين ﴾ فالبليد يفتقر في فهمه إلى أن يقدر لها حياة وعقلا وهما للخطاب وخطاباً هو صوت وحرف تسمعه السماء والأرض فتجيبان بحرف وصوت وتقولان ﴿ أتينا طائعين ﴾ والبصير يعلم أن ذلك لسان الحال وأنه إنباء عن كونهما مسخرتين بالضرورة ومضطرتين إلى التسخير . ومن هذا قوله تعالى (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) فالبليد يفتقر فيه إلى أن يقدر للجهادات حياة وعقلا ونطقاً بصوت وحرف حتى يقول « سبحان الله » ليتحقق تسبيحه . والبصير يعلم أنه ما أريد به نطق اللسان بل كونه مسبحاً بوجوده ومقدساً بذاته وشاهداً بوحداية الله سبحانه كما يقال :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

وكما يقال : هذه الصنعة المحكمة تشهد لصانعها بحسن التدبير وكال العلم لا بمعنى أنها تقول أشهد بالقول ولكن بالذات والحال . وكذلك ما من شيء إلا وهو محتاج في نفسه إلى موجد يوحدته ويقيه ويديم أوصافه ويردده في أطواره فهو محتاجته يشهد لخالقه بالتقديس يدرك شهادته ذوو البصائر دون الجامدين على الظواهر . ولذلك قال تعالى (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) وأما القاصرون فلا يفقهون أصلاً وأما المقربون والعلماء الراسخون فلا يفقهون كنهه وكأله إذ لكل شيء شهادات شتى على تقديس الله سبحانه وتسيبته ، ويدرك كل واحد بقدر عقله وبصيرته ، وتعداد تلك الشهادات لا يليق بعلم المعاملة . فهذا الفن أيضاً مما يتفاوت أرباب الظواهر وأرباب البصائر في علمه وتظهر به مفارقة الباطن للظاهر . وفي هذا المقام لأرباب المقامات لإسراف واقتصاد فمن مسرف في رفع الظواهر انتهى إلى تعبير جميع الظواهر والبراهين أو أكثرها حتى حملوا قوله تعالى (وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم) وقوله تعالى (وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء) وكذلك المخاطبات التي تجرى من منكر ونكير وفي الميزان والصراف والحساب ومناظرات أهل النار وأهل الجنة في قولهم (أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله) زعموا أن ذلك كله بلسان الحال . وغلا آخرون في حسم الباب منهم أحمد بن حنبل رضى الله عنه حتى منع تأويل قوله (كن فيكون) وزعموا أن ذلك خطاب بحرف وصوت يوجد من الله تعالى في كل لحظة بمدد كون مكثون حتى سمعت بعض أصحابه يقول : إنه حسم باب التأويل إلا لثلاثة ألفاظ قوله

صلى الله عليه وسلم « الحجر الأسود يمين الله في أرضه »^(١) ، وقوله صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمنين بين أصبعين من أصابع الرحمن ، وقوله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم « لاني لأجد نفس الرحمن من جانب اليمين »^(٢) ، ومال إلى حسم الباب أرباب الظواهر . والظن بأحمد بن حنبل رضى الله عنه أنه علم أن الاستواء ليس هو الاستقرار والنزول ليس هو الانتقال ولكنه منع من التأويل حسبما للباب ورعاية لصالح الخلق . فإنه إذا فتح الباب اتسع الخرق وخرج الأمر عن الضبط وجاوز حد الاقتصاد إذ حد ما جاوز الاقتصاد لا يضبط فلا بأس بهذا الزجر ويشهد له سيرة السلف فإنهم كانوا يقولون : أمرها كما جاءت ، حتى قال مالك رحمه الله لما سئل عن الاستواء : الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة . وذهبت طائفة إلى الاقتصاد وفتحوا باب التأويل في كل ما يتعلق بصفات الله سبحانه وتركوا ما يتعلق بالآخرة على ظواهرها ومنعوا التأويل فيه وهم الأشعرية . وزاد المعتزلة عليهم حتى أولوا من صفاته تعالى الرؤية وأولوا كونه سميما بصيرا وأولوا المعراج وزعموا أنه لم يكن بالجسد وأولوا عذاب القبر والميزان والصراط وجملة من أحكام الآخرة . ولكن أفروا بحشر الأجساد وبالجنه واشتهلها على المأكولات والمشروبات والمنكوحات والملاذ المحسوسة ، وبالنار واشتهلها على حسم محسوس يحرق بحرق الجلود ويديب الشحوم . ومن ترقبهم إلى هذا الحد زاد الفلاسمة فأولوا كل ما ورد في الآخرة وردوه إلى آلام عقلية وروحانية ولذات عقلية وأنكروا حشر الأجساد وقالوا ببقاء النفوس وأنها تكون إما معدنة وإما منعمة بعذاب ونعيم لا يدرك بالحس وهؤلاء هم المسرفون . وحد الاقتصاد بين هذا الانحلال كاه وبين جمود الخنابلة دقيق غامض لا يطلع عليه إلا الموفقون الذين يدركون الأمور بنور إلهي لا بالسماع ، ثم إذا انكشفت لهم أسرار الأمور على ما هي عليه نظروا إلى السمع والألفاظ الواردة فما وافق ما شاهدوه نور اليقين فزوره وما خالف أولوه . فأما من يأخذ معرفة هذه الأمور من السمع المجرد فلا يستقر له فيها قدم ولا يتعين له موقف . والألبق بالمقتصر على السمع المجرد : مقام أحمد بن حنبل رحمه الله . والآن فكشف العطاء عن حد الاقتصاد في هذه الأمور داخل في علم المكاشفة والقول فيه يطول فلا يحوض فيه ؛ والغرض بيان موافقة الباطل الظاهر وأنه غير مخالف له فقد انكشفت بهذه الأقسام الخمسة أمور كثيرة . وإذا رأينا أن تقتصر بكافة العوام على ترجمة العقيدة التي حترناها وأنهم لا يكلفون غير ذلك في الدرجة الأولى إلا إذا كان خوف تشويش لشيوع البدعة فيرقى في الدرجة الثانية إلى عقيدة فيها لوامع من الأدلة مختصرة من غير تعمق . فلنورد في هذا الكتاب تلك اللوامع ولنقتصر فيها على ما حترناه لأهل القدس وسميناه « الرسالة القدسية في قواعد العقائد » وهي مودعة في هذا الفصل الثالث من هذا الكتاب

الفصل الثالث

من كتاب قواعد العقائد في لوامع الأدلة للعقيدة التي ترجمناها بالقدس فنقول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي ميز عصاة السنة بأنوار اليقين وآثر رهط الحق بأهداية إلى دعائم الدين وجنبهم زيغ الزائغين وضلال الملحدون ووقفهم للاقتداء بسيد المرسلين وسددهم للتأسي بصحبه الأكرمين ويسر لهم اقتفاء آثار السلف

(١) حديث (الحجر يمين الله في الأرض) أخرجه الحاكم وصححه من حديث عبيد الله بن عمر (٢) حديث (لاني لأجد نفس الرحمن من جانب اليمين) أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة في حديث قال فيه (وأجد نفس ربكم من قبل اليمين) ورجاه ثقات

الصالحين حتى اعتصموا من مقتضيات العقول بالحبل المتين ومن سير الأولين وعقائدهم بالمنهج المبين ، فجمعوا بالقول بين نتائج العقول وقضايا الشرع المقبول ، وتحققوا أن النطق بما تعبدوا به من قول « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ليس له طائل ولا محصول إن لم تتحقق الإحاطة بما تدور عليه هذه الشهادة من الأقطاب والأصول ، وعرفوا أن كلمتي الشهادة على إيجازها تتضمن إثبات ذات الإله وإثبات صفاته وإثبات أفعاله وإثبات صدق الرسول ، وعلموا أن بناء الإيمان على هذه الأركان وهي أربعة ويدور كل ركن منها على عشرة أصول (الركن الأول) في معرفة ذات الله تعالى ومداره على عشرة أصول : وهي العلم بوجود الله تعالى وقدمه وبقائه وأنه ليس بجوهر ولا حسم ولا عرض وأنه سبحانه ليس مختصاً بجهة ولا مستقراً على مكان وأنه يزى وأنه واحد (الركن الثاني) في صفاته ويشتمل على عشرة أصول : وهو العلم بكونه حياً عالماً قادراً مريداً سمياً بصيراً متكلماً منزهاً عن حلول الحوادث وأنه قديم الكلام والعلم والإرادة (الركن الثالث) في أفعاله تعالى ومداره على عشرة أصول : وهي أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى وأنها مكتسبة للعباد وأنها مرادة لله تعالى وأنه متفضل بالخلق والاختراع وأن له تعالى تكليف ما لا يطاق ، وأن له إيلاء البرى ولا يجب عليه رعاية الأصلاح ، وأنه لا واجب إلا بالشرع وأن بعثه الأنبياء جائز وأن نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ثابته مؤيدة بالمعجزة (الركن الرابع) في السمعيات ومداره على عشرة أصول : وهي إثبات الحشر والنشر وسؤال منكر ونكير وعذاب القبر والميزان والصراف وحلق الجنة والبار وأحكام الإمامة وأن فضل الصحابة على حسب ترتيبهم وشروط الإمامة .

فأما الركن الأول من أركان الإيمان : في معرفة ذات الله سبحانه وتعالى

وأن الله تعالى واحد ومداره على عشرة أصول

(الأصل الأول) معرفة وحوده تعالى وأول ما يستضاء به من الأنوار ويسلك من طريق الاعتبار ما أرشد إليه القرآن، فليس بعد بيان الله سبحانه بيان وقد قال تعالى ﴿ ألم نجعل الأرض مهاداً والجال أوتاداً وخلقناكم أزواجاً وجعلنا نومكم سباتاً وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً ونينا فوقكم سبعا شداداً وجعلنا سراجاً وهاجاً وأنزلنا من العصرات ماءً ثجاجاً لنخرج به حياً ونباتاً وجات ألقافاً ﴾ وقال تعالى ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض آيات لقوم يعقلون ﴾ وقال تعالى ﴿ ألم ترا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وحمل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً والله أنبتكم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويمرحكم إحراحاً ﴾ وقال تعالى ﴿ أفرأيتم ما تمنون ما أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ﴾ إلى قوله ﴿ للمقوين ﴾ فلبس يحفى على من معه أدنى مسكة من عقل إذا تأمل بأدنى فكرة مضمون هذه الآيات وأدار نظره على عجائب خلق الله في الأرض والسموات وبدائع فطرة الحيوان والنبات أن هذا الأمر العجيب والترتيب المحكم لا يستغنى عن صانع يدره وفاعل يحكمه ويقدره ؛ بل تكاد فطرة النفوس تشهد بكونها مقهورة تحت تسخيرها ومصرفة بمقتضى تدبيره . ولذلك قال الله تعالى ﴿ أفى الله شك فاطر السموات والأرض ﴾ ولهذا بعث الأنبياء صلوات الله عليهم لدعوة الخلق إلى التوحيد ليقولوا « لا إله إلا الله » وما أمروا أن يقولوا لا إله إلا الله وللعلم إله . فإن ذلك كان مجبولاً في فطرة عقولهم من مبدل نسوهم وفي عنفوان شأهم . ولذلك قال عز وجل ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ وقال تعالى ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطره الله التي (١٤ - إحياء علوم الدين - ١)

فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴿ فإذا في فطرة الإنسان وشواهد القرآن ما يغني عن إقامة البرهان . ولكننا على سبيل الاستظهار والافتداء بالعلماء النظائر نقول : من بدائة العقول أن الحادث لا يستغنى في حدوثه عن سبب يحدثه ، والعالم حادث فإذا لا يستغنى في حدوثه عن سبب . أما قولنا « إن الحادث لا يستغنى في حدوثه عن سبب » فجلي فإن كل حادث مختص بوقت يجوز في العقل تقدير تقديمه وتأخيرها فاختصاصه بوقته دون ما قبله وما بعده يقتصر بالضرورة إلى المخصص وأما قولنا « العالم حادث » فبرهانه أن أجسام العالم لا تخلو عن الحركة والكون وهما حادثان وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث . ففي هذا البرهان ثلاث دعاوى ؛ الأولى : قولنا « إن الأجسام لا تخلو عن الحركة والسكون » وهذه مدركة بالبدية والاضطرار فلا يحتاج فيها إلى تأمل وافتكار فإن من عقل جسمًا لا ساكنًا ولا متحركًا كان لمتن الجهل راكبًا وعن نهج العقل ناكبًا . الثانية : قولنا « إنهما حادثان » ويدل على ذلك تعاقبهما ووجود البعض منهما بعد البعض وذلك مشاهد في جميع الأجسام ما توهد منها وما لم يشاهد فممن ساكن إلا والعقل قاض بجواز حركته وما من متحرك إلا والعقل قاض بجواز سكونه فالطارئ منهما حادث لطريانه والسابق حادث لعدمه ؛ لأنه لو ثبت قدمه لاستحال عدمه - على ما سيأتي بيانه وبرهانه في إثبات بقاء الصانع تعالى وتقدس - اثناثة : قولنا « ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث » وبرهانه أنه لو لم يكن كذلك لكان قبل كل حادث حوادث لا أول لها ولو لم تنقص تلك الحوادث بحملتها لاتنتهي التوبة إلى وجود الحادث الحاضر في الحال وانقضاء ما لانهاية له محال ، ولأنه لو كان للفلك دورات لانهاية لها لكان لا يخلو عددها عن أن تكون شفعا أو وترًا أو شفعا وترًا جميعاً أو لا شفعا ولا وترًا ، ومحال أن يكون شفعا وترًا جميعاً أو لا شفعا ولا وترًا . فإن ذلك جمع بين النفي والإثبات ؛ إذ في إثبات أحدهما نفي الآخر وفي نفي أحدهما إثبات الآخر . ومحال أن يكون شفعا لأن الشفع يصير وترًا بزيادة واحد . وكيف يعوز ما لانهاية له : واحد ؟ ومحال أن يكون وترًا إذ الوتر يصير شفعا بواحد فكيف يعوزها واحد مع أنه لانهاية لأعدادها . ومحال أن يكون لا شفعا ولا وترًا إذ لانهاية . فتحصل من هذا أن العالم لا يخلو عن الحوادث وما لا يخلو عن الحوادث فهو إذن حادث . وإذا ثبت حدوثه كان افتقاره إلى المحدث من المدركات بالضرورة (الأصل اثناثي) العلم بأن الله تعالى قديم لم يرل ، أزلي ليس لوجوده أول بل هو أول كل شيء وقبل كل ميت وحي . وبرهانه أنه لو كان حادثا ولم يكن قديما لافتقر هو أيضاً إلى محدث وافتقر محدثه إلى محدث وتسلسل ذلك إلى ما لانهاية ، وما تسلسل لم يتحصل أو ينتهي إلى محدث قديم هو الأول وذلك هو المطلوب الذي سميناها صانع العالم ومبدئه وبارئته ومحدثه ومبدعه (الأصل الثالث) العلم بأنه تعالى مع كونه أزليا أبديا ليس لوجوده آخر فهو الأول والآخر والظاهر والباطن لأن ما ثبت قدمه استحاله عدمه ، وبرهانه أنه لو انعدم لكان لا يخلو إما أن ينعدم بنفسه أو بمعدم يضاده ولو جاز أن يعدم شيء يتصور دوامه لجاز أن يوجد شيء يتصور عدمه بنفسه فكما يحتاج طريان الوجود إلى سبب فكذلك يحتاج طريان العدم إلى سبب . وباطل أن ينعدم بمعدم يضاده لأن ذلك المعدم لو كان قديما لما تصور الوجود معه . وقد ظهر بالأصلين السابقين وجوده وقدمه فكيف كان وجوده في القدم ومعه ضده ؟ فإن كان العدم حادثا كان محالا ؛ إذ ليس الحادث في مضادته للقديم حتى يقطع وجوده بأولى من القديم في مضادته للحادث حتى يدفع وجوده ، بل الدفع أهون من القطع والقديم أقوى وأولى من الحادث (الأصل الرابع) العلم بأنه تعالى ليس بجوهر يتحيز بل يتعالى ويتقدس عن مناسبة الحيز . وبرهانه أن كل جوهر متحيز فهو مختص بحيزه ولا يخلو من أن يكون ساكنا فيه أو متحركا عنه ، فلا يخلو عن الحركة أو السكون

وهما حادثان ، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث . ولو تصور جوهر متحير قديم لكان يعقل قدم جواهر العالم فإن سماه مسم جوهرآ ولم يرد به المتحيز كان مخطئا من حيث اللفظ لامن حيث المعنى ﴿الاصل الخامس﴾ العلم بأنه تعالى ليس بجسم مؤلف من جواهر . إذ الجسم عبارة عن المؤلف من الجواهر ، وإذا بطل كونه جوهرآ محصوا بجيز بطل كونه جسما لأن كل جسم محتص بجيز ومركب من جوهر فالجوهر يستحيل خلوه عن الافتراق والاجتماع والحركة والسكون والهيئة والمقدار وهذه سمات الحدوث . ولو حاز أن يعتقد أن صانع العالم جسم لمجاز أن يعتقد الإلهية للشمس والقمر أو لشيء آخر من أقسام الأجسام . فإن تجاسر متجاسر على تسميته تعالى جسما من غير إرادة التأليف من الجواهر كان ذلك غلطا في الاسم مع الإصابة في نفي معنى الجسم ﴿الاصل السادس﴾ العلم بأنه تعالى ليس بعرض قائم بجسم أو حال في محل لأن العرض ما يحل في الجسم ، فكل جسم فهو حادث لا محالة ويكون محدثه موجودا قبله . فكيف يكون حالا في الجسم وقد كان موجودا في الأزل وحده وما معه غيره ، ثم أحدث الأجسام والأعراض بعده ؟ ولأنه عالم قادر مريد خالق - كما سيأتي بيانه - وهذه الأوصاف تستحيل على الأعراض بل لا تعقل إلا للموجود قائم بنفسه مستقل بذاته . وقد تحصل من هذه الأصول أنه موجود قائم بنفسه ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض . وأن العالم كله جواهر وأعراض وأجسام فاذا لا يشبه شيئا ولا يشبهه شيء بل هو الحى القيوم الذى ليس كمثل شيء وأنى يشبه المخلوق خائفة والمقدور مقدره والمصور مصوره . والأحسام والأعراض كلها من خلقه وصنعه فاستحال القضاء عليها بمائلته ومشايبته ﴿الاصل السابع﴾ العلم بأن الله تعالى منزه الذات عن الاختصاص بالجهات فان الجهة إما فوق وإما أسفل وأما يمين وإما شمال أو قدام أو خلف ، وهذه الجهات هو الذى خلقها وأحدثها بواسطة خلق الإنسان إذ خلق له طرفين أحدهما يعتمد على الأرض ويسمى رجلا ، والآخر يقابله ويسمى رأسا . فحدث اسم الفوق لما يلي جهة الرأس واسم السفلى لما يلي جهة الرجل حتى إن النملة التى تدب منكسة تحت السقف تنقلب جهة الفوق فى حضا تحتها وإن كان فى حضا فوقا . وخلق للإنسان اليدين وإحدهما أقوى من الأخرى فى الغالب فحدث اسم اليمين للأقوى واسم الشمال لما يقابله وتسمى الجهة التى تلى اليمين يميناً والأخرى شمالا ، وخلق له جانين يبصر من أحدهما ويتحرك اليه فحدث اسم القدام للجهة التى يتقدم اليها بالحركة واسم الخلف لما يقابلها ، فالجهات حادثه بحدوث الإنسان ولو لم يخلق الإنسان بهذه الخلقة بل خلق مستديرا كالكرة لم يكن لهذه الجهات وجود ألبته . فكيف كان فى الأزل محتصا بجهة والجهة حادثه ؟ وكيف صار محتصا بجهة بعد أن لم يكن له ؟ أبأن خلق العالم فوفه ويتعالى عن أن يكون له فوق إذ تعالى أن يكون له رأس والفوق عبارة عما يكون جهة الرأس أو خلق العالم تحته فتعالى عن أن يكون له تحت إذ تعالى عن أن يكون له رجل والتحت عبارة عما يلي جهة الرجل ؛ وكل ذلك مما يستحيل فى العقل ولأن المعقول من كونه محتصا بجهة أنه محتص بجيز اختصاص الجواهر أو محتص بالجواهر اختصاص العرص وقد ظهر استحالة كونه جوهرآ أو عرضا فاستحال كونه محتصا بالجهة ؛ وإن أريد بالجهة غير هذين المعنيين كان غلطا فى الاسم مع المساعدة على المعنى ولأنه لو كان فوق العالم لكان محاذيا له ، وكل محاذ لجسم فلما أن يكون مثله أو أصغر منه أو أكبر وكل ذلك تقدير محوج بالضرورة إلى مقدر ويتعالى عنه الخالق الواحد المدبر ، فأما رفع الأيدى عند السؤال إلى جهة السماء فهو لأنها قبلة الدعاء . وفيه أيضا إشارة إلى ما هو وصف للدعوى من الجلال والكبرياء تنبيهها بقصد جهة العلو على صفة المجد والعلاء فانه تعالى فوق كل موجود بالقهر والاستيلاء ﴿الاصل

(الثامن) العلم بأنه تعالى مستو على عرشه بالمعنى الذى أراد الله تعالى بالاستواء وهو الذى لا يتأنى وصف الكبرياء ولا يتطرق اليه سمات الحدوث والفناء وهو الذى أريد بالاستواء إلى السماء حيث قال فى القرآن (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) وليس ذلك إلا بطريق القهر والاستيلاء كما قال الشاعر :

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهباق

واضطر أهل الحق إلى هذا التأويل كما اضطر أهل الباطن إلى تأويل قوله تعالى ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ إذ حل ذلك بالاتفاق على الإحاطة والعلم ، وحمل قوله صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن ، على القدرة والقهوه ، وحمل قوله صلى الله عليه وسلم « الصجر الأسود يمين الله فى أرضه ، على التشريف والإكرام لأنه لو ترك على طاهره للزم منه المحال فكذا الاستواء لو ترك على الاستقرار والتمكن لزم منه كون المتمكن جسما مما سأل للعرش إما مثله أو أكبر منه أو أصغر وذلك محال ، وما يؤدى إلى المحال فهو محال ﴿ الأصل التاسع ﴾ العلم بأنه تعالى مع كونه منزها عن الصورة والمقدار مقدسا عن الجهات والافطار مرئى بالأعين والأبصار فى الدار الآخرة دار القرار لقوله تعالى ﴿ وحوه يومئذ ناظرة إلى ربها ناظرة ﴾ ولا يرى فى الدنيا تصديقا لقوله عز وجل ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾ ولقوله تعالى فى خطاب موسى عليه السلام ﴿ ان ترى ﴾ وليت شعرى كيف عرف المعتزل من صفات رب الأرباب ما جهله موسى عليه السلام ؟ وكيف سأل موسى عليه السلام الرؤية مع كونها محالا ؟ ولعل الجهل بدوى البدع والأهواء من الجهلة الأغبياء أولى من الجهل بالأنبياء صلوات الله عليهم ، وأما وحه إجراء آية الرؤية على الظاهر فهو أنه غير مؤد إلى المحال ، فإن الرؤية نوع كشف وعلم لأنه أتم وأوضح من العلم فإذا جاز تعلق العلم به وليس فى جهة جاز تعلق الرؤية به وليس بجهة ، وكما يجوز أن يرى الله تعالى الخلق وليس فى مقابلتهم حاز أن يراه الخلق من غير مقابلة ، وكما جاز أن يعلم من غير كيفية وصورة جاز أن يرى كذلك ﴿ الأصل العاشر ﴾ العلم بأن الله عز وجل واحد لا شريك له فرد لاند له انفرد بالخلق والإبداع واستند بالإيجاد والاختراع لا مثل له يساهمه ويساويه ولا ضد له فينازعه ويناويه : وبرهانه قوله تعالى ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ وبيانه أنه لو كانا اثنين وأراد أحدهما أمرا فالثاني إن كان مضطرا إلى مساعدته كان هذا الثاني مقهورا عاجزا ولم يكن إلها قادرا ، وإن كان قادرا على مخالفته ومدافعته كان الثاني قويا قاهرا والاول ضعيفا قاصرا ولم يكن إلها قادرا

الركن الثانى العلم بصفات الله تعالى ومداره على عشرة أصول

﴿ الأصل الأول ﴾ العلم بأن صانع العالم قادر وأنه تعالى فى قوله ﴿ وهو على كل شىء قدير ﴾ صادق لأن العالم محكم فى صنعته مرتب فى خلقته ومن رأى ثوبا من ديباج حسس النسيج والتأليف متناسب التطريز والتطريف ثم توهم صدور سجه عن ميت لا استطاعة له أو عن إنسان لا قدرة له كان منخلعا عن غريزة العقل ومنخرطا فى سلك أهل العباوة والجهل ﴿ الأصل الثانى ﴾ العلم بأنه تعالى عالم بجميع الموجودات ومحيط بكل المخلوقات (لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء) صادق فى قوله ﴿ وهو بكل شىء عليم ﴾ ومرشد إلى صدقه بقوله تعالى (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) أرسدك إلى الاستدلال بالخلق على العلم بأنك لا تستريب فى دلالة الخلق اللطيف والصنع المزين بالترتيب ولو فى الشىء الحقير الضعيف على علم الصانع بكيفية الترتيب والترصيف فما ذكره الله سبحانه هو المنتهى فى الهداية والتعريف (الأصل الثالث) العلم بكونه عز وجل حيا فان من ثبت

علمه وقدرته ثبت بالضرورة حياته ولو تصور قادر وعالم فاعل مدبر دون أن يكون حيا لحاز أن يشك في حياة الحيوانات عند تردها في الحركات والسكنات بل في حياة أرباب الحرف والصناعات وذلك انغماس في غمرة الجهالات والضلالات (الأصل الرابع) العلم بكونه تعالى مريدا لأفعاله فلا موجود إلا وهو مستند إلى مشيئته وصادر عن إرادته فهو المبدئ المعيد والفعال لما يريد وكيف لا يكون مريدا وكل فعل صدر منه أمكن أن يصدر منه صدّه؟ وما لا ضد له أمكن أن يصدر منه ذلك بعينه قبله أو بعده . والقدرة تناسب الضدين والوقتين مناسبة واحدة فلا بد من إرادة صارفة للقدرة إلى أحد المقدورين . ولو أغنى العلم عن الإرادة في تخصيص المعلوم حتى يقال إنما وجد في الوقت الذي سبق بوجوده لحاز أن يغنى عن القدرة حتى يقال وجد بعير قدرة لأنه سبق العلم بوجوده فيه (الأصل الخامس) العلم بأنه تعالى سميع نصير لا يعزب عن رؤيته هواجس الضمير وخفايا الهم والتفكير ولا يشذ عن سماعه صوت ديبب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء : وكيف لا يكون سميما بصيرا والسمع والبصر كال لا محالة وليس بنقص ؟ فكيف يكون المخلوق أكمل من الخالق والمصنوع أسنى وأتم من الصانع ؟ وكيف تعادل القسمة مهما وقع النقص في جهته والكمال في خلقه وصنعه أو كيف تستقيم حجة إبراهيم صلى الله عليه وسلم على أبيه إذ كان يعبد الأصنام جهلا وغيا فقال له ﴿ لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يعنى عنك شيئا ﴾ ولو انقلب ذلك عليه في معبوده لاصحت حجته داحضة ودلالته ساقطة ولم يصدق قوله تعالى ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾ وكما عقل كونه فاعلا بلا جارحة وعالما بلا قلب ودماغ فليعقل كونه بصيرا بلا حدقة وسميما بلا أذن إذ لا فرق بينهما (الأصل السادس) أنه سبحانه وتعالى متكلم بكلام وهو وصف قائم بذاته ليس بصوت ولا حرف بل لا يشبه كلامه غيره كما لا يشبه وجوده وجود غيره . والكلام بالحقيقة كلام النفس وإنما الأصوات قطعت حروفا للدلالات كما يدل عليها تارة بالحركات والإشارات وكيف التبس هذا على طائفة من الأغبياء ولم يلتبس على جهلة الشعراء حيث قال قائلهم :

إنّ الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

ومن لم يعقله عقله ولا سهاه نهاه عن أن يقول : لسانى حادث ولكن ما يحدث فيه بقدرتى الحادثة قديم ، فاقطع عن عقله طمعك وكف عن خطاه لسانك . ومن لم يفهم أن القديم عبارة عما ليس قبله شيء . وأن الباء قبل السين في قولك بسم الله فلا يكون السين المتأخر عن الباء قديما فزه عن الالتفات إليه قلبك لله سبحانه سر في إبعاد بعض العباد ﴿ ومن يضلل الله فإله من هاد ﴾ ومن استبعد أن يسمع موسى عليه السلام في الدنيا كلاما ليس بصوت ولا حرف فليستنكر أن يرى في الآخرة موجودا ليس بجسم ولا لون : وإن عقل أن يرى ما ليس بلون ولا جسم ولا قدر ولا كمية وهو إلى الآن لم ير غيره فليعقل في حاسة السمع ماعمله في حاسة البصر . وإن عقل أن يكون له علم واحد هو علم بجميع الموجودات فليعقل صفة واحدة للذات هو كلام بجميع ما دل عليه من العبارات . وإن عقل كون السموات السبع وكون الجنة والنار مكتوبة في ورقة صغيرة ومحفوظة في مقدار ذرة من القلب وأن كل ذلك مرئي في مقدار عدسة من الحدقة من غير أن تحمل ذات السموات والأرض والجنة والنار في الحدقة والقلب والورقة فليعقل كون الكلام مقروءا بالألسنة محفوظا في القلوب مكتوبا في المصاحف من غير حلول ذات الكلام فيها إذ لو حلت بكتاب الله ذات الكلام في الورق لحل ذات الله تعالى بكتابة اسمه في الورق وحلت ذات النار بكتابه اسمها في الورق ولا حرق (الأصل السابع) أن الكلام القائم بنفسه قديم وكذا جميع صفاته إذ استحليل أن يكون محلا

للحوادث داخلا تحت التغيير بل يجب للصفات من نعوت التقدم مايجب للذات فلا تعتريه التغيرات ولا تحمله الحادثات بل لم يزل في قدمه موصوفا بمحامد الصفات ولا يزل في أبده كذلك منزها عن تغير الحالات لأن ما كان محل الحوادث لا يخلو عنها وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث . وإنما ثبت نعت الحدوث للأجسام من حيث تعرضها للتغيير وتقلب الأوصاف فكيف يكون خالقها مشاركا لها في قبول التغيير؟ وينبئ على هذا أن كلامه قديم قائم بذاته وإنما الحادث هي الأصوات الدالة عليه ، وكما عقل قيام طلب التعلم وإرادته بذات الوالد للولد قبل أن يخلق ولده حتى إذا خلق ولده وعقل وخلق الله له علما متعلقا بما في قلب أبيه من الطلب صار مأمورا بذلك الطلب الذي قام بذات أبيه ودام وحوده إلى وقت معرفة ولده له وليعقل قيام الطلب الذي دل عليه قوله عز وجل (اخلع نعليك) بذات الله ومصير موسى عليه السلام محاطبا به بعد وجوده إذ خلقت له معرفة بذلك الطلب وسمع لذلك الكلام القديم (الأصل الثامن) أن علمه قديم فلم يزل عالما بذاته وصفاته وما يحدثه من مخلوقاته . ومهما حدثت المخلوقات لم يحدث له علم بها بل حصلت مكشوفة له بالعلم الأزلي إذ لو خلق لنا علم به بقدم زيد عند طلوع الشمس ودام ذلك العلم تقديرا حتى طلعت الشمس لكان قدوم زيد عند طلوع الشمس معلوما لنا بذلك العلم من غير تجديد علم آخر . فكهذا ينبغي أن يفهم قدم علم الله تعالى (الأصل التاسع) أن إرادته قديمة وهي في القدم تعلقت بإحداث الحوادث في أوقاتها اللائقة بها على وفق سبق العلم الأزلي إذ لو كانت حادثة لصار محل الحوادث ، ولو حدثت في غير ذاته لم يكن هو مريدا لها كما لا تكون أنت متحركا بحركة ليست في ذاتك وكيف قدرت فيفتقر حدوثها إلى إرادة أخرى ، وكذلك الإرادة الأخرى تفتقر إلى أخرى ويتسلسل الأمر إلى غير نهاية ، ولو جاز أن يحدث إرادة بغير إرادة لجاز أن يحدث العالم بغير إرادة (الأصل العاشر) أن الله تعالى عالم بعلم ، حي بحياة ، قادر بقدره ، ومريد بإرادة ، ومتكلم بكلام ، وسميع بسمع ، وبصير ببصر ، وله هذه الأوصاف من هذه الصفات القديمة . وقول القائل : عالم بلا علم كقوله : غني بلا مال وعلم بلا عالم وعالم بلا معلوم ، فإن العلم والمعلوم والعالم متلازمة كالقتل والمقتول والقاتل ، وكما لا يتصور قاتل بلا قتل ولا قاتيل ولا يتصور قاتيل بلا قاتل ولا قاتل كذلك لا يتصور عالم بلا علم ولا علم بلا معلوم ولا معلوم بلا عالم بل هذه الثلاثة متلازمة في العقل لا ينفك بعض منها عن البعض فمن جوز انفكاك العالم عن العلم فليجوز انفكاك كنه عن المعلوم وانفكاك العلم عن العالم إذ لا فرق بين هذه الأوصاف .

الركن الثالث : العلم بأفعال الله تعالى ، ومداره على عشرة أصول

(الأصل الأول) العلم بأن كل حادث في العالم فهو فعله وخلقه واحتراعه لا خالق له سواه ولا يحدث له إلا إياه . خلق الخلق وصهم وأوجد قدرتهم وحركتهم فجميع أفعال عباده مخلوقة له ومتعلقة بقدرته تصديقا له في قوله تعالى (الله خالق كل شيء) وفي قوله تعالى (والله خلقكم وما تعملون) وفي قوله تعالى (وأسروا قولكم أو أجهروا به إنه عليم بذات الصدور ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) أمر العباد بالتحرز في أقوالهم وأفعالهم وإسرارهم وإضمارهم لعلهم بموارد أفعالهم . واستدل على العلم بالخلق ، وكيف لا يكون خالقا لفعل العبد وقدرته تامة لا قصور فيها وهي متعلقة بحركة أبدان العباد والحركات متباعدة وتعلق القدرة بها لذاتها ما الذي يقصر تعلقها عن بعض الحركات دون البعض مع تماثلها؟ وكيف يكون الحيوان مستتبعا بالاختراع ويصدر من العنكبوت والنحل وسائر الحيوانات من لطائف الصناعات ما يتحير فيه عقول ذوى الألباب فكيف انفردت هي باختراعها دون رب الأرباب وهي غير عالمة بتفصيل ما يصدر منها من الاكتساب؟ هيئات هيئات ! ذلت المخلوقات وتفرد بالملك والملكوت .

جبار الأرض والسماوات (الأصل الثاني) أنّ انفراد الله سبحانه باختراع حركات العباد لا يخرجها عن كونها مقدورة للعباد على سبيل الاكتساب بل الله تعالى خلق القدرة والمقدور جميعاً وخلق الاختيار والمختار جميعاً . فأما القدرة فوصف للعبد وخلق للرب سبحانه وليست بكسب له . وأما الحركة فخلق للرب تعالى ووصف للعبد وكسب له فإنها خلقت مقدورة بقدرة هي وصفه وكانت للحركة نسبة إلى صفة أخرى تسمى قدرة فتسمى باعتبار تلك النسبة كسباً ، وكيف تكون حراً محضاً وهو بالضرورة يدرك التفرقة بين الحركة المقدورة والرعدة الضرورية ؟ وكيف يكون خلقاً للعبد وهو لا يحيط علماً بتفاصيل أجزاء الحركات المكتسبة وأعدادها وإذا يطل الطرفان لم يبق إلا الاقتصاد في الاعتقاد وهو أنها مقدورة بقدرة الله تعالى اختراعاً وبقدرته العبد على وجه آخر من التعليق يعبر عنه بالاكتساب . وليس من ضرورة تعلق القدرة بالمقدور أن يكون بالاختراع فقط ؛ إذ قدرة الله تعالى في الأزل تد كانت متعلقة بالعالم ولم يكن الاختراع حاصلًا بها وهي عند الاختراع متعلقة به نوعاً آخر من التعلق فيه يظهر أنّ تعلق القدرة ليس مخصوصاً بمحصل المقدور بها (الأصل الثالث) أنّ فعل العبد وإن كان كسباً للعبد فلا يخرج عن كونه مراداً لله سبحانه . فلا يجري في الملك والمملوك طرفة عين ولا لفتة خاطر ولا فلتة ناظر إلا بقضاء الله وقدرته وإرادته ومشئته . ومنه الشر والخير والفتح والضر والإسلام والكفر والعرفان والنكر والفوز والخسران والغواية والرشد والطاعة والعصيان والشرك والإيمان لاراد لقضائه ولا معقب لحكمه يضل من يتساء ويهدى من يتساء ﴿ لا يستل عما يفعل وهم يسألون ﴾ ويدل عليه من النقل قول الأمة قاطبة « ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن » وقول الله عز وجل ﴿ أن لو يسأ الله لهدى الناس جميعاً ﴾ وقوله تعالى ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ﴾ ويدل عليه من جهة العقل أنّ المعاصي والجرائم إن كان الله يكرها ولا يريد لها وإنما هي جارية على وفق إرادة العدو إبليس لعنه الله مع أنه عدو لله سبحانه ، والجارية على وفق إرادة العدو أكثر من الجارية على وفق إرادته تعالى فليت شعري كيف يستجيز المسلم أن يرد ملك الجبار ذي الحلال والإكرام إلى رتبة لو ردت إليها رئاسة زعيم ضيعة لاستنكف منها ؛ إذ لو كان ما يستمر لعدو الزعيم في القرية أكثر مما يستقيم له لاستنكف من زعامته وتبرأ عن ولايته . والمعصية هي الغالبة على الخلق وكل ذلك جار عند المتدعة على خلاف إرادة الحي تعالى وهذا غاية الضعف والعجز ، تعالى رب الأرباب عن قول الظالمين علواً كبيراً . ثم مهما طهر أن أفعال العباد مخلوقة لله صح أنها مرادة له * فإن قيل : فكيف ينهى عما يريد ويأمر بما لا يريد ؟ قلنا : الأمر غير الإرادة . ولذلك إذا ضرب السيد عبده فعاتبه السلطان عليه فاعتذر بتمرد عبده عليه فكذب السلطان - فأراد إظهار حجته بأن يأمر العبد بفعل ويخالفه بين يديه - فقال له : أسرج هذه الدابة بمشهد من السلطان ، فهو يأمره بما لا يريد أمثاله ، ولو لم يكن أمراً لما كان عذره عند السلطان مهملًا ، ولو كان مردياً لامثاله لكان مردياً لهلاك نفسه وهو محال (الأصل الرابع) أنّ الله تعالى متفضل بالخلق والاختراع ومتقول بتكليف العباد ولم يكن الخلق والتكليف واجباً عليه وقالت المعتزلة وجب عليه ذلك لما فيه من مصلحة العباد وهو محال ؛ إذ هو الموجب والأمر والناهي وكيف يتهدى لإيجاب أو تعريض للزوم وخطاب ؟ والمراد بالواجب أحد أمرين : إما الفعل الذي في تركه ضرر إما آجل ؛ كما يقال يجب على العبد أن يطيع الله حتى لا يعذبه في الآخرة بالنار ، أو ضرر عاجل ؛ كما يقال يجب على العطشان أن يشرب حتى لا يموت . وإما أن يراد به الذي يؤدي عدمه إلى محال كما يقال وجود المعلوم واجب إذ عدمه يؤدي إلى محال وهو أن يصير العلم جهلاً ، فإن أراد الخصم بأن الخلق واجب على الله بالمعنى الأول

فقد عترضه للضرر وإن أراد به المعنى الثاني فهو مسلم ؛ إذ بعد سبق العلم لا بد من وجود المعلوم وإن أراد به معنى ثالثاً فهو غير مفهوم وقوله « يجب لمصلحة عباده ، كلام فاسد فإنه إذا لم يتضرر بترك مصلحة العباد لم يكن للوجوب في حقه معنى . ثم إن مصلحة العباد في أن يخلقهم في الجنة فأما أن يخلقهم في دار البلياء ويعرضهم للخطايا ثم يهدفهم لخطر العقاب وهول العرض والحساب فما في ذلك غبطة عند ذوى الآلباب (الأصل الخامس) أنه يجوز على الله سبحانه أن يكلف الخلق ما لا يطيقونه - خلافاً للمعتزلة - ولولم يجوز ذلك لاستحالة سؤال دونه وقد سألوا ذلك فقالوا ﴿ ربنا ولا تحم لنا ما لا طاقة لنا به ﴾ ولأن الله تعالى أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن أبا جهل لا يصدقه ، ثم أمره بأن يأمره بأن يصدقه في جميع أقواله وكان من جملة أقواله أنه لا يصدقه ، فكيف يصدقه في أنه لا يصدقه وهل هذا إلا محال وجوده ؟ (الأصل السادس) أن لله عز وجل لإبلام الخلق وتعذيبهم من غير جرم سابق ومن غير ثواب لاحق خلافاً للمعتزلة - لأنه متصرف في ملكه ولا يتصور أن يعدو تصرفه ملكه ، والظلم هو عبارة عن التصرف في ملك الغير بغير إذنه وهو محال على الله تعالى فإنه لا يصادف لغيره ملكاً حتى يكون تصرفه فيه ظلماً : ويدل على جواز ذلك وجوده فإن ذبح البهائم لإبلام لها وما صب عليها من أنواع العذاب من جهة الآدميين لم يتقدمها جريمة * فإن قيل : إن الله تعالى يحشرها ويجازيها على قدر ما قاسته من الآلام ويجب ذلك على الله سبحانه ؟ فقول : من زعم أنه يجب على الله لإحياء كل نملة وطئت وكل بقعة عرقت حتى يثيبها على آلامها فقد خرج عن الشرع والعقل ؛ إذ يقال وصف الثواب والحشر بكونه واجباً عليه إن كان المراد به أن يتضرر بتركه فهو محال ، وإن أريد به غيره فقد سبق أنه غير مفهوم إذ خرج عن المعاني المدكورة للواجب (الأصل السابع) أنه تعالى يفعل بعباده ما يشاء فلا يجب عليه رعاية الأصلح لعباده لما ذكرناه من أنه لا يجب عليه سبحانه شيء بل لا يعقل في حقه الوجوب فإنه ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ وليت شعري بما يجيب المعتزلى في قوله « إن الأصلح واجب عليه ، في مسألة نعرضها عليه : وهو أن يفرض مناظرة في الآخرة بين صبي وبين بالغ مائتا مسلمين فإن الله سبحانه يزيد في درجات البالغ ويفضله على الصبي لأنه تعب بالإيمان والطاعات بعد البلوغ ، ويجب عليه ذلك - عند المعتزلى - فلو قال الصبي : يارب لم رفعت منزلته على فيقول : لأنه بلغ واحتهد في الطاعات ، ويقول الصبي : أنت أمتي في الصبا فكان يجب عليك أن تديم حياتي حتى أبلغ فأجتهد « فقد عدت عن العدل في التفضل عليه بطول العمر له دوني فلم فضلته ؟ فيقول الله تعالى : لأنى علمت أنك لو بلغت لأشركت أو عصيت فكان الأصلح لك الموت في الصبا - هذا عذر المعتزلى عن الله عز وجل - وعند هذا يبادى الكفار من دركات لظى ويقولون : يارب أما علمت أننا إذا بلغنا أشركنا فهلا أمتنا في الصبا فإننا رضينا بما دون منزلة الصبي المسلم ؟ فبماذا يجاب عن ذلك وهل يجب عند هذا إلا القطع بأن الأمور الإلهية تتعالى بحكم الجلال عن أن توزن بميزان أهل الاعتزال ؟ * فإن قيل : مهما قدر على رعاية الأصلح للعباد ثم سلط عليهم أسباب العذاب كان ذلك قبحاً لا يليق بالحكمة ؟ قلنا : القبح ما لا يوافق الغرض حتى إنه قد يكون الشيء قبيحاً عند شخص حسناً عند غيره إذا وافق غرض أحد همدادون الآخر حتى يستقبح قتل الشخص أو لياؤه ويستحسنه أعداؤه . فإن أريد بالقبيح ما لا يوافق غرض البارئ سبحانه فهو محال إذ لا غرض له فلا يتصور منه قبح كما لا يتصور منه ظلم إذ لا يتصور منه التصرف في ملك الغير . وإن أريد بالقبيح ما لا يوافق غرض الغير فلم قلتم إن ذلك عليه محال ؟ وهل هذا إلا مجرد تشبه يشهد بخلافه ما قد فرضناه من مخاصمة أهل النار ؟ ثم الحكيم معناه العالم بحقائق الأشياء القادر على إحكام فعلها على وفق إرادته وهذا من أين يوجب رعاية

الأصلح؟ وأما الحكيم منا يراعى الأصلح نظرا لنفسه ليستفيد به في الدنيا ثناء وفي الآخرة ثوابا أو يدفع به عن نفسه آفة . وكل ذلك محال على الله سبحانه وتعالى (الأصل الثامن) أن محرفة الله سبحانه وطاعته واجبة بإيجاب الله تعالى وشرعه لا بالعقل - خلافا للمعتزلة - لأن العقل وإن أوجب الطاعة ولا يخلو إما أن يوجبها لغير فائدة وهو محال فإن العقل لا يوجب العيب ، وإما أن يوجبها لفائدة وغرض وذلك لا يخلو إما أن يرجع إلى المعبود وذلك محال في حقه تعالى فإنه يتقدس عن الأعراض والفوائد بل الكفر ، والإيمان والطاعة والعصيان في حقه تعالى سيان ، وإما أن يرجع ذلك إلى عرض العبد وهو أيضا محال لأنه لا غرض له في الحال بل يتعب به وينصرف عن الشهوات لسببه وليس في المال إلا الثواب والعقاب . ومن أين يعلم أن الله تعالى يثيب على المعصية والطاعة ولا يعاقب عليهما مع أن الطاعة والمعصية في حقه يتساويان ، إذ ليس له إلى أحدهما ميل ولا به لأحدهما اختصاص وإنما عرف تمييز ذلك بالشرع ، ولقد زل من أخذ هذا من المقايضة بين الحالم والحلوق حيث يفرق بين الشكر والكفران لما له من الارتياح والاهتزاز والتلذذ بأحدهما دون الآخر * فان قيل : فإذا لم يجب النظر والمعرفة إلا بالشرع والشرع لا يستقر مالم ينظر المكلف فيه ؛ فإذا قال المكلف للنبي : إن العقل ليس يوجب على النظر والشرع لا يثبت عندي إلا بالنظر ولست أقدم على النظر ، أدى ذلك إلى إلحاح الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ قلنا : هذا يضاهي قول القائل للواقف في موضع من المواضع إن وراءك سبعا ضاريا فإن لم تبرح عن المكان قتلك وإن التفت وراءك ونظرت عرفت صدق ، فيقول الواقف لا يثبت صدقك مالم ألتفت ورأى ولا ألتفت ورأى ، ولا أنظر ما لم يثبت صدقك ؛ فيدل هذا على حماقة هذا القائل وتهدفه للهلاك ولا ضرر فيه على الهادي المرشد ؛ فكذلك النبي صلى الله عليه وسلم يقول : إن وراءكم الموت ودونه السباع الضارية والنيران المحرقة إن لم تأخذوا منها حذركم وتعرفوا لي صدق بالالتفات إلى معجزتي وإلا هلكتم ، فمن التفت عرف واحترز ونجا ومن لم يلتفت وأصر هلك وتردى ولا ضرر على إن هلك الناس كلهم أجمعون ، وإنما على البلاغ المبين ، فالشرع يعرف وجود السباع الضارية بعد الموت . والعقل يفدبهم كلامه والإحاطة بإمكان ما يقوله في المستقبل والطبع يستحث على الحذر من الضرر ، ومعنى كون الشيء واجبا أن في تركه ضررا ، ومعنى كون الشرع موجبا أنه معرف للضرر المتوقع فإن العقل لا يهدى إلى التهدؤ للضرر بعد الموت عند اتباع الشهوات ، فهذا معنى الشرع والعقل وتأثيرهما في تقدير الواجب ، ولولا خوف العقاب على ترك ما أمر به لم يكن الوجوب ثابتا ، إذ لا معنى للواجب إلا ما يرتبط بتركه ضرر في الآخرة (الأصل التاسع) أنه ليس يستحيل نعتة الأنبياء عليهم السلام - خلافا للبراهمة - حيث قالوا : لا فائدة في بعثهم إذ في العقل مندوحة عنهم لأن العقل لا يهدى إلى الأفعال المنجية في الآخرة كما لا يهدى إلى الأدوية المفيدة للصحة ، فحاشا الخلق إلى الأنبياء كحاجتهم إلى الأطباء ولكن يعرف صدق الطبيب بالتجربة ويعرف صدق النبي بالمعجزة . (الأصل العاشر) أن الله سبحانه قد أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم خاتما للنبيين وناسخا لما قبله من شرائع اليهود والنصارى والصابئين ؟ وأيده بالمعجزات الظاهرة والآيات الباهرة كانشقاق القمر ^(١) وتسييح الحمى ^(٢) وإنطاق العجاء ^(٣) وما تفجر من بين أصابعه من الماء . ومن آياته الظاهرة التي تحدى بها - مع كافة العرب - القرآن العظيم

(١) حديث : انشقاق القمر ؛ متفق عليه من حديث أنس وابن مسعود وابن عباس (٢) حديث « تسييح الحمى » أخرجه البيهقي في دلائل النبوة من حديث أنس بن مالك بن أبي الأخضر ليس بالحافظ والمخفوط رواية رجل من بني سليم لم يسم عن أنس بن مالك (٣) حديث : إنطاق العجاء ، أخرجه أحمد والبيهقي بإسناد صحيح من حديث يعلى بن مرة في الأمير الذي شكك إلى النبي صلى الله عليه وسلم أهله . وقد ورد في كلام الضب والذهب والجمرة أحاديث رواها البيهقي في الدلائل

فانهم مع تمييزهم بالفصاحة والبلاغة تهدفوا اسمه وهيبه وقتله وإخراجه - كما أخبر الله عز وجل - عنهم ولم يفتروا على معارضته بمثل القرآن ، إذ لم يكن في قدرة البشر الجمع بين حزالة القرآن ونظمه ، هذا مع ما به من أخبار الأولين مع كونه أميا غير مارس للكتب والإنباء عن الغيب في أمور تحقق صدقه فيها في الاستقبال كقوله تعالى ﴿ لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين ﴾ وكقوله ﴿ ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفعلون فيضع سنين ﴾ ووجه دلالة المعجزة على صدق الرسل أن كل ما عجز عنه البشر لم يسكن إلا فعلا لله تعالى . فهما كان مقروبا بتحدى النبي صلى الله عليه وسلم ينزل منزلة قوله « صدقت ، وذلك مثل القائل بين يدي الملك المدعى على رعيته أنه رسول الملك إليهم فانه مهما قال لذلك إن كنت صادقا فقم على سررك ثلاثا واقعد - على خلاف عادتك - ففعل الملك ذلك حصل للحاضرين علم ضروري بأن ذلك نازل منزلة قوله « صدقت ،

الركن الرابع في السمعيات وتصديقه صلى الله عليه وسلم فيما أخبر عنه

ومداره على عشرة أصول

(الأصل الأول) الحشر والنشر^(١) وقد ورد بهما الشرع وهو حق والتصديق هما واجب لأنه في العقل ممكن ؛ ومعناه الإعادة بعد الإفاء وذلك مقدور لله تعالى كابتداء الإنشاء قال الله تعالى (قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة) فاستدل بالابتداء على الإعادة وقال عز وجل (ما خلقكم ولا نعشكم إلا كنفس واحدة) والإعادة ابتداء ثان فهو ممكن كالابتداء الأول (الأصل الثاني) سؤال منكر ونكير^(٢) وقد وردت به الأحاديث فيجب التصديق به لأنه ممكن إذ ليس يستدعى إلا إعادة الحياة إلى جزء من الأجزاء الذي به مهم الحطاب وذلك ممكن في نفسه ولا يدفع ذلك ما يساهد من سكون أجزاء الميت وعدم سماعنا للسؤال له ، فان الباطن ساكن نطاهره ويدرك باطنه من الآلام واللذات ما يحس بتأثيره عند المنبه ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع كلام جبريل عليه السلام ويشاهده ومن حوله لا يسمعون ولا يرونه^(٣) ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء فإذا لم يخلق لهم السمع والرؤية لم يدركوه (الأصل الثالث) عذاب القبر وقد ورد الشرع به قال الله تعالى ﴿ النار يعرصون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ واشتهر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح الاستعاذ من عذاب القبر^(٤) وهو ممكن فيجب التصديق به ولا يمنع من التصديق به تفرق أجزاء الميت في بطون الساع وحواصل الطيور ، فان المدرك لألم العذاب من الحيوان أجزاء مخصوصة يقدر الله تعالى على إعادة الإدراك إليها (الأصل الرابع) الميراث وهو حق قال الله تعالى ﴿ ونضع المواز القسط ليوم القيامة ﴾ وقال تعالى (من ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه الآية ووجهها أن الله تعالى يحدث في صحائف الأعمال وزنا بحسب درجات الأعمال عند الله تعالى فتصير مقادير أعمال العباد معلومة

(١) حديث الحشر والنشر ، أخرجه الشيخان من حديث اس عاص « إنكم لمحشورون إلى الله .. الحديث » ومن حديث سهل « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء .. الحديث » ومن حديث عائشة « يحشرون يوم القيامة حفاة » ومن حديث أبي هريرة « يحشر الناس على ثلاث طرائق .. الحديث » وابن ماجه من حديث ميمونة مولاة النبي صلى الله عليه وسلم « أفننا في بيت المقدس وأرض المحشر والمنشر . الحديث » وإسائه حيد (٢) حديث : سؤال منكر ونكير ، تقدم

(٣) حديث « كان يسمع كلام جبريل ويأهده ومن حوله لا يسمعون ولا يرونه » أخرجه البخاري ومسلم من حديث عائشة قالت « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما يا عائشة هذا جبريل يقرئك السلام فاعلمت عليه ورحمة الله وبركاته ترى ما لا أرى » قالت وهذا هو الأعلم ولما قد رأى جبريل جماعة من الصحابة معهم عمر وابنه عبد الله وكعب بن مالك وغيرهم .

(٤) حديث « إسماء من عذاب القبر » أخرجاه من حديث أبي هريرة وعائمه وقد تقدم

العباد حتى يظهر لهم العدل في العقاب أو الفضل في العفو وتضعيف الثواب (الأصل الخامس) الصراط وهو جسر محدود على متن جهنم أرق من الشعرة وأحد من السيف قال الله تعالى ﴿ فامدوهم إلى صراط الجحيم وقصوهم إنهم مشرولون ﴾ وهذا يمكن فيجب التصديق به فإن القادر على أن يطير الطير في الهواء قادر على أن يسير الإنسان على الصراط (الأصل السادس) أن الخنة والنار مخلوقتان قال الله تعالى ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴾ فقوله تعالى ﴿ أعدت ﴾ دليل على أنها مخلوقة فيجب إجراؤه على الظاهر إذ لا استحالة فيه ، ولا يقال لافائدة في خلقه قبل يوم الجزاء لأن الله تعالى ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ (الأصل السابع) أن الإمام الحق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم ولم يكن نص رسول الله صلى الله عليه وسلم على إمام أصلا ؛ إذ لو كان لكان أولى بالظهور من نصبه أحاد الولاة والأمراء على الجند في البلاد ولم يخف ذلك فكيف حتى هذا ؟ وإن ظهر فكيف اندرس حتى لم ينقل إلينا ؟ فلم يكن أبو بكر إماما إلا بالاختيار والبيعة وأما تقدير النص على غيره فهو نسبة للصحابة كلهم إلى مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرق الإجماع ، وذلك مما لا يستجري على اختراعه إلا الروافض ، واعتاد أهل السنة تركية جميع الصحابة والثناء عليهم كما أثنى الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم . وما جرى بين معاوية وعلي رضي الله عنهما كان مبنيا على الاجتهاد لامنازعة من معاوية في الإمامة ؛ إذ ظن على رضي الله عنه أن تسليم قتلة عثمان مع كثرة عشائهم واحتلالهم بالعسكر يؤدي إلى اضطراب أمر الإمامة في بدايتها فرأى التأخير أصوب ، وظن معاوية أن تأخير أمرهم مع علم جنائيتهم يوجب الإغراء بالأئمة ويعرض الدماء للسفك . وقد قال أفاضل العلماء : كل مجتهد مصيب . وقال قائلون : المصيب واحد ولم يذهب إلى تخطئة على ذو تحصيل أصلا (الأصل الثامن) أن فضل الصحابة رضي الله عنهم على ترتيبهم في الخلافة إذ حقيقة الفضل ما هو فضل عند الله عز وجل وذلك لا يطلع عليه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد ورد في الثناء على جميعهم آيات وأخبار كثيرة (١) وإنما يدرك دقائق الفضل والترتيب فيه المشاهدون للوحى والتنزيل بقرائن الأحوال ودقائق التفصيل ، فلولا فهمهم ذلك لما رتبوا الأمر كذلك إذ كانوا لا تأخذهم في الله لومة لائم ولا يصرفهم عن الحق صارف . (الأصل التاسع) أن شرائط الإمامة بعد الإسلام والتكليف خمسة : الذكورة والورع والعلم والكفاية ونسبة قريش ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم « الأئمة من قريش » (٢) ، وإذا اجتمع عدد من الموصوفين بهذه الصفات فالإمام من انعقدت له البيعة من أكثر الخلق ، والمخالف الأكثر باغ يجب رده إلى الانقياد إلى الحق (الأصل العاشر) أنه لو تعذر وجود الورع والعلم فيمن يتصدى للإمامة وكان في صرفه إثارة فتنة لا تطاق حكما بانعقاد إمامته ، لانا بين أن نحرك فتنة بالاستبدال ، فما يلقي المسلمون فيه من الضرر يزيد على ما يفوتهم من نقصان هذه الشروط التي أثبتت لمزية المصلحة فلا يهدم أصل المصلحة شعفا بمزاياها كالذى يبني قصرا ويهدم مصرا وبين أن نحكم بخلق البلاد عن الإمام وبفساد الأفضية وذلك محال . ونحن نقضى بنفوذ قضاء أهل البغي في بلادهم لمسيس حاجتهم فكيف لا نقضى بصحة الإمامة عند الحاجة والضرورة ؟ فهذه الأركان الأربعة الحاوية للأصول الأربعين هي قواعد العقائد فمن اعتقدها كان موافقا لأهل السنة ومباينا لهط البدعة . فأنه تعالى يستدنا بتوفيقه ويهدينا إلى الحق وتحقيقه بمنه وسعة جوده وفضله ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وكل عبد مصطفي .

(١) حديث « الثناء على الصحابة » تقدم (٢) حديث « الأئمة من قريش » أخرجه النسائي من حديث أنس والمالك

الفصل الرابع من قواعد العقائد

في الإيمان والإسلام وما بينهما من الاتصال وما يتطرق إليه من الزيادة والنقصان

ووجه استثناء السلف فيه وفيه ثلاث مسائل

(مسألة) اختلفوا في أن الإسلام هو الإيمان أو غيره وإن كان غيره فهل هو منفصل عنه يوحد دونه أو مرتبط به يلازمه؟ فقيل إنهما شيء واحد وقيل إنهما شيان لا يتواصلان وقيل إلهما شيان ولكن يرتبط أحدهما بالآخر. وقد أورد أبو طالب المكي في هذا كلاما شديدا الاضطراب كثير التطويل فلنجهج الآن على التصريح بالحق من غير تعريج على نقل ما لا تحصيل له، فنقول في هذا ثلاثة مباحث: بحث عن موجب اللفظين في اللغة، وبحث عن المراد بهما في إطلاق الشرع، وبحث عن حكمهما في الدنيا والآخرة، والبحث الأول لغوي، والثاني تفسيري، والثالث فقهي شرعي. المبحث الأول: في موجب اللغة؛ والحق فيه أن الإيمان عبارة عن التصديق؛ قال الله تعالى ﴿وما أنت بمؤمن لنا﴾ أي؛ بمصدق، والإسلام عبارة عن التسليم والاستسلام بالإذعان والانقياد وترك التمرد والإباء والعناد، وللتصديق محل خاص وهو القلب، واللسان ترحمان. وأما التسليم فإنه عام في القلب واللسان والحوارج فإن كل تصديق بالقلب فهو تسليم وترك الإباء والجحود وكذلك الاعتراف باللسان وكذلك الطاعة والانقياد بالحوارج. فوجب اللغة أن الإسلام أعم والإيمان أخص فكان الإيمان عبارة عن أشرف أجزاء الإسلام؛ فإذا كل تصديق تسليم وليس كل تسليم تصديقا؛ البحث الثاني: عن إطلاق الشرع؛ والحق فيه أن الشرع قد ورد باستعمالها على سبيل الترادف والتوارد وورد على سبيل الاختلاف وورد على سبيل التداخل، أما الترادف ففي قوله تعالى (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) ولم يكن بالاتفاق إلا بيت واحد وقال تعالى (يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) وقال صلى الله عليه وسلم « بي الإسلام على خمس ^(١) » وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة عن الإيمان فأجاب بهذه الخمس ^(٢) وأما الاختلاف فقوله تعالى (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) ومعناه استسلمنا في الطاهر، فأراد بالإيمان ههنا التصديق بالقلب وبالإسلام الاستسلام طاهراً باللسان والحوارج، وفي حديث حبرائيل عليه السلام لما سأله عن الإيمان فقال « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالبعث بعد الموت وبالْحساب وبالقدر خيره وشره، فقال: فما الإسلام؟ فأجاب بذلك الخصال الخمس ^(٣) » فعبر بالإسلام عن تسليم الظاهر بالقول والعمل. وفي الحديث عن سعد أنه صلى الله عليه وسلم « أعطى رجلا عطاء ولم يعط الآخر؛ فقال له سعد: يا رسول الله تركت فلانا لم تعطه وهو مؤمن؟ فقال صلى الله عليه وسلم أو مسلم فأعاد عليه فأعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٤) » وأما التداخل فما روى أيضا أنه

(١) حديث « بي الإسلام على خمس » أخرجه من حديث ابن عمر (٢) حديث « سئل عن الإيمان فأجاب بهذه الخمس أخرجه البيهقي في الاعتقاد من حديث ابن عباس في قصة وفد عبد القيس « يدرون ما الإيمان: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأن تهيدوا الصلاة وتؤتوا الزكاة وتصوموا رمضان وتحجوا البيت الحرام » والحديث في الصحيحين لكن ليس فيه ذكر الحج وزاد « وأن تؤتوا حسبا من المنعم » (٣) حديث حبريل لما سأله عن الإيمان « فقال أن تؤمن بالله وملائكته .. الحديث » أخرجه من حديث أبي هريرة ومسلم من حديث عمر دون ذكر « الحساب » برواه البيهقي في البحث وقد تقدم (٤) حديث سعد « أعطى رجلا عطاء ولم يعط الآخر فقال له سعد يا رسول الله تركت فلانا لم تعطه وهو مؤمن فقال أو مسلم. الحديث » أخرجه بحوه

سئل « فقيل أى الأعمال أفضل ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : الإسلام ، فقال : أى الإسلام أفضل ، فقال صلى الله عليه وسلم : الإيمان ^(١) ، وهذا دليل على الاختلاف وعلى التداخل وهو أوفق الاستعمالات فى اللغة لأن الإيمان عمل من الأعمال وهو أفضلها ، والإسلام هو تسليم إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح وأفضلها الذى بالقلب وهو التصديق الذى يسمى لإيماننا والاستعمال لها على سبيل الاحتلاف وعلى سبيل التداخل وعلى سبيل الترادف كله غير خارج عن طريق التجوز فى اللغة . أما الاحتلاف فهو أن يجعل الإيمان عبارة عن التصديق بالقلب فقط وهو موافق للغة ، والإسلام عبارة عن التسليم ظاهراً وهو أيضاً موافق للغة فإن التسليم ببعض محال التسليم ينطلق عليه اسم التسليم ، فليس من شرط حصول الاسم عموم المعنى لكل محل يمكن أن يوجد المعنى فيه فإن من لمس غيره ببعض بدنه يسمى لامسا وإن لم يستخرق جميع بدنه ، فإطلاق اسم الإسلام على التسليم الظاهر عند عدم تسليم الباطن مطابق للسان وعلى هذا الوجه جرى قوله تعالى ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ﴾ وقوله صلى الله عليه وسلم فى حديث سعد « أو مسلم » لأنه فضل أحدهما على الآخر ، ويريد بالاحتلاف تفاضل المسميين . وأما التداخل موافق أيضاً للغة فى حصول الإيمان وهو أن يجعل الإسلام عبارة عن التسليم بالقلب والقول والعمل جميعاً ، والإيمان عبارة عن بعض ما دخل فى الإسلام وهو التصديق بالقلب وهو الذى عنينا به بالتداخل وهو موافق للغة فى حصول الإيمان وعموم الإسلام للكل ، وعلى هذا خرج قوله « الإيمان » فى جواب قول السائل « أى الإسلام أفضل » لأنه جعل الإيمان خصوصاً من الإسلام وأدخله فيه ، وأما استعماله فيه على سبيل الترادف بأن يجعل الإسلام عبارة عن التسليم بالقلب والظاهر جميعاً فإن كل ذلك تسليم وكذا الإيمان ويكون التصرف فى الإيمان على الخصوص بتعميمه وإدخال الظاهر فى معناه وهو جائز لأن تسليم الظاهر بالقول والعمل ثمرة تصديق الباطن ونتيجته ، وقد يطلق اسم الشجر ويراد به الشجر مع ثمره على سبيل التسامح فيصير بهذا القدر من التعميم مرادفاً لاسم الإسلام ومطابقاً له فلا يزيد عليه ولا ينقص ؛ وعنه خرج قوله ﴿ فما وحدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾ البحث الثالث : عن الحكم الشرعى . والإسلام والإيمان حكمان أحروى وديوى . أما الأخرى فهو الإخراج من النار ومنع التخليد إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ^(٢) » وقد اختلفوا فى أن هذا الحكم على ماذا يترتب ؟ وعبروا عنه بأن الإيمان ماذا هو ؟ فمن قائل إنه مجرد العقد ومن قائل يقول إنه عقد بالقلب وشهادة باللسان ومن قائل يزيد ثالثاً وهو العمل بالأركان ، ونحن نكشف الغطاء عنه ونقول من جمع بين هذه الثلاثة فلا خلاف فى أن مستقره الجنة وهذه درجة . الدرجة الثانية : أن يوجد ائمان وبعض الثالث - وهو القول والعقد وبعض الأعمال - ولكن ارتكب صاحبه كبيرة أو بعض الكبائر : فعمد هذا قالت المعتزلة : خرج بهذا عن الإيمان ولم يدخل فى الكفر بل اسمه فاسق وهو على منزلة بين المنزلتين وهو مخلد فى النار ؛ وهذا باطل كما سند كره الدرجة الثالثة : أن يوجد التصديق بالقلب والشهادة باللسان دون الأعمال بالجوارح ، وقد

(١) حديث « سئل أى الأعمال أفضل فقال الإسلام فقال أى الإسلام أفضل فقال الإيمان » أخرجه أحمد والطبراني من حديث عمرو بن عبسة بالنظر الأخير « فقال يا رسول الله أى الإسلام أفضل قال الإيمان » وإسناده صحيح
(٢) حديث « يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان » أخرجه من حديث أبي سعيد الخدرى فى الجماعة ، وفيه « أذهبوا من وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه . الحديث » ولهما من حديث أسس « يقال اطلق فأخرج منها من كان فى قلبه مثقال ذرة - أو حردلة - من إيمان » لفظ البخارى « منهما » وله تعاقب من حديث أسس « يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفى قلبه وزن ذرة من إيمان » وهو عندهما متصل بلفظ « خير » مكان « إيمان »

اختلفوا في حكمه ، فقال أبو طالب المسكي : العمل بالجوارح من الإيمان ولا يتم دونه وادعى الإجماع فيه واستدل بأدلة تشعر بنقيض غرضه كقوله تعالى ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ إذ هذا يدل على أن العمل وراء الإيمان لا من نفس الإيمان وإلا فيكون العمل في حكم المعاد ؟ والعجب أنه ادعى الإجماع في هذا وهو مع ذلك ينقل قوله صلى الله عليه وسلم « لا يكفر أحد إلا بعد جحوده لما أقر به ^(١) ، وينكر على المعتزلة فوهمم بالتخليد في النار بسبب الكبائر ؛ والقائل بهذا قائل بنفس مذهب المعتزلة ؛ إذ يقال له من صدق بقلبه وشهد بلسانه ومات في الحال فهل هو في الجنة ؟ فلا بد أن يقول نعم ، وفيه حكم بوجود الإيمان دون العمل ، فزيد ونفول لويقي حيا حتى دخل عليه وقت صلاة واحدة فتركها ثم مات أوزني ثم مات ، فهل يخلد في النار ؟ فإن قال نعم فهو مراد المعتزلة ، وإن قال لا فهو تصریح بأن العمل ليس ركنا من نفس الإيمان ولا شرطا في وجوده ولا في استحقات الجنة به ، وإن قال أردت به أن يعيش مدة طويلة ولا يصلى ولا يقدم على شيء من الأعمال الشرعية ، فنقول فما ضبطت تلك المدة وما عددت تلك الطاعات التي بتركها يبطل الإيمان وما عددت الكبائر التي بارتكابها يبطل الإيمان ؟ وهذا لا يمكن التحكم بتقديره ولم يصبر إليه صائر أصلا . الدرجة الرابعة : أن يوجد التصديق بالقلب قبل أن ينطق باللسان أو يشتغل بالأعمال ومات فهل نقول مات مؤمنا بينه وبين الله تعالى : وهذا مما اختلف فيه ومن شرط القول لتتام الإيمان يقول هذا مات قبل الإيمان وهو فاسد إذ قال صلى الله عليه وسلم « يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان ، وهذا قلبه طافح بالإيمان فكيف يخلد في النار ؟ ولم يشترط في حديث جبريل عليه السلام للإيمان إلا التصديق بالله تعالى رملائكته وكتبه واليوم الآخر كما سبق . الدرجة الخامسة : أن يصدق بالقلب ويساعده من العمر مهلة الطق بكلمى الشهادة وعلم وحوها ولكنه لم ينطق بها فيحتمل أن يجعل امتناعه عن الطق كامتناعه عن الصلاة ، ونقول هو مؤمن غير يخلد في النار ، والإيمان هو التصديق المحض واللسان ترجمان الإيمان فلا بد أن يكون الإيمان موجودا بتمامه قبل اللسان حتى يترجمه اللسان وهذا هو الأظهر ؛ إذ لا مستند إلا اتباع موجب الألفاظ ووضع اللسان أن الإيمان هو عبارة عن التصديق بالقلب . وقد قال صلى الله عليه وسلم « يخرج من كان في قلبه مثقال ذرة ، ولا ينعدم الإيمان من القلب بالسكوت عن النطق الواجب كما لا ينعدم بالسكوت عن الفعل الواجب ، وقال قائلون : القول ركن إذ ليس كلنا الشهادة إخبارا عن القلب بل هو إنشاء عقد آخر وابتداء شهادة والتزام والأول أظهر ، وقد غلاني هذا طائفة المرجئة فقالوا هذا لا يدخل النار أصلا وقالوا إن المؤمن وإن عصى فلا يدخل النار وسنبطل ذلك عليهم . الدرجة السادسة أن يقول بلسانه « لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ولكن لم يصدق بقلبه فلا نشك في أن هذا في حكم الآخرة من الكفار وأنه يخلد في النار ، ولا نشك في أنه في حكم الدنيا الذي يتعلق بالأئمة والولاية من المسلمين لأن قلبه لا يطلع عليه ، وعلينا أن نظن به أنه ما قاله بلسانه إلا وهو منطوق عليه في قلبه وإنما نشك في أمر ثالث وهو الحكم الدنيوي فيما بينه وبين الله تعالى ، وذلك ما يموت له في الحال قريب مسلم ثم يصدق بعد ذلك بقلبه ثم يستفتى ويقول كنت غير مصدق بالقلب حالة الموت والميراث الآن في يدي فهل يحل لي بيني وبين الله تعالى ؟ أو نكح مسلمة ثم صدق بقلبه هل تلتزمه إعادة النكاح ؟ هذا محل نظر فيحتمل أن يقال أحكام الدنيا منوطة بالقول الظاهر ظاهرا وباطنا ويحتمل أن يقال تناط بالظاهر في حق غيره لأن ناطقه غير ظاهر لغيره وباطنه ظاهر له في نفسه بينه وبين الله تعالى ، والأظهر والعلم عند الله

(١) حديث « لا تكفروا أحدا إلا بمجرد ما أقر به » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد « لن يخرج أحد من الإيمان إلا بمجرد ما دخل فيه ، وإسناده صحيح

تعالى أنه لا يحل له ذلك الميراث ويلزمه إعادة النكاح ولذلك كان حذيفة رضى الله عنه لا يحضر جنازة من يموت من المنافقين وعمر رضى الله عنه كان يراعى ذلك منه فلا يحضر إذا لم يحضر حذيفة رضى الله عنه، والصلاة فعل ظاهر فى الدنيا وإن كانت من العبادات . والتوقى عن الحرام أيضا من جملة ما يحب لله كالصلاة لقوله صلى الله عليه وسلم « طلب الحلال فريضة بعد فريضة » وليس هداما نقضاً لقولنا إن الإرث حكم الإسلام وهو الاستسلام بل الاستسلام التام هو ما يشمل الظاهر والباطن ، وهذه مباحث فقهية ظنية تنبى على طواهر الألفاظ والعمومات والأقيسة فلا ينبغي أن يطن القاصر فى العلوم أن المطلوب فيه القطع من حيث حرت العادة بإيراده فى فن الكلام الذى يطلب فيه القطع فما أولوج من نظر إلى العادات والمراسم فى العلوم ؟ فإن قلت : فما شبهة المعتزلة والمرجئة وما حجة بطلان قولهم ؟ فأقول شبهتهم عمومات القرآن ؛ أما المرجئة فقالوا لا يدخل المؤمن النار وإن أتى بكل المعاصى لقوله عز وحل (فمن يؤمن بربه فلا يخاف بجمسا ولا رهقا) ولقوله سبحانه وتعالى (والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصديقون) الآية ولقوله تعالى (كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها - إلى قوله - فكذبنا وقلنا مانزل الله من شيء) فقوله (كلما ألقى فيها فوج) عام فينبغى أن يكون من ألقى فى النار مكذبا ولقوله تعالى (لا يصلها إلا الأشقى الذى كذب وتولى) وهذا حصر وإثبات ونبي ولقوله تعالى (من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون) فالإيمان رأس الحسنة ولقوله تعالى (والله يحب المحسنين) وقال تعالى (إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا) ولا حجة لهم فى ذلك فإنه حبت ذكر الإيمان فى هذه الآيات أريد به الإيمان مع العمل إذ يبيى أن الإيمان قد يطلق ويراد به الإسلام وهو الموافقة بالقلب والقول والعملى ، ودليل هذا التأويل أحبار كثيره فى معاقبة العاصين ومقادير العقاب وقوله صلى الله عليه وسلم « يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان » فكيف يخرج إذا لم يدخل ؟ ومن القرآن قوله تعالى (إن الله لا يعفر أن يشرك به ويفر ما دون ذلك لمن يشاء) والاستثناء بالمشيئة تدل على الاتساع وقوله تعالى (ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها) وتخصيصه بالكفر تحكم وقوله تعالى (ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم) وقال تعالى (ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار) وهذه العمومات فى معارضة عموماتهم ولا بد من تسليط التخصص والتأويل على الحائنين لأن الأخبار مصرحة بأن العصاة يعدبون^(١) بل قوله تعالى (وإن منكم إلا واردها) كالصريح فى أن ذلك لا بد منه للكل إذ لا يخلو مؤمن عن ذنب يرتكبه وقوله تعالى (لا يصلها إلا الأشقى الذى كذب وتولى) أراد به من جماعة مخصوصين أو أراد بالأشقى شخصا معينا أيضا وقوله تعالى (كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها) أى فوج من الكفار، وتخصيص العمومات قريب . ومن هذه الآيات وقع الأئمة ورطافة من المتكلمين إنكار صيغ العموم وأن هذه الألفاظ يتوقف فيها إلى ظهور فرينة تدل على معناها . وأما المعتزلة فسببهم قوله تعالى (وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) وقوله تعالى (والعصر إن الإنسان لبق خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وقوله تعالى (وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا) ثم قال (ثم تنجى الذين اتقوا) وقوله تعالى (ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم) وكل آية ذكر الله عز وجل العمل الصالح فيها مقرونا بالإيمان وقوله تعالى (ومن يقتل مؤمنا متعمدا جزاءه جهنم حالدا فيها) وهذه العمومات أيضا مخصوصة بدليل قوله تعالى

(١) حديث : تعذيب العصاة . أخرجه البخارى من حديث أس « يصبى أقواما سبع من النار بدون أسابوها الحديث » ويأتى فى ذكر الموت عدة أحاديث

(ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) فينبغي فينبغي أن تبقى له مشيئة في معفرة ماسوى الشرك . وكذلك قوله عليه السلام « يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، وقوله تعالى (لنا لانضيق أجر من أحسن عملا) وقوله تعالى (إن الله لا يضيع أجر المحسنين) فكيف يضيع أجر أصل الإيمان وجميع الطاعات بمعصية واحدة ؟ وقوله تعالى (ومن يقتل مؤمنا متعمدا) أى لإيمانه وقد ورد على مثل هذا السبب « فإن قلت : فقد مال الاختيار إلى أن الإيمان حاصل دون العمل . وقد اشتهر عن السلف قولهم : الإيمان عقد وقول وعمل ؛ فما معناه ؟ قلنا . لا يبعد أن يعد العمل من الإيمان لأنه مكمل له ومتمم كما يقال الرأس واليدان من الإنسان ومعلوم أنه يخرج عن كونه إنسانا بعدم الرأس ولا يخرج عنه بكونه مقطوع اليد وكذلك يقال التسيحات والتكبيرات من الصلاة وإن كانت لا تبطل بفقدانها فالتصديق بالقلب من الإيمان كالرأس من وحد الإنسان إذ ينعدم بعدهم وبقية الطاعات كالأطراف بعضها أعلى من بعض وقد قال صلى الله عليه وسلم « لا يرني الزاني حين يزني وهو مؤمن »^(١) ، والصحابة رضی الله عنهم ما اعتقدوا مذهب المعتزلة في الخروج عن الإيمان بالزنا ولكن معناه غير مؤمن حقا لإيماننا تماما كاملا كما يقال للعاجز المقطوع الأطراف هذا ليس بإنسان أى ليس له السكال الذى هو وراه حقيقة الإنسانية

(مسألة) فإن قلت : فقد اتفق السلف على أن الإيمان يزيد وينقص - يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية - فإذا كان التصديق هو الإيمان فلا يتصور فيه زيادة ولا نقصان ؟ فأقول : السلف هم الشهود العدول وما لاحد عن قولهم عدول فما ذكروه حق وإنما الشأن في فهمه ، وفيه داليل على أن العمل ليس من أجزاء الإيمان وأركان وجوده بل هو مزيد عليه يزيد به والزائد موجود والناقص موجود والشئ لا يزيد بذاته ، فلا يجوز أن يقال الإنسان يزيد برأسه بل يقال يزيد بلحيته وسمته ، ولا يجوز أن يقال الصلاة تزيد بالركوع والسجود بل تزيد بالأداب والسنن فهذا تصريح بأن الإيمان له وجود ثم بعد الوجود يختلف حاله بالزيادة والنقصان « فإن قلت : فلا إشكال قائم في أن التصديق كيف يزيد وينقص وهو خصلة واحدة ؟ فأقول : إذا تركنا المداهنة ولم نكثر بثغيب من تشعب وكشفنا الغطاء ارتفع الإشكال فنقول : الإيمان اسم مشترك يطلق من ثلاثة أوجه الأول : أنه يطلق للتصديق بالقلب على سبيل الاعتقاد والتقليد من غير كشف وانسراح صدر وهو إيمان العوام بل إيمان الخلق كلهم إلا الخواص ، وهذا الاعتقاد عقدة عن القلب تارة تشدد وتقوى وتارة تضيّف وتسترخي كالعقدة على الخيط مثلا . ولا تستبعد هذا واعتبره باليهودى وصلابته في عقيدته التي لا يمكن نزوعه عنها بتخويف وتحذير ولا بتخييل ووعظ ولتحقيق وبرهان وكذلك النصراني والمبتدعة وفيهم من يمكن تشكيكه بأدنى كلام ويمكن استنزاه عن اعتقاده بأدنى استمالة أو تخويف مع أنه غير شاك في عقده كالأول ولكنهما متفاوتان في شدة التصميم . وهذا موجود في الاعتقاد الحق أيضا والعمل يؤثر في نماء هذا التصميم وزيادته كما يؤثر سقى الماء في نماء الأشجار ولذلك قال الله تعالى (فزادتهم إيمانا) وقال تعالى (ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم) وقال صلى الله عليه وسلم فيما يروى في بعض الأخبار « الإيمان يزيد وينقص »^(٢) ، وذلك بتأثير الطاعات في القلب وهذا لا يدركه إلا من راقب أحوال نفسه في أوقات المواظبة على العبادة والتحرّد لها بحضور القلب مع أوقات الفتور وإدراك التفاوت في السكون إلى عقائد الإيمان في هذه الأحوال حتى يزيد عقده استعصاء على من يريد حله بالتشكيك بل من يعتقد في اليتيم معنى الرحمة إذا عمل بموجب اعتقاده فمسح رأسه وتلف به أدرك

(١) حديث « لا يرني الزاني حين يزني وهو مؤمن » متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٢) حديث « الإيمان يزيد وينقص » أخرجه ابن عدى في السكامل وأبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث أبي هريرة وقال ابن عدى باطل فيه محمد بن أحمد بن حرب الملحي يمتد الكذب وهو عند ابن ماجه موقوف على أبي هريرة وابن عباس وأبي الدرداء

من باطنه تأكيد الرحمة وتضاعفها بسبب العمل : وكذلك معتقد التواضع إذا عمل بموجبه عملاً مقبلاً أو ساجداً لغيره أحسن من قلبه بالتواضع عند إقدامه على الخدمة . وهكذا جميع صفات القلب تصدر منها أعمال الجوارح ثم يعود أثر الأعمال عليها فيؤكدها ويزيدها ، وسيأتي هذا في ربيع المنجيات والمهلكات عند بيان وجه تعلق الباطن بالظاهر والأعمال بالعقائد والقلوب فإن ذلك من جنس تعلق الملك بالملكوت وأعني بالملك عالم الشهادة المدرك بالحواس وبالملكوت عالم الغيب المدرك بنور البصيرة والقلب من عالم الملكوت والأعضاء وأعمالها من عالم الملك . ولطف الارتباط ودقته بين العالمين انتهى إلى حد ظن بعض الناس اتحاد أحدهما بالآخر وظن آخرون أنه لا عالم إلا عالم الشهادة وهو هذه الأجسام المحسوسة . ومن أدرك الأمرين وأدرك تعددهما ثم ارتباطهما عبر عنه فقال :

رق الزجاج ورق الخمر وتشابها فتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

ولنرجع إلى المقصود فإن هذا العلم خارج عن علم المعاملة ولكن بين العلمين أيضاً اتصال وارتباط فذلك ترى علوم المكاشفة تتسلق كل ساعة على علوم المعاملة إلى أن تتكشف عنها بالتسكين فهذا وجه زيادة الإيمان بالطاعة بموجب هذا الإطلاق ، ولهذا قال على كرم الله وجهه : إن الإيمان ليبدو لمعة بيضاء فإذا عمل العبد الصالحات نمت فرادت حتى يبيض القلب كله وإن النفاق ليبدو نكتة سوداء فإذا انتهك الحرامات نمت وزادت حتى يسود القلب كله فيطبع عليه فذلك هو الختم وتلا قوله تعالى (كلا بل ران على قلوبهم) الآية . الإطلاق الثاني : أن يراد به التصديق والعمل جميعاً كما قال صلى الله عليه وسلم « الإيمان بضع وسبعون باباً ^(١) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » ، وإذا دخل العمل في مقتضى لفظ الإيمان لم تخف زيادته ونقصانه وهل يؤثر ذلك في زيادة الإيمان الذي هو مجرد التصديق ؟ هذا فيه نظر وقد أشرنا إلى أنه يؤثر فيه . الإطلاق الثالث : أن يراد به التصديق اليقيني على سبيل الكنتف والنشراح الصدر والمشاهدة بنور البصيرة وهذا أبعد الأقسام عن قبول الزيادة ولكن أقول الأمر اليقيني الذي لا شك فيه يختلف طمأنينة النفس إليه فليس طمأنينة النفس إلى أن الاثنين أكثر من الواحد كطمأنينتها إلى أن العالم مصنوع حادث وإن كان لا شك في واحد منهما فإن اليقينيات تختلف في درجات الإيضاح ودرجات طمأنينة النفس إليها ، وقد تعرضنا لهذا في فصل اليقين من كتاب العلم في باب علامات علماء الآخرة فلا حاجة إلى الإعادة . وقد ظهر في جميع الإطلاقات أن ما قاله من زيادة الإيمان ونقصانه حق وكيف وفي الأخبار « أنه يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان » وفي بعض المواضع في خبر آخر « مثقال دينار ^(٢) » ، فأى معنى لاختلاف مقاديره إن كان ماني القلب لا يتفاوت ؟

(مسألة) فإن قلت : ما وجه قول السلف « أنا مؤمن إن شاء الله » والاستثناء شك والشك في الإيمان كفر وقد كانوا كلهم يمتنعون عن جزم الجواب بالإيمان ويحتجزون عنه . فقال سفيان الثوري رحمه الله ، من قال أنا مؤمن عند الله فهو من الكذابين ومن قال أنا مؤمن حقاً فهو بدعة ، فكيف يكون كاذباً وهو يعلم أنه مؤمن في نفسه ومن كان مؤمناً في نفسه كان مؤمناً عند الله ؟ كما أن من كان طويلًا وسخياً في نفسه وعلم ذلك كان كذلك عند الله وكذا من

(١) حديث « الإيمان بضع وسبعون باباً » وذكر بعد هذا فراد فيه « أدناها لماعة الأذى عن الطريق » أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة « الإيمان بضع وسبعون » زاد مسلم في رواية « وأصلها قول لا اله إلا الله وأدناها « صدقته ورواه بلفظ المصدر الترمذي وصححه . (٢) حديث « يخرج من النار من كان في قلبه مثقال دينار » متفق عليه من حديث أبي سعيد ، وسيأتي ذكر الموت وما بعده

كان مسرورا أو حزينا أو سميما أو بصيرا ، ولو قيل للإنسان هل أنت حيوان : لم يحسن أن يقول أنا حيوان إن شاء الله . ولما قال سفيان ذلك قيل له فاذا تقول ؟ قال : قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وأى فرق بين أن يقول آمنا بالله وما أنزل إلينا وبين أن يقول آمنا مؤمن ؟ وقيل للحسن : أمؤمن أنت ؟ فقال إن شاء الله ، فقيل له : لم تستثنى يا أبا سعيد في الإيمان ؟ فقال أخاف أن أقول نعم فيقول الله سبحانه كذبت يا حسن فتحق على الكلمة . وكان يقول : ما يؤمنني أن يكون الله سبحانه قد اطلع على في بعض ما يكره ففتنى وقال اذهب لا قبلت لك عملا ؛ فأنا أعمل في غير معمل . وقال إبراهيم بن آدم : إذا قيل لك أمؤمن أنت ؟ فقل لا إله إلا الله وقال مرة : قل أنا لا أشك في الإيمان وسؤالك إياي بدعة . وقيل لعلمة : أمؤمن أنت ؟ قال : أرجو إن شاء الله . وقال الثوري : نحن مؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله وما ندرى ما نحن عند الله تعالى ؟ فما معنى هذه الاستثناءات ؟ فالجواب : أن هذا الاستثناء صحيح وله أربعة أوجه ؛ وجهان مستندان إلى الشك لا في أصل الإيمان ولكن في غايته أو كاله ، وجهان لا يستندان إلى الشك ، الوجه الأول - الذي لا يستند إلى معارضة الشك : الاحتراز من الحزم خيفة ما فيه من تزكية النفس قال الله تعالى (فلا تزكوا أنفسكم) وقال (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم) وقال تعالى (انظر كيف يفترون على الله الكذب) وقيل لحكيم : ما الصدق القبيح : فقال : ثناء المرء على نفسه . والإيمان من أعلى صفات المجد والحزم تزكية مطلقة وصيغة الاستثناء كأنها ثقل من عرف التزكية ، كما يقال للإنسان أنت طيب أو فقيه أو مفسر ؟ فيقول : نعم إن شاء الله ، لا في معرض التشكيك ولكن لإخراج نفسه عن تزكية نفسه فالصيغة صيغة التردد والتضعيف لنفس الخبر ومعناه التضعيف للزم من لوازم الخبر وهو التزكية . وبهذا التأويل لو سئل عن وصف ذم لم يحسن الاستثناء . الوجه الثاني : التأدب بذكر الله تعالى في كل حال وإحالة الأمور كلها إلى مشيئة الله سبحانه فقد أدب الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم فقال تعالى (ولا تقوان لشيء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله) ثم لم يقتصر على ذلك فيما لا يشك فيه بل قال تعالى (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين وموسم ومقصرين) وكان الله سبحانه عالما بأنهم يدخلون لا محالة وأنه شاءه ولكن المقصود تعليمه ذلك فتأدب رسول الله صلى الله عليه وسلم في ما كان يخبر عنه معلوما كان أو مشكوكا حتى قال صلى الله عليه وسلم لمادخل المقابر ، السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإننا إن شاء الله بكم لاحقون ^(١) ، والحق بهم غير مشكوك فيه ولكن مقتضى الأدب ذكر الله تعالى وربط الأمور به . وهذه الصيغة دالة عليه حتى صار يعرف الاستعمال عبارة عن إظهار الرغبة والتنى ، فإذا قيل لك إن فلانا يموت سريعا فتقول إن شاء الله فيفهم منه رغبتك لا تشككك ، وإذا قيل لك فلان سيزول مرضه ويصح فتقول إن شاء الله بمعنى الرغبة فقد صارت الكلمة معدولة عن معنى التشكيك إلى معنى الرغبة وكذلك العدول إلى معنى التأدب لذكر الله تعالى كيف كان الأمر : الوجه الثالث : مستنده الشك ومعناه أنا مؤمن حقا إن شاء الله ، إذ قال الله تعالى لقوم مخصوصين بأعيابهم (أولئك هم المؤمنون حقا) فانقسموا إلى قسمين ويرجع هذا إلى الشك في كمال الإيمان لا في أصله ، وكل إنسان شاك في كمال إيمانه وذلك ليس بكفر . والشك في كمال الإيمان حق من وجهين ؛ أحدهما : من حيث إن النفاق يزيل كمال الإيمان وهو خفي لا يتحقق البراءة منه . والثاني : أنه يكمل بأعمال الطاعات ولا يدري وجودها على الكمال : أما العمل فقد قال الله تعالى (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون) فيكون

(١) حديث « لما دخل المقابر قال : السلام عليكم دار قوم مؤمنين .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة

الشك في هذا الصدق وكذلك قال الله تعالى ﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبيين﴾ فشرط عشرين وصفا كالوفاء بالعهد والصبر على الشدائد . ثم قال تعالى ﴿أولئك الذين صدقوا﴾ وقد قال تعالى ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ وقال تعالى ﴿لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل﴾ الآية وقد قال تعالى ﴿هم درجات عند الله﴾ وقال صلى الله عليه وسلم «الإيمان عريان وبإبائه التقوى»^(١) ، الحديث وقال صلى الله عليه وسلم «الإيمان بضع وسبعون بابا أدناها إماطة الأذى عن الطريق ، فهذا ما يدل على ارتباط كمال الإيمان بالأعمال وأما ارتباطه بالبراءة عن النفاق والشرك الحنفى فقول صلى الله عليه وسلم «أربع من كن فيه فهو منافق خالص وإن صام وصلى وزعم أنه مؤمن : من إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان وإذا خاصم فجر»^(٢) ، وفي بعض الروايات «وإذا عاهد غدر» ، وفي حديث أبي سعيد الخدري «القلوب أربعة : قلب أجرد وفيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق فقل الإيمان فيه كمثل البقلة يدها الماء العذب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يدها القيح والصديد فأى المسادين غلب عليه حكم له بها»^(٣) ، وفي لفظ آخر «غلبت عليه ذهبته به» ، وقال عليه السلام «أكثر منافق هذه الأمة قراؤها»^(٤) ، وفي حديث «الشرك أخفى في أمتي من ديب النمل على الصفا»^(٥) ، وقال حذيفة رضى الله عنه «كان الرجل يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصير بها منافقا إلى أن يموت وإنى لأسمعها من أحدكم في اليوم عشر مرات»^(٦) ، وقال بعض العلماء : أقرب الناس من النفاق من يرى أنه برىء من النفاق . وقال حذيفة : المنافقون اليوم أكثر منهم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فكانوا إذ ذاك يحمونه وهم اليوم يظهرونه وهذا النفاق يضاد صدق الإيمان وكأله وهو خفى وأبعد الناس منه من يتخوفه وأقربهم منه من يرى أنه برىء منه . فقد قيل للحسن البصرى : يقولون أن لا نفاق اليوم فقال يا أخى لو هلك المنافقون لاستوحشتم في الطريق . وقال هو أو غيره : لو نبئت للمنافقين أذنان ما قدرنا أن نطأ على الأرض بأقدامنا . وسمع ابن عمر رضى الله عنه رجلا يتعرض للحجاج فقال : رأيت لو كان حاضرا يسمع أ كنت تتكلم فيه ؟ فقال : لا ، فقال : كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال صلى الله عليه وسلم «من كان ذا لسانين في الدنيا جعله الله ذا لسانين في الآخرة» ، وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم «شر الناس ذو الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه ويأتى هؤلاء بوجه» ، وقيل للحسن : إن قوما يقولون إننا لا نخاف النفاق ، فقال : والله لأن أكون أعلم أى برىء من النفاق أحب إلى من تلأح الأرض ذهباً . وقال الحسن : إن من النفاق اختلاف اللسان والقلب ، والسر والعلانية ، والمدخل والمخرج . وقال رجل لحذيفة رضى الله عنه : إنى أخاف أن أكون منافقا ، فقال : لو كنت منافقا ما خفت النفاق إن النفاق قد أمن النفاق . وقال ابن أبي مليكة : أدركت

(١) حديث «الإيمان عريان» تقدم في العلم (٢) حديث «أربع من كن فيه فهو منافق .. الحديث» متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو (٣) حديث «القلوب أربعة : قلب أجرد .. الحديث» أخرجه أحمد من حديث أبي سعيد وفيه ليد ابن أبي سليم محتلف فيه (٤) حديث «أكثر منافق هذه الأمة قراؤها» أخرجه أحمد والطبراني من حديث عقبة بن عامر (٥) حديث «الشرك أخفى في أمتي من ديب النمل على الصفا» أخرجه أبو يعل وابن عدى وابن حبان في الصغفاء من حديث أبي بكر وأحمد والطبراني نحوه من حديث أبي موسى ، وسيأتى في ذم الجاه والرياء (٦) حديث حذيفة «كان الرجل يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصير بها منافقا» الحديث «أخرجه أحمد بإسناد فيه جهالة ، وحديث حذيفة «المنافقون اليوم أكثر منهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .. الحديث» أخرجه البخارى لإلأنه قال (شر) بدل أكثر (٧) حديث «سمع ابن عمر رجلا يتعرض للحجاج فقال رأيت لو كان حاضرا أ كنت تتكلم فيه قال لا قال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم» رواه أحمد والطبراني نحوه وليس فيه ذكر الحجاج .

ثلاثين ومائة - وفي رواية خمسين ومائة - من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلهم يخافون النفاق . وروى و أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالساً في جماعة من أصحابه فذكروا رجلاً وأكثروا الثناء عليه فينبأهم كذلك إذ طلع عليهم الرجل ووجهه يقطر ماء من أثر الوضوء وقد علق نعله بيده وبين عينيه أثر السجود فقالوا : يا رسول الله هو هذا الرجل الذي وصفناه ، فقال صلى الله عليه وسلم : أرى على وجهه سفة من الشيطان ، فجاء الرجل حتى سلم وجلس مع القوم فقال النبي صلى الله عليه وسلم : نشدتك الله هل حدثت نفسك حين أشرفت على القوم أنه ليس فيهم خير منك ؟ فقال : اللهم نعم ^(١) ، فقال صلى الله عليه وسلم في دعائه « اللهم إني أستغفرك لما علمت ولم أعلم ، فقيل له : أتخاف يا رسول الله ؟ فقال : وما يؤمنني والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقبلها كيف يشاء ، وقد قال سبحانه (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون) ^(٢) ، قيل في التفسير : عملوا أعمالاً ظنوا أنها حسنة فكانت في كفة السيئات . وقال سرى السقطي : لو أن إنساناً دخل بستاناً فيه من جميع الأشجار عليها من جميع الطيور فخطبه كل طير منها بلغة ؛ فقال : السلام عليك يا ولي الله ، فسكنت نفسه إلى ذلك كان أسيراً في يديها هذه الأخبار والآثار تعرفك خطر الأمر بسبب دقائق النفاق والشرك الخفي وأنه لا يؤمن منه حتى كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يسأل حذيفة عن نفسه وأنه هل ذكر في المنافقين ؟ وقال أبو سليمان الداراني : سمعت من بعض الأمراء شيئاً فأردت أن أنكره تخفت أن يأمر بقتلي ولم أخف من الموت ولكن خشيت أن يعرض لقلبي التزين للخلق عند خروج روجى فكففت . وهذا من النفاق الذي يضاد حقيقة الإيمان وصدقه وكاله وصفاه لأصله . فالنفاق نفاقان ، أحدهما : يخرج من الدين ويلحن بالكافرين ويسلك في زمرة المخلدين في النار . والثاني : يفضى بصاحبه إلى النار مدة أو ينقص من درجات عليين ويحط من رتبة الصديقين وذلك مشكوك فيه ولذلك حسن الاستثناء فيه . وأصل هذا النفاق تفاوت بين السر والعلانية ، والأمن من مكر الله ، والعجب ، وأمور أخر لا يتخلو عنها إلا الصديقون . الوجه الرابع : وهو أيضاً مستند إلى الشك وذلك من خوف الخاتمة فإنه لا يدري أي سلم له الإيمان عند الموت أم لا ؟ فإن حتم له بالكفر حبط عمله السابق لأنه موقوف على سلامة الآخر ، ولو سئل الصائم ضحوة النهار عن صحة صومه فقال : أنا صائم قطعاً ، فلو أفطر في أثناء نهاره بعد ذلك لتبين كدبه إذ كانت الصحة موقوفة على التمام إلى غروب الشمس من آخر النهار . وكما أن النهار ميقات تمام الصوم فالعمر ميقات تمام صحة الإيمان ووصفه بالصحة قبل آخره بناء على الاستصحاب وهو مشكوك فيه ، والعاقبة مخوفة ولاجلها كان بكاء أكثر الخائمين لأجل أنها ثمرة القضية السابقة والمشية الأزلية التي لا تظهر إلا بظهور المقضى به ولا مطلع عليه لأحد من البشر ، فخوف الخاتمة كخوف السابقة وربما يظهر في الحال ماسبقت الكلمة بنقيضه ، فمن الذي يدري أنه من الذين سبقت لهم من الله الحسنى ؟ وقيل في معنى قوله تعالى (وجاءت سكرة الموت بالحق) أي بالسابقة يعني أظهرتها . وقال بعض السلف : إنما يوزن من الأعمال خواتيمها . وكان أبو الدرداء رضى الله عنه يحلف بالله ما من أحد يأمن أن يسلب إيمانه إلا سلبه . وقيل من الذنوب ذنوب عقوبتها سوء الخاتمة نعوذ بالله من ذلك . وقيل هي عقوبات دعوى الولاية والكرامة بالافتراء . وقال بعض العارفين : لو عرضت على الشهادة عند باب الدار والموت على التوحيد

(١) حديث « كان جالساً في جماعة من أصحابه فذكروا رجلاً فأكثروا الثناء عليه ، فنبأهم كذلك إذ طلع عليهم ووجهه يقطر ماء من أثر الوضوء .. الحديث » أخرجه أحمد والبخاري والدارقطني من حديث أسد (٢) حديث « اللهم إني أستغفرك لما علمت وما لم أعلم .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث عائشة « اللهم إني أعوذ بك من شر ما عملت ومن شر ما لم أعمل » ولأبي بكر بن الضحاك في الصائل في حديث مرسل « وشر ما أعلم وشر ما لا أعلم »

عند باب الحجرة لاحترت الموت على التوحيد عند باب الحجرة لأنى لأدرى ما يعرض لقلبي من التغيير عن التوحيد إلى باب النار ؟ وقال بعضهم : لو عرفت واحدا بالتوحيد خمسين سنة ثم حال بيني وبينه سارية ومات لم أحكم أنه مات على التوحيد . وفى الحديث « من قال أنا مؤمن فهو كافر ومن قال أنا عالم فهو جاهل ^(١) » ، وقيل فى قوله تعالى (وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا) صدقا لمن مات على الإيمان وعدلا لمن مات على الشرك وقد قال تعالى (والله عاقبة الأمور) فهما كان الشك بهذه المثابة كان الاستثناء واجبا لأن الإيمان عبارة عما يفيد الجنة كما أن الصوم عبارة عما يبرئ الذمة وما فسد قبل الغروب لا يبرئ الذمة فيخرج عن كونه صوما فكذلك الإيمان بل لا يبعد أن يسأل عن الصوم الماضى الذى لا يشك فيه بعد الفراغ منه فيقال أصمت بالأمس ؟ فيقول نعم إن شاء الله تعالى إذ الصوم الحقيقى هو المقبول والمقبول غائب عنه لا يطلع عليه إلا الله تعالى فمن هذا حسن الاستثناء فى جميع أعمال البر ويكون ذلك شكافى القبول ، إذ يمنع من القبول بعد جريان ظاهر شروط الصحة أسباب خفيفة لا يطلع عليها إلا الرب الأرباب جل جلاله فيحس الشك فيه . فهذه وجوه حسن الاستثناء فى الجواب عن الإيمان وهى آخر ما نتختم به « كتاب قواعد العقائد » تم الكتاب بحمد الله تعالى وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى

كتاب أسرار الطهارة

وهو الكتاب الثالث من ربع العبادات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذى تلطف بعباده فتعبدهم بالنظافة ، وأفاض على قلوبهم تزيكية لسرايرهم ، وأراه وألطافه ، وأعداظواهرهم تطهيرا لها الماء المخصوص بالبرقة واللطافة ، وصلى الله على النبي محمد المستغرق بنور الهدى أطراف العالم وأكنافه ، وعلى آله الطيبين الطاهرين صلاة تنجينا بركاتها يوم المحفظة ، وتنتصب جنة بيننا وبين كل آفة . أما بعد . فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « بنى الدين على النظافة ^(٢) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « مفتاح الصلاة الطهور ^(٣) » ، وقال الله تعالى (فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) وقال النبي صلى الله عليه وسلم « الطهور نصف الإيمان ^(٤) » ، وقال الله تعالى (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم) فتفتطن ذوو البصائر بهذه الطواهر أن أهم الأمور تطهير السرائر إذ يبعد أن يكون المراد بقوله صلى الله عليه وسلم « الطهور نصف الإيمان » عمارة الظاهر بالتنظيف بإفاضة الماء وإلقائه وتحريب الباطن وإبقائه مشحونا بالأخبار والأفانار هيات

(١) حديث « من قال أنا مؤمن فهو كافر ومن قال أنا عالم فهو جاهل » أخرجه الطبرانى فى الأوسط بالشرط الأخير منه من حديث ابن عمر وفيه ليط بن أبي سليم تقدم ، والشرط الأول روى من قول يحيى بن أنس كثير رواه الطبرانى فى الأصغر بلفظ « من قال أنا فى الجنة فهو فى النار » وسنده صحيح

كتاب الطهارة

(٢) حديث (بنى الدين على النظافة) لم أجده هكذا ، وفى الضعفاء لابن حبان من حديث عائشة (تضافوا فان الاسلام نظيف) والطبرانى فى الأوسط بسند ضعيف جدا من حديث ابن مسعود (النظافة تدعوا إلى الايمان) (٣) حديث (مفتاح الصلاة الطهور) أخرجه د ت ه من حديث على ، قال الترمذى : هذا أصح شيء فى هذا الباب وأحد (٤) حديث (الطهور نصف الإيمان) أخرجه ت من حديث رجل من بنى سليم وقال ، حسن ، رواه مسلم من حديث أبي مالك الأشعري بلفظ (شطر) كما فى الإحياء

هيات ! والطهارة لها أربع مراتب (المرتبة الأولى) تطهير الظاهر عن الأحداث وعن الأخباث والفضلات (المرتبة الثانية) تطهير الجوارح عن الحرائم والآثام (المرتبة الثالثة) تطهير القلب عن الأحلاق المذمومة والذائل الممقوتة (المرتبة الرابعة) تطهير السر عما سوى الله تعالى وهي طهارة الأنبياء صلوات الله عليهم والصدّيقين ، والطهارة في كل رتبة نصف العمل الذي فيها فإن الغاية القصوى في عمل السر أن ينكشف له جلال الله تعالى وعظمته ولن تحل معرفة الله تعالى بالحقيقة في السر ما لم يرتحل ما سوى الله تعالى عنه . ولذلك قال الله عز وجل (قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون) لأنهما لا يجتمعان في قلب (وما جعل الله لرجل في ولبين في جوفه) وأما عمل القلب فالغاية القصوى عمارته بالأخلاق المحمودة والعقائد المشروعة وان ينصف بها ما لم يطف عن نقائصهما من العقائد الفاسدة والذائل الممقوتة ، فتطهيره أحد الشطرين وهو الشطر الأول الذي هو شرط في الثاني فكان الطهور شرط الإيمان بهذا المعنى ، وكذلك تطهير الجوارح عن المناهي أحد الشطرين وهو الشطر الأول الذي هو شرط في الثاني، فتطهيره أحد الشطرين وهو الشطر الأول وعمارته بالطاعات الشطر الثاني هدهه مقامات الإيمان ولكل مقام طبقة ولن ينال العبد الطبقة العالية إلا أن يجاوز الطبقة السافلة ، فلا يصل إلى طهارة السر عن الصفات المذمومة وعمارته بالمحمودة ما لم يفرغ من طهارة القلب عن الخلق المدموم وعمارته بالخلق المحمود ، وإن يصل إلى ذلك من لم يفرغ عن طهارة الجوارح عن المناهي وعمارته بالطاعات ، وكلما عز المطلوب وشرف صعب مسلكه وطال طريقه وكثرت عقباته فلا تطن أن هذا الأمر يدرك وينال بالهويني ، نعم من عميت بصيرته عن تفاوت هذه الطبقات لم يفهم من مراتب الطهارة إلا الدرحة الأخيرة التي هي كالقشرة الأخيرة الظاهرة بالإضافة إلى اللب المطلوب ، فصار يعمى فيها ويستقصى في مجاريها ويستوعب جميع أوقاته في الاستنجاء وغسل الثياب وتنظيف الظاهر وطلب المياه الجارية الكثيرة ظنا منه بحكم الوسوسة وتخيل العقل أن الطهارة المطلوبة الشريفة هي هذه فقط وجهالة بسيرة الأتولين واستغراقهم جميع الهم والفكر في تطهير القلب وتساؤلهم في أمر الظاهر ، حتى إن عمر رضي الله عنه مع علو مصعبه توحناً من ماء في جرة نصرانية ، وحتى إنهم ما كانوا يغسلون اليدين السومات والأطعمة بل كانوا يمسحون أصابعهم بأحصى أقدامهم وعدوا الأشتان من البدع المحدثه ، ولقد كانوا يصلون على الأرض في المساجد ويمشون حفاة في الطرقات ، ومن كان لا يجعل بينه وبين الأرض حاجزاً في مضجعه كان من أكابره ، وكانوا يقتصرون على الحجارة في الاستنجاء . وقال أبو هريرة وغيره من أهل الصفة : « كما نأكل الشواء فتقام الصلاة فندخل أصابعنا في الحصى ثم نفرکہا بالتراب وبكبر^(١) » وقال عمر رضي الله عنه : « ما كنا نعرف الأشتان في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما كانت ما يدلنا بطون أرجلنا^(٢) كنا إذا أكلنا الغمر مسحنا بها ، ويقال أول ما ظهر من الدرع بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع : المناخل والأشتان والموائد والشبع . فكانت عنايتهم كلها بنظافة الباطن حتى قال بعضهم : الصلاة في التعلين أفضل » لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزع نعليه في صلاته بإحبار جبريل عليه السلام له أن بهما نجاسة وخلع الناس نعالهم قال صلى الله عليه وسلم لم خلعتم نعالكم^(٣) ، ؟ وقال النخعي في الذين يخلعون نعالهم « وددت لو أن محتاجاً جاء إليها فأخذها » منكراً لخلع النعال . فهكذا كان تساهلهم في هذه الأمور بل كانوا يمشون في طين الشوارع حفاة ويجلسون عليها ويصلون

(١) حديث « كما نأكل الشواء فتقام الصلاة فندخل أصابعنا في الحصى .. الحديث) أخرجه . من حديث عبد الله بن الحارث ابن جزء ولم أره من حديث أبي هريرة (٢) حديث عمر (ما كنا نعرف الأشتان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولمعنا كانت مناديلنا باطن أرجلنا .. الحديث) لم أجده من حديث عمر ولا بن ماجه نحوه مختصراً من حديث جابر (٣) حديث (خلع نعليه في الصلاة إذ أخبره جبريل عليه الصلاة والسلام أن عليه نجاسة) أخرجه ذلك وصححه من حديث أبي سعيد الخدري

في المساجد على الأرض، وبأكلون من دقيق البر والشعير وهو يداس بالدواب وتبول عليه، ولا يحترزون من عرى الإبل والحيل مع كثرة تمزغها في التجاسات، ولم ينقل قط عن أحد منهم سؤال في دقائق النجاسات فكذا كان تساهلهم فيها. وقد انتهت التوبة الآن إلى طائفة يسمون الرعونة نظافة فيقولون هي مبنى الدين فأكثر أوقاتهم في تزيينهم الطواهر، كفعل الماشطة بعروسها والباطن خراب متحون بجبائث الكبر والعجب والجهل والرياء والنفاق ولا يستكرون ذلك ولا يتعجبون منه! ولو اقتصر مقتصر على الاستنجاء بالحجر أو مشى على الأرض حافياً أو صلى على الأرض أو على بوارى المسجد من غير سجادة مفروشة أو مشى على الفرش من غير غلاف للقدم من آدم أو توضأ من آنية عجوز أو رحل غير متكشف أقاموا عليه القيامة وشدوا عليه الكبر ولقيوه بالقدور وأخرجوه من زميرتهم واستكفوا عن مؤالفتهم ومخالطتهم. فسموا البذاذة التي هي من الإيمان قذاراً والرعونة نظافة فالناظر كيف صار المنكر معروفاً والمعروف منكراً! وكيف اندرس من الدين رسمه كما اندرس حقيقته وعلمه * فإن قلت: أفتقول إن هذه العادات التي أحدثها الصوفية في هيئاتهم ونظافتهم من المحظورات أو المنكرات؟ فأقول حاشى الله أن أطلق القول فيه من غير تفصيل ولكي أقول إن هذا التطيب والتكلف وإعداد الأواني والآلات واستعمال غلاف القدم والإزار المنقوع به لدفع العبار وغير ذلك من هذه الأسباب إن وقع النظر إلى ذاتها على سبيل التجرد فهي من المباحات وقد يقرن بها أحوال ونيات تلحقها تارة بالمعروفات وتارة بالمنكرات، فأما كونها مباحة في نفسها فلا يخفى أن صاحبها متصرف بها في ماله وبدنه وثيابه فيفعل بها ما يريد إذا لم يكن فيه إصاعة وإسراف، وأما مصيرها منكراً فهأن يجعل ذلك أصل الدين ويفسر به قوله صلى الله عليه وسلم « بنى الدين على النظافة » حتى ينكر به على من يتساهل فيه الأولين أو يكون القصد به تزيين الظاهر للخلق وتحسين مرقع نظرم، فإن ذلك هو الرياء المحطور فيصير منكراً بهذين الاعتبارين، أما كونه معروفاً فهأن يكون القصد منه الخير دون التزين وأن لا ينكر على من ترك ذلك ولا يؤخر بسببه الصلاة عن أوائل الأوقات ولا يستغل به عن عمل هو أفضل منه أو عن علم أو غيره، فإذا لم يقرن به شيء من ذلك فهو مباح يمكن أن يجعل قرينة بالنية ولكن لا يتيسر ذلك إلا للبطالين الذين لو لم يشتغلوا بصرف الأوقات فيه لاشتغلوا بنوم أو حديث فيما لا يعنى فيصير شغلهم به أولى لأن الاشتغال بالطهارات يحدد ذكر الله تعالى وذكر العبادات فلا يأس به إذا لم يخرج إلى منكر أو إسراف. وأما أهل العلم والعمل فلا ينبغي أن يصرفوا من أوقاتهم إليه إلا قدر الحاجة فالزيادة عليه منكر في حقهم وتضييع العمر الذي هو أنفس الحواهر وأعزها في حق من قدر على الإنتفاع به. ولا يتعجب من ذلك فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين. ولا ينبغي للبطال أن يترك النظافة وينكر على المصروفة ويزعم أنه يتشبه بالصحابة إذ التشبه بهم في أن لا يتفرغ إلا لما هو أهم منه، كما قيل لداود الطائي لم لا تسرح لحيتك؟ قال: إني إذ ذل لفارغ. فلهذا لا أرى للعالم ولا للتلمذ وللعامل أن يضع وقته في غسل الثياب إحترازاً من أن يلبس الثياب المقصورة وتوهما بالقصار تقصيراً في الغسل؛ فقد كانوا في العصر الأول يصلون في الفراء المدبوعة ولم يعلم منهم من فرق بين المقصورة والمدبوعة في الطهارة والنجاسة، بل كانوا يجهنون النجاسة إذا شاهدوها ولا يدققون نظرم في استنباط الاحتمالات الدقيقة، بل كانوا يتأملون في دقائق الرياء والظلم حتى قال سفيان الثوري لرفيق له كان يمشى معه فنظر إلى باب دار مرفوع معبور: لا تفعل ذلك فإن الناس لو لم ينظروا إليه لكان صاحبه لا يتعاطى هذا الإسراف. فالناظر إليه معين له على الإسراف. فكانوا يعدون جمام الذهن لاستنباط مثل هذه الدقائق لا في احتمالات النجاسة. فلو وجد العالم عامياً

يتعاطى له غسل الثياب محتاطاً فهو أفضل فإنه بالإضافة إلى التساهل خير . وذلك العامى ينتفع بتعاطيه إذ يشغل نفسه الأمانة بالسوء بعمل المباح في نفسه فيمتنع عليه المعاصى في تلك الحال . والنفس إن لم تشغل بشيء شغلت صاحبها وإذا قصد به التقرب إلى العالم صار ذلك عنده من أفضل القربات . فوقت العالم أشرف من أن يصرفه إلى مثله يبقى محفوظاً عليه ، وأشرف وقت العامى أن يشتغل بمثله فيتوفر الخير عليه من الجوانب كلها . وليتفطن بهذا المثل لنظائره من الأعمال وترتيب فضائلها ووجه تقديم البعض منها على بعض ، فتدقيق الحساب في حفظ لحظات العمر بصرفها إلى الأفضل أهم من التدقيق في أمور الدنيا بخلافها . وإذا عرفت هذه المقدمة واستبنت أن الطهارة لها أربع مراتب . فاعلم أنا في هذا الكتاب لسنا نتكلم إلا في المرتبة الرابعة وهى نظافة الظاهر لأننا في الشرط الأول من الكتاب لا نتعرض قصداً إلا للظواهر . فنقول طهارة الظاهر ثلاثة أقسام : طهارة عن الخبث وطهارة عن الحدث وطهارة عن فضلات البدن ، وهى التى تحصل بالقلم والاستحداد واستعمال التورة والختان وغيره .

القسم الأول : فى طهارة الخبث ، والنظر فيه يتعلق بالمزال والمزال به والإزالة
الطرف الأول فى المزال

وهى النجاسة . والأعيان ثلاثة : جمادات وحيوانات وأجزاء حيوانات أما الجمادات فطاهرة كلها إلا الخروكل منتبذ مسكر ، والحيوانات طاهرة كلها إلا الكلب والخنزير وما تولد منهما أو من أحدهما . فإذا ماتت فكلها نجسة إلا خمسة : الآدمى والسماك والجراد ودود التفاح - وفى معناه كل ما يستحيل من الأطعمة - وكل ما ليس له نفس سائلة كالذباب والخنافس وغيرهما فلا ينجس الماء بوقوع شيء منها فيه . وأما أجزاء الحيوانات فقسما ، أحدهما : ما يقطع منه وحكه وحكم الميت . والشعر لا ينجس بالجزء ، والموت والعظم ينجس . الثانى : الرطوبات الخارجة من باطنه فكل ما ليس مستحيلاً ولا له مقتر فهو طاهر كالدماغ والعرق واللحاح والخاط ، وما له مقتر وهو مستحيل فنجس ، إلا ما هو مادة الحيوان كالمنى والبيض . والقريح والدم والروث والبول نجس من الحيوانات كلها . ولا يعنى عن شيء من هذه النجاسات قليلها وكثيرها إلا عن خمسة ، الأول : أثر التجو بعد الاستحمام بالأحجار يعنى عنه ما لم يعد المخرج والثانى : طين الشوارع وغبار الروث فى الطريق يعنى عنه مع تيقن النجاسة بقدر ما يتعدرا الاحتراز عنه ، وهو الذى لا ينسب المتلطح به إلى تفريط أو سقطة . الثالث : ما على أسفل الخلف من نجاسة لا يخلو الطريق عنها فيعنى عنه بعد ذلك للحاجة : الرابع : دم البراغيث ما قل منه أو كثر إلا إذا جاوز حد العادة سواء كان فى ثوبك أو فى ثوب غيرك فلبسته . الخامس : دم البثرات وما ينفصل منها من قيح وصديد . وذلك ابن عمر رضى الله عنه بثرة على وجهه فخرج منها الدم وصلى ولم يغتسل . وفى معناه ما يترشح من لطخات الدماميل التى تدوم غالباً وكذلك أثر الفصد إلا ما يقع نادراً من خراج أو غيره فيلحق بدم الاستحاضة ، ولا يكون فى معنى البثرات التى لا يخلو الإنسان عنها فى أحواله . ومساحة الشرع فى هذه النجاسات الخمس تعرفك أن أمر الطهارة على التساهل وما ابتدع فيها وسوسة لا أصل لها .

الطرف الثانى : فى المزال به

وهو إما جامد وإما مائع ؛ أما الجامد فحجر الاستحاضة وهو مطهر تطهير تخفيف بشرط أن يكون صلباً طاهراً منشفاً غير محترم ، وأما المائعات فلا تزال النجاسات بشيء منها إلا الماء ؛ ولا كل ماء بل الطاهر الذى لم يتغاشح

تغيره بمخالطة ما يستغنى عنه . ويخرج الماء عن الطهارة بأن يتغير بملاقاة النجاسة طعمه أو لونه أو ريحه . فإن لم يتغير وكان قريبا من مائتين وخمسين منا - وهو خمسمائة رطل - رطل العراق - لم ينجس لقوله صلى الله عليه وسلم « إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثا ^(١) » ، وإن كان دونه صار نجسا عند الشافعي رضى الله عنه . هذا في الماء الراكد . وأما الماء الجاري إذا تغير بالنجاسة فالجارية المتغيرة نجسة دون ما فوقها وما تحتها لأن جريات الماء متفصلات . وكذا النجاسة الجارية إذا جرت بمجرى الماء فالنجس موقعها من الماء وما عن يمينها وشمالها إذا تقاصر عن قلتين . وإن كان جرى الماء أقوى من جرى النجاسة فما فوق النجاسة طاهر وما سفل عنها فنجس وإن تباعد وكثر إلا إذا اجتمع في حوص قدر قلتين . وإذا اجتمع قلتان من ماء نجس طهر ولا يعود نجسا بالتفريق . هذا هو مذهب الشافعي رضى الله عنه . وكنت أود أن يكون مذهبه كذهب مالك رضى الله عنه في أن الماء وإن قل لا ينجس إلا بالتغير إذ الحاجة ماسة إليه ومثار الوسواس اشترط القلتين ، ولأجله شق على الناس ذلك : وهو لعمرى سبب المشقة ويعرفه من يجربه ويتأمله . ومما لا أشك فيه أن ذلك لو كان مشروطا لسكان أولى المواضع بتعسر الطهارة : مكة والمدينة ؛ إذ لا يكتر فيهما المياه الجارية ولا الراكدة الكثيرة . ومن أول عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى آخر عصر أصحابه لم تنقل واقعة في الطهارة ولا سؤال عن كيفية حفظ الماء عن النجاسات . وكانت أواني مياههم يتعاطاها الصبيان والإماء الذين لا يجترزون عن النجاسات . وقد توصأ عمر رضى الله عنه بماء في جرة نصرانية ، وهذا كالصريح في أنه لم يعول إلا على عدم تغير الماء وإلا فنجاسة النصرانية وإنائها غالبية تعلم بظن قريب ، فإذا عسر القيام بهذا المذهب . وعدم وقوع السؤال في تلك الأعصار ؛ دليل أول . وفعل عمر رضى الله عنه : دليل ثان . والدليل الثالث : إصغاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الإناء للهرة ^(٢) وعدم تغطية الأواني منها : بعد أن يرى أنها تأكل الفأرة ولم يكن في بلادهم حيض تلغ السنابير فيها وكانت لا تنزل الآبار . والرابع : أن الشافعي رضى الله عنه نص على أن غسالة النجاسة طاهرة إذا لم تتغير ونجسة إن تغيرت ، وأى فرق بين أن يلقى الماء النجاسة بالورود عليها أو بورودها عليه ؟ وأى معنى لقول القائل إن قوة الورود تدفع النجاسة مع أن الورود لم يمنع مخالطة النجاسة ؟ وإن أحييل ذلك على الحاجة فالحاجة أيضا ماسة إلى هذا فلا فرق بين طرح الماء في إحانة فيها ثوب نجس أو طرح الثوب النجس في الإحانة وفيها ماء ؟ وكل ذلك معتاد في غسل الثياب والأواني ، والخامس : أنهم كانوا يستنجون على أطراف المياه الحارية القليلة ، ولا خلاف في مذهب الشافعي رضى الله عنه أنه إذا وقع بول في ماء حار ولم يتغير أنه يحوز التوضؤ به وإن كان قليلا . وأى فرق بين الجاري والراكد ؟ وليت شعري هل الحوالة على عدم التغير أولى أو على قوة الماء بسبب الجريان ؟ ثم ما حد تلك القوة التي تحرى في المياه الجارية في أنابيب الحمامات أم لا ؟ فإن لم تحرقا الفرق وإن حرت فما الفرق بين ما يقع فيها وبين ما يقع في مجرى الماء من الأواني على الأبدان وهي أيضا جارية ؟ ثم البول أشد اختلاطا بالماء الجاري من نجاسة جامدة ثابتة إذا قضى بأن ما يجري عليه وإن لم يتغير نجس أن يجتمع في مستنقع قلتان ، فأى فرق بين الجامد والمائع والماء واحد والاختلاط أشد من المجاورة ؟ والسادس : أنه إذا وقع رطل من البول في قلتين ثم فرقنا فكل كوز يغترف منه طاهر ، ومعلوم أن البول منتشر فيه وهو قليل وليت شعري هل تعليل طهارته بعدم التغير أولى أو بقوة الماء بعد انقطاع الكثرة وزوالها مع

(١) حديث (لما بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثا) أخرجه أصحاب السنن وابن حبان وأبو بكر وصححه من حديث ابن عمر

(٢) حديث (إصغاء الإناء للهرة) ، أخرجه الطبراني في الأوسط والدارقطني من حديث عائشة ؛ وروى أصحاب السنن ذلك من

فعل أبي قتادة

تحقق بقاء أجزاء النجاسة فيها؟ والساع: أن الحمامات لم تزل في الأعصار الخالية يتوضأ فيها المتقشفون ويغسلون الأيدي والأواني في تلك الحياض مع قلة الماء ومع العلم بأن الأيدي النجسة والطاهرة كانت تتوارد عليها. فهذه الأمور مع الحاجة الشديدة تقوى في النفس أنهم كانوا ينظرون إلى عدم التغير معقولين على قوله صلى الله عليه وسلم خلق الماء طهورا لا ينجسه شيء إلا ما غير طعمه أو لونه أوريجه^(١) وهذا فيه تحقيق، وهو أن طبع كل مائع أن يقلب إلى صفة نفسه كل ما يقع فيه وكان مغلوبا من جهته؛ فكما ترى الكلب يقع في المملحة فيستحيل ملحا ويحكم بطهارته بصيرورته ملحا وزوال صفة السلبية عنه، فكذلك الخل يقع في الماء وكذا اللبن يقع فيه وهو قليل فتبطل صفته ويتصور بصفة الماء وينطبع بطبعه إلا إذا كثر وغلب وتعرف غلته نغله طعمه أو لونه أوريجه فهذا المعيار. وقد أشار الشرع إليه في الماء القوي على إزالة النجاسة وهو جدير بأن يعقل عليه فيندفع به الحرج ويظهر به معنى كونه طهورا إذ يغلب عليه فيطهره، كما صار كذلك فيما بعد القلتين وفي الغسالة وفي الماء الحار وفي إصغاء الإياه للهرة ولا تلظن ذلك عفوا إذ لو كان كذلك لكان كأثر الاستنجاء ودم البراغيث حتى يصير الماء الملاقى له نجسا ولا ينجس بالغسالة ولا بولوغ السنور في الماء القليل. وأما قوله صلى الله عليه وسلم «لا يحمل خبثا» وهو في نفسه مهم فإنه يحمل إذا تغير * فإن قيل. أراد به إذا لم يتغير فيمكن أن يقال إنه أراد به أنه في الغالب لا يتغير بالنجاسات المعتادة؟ ثم هو تمسك بالمفهوم فيما إذا لم يبلغ قلتين، وترك المفهوم بأقل من الأدلة التي ذكرناها يمكن وقوله «لا يحمل خبثا» ظاهره نفي الحمل أي يقله إلى صفة نفسه، كما يقال للملحة لا تحمل كلبا ولا غيره أي يقلب، وذلك لأن الناس قد يستنجون في المياه القليلة وفي الغدران ويغسلون الأواني النجسة فيها ثم يترددون في أنها تغيرت تغيرا مؤثرا أم لا؟ فتبين أنه إذا كان قلتين لا يتغير هذه النجاسة المعتادة * فإن قلت: فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم «لا يحمل خبثا» ومهما كثرت حملها فهذا يقلب عليك فإنها مهما كثرت حملها حكما كما حملها حسا. فلا بد من التخصص بالنجاسات المعتادة على المدهين جميعا. وعلى الجملة فينبى في أمور النجاسات المعتادة إلى التساهل فهما من سيرة الأولين وحسب المساهة الوسواس وبذلك أفتيت بالطهارة فيما وقع الخلاف فيه في مثل هذه المسائل.

الطرف الثالث: في كيفية الإزالة

والنجاسة إن كانت حكيمة وهي التي ليس لها جرم محسوس فيسكنى لإجراء الماء على جميع مواردها، وإن كانت عينية فلا بد من إزالة العين، وبقاء الطعم يدل على بقاء العين وكذا بقاء اللون إلا فيما يلتصق به فهو معفو عنه بعد الحت والقرص. أما الرائحة فبقاؤها يدل على بقاء العين ولا يعني عنها إلا إذا كان الشيء له رائحة فائحة يعسر إزالتها فالدلك والعصر مرات متواليات يقوم مقام الحت والقرص في اللون، والمزيل للوسواس أن يعلم أن الأشياء خلقت طاهرة بيقين فما لا يشاهد عليه نجاسة ولا يعلمها يقينا يصل معه، ولا يبغي أن يتوصل بالاستنباط إلى تقدير النجاسات القسم الثاني: طهارة الأحداث، ومنها الوضوء والعسل والتيمم ويتقدمها الاستنجاء، فلنورد كيفية ترتيبها على الترتيب مع آدابها وسننها مبتدئين بسبب الوضوء وآداب قضاء الحاجة إن شاء الله تعالى.

باب آداب قضاء الحاجة

ينبغي أن يبعد عن أعين الناظرين في الصحراء وأن يستتر بشيء إن وجده وأن لا يكشف عورته قبل الانتهاء

(١) حديث (خلق الله الماء طهورا لا ينجسه شيء إلا ما غير لونه أو طعمه أو ريحه) أخرجه ابن ماجه من حديث أبي أمامة بإسناد ضعيف، وقد رواه بدون الاستثناء أبو داود والنسائي والترمذي من حديث أبي سعيد وصححه أبو داود وغيره.

إلى موضع الجلوس وأن لا يستقبل الشمس والقمر وأن لا يستقبل القبلة ولا يستدبرها إلى إذا كان في بناء ، والعدول أيضا عنها في الناء أحب وإن استتر في الصحراء براحلته جاز وكذلك بذيله ، وأن يتقى الجلوس في متحدث الناس وأن لا يبول في الماء الراكد ولا تحت الشجرة المثمرة ولا في الجحر ، وأن يتقى الموضع الصلب ومهباب الرياح في البول استنزاها من رشاشه وأن يتكى في جلوسه على الرجل اليسرى وإن كان في بنيان يقدم الرجل اليسرى في الدخول والني في الخروج ولا يبول قائما . قالت عائشة رضی الله عنها « من حدثكم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبول قائما فلا تصدقوه »^(١) ، وقال عمر رضی الله عنه ، رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أبول قائما فقال : يا عمر لا تبيل قائما^(٢) ، قال عمر : فابلت قائما بعد ، وفيه رخصة إذ روى حديفة رضی الله عنه « أنه عليه الصلاة والسلام بال قائما فأتيته بوضوء فتوضأ ومسح على خفيه »^(٣) ، ولا يبول في المغتسل قال صلى الله عليه وسلم دعامة الوسواس منه^(٤) ، وقال ابن المبارك : قد وسع في البول في المغتسل إذا جرى الماء عليه ذكره الترمذي وقال عليه الصلاة والسلام « لا يبولن أحدكم في مستحبه ثم يتوضأ فيه فإن عامة الوسواس منه » ، وقال ابن المبارك : إن كان الماء حاريا فلا بأس به ولا يستصحب شيئا عليه اسم الله تعالى أو رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا يدخل ببت الماء حاسر الرأس . وأن يقول عند الدخول ، بسم الله أعوذ بالله من الرجس النجس الخبيث المنجبت الشيطان الرجيم « وعند الخروج ، الحمد لله الذي أذهب عني ما يؤذيني وأبقى علي ما ينفعني » ويكون ذلك خارجا عن بيت الماء وأن يعد التبل قبل الجلوس وأن لا يستنجي بالماء في موضع الحاجة وأن يستبرئ من البول بالتنضح والثغر - ثلاثا - وإمرار اليد على أسفل القضيب ولا يكتر التفسر في الاستبراء فيتوسوس ويشق عليه الأمر وما يحس به من بلل فليقدر أنه بقية الماء . فإن كان يؤذيه ذلك فليرش عليه الماء حتى يقوى في نفسه ذلك ولا يتسلط عليه الشيطان بالوسواس . وفي الخبر أنه صلى الله عليه وسلم فعله أعنى رش الماء^(٥) وقد كان أخفهم استبراء أفقههم فتدل الوسوسة فيه على قلة الفقه . وفي حديث سلمان رضی الله عنه « علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كل شيء حتى الخرامة فأمرنا أن لا تستنجي بعظم ولا روث ونهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول »^(٦) ، وقال رحل لبعض الصحابة من الأعراب وقد خاصمه : لأحسبك تحسن الخرامة قال : بلى وأبيك إني لأحسنها إني بها لحاذق أمد الأثر وأعد المدر وأستقبل الشيخ وأستدبر الريح وأقمي إقامه الطيب وأجفل لإجفال الثعام - الشيخ نبت طيب الرائحة بالبادية ، والإقامة ههنا أن يستوفى على صدور قدميه ، والإجفال أن يرفع عجزه . ومن الرخصة أن يبول الإنسان قريبا من صاحبه مستترا عنه^(٧) فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم مع شدة حياته ليبين للناس ذلك .

(١) حديث عائشة (من حدثكم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبول قائما فلا تصدقوه) أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه قال الترمذي هو أحسن شيء في هذا الباب واضح (٢) حديث عمر (رأيت النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أبول قائما فقال يا عمر لا تبيل قائما » أخرجه ابن ماجه بإسناد ضعيف ، رواه ابن حبان من حديث ابن عمر ليس به ذكر لعمر (٣) حديث (٤١) عليه الصلاة والسلام بال قائما .. الحديث) متفق عليه (٤) حديث (قال في البول في المغتسل : عامة الوسواس منه) أخرجه أصحاب السنن من حديث عبد الله بن مهمل قال الترمذي عريب قلت وإسناده صحيح (٥) حديث « رش الماء بعد الوضوء » وهو الانتضاح أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث سفيان بن الحسك الثقفى أو الحسك بن سفيان وهو مصطرب كما قاله الترمذي وابن عبد البر (٦) حديث سلمان « علما رسول الله صلى الله عليه وسلم كل شيء حتى الخرامة ... الحديث » أخرجه مسلم وقد تقدم في قواعد المفاتيح (٧) حديث « البول قريبا من صاحبه » متفق عليه من حديث حديفة

كيفية الاستنجاء

ثم يستنجى لمقدمته بثلاثة أحجار ، فإن أتقى وإلا استعمل رابعاً ، فإن أتقى وإلا استعمل خامساً لأن الإنقاء واجب والابتار مستحب . قال عليه السلام « من استحجر فليوتر ^(١) » ، يأخذ الحجر بيساره ويضعه على مقدم المقعدة قبل موضع النجاسة ويمره بالمسح والإدارة إلى المؤخر ، يأخذ الثاني ويضعه على المؤخر كذلك ويمره إلى المقدمة ، يأخذ الثالث فيديره حول المسربة لإدارة فإن عسرت الإدارة ومسح من المقدمة إلى المؤخر أجزاءه ، ثم يأخذ حجراً كبيراً يمينه والقضيب بيساره ويمسح الحجر بقضيبه ويحرك اليسار فيمسح ثلاثاً في ثلاثة مواضع أوفى ثلاثة أحجار أو في ثلاثة مواضع من جدار إلى أن لا يرى الرطوبة في محل المسح ، فإن حصل ذلك بمرتين أتى بالثالثة ، ووجب ذلك إن أراد الاقتصار على الحجر ، وإن حصل بالرابعة استحب الخامسة للإيتار . ثم ينتقل من ذلك الموضع إلى موضع آخر ويستنجى بالماء بأن يفيضه باليمنى على محل النجس ويدلك باليسرى حتى لا يبقى أثر يدركه الكف بحس اللبس ، ويدرك الاستقصاء فيه بالتعرض للماطن فإن ذلك منبع الوسواس ، وليعلم أن كل ما لا يصل إليه الماء فهو باطن ولا يثبت حكم النجاسة للفضلات الباطنة ما لم تطهر ، وكل ما هو ظاهر وثبت له حكم النجاسة فخذ ظهوره أن يصل الماء إليه فيزيله ولا معنى للوسواس . ويقول عند الفراغ من الاستنجاء « اللهم طهر قلبي من النفاق وحصن فرجي من الفواحش » ، ويدلك يده بجائظ أو بالأرض لإزالة للرائحة إن بقيت . واجمع بين الماء والحجر مستحب فقد روى « أنه لما نزل قوله تعالى ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل قباء : ما هذه الطهارة التي أثنى الله بها عليكم ، قالوا . كنا نجمع بين الماء والحجر ^(٢) » ،

كيفية الوضوء

إذا فرغ من الاستنجاء اشتغل بالوضوء فلم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم قط خارجاً من الغائط إلا توضأ ويبتدئ بالسواك فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أفواهم طرق القرآن فطيبوها بالسواك ^(٣) » ، فينبغي أن ينوى عند السواك تطهيره لقراءة القرآن وذكر الله تعالى في الصلاة وقال صلى الله عليه وسلم « صلاة على أثر سواك أفضل من خمس وسبعين صلاة بغير سواك ^(٤) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة ^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « مالي أراكم تدخلون على فلحاستا كوا ^(٦) » ، أي صفر الأسنان « وكان عليه الصلاة والسلام يستاك في الليلة مراراً ^(٧) » ، وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : « لم يزل صلى الله عليه وسلم يأمرنا بالسواك حتى ظننا أنه سينزل عليه فيه شيء ^(٨) » ، وقال عليه السلام « عليكم بالسواك فإنه

(١) حديث « من استحجر فليوتر » متفق عليه من حديث أبي هريرة (٢) حديث « لما نزل قوله تعالى ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا ﴾ الحديث في أهل قباء وجمعهم بين الحجر والماء . ٩ . أخرجه البزار من حديث ابن عباس بسند ضعيف ورواه ابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبي أيوب وجابر وأنس في الاستنجاء بالماء ، ليس فيه ذكر « الحجر » وقول النووي تبعاً لابن الصلاح « لأن الجمع بين الماء والحجر في أهل قباء لا يعرف » مردودنا تقدم (٣) حديث « إن أفواهم طرق القرآن » أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث علي ورواه ابن ماجه موقوفاً على علي وكلاهما صديف (٤) حديث « صلاة على أثر سواك أفضل من خمس وسبعين صلاة بغير سواك » رواه أبو نعيم في كتاب السواك من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف ورواه أبو داود والحاكم وصححه والبيهقي وضعفه من حديث عائشة وضعفه بإلفظ من سبعين صلاة (٥) حديث « لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة » متفق عليه من حديث أبي هريرة (٦) حديث « مالي أراكم تدخلون على فلحاستا كوا » أخرجه البزار والبيهقي من حديث العباس بن عبدالمطلب وأبو داود والبيهقي من حديث تمام ابن العباس والبيهقي من حديث عبد الله بن عباس وهو منضرب (٧) حديث « كان يستاك من الليل مراراً » أخرجه مسلم من حديث ابن عباس (٨) حديث ابن عباس « لم يزل يأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسواك حتى ظننا أنه سينزل عليه فيه شيء » رواه أحمد

مطهرة للثم ومرضاة للرب^(١) ، وقال على بن أبي طالب كرم الله وجهه : السواك يزيد في الحفظ ويذهب البلغم^(٢) وكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يروحون والسواك على آذانهم . وكيفيته : أن يستاك بخشب الأراك أو غيره من قضبان الأشجار مما يخشن ويزيل القلح ويستاك عرضاً وطولاً وإن اقتصر فعرضاً . ويستحب السواك عند كل صلاة وعند كل وضوء وإن لم يصل عقيبهِ وعند تغير النكته بالنوم أو طول الأزم أو كل ما تكره وأتحت ، ثم عند الفراغ من السواك يجلس للوضوء مستقبلاً القبلة ويقول « بسم الله الرحمن الرحيم ، قال صلى الله عليه وسلم « لا وضوء لمن لم يسم الله تعالى^(٣) » ، أى لا وضوء كامل . ويقول عند ذلك « أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون » ، ثم يوصل يديه ثلاثاً قبل أن يدخلهما الإناء ، ويقول « اللهم إني أسألك العين والبركة وأعوذ بك من الشؤم والهلكة » ، ثم ينوي رفع الحدث أو استباحة الصلاة ويستديم النية إلى غسل الوجه فإن نسيها عند الوجه لم يجزه ، ثم يأخذ غرفة لفيه يمينه فيتمضمض بها ثلاثاً ويفرغ بأن يرد الماء إلى الفمصة إلا أن يكون صائماً هيرفتن ويقول « اللهم أعني على تلاوة كتابك وكثرة الذكر لك » ، ثم يأخذ غرفة لأنفه ويستنشق ثلاثاً ويصعد الماء بالنفس إلى خياشيمه ويستنثر ما فيها ويقول في الاستنشاق « اللهم أوجد لي رائحة الجنة وأنت عني راض » ، وفي الاستنشاق « اللهم إني أعوذ بك من روائح النار ومن سوء الدار ، لأن الاستنشاق إيصال والاستنشاق لإزالة » ، ثم يغرف غرفة لوجهه فيغسله من مبدأ سطح الجبهة إلى منتهى ما يقبل من الذقن في الطول ، ومن الأذن إلى الأذن في العرض ، ولا يدخل في حد الوجه النزعتان اللتان على طرفي الجبين فهما من الرأس ، ويوصل الماء إلى موضع التحذيف وهو ما يعتاد النساء تنحية الشعر عنه وهو القدر الذي يقع في جانب الوجه ، مهما وضع طرف الخيط على رأس الأذن والطرف الثاني على زاوية الجبين ، ويوصل الماء إلى منابت الشعور الأربعة : الحاجبان والشاربان والعذاران والأهداب : لأنها خفيفة في الغالب . والعذاران هما ما يوازيان الأذنين من مبدأ اللحية . ويجب إيصال الماء إلى منابت اللحية الخفيفة أعني ما يقبل من الوجه وأما الكثيفة فلا ، وحكم العنفة حكم اللحية في الكثافة والخفة ، ثم يفعل ذلك ثلاثاً ويفيض الماء على ظاهر ما استرسل من اللحية ويدخل الأصابع في محاجر العينين وموضع الرمص ويجمع الكحل وينقيهما . فقد روى أنه عليه السلام فعل ذلك^(٤) ، ويأمل عند ذلك خروج الخطايا من عينيه وكذلك عند كل عضو ويقول عنده « اللهم بيض وجهي بنورك يوم تبيض وجوه أوليائك ولا تسود وجهي بظلماتك يوم تسود وجوه أعدائك » ، ويحل اللحية الكثيفة عند غسل الوجه فإنه مستحب ، ثم يعسل يديه إلى مرفقيه ثلاثاً ويحرك الخاتم ويطيل الغرة ويرفع الماء إلى أعلى المعصد فإنهم يحشرون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء ، كذلك ورد الخبر . قال عليه السلام « من استطاع أن

(١) حديث « عليكم بالسواك فإنه مطهرة لهم مرضاة للرب » أخرجه البخاري تعليقاً مجزوماً من حديث عائشة والنسائي وابن خزيمة ومصولاً ، قلت وصل المصنف هذا الحديث بحديث ابن عباس القتي قبلاً وقد رواه من حديث ابن عباس الطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان (٢) حديث « كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يروحون والاراك على آذانهم » أخرجه الخطيب في كتاب أسماء من روى عن مالك وعند أبي داود والترمذي وصححه « أرزیدن خالد كان يشهد الصلوات وسواك على أذنه موضع القلم من أذن السكاتب (٣) حديث « لا وضوء لمن لم يسم الله » أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث سميد بن زيد أحد الصحابة ونقل الترمذي عن البخاري أنه أحسن شيء في هذا الباب (٤) حديث « لا خاله الأصابع في محاجر العينين وموضع الرمص ويجمع الكحل » أخرجه أحمد من حديث أبي أمامة كان يتماهد بالمناقين ورواه الدارقطني من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف « اشربوا الماء أعينكم »

يطيل غرته فليجعل^(١) ، وروى أن الحلية تبلغ مواضع الوضوء^(٢) ويبدأ باليمنى ويقول « اللهم أعطني كتابي بيمينى وحاسننى حسابا يسيرا » ويقول عند غسل الشمال « اللهم إني أعوذ بك أن تعطيني كتابي بشمالى أو من وراء ظهري » ثم يستوعب رأسه بالمسح بأن يبيل يديه ويلصق رءوس أصابع يديه اليمنى باليسرى ويضعهما على مقدمة الرأس ويمدهما إلى القفا ثم يردهما إلى المقدمة ، وهذه مسحة واحدة ، يجعل ذلك ثلاثا ويقول « اللهم غثنى برحمتك وأنزل على من بركاتك وأظننى تحت ظل عرشك يوم لا ظل إلا ظلك » ثم يمسح أذنيه ظاهرهما وباطنهما بماء جديد بأن يدخل مسبتيه في صياخى أذنيه ويدير إبهاميه على ظاهر أذنيه ثم يضع الكف على الأذنين استظهارا ، ويكرره ثلاثا ويقول « اللهم اجعلنى من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه اللهم اسمعنى منادى الجنة مع الأبرار » ثم يمسح رقبته بماء جديد لقوله صلى الله عليه وسلم « مسح الرقبة أمان من الغل يوم القيامة^(٣) » ويقول « اللهم فك رقبتي من النار وأعوذ بك من السلاسل والأغلال » ثم يعسل رجله اليمنى ثلاثا ويخلل اليد اليسرى من أسفل أصابع الرجل اليمنى ويبدأ بالخنصر من الرجل اليمنى ويختم بالخنصر من الرجل اليسرى ويقول « اللهم ثبت قدمي على الصراط المستقيم يوم تنزل الأقدام في النار » ويقول عند غسل اليسرى « أعوذ بك أن تنزل قدمي عن الصراط يوم تنزل فيه أقدام المنافقين » ويرفع الماء إلى أنصاف الساقين . فإذا فرغ رفع رأسه إلى السماء وقال « أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله سبحانه اللهم وبمحمدك لا إله إلا أنت عملت سوما وظلمت نفسى أستغفرك اللهم وأتوب إليك فأغفر لى وتب على إنك أنت التواب الرحيم اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين واجعلنى من عبادك الصالحين واجعلنى عبدا صبورا شكورا واجعلنى أذكرك كثيرا وأسبحك بكرة وأصيلا . يقال: إن من قال هذا بعد الوضوء ختم على وضوئه بخاتم ورفع له تحت العرش فلم يزل يسبح الله تعالى ويقده ويكتب له ثواب ذلك إلى يوم القيامة . ويكره في الوضوء أمور: منها أن يزيد على الثلاث فن زاد فقد ظلم ، وأن يسرف في الماء « توشأ عليه السلام ثلاثا وقال من زاد فقد ظلم وأساء^(٤) » ، وقال « سيكون قوم من هذه الأمة يعتدون في الدعاء والظهور^(٥) » ، ويقال: من وهن علم الرجل ولوعه بالماء والظهور^(٦) وقال إبراهيم بن أدهم: يقال إن أول ما يبتدئ الوسواس من قبل الظهور ، وقال الحسن: إن شيطاننا يضحك بالناس في الوضوء يقال له الوهان . ويكره أن ينفض اليد فيرش الماء وأن يتكلم في أثناء الوضوء وأن يلطم وجهه بالماء لطم . وكره قوم التنشيف وقالوا: الوضوء يوزن، قاله سعيد بن المسيب والزهري ، لكن روى معاذ رضى الله عنه « أنه عليه السلام مسح وجهه بطرف ثوبه^(٧) » ، وروى عائشة رضى الله عنها « أنه صلى الله عليه وسلم كانت له منشفة^(٨) » ، ولكن طعن في هذه الرواية عن عائشة . ويكره أن يتوشأ من إناء صفر وأن يتوشأ بالماء المشمس وذلك من جهة الطب . وقد روى عن ابن عمر وأبي هريرة رضى الله عنهما كراهية إناء الصفر: وقال بعضهم: أخرجت لشعبة ماء في إناء صفر فأبى أن يتوشأ منه . ونقل كراهية

(١) حديث « من استطاع منكم أن يطيل غرته فليجعل » أخرجه من حديث أبي هريرة (٢) حديث « تبلغ الحلية من المؤمن ما يبلغ ماء الوضوء » أخرجه من حديثه (٤) حديث « مسح الرقبة أمان من الغل » أخرجه أبو بصير الدليلى في مستدررودوس من حديث عمرو بن شعيب (٤) حديث « توشأ ثلاثا ثلاثا وقال من زاد فقد أساء وطم » أخرجه أبو داود والنسائي والبيهقي له وابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (٥) حديث « سيكون قوم من هذه الأمة يعتدون في الدعاء والظهور » أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث عبد الله بن مفضل (٦) حديث « من وهن علم الرجل ولوعه في الماء في التطهير » لم أحد له أصلا (٧) حديث معاذ « أن النبي صلى الله عليه وسلم مسح وجهه بطرف ثوبه » أخرجه الترمذى وقال غريب وإسناده ضعيف (٨) حديث عائشة « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان له منشفة » أخرجه الترمذى وقال ليس بانقائم ، قال ولا يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الباب شيء

ذلك عن ابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهما . ومهما فرغ من وضوئه وأقبل على الصلاة فينبغي أن يخطريه الله أنه طهر ظاهره وهو موضع نظر الخلق أن يستحي من مناجاة الله تعالى من غير تطهير قلبه وهو موضع نظر الرب سبحانه . وليحقق طهارة القلب بالتوبة . والخلو عن الأخلاق المذمومة والتخلق بالأخلاق الحميدة أولى . وأن من يقتصر على طهارة الظاهر كمن يدعو ملكا إلى بيته فتركه مشحونا بالقاذورات واشتغل بتجصيص ظاهر الباب البراني من الدار . وما أحدر مثل هذا الرجل بالتعرض للمقت والبوراء والله سبحانه وتعالى أعلم .

فضيلة الوضوء

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من توضأ فأحسن الوضوء وصلى ركعتين لم يحدث نفسه فيهما بشيء من الدنيا يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه^(١) » وفي لفظ آخر ، ولم يسه فيهما غفر له ما تقدم من ذنبه ، وقال صلى الله عليه وسلم أيضا « ألا أنبئكم بما يكفر الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ إسباغ الوضوء على المكاره ونفل الأقدام إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط - ثلاث مرات -^(٢) » ، « وتوضأ صلى الله عليه وسلم مرة مرة وقال : هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به ، وتوضأ مرتين مرتين وقال : من توضأ مرتين مرتين أتاه الله أجره مرتين ، وتوضأ ثلاثا ثلاثا وقال : هذا وضوئي ووضوء الأنبياء من قبلي ووضوء خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام^(٣) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « من ذكر الله عند وضوئه طهر الله جسده كله ومن لم يذكر الله لم يطهر منه إلا ما أصاب الماء^(٤) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « من توضأ على طهر كذب الله له به عشر حسنات^(٥) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « الوضوء على الوضوء نور على نور^(٦) » ، وهذا كله حث على تجديد الوضوء وقال عليه السلام « إذا توضأ العبد المسلم فتمضمض خرجت الخطايا من فيه فاذا استأثر خرجت الخطايا من وجهه خرجت الخطايا من وجهه حتى تخرج من تحت أشفار عينيه فاذا غسل يديه خرجت الخطايا من يديه حتى تخرج من تحت أظفاره فاذا مسح برأسه خرجت الخطايا من رأسه حتى تخرج من تحت أذنيه وإذا غسل رجله خرجت الخطايا من رجله حتى تخرج من تحت أظفار رجله ثم كان منسبه إلى المسجد وصلاته نافذة له^(٧) » ، ويروى « إن الطاهر كالصائم^(٨) » ، قال عليه الصلاة والسلام « من توضأ فأحسن الوضوء ثم رفع طرفه إلى السماء فقال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء^(٩) » ، وقال عمر رضي الله عنه :

(١) حديث « من توضأ وأسنغ الوضوء وصلى ركعتين لم يحدث فيهما منه شيء من الدنيا يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » وفي لفظ آخر « لم يسه فيهما عهده له ما تقدم من ذنبه » أخرجه ابن المبارك في كتاب الرهد والرقائق باللفظين مما وهو متفق عليه من حديث عثمان بن عفان دور قوله « بشيء من الدنيا » ودون قوله « لم يسه فيهما » وأخرجه أبو داود من حديث زيد بن خالد « ثم صلى ركعتين لا يسهو فيهما الحديث » (٢) حديث « ألا أنبئكم بما يكفر الله به الخطايا ويرفع به الدرجات .. الحديث » أخرجه مسلم عن أبي هريرة (٣) حديث « توضأ مرة مرة وقال هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به .. الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر بإسناد صحيح (٤) حديث « من ذكر الله عند وضوئه طهر الله جسده كله . الحديث » رواه الدارقطني من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف (٥) حديث « من توضأ على طهر كذب الله له عشر حسنات » أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف (٦) حديث « الوضوء على الوضوء نور على نور » لم أجده أصلا (٧) حديث « إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فتمضمض خرجت الخطايا من وجهه الحديث » أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث الصابحي بإسناده صحيح ، ولكنه اختلف في صحته وعند مسلم من حديث أبي هريرة وعمرو بن عبسة نحوه مختصرا (٨) حديث « الطاهر النائم كالصائم » أخرجه أبو منصور الديلمي من حديث عمرو بن حريث « الطاهر النائم كالصائم القائم » وسنده ضعيف (٩) حديث « من توضأ فأحسن الوضوء ثم رفع طرفه إلى السماء فقال أشهد أن لا إله إلا الله ... الحديث » أخرجه أبو داود من حديث عقبة بن عامر وهو عند مسلم دون قوله « ثم رفع هكذا » عزاء المزني في الأطراف وقد رواه الدارقطني في اليوم واليلة من رواية عقبة بن عامر وكذا رواه الدارقطني في مسنده

إنّ الوضوء الصالح يطرد عنك الشيطان . وقال مجاهد : من استطاع أن لا يبیت إلا طاهراً ذاكراً مستغفراً فليفعل فإنّ الأرواح تبعث على ما قبضت عليه .

كيفية الغسل

وهو أن يضع الإناء عن يمينه ثم يسمي الله تعالى ويغسل يديه ثلاثاً ، ثم يستنجي كما وصفت لك ويزيل ما على بدنه من نجاسة إن كانت ، ثم يتوضأ وضوءه للصلاة كما وصفنا إلا غسل القدمين فإنه يؤخرهما فإن غسلهما ثم وضعهما على الأرض كان إضاعة للماء ، ثم يصب الماء على رأسه ثلاثاً ، ثم على شقه الأيمن ثلاثاً ، ثم على شقه الأيسر ثلاثاً ، ثم يدلك ما أقبل من بدنه ويخلل شعر الرأس واللحية ويوصل الماء إلى منابت ما كثف منه أو خف ، وليس على المرأة نقض الضفائر إلا إذا علمت أنّ الماء لا يصل إلى خلال الشعر ، ويتعهد معاطف البدن وليتق أن يمس ذكره في أثناء ذلك فإن فعل ذلك فليعد الوضوء ، وإن توضأ قبل الغسل فلا يعيده بعد الغسل . فهذه سنن الوضوء والغسل ذكرنا منها ما لا بد لسالك طريق الآخرة من عمله وعمله ، وما عداه من المسائل التي يحتاج إليها في صوارض الأحوال فليرجع فيها إلى كتب الفقه . والواجب من جملة ما ذكرناه في الغسل أمران . النية واستيعاب البدن بالغسل . وفروض الوضوء . النية وغسل الوجه وغسل اليدين إلى المرفقين ومسح ما ينطلق عليه الاسم من الرأس وغسل الرجلين إلى الكعبين والترتيب . وأما الموالاة فليست بواجبه والغسل الواجب بأربعة : بخروج المنى والتقاء الحتاتين والحيض والنفاس ، وما عداه من الاغسال سنة كغسل العيدين والجمعة والأعياد والإحرام والوقوف بعرفة ومزدلفة ولدخول مكة وثلاثة أغسال أيام التشريق ولطواف الوداع - على قول - والكافر إذا أسلم غير جنب والمجنون إذا أفاق ولمن غسل ميتاً ، فكل ذلك مستحب

كيفية التيمم

من تعذر عليه استعمال الماء - لفقده بعد الطلب أو بمانع له عن الوصول إليه من سبب أو حابس أو كان الماء الحاضر يحتاج إليه لعطشه أو لعطش رفيقه أو كان ملكاً لغيره ولم يبعه إلا بأكثر من ثمن المثل أو كان به جراحة أو مرض وخاف من استعماله فساد العضو أو شدة الضنا - فينبغي أن يصبر حتى يدخل عليه وقت الفريضة ، ثم يقصد صعيداً طيباً عليه تراب طاهر خالص لين بحيث يثور منه غبار ، ويضرب عليه كفيه ضاماً بين أصابعه ويمسح بهما جميع وجهه مرة واحدة ، وينوي عند ذلك استباحة الصلاة ، ولا يكلف إيصال الغبار إلى ما تحت الشعور خفت أو كثفت ، ويحتمد أن يستوعب بشرة وجهه بالغبار - ويحصل ذلك بالضربة الواحدة فإنّ عرض الوجه لا يزيد على عرض الكفين - ويكفي في الاستيعاب غالب الطنق ، ثم ينزع خاتمه ويضرب ضربة ثانية يفرج فيها بين أصابعه ثم يلمس ظهور يده اليمنى ببطون أصابع يده اليسرى - بحيث لا يجاوز أطراف الأناامل من إحدى الجهتين عرض المسبحة من الأخرى - ثم يمر يده اليسرى من حيث وضعها على ظاهر ساعده الأيمن إلى المرفق ، ثم يقلب بطن كفه اليسرى على باطن ساعده الأيمن ويمرها إلى الكوع ، ويمر بطن إبهامه اليسرى على ظاهر إبهامه اليمنى ، ثم يفعل باليسرى كذلك . ثم يمسح كفيه ويخلل بين أصابعه ، وغرض هذا التكليف تحصيل الاستيعاب إلى المرفقين بضربة واحدة فإن عسر عليه ذلك فلا بأس بأن يستوعب بضرتين وزيادة . وإذا صلى به الفرض فله أن يتنفل كيف شاء ، فإن جمع بين فريضتين فينبغي أن يعيد التيمم الثانية . وهكذا يفرد كل فريضة بتيمم والله أعلم .

القسم الثالث من النظافة : التنظيف عن الفضلات الظاهرة وهي نوعان أوساخ وأجزاء النوع الأول : الأوساخ والرطوبات المترسقة وهي ثمانية :

(الأول) ما يجتمع في شعر الرأس من الدرن والقمل فالتنظيف عنه مستحب بالغسل والترجيل والتدهين لإزالة للشعث عنه ، وكان صلى الله عليه وسلم يدهن الشعر ويرجله غبا ويأمر به ^(١) ويقول عليه الصلاة والسلام : ادهنوا غبا ^(٢) وقال عليه الصلاة والسلام من كان له شعرة فليكرمها ^(٣) أى ليصنها عن الأوساخ ودخل عليه رجل نثر الرأس أشعث اللحية فقال : أما كان لهذا دهن يسكن به شعره ثم قال : يدخل أحدكم كأنه شيطان ^(٤) ، (الثاني) ما يجتمع من الوسخ في معاطف الأذن ، والمسح يريل ما يظهر منه وما يجتمع في قعر الصماخ فينبغي أن ينظف برفق عند الخروج من الحمام فإن كثرة ذلك ربما تضر بالسمع . (الثالث) ما يجتمع في داخل الأنف من الرطوبات المنعقدة الملتصقة بجوانبه ويريلها بالاستنشاق والاستنشاق . (الرابع) ما يجتمع على الأسنان وطرف اللسان من القلح فيزيله السواك والمضمضة وقد ذكرناهما . (الخامس) ما يجتمع في اللحية من الوسخ والقمل إذا لم يتعهد ويستحب إزالة ذلك بالغسل والتسريح بالمشط . وفي الخبر المشهور أنه صلى الله عليه وسلم « كان لا يمارقه المشط والمدري والمرأة في سفر ولا حضر ^(٥) » ، وهي سنة العرب وفي خبر غريب « أنه صلى الله عليه وسلم كان يسرح لحيته في اليوم مرتين ^(٦) » ، وكان صلى الله عليه وسلم كت اللحية ^(٧) ، وكذلك كان أبو بكر ، وكان عثمان طويل اللحية رقيقة وكان على عريض اللحية قد ملأت ما بين منكبيه . وفي حديث أغرب منه قالت عائشة رضي الله عنها « اجتمع قوم يباب رسول الله صلى الله عليه وسلم نخرج إليهم فرأيتهم يطلع في الحب يسوى من رأسه ولحيته ^(٨) فقلت أو تفعل ذلك يا رسول الله ؟ فقال : نعم إن الله يحب من عبده أن يتجمل لإخوانه إذا خرج إليهم ، والجاهل ربما يظن أن ذلك من حب التزين للناس قياسا على احلاق غيره وتشبيها للملائكة بالجناديين وهيئات ! فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مأمورا بالدعوة وكان من وظائفه أن يسعى في تعظيم أمر نفسه في قلوبهم كيلا تردده نفوسهم ويحسن صورته في أعينهم كيلا تستغفروه أعينهم فينفرهم ذلك ويتعلق المنافقون بذلك في تنفيرهم . وهذا القصد واجب على كل عالم تصدى لدعوة الخلق إلى الله عز وجل ، وهو أن يراعى من ظاهره ما لا يوجب نفرة الناس عنه . والاعتماد في مثل هذه الأمور على النية فانها أعمال في أنفسها تكتسب الأوصاف من المقصود ، فالتزين

(١) حديث « كان يدهن الشعر ويرجله » أخرجه الترمذى في الشمائل بإسناد ضعيف من حديث أنس « كان يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته » وفي الشمائل أيضاً بإسناد حسن من حديث سحابة لم يسم « أنه عليه الصلاة والسلام كان يترجل غبا » (٢) حديث « ادهنوا غبا » قال ابن الصلاح لم أجده له أصلاً وقال النووي غير معروف وعند أبي داود والترمذى والسنن من حديث عبد الله بن منقل « النهى عن الترجل لأعبا » بإسناد صحيح (٣) حديث « من كانت له شعرة فليكرمها » من حديث أبي هريرة وقال « به شعر فليكرمه » وإسناد صحيح (٤) حديث « دخل عليه رجل نثر الرأس أشعث اللحية فقال أما كان لهذا دهن يسكن به شعره .. الحديث » أخرجه أبو داود والترمذى وابن حبان من حديث جابر بإسناد جيد (٥) حديث « كان لا يمارقه المشط والمدري في سفر ولا حضر » أخرجه ابن طاهر في كتاب صفة التصوف من حديث أبي سعيد « كان لا يمارق مصلحه سواك وشمطه » ورواه الطبراني في الأوسط من حديث عائشة وإسنادهما ضعيف . وسأيت في آداب السمر مطولا (٦) حديث « كان يسرح لحيته كل يوم مرتين » تقدم حديث أنس « كان يكثر تسريح لحيته » و« حطبت في الجامع من حديث الحكم مرسل » كان يسرح لحيته بالمشط » (٧) حديث « كان كت اللحية » أخرجه الترمذى في الشمائل من حديث هند ابن ابي هالة وأبو سيم في دلائل النبوة من حديث علي وأصله عند الترمذى (٨) حديث عائشة « اجتمع قوم يباب رسول الله صلى الله عليه وسلم نخرج إليهم فرأيتهم يطلع في الحب يسوى من رأسه ولحيته » أخرجه ابن عدى وقال حديث منكر

على هذا القصد محبوب وترك التمثع في اللحية إظهاراً للزهد وقلة المبالاة بالنفس محدود وتركه شغلاً بما هو أهم منه محبوب . وهذه أحوال باطنة بين العبد وبين الله عز وجل . والناقد بصير والتلبس غير رائج عليه بحال ، وكمن جاهل يتعاطى هذه الأمور التفاتاً إلى الخلق وهو يلبس على نفسه وعلى غيره ويزعجهم أن قصده الخير ، فترى جماعة من العلماء يلبسون الثياب الفاخرة ويزعجون أن قصدهم إرغام المبتدعة والمحاذلين والتقرب إلى الله تعالى به وهذا أمر ينكشف يوم تبلى السرائر ، ويوم يعثر ما في القبور ويحصل ما في الصدور ؛ فعند ذلك تتميز السييكة الخالصة من البرجة فنعوذ بالله من الخزي يوم العرض الأكبر (السادس) وسخ البراجم وهي معاطف ظهور الأمان ، كانت العرب لا تكثر غسل ذلك لتركها غسل اليد عقيب الطعام فيجتمع في تلك الغضون وسخ فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بغسل البراجم ^(١) (الساع) تنظيف الرواجب ^(٢) أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم العرب بتنظيفها وهي رموس الأمان وما تحت الأظفار من الوسخ لأنها كانت لا يحضرها المقراض في كل وقت فيجتمع فيها أوساخ ؛ فوقت لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قلم الأظفار وتنف الإبط وحلق العانة أربعين يوماً ^(٣) لكنه أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتنظيف ما تحت الأظفار ^(٤) وجاء في الأثر « أن النبي صلى الله عليه وسلم استنظأ الوحي فلما هبط عليه جبريل عليه السلام قال له : كيف نزل عليكم وأنتم لا تغسلون براجمكم ولا تنظفون رواجمكم ^(٥) وقلحا لا تستاكون . مرأمتك بذلك ، والاف وسخ الظفر ، والتف وسخ الأذن وقوله عز وجل ﴿ فلا تقل لها أف ﴾ تعبها أي بما تحت الظفر من الوسخ ، وقيل لا تتأذي بهما كما تتأذي بما تحت الظفر (الثامن) الدرني الذي يجتمع على جميع البدن برشح العرق وغبار الطريق ، وذلك يزيله الحمام ولا بأس بدخول الحمام ، دخل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حمامات الشام وقال بعضهم : نعم البيت بيت الحمام بطهر البدن ويذكر النار : روى ذلك عن أبي الدرداء وأبي أيوب الأنصاري رضى الله عنهما . وقال بعضهم . بئس البيت بيت الحمام يبدى العورة ويذهب الحياء . فهذا تعرض لآفته وذلك تعرض لفائدته ولا بأس بطلب فائدته عند الاحتراز من آفته . ولكن على داخل الحمام وطاقت من السن والواجبات ، فعليه واجبان في عورته وواجبان في عورة غيره . أما الواجبان في عورته فهو أن يصونها عن نظر الغير ويصونها عن مس الغير فلا يتعاطى أمرها وإزالة وسحها لإليده ، وينع الدلاك من مس الفخذ وما بين السرة إلى العانة ، وفي إباحت مس ما ليس بسوءة لإزالة الوسخ احتمال ، ولكن الأقيس التحريم إذ ألحق مس السواتين في التحريم بالنظر فكذلك ينبغى أن تكون بقية العورة أعنى الفخذين . والواجبان في عورة الغير أن يفض بصر نفسه عنها وأن ينهى عن كشفها لأن النبي عن المنكر واجب ، وعليه ذكر ذلك وليس عليه القبول ولا يسقط عنه وجوب الذكر إلا لخوف ضرب أو شتم أو ما يجرى عليه مما هو حرام في نفسه ، فليس عليه أن ينكر حراماً يرهق المنكر عليه إلى مباشرة حرام آخر . فأما قوله أعلم أن ذلك لا يصيد ولا يعمل به فهذا

(١) حديث « الأمر فسل البراجم » أخرجه الترمذي الحكيم في النوادر من حيث عد الله بن بسر « هموا براجمكم » ولا بن عدى في حديث لأنس « وأن يماهد البراجم إذا توسأ . ولمسلم من حديث عائشة « عشر من العطرة - وفيه - وغسل البراجم » (٢) الأمر بتنظيف الرواجب « أخرجه أحمد من حديث ابن عباس « أنه قيل له يا رسول الله لقد أطاعك جبريل فقبل ولم لا يطى ؟ وأتم لا تستنوت ولا تقهون أطافركم ولا تقصون شواركم ولا تقون رواجمكم » وفيه لسماعيل بن عياش (٣) حديث « الترفيت في لم الأظفار ونف الأظ وخلق العانة أربعين يوماً » أخرجه مسلم من حديث أس (٤) حديث « الأمر بتنظيف ما تحت الأظفار » أخرجه الطبراني من حديث واهبة بن سعيد « سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن كل شيء حتى سألت عن الوسخ الذي يكون بين الأظفار فقال دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » (٥) حديث « استنظأ الوحي : فلما هبط عليه جبريل قال له : كيف نزل عليكم وأنتم لا تغسلون رواجمكم ولا تنظفون رواجمكم » تقدم قبل هذا بحديثين

لا يكون عذرا بل لا بد من الذكر ، فلا يخلو قلب عن التأثر من سماع الإنكار واستشعار الاحتراز عند التعبير بالمعاصي وذلك يؤثر في تقيح الأمر في عينه وتنفير نفسه فلا يجوز تركه ، ولمثل هذا صار الحزم ترك دخول الحمام في هذه الأوقات إذ لا تخلو عن عورات مكشوفة لا سيما ماتحت السرة إلى مافوق العانة ؛ إذ الناس لا يعدونها عورة وقد أحقها الشرع بالعمرة وجعلها كالحریم لها ولهذا يستحب تخلية الحمام . وقال بشر بن الحرث : ما أعنف رجلا لا يملك إلا درهما دفعه ليخلى له الحمام . ورؤى ابن عمر رضی الله عنهما في الحمام ووجهه إلى الخائط وقد عصبت عينيه بعصابة وقال بعضهم : لا بأس بدخول الحمام ولكن يازارين : إزار للعورة وإزار للرأس يتقنع به ويحفظ عينيه ، وأما السنن فعمرة ، فالأول : النية وهو أن لا يدخل لعاجل دنيا ولا عابثا لأجل هوى بل يقصد به التنظيف المحبوب ترينا للصلاة ، ثم يعطى الحمامى الأجرة قبل الدخول فإن ما يستوفيه مجهول وكذا ما ينتظره الحمامى ، فنسليم الأجرة قبل الدخول دفع للجهاالة من أحد العوضين وتطيبب لنفسه ، ثم يقدم رجله اليسرى عند الدخول ويقول بسم الله الرحمن الرحيم أعود بالله من الرجس النجس الخبيث الخبيث الشيطان الرجيم ، ثم يدخل وقت الخلو أو يتكلم تخلية الحمام فإنه إن لم يكن في الحمام إلا أهل الدين والمحتاطين للعورات فالنظر إلى الأبدان مكشوفة فيه شائبة من قلة الحياء وهو مدكر للنظر في العورات ، ثم لا يخلو الإنسان في الحركات عن انكشاف العورات بانعطاف في أطراف الإرار فيقع البصر على العورة من حيث لا يدري ، ولأجله عصب ابن عمر رضی الله عنهما عينيه ، ويفسل الجناحين عند الدخول ولا يعجل بدخول البيت الحار حتى يعرق في الأول ، وأن لا يكتر صب الماء بل يقتصر على قدر الحاجة فإنه المأذون فيه بقرينة الحال والزيادة عليه لو علمه الحمامى لكرهه ، لاسيما الماء الحار فله مثونة وفيه تعب وأن يتذكر حر النار بحرارة الحمام ويقدر نفسه محبوسا في البيت الحار ساعة ويقيسه إلى جهنم ، فإنه أشبه بيت جهنم : النار من تحت والظلام من فوق نعوذ بالله من ذلك ، بل العاقل لا يغفل عن ذكر الآخرة في لحظة فإنها مصيره ومستقره فيكون له في كل ما يراه من ماء أو نار أو غيرهما عبرة وموعظة ، فإن المرء ينظر بحسب همته . فإذا دخل براز ونجار وبناء وحائك دارا معمورة مفروشة فإذا تفقدتهم رأيت البراز ينظر إلى الفرش يتأمل قيمتها والحائك ينظر إلى الثياب يتأمل نسجها والنجار ينظر إلى السقف يتأمل كيفية تركيبها والبناء ينظر إلى الحيطان يتأمل كيفية إحكامها واستقامتها . فكذلك سالك طريق الآخرة لا يرى من الأشياء شيئا إلا ويكفون له موعظة وذكري للآخرة ، بل لا ينظر إلى شيء إلا ويفتح الله عز وجل له طريق عبرة فإن نظر إلى سواد تذكر ظلمة اللحد وإن نظر إلى حية تذكر أفاعى جهنم وإن نظر إلى صورة قبيحة شنيعة تذكر منكرا ونكيرا والزبانية ، وإن سمع صوتا هائلا تذكر نفخة الصور وإن رأى شيئا حسنا تذكر نعيم الجنة وإن سمع كلمة رد أو قبول في سوق أو دار تذكر ما ينكشف من آخر أمره بعد الحساب من الرد والقبول وما أجدر أن يكون هذا هو الغالب على قلب العاقل إذ لا يصرفه عنه إلا مهمات الدنيا ! فإذا نسب مدة المقام في الدنيا إلى مدة المقام في الآخرة استحقهما إن لم يكن ممن أغفل قلبه وأعميت بصيرته . ومن السنن : أن لا يسلم عند الدخول وإن سلم عليه لم يجب بلفظ السلام بل يسكت إن أجاب غيره وإن أحب قال « عافاك الله » ، ولا بأس بأن يصفح الداخل ويقول « عافاك الله » ، لا ابتداء الكلام . ثم لا يكتر الكلام في الحمام ولا يقرأ القرآن إلا سرا ولا بأس بإظهار الاستعاذة من الشيطان ويكره دخول الحمام بين العشاءين وقريبا من الغروب فإن ذلك وقت انتشار الشياطين ، ولا بأس أن يدلكه غيره فقد نقل ذلك عن يوسف بن أسباط أوصى بأن يغسله إنسان لم يكن من أصحابه وقال : إنه دلكني في الحمام مرة فأردت أن أكافئه بما يفرح به وإنه

يفرح بذلك . ويدل على جوازه ما روى بعض الصحابة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل منزلاً في بعض أسفاره فنام على بطنه وعبد أسود يغمز ظهره فقلت : ما هذا يا رسول الله ؟ فقال : إن الناقة تقحمت بي ^(١) ، ثم هما فرغ من الحمام شكر الله عز وجل على هذه النعمة . فقد قيل الماء الحار في الشتاء من التعميم الذي يسأل عنه . وقال ابن عمر رضي الله عنهما : الحمام من التعميم الذي أحدثوه . هذا من جهة الشرع . أما من جهة الطب فقد قيل : الحمام بعد النورة أمان من الجدام . وقيل ؛ النورة في كل شهر مرة تطفىء المرة الصفراء وتنقي اللون وتزيد في الجماع . وقيل : بولة في الحمام قائماً في الشتاء أنفع من شربة دواء . وقيل : نومة في الصيف بعد الحمام تعدل شربة دواء . وغسل القدمين بماء بارد بعد الخروج من الحمام أمان من القرس ويكره صب الماء البارد على الرأس عند الخروج وكذا شربه ، هذا حكم الرجال : وأما النساء فقد قال صلى الله عليه وسلم « لا يحل للرجل أن يدخل حليلته الحمام ^(٢) » وفي البيت مستح ، والمشهور أنه حرام على الرجال دخول الحمام إلا بمئزر ^(٣) ، وحرام على المرأة دخول الحمام إلا بنفساء أو مريضة . ودخلت عائشة رضي الله عنها حماماً من سقم بها . فإن دخلت لضرورة فلا تدخل إلا بمئزر سابغ ، ويكره للرجل أن يعطيها أجرة الحمام فيكون معينها على المكروه .

النوع الثاني : فيما يحدث في البدن من الأجزاء وهي ثمانية

(الأول) شعر الرأس ولا بأس بخلقه لمن أراد التنظيف ولا بأس بتركه لمن يدهنه ويرحله إلا إذا تركه قزعا ، أى قطعاً وهو دأب أهل الشطارة ، أو أرسل الذوائب على هيئة أهل الشرف حيث صار ذلك شعاعاً لهم فإنه إذا لم يكن شريفاً كان ذلك تلبساً (الثاني) شعر الشارب وقد قال صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم « قصوا الشارب ، وفي لفظ آخر « جروا الشوارب » ، وفي لفظ آخر « حفوا الشوارب وأعفوا اللحى ^(٤) » ، أى اجملوها حفاف الشفة أى حولها ، وحفوا الشيء : حوله . ومنه « وترى الملائكة حافين من حول العرش » وفي لفظ آخر « احفوا ، وهذا يشعر بالاستئصال وقوله « حفوا » يدل على مادون ذلك . وقال الله عز وجل « إن يستلكوها فيحفكم تبخلوا » أى يستقصي عليكم ، وأما الخلق فلم يرد . والإحفاء القريب من الخلق نقل عن الصحابة : نظر بعض التابعين إلى رجل أحفى شاربته فقال : ذكرتني أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال المعيرة بن شعبة « نظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد طال شاربه فقال : تعال فقصه لى على سواك ^(٥) » ، ولا بأس بترك سباليه وهما طرفا الشارب ، فعل ذلك عمر وغيره لأن ذلك لا يستر الفم ولا يبقى فيه غمير الطعام إذ لا يصل إليه : وقوله صلى الله عليه وسلم « اعفوا اللحى » أى كثروها وفي الخبر « إن اليهود يعفون شواربهم

(١) حديث « نزل منزلاً في بعض أسفاره فنام على بطنه وعبد أسود يغمز ظهره ... الحديث » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث عمر بن الخطاب . (٢) حديث « لا يحل للرجل أن يدخل حليلته الحمام .. الحديث » يأتي في الذي يليه مع اختلاف (٣) حديث « حرام على الرجال دخول الحمام إلا بمئزر .. الحديث » أخرجه النسائي والحاكم وصححه من حديث جابر « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام إلا بمئزر ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل حليلته الحمام » ولحاكم من حديث عائشة « الحمام حرام على نساء أمي » قال صحيح الإسناد ولأبي داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر « فلا يدخلها الرجال إلا بإزار وامعوا النساء إلا من مرصعة أو نساء » (٤) حديث « قصوا » وفي لفظ « احفوا » وفي لفظ « اعفوا اللحى » متفق عليه من حديث ابن عمر بلطف « احفوا » وسلم من حديث أبي هريرة « جزوا » ولأحمد من حديثه « قصوا » (٥) حديث المعيرة بن شعبة « نظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد طال شاربه فقال : تعال فقصه لى على سواك » أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي في المعامل

ويقصون لحام^(١) مخالفاً لهم ، وكره بعض العلماء الحلق ورآه بدعة (الثالث) شعر الإبط ويستحب تنفه في كل أربعين يوماً مرة وذلك سهل على من تعود تنفه في الابتداء ، فأما من تعود الحلق فيكفيه الحلق إذ في التنف تعذيب وإيلام ، والمقصود النظافة وأن لا يجتمع الوسخ في خللها ويحصل ذلك بالحلق (الرابع) شعر العانة ويستحب إزالة ذلك إما بالحلق أو بالنورة ولا ينبغي أن تتأخر عن أربعين يوماً (الخامس) الأظفار وتقليمها مستحب لشناعة صورتها إذا طالت ولما يجتمع فيها من الوسخ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا هريرة أقلم أظفارك فإن الشيطان يقعد على ما طال منها^(٢) ، ولو كان تحت الظفر وسخ فلا يمنع ذلك صحة الوضوء لأنه لا يمنع وصول الماء ولأنه يتساهل فيه للحاجة لا سيما في أظفار الرجل وفي الأوساخ التي تجتمع على البراجم وظهور الأرجل والأيدي من العرب وأهل السواد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرهم بالقلم وينكر عليهم ما يرى تحت أظفارهم من الأوساخ ولم يأمرهم بإعادة الصلاة ، ولو أمر به لكان فيه فائدة أخرى وهو التغلظ والرجز عن ذلك . ولم أر في الكتب خبراً مروياً في ترتيب قلم الأظفار ولكن سمعت أنه صلى الله عليه وسلم بدأ بمسبحة النبي وختم بإبهامه النبي وابتدأ في اليسرى بالخنصر إلى الإبهام^(٣) ، ولما تأملت في هذا خطر لي من المعنى ما يدل على أن الرواية فيه صحيحة إذ مثل هذا المعنى لا ينكشف ابتداءً لإنبور النبوة ، وأما العالم ذو البصيرة فغايتة أن يستنبطه من العقل بعد نقل العمل إليه . فالذي لاح لي فيه والعلم عند الله سبحانه أنه لا بد من قلم أظفار اليد والرجل ، واليد أشرف من الرجل فيبدأ بها ، ثم اليمنى أشرف من اليسرى فيبدأ بها ، ثم على اليمنى خمسة أصابع والمسبحة أشرفها إذ هي المشيرة في كلتي الشهادة من جملة الأصابع ، ثم بعدها ينبغي أن يبتدئ بها على يمينها إذ الشرع يستحب إدارة الطهور وغيره على اليمين ، وإن وضعت ظهر الكف على الأرض فالإبهام هو اليمين ، وإن وضعت بطن الكف فالوسطى هي اليمنى ، واليد إذا تركزت بطبعها كان الكف مائلاً إلى جهة الأرض إذ جهة حركة اليمين إلى اليسار واستتمام الحركة إلى اليسار يجعل ظهر الكف عالياً فيقتضيه الطبع أولى ، ثم إذا وضعت الكف على الكف صارت الأصابع في حكم حلقة دائرة ، فيقتضى ترتيب الدور الذهاب عن يمين المسبحة إلى أن يعود إلى المسبحة ، فتقع البداية بخنصر اليسرى والختم بإبهامها ويبقى إبهام اليمنى فيختم به التقليم . وإنما قدرت الكف موضوعة على الكف حتى تصير الأصابع كأشخاص في حلقة ليظهر ترتيبها . وتقدير ذلك أولى من تقدير وضع الكف على ظهر الكف أو وضع ظهر الكف على ظهر الكف فإن ذلك لا يقتضيه الطبع . وأما أصابع الرجل فالأولى عندي - إن لم يثبت فيها نقل - أن يبدأ بخنصر اليمنى ويختم بخنصر اليسرى كما في التحليل ، فإن المعاني التي ذكرها في اليد لا تتجه ههنا إذ لا مسبحة في الرجل . وهذه الأصابع في حكم صف واحد ثابت على الأرض فيبدأ من جانب اليمنى فإن تقديرها حلقة بوضع الأخص على الأخص يأباه الطبع بخلاف اليمين . وهذه الدقائق في الترتيب تنكشف بنور النبوة في لحظة واحدة وإنما يطول التعب علينا . ثم لو سئلتنا ابتداءً عن الترتيب في ذلك ربما لم يخطر لنا . وإذا ذكرنا فعله صلى الله عليه

(١) حديث « إن اليهود يهون شواربهم ويقصون لحام خالهم » أخرجه أحمد من حديث أبي أمامة « قلنا يا رسول الله إن أهل الكتاب يقصون ثنايينهم ويوفرون سبالم فقال قصوا سبالمكم ووفروا ثنايينكم وناموا أهل الكتاب » قلت والمشهور أن هذا فعل الجوس في صحيح ابن عمر في الجوس « أنهم يوفرون سبالمهم ويحلقون لحام خالهم »

(٢) حديث « يا أبا هريرة قلم ظفرك فان الشيطان يقعد على ما طال منها » أخرجه الخطيب في الجامع ، إسناده ضعيف من حديث جابر « قصوا أظفاركم » فان الشيطان يجرى ما بين اللحم والظفر (٣) حديث « البداية في قلم الأظفار » بحجة اليمنى والختم بإبهامها وفي اليسرى بالخنصر إلى الإبهام » لم أجد له أصلاً وقد أنكره أبو عبد الله المازري في الرد على النزالي وشمع عليه به

وسلم وترتيبه ربما تيسر لنا مما عاينه صلى الله عليه وسلم بشهادة الحكم وتنبيهه على المعنى استنباط المعنى ، ولا تنظن أن أفعاله صلى الله عليه وسلم في جميع حركاته كانت خارجة عن وزن وقانون وترتيب بل جميع الأمور الاختيارية التي ذكرناها يتردد فيها الفاعل بين قسمين أو أقسام كان لا يقدم على واحد معين بالاتفاق بل بمعنى يقتضى الإقدام والتقديم ، فإن الاسترسال مهملاً - كما يتفق - بحجة البهائم ، وصبط الحركات بموازن المعاني بحجة أولياء الله تعالى . وكلما كانت حركات الإنسان وخطراته إلى الضبط أقرب وعن الإهمال وتركة سدى أبعد : كانت مرتبته إلى رتبة الأنبياء والأولياء أكثر وكان قربه من الله عز وجل أظهر ؛ إذ القريب من النبي صلى الله عليه وسلم هو العريب من الله عز وجل والقريب من الله لا بد أن يكون قريباً فالتقريب من القريب قريب بالإضافة إلى غيره فنعود بالله أن يكون زمام حركاتنا وسكاتنا في يد الشيطان بواسطة الهوى . واعتبر في ضبط الحركات باكتحاله صلى الله عليه وسلم « فإنه كان يكتحل في عينه اليمنى ثلاثاً وفي اليسرى اثنتين ^(١) » ، فيبدأ باليمنى لشرفها . وتفاوته بين العينين لتكون الحملية وترا ، فإن للوتر فضلاً عن الزوج فإن الله سبحانه وتر يحب الوتر فلا ينبغى أن يخلو فعل العبد من مناسبة لوصف من أوصاف الله تعالى . ولذلك استحب الإيتار في الاستحجار . وإنما لم يقتصر على الثلاث وهو وتر لأن اليسرى لا ينحصر إلا واحدة والغالب أن الواحدة لا تستوعب أصول الأجناف بالكحل ، وإنما خصص اليمنى بالثلاث لأن التفضيل لا بد منه للإيتار واليمن أفضل فهي بالزيادة أحق * فإن قلت : فلم اقتصر على اثنتين لليسرى وهي زوج ؟ فالجواب أن ذلك ضرورة إذ لو جعل لكل واحدة وتر لكان المجموع زوجاً إذ الوتر مع الوتر زوج ، ورعايته الإيتار في مجموع العمل وهو في حكم الحصلة الواحدة أحب من رعايته في الأحاد . ولذلك أيضاً وجه وهو أن يكتحل في كل واحدة ثلاثاً على قياس الوضوء ^(٢) وقد نقل ذلك في الصحيح وهو الأولى . ولو ذهبت أستقصى دقائق ما راعاه صلى الله عليه وسلم في حركاته لطال الأمر فقس بما سمعته ما لم تسمعه . واعلم أن العالم لا يكون وارثاً للنبي صلى الله عليه وسلم إلا إذا اطلع على جميع معاني الشريعة حتى لا يكون بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم إلا درجة واحدة وهي درجة النبوة ، وهي الدرجة الفارقة بين الوارث والموروث ، إذ الموروث هو الذي حصل المال له واشتغل بتحصيله واقتدر عليه والوارث هو الذي لم يحصل ولم يقدر عليه ولكن انتقل إليه وتلقاه منه بعد حصوله له ، فأمثال هذه المعاني مع سهولة أمرها بالإضافة إلى الأغوار والأسرار لا يستقل بدركها ابتداءً إلا الأنبياء ولا يستقل باستنباطها تلقياً بعد تنبيه الأنبياء عليها إلا العلماء الذين هم ورثة الأنبياء عليهم السلام (السادس والسابع) زيادة السرة وقلمة الحشفة ؛ أما السرة فتقطع في أول الولادة وأما التطهير بالختان فعادة اليهود في اليوم السابع من الولادة ومخالفتهم بالتأخير إلى أن يشعر الولد أحب وأبعد عن الخطر قال صلى الله عليه وسلم « الختان سنة للرجال ومكرمة للنساء ^(٣) » ، وينبغي أن لا يبالغ في خفض المرأة قال صلى الله عليه وسلم لأم عطية وكانت تخفض « يا أم عطية أسمى ولا تهكي فإنه أسرى للوجه وأحطى عند الزوج ^(٤) » ، أي أكثر لمساء الوجه ودمه وأحسن في جماعها فأنظر إلى حرالة لفظه صلى الله عليه وسلم في الكناية وإلى إشراق نور النبوة من مصالح الآخرة التي هي أهم مقاصد النبوة إلى

(١) حديث « كان يكتحل في عينه اليمنى ثلاثاً وفي اليسرى اثنتين » أخرجه الطبراني من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف
(٢) حديث « الاكتحال في كل عين ثلاثاً » قال النزالي ونقل ذلك في الصحيح ، قلت هو عند الترمذى وابن ماجه من حديث ابن عباس قال الترمذى حديث حسن .

(٣) حديث « الختان سنة الرجال مكرمة النساء » أخرجه أحمد والبيهقي من رواية أبي المليح بن أسامة عن أبيه بإسناد ضعيف
(٤) حديث « أم عطية أسمى ولا تهكي .. الحديث » أخرجه الحاكم والبيهقي من حديث العصاك بن قيس ولأبي داود بحديث من حديث أم عطية وكلاهما ضعيف

مصالح الدنيا حتى انكشف له وهو أُمى من هذا الأمر النازل قدره مالو وقعت النقلة عنه خيف ضرره فسبحان من أرسله رحمة للعالمين ليجمع لهم بيمن بعثته مصالح الدنيا والدين صلى الله عليه وسلم (الثامنة) ما طال من اللحية وإنما أخرناها لتلحق بها مافي اللحية من السنن والدع إذ هذا أقرب موضع يليق به ذكرها وقد اختلفوا فيما طال منها ف قيل إن قبض الرجل على لحيته وأخذ ما فضل عن القبضة فلا بأس فقد فعله ابن عمر وجماعة من التابعين واستحسنه الشعبي وابن سيرين وكرهه الحسن وقتادة وقالوا تركها عافية أحب لقوله صلى الله عليه وسلم « اعفوا اللحى » والامر في هذا قريب إن لم ينته إلى تقصيص اللحية وتدويرها من الحوانث فإن الطول المهرط قد يشوه الحلقة ويطلق السنة المغتابين بالنبذ إليه فلا بأس بالاحراز عنه على هذه النية . وقال النخعي عجب لرجل عاقل طويل اللحية كيف لا يأخذ من لحيته ويجعلها بين لحيتين فإن التوسط في كل شيء حسن ، ولذلك قيل كلما طالت اللحية تضر العقل .

فصل

وفي اللحية عشر خصال مكروهة وبعضها أشد كراهة من بعض ؛ خضابها بالسواد وتبييضها بالكبريت وتنفها وتنف الشيب منها والنقصان منها والزيادة وتسريحها تصنعاً لأجل الرياء وتركها شعثة إظهاراً للزهد والنظر إلى سوادها عجباً بالشباب وإلى بياضها تكبراً لعلو السن وخضابها بالحمرة والصفرة من غير نية تشبها بالصالحين . أما الأول وهو الخضاب بالسواد فهو منهي عنه لقوله صلى الله عليه وسلم « خير شبابكم من تشبه بشيوخكم وشريوكم من تشبه بسبابكم ^(١) » والمراد بالتشبه بالسيوخ في الوقار لا في تبييض الشعر و « نهى عن الخضاب بالسواد ^(٢) » وقال هو خضاب أهل النار ^(٣) ، وفي لفظ آخر « الخضاب بالسواد خضاب الكفار » وتزوج رجل على عهد عمر رضي الله عنه وكان يخضب بالسواد فصل خضابه وظهرت شيبته فرفعه أهل المرأة إلى عمر رضي الله عنه فرد نكاحه وأوجه ضرباً وقال : غررت القوم بالساب ولبست عليهم شيبتك ويقال أول من خضب بالسواد فرعون لعنه الله وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « يكون في آخر الزمان قوم يخضبون بالسواد كخواصل الحمام لا يريحون رائحة الجنة ^(٤) » الثاني : الخضاب بالصفرة والحمرة وهو جائز تديسا للشيب على الكفار في الغزو والجهاد فإن لم يكن على هذه النية بل للتشبه بأهل الدين فهو مذموم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الصفرة خضاب المسلمين والحمرة خضاب المؤمنين ^(٥) » وكانوا يخضبون بالحناء للحمرة وبالخلوق والكتم للصفرة ، وخضب بعض العلماء بالسواد لأجل الغزو وذلك لأبأس به إذا سحت النية ولم يكن فيه هوى وشهوة . الثالث : تبييضها بالكبريت استعجالاً لإظهار علو السن توصلاً إلى التوقير وقبول الشهادة والتصديق بالرواية عن الشيوخ وترفعاً عن الشباب وإظهاراً لكثرة العلم ظناً بأن كثرة الأيام تعطيه فضلاً وهيات فلا يزيد كبر السن للجاهل إلا جهلاً فالعلم ثمرة العقل وهي غريزة ولا يؤثر الشيب فيها ومن كانت غريزته الحق فطول المدة يؤكد حماقته وقد كان الشيوخ يقدمون الشباب

(١) حديث « خير شبابكم من تشبه بشيوخكم » الحديث « أخرجه الطبراني من حديث وائلة بإسناد ضعيف

(٢) حديث « نهى عن الخضاب بالسواد » أخرجه ابن سعد في الطبقات من حديث عمرو بن العاص بإسناد منقطع ، ولمسلم من حديث حابر « وعبروا هذا بئسء واجتذوا السواد » قاله حين رأى يباس شمرأى قحافة

(٣) حديث « الخضاب بالسواد خضاب أهل النار » وفي لهط « خضاب الكفار » أخرجه الطبراني والحاكم من حديث ابن عمر بلفظ « الكافر » قال ابن أبي حاتم منكر .

(٤) حديث « يكون في آخر الزمان قوم يخضبون بالسواد ... الحديث » أخرجه أبو داود والسنائي من حديث ابن عباس بإسناد جيد . (٥) حديث « الصفرة خضاب المسلمين والحمرة خضاب المؤمنين » أخرجه الطبراني والحاكم بلفظ الأفراد من حديث ابن عمر قال ابن أبي حاتم منكر .

بالعلم . كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقدم ابن عباس وهو حديث السن على أكابر الصحابة ويسأله دونهم . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : ما أتى الله عز وجل عبداً علماً إلا شاباً والخير كله في الشباب ثم تلا قوله عز وجل ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَدُكُرُّهُمُ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ وقوله تعالى ﴿ لَئِنْهُمْ فَتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَأَتَيْنَاهُ الْحَكْمَ صَبِيًّا ﴾ وكان أنس رضى الله عنه يقول : قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء فقيل له يا أبا حمزة فقد أسن فقال لم يشنه الله بالشيب فقيل أهو شين فقال كلكم يكرهه (١) ، ويقال إن يحيى بن أكرم ولى القضاء وهو ابن إحدى وعشرين سنة فقال له رجل في مجلسه يريد أن يحمله بصغر سنه كم سن القاضي أيده الله فقال مثل من عتاب بن أسيد حين ولاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لإمارة مكة وقضاهما فأخذه (٢) وروى عن مالك رحمه الله أنه قال قرأت في بعض الكتب لا تعرنكم اللحي فإن التيس له لحية وقال أبو عمرو بن العلاء إذا رأيت الرجل طويل القامة صغير الهامة عريض اللحية فأفرض عليه بالحق ولو كان أمية ابن عبد شمس وقال أيوب السختياني أدركت الشيخ ابن ثمانين سنة يتبع الغلام يتعلم منه . وقال علي بن الحسين من سبق فيه العلم قبلك فهو إمامك فيه وإن كان أصغر سناً منك ، وقيل لأبي عمرو بن العلاء أيحسن من الشيخ أن يتعلم من الصغير فقال إن كان الجهل يقبح به فالتعلم يحسن به وقال يحيى بن معين لأحمد بن حنبل وقد رآه يمشى خلف بغلة الشافعي يا أبا عبد الله تركت حديث سفيان بعلوه وتمشى خلف بغلة هذا الفتى وتسمع منه فقال له أحمد لو عرفت لكنت تمشى من الجانب الآخر إن علم سفيان إن فاتني بعلو أدركته بنزول وإن عقل هذا الشاب إن فاتني لم أدركه بعلو ولا نزول (الرابع) تنف يياضها استنكافاً من الشيب « وقد نهى عليه السلام عن تنف الشيب وقال هو نور المؤمن (٣) » وهو في معنى الخضب بالسواد وعله الكراهية ماسبق والشيب نور الله تعالى والرغبة عنه ورغبة عن النور (الخامس) تنفها أو تنف بعضها بحكم العبث والهوس وذلك مكروه ومشوه للخلقه وتنف الفينكين بدعة وهما حائبان العنفة . شهد عند عمر بن عبدالعزيز رجل كان ينتف فينكيه فرد شهادته ورد عمر بن الخطاب رضى الله عنه نوابن أبي ليلى قاضي المدينة شهادة من كان ينتف لحيته وأما تنفها في أول النيات تشبها بالمرد من المنكرات الكبار فإن اللحية زينة الرجال فإن الله سبحانه ملائكة يسمون والذي زين بنى آدم باللحي وهو من تمام الخلق وبها يتميز الرجال عن النساء وقيل في غريب التأويل اللحية هي المراد بقوله تعالى ﴿ يزيد في الخلق ما يشاء ﴾ قال أصحاب الأحنف بن قيس وددنا أن نشترى للأحنف لحية ولو بعشرين ألفاً وقال شريح القاضي وددت أن لي لحية ولو بعشرة آلاف وكيف تكره اللحية وفيها تعظيم الرجل والنظر إليه بعين العلم والوقار والرفع في المحالس وإقبال الوجوه إليه والتقديم على الجماعة ووقاية العرض ؟ فإن من يشتم يعرض باللحية إن كان للشتم لحية وقد قيل إن أهل الجنة مرد إلا هرون أحم موسى صلى الله عليهما وسلم فإن له لحية إلى سرتة تخصيصاً له وتفضيلاً (السادس) تنفصها كالتعبية طاقة على طاقة

(١) حديث « قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء فقيل له يا أبا حمزة وقد أسن فقال لم يشبه الله بالشيب » متفق عليه من حديث أنس قوله « فقيل... الخ » ولمسلم من حديثه « وسئل عن شيب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما شاء الله بيضاء » (٢) حديث يحيى بن أكرم « ولى القضاء وهو ابن إحدى وعشرين سنة فقيل له كم سن القاضي فقال مثل من عتاب بن أسيد حين ولاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لإمارة مكة وقضاهما وأما أكبر من معاد ابن جبل حين وجه به رسول الله صلى الله عليه وسلم قاصياً على أهل اليمن » أخرجه الخطيب في التاريخ بإسناد فيه نظر وما ذكره ابن أكرم صحيح بالنسبة إلى عتاب بن أسيد فإنه كان حين الولاية ابن عميرين ، ولما بالنسبة إلى معاذ فإما يتم له ذلك على قول يحيى ابن سعيد الأنصاري ومالك وابن أبي حاتم فإنه كان حين مات ابن ثمان وعشرين سنة والمرجح أنه مات ابن ثلاث وثلاثين سنة في الطاعون سنة ثمانية عشر والله أعلم (٣) حديث « نهى عن تنف الشيب وقال هو نور المؤمن » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه السنائي وابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده

للتزين للنساء والتصنع قال كعب : يكون في آخر الزمان أقوام يقصون لحاهم كذب الحمامة ويعرقبون نعالهم كالنساءج
 أوائلك لا خلاق لهم (السابع) الزيادة فيها وهو أن يزيد في شعر العارضين من الصدغين وهو من شعر الرأس حتى
 يحاوز عظم اللحي وينتهي إلى نصف الخد وذلك بباين هيئة أهل الصلاح . (الثامن) تسريحها لأجل الناس قال بشر :
 في اللحية شركان : تسريحها لأجل الناس وتركها متفتلة لإظهار الزهد . (التاسع والعاشر) النظر في سروادها أو في
 بياضها بعين العجب وذلك مدموم في جميع أجزاء البدن بل في جميع الأخلاق والأفعال على ماسياتي بيانه فهذا
 ما أردنا أن نذكره من أنواع التزين والنظافة وقد حصل من ثلاثة أحاديث من سنن الجسد اثنتا عشرة خصلة خمس
 منها في الرأس وهي فرق شعر الرأس^(١) والمضمضة والاستنشاق^(٢) وقص الشارب والسواك وثلاثة في اليد والرجل
 وهي القلم وغسل البراحم وتنظيف الرواجب^(٣) وأربعة في الجسد وهي تنف الإبط والاستحداد والختان والاستنجاء
 بالماء فقد وردت الأخبار بمجموع ذلك وإذا كان غرض هذا الكتاب التعرض للطهارة الظاهرة دون الباطنة
 فلنقتصر على هذا وليتحقق أن فضلات الباطن وأوساخه التي يجب التنظيف منها أكثر من أن تحصى وسيأتي تفصيلها
 في ربيع المهلكات مع تعريف الطرق في إزالتها وتطهير القلب منها إن شاء الله عز وجل .
 تم كتاب أسرار الطهارة بحمد الله تعالى وعونه . ويتلوه إن شاء الله تعالى كتاب أسرار الصلاة والحمد لله وحده
 وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى .

كتاب أسرار الصلاة ومهماتا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي غمر العباد بطائفه ، وعمر قلوبهم بأنوار الدين ووظائفه التي تنزل عن عرش الجلال إلى السماء
 الدنيا من درجات الرحمة لإحدى عواطفه فارق الملوك مع التفرد بالجلال والكبرياء بتبرغيب الخلق في السؤال
 والدعاء فقال : هل من داع فاستجيب له وهل من مستغفر فأغفر له ؟ وبإين السلاطين بفتح الباب ، ورفع الحجاب
 فرخص للعباد في المناجاة بالصلوات كيفما نقلت بهم الحالات في الجماعات والخلوات ولم يقتصر على الرخصة بل
 تلتطف بالترغيب والدعوة وغيره من ضعفاء الملوك لايسمح بالخلوة إلا بعد تقديم الهدية والرشوة فسبحانه ما أعظم
 شأنه وأقوى سلطانه ، وأتم لطفه ، وأعم إحسانه ؛ والصلاة على محمد نبيه المصطفى ووليّه المجتبي وعلى آله وأصحابه
 مفاتيح الهدى ومصابيح الدجى وسلم تسليماً أما بعد : فإن الصلاة عماد الدين ، وعصام اليقين ، ورأس القربات ،
 وغرة الطاعات ؛ وقد استقصينا في فن الفقه - في بساط المذهب ووسيطه ووجيزه - أصولها وفروعها ، صارفين جمام العناية
 إلى تفاريحها النادرة . ووقائعها الشاذة لتكون خزانة للمفتي منها يستمد ومعولاً له إليها يفرع ويرجع . ونحن الآن

(١) حديث « فرق شعر الرأس .. الخ » من حديث ابن عباس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبدل شعره متى أن
 قال ثم فرق رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه » (٢) حديث « عصر من الفطرة .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث
 عائشة ولفظه « قص الشارب وأعفاء اللحية والسواك واستنشاق الماء وقص الأظفار وعسل الأبراجم وتنف الإبط وحلق الأمانة وانتقاص
 الماء - قال وكعب يعني الاستنجاء - قال مصعب ونسيت الإشارة إلا أن تكون المضمضة ضعفة النساء ولأبي داود واس ماجه من
 حديث عمار بن ياسر نحوه فذكر فيه المضمضة والاختتان والانتضاح ولم يذكر إعفاء اللحية وانتقاص الماء قال أبو داود روى نحوه
 عن ابن عباس . قال « حسن كلها في الرأس » وذكر منها « الفرق » ولم يذكر « لعناء اللحية » وفي الصحيحين من حديث أبي
 هريرة « الفطرة خمس : الختان .. الحديث » (٣) حديث « تنظيف الرواجب » تقدم

في هذا الكتاب تقتصر على ما لا بد للريد منه من أعمالها الظاهرة وأسرارها الباطنة ، وكاشفون من دقائق معانيها الخفية في معاني الخشوع والإخلاص والنية ما لم تجر العادة بذكره في فن الفقه ؛ ومرتبون الكتاب على سبعة أبواب . الباب الأول : في فضائل الصلاة . الباب الثاني : في تفضيل الأعمال الظاهرة من الصلاة . الباب الثالث : في تفضيل الأعمال الباطنة منها . الباب الرابع : في الإمامة والقدوة . الباب الخامس : في صلاة الجمعة وأدائها . الباب السادس : في مسائل متفرقة تعم بها البلوى يحتاج المرید إلى معرفتها . الباب السابع : في التطوعات وغيرها .

الباب الأول : في فضائل الصلاة السجود والجماعة والأذان وغيرها

فضيلة الأذان

قال صلى الله عليه وسلم « ثلاثة يوم القيامة على كتيب من مسك أسود لا يهولهم حساب ولا ينالهم فزع حتى يفرغ مما بين الناس : رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله عز وجل وأم يقوم وهم به راضون ؛ ورجل أذن في مسجد ودعا إلى الله عز وجل ابتغاء وجه الله ؛ ورجل ابتلى بالرزق في الدنيا فلم يشغله ذلك عن عمل الآخرة (١) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « لا يسمع نداء المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة (٢) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « يد الرحمن على رأس المؤذن حتى يفرغ من أذانه (٣) » ، وقيل في تفسير قوله عز وجل ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً ﴾ نزات في المؤذنين ، وقال صلى الله عليه وسلم « إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول المؤذن (٤) » ، وذلك مستحب إلا في الحيعلتين فإنه يقول فيهما : لاحول ولا قوة إلا بالله ؛ وفي قوله قد قامت الصلاة أقامها الله وأدامها ما دامت السموات والأرض وفي التشويب صدوت وبررت ونصحت ؛ وعند الفراغ يقول : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة وابعثه المقام المحمود الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد وقال سعيد بن المسيب من صلى بأرض فلاة صلى عن يمينه ملك وعن شماله ملك فإن أذن وأقام صلى وراه أمثال الجبال من الملائكة .

فضيلة المكتوبة

قال الله تعالى ﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « خمس صلوات كتبهن الله على العباد فمن جاء بهن ولم يضيع منهن شيئاً استخفافاً بحقهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة ومن لم يأت بهن فليس له عهد الله عهد إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة (٥) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « مثل الصلوات الخمس كمثل نهر عذب غمر بياض أحدهم يقتحم فيه كل يوم خمس مرات فما ترون ذلك يبيق من درنه قالوا لا شيء قال صلى الله عليه

باب أسرار الصلاة

(١) حديث « ثلاثة يوم القيامة على كتيب من مسك . . الحديث » أخرجه الترمذى وحسنه من حديث ابن عمر مختصراً وهو في الصغير للطبراني بنحو مما ذكره المؤلف (٢) حديث « لا يسمع صوت المؤذن » جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة أخرجه الباري من حديث أبي سعيد

(٢) حديث « يد الرحمن على رأس المؤذن حتى يفرغ من أذانه » أخرجه الطبراني في الأوسط والحسن بن سعيد في مسنده من حديث أنس بإسناد صحيح (٤) حديث « إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول المؤذن » متفق عليه من حديث أبي سعيد

(٥) حديث « خمس صلوات كتبهن الله على العباد . . الحديث » أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان من حديث عباد بن الصامت وصححه ابن عبد البر

وسلم فإن الصلوات الخمس تذهب الذنوب كما يذهب الماء الدرن^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن الصلوات كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر^(٢) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « بيننا وبين المنافقين شهود العتمة والصبح لا يستطيعونهما^(٣) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « من لقي الله وهو مضيع للصلاة لم يعبأ الله بشيء من حسناته^(٤) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « الصلاة عماد الدين فمن تركها فقد هدم الدين^(٥) » ، وسئل صلى الله عليه وسلم « أى الأعمال أفضل فقال الصلاة لمواقيتها^(٦) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « من حافظ على الخمس بإكمال طهورها ومواقيتها كانت له نوراً ورهاناً يوم القيامة ومن ضيعها حشر مع فرعون وهامان^(٧) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « مفتاح الجنة الصلاة^(٨) » ، وقال « ما افترض الله على خلقه بعد التوحيد أحب إليه من الصلاة ولو كان شيء أحب إليه منها لتعبد به ملائكته فمنهم راعع ومنهم ساجد ومنهم قائم وقاعد^(٩) » ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم « من ترك صلاة متعمدا فقد كفر^(١٠) » ، أى قارب أن ينخلع عن الإيمان بالخلال عروته وسقوط عماده كما يقال لمن قارب البلدة إنه بلغها ودخلها . وقال صلى الله عليه وسلم « من ترك صلاة متعمدا فقد برئ من ذمة محمد عليه السلام^(١١) » ، وقال أبو هريرة رضى الله عنه : من توضأ فأحسن وضوءه ثم خرج عامداً إلى الصلاة فإنه في صلاة ما كان يعتمد إلى الصلاة وأنه يكتب له بإحدى خطوتيه حسنة وتمحى عند الأخرى سيئة فإذا سمع أحدكم الإقامة فلا ينبغي له أن يتأخر فإن أعظمكم أجراً أبعدهم داراً ، قالوا يا أبا هريرة؟ قال : من أجل كثرة الخطأ . ويروى « إن أول ما ينظر فيه من عمل العبد يوم القيامة الصلاة^(١٢) » فإن وجدت تامة قبلت منه وسائر عمله وإن وجدت ناقصة ردت عليه وسائر عمله وقال صلى الله عليه وسلم « يا أبا هريرة مرأهك بالصلاة فإن الله يأتيك بالرزق من حيث لا تحسب^(١٣) » ، وقال بعض العلماء : مثل المصلى مثل التاجر الذى لا يحصل له الربح حتى يخلص له رأس المال ، وكذلك المصلى لا تقبل له نافذة حتى يؤدي الفريضة . وكان أبو بكر رضى الله عنه يقول : إذا حضرت الصلاة قوموا إلى ناركم التى أوقدتموها فأطفئوها .

فضيلة إتمام الأركان

قال صلى الله عليه وسلم « مثل الصلاة المكتوبة كمثل الميزان من أوفى استوفى^(١٤) » ، وقال يزيد الرقاشى « كانت

(١) حديث « مثل خمس صلوات كمثل نهر .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث جابر ولها نحوه من حديث أبي هريرة
(٢) حديث « الصلوات كعمارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٣) حديث « بينا وبين المنافقين شهود العتمة والصبح » أخرجه مالك من رواية سعيد بن المسيب مرسل (٤) حديث « من لقي الله مصيباً فصلاة لم يمسأ الله بشيء من حسناته » وفي معناه حديث « أول ما يحاسب به العبد الصلاة » وفيه « فإن فسدت فسدت سائر عمله » رواه الطبراني في الأوسط من حديث أنس (٥) حديث « الصلاة عماد الدين » رواه البيهقي في الشعب بسند ضعفه من حديث عمر قال الحاكم : عكرمة لم يسمع من عمر قال ورواه ابن عمر لم يقف عليه إن الصلاح فقال في مشكل الوسيط لأنه غير معروف (٦) حديث « سئل أى الأعمال أفضل فقال الصلاة لمواقيتها » متفق عليه من حديث ابن مسعود (٧) حديث « من حافظ على الخمس بإكمال طهورها ومواقيتها كانت له نوراً ورهاناً .. الحديث » أخرجه أحمد وابن حبان من حديث عبد الله بن عمرو (٨) حديث « مفتاح الجنة الصلاة » رواه أبو داود الطيالسي من حديث جابر وهو عند الترمذى وابن ماجه ليس داخل في الرواية (٩) حديث « ما افترض الله على خلقه بعد التوحيد شيئاً أحب إليه من الصلاة .. الحديث » لم أجده هكذا وآخر الحديث عند الطبراني من حديث جابر وعند الحاكم من حديث ابن عمر (١٠) حديث « من ترك صلاة متعمداً فقد كفر » أخرجه الرار من حديث ابن الدرداء بإسناد فيه مقال . (١١) حديث « من ترك صلاة متعمداً فدتبرأ من ذمة محمد صلى الله عليه وسلم » أخرجه أحمد والبيهقي من حديث أم أيمن بنحوه ورجاله ثقات (١٢) حديث « أول ما ينظر الله فيه يوم القيامة من عمل العبد الصلاة .. الحديث » رويها في الطيوريات من حديث أبي سعيد بإسناد ضعيف ولأصحاب السنن المأموه وصححه لسانه نحوه من حديث أبي هريرة وسياق (١٣) حديث « يا أبا هريرة مرأهك بالصلاة فإن الله يأتيك بالرزق من حيث لا تحسب » لم أظ له على أصل (١٤) حديث « مثل الصلاة المكتوبة كمثل الميزان من أوفى استوفى » أخرجه ابن المبارك في الرهد من حديث الحسن مرسل وأسنده البيهقي في المعجب من حديث ابن عباس بإسناد فيه جهالة

صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم مستوية كأنها موزونة^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن الرجلين من أمتي ليقومان إلى الصلاة وركوعهما وسجودهما واحد وإن ما بين صلاتيهما ما بين السماء والأرض^(٢) » ، وأشار إلى الخشوع وقال صلى الله عليه وسلم « لا ينظر الله يوم القيامة إلى العبد لا يقيم صلبه بين ركوعه وسجوده^(٣) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « أما يخاف الذي يقول وجهه في الصلاة أن يحول الله وجهه وجه حمار^(٤) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « من صلى صلاة لوقتها وأسبغ وضوءها وأتم ركوعها وسجودها وخشوعها عرجت وهي بيضاء مسفرة تقول حفظك الله كما حفظتني ومن صلى لغير وقتها ولم يسبغ وضوءها ولم يتم ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها عرجت وهي سوداء مظلمة تقول ضيعك الله كما صيغبتني حتى إذا كانت حيث شاء الله لفت كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجهه^(٥) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته^(٦) » ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه وسلمان رضي الله عنه : الصلاة مكيال فمن أوى استوفى ، ومن طلف فقد علم ما قال الله في المطففين .

فضيلة الجماعة

قال صلى الله عليه وسلم « صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة^(٧) » ، وروى أبو هريرة أنه صلى الله عليه وسلم فقد ناسا في بعض الصلوات فقال « لقد هممت أن آمر رجلا يصلي بالناس ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها فأحرق عليهم بيوتهم^(٨) » ، وفي رواية أخرى « ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها فأمر بهم فتحرق عليهم بيوتهم بحزم الخطب ولو علم أحدهم أنه يجد عظما سميئا أو مرمايين لشهداها » ، يعني صلاة العشاء . وقال عثمان رضي الله عنه مرفوعا « من شهد العشاء فكأنما قام نصف ليلة ومن شهد الصبح فكأنما قام ليلة^(٩) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « من صلى صلاة في جماعة فقد ملأ نحره عبادة^(١٠) » ، وقال سعيد بن المسيب : ما أذن مؤذن منذ عشرين سنة إلا وأنا في المسجد . وقال محمد بن واسع : ما أشتهى من الدنيا إلا الثلاثة : أخا لأنه إن تموجت قومي وقوتنا من الرزق عفوان من غير تبعة وصلاة في جماعة يرفع عنى سهوها ويكتب لي فضلها . وروى أن أبا عبيدة بن الجراح أم قوما مرة فلما انصرف قال : ما زال الشيطان بي أنفا حتى أريت أن لي فضلا عن غيري لا أؤم أبدا . وقال الحسن : لا تصلوا خلف رجل لا يجتنب إلى العلماء . وقال النخعي : مثل الذي يؤم الناس بعير علم مثل الذي يكييل الماء في البحر لا يدري

(١) حديث يزيد الرقاشي « كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم مستوية كأنها موزونة » رواه ابن المبارك في الزهد ومن طريقه أبو الويد الصمغاني في كتاب الصلاة وهو مرسل ضعيف (٢) حديث « إن الرجلين من أمتي ليقومان إلى الصلاة وركوعهما وسجودهما واحد . الحديث » أخرجه ابن المحبر في المغل من حديث أبي أيوب الأنصاري بنحوه وهو موضوع ورواه الحارث ابن أبي أسامة في نهج من ابن المحبر (٣) حديث « لا ينظر الله إلى العبد لا يقيم صلبه بين ركوعه وسجوده » أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح (٤) حديث « أما يخاف الذي يقول وجهه في الصلاة أن يحول الله وجهه وجه حمار » أخرجه ابن عدى في عوالي مشايخ مصر من حديث جابر « ما يؤمنه إذا لفت في صلاته أن يحول الله عز وجل وجهه وجه كلب أو وجه خنزير » قال منسك بهذا الإسناد . وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة « أما يحشى الذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يجعل الله وجهه وجه حمار » (٥) حديث « من صلى الصلاة لوقتها وأسبغ وضوءها وأتم ركوعها وسجودها وخشوعها عرجت وهي بيضاء مسفرة تقول حفظك الله كما حفظتني . . الحديث » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أسد بن ضيف والطائفي والبيهقي في الشعب من حديث عبادة ابن الصامت بسند ضعيف نحوه (٦) حديث « أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته » أخرجه أحمد والحاكم وصحح إسناده من حديث أبي قتادة (٧) حديث « صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة » متفق عليه من حديث ابن عمر (٨) حديث أبي هريرة « لقد هممت أن آمر رجلا يصلي بالناس ثم أخالف إلى رجال يتخلفون . . الحديث » متفق عليه (٩) حديث عثمان « من شهد صلاة العشاء فكأنما قام نصف ليلة . . الحديث » أخرجه مسلم من حديثه مرفوعا قال الترمذي وروى عن عثمان موقوفا (١٠) حديث « من صلى صلاة في جماعة فقد ملأ نحره عبادة » لم أحده مرفوعا وإنما هو من قول سعيد بن المسيب رواه محمد بن نصر في كتاب الصلاة

زيادته من نقصانه؟ وقال حاتم الأصم: فاتتني الصلاة في الجماعة فمزاني أبو إسحق البخاري وحده، ولو مات لي ولد لمزاني أكثر من عشر آلاف لأن مصيبة الدين أهون عند الناس من مصيبة الدنيا. وقال ابن عباس رضي الله عنهما من سمع المنادى فلم يجب لم يرد خيرا لم يرد به خيرا. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: لأن تملا أذن ابن آدم رصاصا مذابا خيرا له من أن يسمع النداء ثم لا يجيب. وروى أن ميمون بن مهران أتى المسجد فقيل له: إن الناس قد انصرفوا فقال ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ لفصل هذه الصلاة أحب إلى من ولاية العراق. وقال صلى الله عليه وسلم: من صلى أربعين يوما الصلوات في جماعة لا تفوته فيها تكبيرة الإحرام كتب الله له براءة من النفاق وبراءة من النار^(١)، ويقال إنه إذا كان يوم القيامة يحشر قوم وجوههم كاللكوكب الدرى فتقول لهم الملائكة: ما كانت أعمالكم؟ فيقولون: كنا إذا سمعنا الأذان قمنا إلى الطهارة لا يشغلنا غيرها ثم تحشر طائفة وجوههم كالآقار فيقولون بعد السؤال: كنا تنوضاً قبل الوقت ثم تحشر طائفة وجوههم كالشمس فيقولون: كنا نسمع الأذان في المسجد. وروى أن السلف كانوا يعززون أنفسهم ثلاثة أيام إذا فاتتهم التكبيرة الأولى ويعززون سبعا إذا فاتتهم الجماعة.

فضيلة السجود

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما تقرب العبد إلى الله بشيء أفضل من سجود خفي^(٢)، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما من مسلم يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها سيئة^(٣)، وروى أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ادع الله أن يجعلني من أهل شفاعتك وأن يرزقني مرافقتك في الجنة فقال صلى الله عليه وسلم: أعتى بكثرة السجود^(٤)، وقيل: إن أقرب ما يكون العبد من الله تعالى أن يكون ساجدا^(٥)، وهو معنى قوله عز وجل ﴿واسجد واقترب﴾ وقال عز وجل ﴿سيامهم في وجوههم من أثر السجود﴾ فقيل هو ما يلتصق بوجوههم من الأرض عند السجود وقيل هو نور الخشوع فإنه يشرق من الباطن على الظاهر، وهو الأصح وقيل هي الفرر التي تكون في وجوههم يوم القيامة من أثر الوضوء وقال صلى الله عليه وسلم: إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي ويقول يا ويلاه أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت أنا بالسجود فعصيت فلي النار^(٦)، ويروى عن علي بن عبد الله بن عباس أنه كان يسجد في كل يوم ألف سجدة وكانوا يسمونه السجاد. ويروى أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان لا يسجد إلا على التراب. وكان يوسف بن أسباط يقول: يامعشر الشباب بادروا بالصحة قبل المرض فما بقي أحد أحسده إلا رجل يتم ركوعه وسجوده وقد حيل بيني وبين ذلك. وقال سعيد بن جبير: ما آسى على شيء من الدنيا إلا على السجود. وقال عقبة بن مسلم: ما من خصلة في العبد أحب إلى الله عز وجل من رجل يحب لقاء الله عز وجل وما من ساعة العبد فيها أقرب إلى الله عز وجل

(١) حديث من صلى أربعين يوما الصلوات في جماعة لا تفوته تكبيرة الإحرام... الحديث أخرجه الترمذي من حديث أنس ماسناد رجاله ثقات (٢) حديث: «تقرب العبد إلى الله بشيء أفضل من سجود خفي»، رواه ابن المبارك في الرهد من حديث ضمرة بن حبيب مرسل (٣) حديث: «ما من مسلم يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه خطيئة» أخرجه ابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت بإسناد صحيح ولم يلم نحوه من حديث ثوبان وأبي الدرداء (٤) حديث: «لن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وآله: يا رسول الله، ما من خصلة أحب إليك من أن يسجد لله سجدة؟ قال: «ما آسى على شيء من الدنيا إلا على السجود». أخرجه مسلم من حديث ربيعة بن كعب الأسلمي نحوه وهو الذي سأله ذلك (٥) حديث: «لن أقرب ما يكون العبد إلى الله أن يكون ساجدا» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٦) حديث: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي... الحديث» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة

منه حيث يغمز ساجدا . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : أقرب ما يكون للعبد إلى الله عز وجل إذا سجد فأكثره
الدعاء عند ذلك .

فضيلة الخشوع

قال الله تعالى ﴿ وأقم الصلاة لذكري ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا تكن من الغافلين ﴾ وقال عز وجل ﴿ لا تقربوا
الصلاة وأتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾ قيل سكارى من كثرة الهم وقيل من حب الدنيا . وقال وهب : المراد
به ظاهره ففيه تنبيه على سكر الدنيا إذ بين فيه العلة فقال ﴿ حتى تلبثوا ما تقولون ﴾ وكم من وصل لم يشرب حمرا
وهو لا يعلم ما يقول في صلاته . وقال النبي صلى الله عليه وسلم « من صلى ركعتين لم يحدث نفسه فيهما بشيء من الدنيا
غفر له ما تقدم من ذنبه ^(١) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « إنما الصلاة تمسكن وتواضع وتضرع وتأوه وتنادم وتضع
يديك فتقول اللهم اللهم فن لم يفعل فهي خداج ^(٢) » ، وروى عن الله سبحانه في الكتب السالفة أنه قال « ليس كل وصل
أقبل صلاته إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتي ولم يتكبر على عبادي وأطعم الفقير الجائع لوجهي » ، وقال صلى الله
عليه وسلم « إنما فرضت الصلاة وأمر بالحج والطواف وأشعرت الناسك لإقامة ذكر الله تعالى فإذا لم يكن في
قلبك للذكور الذي هو المقصود والمتبغى عظيمة ولا هيبة فما قيمة ذكرك ^(٣) » ، وقال صلى الله عليه وسلم للذي أوصاه
« وإذا صليت فصل صلاة مودع ^(٤) » ، أى مودع لنفسه مودع لهواه مودع لعمره سائر إلى مولاه كما قال عز وجل
﴿ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه ﴾ وقال تعالى ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾ وقال تعالى
﴿ واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « من لم تنته صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزد
من الله إلا بعدا ^(٥) » ، والصلاة مناجاة فكيف تكون مع الغفلة ؟ وقال بكر بن عبد الله : يا ابن آدم إذا شئت أن
تدخل على مولاك بغير إذن وتكلمه بلا ترجمان دخلت ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : تسبغ وضوءك وتدخل محرابك
فإذا أنت قد دخلت على مولاك بغير إذن فتكلمه بغير ترجمان . وعن عائشة رضى الله عنها قالت « كان رسول الله
صلى الله عليه وسلم يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه ^(٦) » ، اشتغالا بعظمة الله عز وجل
وقال صلى الله عليه وسلم « لا ينظر الله إلى صلاة لا يحضر الرجل فيها قلبه مع بدنه ^(٧) » ، وكان إبراهيم الخليل إذا قام
إلى الصلاة يسمع وجيب قلبه على ميلين . وكان سعيد التتوخى إذا صلى لم تنقطع الدموع من خديه على لحيته

(١) حديث « من صلى ركعتين لم يحدث فيهما شيء من الدنيا عمر له ما تقدم من ذنبه » أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف من
حديث صلة بن أشيم مرسل وهو الصحيحين من حديث عثمان بن زيادة في أوله دون قوله « بشيء من الدنيا » وزاد الطيالسي في البحار
(٢) حديث « إنما الصلاة تمسكن ودعاء وتضرع .. الحديث » أخرجه الترمذي والدعاءى بحوه من حديث الفضل بن عباس
بإسناد مضطرب (٣) حديث « إنما فرضت الصلاة وأمر بالحج والطواف وأشعرت الناسك لإقامة ذكر الله » أخرجه أبو داود
والترمذي من حديث عائشة نحوه دون ذكر « الصلاة » قال الترمذي حسن صحيح (٤) حديث « إذا صليت فصل صلاة مودع »
أخرجه ابن ماجه من حديث أبي أنس والحاكم من حديث سعد بن أبي وقاص « وقال صحيح الإسناد والبيهقي في الرهد من حديث
ابن عمر ومن حديث زعموه (٥) حديث « من لم تنته صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزد من الله إلا بعدا » أخرجه علي بن محمد
في كتاب الطاعة والمصيبة من حديث الحسن مرسل بإسناد صحيح ورواه الطبراني وأسنده ابن مردويه في تفسيره من حديث ابن عباس
بإسناد لين والطبراني من قوله ابن مسعود « من لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر ، الحديث » وإسناده صحيح
(٦) حديث عائشة « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه » أخرجه
الأزدى في الضعفاء من حديث سويد بن غفلة مرسل « كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سمع الأذان كأنه لا يعرف أحدا من الناس »
(٧) حديث « لا ينظر الله إلى صلاة لا يحضر الرجل فيها قلبه مع بدنه لم أجده بهذا اللفظ وروى محمد بن نصر في كتاب الصلاة من
رواية عثمان بن دهرش مرسل « لا يقبل الله من عبد عملا حتى يعهد قلبه مع بدنه » ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس
من حديث أبي بن كعب وإسناده ضعيف

« ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة فقال لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه »^(١) ويروى أن الحسن نظر إلى رجل يعبث بالحصى ويقول « اللهم زوجني الحور العين » فقال ؛ بئس الخاطب أنت تخضب الحور العين وأنت تعبث بالحصى . وقيل لخلف بن أيوب : ألا يؤذيك الذباب في صلاتك فتطردها قال : لأعود نفسي شيئاً يفسد على صلاتي ، قبل له : وكيف نصر على ذلك ؟ قال . بلغني أن الفساق يصبرون تحت أسواط السلطان ليقال فلان صبور ويفتخرون بذلك فأنا قائم بين يدي ربى أفاتحرك لذباية ؟ ويروى عن مسلم بن يسار أنه كان إذا أراد الصلاة قال لأهله : تحدثوا أتم فإنى لست أسمعكم . ويروى عنه أنه كان يصلى يوماً في جامع البصرة فسقطت ناحية من المسجد فاجتمع الناس لذلك فلم يشعر به حتى انصرف من الصلاة . وكان علي بن أبي طالب رضى الله عنه وكرمه وجهه إذا حضر وقت الصلاة يتزلزل ويتلون وجهه فقيل له : مالك يا أمير المؤمنين ؟ فيقول جاء وقت أمانة عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملتها . ويروى عن علي بن الحسين أنه كان إذا توضأ اصفر لونه فيقول له أهله : ما هذا الذى يعتريك عند الوضوء ؟ فيقول : أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم ؟ ويروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال « قال داود صلى الله عليه وسلم في مناجاته : إلهى من يسكن بيتك ومن تتقبل الصلاة ؟ فأوحى الله إليه : يا داود إنما يسكن بيتى وأقبل الصلاة منه من تواضع لعظمتى وقطع نهاره بذكري وكف نفسه عن الشهوات ، من أجلى يطعم الجائع ويؤوى الغريب ويرحم المصاب فذلك الذى يعنى نوره فى السموات كالشمس ، إن دعاني لبيتته وإن سألتني أعطيتته ، أحمل له فى الجهل حلماً وفى الغفلة ذكراً وفى الظلمة نوراً ، وإنما مثله فى الناس كالفرديوس فى أعلى الجنان لا ييس أهارها ولا تتغير ثمارها ، ويروى عن حاتم الأصم رضى الله عنه أنه سئل عن صلاته فقال : إذا حانت الصلاة أسبغت الوضوء وأتيت الموضع الذى أريد الصلاة فيه فأقعد فيه حتى يجتمع جوارحى ، ثم أقوم إلى صلاتي وأجعل الكعبة بين حاجبى والصراط تحت قدمى والجنة عن يمينى والمار عن شمالى وملك الموت ورأى أطها آخر صلاتي « ثم أقوم بين الرجاء والخوف وأكبر تكبيراً بتحقيق وأقرأ قرآمة بترتيل وأركع ركوعاً بتواضع وأسجد سجوداً تتخضع وأقعد على الورك الأيسر وأفرش ظهر قدمها وأنصب القدم اليمنى على الإبهام وأتبعها بالإخلاص ، ثم لأدرى أفبليت منى أم لا ؟ وقال ابن عباس رضى الله عنهما : ركعتان مقتصدتان فى تفكير خير من قيام ليلة والقلب ساه .

فضيلة المسجد وموضع الصلاة

قال الله عز وجل ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « من بنى لله مسجداً ولو كفحص قطاة بنى الله له قصراً فى الجنة »^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من أنف المسجد ألفه الله تعالى »^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس »^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم « لا صلاة لجار المسجد إلا فى المسجد »^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم « الملائكة تصلى على أحدكم ما دام

(١) حديث « رأى رجلاً يعبث بلحيته فى الصلاة فقال لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه » أخرجه الترمذى الحكيم فى النوادر من حديث أبى هريرة بسند ضعيف أنه من قول سعيد بن السيب رواه ابن أبى شيبه فى المصنف وفيه رحل لم يسم
(٢) حديث « من بنى لله مسجداً ولو مثل مفتاح قطاة ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث جابر بسند صحيح وابن حبان من حديث أبى ذر وهو متفق عليه من حديث عثمان دون قوله « ولو مثل مفتاح القطاة »
(٣) حديث « من أنف المسجد ألفه الله تعالى » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث أبى سعيد بسند ضعيف (٤) حديث « إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس » متفق عليه من حديث أبى قتادة (٥) حديث « لا صلاة لجار المسجد إلا فى المسجد » أخرجه الدارقطنى من حديث جابر وأبى هريرة بأسنادين ضعيفين والحاكم من حديث أبى هريرة

في مصلاه الذي يصلى فيه تقول : اللهم صل عليه اللهم ارحمه اللهم اعفر له ما لم يحدث أو يخرج من المسجد (١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : يأتي في آخر الزمان ناس من أمتي يأتون المساجد فيقعدون فيها حلقة حلقة ذكروا الدنيا وحب الدنيا لا يجالسوهم فليس لله بهم حاجة (٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : قال الله عز وجل في بعض الكتب إن بيوتى في أرضي المساجد وإن زوارى فيها عمارها فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارنى في بيتى فحق على الزور أن يكرم زاره (٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان (٤) ، وقال سعيد بن المسيب من جلس في المسجد فإنما يجالس ربه فإحققه أن يقول إلا خيرا . ويرى في الأثر أو الخبر الحديث في المسجد يأكل الحسنة كما تأكل البهائم الحشيش (٥) ، وقال النخعي : كانوا يرون أن المشى في الليلة المظلمة إلى المسجد موجب للجنة : وقال أنس بن مالك : من أسرج في المسجد سراجا لم تزل الملائكة وحلة العرش يستغفرون له ما دام في ذلك المسجد ضوءه . وقال على كثرم الله وجهه : إذا مات العبد يبكي عليه مصلاه من الأرض ومصعد عمله من السماء ، ثم قرأ ﴿ فإبكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ﴾ وقال ابن عباس : تبكى عليه الأرض أربعين صباحا . وقال عطاء الخراساني : ما من عبد بسجد لله سجدة في بقعة من بقاع الأرض إلا شهدت له يوم القيامة وبكت عليه يوم يموت . وقال أنس بن مالك : ما من بقعة يذكر الله تعالى عليها بصلاة أو ذكر إلا افتخرت على ما حولها من البقاع واستبشرت بذكر الله عز وجل إلى منتهاها من سبع أرضين وما من عبد يقوم يصلى إلا تزخرت له الأرض . ويقال : ما من منزل ينزل فيه قوم إلا أصبح ذلك المنزل يصلى عليهم أو يلعنهم .

الباب الثاني : في كيفية الأعمال الظاهرة من الصلاة والبداءة بالتكبير وما قبله

ينبغي للمصلى إذا فرغ من الوضوء والطهارة من الخبث في البدن والمكان والثياب وستر العورة من السرة إلى الركبة أن ينتصب قائما متوجها إلى القبلة ويأرجح بين قدميه ولا يضمهما فإن ذلك مما كان يستدل به على فقه الرجل وقد نهى صلى الله عليه وسلم عن الصنف والصفد في الصلاة (٦) ، والصفد هو اقتران القدمين معا ومنه قوله تعالى ﴿ مقرنين في الأصفاد ﴾ والصف هو رفع إحدى الرجلين ومنه قوله عز وجل ﴿ الصافات الجياد ﴾ هذا ما يراعيه في رجله عند القيام ويراعى في ركبتيه ومعقد نطاقة الانتصاب ، وأما رأسه إن شاء تركه على استواء القيام وإن شاء أطرق والإطراق أقرب للخشوع وأغض للبصر وليكن بصره محصورا على مصلاه الذي يصلى عليه ، فإن لم يكن له

(١) حديث « الملائكة تصلى على أحدكم ما دام في مصلاه ... الحديث » منفق عليه من حديث أبي هريرة
 (٢) حديث « يأتي في آخر الزمان ناس من أمتي يأتون المساجد فيقعدون فيها حلقة حلقة ذكروا الدنيا .. الحديث » أخرجه ابن حبان من حديث ابن مودود والحاكم من حديث أنس وقال صحيح الإسناد (٣) حديث « قال الله تعالى : لمن بيوتى في أرضي المساجد وإن زوارى فيها عمارها . الحديث » أخرجه أبو نعيم من حديث أبي سعيد بسند ضعيف « يقول الله عز وجل يوم القيامة ابن حبراني فتقول الملائكة من هذا الذي يبسبى له أن يجاورك فيقول ابن حبراني « قال الله تعالى : ومنه قوله عز وجل يوم القيامة ابن حبراني رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسناد صحيح ، واسند ابن حبان في الصعاء آخر الحديث من حديث سلمان وصححه (٤) حديث « إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان رواه الترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد (٥) حديث « الحديث في المسجد يأكل الحسنة كما تأكل البهائم الحشيش » لم أقف له على أصل

الباب الثاني

(٦) حديث « النهي عن الصنف والصفد في الصلاة » عزاه رزين إلى الترمذي ولم أجده عنده ولا عند غيره وإنما ذكره أصحاب الريب كابن الأثير في النهاية . وروى سعيد بن منصور أن ابن مسعود رأى رجلا صافا أو صافنا قدميه فقال : أخطأ هذا السنة

مصلى ويلفرب من جدار الحائط أو ليخط خطأ ، فإن ذلك يقصر مسافة البصر ويمنع تفوق الفكر وليجبر على بصره أن يحاوز أطراف المصلى وحدود الخط ؟ وليدم على هذا القيام كذلك إلى الركوع من غير التفات . هذا أدب القيام فإذا استوى قيامه واستتماله وإطرافه كذلك فليقرأ ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ تحصنا به من الشيطان ، ثم ليأت بالإقامة وإن كان يرجو حضور من يقتدى به فليؤذن أولاً ثم ليحضر البية وهو أن ينوي في الظهر مثلاً ويقول بقلبه : أودى فريضة الظهر لله ، لينبها بقوله أودى . عن القضاء والفريضة عن النقل ، وبالظهر عن العصر وغيره ، ولتكن معاني هذه الألفاظ حاصرة في قلبه فإنه هو الذي ، والألفاظ مدكرات وأسباب لحضورها ، ويحتدأن يستديم ذلك إلى آخر التكبير حتى لا يعزب فإذا حضر في قلبه ذلك فليرفع يديه إلى حدو مكبيه بعد إرسالها بحيث يحاذي بكفيه مكبه وإبهامية شمتى أذنيه وبرهوس أصابعه رهوس أذنيه ^(١) ليكون جامعاً بين الأخبار الواردة فيه ، ويكون مقبلاً بكفيه وإبهاميه إلى القبلة ويبسط الأصابع ولا يقبضها ، ولا يتكلف فيها تفريجاً ولا ضمناً بل يتركها على مقتضى طمعها ، إذ نقل في الأثر اللشر والضم ^(٢) وهذا بينهما فهو أولى . وإذا استقرت اليدين في مقرهما ابتداء التكبير مع إرسالها وإحضار النبيه ، ثم يضع اليدين على ما فوق السرة وتحت الصدر ويضع اليمنى على اليسرى لإكراما لليمنى بأن تكون محمولة ، وينشر المسبحة والوسطى من اليمنى على طول الساعد ويقبض بالإبهام والخنصر والبنصر على كوع اليسرى ، وقد روى أن التكبير مع رفع اليدين ^(٣) ومع استقرارهما ^(٤) ومع الإرسال ^(٥) فكل ذلك لا حرج فيه وأراه بالإرسال أليق فإنه كلمة العقد ، ووضع إحدى اليدين على الأخرى في صورة العقد ومبدؤه الإرسال وآخره الوصع . ومبدأ التكبير الألف وآخره الراء فيلحق مراعاة التطابق بين الفعل والعقد ، وأما رفع اليد فكالقدمة لهذه البداية . ثم لا ينبغي أن يرفع يديه إلى قدام رفاعا عند التكبير ولا يردهما إلى خلف منكبيه ولا ينفضهما عن يمين وشمال نفضا إذا فرغ من التكبير ويرسلهما إرسالاً خفيفاً رفيقاً ويستأنف وضع اليمنى على الشمال بعد الإرسال ، وفي بعض الروايات أنه صلى الله عليه وسلم « كان إذا كبر أرسل يديه وإذا أراد أن يقرأ وضع اليمنى على اليسرى ^(٦) » فإن صح هذا فهو أولى مما ذكرناه . وأما التكبير فينبغي أن يضم الهاء من قوله « الله » صمته حفيفة من غير مبالغة ولا يدخل بين الهاء والألف شبه الواو ، وذلك يتساق إليه بالمبالغة : ولا يدخل بين باء أكبر ورائه ألما ، كأنه يقول « أكبر » ويجزم راء التكبير ولا يضمها وهذه هيئة التكبير وما معه

القراءة

ثم يبتدى بدعاء الاستفتاح وحسن أن يقول عقب قوله الله أكبر « الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان

(١) حديث « رفع اليدين إلى حدو المكبين » وورد « إلى شحمة أذنيه » وورد « إلى رهوس أذنيه » متفق عليه من حديث ابن عمر باللفظ الأول وأبو داود من حديث وائل بن حجر بإسناد ضعيف « إلى شحمة أذنيه » ولمسلم من حديث مالك بن الحويرث « فروع أذنيه » (٢) حديث « نشر الأصابع عند الاذنتح » وقل « صمها » وقال عطاء وابن خزيمة من حديث أبي هرير واليهي « ولم يفرج بين أصابعه ولم يضمها » ولم أجد التصريح بضم الأصابع (٣) حديث الكبير مع رفع اليدين أخرجه البخاري من حديث ابن عمر « كان يرفع يديه حين يكبر » ولأبي داود من حديث وائل « يرفع يديه مع التكبير » (٤) حديث التكبير مع استقرار اليدين أي صرفوعتين أخرجه مسلم من حديث ابن عمر « كان إذا قام إلى الصلاة رفع يديه حتى يكونا حذو منكبيه ثم كبر » زاد أبو داود « وما كذلك » (٥) حديث « التكبير مع إرسال اليدين » أخرجه أبو داود من حديث أبي حميد « كان إذا قام إلى الصلاة يرفع يديه حتى يحاذي بهما مكبيه ثم كبر حتى يفر كل عظم في موضعه معتدلاً » قال اس الصلاح في المشكل فـكله « حتى » التي هي للناية تدل بالمعنى هل ماذكره أي من ابتداء التكبير مع الإرسال (٦) « كان إذا كبر أرسل يديه وإذا أراد أن يقرأ وضع اليمنى على اليسرى » أخرجه الطبراني من حديث معاذ بإسناد ضعيف

الله بكرة وأصيلا^(١) ووجهت وجهي - إلى قوله - وأنا من المسلمين^(٢) ، ثم يقول « سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك وجل ثناؤك ولا إله غيرك^(٣) » ، ليكون جامعا بين متفرقات ما ورد في الأخبار . وإن كان خلف الإمام اختصر إن لم يكن للإمام سكتة طويلة يقرأ فيها ثم يقول « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » ثم يقرأ الفاتحة يبتدئ فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم » بتام تشديداتها وحروفها ويجتهد في الفرق بين الضاد والظاء ويقول « آمين » ، في آخر الفاتحة ويمتد مدتا ، ولا يصل « آمين » بقوله « ولا الضالين » ، وصلا . ويجهر بالقراءة في الصبح والمغرب والعشاء إلا أن يكون مأموما ، ويجهر بالتأمين . ثم يقرأ السورة أو قدر ثلاث آيات من القرآن فما فوقها ، ولا يصل آخر السورة بتكبير الهوى بأن يفصل بينهما بقدر قوله « سبحان الله » ، ويقرأ في الصبح من السور الطوال من المفصل وفي المغرب من قصاره ، وفي الظهر والعصر والعشاء نحو ﴿ والسما ذات البروج ﴾ وما قاربها . وفي الصبح في السفر ﴿ قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد ﴾ وكذلك في ركعتي الفجر والطواف والتحية وهو في جميع ذلك مستديم للقيام ووضع اليدين كما وصفنا في أول الصلاة .

الركوع ولواحقه

ثم يركع ويراعى فيه أموراً وهو أن يكبر للركوع وأن يرفع يديه مع تكبيرة الركوع وأن يمد التكبير مدتا إلى الانتهاء إلى الركوع وأن يضع راحتيه على ركبتيه في الركوع وأصابعه مدشورة موحهة نحو القبلة على طول الساق وأن ينصب ركبتيه ولا يثنيهما وأن يمد ظهره مستويا وأن يكون عنقه ورأسه مستويين مع ظهره كالصفحة الواحدة لا يكون رأسه أخفض ولا أرفع وأن يحافى مرفقيه عن جنبيه وتضم المرأة مرفقيها إلى جنبها . وأن يقول « سبحان رب العظيم ، ثلاثا والزيادة إلى السبعة وإلى العشرة حسن » ، إن لم يكن إماما ، ثم يرتفع من الركوع إلى القيام ويرفع يديه ويقول « سمع الله لمن حمده » ، ويطمئن في الاعتدال ويقول « ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد » ، ولا يطول هذا القيام إلا في صلاة التسييح والكسوف والصبح . ويقنت في الصبح في الركعة الثانية بالكلمات المأثورة قبل السجود^(٤) .

السجود

ثم يهوى إلى السجود مكبرا فيضع ركبتيه على الأرض ويضع جبهته وأنفه وكفيه مكشوفة ويكبر عند الهوى ولا يرفع يديه في غير الركوع ، وينبغي أن يكون أول ما يقع منه على الأرض ركبته وأن يضع يدهما يديه ثم يضع يدهما وجهه وأن يضع جبهته وأنفه على الأرض وأن يحافى مرفقيه عن جنبيه : ولا تفعل المرأة ذلك . وأن يفرج بين رجليه . ولا تفعل المرأة ذلك . وأن يكون في سجوده نحويا على الأرض . ولا تكون المرأة نحوية .

(١) حديث « أنه يقول بعد قوله الله أكبر : الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا » أخرجه مسلم من حديث ابن عمر قال « بينما نحن نصلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال رحل من القوم الله أكبر كبيرا .. الحديث » أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث جبير بن مطعم « أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي صلاة قال : الله أكبر كبيرا .. الحديث » (٢) حديث « دعاء الاستفتاح وجهت وجهي ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث علي (٣) حديث « سبحانك اللهم وبحمدك .. الحديث » في الاستفتاح أيضا أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم وصححه من حديث عائشة وضمه الترمذي والدارقطني ورواه مسلم مؤثرا على عمر وعند البيهقي من حديث جابر الجمع بين « وجهت » وبين « سبحانك اللهم » (٤) حديث « القوت في الصبح بالكلمات المأثورة » أخرجه البيهقي من حديث ابن عباس « كان النبي صلى الله عليه وسلم يقنت في صلاة الصبح وفي وتر الليل بهؤلاء الكلمات : اللهم اهدني فليس هديت .. الحديث » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وسأني من حديث الحسن « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يلهه هؤلاء الكلمات يقولهن في الوتر » وإسناده صحيح

والتخوية : رفع المطان عن الفخذين والتفريج بين الركبتين . وأن يضع يديه على الأرض حذاء منكبيه ولا يفرح بين أصابعهما بل يضمهما ويضم الإبهام إليهما ، وإن لم يضم الإبهام فلا بأس ، ولا يفترش ذراعيه على الأرض كما يفترش الكلب ^(١) فإنه منهى عنه . وأن يقول : سبحان ربى الأعلى ، ثلاثاً فإن زاد لحسن إلا أن يكون إماماً . ثم يرفع من السجود فيطمئن جالساً معتدلاً فيرفع رأسه مكبراً ويجلس على رجله اليسرى وينصب قدمه اليمنى ويضع يديه على فخذه والأصابع مذكورة ولا يتكلف صمها ولا تفريجها . ويقول : رب اغفر لى وارحمى وارزقنى وأهدنى واجبرنى وعافنى واعم عنى ، ولا يطول هذه الجلسة إلا فى سجود التسييح . ويأتى بالسجدة الثانية كذلك ويستوى منها جالساً جلسة خفيفة للاستراحة فى كل ركعة لا تشهد عقبيها . ثم يقوم فيضع اليد على الأرض ولا يقدم إحدى رجليه فى حال الارتفاع ويمد التكبير حتى يستغرق ما بين وسط ارتفاعه من القعود إلى وسط ارتفاعه إلى القيام . بحيث تكون الهاء من قوله « الله » عند استوائه جالساً ؛ وكاف « أكبر » عند اعتماده على اليد للقيام ، وراء « أكبر » فى وسط ارتفاعه إلى القيام ويبتدئ فى وسط ارتفاعه إلى القيام حتى يقع التكبير فى وسط انتقاله ولا يخلو عنه إلا طرفاه وهو أقرب إلى التعميم . ويصلى الركعة الثانية كالأولى ويعيد التعوذ كالأولى .

التشهد

ثم يتشهد فى الركعة الثانية التشهد الأول . ثم يصلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله ويضع يده اليمنى على فخذه اليمنى ويقبض أصابعه اليمنى إلا المسبحة ، ولا بأس بارسال الإبهام أيضاً ، ويشير بمسبحة يمينه وحدها عند قوله « وإلا الله » لا عند قوله « لا إله » ويجلس فى هذا التشهد على رجله اليسرى كما بين السجدين . وفى التشهد الأخير يستكمل الدعاء المأثور ^(٢) بعد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وسننه كسنة التشهد الأول لكن يجلس فى الأخير على ورثة الأيسر ، لأنه ليس مستوفوا للقيام بل هو مستقر ، ويضع رجله اليسرى خارجة من تحته وينصب اليمنى ويضع رأس الإبهام إلى جهة القبلة إن لم يشق عليه . ثم يقول « السلام عليكم ورحمة الله » ويلتفت يمينا بحيث يرى خده الأيمن من وراه من الجانب اليمنى ويلتفت شمالاً كذلك . ويسلم تسليمه ثانية وينوى الخروج من الصلاة بالسلام وينوى بالسلام من على يمينه الملائكة والمسلمين فى الأولى ، وينوى مثل ذلك فى الثانية . ويجزم التسليم ^(٣) ولا يمد يده مدا فهو السنة . وهذه هيئة صلاة المنفرد ، ويرفع صوته بالتكبيرات ولا يرفع صوته إلا بقدر ما يسمع نفسه . ويوى الإمام الإمامة لينال الفضل فإن لم ينو صحت صلاة القوم إذا نواوا الاقتداء ونالوا فضل الجماعة ، ويسر بدعاء الاستفتاح والتعوذ كالمنفرد ، ويجهر بالفاتحة والسورة فى جميع الصبح وأولى العشاء والمغرب . وكذلك المنفرد . ويجهر بقوله « آمين » فى الصلاة الجهرية وكذلك المأموم . ويقرن المأموم تأمينه بتأمين الإمام معالاته يميناً ويسكت الإمام سكتة عقيب الفاتحة ليثوب إليه نفسه ويقرأ المأموم الفاتحة فى الجهرية فى هذه السكتة ليتمكن من الاستماع عند قراءة الإمام . ولا يقرأ المأموم السور فى الجهرية إلا إذا لم يسمع صوت الإمام . ويقول الإمام « سمع الله لمن حمده » عند رفع رأسه من الركوع وكذا المأموم . ولا يزيد الإمام على الثلاث فى تسيحات الركوع والسجود ، ولا يزيد

(١) حديث « النهى عن أن يمرش ذراعيه على الأرض كما يفترش الكلب » متفق عليه من حديث أنس (٢) حديث « الدعاء المأثور بعد التشهد » أخرجه مسلم من حديث على فى دعاء الاستفتاح قال « ثم يكون من آخر ما يقول بين التشهد والنسب : اللهم اغفر لى ما قدمت . . الحديث » وفى الصحيحين من حديث عائشة « إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع : من عذاب جهنم . . الحديث » وفى الباب غير ذلك جميعها فى الأصل (٣) حديث « حرم السلام سة » أخرجه أبو داود والترمذى من حديث أنى هريرة وقال حسن صحيح وضعه ابن القطان .

في التشهد الأول بعد قوله « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد » ، ويقتصر في الركعتين الأخيرتين على الفاتحة ولا يطول على القوم ولا يزيد على دعائه في التشهد الأخير على قدر التشهد والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وينوى عند السلام : السلام على القوم والملائكة . وينوى القوم بتسليمهم جوابه ويشبث الإمام ساعة حتى يفرغ الناس من السلام ويقبل على الناس بوجهه . والأولى أن يثبت إن كان خلف الرجال نساء لينصرفن قبله ، ولا يقوم واحد من القوم حتى يقوم . وينصرف الإمام حيث يشاء عن يمينه وشماله واليمين أحب إلى . ولا يخص الإمام نفسه بالدعاء في قنوت الصبح بل يقول « اللهم اهدنا » ، ويجهر به ويؤمن القوم ويرفعون أيديهم حذاء الصدور ، ويمسح لوجهه عند ختم الدعاء . لحديث نقل فيه ، وإلا فالقياس أن لا يرفع اليد كما في آخر التشهد .

المنهيات

نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصنفين في الصلاة والصنفين وقد ذكرناهما وعن الإقعاء^(١) وعن السدل^(٢) والكفت^(٣) وعن الاختصار^(٤) وعن الصلب^(٥) وعن المواصلة^(٦) وعن صلاة الحاقن^(٧) والحاقب^(٨) والحازق^(٩) وعن صلاة الجائع والغضبان والمتلثم^(١٠) وهو ستر الوجه . أما الإقعاء : فهو عند أهل اللغة أن يجلس على وركبيه وينصب ركبتيه ويحمل يديه على الأرض كالسكب . وعند أهل الحديث أن يجلس على ساقيه جاثيا وليس على الأرض منه إلا رءوس أصابع الرجلين والركبتين . وأما السدل : فذهب أهل الحديث فيه أن يلتحف بثوبه ويدخل يديه من داخل فيركع ويسجد كذلك . وكان هذا فعل اليهود في صلاتهم فنهوا عن التشبه بهم . والقميص في معناه فلا ينبغي أن يركع ويسجد ويده في بدن القميص . وقيل معناه أن يضع وسط الإزار على رأسه ويرسل طرفيه عن يمينه وشماله من غير أن يجعلهما على كتفيه . والأول أقرب . وأما الكف فهو أن يرفع ثيابه من بين يديه أو من خلفه إذا أراد السجود . وقد يكون الكف في شعر الرأس فلا يصلين وهو عاقص شعره والنهي للرجال . وفي الحديث « أمرت

(١) حديث « النهى عن الإقعاء » أخرجه الرمذى وابن ماجه من حديث على بن إسناد ضعيف « لا يقع بين السجديتين » ومسلم من حديث عائشة « كان ينهى عن عقبة الشيطان » والحاكم من حديث سمرة وصححه « نهى عن الإقعاء » (٢) حديث « نهى عن السدل في الصلاة » أخرجه أبو داود والترمذى والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة (٣) حديث « النهى عن الكفت في الصلاة » من حديث ابن عباس « أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم أن نسجد على سبعة أعظم ولا نسكت شعر أولانونا » (٤) حديث « النهى عن الاختصار » أخرجه أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة وهو متفق عليه بلفظ « نهى أن يصلى الرجل مختصرا » (٥) حديث « النهى عن الصاب في الصلاة » أخرجه أبو داود والنسائي من حديث ابن عمر بإسناد صحيح (٦) حديث « النهى عن المواصلة » عزاه رزين إلى الترمذى ولم أجده عنده ، وقد فسره الفرالي بوصول القراءة بالتكبير ووصول القراءة بالركوع وغير ذلك . وقد روى أبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث سمرة « سكتتان حفظتهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل في صلاته : إذا فرغ من قراءته وإذا فرغ من قراءة القرآن » وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة « كان يسكت بين التكبير والقراءة لسكاته .. الحديث » (٧) حديث « النهى عن صلاة الحاقن » أخرجه ابن ماجه والدارقطنى من حديث أبي أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يصلى الرجل وهو حاقن » وأبو داود من حديث أبي هريرة « لا يجعل لرجل يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصلى وهو حاقن » وله وللترمذى وحسنه نحوه من حديث ثوبان ومسلم من حديث عائشة « لا صلاة بمحضرة طعام ولا وهو يدافقه الأخبثان » (٨) حديث « النهى عن صلاة الحاقب » لم أجده بهذا اللفظ وفسره المصنف تماما للأزهري بدافعة الفالط وفيه حديث عائشة الذي قبل هذا (٩) حديث « النهى عن صلاة الحازق » عزاه رزين إلى الترمذى ولم أجده عنده والذي ذكره أصحاب الريب حديث « لا رأى لحازق » وهو صاحب الحنف الصيق « (١٠) حديث « النهى عن التلثم في الصلاة » أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث أبي هريرة بنسند حسن « نهى أن يصلى الرجل فاه في الصلاة » رواه الحاكم وصححه قال الخطابي هو التلثم على الأنفواء

أن يسجد على سبعة أعضاء ولا أكفت شعرا ولا ثوبا^(١) ، وكره أحمد بن حنبل رضى الله عنه أن يأتزر فوق القميص في الصلاة ورآه من الكفت ، وأما الاختصار : فإن يضع يديه على خاصرتيه . وأما الصلب فإن يضع يديه على خاصرتيه في القيام ويجافى بين عضديه في القيام . وأما المواصله : فهي خمسة ؛ اثنان على الإمام أن لا يصل قراءته بتكبيره الإحرام ولا ركوعه بقراءته ، واثنان على المأموم أن لا يصل تكبيرة الإحرام بتكبيره الإمام ولا تسليمه بتسليمه ، وواحدة بينهما أن لا يصل تسليمه الفرض بالتسليم الثانية وليفصل بينهما وأما الحاقن : فن البول ، والحاقب : من الغائط . والحازق : صاحب الخلف الضيق . فإن كل ذلك يمنع من الخشوع . وفي معناه الجائع والمهتم . وفهم نهي الجائع من قوله صلى الله عليه وسلم « إذا حضر العشاء وأقيمت الصلاة فابدهوا بالعشاء إلا أن يضيق الوقت أو يكون ساكن القلب^(٢) ، وفي الخبر « لا يدخل أحكم الصلاة وهو مقطب ولا يصلين أحكم وهو غضبان^(٣) ، وقال الحسن : كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي إلى العقوبة أسرع . وفي الحديث « سبعة أشياء في الصلاة من الشيطان : الرعاف والنعاس والوسوسة والتثاؤب والحكاك والالتفات والعبث بالشئ^(٤) ، وزاد بعضهم « السهو والشك » ، وقال بعض السلف : أربعة في الصلاة من الجفاء - الالتفات ومسح الوجه وتسوية الحصى وأن تصلى بطريق من يمين يديك » ونهى أيضا عن أن يشبك أصابعه^(٥) أو يفرقع أصابعه^(٦) أو يستر وجهه^(٧) أو يضع إحدى كفيه على الأخرى يدخلهما بين نخذه في الركوع^(٨) ، وقال بعض الصحابة رضى الله عنهم : كنا نعمل ذلك فنهينا عنه . ويكره أيضا أن ينفخ في الأرض عند السجود للتطيف وأن يسوى الحصى بيده فإنها أفعال مستغنى عنها ولا يرفع إحدى قدميه فيصها على نخذه ولا يستند في قيامه إلى حائط فإن استند بحيث لو سل ذلك الحائط لسقط فالأظهر بطلان صلاته والله أعلم .

تمييز الفرائض والسنن

جملة ما ذكر يشتمل على فرائض و سنن وآداب وهيئات مما ينبغي لمريد طريق الآخرة أن يراعى جميعها . فالفرض من جملتها اثنتا عشرة حصة : التنية والتكبير والقيام والفاحة ، والانحزام في الركوع إلى أن تنال راحتاه ركبتيه مع الطمأنينة والاعتدال عنه قائما ، والسجود مع الطمأنينة ولا يجب وضع اليدين والاعتدال عنه قاعدا ، والجلوس للتشهد الأخير والتشهد الأخير والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، والسلام الأول . فأمانية الخروج فلا تجب وماعدا هذا فليس بواجب بل هي سنن وهيئات فيها وفي الفرائض : أما السنن فن الأفعال أربعة : رفع اليدين في تكبيرة الإحرام وعند الهوى إلى الركوع وعند الارتفاع إلى القيام ، والجلسة للتشهد الأول . فأما ما ذكرناه من كيفية

(١) حديث « أمرت أن اسجد على سبعة أعضاء ولا أكفت شعرا ولا ثوبا » متفق عليه من حديث ابن عباس

(٢) حديث « إذا حضر العشاء وأقيمت الصلاة فابدهوا بالعشاء » متفق عليه من حديث ابن عمر وعائشة (٣) حديث « لا يدخل أحكم الصلاة وهو مقطب ولا يصاب أحكم وهو غضبان » لم أجده (٤) حديث « سبعة أشياء من الشيطان في الصلاة : الرعاف والنعاس والوسوسة والتثاؤب والالتفات » وزاد بعضهم « السهو والشك » أخرجه الترمذي من رواية عدى بن ثابت عن أبيه عن جده فذكر منها الرعاف والنعاس والتثاؤب وزاد ثلاثة أخرى وقال حديث عرب ولسلم من حديث عثمان بن أبي العاص « يارسول الله إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي الحديث » وللغازي من حديث عائشة في الالتفات في الصلاة هو اختلاس نخذه الشيطان من صلاة أحكم وللشيخ من حديث أبي هريرة التثاؤب من الشيطان ولها من حديث أبي هريرة من أحكم إذا قام يصلي حاء الشيطان فليس عليه صلته حتى لا يدري كم صلى (٥) حديث « النهي عن تشدك الأمام » أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة وداود والترمذي وابن ماجه وابن حبان نحوه من حديث كعب بن عجرة (٦) حديث « النهي عن تقطيع الأمام في الصلاة » أخرجه ابن ماجه من حديث علي بإسناد ضعيف لا يمتنع في أصابعك الصلاة (٧) حديث « النهي عن ستر الوجه » أخرجه أبو داود وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة (٨) حديث « النهي عن التطبيق في الركوع » متفق عليه من حديث سعد بن أبي وقاص : كنا نعمله فنهينا عنه وأمرنا أن نضع الأيدي على الركب

نشر الأصابع وحدّ رفقها فهي هيئات تابعة لهذه السنة ، والتورك والافتراش هيئات تابعة للجلسة والإطراق وترك الالتفات هيئات للقيام وتحسين صورته ، وجلسة الاستراحة لم نعدّها من أصول السنة في الأفعال لأنّها كالتحسين هيئة الارتفاع من السجود إلى القيام لأنها ليست مقصودة في نفسها ولذلك لم تفرد بذكر . وأما السنن من الأذكار فدعاء الاستفتاح ثم التعوذ ثم قوله « آمين » فإنه سنة مؤكدة ثم قراءة السورة ثم تكبيرات الانتقالات ، ثم الذكر في الركوع والسجود والاعتدال عنهما ، ثم التشهد الأول والصلاة فيه على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم الدعاء في آخر التشهد الأخير ، ثم التسليمة الثانية وإن جمعناها في اسم السنة فلها درجات متفاوتة إذ تجبر أربعة منها بسجود السهو . وأما من الأفعال فواحدة : وهي الجلسة الأولى للتشهد الأول فإنها مؤثرة في ترتيب نظم الصلاة في أعين الناظرين حتى يعرف بها أهار باعية أم لا ؛ بخلاف رفع اليدين فإنه لا يؤثر في تغيير النظم فمبعض عن ذلك بالبعض . وقيل الأبعاض تجبر بالسجود : وأما الأذكار فكلها لا تقتضى سجود السهو إلا ثلاثة : القنوت والتشهد الأول والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فيه ، بخلاف تكبيرات الانتقالات وأذكار الركوع والسجود والاعتدال عنهما ، لأن الركوع والسجود في صورتها مخالفة للعادة ويحصل بهما معنى العبادة مع السكوت عن الأذكار وعن تكبيرات الانتقالات فعدم تلك الأذكار لا تغير صورة العبادة . وأما الجلسة للتشهد الأول ففعل معتاد وما زيدت إلا للتشهد فتركها ظاهر التأثير . وأما دعاء الاستفتاح والسورة فتركها لا يؤثر مع أن القيام صار معمورا بالفاتحة وبمبدا عن العادة بها ، وكذلك الدعاء في التشهد الأخير والقنوت ألد ما يجبر بالسجود ولكن شرع مد الاعتدال في الصباح لأجله فكان كد جلسة الاستراحة إذ صارت بالمد مع التشهد جلسه للتشهد الأول . فبقي هذا قياما ممدودا معتادا ليس فيه ذكر واجب وفي الممدود احتراز عن غير الصباح وفي خلوه عن ذكر واجب احتراز عن أصل القيام في الصلاة * فإن قلت : تمييز السنن عن الفرائض معقول إذ تفوت الصحة بفوت الفرض دون السنة ويتوجه العقاب به دونها فأما تمييز سنة عن سنة والكل مأمور به على سبيل الاستحباب ولا عقاب في ترك الكل والثواب موجود على الكل فما معناه ؟ فاعلم أن اشتراكهما في الثواب والعقاب والاستحباب لا يرفع تفاوتهما ، وإنكشفت ذلك لك بمثال : وهو أن الإنسان لا يكون إنسانا موجودا كاملا إلا بمعنى باطن وأعضاء ظاهرة ، فالمعنى الباطن هو الحياة والروح ، والظاهر أجسام أعضائه . ثم بعض تلك الأعضاء يعدم الإنسان بعدمها كالقلب والكبد والدماع ، وكل عضو تفوت الحياة بفواته ، وبعضها لا تفوت بها الحياة ولكن يفوت بها مقاصد الحياة كالعين واليد والرجل واللسان ، وبعضها لا يفوت بها الحياة ولا مقاصدها ولكن يفوت بها الحسن كالحاجبين والحية والأهداب وحسن اللون ، وبعضها لا يفوت بها أصل الجمال ولكن كاله كاستقواس الحاجبين وسواد شعر اللحية والأهداب وتناسب خلقة الأعضاء وامتزاج الحمرة بالياض في اللون فهذه درجات متفاوتة ؛ فكذلك العبادة صورة صورها الشرع وتعبنا باكتسابها فروحها وحياتها الباطنة الخشوع والنية وحضور القلب والإخلاص - كما سيأتي - ونحن الآن في أجزائها الظاهرة فالركوع والسجود والقيام وسائر الأركان تجري منها مجرى القلب والرأس والكبد إذ يفوت وجود الصلاة بفواتها . والسنن التي ذكرناها من رفع اليدين ودعاء الاستفتاح والتشهد الأول تجري منها مجرى اليدين والعينين والرجلين ولا تفوت الصحة بفواتها كما لا تفوت الحياة بفوات هذه الأعضاء ولكن يصير الشخص بسبب فواتها مشوه الخلقة مذموما غير مرغوب فيه ، فكذلك من اقتصر على أقل ما يجري من الصلاة كان كمن أهدى إلى ملك من الملوك عبدا حيا مقطوع الأطراف . وأما الهيئات وهي ما وراء السنن فتجري مجرى أسباب الحسن من الحاجبين والحية والأهداب

وحسن اللون ، وأما وظائف الأذكار في تلك السنن فهي مكملات للحسن كاستقواس الحاجبين واستدارة اللحية وغيرهما . فالصلاة عندك قرينة وتحفة تتقرب بها إلى حضرة ملك الملوك كوصيفة يهديها طالب القربة من السلاطين إليهم وهذه التحفة تعرض على الله عز وجل . ثم ترد عليك يوم العرض الأكبر فأليك الخيرة في تحسين صورتها وتقييحها . فإن أحسنت فلنفسك وإن أسأت فعليها . ولا ينبغي أن يكون حطك من ممارسة الفقه أن يتميز لك السنة عن القرض فلا يعلق بفهمك من أوصاف السنة إلا أنه يجوز تركها فتركها فإن ذلك يضاهاى قول الطيب : إن فقه العين لا يبطل وجود الإنسان ولكن يخرجه عن أن يصدق رجاء المتقرب في قبول السلطان إذا أخرجه في معرض الهدية - فهكذا ينبغي أن تفهم مراتب السنن والهيئات والآداب ، فكل صلاة لم يتم الإنسان ركوعها ويجردا فهي الخضم الأول على صاحبها تقول : ضيعك الله كما ضيعتني . فطالع الأخبار التي أوردناها في كمال أركان الصلاة ليظهر لك وقعها .

الباب الثالث : في الشروط الباطنة من أعمال القلب

وانذكر في هذا الباب ارتباط الصلاة بالخشوع وحضور القلب . تم نذكر المعاني الباطنة وحدودها وأسبابها وعلاجها . ثم لمدكر تفصيل ما ينبغي أن يحضر في كل ركن من أركان الصلاة لتكون صالحة لراد الآخرة .

بيان اشتراط الخشوع وحضور القلب

اعلم أن أدلة ذلك كثيرة فمن ذلك قوله تعالى ﴿ أفم الصلاة لذكري ﴾ وظاهر الأمر الوحوب ، والغفلة تضاد الذكر من غفل في جميع صلواته كيف يكون مقبلاً للصلاة لذكره ؟ وقوله تعالى ﴿ ولا تكن من الغافلين ﴾ نهي وظاهره التحريم وقوله عز وجل ﴿ حتى تعلموا ما تقولون ﴾ تعليل لنهي السكران وهو مطرد في الغافل المستغرق المغم بالوسواس وأفكار الدنيا وقوله صلى الله عليه وسلم ﴿ إنما الصلاة تمسك وتواضع ، حصر بالآلف واللام وكلمة وإنما ، للتحقيق والتوكيد ، وقد فهم الفقهاء من قوله عليه السلام ﴿ إنما الشفعة فيما لم يقصر ، الحصر والاثبات والنفي ، وقوله صلى الله عليه وسلم ﴿ من لم تنته صلواته عن الفحشاء والمنكر لم يرد من الله إلا بعداً ﴾ وصلاة الغافل لا تمنع من الفحشاء والمنكر ، وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ كم من قائم حظه من صلواته التعب والنصب ^(١) ، وما أُرَاد به إلا الغافل وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ ليس للعبد من صلواته إلا ما عقل منها ^(٢) ﴾ والتحقيق فيه أن المصلي مناج ربه عز وجل ^(٣) ، كما ورد به الخبر والكلام مع الغفلة ليس بمنجاة ألبتة ، ويباه أن الزكاة إن غفل الإنسان عنها مثلاً فهي في نفسها مخالفة للشهوة شديدة على النفس ، وكذا الصوم قاهر للقوى كاسر لسطوة الهوى الذي هو آلة للشيطان عدو الله ، فلا يبعد أن يحصل منها مقصود مع الغفلة ، وكذلك الحج أفعاله شاقة شديدة وفيه من المجاهدة ما يحصل به

الباب الثالث

(١) حديث « كم من قائم حظه من صلواته التعب والنصب » أخرجه النسائي من حديث أبي هريرة « رب قائم ليس له من قيامه إلا السهر » ولاحمد « رب قائم حظه من صلواته السهر » وإسناده حسن .

(٢) حديث « ليس للعبد من صلواته إلا ما عقل » لم أجده مرفوعاً روى محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة من رواية عثمان بن أيمن بن دهرش مرسلاً « لا يقبل الله من عبد عملاً حتى يشهد قلبه مع بدنه » ورواه أبو منصور الديلمي في منزه الفردوس من حديث أبي ابن كعب ولابن المبارك في الرهد موقوفاً على عمار لا يكتب للرجل من صلواته ما سها عنه

(٣) حديث « المصلي يناجى ربه » متفق عليه من حديث أس

الإيلام كان القلب حاضراً مع أفعاله أو لم يكن ؟ أما الصلاة فليس فيها إلا ذكر وقراءة وركوع وسجود وقيام وقعود ، فأما الذكر فإنه مجاورة ومناجاة مع الله عز وجل فأما أن يكون المقصود منه كونه خطاباً ومجاورة أو المقصود منه الحروف والأصوات امتحاناً للسان بالعمل كما تمتحن المعدة والفرج بالإمساك في الصوم ، وكما تمتحن البدن بمشاق الحرج ، ويمتنحن بمشقة إخراج الزكاة واقتطاع المال المعشوق . ولا شك أن هذا القسم باطل فان تحريك اللسان بالهذيان ما أخفه على الغافل فليس فيه امتحان من حيث أنه عمل بل المقصود الحروف من حيث أنه نطق ، ولا يكون نطقاً إلا إذا أعرب عما في الضمير ولا يكون معرباً إلا بحضور القلب ، فأى سؤال في قوله (إهدنا الصراط المستقيم) إذا كان القلب غافلاً ؟ وإذا لم يقصد كونه تضرعاً ودعاءً فأى مشقة في تحريك اللسان به مع الغفلة لاسيما بعد الاعتياد ؟ هذا حكم الأذكار بل أقول لو حلف الإنسان وقال : لأشكرن فلانا وأثنى عليه وأسأله حاجة ؛ ثم جرت الألفاظ الدالة على هذه المعاني على لسانه في النوم لم يبر في يمينه ، ولو جرت على لسانه في ظلمة وذلك للإنسان حاضر وهو لا يعرف حضوره ولا يراه لا يصير باراً في يمينه إذ لا يكون كلامه خطاباً ونطقاً معه مالم يكن هو حاضراً في قلبه ، فلو كانت تجرى هذه الكلمات على لسانه وهو حاضر إلا أنه في بياض النهار غافل لكونه مستغرق الهم بفكر من الأفكار ولم يكن له قصد توجيه الخطاب إليه عند نطقه لم يصير باراً في يمينه . ولا شك أن المقصود من القراءة والأذكار الحمد والثناء والتضرع والدعاء ، والمحاطب هو الله عز وجل وقلبه بحجاب الغفلة محبوب عنه فلا يراه ولا يشاهده بل هو غافل عن المحاطب ولسانه يتحرك بحكم العادة فما أبعد هذا عن المقصود بالصلاة التي شرعت لتصقيط القلب وتجديد ذكر الله عز وجل ورسوخ عقدا الإيمان به ؛ هذا حكم القراءة والذكر . وبالجملة فهذه الخاصية لاسيما إلى إنكارها في النطق وتمييزها عن الفعل . وأما الركوع والسجود فالمقصود بهما التعظيم قطعاً ولو جاز أن يكون معظماً لله عز وجل بفعله وهو غافل عنه لجاز أن يكون معظماً لصنم موضوع بين يديه وهو غافل عنه ، أو يكون معظماً للحائط الذي بين يديه وهو غافل عنه ، وإذا خرج عن كونه تعظيماً لم يبق إلا مجرد حركة الظهر والرأس وليس فيه من المشقة ما يقصد الامتحان به ، ثم يجعله عماد الدين والفاصل بين الكفر والإسلام ويقدم على الحج وسائر العبادات ويجب القتل بسبب تركه على الخصوص ، وما أرى أن هذه العظمة كلها للصلاة من حيث أعمالها الظاهرة إلا أن يضاف إليها مقصود المناجاة فان ذلك يتقدم على الصوم والزكاة والحج وغيره بل الضحايا والقرابين التي هي مجاهدة للنفس بتقيص المسأل قال الله تعالى (إن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) أي الصفة التي استولت على القلب حتى حملته على امتثال الأوامر هي المطلوبة فكيف الأمر في الصلاة ولا أرب في أفعالها ؟ فهذا ما يدل من حيث المعنى على اشتراط حضور القلب * فان قلت : إن حكمت بطلان الصلاة وجعلت حضور القلب شرطاً في صحتها خالفت إجماع الفقهاء فانهم لم يشترطوا إلا حضور القلب عند التكبير ؟ فاعلم أنه قد تقدم في كتاب العلم : أن الفقهاء لا يتصرفون في الباطن ولا يشقون عن القلوب ولا في طريق الآخرة بل يبنون أحكام الدين على ظاهر أعمال الجوارح ؛ وظاهر الأعمال كاف لسقوط القتل وتعزير السلطان ؛ فأما أنه ينفع في الآخرة فليس هذا من حدود الفقه على أنه لا يمكن أن يدعى الإجماع . فقد نقل عن بشر بن الحارث فيأرواه عنه أبو طالب المسكي عن سفيان الثوري أنه قال : من لم يخشع فسدت صلاته وروى عن الحسن أنه قال : كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي إلى العقوبة أسرع . وعن معاذ بن جبل : من عرف من على يمينه وشماله متعمداً وهو في الصلاة فلا صلاة له . وروى أيضاً مسنداً قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

« إن العبد ليصل الصلاة لا يكتب له سدسها ولا عشرها وإنما يكتب للعبد من صلاته ما عقل^(١) منها ، وهذا لو نقل عن غيره لجعل مذهباً فكيف لا يتمسك به ؟ وقال عبد الواحد بن زيد : أجمعت العلماء على أنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها ، فجعله إجماعاً ، وما نقل من هذا الجذس عن الفقهاء المتورعين وعن علماء الآخرة أكثر من أن يحصى . والحق الرجوع إلى أدلة الشرع والأخبار ، والآثار ظاهرة في هذا الشرط إلا أن مقام الفتوى في التكليف الظاهر يتقدر بقصور الخلق . فلا يمكن أن يشترط على الناس إحضار القلب في جميع الصلاة فإن ذلك يعجز عنه كل البشر إلا الأفلين وإذا لم يمكن اشتراط الاستيعاب للضرورة فلا مرد له إلا أن يشترط منه ما يطلق عليه الاسم ولو في اللحظة الواحدة ، وأولى اللحظات به لحظة التكبير فاقصرنا على التكليف بذلك . ونحن مع ذلك نرجو أن لا يكون حال الغافل في جميع صلاته مثل حال التارك بالكلية . فانه على الجملة أقدم على العمل ظاهراً وأحضر القلب لحظة . وكيف لا والذي صلى مع الحدث ناسياً صلاته باطلة عند الله تعالى ولكن له أجر ما بحسب فعله وعلى قدر قصوره وعذره ، ومع هذا الرجاء فيخشى أن يكون حاله أشد من حال التارك وكيف لا والذي يحضر الخدمة ويتهاون بالحضرة ويتكلم بكلام الغافل المستحقر أشد حالاً من الذي يعرض عن الخدمة ؟ وإذا تعارض أسباب الخوف والرجاء وصار الأمر غظراً في نفسه فإليك الخيرة بعده في الاحتياط والتساهل . ومع هذا فلا مطمع في مخالفة الفقهاء فيما أفتوا به من الصحة مع الغفلة فإن ذلك من ضرورة الفتوى - كما سبق التنبيه عليه - ومن عرف سر الصلاة علم أن الغفلة تضادها . ولكن قد ذكرنا في باب الفرق بين العلم الباطن والظاهر في كتاب قواعد العقائد أن قصور الخلق أحد الأسباب المانعة عن التصريح بكل ما يتكشف من أسرار الشرع . فلنقتصر على هذا القدر من البحث فإن فيه مقنناً للريد الطالب لطريق الآخرة . وأما المجالد المشغب فلسنا نقصد مخاطبته الآن وحاصل الكلام أن حضور القلب هو روح الصلاة وأن أقل ما يبقى به رفق الروح الحضور عند التكبير . فالتقصان منه هلاك وبقدر الزيادة عليه تهبسط الروح في أجزاء الصلاة . وكمن حتى لا يحرك به قريب من ميت ؟ فصلاة الغافل في جميعها إلا عند التكبير كمثل حتى لا يحرك به نسأل الله حسن العون

بيان المعاني الباطنة التي تتم بها حياة الصلاة

لعل أن هذه المعاني تكثر العبارات عنها ولكن يجمعها ست جهل وهي : حضور القلب والتفهم والتعظيم والهيبة والرجاء والحياء . فلذلك تفاضيلها ثم أسبابها ثم العلاج في اكتسابها . أما التفصيل : فالأول ، حضور القلب ونعني به أن يفرغ القلب عن غير ما هو ملابس له ومتكلم به ، فيكون العلم بالفعل والقول مقرراً فيهما ، ولا يكون الفكر جاثلاً في غيرهما ، ومهما انصرف في الفكر عن غير ما هو فيه وكان في قلبه ذكر لما هو فيه ولم يكن فيه غفلة عن كل شيء فقد حصل حضور القلب ولكن التفهم لمعنى الكلام أمر وراء حضور القلب ، فربما يكون القلب حاضراً مع اللفظ ولا يكون حاضراً مع معنى اللفظ ؛ فاشتغال القلب على العلم بمعنى اللفظ هو الذي أردناه بالتفهم . وهذا مقام يتفاوت الناس فيه إذ ليس يشترك الناس في تفهم المعاني للقرآن والتسبيحات . وكمن من معان لطيفة يفهمها المصلي في أثناء الصلاة ولم يكن قد خطر بقلبه ذلك قبله ؟ ومن هذا الوجه كانت الصلاة ناهية عن الفحشاء والمنكر ، فإنها تفهم أموراً ؛ تلك الأمور تمنع عن الفحشاء لا بحالة . وأما التعظيم فهو أمر وراء حضور القلب والفهم إذاً الرجل يخاطب عبده بكلام هو حاضر القلب

(١) حديث « إن العبد ليصل الصلاة لا يكتب له سدسها ولا عشرها ... الحديث » أخرجه أبو داود والسنن وابن حبان من

حديث عمار بن ياسر بنحوه

فيه ومتفهم لمعناه ولا يكون معظما له فالتعظيم زائد عليهما . وأما الهيبة فزائدة على التعظيم بل هي عبارة عن خوف مدتهو التعظيم لأن من لا يخاف لا يسمى هائبا ، والخافة من العقرب وسوء خلق العبد وما يجرى مجراه من الأسباب الخسيسة لا تسمى مهابة ، بل الخوف من السلطان المعظم يسمى مهابة ، والهيبة خوف مصدرها الإحلال . وأما الرجا فلا شك أنه زائد فكم من معطم ملكا من الملوك يهابه أو يخاف سطوته ولكن لا يرجو ثوبته . والعبد ينبغي أن يكون راجيا بصلاته ثواب الله عز وجل كما أنه خائف بتقصيره عقاب الله عز وجل ، وأما الحياء فهو زائد على الجملة لأن مستنده استشعار تقصير وتوهم ذنب ويتصور التعظيم والخوف والرجاء من غير حياء حيث لا يكون توهم تقصير وارتكاب ذنب . وأما أسباب هذه المعاني الستة فاعلم أن حضور القلب سببه الهمة فإن قلبك تابع لهمتك فلا يحضر إلا فيما يهملك ومهما أهمك أمر حضر القلب فيه شاء أم أبي فهو مجبور على ذلك ومسخر فيه . والقلب إذا لم يحضر في الصلاة لم يكن متعظلا بل جائلا فيما الهمة مصروفة إليه من أمور الدنيا ، فلا حيلة ولا علاج لإحضار القلب إلا بصرف الهمة إلى الصلاة ، والهمة لا تنصرف إليها مالم يتبين أن الغرض المطلوب منوط بها وذلك هو الإيمان والتصديق بأن الآخرة خير وأبقى وأن الصلاة وسيلة إليها ، فإذا أصيف هذا إلى حقيقة العلم بحقارة الدنيا ومهامتها حصل من مجموعها حضور القلب في الصلاة ، وبمثل هذه العلة يحضر قلبك إذا حضرت بين يدي بعض الأكارم من لا يقدر على مضرتك ومنفعتك ، فإذا كان لا يحضر عند المناجاة مع ملك الملوك الذي يبدى الملك والمكوت والنفع والضر فلا تظن أن له سببا سوى ضعف الإيمان فاجتهد الآن في تقوية الإيمان - وطريقه يستقصى في غير هذا الموضوع - وأما التفهم فسيبه بعد حضور القلب إدمان الفكر وصرف الذهن إلى إدراك المعنى وعلاجه ما هو علاج إحضار القلب مع الإقبال على الفكر والتشمر لدفع الخواطر . وعلاج دفع الخواطر الشاغلة قطع موادها أعنى النزوع عن تلك الأسباب التي تنجذب الخواطر إليها ، ومالم تقطع تلك المواد لا تنصرف عنها الخواطر فمن أحب شيئا أكثر ذكره فذكر المحبوب يهجم على القلب بالضرورة ، لذلك ترى أن من أحب غير الله لا تصفوله صلاة عن الخواطر . وأما التعظيم فهي حالة للقلب تتولد من معرفتين ، إحداهما : معرفة جلال الله عز وجل وعظمته وهو من أصول الإيمان فإن من لا يعتقد عظمته لا تدعن النفس لتعظيمه . الثانية ، معرفة حقارة النفس وخستها وكونها عبدا مسخرا مربوبا حتى يتولد من معرفتين الاستكانة والانكسار والخشوع لله سبحانه فيعبر عنه بالتعظيم ، ومالم تتميز معرفة حقارة النفس بمعرفة جلال الله لا تنتظم حالة التعظيم والخشوع فإن المستغنى عن غيره الآمن على نفسه يجوز أن يعرف من غيره صفات العظمة ولا يكون الخشوع والتعظيم حاله لأن القرينة الأخرى وهي معرفة حقارة النفس وحاجتها لم تقترن إليه ، وأما الهيبة والخوف فخالة للنفس تتولد من المعرفة بقدرته الله وسطوته وتفوذ مشيئته فيه مع قلة المبالاة به ، وأنه لو أهلك الأولين والآخريين لم ينقص من ملكه ذرة هذا مع مطالعة ما يجرى على الأنبياء والأولياء من المصائب وأنواع البلاء مع القدرة على الدفع على خلاف ما يشاهد من ملوك الأرض . وبالجمله كلما زاد العلم بالله زادت الخشية والهيبة - وسيأتي أسباب ذلك في كتاب الخوف من رب المنجيات - وأما الرجاء فسيبه معرفة لطف الله عز وجل وكرمه وعميم إنعامه ولطائف صنعه ومعرفة صدقه في وعده الجنة بالصلاة ، فإذا حصل اليقين بوعدده والمعرفة بلطفه انبعث من مجموعهما الرجاء لآماله : وأما الحياء فباستشعاره التقصير في العبادة وعلمه بالعجز عن القيام بعظيم حق الله عز وجل ويقوى ذلك بالمعرفة بعيوب النفس وآفاتا وقله إخلاصها وخبت دخلتها وميلها إلى الحظ العاجل في جميع أفعالها مع العلم بعظيم ما يقتضيه جلال الله عز وجل والعلم

بأنه مطلع على السر وخطرات القلب وإن دتمت وخفيت ، وهذه المعارف إذا حصلت يقينا انبثت منها بالضرورة حالة تسمى الحياء فهذه أسباب هذه الصفات وكل ما طلب تحصيله فعلاجه إحضار سنده في معرفة السبب معرفة العلاج . ورابطة جميع هذه الأسباب الإيمان . واليقين أعني به هذه المعارف التي ذكرناها ومعنى كونها يقينا انتفاء الشك واستيلائها على القلب ، كما سبق في بيان اليقين من كتاب العلم - وبقدر اليقين يحس القلب ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة كأنه لم يعرفنا ولم نعرفه ، وقدرى أن الله سبحانه أوحى إلى موسى عليه السلام : يا موسى إذا ذكرتني فأذكرني وأنت تنتهض أعضائك وكن عند ذكرى خاشعا مطمئنا وإذا ذكرتني فأجعل لسانك من وراء قلبك وإذا قمت بين يدي فقم قيام العبد الذليل وناجني بقلب وجل ولسان صادق ، وروى أن الله تعالى أوحى إليه : قل لعصاة أمتك لا يدركوني فإني آليت على نفسي أن من ذكرني ذكرته فإذا ذكروني ذكرتهم باللعنة ، هذا في عاص غير غافل في ذكره فكيف إذا اجتمعت الغفلة والعصيان ؟ وباختلاف المعاني التي ذكرناها في القلوب انقسم الناس إلى غافل يتم صلواته ولم يحضر قلبه في لحظة منها . وإلى من يتم ولم يغيب قلبه في لحظة بل ربما كان مستوعب الهم بها بحيث لا يجس بما يجري بين يديه . ولذلك لم يحس مسلم بن يسار بسقوط الاسطوانة في المسجد اجتمع الناس عليها . وبعضهم كان يحضر الجماعة مدة ولم يعرف قط من على يمينه ويساره . ووجيب قلب إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه كان يسمع على ميلين . وجماعة كانت تصفر وجوههم وترتعد فرائضهم وكل ذلك غير مستبعد فإن أضعافه مشاهد في هم أهل الدنيا وخوف ملوك الدنيا مع عجزهم وضعفهم وخساسة الخطوط الحاصلة منهم حتى يدخل الواحد على ملك أو وزير ويحدثه بمهمته ثم يخرج ، ولو سئل عن حوالبه أو عن ثوب الملك لكان لا يقدر على الإخبار عنه لاشتغال همه به عن ثوبه وعن الحاضرين حوالبه (ولكل درجات مما عملوا) لحظ كل واحد من صلواته بقدر خوفه وخشوعه وتعظيمه فإن موقع نظر الله سبحانه القلوب دون ظاهر الحركات . ولذلك قال بعض الصحابة رضي الله عنهم : يحشر الناس يوم القيامة على مثال هيتهم في الصلاة من الطمأنينة والهدوء ومن وجود التعميم بها واللذة ، ولقد صدق فإنه يحشر كل على مامات عليه ويموت على ما عاش عليه : ويراعى في ذلك حال قلبه لاحال شخصه فن صفات القلوب تصاغ الصور في الدار الآخرة ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم ، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه

بيان الدواء النافع في حضور القلب

اعلم أن المؤمن لا بد أن يكون معظما لله عز وجل وغائفا منه وراجيا له ومستحييا من تقصيره فلا ينفك عن هذه الأحوال بعد إيمانه ، وإن كانت قوتها بقدر قوته يقينه فانفكاكها عنها في الصلاة لا سبب له إلا تفرق الفكر وتقسيم الخاطر وغيبية القلب عن المناجاة والغفلة عن الصلاة . ولا يلهي عن الصلاة إلا الخواطر الواردة الشاغلة ، فالدواء في إحضار القلب هو دفع تلك الخواطر ولا يدفع الشيء إلا بدفع سببه فلتعلم سببه . وسبب موارد الخواطر إما أن يكون أمرا خارجا أو أمرا في ذاته باطنا . أما الخارج فما يقرع السمع أو يظهر للبصر فإن ذلك قد يحتطف الهم حتى يتبعه ويتصرف فيه ثم تنجر منه الفكرة إلى غيره ويتسلسل ، ويكون الإبصار سببا للافتكار ، ثم تصير بعض تلك الأفكار سببا لبعض . ومن قويت نيته وعلت همته لم يلهه ما جرى على حواسه ولكن الضعيف لا بد وأن يتفرق به فكره . وعلاجه قطع هذه الأسباب بأن يغض بصره أو يصلي في بيت مظلم أو لا يترك بين يديه ما يشغل حسه ويقرب من حائط عند صلواته حتى لا تتسع مسافة بصره ، ويحترز من الصلاة على الشوارع

وفي المواضع المنقوشة المصنوعة وعلى الفرش المصبوغة . ولذلك كان المتعبدون يتعبدون في بيت صغير مظلم سعته قدر السجود ليكون ذلك أجمع اللهم . والأقوياء منهم كانوا يحضرون المساجد ويغضون البصر ولا يجاوزون به موضع السجود ويرون كمال الصلاة في أن لا يعرفوا من على يمينهم وشمالهم . وكان ابن عمر رضي الله عنهما لا يدع في موضع الصلاة مصحفاً ولا سيفاً إلا أنزعه ولا كتاباً إلا محاه . وأما الأسباب الباطنة فهي أشد فإن من تشعبت به الهوموم في أودية الدنيا لا ينحصر فكره في فن واحد بل لا يزال يطير من جانب إلى جانب وغض البصر لا يغنيه ، فإن ما وقع في القلب من قبل كاف للشغل فهذا طريقه أن يرد النفس قهراً إلى فهم ما يقرؤه في الصلاة ويشغلها به عن غيره ، ويعينه على ذلك أن يستعد له قبل التحريم بأن يتحدث على نفسه ذكر الآخرة وموقف المناجاة وخطر المقام بين يدي الله سبحانه وهو المطلع ويفرغ قلبه قبل التحريم بالصلاة عما يهيمه فلا يترك لنفسه شغلاً يلتفت إليه خاطره . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان بن أبي شيبة « إني نسيت أن أقول لك أن تخمر القدر الذي في البيت ^(١) » فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل الناس عن صلاتهم ؛ فهذا طريق تسكين الأفكار . فإن كان لا يسكن هوائج أفكاره بهذا الدواء المسكن فلا ينحيه إلا المسهل الذي يقمع مادة الداء من أعماق العروق وهو أن ينظر في الأمور الصارفة المشاغلة عن إحضار القلب ، ولا شك أنها تعود إلى مهماته وأنها إنما صارت مهمات لشهواته فيعاقب نفسه بالنزوع عن تلك الشهوات وقطع تلك العلائق ، فكل ما يشغله عن صلاته فهو ضد دينه وجند إبليس عدوه فإمسكه أضرم عليه من إخراجها فيتخلص منه بإخراجها كما روى أنه صلى الله عليه وسلم « لما لبس الخيصة التي أتاه بها أبو جهم وعليها علم وصلى بها نزعها بعد صلاته ، وقال صلى الله عليه وسلم : اذهبوا بها إلى أبي جهم فإنها أهدتني آفا عن صلاتي واثبتوني بأبجانية أبي جهم ^(٢) » . وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتجديد شركائه نعله ثم نظر إليه في صلاته إذ كان جديداً فأمر أن ينزع منها ويرد الشركاء الخلق ^(٣) . « وكان صلى الله عليه وسلم قد احتذى نعلاً فأعجبه حسنهما فسجد وقال : تواضعت لربي عز وجل كي لا يمقتني » ثم خرج بها فدفنها إلى أول سائل لقيه ، ثم أمر علياً رضي الله عنه أن يشتري له نعلين سبئيتين جرداوين فلبسهما ^(٤) . وكان صلى الله عليه وسلم في يده خاتم من ذهب قبل التحريم وكان على المنبر فرماه وقال شغلني هذا : نظرة إليه ونظرة إليكم ^(٥) وروى « أن أبا طلحة صلى في حائط وفيه شجر فأعجبه دبسى طار في الشجر يلتمس مخرجا فأتبعه بصره ساعة ثم لم يدركم صلى ؟ فذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما أصابه من الفتنة ثم قال : يا رسول الله هو صدقة فضعه حيث شئت ^(٦) » . وعن رجل آخر أنه صلى في حائط له والنخل مطوقة بثمرها فنظر لإيها وأعجبته ولم يدركم صلى ؟ فذكر ذلك لعثمان رضي الله عنه وقال : هو صدقة فاجعله في سبيل الله عز وجل

(١) حديث « إني نسيت أن أقول لك محرم الترتين التين في البيت .. الحديث » أخرجه أبو داود من حديث عثمان الحجبي وهو عثمان بن طلحة كما في مسند أحمد ووقع المصنف أنه قال ذلك لعثمان بن أبي شيبة وهو وهم .

(٢) حديث « نزع الخيصة وقال اثبتوني بأبجانية أبي جهم » متفق عليه من حديث عائشة وقد تقدم في العلم

(٣) حديث « أمره بمرع الشركاء الجديد ورد الشركاء الخلق لاد نظر إليه في صلاته » أخرجه ابن المبارك في الزهد من حديث أبي النضر مرسلًا بإسناد صحيح (٤) حديث « احتدى صلاً فأعجبه حسنهما فسجد وقال تواضعت لربي .. الحديث » أخرجه أبو عبد الله

ابن حريق في شرف الفقراء من حديث عائشة بإسناد ضعيف (٥) حديث « ربه بالخاتم الذهب من يده وقال شغلني هذا

نظرة إليه ونظرة إليكم » أخرجه النسائي من حديث ابن عباس بإسناد صحيح وإيس فيه بيان أن الخاتم كان ذهباً ولا فضة إنما هو مطلق (٦) حديث « إن أبا طلحة صلى في حائط له فيه شجر فأعجبه ريش طائر في الشجر .. الحديث » أخرجه في سهوه في

الصلاة ولعدده بالخاتم مالك عن عبد الله بن أبي بكر أن أبا طلحة الأنصاري فذكره بحقه

قباعه عثمان بخمسين ألفاً . فكانوا يفعلون ذلك قطعاً لمادة الفكر وكفارة لما جرى من نقصان الصلاة وهذا هو الدواء القاطع لمادة العلة ولا يفتى غيره . فأما ما ذكرناه من التلطف بالتسكين والرد إلى فهم الذكر فذلك ينفع في الشهوات الضعيفة والهيم التي لا تشغل إلا حواشي القلب . فأما الشهوة القوية المرهقة فلا ينفع فيها التسكين بل لانزال تجاذبها وتجادبك ثم تغلبك وتنقض جميع صلاتك في شغل المجاذبة . ومثاله : رجل تحت شجرة أراد أن يصفوله فكره وكانت أصوات العاصفير تشوش عليه ، فلم يزل يطيرها بخشبة في يده ويعود إلى فكره فتعود العاصفير فيعود إلى التنفير بالخشبة ، فقيل له : إن هذا أسير السواني ولا يقطع فإن أردت الخلاص فانقطع الشجرة . فكذلك شجرة الشهوات إذا تشعبت وتفرعت أغصانها انجذبت إليها الأفكار انجذاب العاصفير إلى الأشجار وانجذاب النباب إلى الأقدار والشغل يطول في دفعها فإن الباب كلما ذب آب ولأحله سمى ذباباً . فكذلك الخواطر ، وهذه الشهوات كثيرة وقلما يخلو العبد عنها ويجمعها أصل واحد وهو حب الدنيا ، وذلك رأس كل خطيئة وأساس كل نقصان ومنبع كل فساد . ومن انطوى باطنه على حب الدنيا حتى مال إلى شيء منها لا ليتزود منها ولا ليستعين بها على الآخرة فلا يطمع في أن تصفوله لذة المنجاة في الصلاة . فإن من فرح بالدنيا لا يفرح بالله سبحانه وبمناجاته . وهمة الرجل مع قرة عينه فإن كانت قرة عينه في الدنيا انصرف لا محالة إليها همه وانكسر مع هذا فلا ينبغي أن يترك المجاهدة ورد القلب إلى الصلاة وتقليل الأسباب الشاغلة ، فهذا هو الدواء المر والمرارته استبشعته الطباع وبقيت العلة منمنة وصار الداء عضالاً ، حتى إن الأكبر اجتهدوا أن يصلوا ركعتين لا يتحدثوا أنفسهم فيها بأمر الدنيا فمجزوا عن ذلك فإذا لم يطعم فيه لأمثالنا ، وليته سلم لنا من الصلاة شطرها أو ثلثها من الوسواس لنكون من خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً . وعلى الجملة فهمة الدنيا وهمة الآخرة في القلب مثل الماء الذي يصب في قدح مملوء بخل فبقدر ما يدخل فيه من الماء يخرج منه من الخلل لا محالة ولا يجتمعان

بيان تفصيل ما ينبغي أن يحضر في القلب - عند كل ركن وشرط - من أعمال الصلاة

فقول : حقا إن كنت من المريدين للآخرة أن لا تغفل أولاً عن التنبيهات التي في شروط الصلاة وأركانها . أما الشروط السوابق فهي الأذان والطهارة وستر العورة واستقبال القبلة والانتصاب قائماً والنية . فإذا سمعت نداء المؤذن فأحضر في قلبك هول النداء يوم القيامة وتشمر بظاهرك وباطنك الإجابة والمسارة ؛ فإن المسارعين إلى هذا النداء هم الذين ينادون باللطف يوم العرض الأكبر فأعرض قلبك على هذا النداء فإن وجدته مملوءاً بالمرح والاستبشار مشحوناً بالرغبة إلى الابتدار فاعلم أنه يأتيك النداء بالبشرى والفوز يوم القضاء . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أرحنا يا بلال^(١) ، أى أرحنا بها وبانداء إليها إذ كان قرة عينه فيها صلى الله عليه وسلم . وأما الطهارة فإذا أتيت بها في مكانك وهو طرفك الأبعد ثم في ثيابك وهي غلافك الأقرب ، ثم في بشرتك وهي قشرك الأدنى فلا تغفل عن لبك الذي هو ذاتك وهو قلبك فاجتهد له تطهيراً بالتوبة والندم على ما فترطت وتصميم العزم على الترك في المستقبل فطهر بها باطنك فإنه موضع نظر معبودك . وأما ستر العورة فاعلم أن معناه تغطية مقابح بدنك عن أبصار الخلق فإن ظاهر بدنك موقع لنظر الخلق فما بالك في عورات باطنك وفضائح سرائرك التي لا يطلع عليها إلا ربك عز وجل ؟ فأحضر تلك الفضائح بيالك وطالب نفسك سترها وتحقق أنه لا يستر عن عين الله سبحانه

(١) حديث « بها أرحنا يا بلال » أخرجه الدارقطني في اللؤلؤ من حديث بلال ولأبي داود نحوه من حديث رجل من الصحابة

لم يسم باسمه صحيح .

ساتر . وإنما يغفرها الندم والحياء والخوف فتستفيد بإحضارها في قلبك انبعاث حنود الحوف والحياء من مكانها فتدل بها بنفسك ويستكين تحت الخجلة قلبك وتقوم بين يدي الله عز وجل قيام العبد المجرم المسمى الآبق الذي ندم فرجع إلى مولاه ناكسا رأسه من الحياء والخوف . وأما الاستقبال فهو صرف ظاهر وجهك عن سائر الجهات إلى جهة بيت الله تعالى ، أفترى أن صرف القلب عن سائر الأمور إلى الله عز وجل ليس مطلوباً منك هيئات فلا مطلوب سواء . وإنما هذه الظواهر تحريكات للبواطن وضبط للجوارح وتسكين لها بالإثبات في جهة واحدة حتى لا تبغى على القلب فإنها إذا لغت وظلمت في حركاتها والتفتاتها إلى جهاتها استتبع القلب وانقلبت به عن وجه الله عز وجل فليكن وجه قلبك مع وجه بدنك . فاعلم أنه كما لا يتوجه الروح إلى جهة البيت إلا بالانصراف عن غيرها فلا يصرف القلب إلى الله عز وجل إلا بالتفرغ عما سواه وقد قال صلى الله عليه وسلم « إذا قام العبد إلى صلاته فكان هواه ووجهه وقلبه إلى الله عز وجل انصرف كيوم ولدته أمه ^(١) ، وأما الاعتدال قائماً فإنما هو مشول بالشخص والقلب بين يدي الله عز وجل ، هليكن رأسك الذي هو أرفع أعضائك مطرقاً مطاطاً متمكساً ، وليكن وضع الرأس عن ارتفاعه تنبيهاً على إلزام القلب التواضع والتذلل والتبري عن التبرؤ والتكبر ، وليكن على ذكرك ههنا خطر القيام بين يدي الله عز وجل في هول المطلاع عند العرض للسؤال . واعلم في الحال أنك قائم بين يدي الله عز وجل وهو مطلع عليك فقم بين يديه قيامك بين يدي بعض ملوك الزمان إن كنت تعجز عن معرفة كنه جلاله بل قدر في دوام قيامك في صلاتك أنك ملحوظ ومرقوب بعين كالتة من رجل صالح من أهلك أو بمن ترغب في أن يعرفك بالصلاح ، فإنه تبدأ عند ذلك أطرافك وتخضع جوارحك وتسكن جميع أجزائك خيفة أن ينسبك ذلك العاجز المسكين إلى قلة الخشوع . وإذا أحسست من نفسك بالتماسك عند ملاحظة عبد مسكين فعاتب نفسك وقل لها : إنك تدعين معرفة الله ووجهه أفلا تستحين من استجرائك عليه مع توكيرك عبداً من عباده أو تخشين الناس ولا تخشينه وهو أحق أن يخشى ؟ ولذلك لما قال أبو هريرة « كيف الحياء من الله فقال صلى الله عليه وسلم تستحي منه كما تستحي من الرجل الصالح من قومك ^(٢) ، وروى من أهلك ، وأما النية فاعزم على إجابة الله عز وجل في أمثال أمره بالصلاة وإتمامها والكف عن نواقضها ومسداتها وإخلاص جميع ذلك لوجه الله سبحانه رجاء لثوابه وخوفاً من عقابه وطلباً للقرية منه متقلداً للمنة منه بإذنه إياك في المناجاة مع سوء أدبك وكثرة عصيانك ، وعظم في نفسك قدر مناجاته وانظر من تناجى وكيف تناجى وبماذا تناجى ؟ وعند هذا ينبغي أن يعرف جبينك من الخجل وترتعد فرائصك من الهيبة ويصفر وجهك من الخوف . وأما التكبير فإذا نطق به لسانك فينبغي أن لا يكذب قلبك فإن كان في قلبك شيء هو أكبر من الله سبحانه فإله يشهد إنك لكاذب وإن كان الكلام صدقاً كما شهد على المنافقين في قولهم : إنه صلى الله عليه وسلم رسول الله . فإن كان هواك أغلب عليك من أمر الله عز وجل فأنت أطوع له منك لله تعالى فقد اتحدته إلهك وكبرته فيوشك أن يكون قولك « الله أكبر ، كلاماً باللسان المجرد وقد تخلف القلب عن مساعدته ؛ وما أعظم الخطر في ذلك لولا التوبة والاستغفار وحسن الظن بكرم الله تعالى وعفوه . وأما دعاء الاستفتاح فأول كتابته قولك « وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض ، وليس المراد بالوجه الوجه الظاهر فإنك إنما وجهته إلى جهة القبلة والله سبحانه يتقدس

(١) حديث « إذا قام العبد إلى صلاته وكان وجهه وهواه إلى الله انصرف كيوم ولدته أمه » لم أجده

(٢) حديث « قال أبو هريرة كيف الحياء من الله قال تستحي منه كما تستحي من الرجل الصالح من قومك » أخرجه المزي في مكارم الأخلاق والبيهقي في الشعب من حديث سعيد بن زيد مرسلًا نحوه وأرسله البيهقي بإضافة ابن عمر في السند وفي العليل الدارقي عن ابن عمر له وقال لأنه أشبه شيء بالصواب لوروده من حديث سعيد بن زيد أحد الصحابة

عن أن تحته الجهاب حتى تقبل بوجهه بذلك عليه . وإنما وجه القلب هو الذي تتوجه به إلى فاطر السموات والأرض فانظر إليه أمتوجه هو إلى أمانيه وهمه في البيت والسوق متبع للشهوات أو مقبل على فاطر السموات ؟ وإياك أن تكون أول مفتاحتك للمناحة بالكذب والاحتلاق ولن ينصرف الوجه إلى الله تعالى إلا بانصرافه عما سواه فاجتهد في الحال في صرعه إليه وإن عجزت عنه على الدوام وليكن قولك في الحال صادقا . وإذا قلت «حييا مسلما ، فينبغي أن يخطر ببالك أن المسلم هو الذي سلم المسلمون من لسانه ويده فإن لم تكن كذلك كنت كاذبا فاجتهد في أن تعزم عليه في الاستقبال وتدم على ما سبق من الأحوال . وإذا قلت « وما أنا من المشركين ، فأخطر ببالك الشرك الحفي فإن قوله تعالى (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) نزل فيمن يقصد لعبادته وجه الله وحده الناس وكن حذرا مشفقاً من هذا الشرك ، واستشعر الخجلة في قلبك إن وصفت نفسك بأنك لست من المشركين من غير راءة عن هذا الشرك فإن اسم الشرك يقع على القليل والكثير منه . وإذا قلت «حييا ومماتي لله ، فاعلم أن هذا حال عبد مفقود لنفسه موجود لسيده وأنه إن صدر ممن رضاه وغضه وقيامه وقعوده ورغبته في الحياة ورهبته من الموت لأموال الدنيا لم يكن ملائما للحال . وإذا قلت « أعود بالله من الشيطان الرجيم ، فاعلم أنه عدوك ومترصد لصرف قلبك عن الله عز وجل حسدا لك على مناجاتك مع الله عز وجل وسجودك له مع أنه لعن بسبب سجدة واحدة تركها ولم يوفق لها ، وأن استعاذت بك بالله سبحانه منه بترك ما يحبه وتديله بما يحب الله عز وجل لا بمجرد قولك ، فإن من قصده سجع أو عدو ليفترسه أو يقتله وقال : أعوذ منك بذلك الحصن الحصين وهو ثابت على مكانه ، فإن ذلك لا يفعه ، بل لا يعيده إلا بتدليل المكان ؛ فكذلك من يتبع الشهوات التي هي محاب الشيطان ومكاره الرحمن فلا يغنيه مجرد القول فليقتن قوله بالعزم على التعود بحسن الله عز وجل عن شر الشيطان وحصنه « لا إله إلا الله ، إذ قال عز وجل فيما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم « لا إله إلا الله حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي »^(١) ، والمتحصن به لا مهرب له سوى الله سبحانه وأما من اتخذ إلهه هواه وهو في ميدان الشيطان لا في حصن الله عز وجل . واعلم أن من مكأيده أن يشغلك في صلاتك بذكر الآخرة وتدبيره من الخيرات لينمك عن فهم ماتقرأ . فاعلم أن كل ما يشغلك عن فهم معاني قراءتك فهو وسواس فإن حركة اللسان غير مقصودة بل المقصود معانيها ؛ فأما القراءة فالناس فيها ثلاثة ، رجل يتحرك لسانه وقلبه غافل ورجل يتحرك لسانه وقلبه يتبع اللسان فيفهم ويسمع منه كأنه يسمعه من غيره وهي درجات أصحاب اليمين ، ورجل يسبق قلبه إلى المعاني أو لا ثم يخدم اللسان القلب فيترجمه . فمروق بين أن يكون اللسان ترجمان القلب أو يكون معلم القلب والمقرَّبون لسانهم ترجمان يتبع القلب ولا يتبعه القلب . وتفصيل ترجمة المعاني أنك إذا قلت « بسم الله الرحمن الرحيم ، فانوه بالترك لابتداء القراءة لكلام الله سبحانه ، وافهم أن الأمور كلها بالله سبحانه . وأن المراد بالاسم ههنا هو المسمى . وإذا كانت الأمور بالله سبحانه فلا جرم كان « الحمد لله ، ومعناه أن الشكر لله إذ النعم من الله . ومن يرى من غير الله نعمة أو يقصد غير الله سبحانه بشكر لا من حيث إنه مسخر من الله عز وجل في تسميته وتحميده نقصان بقدر التفاته إلى غير الله تعالى . فإذا قلت « الرحمن الرحيم ، فأحضر في قلبك جميع أنواع لطفه لتتضح لك رحمته فينبعث بها رجائك . ثم استبر من قلبك التعظيم والخوف بقولك « مالك يوم الدين ، أما العظمة ولأنه لا ملك إلا له

(١) حديث « قال الله تعالى لا إله إلا الله حصني » أخرجه الحاكم في التاريخ وأبو نعيم في الحلية من طريق أهل البيت من حديث علي بإسناد صيف جداً ، وقول أبي مسرور الديلمي أنه حديث ثابت مردود عليه .

وأما الخوف فلهول يوم الجزاء والحساب الذي هو مالكة . ثم جدد الإخلاص بقولك « إياك نعبد ، وجدد العجز والاحتياج والتبرى من الحول والقوة بقولك « إياك نستعين ، وتحقق أنه ما تيمرت طاعتك إلا بإعانتة وأن له المنة إذ وفقتك لطاعته واستخدمك لعبادته وجعلك أهلا لمناجاته . ولو حرمتك التوفيق لكنت من المطرودين مع الشيطان اللعين . ثم إذا فرغت من التعوذ ومن قولك « بسم الله الرحمن الرحيم ، ومن التحميد ومن إظهار الحاجة إلى الإعانة مطلقا فعين سؤالك ولا تطلب إلا أهم حاجاتك وقل « إهدنا الصراط المستقيم ، الذي يسوقنا إلى جوارك ويفضى بنا إلى مرضاتك . وزده شرحا وتفصيلا وتأكيذا واستشهادا بالذين أفاض عليهم نعمة الهداية من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين دون الذين غضب عليهم من الكفار والزائغين من اليهود والنصارى والصابئين ثم التمس الإجابة وقل « آمين ، فإذا تلوت الفاتحة كذلك فيشبه أن تكون من الذين قال الله تعالى فيهم فيما أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين نصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل^(١) ، يقول العبد « الحمد لله رب العالمين ، فيقول الله عز وجل : حمدني عبدي وأثنى علي . وهو معنى قوله « سمع الله لمن حمده ... الحديث الخ ، فلو لم يكن لك من صلاتك حظ سوى ذكر الله لك في حلاله وعظمته فناهيك بذلك غنيمة فكيف بما ترجوه من ثوابه وفضله ؟ وكذلك ينبغي أن تفهم ما تقرأه من السور - كما سيأتي في كتاب تلاوة القرآن - فلا تغفل عن أمره ونهيه ووعده ووعيده ومواعظه وأخبار أُنسائه وذكرونته وإحسانه . ولكل واحد حق فالرجاء حق الوعد ؛ والخوف حق الوعيد ؛ والعزم حق الأمر والنهي ؛ والاعتناظ حق الموعدة ، والشكر حق ذكر المنة ، والاعتبار حق لإخبار الأنبياء . وروى أن زرارة بن أرقى لما انتهى إلى قوله تعالى (فاذا قرأ في الناقور) خز ميتا وكان إبراهيم النخعي إذا سمع قوله تعالى (إذا السماء انشقت) اضطرب حتى تضطرب أوصاله . وقال عبد الله بن واقد : رأيت ابن عمر يصلي مغلوبا عليه ؛ وحق له أن يحترق قلبه بوعد سيده ووعيده فإنه عبد مذنب ذليل بين يدي جبار قاهر . وتكون هذه المعاني بحسب درجات الفهم ويكون الفهم بحسب وفور العلم وصفاء القلب . ودرجات ذلك لا تنحصر . والصلاة مفتاح القلوب فيها تنكشف أسرار الكلمات فهذا حق القراءة وهو حق الأذكار والتسميحات أيضا . ثم يراعى الهيئة في القراءة فيرتل ولا يسرد فإن ذلك أيسر للتأمل . ويفرق بين نغماته في آية الرحمة والعذاب والوعد والوعيد والتحميد والتعظيم والتمجيد . كان النخعي إذا مر بمثل قوله عز وجل (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله) يخفض صوته كالمستحي عن أن يذكره بكل شيء لا يليق به . وروى أنه يقال لقارئ القرآن « اقرأ وأرق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا^(٢) ، وأما دوام القيام فإنه تنبيه على إقامة القلب مع الله عز وجل على نعمت واحد من الحضور قال صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل مقبل على المصلي ما لم يلتفت^(٣) ، وكما تجب حراسة الرأس والعين عن الالتفات إلى الجهات فكذلك تجب حراسة السر عن الالتفات إلى غير الصلاة . فإذا التفت إلى غيره فذكره باطلاع الله عليه وبقيع التهاون بالمناجى عند غفلة المناجى ليعود اليه . وأزم لخضوع للقلب فإن الخلاص عن الالتفات باطنا وظاهرا ثمرة الخشوع . ومهما خشع الباطن خشع الظاهر قال صلى الله عليه وسلم وقد رأى رجلا مصليا يعيب بلحيته « أما هنا

(١) حديث « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ... الحديث » أخرجه مسلم عن أبي هريرة (٢) حديث « يقال لصاحب

القرآن اقرأ وأرق .. الحديث » أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث عبد الله بن عمر وقال الترمذي حسن صحيح

(٢) « لمن الله يقبل على المصلي ما لم يلتفت » أخرجه أبو داود والنسائي والمالك وصححه استناده أبي ذر

لو خشع قلبه لخشعت جوارحه ، فإن الرعية بحكم الراعى . ولهذا ورد في الدعاء « اللهم أصلح الراعى والرعية » (١) ، وهو القلب والجوارح . وكان الصديق رضى الله عنه في صلاته كأنه وتد . وابن الزبير رضى الله عنه كأنه عود . وبعضهم كان يسكن في ركوعه بحيث تقع العصافير عليه كأنه جماد ، وكل ذلك يقتضيه الطبع بين يدي من يعظم من أبناء الدنيا فكيف لا يتفاضل بين يدي ملك الملوك عند من يعرف ملك الملوك ؟ وكل من يطمئن بين يدي غير الله عز وجل خاشعا وتضطرب أطرافه بين يدي الله عابثا فذلك لقصور معرفته عن جلال الله عز وجل وعن اطلاعه على سره وضميره . وقال عكرمة في قوله عز وجل ﴿ الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين ﴾ قال : قيامه وركوعه وسجوده وحلوسه . وأما الركوع والسجود فينبغى أن تجتد عندهما ذكر كبرياء الله سبحانه وترفع يديك مستجيرا بعفو الله عز وجل من عقابه بتجديد نية ومتبعا سنة نبيه صلى الله عليه وسلم . ثم تستأنف له ذلا وتواصعا بركوعك وتجهد في ترقيق قلبك وتحديد خشوعك وتستشعر ذلك وعز مولاك واتضاعك وعلو ربك . وتستعين على تقرير ذلك في قلبك بلسانك فتسبح ربك وتنهى له بالعظمة وأنه أعظم من كل عظيم وتكرر ذلك على قلبك لتؤكد بالتكرار . ثم ترتفع من ركوعك راجيا أنه راحم لك ومؤكدا للرجاء في نفسك بقولك « سمع الله لمن حمده ، أى أحاب لمن شكره . ثم ردد ذلك الشكر المتقاضى للزيد فتقول « ربنا لك الحمد ، وتكثر الحمد بقولك « ملء السموات وملء الأرض ، ثم تهوى إلى السجود وهو أعلى درجات الاستكانة فتتمكن أعز أعضائك وهو الوجه من أذل الأشياء وهو التراب . وإن أمكنك أن لا تجعل بينهما حائلا فتسجد على الأرض فاعمل فيه أحل للخشوع وأدل على الذل . وإذا وضعت نفسك موضع الذل فاعلم أنك وضعتها موضعها ورددت المرح إلى أصله فأبك من التراب خلقت وإليه تعود فعند هذا جدد على قلبك عظمة الله وقل « سبحان ربى الأعلى ، وأكدته بالتكرار فإن الكثرة الواحدة صميغة الأثر فإذا رق قلبك وطهر ذلك فاصدق رجاءك فى رحمة الله فإن رحمة تسارع إلى الضعف والذل لا إلى التكبر وأبصر فارفع رأسك مكبرا وسائلا حاجتك وقائلا ، رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم ، أو ما أردت من الدعاء . ثم أكد التواضع بالتكرار فعد إلى السجود ثانيا كذلک . وأما التشهد فإذا جلست له فاحلس متأدبا وصرح بأن جميع ما تدلى به من الصلوات والطيبات أى من الاخلاق الطاهرة لله . وكذلك الملك لله وهو معنى « التحيات » وأحضر في قلبك النبي صلى الله عليه وسلم وشخصه الكريم وقل « سلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، وليصدق أملك في أنه يبلغه ويرد عليك ما هو أوق منه . ثم تسل على نفسك وعلى جميع عباد الله الصالحين . ثم تأمل أن يرد الله سبحانه عليك سلاما وأفيا بعدد عباد الصالحين ثم تشهد له تعالى بالوحدانية ولحمد نبيه صلى الله عليه وسلم بالرسالة مجددا عهد الله سبحانه بإعادة كلمتي الشهادة ومستأنفا للتحصن بها . ثم ادع في آخر صلاتك بالدعاء المأثور مع التواضع والخشوع والضراعة والابتهال وصدق الرجاء بالإجابة . وأشرك في دعائك أبويك وسائر المؤمنين . واقصد عند التسليم السلام على الملائكة والحاضرين وانوختم الصلاة به . واستشعر شكر الله سبحانه على توفيقه لإتمام هذه الطاعة . وتوهم أنك مودع لصلاتك هذه وأبك ربما لا تعيش لمثلها . وقال صلى الله عليه وسلم للذى أوصاه « صل صلاة مودع ، ثم أشعر قلبك الوجع والحياء من التقصير في الصلاة ، وخف أن لا تقبل صلاتك وأن تكون بمقوتنا بذنب ظاهر أو باطل فترد صلاتك في وجهك ، وترجو مع ذلك أن يقبلها بكرمه وفضله . كان يحيى بن وثاب إذا صلى مكث ما شاء الله تعرف عليه كآبة الصلاة .

(١) حديث « اللهم أصلح الراعى والرعية » لم أف له على أصل دمره المصنف بالقلب والجوارح

وكان إبراهيم يمكث بعد الصلاة ساعة كأنه مريض . فهذا تفصيل صلاة الخاشعين ، الذين هم في صلاتهم خاشعون ... والذين هم على صلواتهم يحافظون ... والذين هم على صلاتهم دائمون . والذين هم يناجون الله على قدر استطاعتهم في العبودية فليعرض الإنسان نفسه على هذه الصلاة ، فبالقدر الذي يسر له منه ينبغي أن يفرح وعلى ما يفوته ينبغي أن يتحسر وفي مداراة ذلك ينبغي أن يجتهد . وأما صلاة الغافلين فهي مخطرة إلا أن يتغمده الله برحمته والرحمة واسعة والكرم فائض فنسأل الله أن يتغمدنا برحمته ويغمرنا بمغفرته إذ لا وسيلة لنا إلا الاعتراف بالعجز عن القيام بطاعته . واعلم أن تخليص الصلاة عن الآفات وإخلاصها لوجه الله عز وجل وأدائها بالشروط الباطنة التي ذكرناها من الخشوع والتعظيم والحياء سبب لحصول أنوار في القلب تكون تلك الأنوار مفاتيح علوم المكاشفة . فأولياء الله المكاشفون بملكوت السموات والأرض وأسرار الربوبية إنما يكاشفون في الصلاة لاسيما في السجود إذ يتقرب العبد من ربه عز وجل بالسجود . ولذلك قال تعالى ﴿ واسجد واقترب ﴾ وإنما تكون مكاشفة كل مصلى على قدر صفاته عن كدورات الدنيا ، ويختلف ذلك بالقوة والضعف والقلة والكثرة وبالجلالة والخفاء حتى ينكشف لبعضهم الشيء بعينه وينكشف لبعضهم الشيء بمثاله ، كما كشف لبعضهم الدنيا في صورة جيفة والتسبطن في صورة كلب حائم عليها يدعو إليها . ويختلف أيضا بما فيه المكاشفة فبعضهم ينكشف له من صفات الله تعالى وحلاله وبعضهم من أفعاله وبعضهم من دقائق علوم المعاملة . ويكون اتعين تلك المعاني في كل وقت أسباب خفية لا تحصى وأشدها مناسبة الهمة فإنها إذا كانت مصروفة إلى شيء معين كان ذلك أولى بالكشف ولما كانت هذه الأمور لا تترامى إلا في المراتى الصقيلة وكانت المرآة كلها صدمته فاحتجبت عنها الهداية لا لاجل من حبه المنعم بالهداية بل لخبث متراكم الصدم على مصعب الهداية تسارعت الألسنة إلى إنكار مثل ذلك ، إذ الطبع مجبول على إنكار غير الحاضر ، ولو كان للجهنم عقل لأنكر إمكان وجود الإنسان في متسع الهواء ، ولو كان للطفل تمييز ما ربما أنكر ما يزعم العقلاء إدراكه من ملكوت السموات والأرض ، وهكذا الإنسان في كل طور يكاد ينكر ما عبده ومن أنكر طور الولاية لزمه أن ينكر طور النبوة ، وقد خلق الخلق أطوارا فلا ينبغي أن يتكرر كل واحد ما وراء درجته ، نعم لما طلبوا هذا من المحادله والمباحثة المشوشة ولم يطلبوها من تصفية القلوب عما سوى الله عز وجل فقدوه فأنكروه . ومن لم يكن من أهل المكاشفة فلا أقل من أن يؤمن بالعيب ويصدق به إلى أن يشاهد بالتجربة وفي الخبر « إن العبد إذا قام في الصلاة رفع الله سبحانه الحجاب بينه وبين عبده وواجهه بوجهه وقامت الملائكة من لدن منكيه إلى الهواء بصلاته ويؤمنون على دعائه - وإن المصلى لينثر عليه الر من عنان السماء إلى مفرق رأسه وينادى مناد : لو علم هذا المادى ما التفت . وإن أبواب السماء تفتح للمصلين . وإن الله عز وجل يباهي ملائكته لعبده المصلى ^(١) ، ففتح أبواب السماء ومواجهة الله تعالى إياه بوجهه كناية عن الكشف الذي ذكرناه . وفي التوراة مكتوب : يا ابن آدم لا تعجز أن تقوم بين يدي مصليا باكيا فأنا الله الذي اقتربت من قلبك وبالغيب رأيت نوري ، قال : فكنا نرى أن تلك الرقة والبكاء والفتوح الذي يجده المصلى في قلبه من دنو الرب سبحانه من القلب . وإذا لم يكن هذا الدنو هو القرب بالمكان فلا معنى له إلا الدنو بالهداية والرحمة وكشف الحجاب . ويقال إن العبد إذا صلى ركعتين عجب منه عشرة صفوف من الملائكة كل صف منهم عشرة آلاف وباهى الله به مائة ألف ملك . وذلك أن العبد قد جمع في الصلاة بين القيام والقعود والركوع والسجود وقد فرق الله ذلك على أربعين ألف ملك ، فالقائمون

(١) حديث « إن العبد إذا قام في الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبين عبده . . الحديث » لم أحده

لا يركعون إلى يوم القيامة والساجدون لا يرفعون إلى يوم القيامة ، وهكذا الراكعون والقاعدون ، فإن ما رزق تعالى الملائكة من القرب والرتبة لازم مستمر على حال واحد لا يريد ولا ينقص لذلك أخبر الله عنهم أنهم قالوا ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾ وفارق الإنسان الملائكة في الترقى من درجة إلى درجة فإنه لا يزال يتقرب إلى الله تعالى فبستفيد مزيد قربه وباب المزيد مسدود على الملائكة عليهم السلام وليس لكل واحد إلا رتبته التي هي وقف عليه . وعبادته التي هو منسجول بها لا يفتقر إليها ولا يفتقر عنها ﴿ لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ ومفتاح مزيد الدرجات هي الصلوات . قال الله عز وجل ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ فمدحهم بعد الإيمان بصلوة مخصوصة وهي المقروبة بالخشوع . ثم ختم أوصاف المفلحين بالصلوة أيضا فقال تعالى ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ ثم قال تعالى في ثمره تلك الصفات ﴿ أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ ووصفهم بالفلاح أولا وبوراثه الفردوس آخرا ، وما عندي أن هدرمة اللسان مع غفلة القلب تنتهى إلى هذا الحد ولذلك قال الله عز وجل في أضدادهم (ماسلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين) فالمصلون هم ورثة الفردوس وهم المشاهدون لنور الله تعالى والمتمتعون بقربه ودنوه من قلوبهم . نسأل الله أن يجدها منهم وأن يعيدنا من عقوبة من تزيبت أقواله وقبحت أفعاله إنه الكريم المنان القديم الإحسان وصلى الله على كل عبد مصطنع .

حكايات وأخبار في صلاة الخاشعين رضى الله عنهم

اعلم أن الخشوع ثمرة الإيمان ونتيجة اليقين الحاصل بحلال الله عز وجل ومن رزى ذلك فإنه يكون خاشعا في الصلاة وفي غير الصلاة بل في خلوته وفي بيت المال عند الحاجة ، فإن موجب الخشوع معرفة اطلاع الله تعالى على العبد ومعرفة جلاله ومعرفة تقصير العبد . فمن هذه المعارف يتولد الخشوع وليست محتصة بالصلوة ولذلك روى عن بعضهم أنه لم يرفع رأسه إلى السماء أربعين سنة حياء من الله سبحانه وحشوعا له ، وكان الربيع بن خيم من شدة غضبه لبعصره وإطراقه يظن لبعض الناس أنه أعمى ، وكان يختلف إلى منزل ابن مسعود عشرين سنة فإذا رآته جاريته قالت لابن مسعود : صدقتك الأعمى قد جاء ، فكان يضحك ابن مسعود من قولها ، وكان إذا ذاق الباب تخرج الجارية إليه فتراه مطرقا غاضبا بعصره ، وكان ابن مسعود إذا نظر إليه يقول (وبشر المختبين) أما والله لورآك محمد صلى الله عليه وسلم لفرح بك - وفي لفظ آخر : لأحبك وفي لفظ آخر : لضحك - ومشى ذات يوم مع ابن مسعود في الحدادين فلما نظر إلى الأكوار تنفخ وإلى النار تذهب صعق وسقط مغشيا عليه وقعد ابن مسعود عند رأسه إلى وقت الصلاة فلم يبق حمله على ظهره إلى منزله ، فلم يزل مغشيا عليه إلى مثل الساعة التي صعق فيها ففاته خمس صلوات وابن مسعود عند رأسه يقول : هذا والله هو الخوف . وكان الربيع يقول ، ما دخلت في صلاة قط فأهمني فيها إلا ما أقول وما يقال لي ، وكان عامر بن عبد الله من خاشعي المصلين وكان إذ صلى ربما ضربت ابنته بالدف وتحدث النساء بما يردن في البيت ولم يكن يسمع ذلك ولا يعقله ، وقيل له ذات يوم هل تحدثك نفسك في الصلاة بشيء ؟ قال : نعم بوقوى بين يدي الله عز وجل ومنصرفي لإحدى الدارين ، قيل : فهل تجدد شيئا مما نجد من أمور الدنيا ؟ فقال : لأن تختلف الأسنه في أحب إلى من أن أجد في صلاتي ما تجدون وكان يقول : لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا . وقد كان مسلم بن يسار منهم ، وقد نقلنا أنه لم يشعر بسقوط أسطوانة في المسجد وهو في الصلاة . وتأكل كل طرف من أطراف بعضهم واحتيج فيه إلى القطع فلم يمكن منه فقيل : إنه في الصلاة لا يحس بما يجري عليه ؛ فقطع وهو في الصلاة . وقال بعضهم : الصلاة من الآخرة فإذا دخلت فيها

خرجت من الدنيا وقيل لآخر : هل تحدث نفسك بشيء من الدنيا في الصلاة ؟ فقال : لاني الصلاة ولاني غيرها .
 وسئل بعضهم هل تذكر في الصلاة شيئاً ؟ فقال : وهل شيء أحب إلى من الصلاة فأذكره فيها ؟ وكان أبو الدرداء
 رضى الله عنه يقول : من فقه الرجل أن يبدأ بمحاوثة قبل دخوله في الصلاة ليدخل في الصلاة وقلبه فارغ . وكان بعضهم
 يخفف الصلاة خيفة الوسواس ، وروى أن عمار بن ياسر صلى صلاة فأخفها فقبل له : خففت يا أبا اليقظان فقال :
 هل رأيتموني تقصت من حدودها شيئاً ؟ قالوا : لا : قال : إني بادرت سهو الشيطان ، إن رسول الله صلى الله عليه
 وسلم قال : إن العبد ليصلي الصلاة لا يكتب له نصفها . ولا ثلثها ولا ربعها ولا خمسها ولا سدسها ولا عشرها ، وكان
 يقول « إنما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها ^(١) » ، ويقال إن طلحة والزبير وطائفة من الصحابة رضى الله عنهم كانوا
 أخف الناس صلاة ، وقالوا نبادر بها وسوسة الشيطان . وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال على المنبر : إن
 الرجل ليذهب عارضه في الإسلام وما أكمل الله تعالى صلاة ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : لا يتم خشوعها وتواضعها
 وإقباله على الله عز وجل فيها : وسئل أبو العالية عن قوله تعالى (الذين هم عن صلاتهم ساهون) قال هو الذى يسهو في
 صلاته فلا يدرى على كم ينصرف أعلى شفع أم على وتر ؟ وقال الحسن : هو الذى يسهو عن وقت الصلاة حتى تخرج
 وقال بعضهم : هو الذى إن مالاها في أول الوقت لم يفرح وإن أخرها عن الوقت لم يحزن فلا يرى تعجيلها خيراً
 ولا تأخيرها إثمًا ، واعلم أن الصلاة قد يحسب بعضها ويكتب بعضها دون بعض كما دلت الأخبار عليه وإن كان
 الفقيه يقول : إن الصلاة في الصحة لا تتجزأ ، ولكن ذلك له معنى آخر ذكرناه وهذا المعنى دلت عليه الأحاديث
 إذ ورد جبر نقصان الفرائض بالنوافل ^(٢) وروى الخبر « قال عيسى عليه السلام : يقول الله تعالى بالفرائض بما منى
 عبدى والنوافل تقرب إلى عبدى ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم « قال الله تعالى لا ينجو منى عبدى إلا بأداء
 ما افترضته عليه ^(٣) » ، وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم ، صلى صلاة فترك من قراءتها آية فلما انفتل قال ماذا قرأت
 فسكت القوم ؛ فسأل أبي بن كعب رضى الله عنه فقال : قرأت سورة كذا وتركت آية كذا فما ندرى أنسخت أم
 رفعت ؟ فقال : أنت لها يا أبا ، ثم أقبل على الآخرين فقال : ما بال أقوام يحضرون صلاتهم ويتمون صفوفهم
 ونبيهم بين أيديهم لا يدرون ما يتلو عليهم من كتاب ربهم ؟ ألا إن بنى إسرائيل كذا فعلوا فأوحى الله عز وجل
 إلى نبيهم أن قل لقومك تحضرونى أبدانكم وتعطونى ألسنتكم وتغيبون عى بقلوبكم باطل ما تذهبون إليه ^(٤) ، وهذا
 يدل على أن استماع ما يقرأ الإمام وهمه بدل عن قراءة السورة بنفسه : وقال بعضهم إن الرجل يسجد
 السجدة عنده أنه تقرب بها إلى الله عز وجل ولو قسمت ذنوبه في سجده على أهل مدينته لهلكوا : قيل
 وكيف يكون ذلك ؟ قال . يكون ساجدا عند الله وقلبه مصغ إلى هوى ومشاهد لباطل قد استولى عليه .
 فهذه صفة الخاشعين . فدللت هذه الحكايات والأخبار مع ما سبق على أن الأصل في الصلاة الخشوع وحضور القلب
 وأن مجرد الحركات مع الغفلة قليل الجدوى في المعاد والله أعلم . نسأل الله حسن التوفيق

(١) حديث « إن عمار بن ياسر صلى فأخفها فقبل له خففت يا أبا اليقظان .. الحديث » وفيه « إن العبد ليصلي صلاة لا يكتب له
 نصفها ولا ثلثها ، . إلى آخره » أخرجه أحمد باسناد صحيح وتقدم المرفوع عنه وهو عند أبي داود والنسائي
 (٢) حديث « جبر نقصان الفرائض بالنوافل رواه أصحاب السنن والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة » إن أول ما يجاس به
 المد يوم القيامة من عمله صلاته « وفيه فإن انتقص من فرضه شيئاً قال الرب عز وجل انظروا هل لعبدى من تطوع ويكمل بها
 ما نقص من الفريضة » (٣) حديث « قال الله تعالى لا ينجو منى عبدى إلا بأداء ما افترضت عليه » لم أحده
 (٤) حديث « صلى صلاة فترك من قراءتها آية فلما انفتل قال ماذا قرأت فسكت القوم فسأل أبو بن كعب . الحديث » رواه محمد بن
 نصر في كتاب الصلاة مرسلًا أبو بصير الديلمي من حديث أبي بن كعب ورواه النسائي مختصراً من حديث عبد الرحمن بن أبي بصير باسناد صحيح

الباب الرابع في الإمامة والقُدوة

وعلى الإمام وظائف قبل الصلاة وفي القراءة وفي أركان الصلاة وبعد السلام :

أما الوظائف التي هي قبل الصلاة فسته (أولها) أن لا يتقدم للإمامة على قوم يكرهونه فإن اختلفوا كان النظر إلى الأكثرين ، فإن كان الأقلون هم أهل الخير والدين فالنظر إليهم أولى وفي الحديث « ثلاثة لا تجاوز صلاتهم رءوسهم : العبد الآبق وامرأة زوجها ساخط عليها وإمام أم قوما وهم له كارهون »^(١) ، وكما ينهى عن تقدمه مع كراهيتهم فكذلك ينهى عن التقدمة إن كان وراءه من هو أفقه منه إلا إذا امتنع من هو أولى منه فله التقدم ، فإن لم يكن شيء من ذلك فليتقدم مهما قدم وعرف من نفسه القيام بشروط الإمامة . ويكره عند ذلك المدافعة فقد قيل إن قوما تدافعوا للإمامة بعد إقامة الصلاة تخسف بهم . وما روى من مدافعة الإمامة بين الصحابة رضى الله عنهم فسببه إشارتهم من رأوه أنه أولى بذلك أو خوفهم على أنفسهم السهو وخطر ضمان صلاتهم ، فإن الأئمة ضئفاء وكان من لم يتعقد ذلك ربما يشتغل قلبه ويتشوش عليه الإخلاص في صلاته حياء من المقتدين لاسيما في جمهره بالقراءة ، فكان لا حتراز من احتراز أسباب من هذا الجنس . (الثانية) إذا خير المرء بين الأذان والإمامة فينبغي أن يختار الإمامة فإن لكل واحد منهما فضلا ولكن الجمع مكروه بل يندبغى أن يكون الإمام غير المؤذن ، وإذا تعذر الجمع فالإمامة أولى . وقال قائلون : الأذان أولى لما نقلناه من فضيلة الأذان ولقوله صلى الله عليه وسلم « الإمام ضامن والمؤذن مؤتمن »^(٢) ، فقالوا ، فيها خطر الضمان . وقال صلى الله عليه وسلم « الإمام أمين فإذا ركع فاركعوا وإذا سجد فاسجدوا »^(٣) ، وفي الحديث « فإن أتم فله ولهم وإن نقص فعليه لأعليهم »^(٤) ، ولأنه صلى الله عليه وسلم قال « اللهم أرشد الأئمة واغفر للمؤذنين »^(٥) ، والمعصية أولى بالطلب فإن الرشديراد للمغفرة وفي الخبر « من أم في مسجد سبع سنين وحببت له الجنة بلا حساب ومن أذن أربعين عاما دخل الجنة بغير حساب »^(٦) ، ولذلك نقل عن الصحابة رضى الله عنهم أنهم كانوا يتدافعون للإمامة : والصحيح أن الإمامة أفضل إذ واظب عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضى الله عنهم والأئمة بعدهم . نعم فيها خطر الضمان والفضيلة مع الخطر كما أن رتبة الإمارة أفضل لقوله صلى الله عليه وسلم « ليوم من سلطان عادل أفضل من عبادة سبعين سنة »^(٧) ، ولكن فيها خطر ولذلك وجب تقديم الأفضل

الباب الرابع

(١) حديث « ثلاثة لا تجاوز صلاتهم رءوسهم : العبد الآبق ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبي أمامة وقال حسن هريب وضعه البيهقي (٢) حديث « الإمام ضامن والمؤذن مؤتمن » أخرجه ابو داود والترمذى من حديث أبي هريرة ، وحكى عن ابن المدينى انه لم يثبت به ورواه أحمد من حديث أبي أمامة بإسناد حسن (٣) حديث « الامام أمين فاذا ركع فاركعوا . الحديث » أخرجه البخارى من حديث أبي هريرة دون قوله « الإمام أمين » وهو بهذه الريادة في مسند الجيرى وهو متفق عليه من حديث أسى دون هذه الريادة (٤) حديث « فان أتم فله ولهم وإن نقص فعليه ولا عليهم » أخرجه ابودارد وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث عقة بن عامر والبخارى من حديث أبي هريرة « يصلون بكم فان أصابوا فلكم وإن أخطوا فلكم وعليهم » (٥) حديث « اللهم أرشد الأئمة واغفر للمؤذنين » هو بقية حديث « الإمام ضامن » وتقدم قبل محمد بن (٦) حديث « من أذن في مسجد سبع سنين وحببت له الجنة ومن أذن أربعين عاما دخل الجنة بغير حساب » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث ابن عباس بالشطر الأول نحوه قال الترمذى حديث غريب (٧) حديث « ليوم من سلطان عادل أفضل من عبادة سبعين سنة » أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس بسند حسن بلفظ ستين

والألفه فقد قال صلى الله عليه وسلم « أتمتكم شعاعواكم - أو قال وفدكم إلى الله - فإن أردتم أن تزكوا صلاتكم فقدموا خياركم^(١) » وقال لعرض السلف . ليس بعد الأنبياء أفضل من العلماء ولا بعد العلماء أفضل من الأئمة المصلين لأن هؤلاء قاموا بين يدي الله عز وجل وبين حلقه هذا بالنبوة وهذا بالعلم وهذا بعاد الدين وهو الصلاة . وبهذه الحجة احتج الصحابة في تقديم أبي بكر الصديق رضي الله عنه وعنهم للخلافة ، إذ قالوا نظرنا فإذا الصلاة عماد الدين فاختربنا لديننا من رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا^(٢) وما قدموا بلالا احتجاجا بأنه رضى للأذان^(٣) وما روى « أنه قال له رجل : يا رسول الله دلني على عمل أدخل به الجنة قال : كن مؤذنا ، قال لا أستطيع ، قال : كن إماما ، قال : لا أستطيع ، فقال : صل بازاء الإمام^(٤) » فلعله ظن أنه لا يرضى بإمامته إذ الأذان إليه والإمامة إلى الجماعة وتقديمهم له . ثم بعد ذلك توهم أنه ربما يقدر عليها (الثالثة) أن يراعى الإمام أوقات الصلوات فيصل في أوقاتها ليذكر رضوان الله سبحانه بفضل أول الوقت على آخره كفضل الآخرة على الدنيا^(٥) هكذا روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي الحديث « إن العبد ليصلي الصلاة في آخر وقتها ولم تفته ، ولما فاته من أول وقتها خير له من الدنيا وما فيها^(٦) » ، ولا ينبغي أن يؤخر الصلاة لانتظار كثرة الجماعة بل عليهم المبادرة لحيازة فضيلة أول الوقت فهي أفضل من كثرة الجماعة ومن تطويل السورة . وقد قيل كانوا إذا حضر اثنان في الجماعة لم ينتظروا الثالث ، وإذا حضر أربعة في الجماعة لم ينتظروا الخامس « وقد تأخر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة الفجر وكانوا في سفر وإنما تأخر للطهارة فلم ينتظر وقدم عبد الرحمن بن عوف فصلى بهم حتى فاتت رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعة فقام يقضيها ، قال : فأشفقنا من ذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قد أحسنتم هكذا فافعلوا^(٧) » وقد تأخر في صلاة الظهر فقدموا أبا بكر رضي الله عنه حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في الصلاة فقام إلى جانبه^(٨) » وليس على الإمام انتظار المؤذن وإنما على المؤذن انتظار الإمام للإقامة فإذا حضر فلا ينتظر غيره (الرابعة) أن يؤم مخلصا لله عز وجل ومؤديا أمانة الله تعالى في طهارته وجميع شروط صلاته . أما الإخلاص

(١) حديث « أتمتكم وفدكم إلى الله تعالى فان اردتم ان تزكوا صلاتكم فقدموا خياركم » أخرجه الدارقطني والبيهقي وصنف إسناده من حديث ابن عمر والبيهقي وابن قانع والطبراني في معاجهم والحاكم من حديث صرمد بن أبي مرثد نحوه وهو منقطع وبه يحيى بن يحيى الأسلمي وهو ضعيف (٢) حديث « تقديم الصحابة انا بكر وقولهم اخترنا لدينا ما من اختاره رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا » أخرجه ابن شاهين في شرح مذهب أهل السنة من حديث علي قال « لقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يصلي بالناس وإن شاهد - ما أبا بعات ولا في مرض - فرضينا لدينا ما رضى به النبي صلى الله عليه وسلم لدينا » والمرفوع منه متفق عليه من حديث عائشة وأبي موسى في حديث « قال مروا أبا بكر فليصل بالناس » (٣) حديث « تقديم الصحابة بلالا » احتجاجا بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم رضى للأذان أما المرفوع منه فرواه أبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان من حديث عبد الله بن زيد في بدء الأذان وفيه « قم مع بلال فألق عليه ما رأيت فيؤذن به .. الحديث » وأما تقديمهم له بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم فروى الطبراني « أن بلالا جاء إلى أبي بكر فقال يا خليفة رسول الله أردت أن أربط بعسى في سبيل الله حتى أموت فقال أبو بكر اشك بالله يا بلال وحرمتي وحق لقد كبرت مني وصعقت قوتي واقترت احلى وأقام بلال معه ، فلما توفي أبو بكر جاء عمر فقال له مثل ما قال لأبي بكر فأبى عليه فقال عمر من يا بلال ، فقال لى سعد فانه قد ادن بقاء على يهد رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل عمر الأذان لى سعد وعقبة » وفي إسناده جهالة (٤) حديث « قال له رجل يا رسول الله دلني على عمل أدخل به الجنة فقال ك مؤذنا .. الحديث » أخرجه البخاري في التاريخ والمعالي في الصعاء والطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف (٥) حديث « فصل أول الوقت على آخره كفضل الآخرة على الدنيا » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف (٦) حديث « إن العبد ليصلي الصلاة في آخر وقتها ولم تفته .. الحديث » أخرجه الدارقطني من حديث أبي هريرة نحوه بإسناد ضعيف (٧) حديث « تأخر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما عن صلاة الفجر وكان في سفر وإنما تأخر للطهارة فقدموا عبد الرحمن بن عوف .. الحديث » . متفق عليه من حديث المديرة (٨) حديث « تأخر في صلاة الظهر فقدموا أبا بكر .. الحديث » متفق عليه من حديث سهل بن سعد

فبأن لا يأخذ عليها أجره فقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن أبي العاص الثقفي وقال « اتخذ مؤذنا لا يأخذ على الأذان أجرا »^(١) ، فالأذان طريق إلى الصلاة فهي أولى بأن لا يؤخذ عليها أجر ، فإن أخذ رزقا من مسجد قد وقف على من يقوم بإمامته أو من السلطان أو آحاد الناس فلا يحكم بتجريمه ولكنه مكروه . والكراهية في الفرائض أشد منها في التراويح « وتكون أجره له على مداومته على حضور الموضع ومراقبة مصالح المسجد في إقامة الجماعة لا على نفس الصلاة . وأما الأمانة فهي الطهارة باطناً عن السق والكبائر والإصرار على الصغائر فالترشح للإمامة ينمى أن يجتري عن ذلك بجهده فإنه كالوفد والتفويض للقوم فينبغي أن يكون خير القوم وكذا الطهارة ظاهراً عن الحدث والخبث فإنه لا يطلع عليه سواه ، فإن تذكر في أثناء صلاته حدثاً أو حرج منه ربح فلا ينبغي أن يستحى بل يأخذ بيد من يقرب منه ويستحلفه « فقد تذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنابة في أثناء الصلاة فاستخلف واغتسل ثم رجع ودخل في الصلاة »^(٢) ، وقال سفيان : صل خلف كل بر وفاجر إلا مدمن حمر أو معلن بالفسوق أو عاق لوالديه أو صاحب بدعة أو عبد آبق (الحامسة) أن لا يكبر حتى تستوى الصفوف وليلتفت يمينا وشمالا فإن رأى خلا أمر بالتسوية . قيل كانوا يتحاذون بالمنالك ويتضامون بالكعاب . ولا يكبر حتى يصرخ المؤذن من الإقامة والمؤذن يؤجر الإقامة عن الأذان بقدر استعداد الناس في الصلاة . وفي الخبر « لیتهمل المؤذن بين الأذان والإقامة بقدر ما يفرغ الآكل من طعامه والمعتصر من اعتصاره »^(٣) ، وذلك لأنه نهى عن مدافعة الأخبثين^(٤) ، وأمر بتقديم العشاء على العساء^(٥) طلباً لفراغ القلب (السادسة) أن يرفع صوته بسكرة الإحرام وسائر التكبيرات ولا يرفع المأموم صوته إلا بقدر ما يسمع نفسه . وينوى الإمامة لينال الفضل فإن لم ينو صحت صلاته وصلاة القوم إذا نوا الاقتداء . وبالوا فضل القدوة وهو لا ينال فضل الإمامة ، ولو حر المأموم تكبيره عن تكبيرة الإمام فيبتدئ بعد فراغه والله أعلم . وأما وظائف القراءة ثلاثه (أولها) أن يسر بدعاء الاستفتاح والتعوذ كالمفرد ويحجر بالفاتحة والسورة بعدها في جميع الصبح وأولي العشاء والمغرب وكذلك المنفرد . ويحجر بقوله « آمين » في الصلاة الجهرية وكذا المأموم ويقرن المأموم تأمينه بأمين الإمام معاً لاتعقبا^(٦) ويحجر لـ « بسم الله الرحمن الرحيم » والأخبار فيه متعارضة^(٧) واختار السافعي رضي الله عنه الجهر (الثابتة) أن يكون للإمام في القيام ثلاث سكتات^(٨) هكذا رواه سمره بن خندب وعمران بن الحصين عن

(١) حديث « محمد مؤذنا لا يأخذ على أدائه أجره » أخرجه أصحاب السنن والحاكم وصححه من حديث عثمان بن أبي العاص الثقفي
(٢) حديث « تذكر النبي صلى الله عليه وسلم الجنابة في صلاته فاستخلف واغتسل ثم رجع » أخرجه أبو داود من حديث أبي بكره بإسناد صحيح وليس فيه ذكر الاستحلاف وإنما قال « ثم أوما إليهم أن مكالمكم . الحديث » وورد الاستحلاف من فعل عمر وعلى وعبد البخاري استخلاف عمر في قصة طعنه (٣) حديث « يعهل المؤذن بين الأذان والإقامة بقدر ما يصرغ الآكل من طعامه والمعتصر من اعتصاره » أخرجه الترمذي والحاكم من حديث جابر « يا بلال اجعل بين أذانك وإقامتك قدر ما يصرغ الآكل من أكله والشارب من شربه والمعتصر إذا دخل ثضاء حاجته » قال الترمذي : إسناده مجهول وقال الحاكم ليس في إسناده مطوذية غير عمرو بن قايده . قلت : بل فيه عبد المعم الدياحي منسك الحديث قاله البخاري وغيره (٤) حديث النهى عن مدافعة الأخبثين أخرجه مسلم من حديث عائشة بعظ « صلاة » وللهيق « لا يصبر أحدكم . الحديث » (٥) « الأمر بتقديم العشاء على العشاء » تقدم من حديث ابن عمر وعائشة « إذا حضر العشاء وأقيمت الصلاة فادءوا بالعشاء » متفق عليه . (٦) حديث الجهر : « بسم الله الرحمن الرحيم » أخرجه الدارقطني والحاكم وصححه من حديث ابن عباس (٧) حديث « ترك الجهر بها » أخرجه مسلم من حديث أنس « صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر فلم أسمع أحدا منهم يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم » وللسائى يجهله « بسم الله الرحمن الرحيم » (٨) حديث سمرة بن جندب وعمران بن حصين في سكتات الإمام رواه الإمام أحمد من حديث سمرة قال « كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم سكتات في صلاته . وقال عمران : أنا أحفظها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فسكتوا في ذلك إلى أبي ابن كعب ؟ فسكت ابن سمرة قد حفظ » هكذا وجدته في غير نسخة صحيحة من المسند والمعروف أن عمران أنكرك ذلك على سمرة هكذا في غير موضع من المسند رواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان ، وروى الترمذي « فأسكرك ذلك عمران وقال حفظنا سكتة وقال حديث =

رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أولاًهن : إذا كبر وهي الطولى منهن مقدار ما يقرأ من خلفه فاتحة الكتاب وذلك وقت قراءته لدعاء الاستفتاح فإنه إن لم يسكت يفوتهم الاستماع فيكون عليه ما نقص من صلاتهم ، فإن لم يقرأ فاتحة فاتحة في سكوته واشتغلوا بغيرها فذلك عليه لاعليم . السكنة الثانية : إذا فرغ من الفاتحة ليعتم من يقرأ الفاتحة في السكنة الأولى فاتحته وهي كصاف السكنة الأولى . السكنة الثالثة : إذا فرغ من السورة قبل أن يركع وهي أخفها وذلك بقدر ما تنفصل القراءة عن التكبير فقد نهى عن الوصل فيه . ولا يقرأ المأموم وراء الإمام إلا الفاتحة فإن لم يسكت الإمام قرأ فاتحة الكتاب معه والمقصود هو الإمام . وإن لم يسمع المأموم في الجهرية لبعده أو كان في السرية فلا بأس بقراءة السورة (الوظيفة الثالثة) أن يقرأ في الصبح سورتين من المثاني مادون المائة فإن الإطالة في قراءة الفجر والتغليس بها سنة ، ولا يضره الخروج منها مع الإسفار ، ولا بأس بأن يقرأ في الثانية بأواخر السور نحو الثلاثين أو العشرين إلى أن يختمها لأن ذلك لا يتكرر على الأسماع كثيراً فيكون أبلغ في الوعظ وأدعى إلى التفكير ، وإنما كره بعض العلماء قراءة بعض أول السور وقطعها وقد روى أنه صلى الله عليه وسلم قرأ بعض سورة يونس فلما انتهى إلى ذكر موسى وفرعون قطع فركع ^(١) وروى أنه صلى الله عليه وسلم قرأ في الفجر آية من البقرة ^(٢) وهي قوله ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ﴾ وفي الثانية ﴿ ربنا آمنا بما أنزلت ﴾ وسمع بلالا يقرأ من ههنا وههنا ؛ فسأله عن ذلك فقال : أخطط الطيب بالطيب ، فقال : أحسنت ^(٣) ويقرأ في الظهر بطوال المفصل إلى ثلاثين آية وفي العصر بنصف ذلك وفي المغرب بأواخر المفصل . وآخر صلاة صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم : المغرب ؛ قرأ فيها سورة المرسلات ماصلي بعدها حتى قبض ^(٤) . وبالجملة التخفيف أولى لاسيما إذا كثرت الجمع قال صلى الله عليه وسلم في هذه الرخصة « إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف فإن فيهم الضعيف والكبير وإذا الحاجة وإذا صلى لنفسه فليطول ما شاء ^(٥) » ، وقد كان معاذ بن جبل يصلي يقوم العشاء فقرأ البقرة لخرج رجل من الصلاة وأتم لنفسه ، فقالوا : وافق الرجل ، فتشاكيا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرح رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذاً فقال : أفتان أنت يا معاذ اقرأ سورة سمح والسماء والطارق والشمس وضحاها ^(٦) ، وأما وظائف الأركان الثلاثة ؛ أولها : أن يخفف الركوع والسجود فلا يزيد في التسيحات على ثلاث فقد روى عن أنس أنه قال « ما رأيت أخف صلاة من رسول الله صلى الله عليه وسلم في تمام ^(٧) » ، نعم روى أيضاً أن أنس بن مالك لما صلى خلف عمر بن عبد العزيز وكان أميراً بالمدينة قال « ماصليت وراء أحد أشبه صلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم »

حس انتهى وليس في حديث سمرة ولا سكتان : ولكن اختلف عن محل الثانية . وروى عنه بعد الفاتحة وروى عنه بعد السورة وللهارطلي من حديث أبي هريرة وصفه « من صلى صلاة مكتوبة مع الإمام فليقرأ بفاتحة الكتاب في سكتانه »

- (١) حديث « قرأ بعض سورة يونس ، فلما انتهى إلى ذكر موسى وفرعون قطع فركع » أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن السائب وقال : سورة المؤمنين وقال موسى وهارون وعطية البخاري (٢) حديث قرأ في الفجر ﴿ قولوا آمنا بالله ﴾ الآية ، وفي الثانية ﴿ ربنا آمنا بما أنزلت ﴾ أخرجه مسلم من حديث ابن عباس كان يقرأ في ركعتي العصر في الأولى منها ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ﴾ الآية التي في البقرة وفي الآخرة منها ﴿ آمنا بالله واشهد أنا مسلمون ﴾ رواه أبو داود من حديث أبي هريرة ﴿ قل آمنا بالله وما أنزل علينا ﴾ الآية وفي الركعة الآخرة ﴿ ربنا آمنا بما أنزلت ﴾ أو ﴿ لما أرسلناك بالحق ﴾ (٣) حديث « سمع بلالا يقرأ من ههنا ومن ههنا » فسأله عن ذلك فقال أحاط الطيب بالطيب فقال أحسنت « أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح نحوه (٤) حديث « قراءته في المغرب بالمرسلات وهي آخر صلاة صلاها » متفق عليه من حديث أم الفضل (٥) حديث « إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف .. الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة (٦) حديث « صلى معاذ يقوم » العشاء فقرأ البقرة لخرج رجل من الصلاة .. الحديث » متفق عليه من حديث جابر وليس فيه ذكر (السماء والطارق) وهي عند البيهقي (٧) حديث أنس « ما رأيت أخف صلاة من رسول الله صلى الله عليه وسلم في تمام » متفق عليه

وسلم من هذا الشاب قال : وكنا نسبح وراه عشرين عشرين (١) ، وروى بحملا أنهم قالوا وكنا نسبح وراه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الركوع والسجود عشرين عشرين (٢) ، وذلك حسن ولكن الثلاث إذا كثر الجمع أحسن . فإذا لم يحضر إلا المتجردون للدين فلا بأس بالعشر ، هذا وجه الجمع بين الروايات . وينبغي أن يقول الإمام عند رفع رأسه من الركوع « سمع الله لمن حمده » الثانية : في المأموم ؛ ينبغي أن لا يساوى الإمام في الركوع والسجود بل يتأخر فلا يهوى للسجود إلى إذا وصلت جبهة الإمام إلى المسجد ، هكذا كان اقتداء الصحابة برسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) ولا يهوى للركوع حتى يستوى الإمام راعياً . وقد قيل إن الناس يخرجون من الصلاة على ثلاثة أقسام : طائفة بخمس وعشرين صلاة وهم الذين يكبرون ويركعون بعد الإمام : وطائفة بصلاة واحدة وهم الذين يساؤونه ، وطائفة بلا صلاة وهم الذين يسبقون الإمام . وقد اختلف في أن الإمام في الركوع هل ينتظر لحوق من يدخل لينال فضل الجماعة وإدراكهم لتلك الركعة ؟ ولعل الأولى أن ذلك مع الإخلاص لا بأس به إذا لم يظهر تفاوت ظاهر للحاضرين فإن حقهم مرعى في ترك التطويل عليهم . الثالثة : لا يزيد في دعاء التشهد على مقدار التشهد حذراً من التطويل ولا يخص نفسه في الدعاء بل يأتي بصيغة الجمع فيقول « اللهم اغفر لنا » ولا يقول « اغفر لي » فقد كره للإمام أن يحص نفسه ولا بأس أن يستعيد في التشهد بالكلمات الخمس المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول « دعوى ذلك من عذاب جهنم وعذاب القبر ونعوذ بك من فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضنا إليك غير مفتونين (٤) » وقيل سمي مسيحاً لأنه يمسح الأرض بطولها وقيل لأنه يمسح العين أي مطموسها ، وأما وظائف التحل فثلاثة ، أولها : أن ينوي بالتسليمتين السلام على القوم والملائكة . الثانية : أن يثبت عقيب السلام كذلك فعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضوا الله عنهما فيصلين النافلة في موضع آخر . فإن كان خلفه نسوة لم يقم حتى ينصرفن (٥) وفي الخبر المشهور « أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يقعد إلا بقدر قوله : اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام (٦) » الثالثة : إذا وثب فينبغي أن يقبل بوجهه على الناس ويكره للمأموم القيام قبل انتقال الإمام . فقد روى عن طلحة والزبير رضوا الله عنهما أنهما صليا خلف إمام فلما سلما قال للإمام ما أحسن صلاتك وأتمها إلا شيئاً واحداً أنك لما سلست لم تتقتل بوجهك . ثم قال للناس : ما أحسن صلاتكم إلا أنكم انصرفتم قبل أن ينفتل إمامكم . ثم ينصرف الإمام حيث شاء من يمينه وشماله واليمين أحب . هذه وظيفة الصلوات ، وأما الصبح فزيد فيها القنوت فيقول الإمام « اللهم اهدنا » ولا يقول اللهم اهدني ، ويؤمن المأموم فإذا انتهى إلى قوله « لك تقضى ولا يقضى عليك » فلا يليق به التأمين وهو ثناء ، فيقرأ معه فيقول مثل قوله أو يقول « بلى وأنا على ذلك من الشاهدين » أو « صدقت وبررت » وما أشبه ذلك . وقد روى حديث في رفع اليدين في القنوت (٧) فإذا صح

(١) حديث أنس « أنه صلى خلف عمر بن عبد العزيز فقال ما صليت وراه أحد أشبه صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا الشاب . الحديث أخرجه أبو داود والنسائي بإسناد جيد وضعفه ابن القطان (٢) حديث « كنا نسبح وراه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الركوع والسجود عشرين عشرين لم أجده أصل في الحديث الذي قبله وفيه « حررنا في ركوعه عشر تسبيحات وفي سجوده عشر تسبيحات » ، (٣) حديث « كان الصحابة لا يهويون للسجود إلا إذا وصلت جبهة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الأرض » متفق عليه من حديث البراء بن عازب (٤) حديث « التعوذ في التشهد من عذاب جهنم وعذاب القبر .. الحديث » تقدم وزاد فيه الزمالي ما « وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضنا إليك غير مفتونين » ولم أجده مقيداً بآخر الصلاة وللترمذي من حديث ابن عباس « وإذا أردت ببسائك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون » روى الحاكم نحوه من حديث ثوبان وعبد الرحمن بن عايش وصححهما وسأيت في الدعاء (٥) حديث « المسكت بعد السلام » أخرجه البخاري من حديث أم سلمة (٦) حديث « إنه لم يكن يقعد إلا بقدر قوله : اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام » أخرجه مسلم من حديث عائشة (٧) حديث « رفع اليدين في القنوت » أخرجه البيهقي من حديث أسبندجيد في قصة قتل الفراء « واندرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما صلى المداة رفع يديه » يدعو عليهم (٢٣ — لمحياء علوم الدين — ١)

الحديث استحسب ذلك وإن كان على خلاف الدعوات في آخر التشهد إذ لا يرفع بسببها اليد بل التعويل على التوقيت وبينهما أيضا فرق أن الأيدي وظيفة في التشهد وهو الوضع على الفخذين على هيئة مخصوصة ولا وظيفة لهما ههنا ، فلا يبعد أن يكون رفع اليدين هو الوظيفة في القنوت ، فإنه لا يثق بالدعاء والله أعلم . فهذه جمل آداب القدوة والإمامة والله الموفق .

الباب الخامس : فضل الجمعة وآدابها وسننها وشروطها

فضيلة الجمعة

لأعلم أن هذا يوم عظيم عظم الله به الإسلام وخصص به المسلمين . قال الله تعالى (إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع) فحرم الاشتغال بأموال الدنيا وبكل صارف عن السعي إلى الجمعة . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل فرس عليكم الجمعة في يومى هذا في مقامى هذا ^(١) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « من ترك الجمعة ثلاثاً من غير عذر طبع الله على قلبه ^(٢) » ، وفي لفظ آخر « فقد نبت الإسلام وراه ظهره ^(٣) » ، واحتلف رجل إلى ابن عباس يسأله عن رجل مات لم يكن يشهد جمعة ولا جماعة ، فقال : في النار ، فلم يرل يتردد إليه شهراً يسأله عن ذلك وهو يقول في النار وفي الخبر : إن أهل الكتابين أعطوا يوم الجمعة فاختلطوا فيه فصرفوا عنه وهدانا الله تعالى له وأخره لهذه الأمة وجعله عيداً لهم فهم أولى الناس به سبقاً وأهل الكتابين لهم تبع ^(٤) . وفي حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « أتاني جبريل عليه السلام في كفه امرأة بيضاء وقال : هذه الجمعة يفرضها عليك ربك لتكون لك عيداً ولأمتك من بعدك . قلت : فما لبا فيها ؟ قال : لكم فيها خير ساعة من دعا فيها بخير قسم له أعطاه الله سبحانه إياه أو ليس له قسم ذخرك له ما هو أعظم منه ؛ أو تعوذ من شر مكتوب عليه إلا أعاده الله عز وجل من أعظم منه وهو سيد الأيام عندنا ونحن ندعوه في الآخرة يوم المزيد ، قلت ولم قال : إن ربك عز وجل اتخذ في الجنة وادياً أوسع من المسك أبيض فاذا كان يوم الجمعة نزل تعالى من عليين على كرسيه فيتجلى لهم حتى ينظروا إلى وجهه الكريم ^(٥) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم عليه السلام وفيه أدخل الجنة وفيه أهبط إلى الأرض وفيه تيب عليه وفيه مات وفيه تقوم الساعة ، وهو عند الله يوم المزيد كذلك تسميه الملائكة في السماء وهو يوم النظر إلى الله تعالى في الجنة ^(٦) » ، وفي الخبر « إن لله عز وجل في كل جمعة ستمائة ألف عتيق من النار ^(٧) » ، وفي حديث أنس رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم

الباب الخامس

- (١) حديث « إن الله فرس عليكم الجمعة في يومى هذا .. الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث جابر بإسناد ضعيف
- (٢) حديث « من ترك الجمعة ثلاثاً من غير عذر طبع الله على قلبه » أخرجه أحمد واللعطه وأصحاب السنن ورواه الحاكم وصححه من حديث أبي الجعد الصمري (٣) حديث « من ترك الجمعة ثلاثاً من غير عذر فقد نبت الإسلام وراه ظهره » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس (٤) حديث « إن أهل الكتابين أعطوا يوم الجمعة فاخذوهواويه . الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة بنحوه (٥) حديث أنس « أتاني جبريل في كفه امرأة بيضاء فقال هذه الجمعة .. الحديث » أخرجه القاسمي في المسند والطبراني في الأوسط وابن مردويه في التفسير بأسانيد صحيحة مع اختلاف (٦) حديث « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٧) حديث « إن لله في كل جمعة ستمائة ألف عتيق من النار » أخرجه ابن عدى وابن حبان في الضعفاء وفي الشعب من حديث أنس قال الدارقطني في الملل والحديث غير ثابت

قال « إذا سلمت الجمعة سلمت الأيام ^(١) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « إنَّ الحجيم تسعر في كل يوم قبل الزوال عند استواء الشمس في كبد السماء فلا تصلوا في هذه الساعة إلا يوم الجمعة فإنه صلاة كله وإن جهنم لا تسعر فيه ^(٢) » ، وقال كعب : إن الله عز وجل فضل من البلدان مكة ومن الشهور رمضان ومن الأيام الجمعة ومن الليالي ليلة القدر ويقال إن الطير والهوام يلتقي بعضها بعضاً في يوم الجمعة فتقول : سلام سلام يوم صالح وقال صلى الله عليه وسلم « من مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة كتب الله له أجر شهيد ووقى فتنة القبر ^(٣) » ،

بيان شروط الجمعة

اعلم أنها تتشارك جميع الصلوات في الشروط وتتميز عنها بستة شروط (الأول) الوقت : فإن وقعت تسليمة الإمام في وقت العصر فانت الجمعة وعليه أن يتمها طهراً أربعاً ، والمسبوق إذا وقعت ركعته الأخيرة خارجاً من الوقت وميه خلاف (الثاني) المكان : فلا تصح في الصحارى والبرارى وبين الخيام بل لا بد من بقعة حامة لأبنية لا تقبل بجمع أربعين ممن تلزمهم الجمعة والقرية فيه كالبلد ، ولا يشترط فيه حضور السلطان ولا إذنه ولكن الأحب استئذانه (الثالث) العدد : فلا تعقد بأقل من أربعين ذكوراً مكلفين أحراراً مقيمين لا يظنون عنها شتاء ولا صيفاً، فإن انقضوا حتى نقص العدد إما في الخطبة أو في الصلاة لم تصح الجمعة بل لا بد منهم من الأول إلى الآخر (الرابع) الجماعة : فلو صلى أربعون في قرية أو في بلد متفرقين لم تصح جمعهم . ولكن المسبوق إذا أدرك الركعة الثانية حازله الانفراد بالركعة الثانية . وإن لم يدرك ركوع الركعة الثانية اقتدى ونوى الظهر وإذا سلم الإمام تمها ظهراً (الخامس) أن لا تكون الجمعة مسبوقة بأخرى في ذلك البلد . فإن تعذر اجتماعهم في جامع واحد جاز في جامعين وثلاثة وأربعة بقدر الحاجة . وإن لم تكن حاجة فالصحيح الجمعة التي يقع بها التحريم أولاً . وإذا تحققت الحاجة فالأفضل الصلاة خلف الأفضل من الإمامين ، فإن تساوى فالمسجد الأقدم ، فإن تساوى ففي الأقرب ، ولكثرة الناس أيضاً فضل يراعى (السادس) الخطبتان : فهما فريضتان والقيام فيهما فريضة والجلاسة بينهما فريضة . وفي الأولى أربع فرائض : التمجيد وأقله الحمد لله . والثانية : الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم . والثالثة : الوصية بتقوى الله سبحانه وتعالى والرابعة : قراءة آية من القرآن . وكذا فرائض الثانية أربعة إلا أنه يجب فيها الدعاء بدل القراءة . واستماع الخطبتين واجب من الأربعين . وأما السنن : فإذا زالت الشمس وأذن المؤذن وجلس الإمام على المنبر انقطعت الصلاة سوى التحية ، والكلام لا ينقطع إلا بافتتاح الخطبة . ويسلم الخطيب على الناس إذا أقبل عليهم بوجهه ويردون عليه السلام فإذا فرغ المؤذن قام مقبلاً على الناس بوجهه لا يلتفت يمينا ولا شمالاً ويشغل يديه بقائم السيف أو العنزة والمنبر كي لا يعبت بهما أو يضع إحداهما على الأخرى . ويخطب خطبتين بينهما جلوسة خفيفة . ولا يستعمل غريب اللغة ولا يملط ولا يتغنى . وتكون الخطبة قصيرة بليغة جامعة . ويستحب أن يقرأ آية في الثانية أيضاً . ولا يسلم من دخل والخطيب يخطب فإن سلم لم يستحق جواباً ، والإشارة بالجواب حسن ، ولا يشمت العاطسين أيضاً . هذه شروط الصحة . فأما شروط الوجوب : فلا تجب الجمعة إلا على ذكر بالغ عاقل مسلم حر مقيم في قرية تشتمل على أربعين جامعين

(١) حديث أس « إذا سلمت الجمعة سلمت الأيام » أخرجه ابن حبان في الضعفاء وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث عائشة ولم أجده من حديث أس (٢) حديث « لب الحجيم تسعر كل يوم قبل الزوال عند استواء الشمس - لم أن قال - إلا يوم الجمعة .. الحديث » أخرجه أبو داود من حديث أبي قتادة وأعله بالاتصاع (٣) حديث « من مات يوم الجمعة كتب الله له أجر شهيد ووقى فتنة القبر » أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث جابر روى الزندي نحوه مختصراً من حديث عبد الله بن عمر وقال غريب ليس لسناده بمتمصل . قلت . وصله الترمذي الحكيم في الواهر

لهذه الصفات ، أو في قرية من سواد البلد يبلغها نداء البلد من طرف بابها والأصوات ساكنة والمؤذن رفيع الصوت لقوله تعالى (إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع) ويرخص لهؤلاء في ترك الجمعة لعذر المطر والوحل والفرع والمرض والتمريض إذا لم يكن للمريض قيم غيره . ثم يستحب لهم - أعنى أصحاب الأعدار - تأخير الظهر إلى أن يفرغ الناس من الجمعة ، فإن حضر الجمعة مريض أو مسافر أو عبد أو امرأة صحت جمعهم وأجزأت عن الظهر والله أعلم

بيان آداب الجمعة على ترتيب العادة وهي عشر حمل

(الأول) أن يستعد لها يوم الخميس عزما عليها واستقبالا لفضلها فيشتغل بالدعاء والاستغفار والتسبيح بعد العصر يوم الخميس لأنها ساعة قوبلت بالساعة المهمة في يوم الجمعة . قال بعض السلف : إن لله عز وجل فضلا سوى أرزاق العباد لا يعطى من ذلك الفضل إلا من سأله عتية الخميس ويوم الجمعة ، ويغسل في هذا اليوم ثيابه ويبيضها ويعد الطيب إن لم يكن عنده ، ويفرغ قلبه من الأشغال التي تمنعه من البكور إلى الجمعة ، وينوي في هذه الليلة صوم يوم الجمعة فإن له فضلا وليكن مضموما إلى يوم الخميس أو السبت - لا مفردا فإنه مكروه - ويشتغل بإحياء هذه الليلة بالصلاة وختم القرآن فلها فضل كثير وينسحب عليها فضل يوم الجمعة . ويجمع أهله في هذه الليلة أو في يوم الجمعة فقد استحسب ذلك قوم حلوا عليه قوله صلى الله عليه وسلم « رحم الله من بكر وابتكر وغسل واغتسل »^(١) ، وهو حمل الأهل على الغسل . وقيل معناه غسل ثيابه - فروي بالتخفيف - واغتسل لجسده . وبهذا تتم آداب الاستقبال ويخرج من زمرة الغافلين الذين إذا أصبحوا قالوا ما هذا اليوم؟ قال بعض السلف : أوفى الناس نصيبا من الجمعة من انتظرها ورعاها من الأمس ، وأخفهم نصيبا من إذا أصبح يقول : أيش اليوم؟ وكان بعضهم يبني ليلة الجمعة في الجامع لاجلها (الثاني) إذا أصبح ابتداء بالغسل بعد طلوع الفجر ، وإن كان لا يسكر فأقر به إلى الرواح أحب ليكون أقرب عهدا بالنظافة ، فالغسل مستحب استحبابا مؤكدا ، وذبح بعض العلماء إلى وجوبه قال صلى الله عليه وسلم « غسل الجمعة واجب على كل محتلم »^(٢) ، والمشهور من حديث نافع عن ابن عمر رضی الله عنهما « من أتى الجمعة فليغتسل »^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من شهد الجمعة من الرجال والنساء فليغتسل »^(٤) ، وكان أهل المدينة إذا تساب المسابان يقول أحدهما للآخر : لأنت أشر من لا يغتسل يوم الجمعة . وقال عمر لعثمان رضی الله عنهما لما دخل وهو يخطب « أهذه الساعة؟ - منكرأ عليه ترك البكور - فقال : ما زدت بعد أن سمعت الأذان على أن توضأت وخرجت فقال : والوضوء أيضا : وقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمرنا بالغسل »^(٥) ، وقد عرف جواز ترك الغسل بوضوء عثمان رضی الله تعالى عنه وبما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال « من توضأ يوم الجمعة فيها ونعمت ومن اغتسل فالغسل أفضل »^(٦) ، ومن اغتسل للجناية فليفيض الماء على بدنه مرة أخرى

(١) حديث « رحم الله من بكر وابتكر وغسل واغتسل .. الحديث » رواه أصحاب السنن وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أوس بن أوس « من غسل يوم الجمعة واغتسل وبكر وابتكر .. الحديث » وحسنه الترمذي
(٢) حديث « غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم » متفق عليه من حديث أبي سعيد (٣) حديث نافع عن ابن عمر « من أتى الجمعة من الرجال والنساء فليغتسل » متفق عليه وهذا لفظ ابن حبان (٤) حديث « من شهد الجمعة من الرجال والنساء فليغتسلوا » أخرجه ابن حبان والبيهقي من حديث ابن عمر (٥) حديث « قال عمر لعثمان لما دخل وهو يخطب : أهذه الساعة .. الحديث - إلى أن قال - والوضوء أيضا وقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر بالغسل » متفق عليه من حديث أبي هريرة ولم يسم البخاري عثمان (٦) حديث « من توضأ يوم الجمعة بها ونعمت .. الحديث » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه ورواه النسائي من حديث سمرة

على نية غسل الجمعة ، فإن اكتفى بغسل واحد أجزأه وحصل له الفضل إذا نوى كليهما ودخل غسل الجمعة في غسل الجنابة . وقد دخل بعض الصحابة على ولده وقد اغتسل فقال له : أألجمعة ؟ فقال : بل عن الجنابة ، فقال : أعد غسلًا ثانيًا ، وروى الحديث في غسل الجمعة على كل محتلم . وإنما أمره به لأنه لم يكن نواه . وكان لا يعد أن يقال المقصود النظافة وقد حصلت دون النية ، ولكن هذا يتقدح في الوضوء أيضا وقد جعل في الشرع قرينة فلا بد من طلب فضلها . ومن اغتسل ثم أحدث توشاً ولم يبطل غسله والأحب أن يحتز عن ذلك (الثالثة) الزينة ، وهي مستحبة في هذا اليوم وهي ثلاثة : الكسوة والنظافة وتطيب الرائحة . أما النظافة فبالسواك وحلق الشعر وقلم الظفر وقص الشارب وسائر ما سبق في كتاب الطهارة . قال ابن مسعود : من قلم أظفاره يوم الجمعة أخرج الله عز وجل منه داء وأدخل فيه شفاء ، فإن كان قد دخل الحمام في الخميس أو الأربعاء فقد حصل المقصود . فليستطيب في هذا اليوم بأطيب طيب عنده ليغلب بها الروائح الكريهة ويوصل بها الروح والرائحة إلى مشام الحاضرين في جواره ، وأحب طيب الرجال ما ظهر ريحه وخفي لونه وطيب النساء ما ظهر لونه وخفي ريحه ^(١) ، وروى ذلك في الأثر وقال الشافعي رضي الله عنه : من نظف ثوبه قل همه ومن طاب ريحه زاد عقله . وأما الكسوة فأحبها البياض من الثياب - إذ أحب الثياب إلى الله تعالى البياض - ولا يلبس ما فيه شهرة . ولبس السواد ليس من السنة ولا فيه فضل بل كره جماعة النظر إليه لأنه بدعة محدثة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم والعمامة مستحبة في هذا اليوم . وروى واثلة بن الأسقع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن الله وملائكته يصلون على أصحاب العمام يوم الجمعة ^(٢) ، فإن أكرهه الحر فلا بأس بزعمها قبل الصلاة وبعدها ولكن لا ينزع في وقت السعي من المنزل إلى الجمعة ولا في وقت الصلاة ولا عند صعود الإمام المنبر وفي خطبته (الرابع) البكور إلى الجامع : ويستحب أن يقصد الجامع من فرسخين وثلاث وليبكر . ويدخل وقت البكور بطلوع المعجر وفضل البكور عظيم . وينبغي أن يكون في سعيه إلى الجمعة خاشعاً متواضعاً ناوياً للاعتكاف في المسجد إلى وقت الصلاة قاصداً للبادرة إلى جواب نداء الله عز وجل إلى الجمعة إياه . والمسارعة إلى مغفرته ورسواه وقد قال صلى الله عليه وسلم « من راح إلى الجمعة في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أقرن ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب أهدى بيضة فإذا خرج الإمام طويت الصحف ورفعت الأقاليم واجتمعت الملائكة عند المنبر يستمعون الذكر فمن جاء بعد ذلك فأنما جاء لحق الصلاة ليس له من الفضل شيء ^(٣) ، والساعة الأولى إلى طلوع الشمس ؛ والثانية إلى ارتفاعها ، والثالثة إلى انبساطها حين ترمض الأقدام ، والرابعة والخامسة بعد الضحى الأعلى إلى الزوال وفضاؤها قليل ؛ ووقت الزوال حق الصلاة ولا فضل فيه . وقال صلى الله عليه وسلم « ثلاث لو يعلم الناس ما فيهن لركضوا ركض الإبل في طلبهن ؛ الأذان والصف الأول والغدو إلى الجمعة ^(٤) ، وقال أحمد بن حنبل رضي الله عنه : أفضلهن الغدو إلى الجمعة . وفي الخبر

(١) حديث « طيب الرجال ما ظهر ريحه وخفي لونه وطيب النساء ما ظهر لونه وخفي ريحه » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه والسنائي من حديث أبي هريرة (٢) حديث واثلة بن الأسقع « إن الله وملائكته يصلون على أصحاب العمام يوم الجمعة » أخرجه الطبراني وعدي ، وقال منكر من حديث أبي الدرداء ولم أره من حديث واثلة (٣) حديث « من راح إلى الجمعة في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة .. الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة وأس وفيه « ورفعت الأقاليم » وهذه اللفظة عند البيهقي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (٤) حديث « ثلاث لو يعلم الناس ما فيهن لركضوا ركض الإبل في طلبهن ؛ الأذان والصف الأول والغدو إلى الجمعة » أخرجه أبو الشيخ في تواب الأعمال من حديث أبي هريرة « ثلاث لو يعلم الناس ما فيهن ما أخذنهن إلا بالاستهتام عليهن حرصاً على ما فيهن من الخير والبركة .. الحديث » قال « والهجير إلى الجمعة » وفي الصحيحين من حديث « لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهوا لاستهوا ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه

« إذا كان يوم الجمعة قعدت الملائكة على أبواب المساجد بأيديهم صحف من فضة وأقلام من ذهب يكتبون الأول فالأول على مراتبهم^(١) ، وجاء في الخبر « إن الملائكة يتفقدون الرجل إذا تأخر عن وقته يوم الجمعة فيسأل بعضهم بعضا عنه . ما فعل فلان وما الذي أخره عن وقته ؟ فيقولون : اللهم إن كان أخره فقر فأغنه وإن كان أخره مرض فاشفه وإن كان أخره شغل ففرغه لعبادتك وإن كان أخره هو فأقبل بقلبه إلى طاعتك^(٢) » ، وكان يرى في القرن الأول سحراً وبعد الفجر الطرقات مملوءة من الناس يمشون في السرج ويزدحون بها إلى الجامع كأيام العيد حتى اندرس ذلك فقيل : أول بدعة حدثت في الإسلام ترك البكور إلى الجامع . وكيف لا يستحى المسلمون من اليهود والنصارى وهم يبكرون إلى البيع والكنائس يوم السبت والأحد ؟ وطلاب الدنيا كيف يبكرون إلى رحاب الأسواى للبيع والشراء والريح فلم لا يسابقتهم طلاب الآخرة ؟ ويقال : إن الناس يكونون في قرهم عند النظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى على قدر بكورهم إلى الجمعة . ودحل ابن مسعود رضى الله عنه بكرة الجامع فرأى ثلاثة نفر قد سبقوه بالبكور فاغتم لذلك وجعل يقول في نفسه معاتباً لها : رابع أربعة : وما رابع أربعة من البكور بيبعد (الخامس) في هيئة الدخول : ينبغي أن لا يتخطى رقاب الناس ولا يمر بين أيديهم والكور يسهل ذلك عليه فقد ورد وعيد شديد في تخطى الرقاب وهو أنه يجعل جسراً يوم القيامة يتخطاه الناس^(٣) ، وروى ابن حريج مرسلًا « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما هو يحطب يوم الجمعة إذ رأى رجلاً يتخطى رقاب الناس حتى تقدم فجلس فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم صلاته عارض الرجل حتى لقيه فقال : يا فلان ما منعك أن تجمع اليوم معاً ؟ قال : يانبي الله قد جمعت معكم : فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ألم نرك تتخطى رقاب الناس^(٤) » أشار به إلى أنه أحبط عمله . وفي حديث مسند أنه قال « ما معك أن تصلى معاً ؟ قال : أو لم ترى يارسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم ؛ رأيتك تأبئت وأذيت^(٥) » ، أى تأخرت عن البكور وأذيت الحضور . ومهما كان الصف الأول متروكاً خالياً فإنه لا يتخطى رقاب الناس لأهم صيعوا حقهم وتركوا موضع الفضيلة . قال الحسن : تخطوا رقاب الناس الذين يقعدون على أبواب الجوامع يوم الجمعة فإنه لا حرمة لهم . وإذا لم يكن في المسجد إلا من يصلى فينبغي أن لا يسلم لأنه تكليف جواب في غير محله (السادس) أن لا يمر بين يدي الناس ويجلس حيث هو إلى قرب أسطوانة أو حائط حتى لا يمر بين يديه أعني بين يدي المصلي فإن ذلك لا يقطع الصلاة ولكنه منهي عنه قال صلى الله عليه وسلم « لأن يقف أربعين عاماً خبير له من أن يمر بين يدي المصلي^(٦) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « لأن يكون الرجل رماداً أو رمياً

(١) حديث « إذا كان يوم الجمعة قعدت الملائكة على أبواب المساجد بأيديهم صحف من فضة وأقلام من ذهب .. الحديث » أخرجه ابن مردويه في التفسير من حديث علي بن إسماعيل عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم « إذا كان يوم الجمعة فرأى الملائكة يكتبون الأول فالأول على مراتبهم » أخرجه ابن جرير في تفسيره .

(٢) حديث « إن الملائكة يتفقدون العبد إذا تأخر عن وقته يوم الجمعة فيسأل بعضهم بعضاً ما فعل فلان ، أخرجه البيهقي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مع زيادة وتقص بإسناد حسن . واعلم أن المصنف ذكر هذا فان لم يرد به حديثاً مرهوعاً فليس من شرطنا وإنما ذكرناه احتياطاً . (٣) حديث « من تخطى رقاب الناس يوم الجمعة اتحد جسراً إلى جهنم » أخرجه الترمذي وصحفه وابن ماجه من حديث معاذ بن أنس . (٤) حديث ابن جريج مرسلًا أن النبي صلى الله عليه وسلم بينما هو يحطب لدرأى رجلاً يتخطى رقاب الناس . الحديث وفيه ما معك أن تجمع معاً اليوم » أخرجه ابن المبارك في الرقائق . (٥) حديث « ما معك أن تصلى معنا فقال أو لم ترى قال رأيتك آبئت وأذيت » أخرجه أبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم من حديث عبد الله بن بسر مختصراً .

(٦) حديث « لأن يقف أربعين سنة خبير له من أن يمر بين يدي المصلي » أخرجه البزار من حديث زيد بن خالد وفي الصحيحين من حديث أبي جهنم « أن يقف أربعين » قال أبو النصر : لا أدري « أربعين يوماً أو شهراً أو سنة » رواه أبو داود وابن حبان من حديث أبي هريرة « مائة عام »

تدروه الرياح خير من أن يمر بين يدي المصلي^(١) ، وقد روى في حديث آخر في المار والمصلي حيث صلى على الطريق أو قصر في الدفع فقال « لو يعلم المار بين يدي المصلي والمصلي ما عليهما في ذلك لكان أن يقف أربعين سنة خيراً له من أن يمر بين يديه^(٢) » والأسطوانة والحائط والمصلي المفروش حد للمصلي فمن اجتار به فينبغي أن يدفعه قال صلى الله عليه وسلم « ليدفعه فإن أبي فليدفعه فإن أبي فليقاتله فإنه شيطان^(٣) » ، وكان أبو سعيد الخدري رضى الله عنه يدفع من يمر بين يديه حتى يصصره ، وربما تعلق به الرجل فاستعدى عليه عند مروان فيخبره أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره بذلك . فإن لم يجد أسطوانة فلينصب بين يديه شيئاً طوله قدر ذراع ليكون ذلك علامة لحدته (السابع) أن يطلب الصف الأول فإن فضله كثير كما روينا وفي الحديث « من غسل واغتسل وبكر وابتكر ودنا من الإمام واستمع كان ذلك له كفاة لما بين الجمعتين وزيادة ثلاثة أيام^(٤) » ، وفي لفظ آخر « غفر الله له إلى الجمعة الأخرى - وقد اشترط في بعضها - ولم يتخط رقاب الناس^(٥) » ، ولا يغفل في طلب الصف الأول عن ثلاثة أمور ، أولها : أنه إذا كان يرى تقرب الخطيب منكراً يعجز عن تغييره - من لبس حرير من الإمام أو غيره أو صلى في سلاح كثير ثقيل شاغل أو سلاح مذهب أو غير ذلك - مما يجب فيه الإنكار فالتأخر له أسلم وأجمع اللهم ، فعل ذلك جماعة من العلماء طلباً للسلامة . قيل لبشر بن الحرث : نراك تبكر وتصلى في آخر الصفوف ، فقال : لما يراد قرب القلوب لأقرب الأجساد . وأشار به إلى أن ذلك أقرب لسلامة قلبه . ونظر سفيان الثوري إلى شعيب بن حرب عند المنبر يسمع إلى الخطبة من أبي جعفر المنصور فلما فرغ من الصلاة قال : شغل قلبي قربك من هذا هل أمنت أن تسمع كلاماً يجب عليك إنكاره فلا تقوم به ؟ ثم ذكر ما أحدثوا من لبس السواد فقال : يا أبا عبد الله أليس في الخبر « أدن واستمع^(٦) » ، فقال : ويحك ذلك للخلفاء الراشدين المهديين ، فأما هؤلاء فكما بعدت عنهم ولم تنظر إليهم كان أقرب إلى الله عز وجل . وقال سعيد بن عامر « صليت إلى جنب أبي الدرداء فجعل يتأخر في الصفوف حتى كنا في آخر صف ؛ فلما صلينا قلت له : ليس يقال حير الصفوف أولها ؟ قال : يعلم إلا أن هذه الأمة مرحومة منظور إليها من بين الأمم^(٧) » فإن الله تعالى إذا نظر إلى عبد في الصلاة غفر له ولمس وراهه من الناس وإنما تأخرت رجاء أن يغفر لي بواحد منهم ينظر الله إليه . وروى بعض الرواة أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذلك ، فمن تأخر على هذه النية إثارة وإطهاراً لحسن الخلق فلا بأس ، وعند هذا يقال « الأعمال بالنيات » ، ثانيها : إن لم تكن مقصورة عند الخطيب مقتطعة عن المسجد للسلطين والصف الأول محجوب وإلا فقد كره بعض العلماء دخول المقصورة . كان الحسن وبكر المزني لا يصلبان في المقصورة ورأيا أنها قصرت على السلطين وهي بدعة أحدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم في المساجد . والمسجد مطلق لجميع الناس وقد اقتطع ذلك على خلافة وصلى أس بن مالك

(١) حديث « لأن يكون الرجل رمادا تدروه الرياح خيراً له من أن يمر بين يدي المصلي » أخرجه أبو نعيم في تاريخ أسبهان وابن عبد البر في التمهيد موقوفاً على عبد الله بن عمر ورواه « متعمداً » (٢) حديث « لو يعلم المار بين يدي المصلي والمصلي ما عليهما في ذلك . الحديث » رواه هكذا أبو العباس محمد بن يحيى المراج في مسنده من حديث زيد بن خالد بناسد صحيح (٣) حديث أبي سعيد « فليدفعه فإن أبي فليقاتله فإنه شيطان » متفق عليه (٤) حديث « من غسل واغتسل وبكر وابتكر ودنا من الإمام واستمع . الحديث » أخرجه الحاكم من حديث أوس بن أوس وأصله عند أصحاب السنن (٥) حديث « أنه اشترط في بعضها ولم يتخط رقاب الناس » أخرجه أبو داود وابن حبان والحاكم من حديث أبي سعيد وأبي هريرة وقال صحيح على شرط مسلم (٦) حديث « أدن واستمع » أخرجه أبو داود من حديث سمرة « احصروا الذكر وادنوا من الإمام » وتقدم بلفظ « من هجر ودنا واستمع » وهو عند أصحاب السنن من حديث شداد (٧) حديث أبي الدرداء « إن هذه الأمة مرحومة منظور إليها من بين الأمم وإن الله إذا نظر إلى عبد في الصلاة غفر له ولمس وراهه من الناس » لم أجده

وعمران بن حصين في المقصورة ولم يكرها ذلك لطلب القرب . ولعل الكراهية تختص بحالة التخصيص والمنع فأما مجرد المقصورة إذ لم يكن منع فلا يوجد كراهة وثالثها: أن المنبر يقطع بعض الصفوف وإنما الصف الأول الواحد المتصل الذي في فناء المنبر وما على طرفيه مقطوع . وكان الثوري يقول : الصف الأول هو الخارج بين يدي المنبر وهو متجه لانه متصل ولأن الجالس فيه يقابل الخطيب ويسمع منه . ولا يبعد أن يقال الأقرب إلى القبلة هو الصف الأول ولا براعى هذا المعنى . وتكره الصلاة في الأسواق والرحاب الخارجة عن المسجد وكان بعض الصحابة يضرب الناس ويقيمهم من الرحاب (الثامن) أن يقطع الصلاة عند خروج الإمام ويقطع الكلام أيضا بل يشتغل بجواب المؤذن ثم باستماع الخطبة . وقد حرت عادة بعض العوام بالسجود عند قيام المؤذنين ولم يثبت له أصل في أثر ولا خبر ، ولكنه إن وافق بسجود تلاوة فلا بأس بها للدعاء لأنه وقت فاضل : ولا يحكم بتحريم هذا السجود فإنه لا سبب لتحريمه ، وقد روى عن علي وعثمان رضي الله عنهما أنهما قالوا: من استمع وأبصت فله أجران ومن لم يستمع وأبصت فله أجر ومن سمع ولغا فعليه وزران ومن لم يستمع ولغا فعليه وزر واحد . وقال صلى الله عليه وسلم « من قال لصاحبه والإمام يخطف أنصت أو مه فقد لغا ومن لغا والإمام يخطف فلا جمعة له ^(١) » ، وهذا يدل على أن الإسكات ينبغى أن يكون بإشارة أو رمى حصة لا بالنطق وفي حديث أبي ذر « أنه لما سأل أبا النبي صلى الله عليه وسلم يخطف فقال : متى أنزلت هذه السورة ؟ فأوماً إليه أن أسكت : فلما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له أبي : اذهب فلا جمعة لك ، فشكاه أبو ذر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : صدق أبي ^(٢) » ، وإن كان بعيدا من الإمام فلا ينبغى أن يتكلم في العلم وغيره بل يسكت لأن كل ذلك يتسلل ويفضي إلى هينمة حتى ينتهي إلى المستمعين ولا يجلس في حلقة من يتكلم من عجز عن الاستماع بالبعد فلينصت فهو المستحب . وإذا كان تكراه الصلاة في وقت خطبة الإمام فالكلام أولى بالكراهية . وقال علي كرم الله وجهه : تكراه الصلاة في أربع ساعات ؛ بعد الفجر وبعد العصر ونصف النهار والصلاة والإمام يخطف (التاسع) أن يراعى في قدوة الجمعة ما ذكرناه في غيرها فإذا سمع قراءة الإمام لم يقرأ سوى الفاتحة . فإذا فرغ من الجمعة قرأ « الحمد لله ، سبع مرات قبل أن يتكلم » وقال هو الله أحد والمعوذتين ، سبعا سبعا وروى بعض السلف أن من فعله عصم من الجمعة إلى الجمعة وكان حرزا له من الشيطان ويستحب أن يقول بعد الجمعة « اللهم يا غني يا حميد يا مبدئ يا معيد يا رحيم يا ودود أغني بحلالك عن حرامك وبفضلك عن سواك » يقال من داوم على هذا الدعاء أعناه الله سبحانه عن خلقه ورزقه من حيث لا يحتسب ، ثم يصلي بعد الجمعة ست ركعات ، فقد روى ابن عمر رضي الله عنهما أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلي بعد الجمعة ركعتين ^(٣) ، وروى أبو هريرة أربعاً ^(٤) » وروى علي وعبد الله ابن عباس رضي الله عنهما ستاً ^(٥) والكل صحيح في أحوال مختلفة ، والأكمل أفضل

(١) حديث « من قال لصاحبه والإمام يخطف أنصت فقد لغا ومن لغا فلا جمعة له » أخرجه الترمذي والنسائي عن أبي هريرة روى الترمذي قوله « ومن لغا فلا جمعة له » قال الترمذي حديث حسن صحيح وهو في الصحيحين بلفظ « إذا قلت لصاحبك » أخرجه أبو داود من حديث علي « من قال مه فقد لغا ومن لغا فلا جمعة له » (٢) حديث أبي ذر « لما سأل أبا النبي صلى الله عليه وسلم يخطف وقال متى أنزلت هذه السورة .. الحديث » أخرجه البيهقي وقال في المعرفة لسانه صحيح أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث أبي بن كعب بسند صحيح أدالسائل له أبو الدرداء وأبو ذر ولأحمد من حديث أبي الدرداء أنه سأل أبا ولابن حبان من حديث جابر أن السائل عند الله بن مسعود ولأبي يعلى من حديث جابر قال « قال سعد بن أبي وقاص لرجل : لا جمعة لك فقال له النبي صلى الله عليه وسلم لم يساعد فقال لأنه كان يتكلم وأنت تخطف فقال صدق سعد »
(٣) حديث ابن عمر في الركعتين بعد الجمعة متفق عليه (٤) حديث أبي هريرة في الأربع ركعات بعد الجمعة أخرجه مسلم « إذا صلى أحدكم الجمعة فليصل بعدها أربعاً » (٥) حديث علي وعبد الله في صلاة ست ركعات بعد الجمعة أخرجه البيهقي صرفوا من علي وله موقوف على ابن مسعود أربعاً وأبو داود من حديث ابن عمر : كان إذا كان بمكة صلى بعد الجمعة ستاً

(العاشر) أن يلزم المسجد حتى يصلي العصر فإن أقام إلى المغرب فهو الأفضل . يقال من صلى العصر في الجامع كان له ثواب الحج ومن صلى المغرب فله ثواب حجة وعمرة فإن لم يأمن التصبح ودخول الآفة عليه من نظر الخلق إلى اعتكافه أو خاف الخوض فيما لا يعني فالأفضل أن يرجع إلى بيته ذا كرا الله عز وجل مفكرا في آياته شاكر الله تعالى على توفيقه خائفا من تقصيره مراقبا لقلبه ولسانه إلى غروب الشمس حتى لا تنفوته الساعة الشريفة . ولا ينبغي أن يتكلم في الجامع وغيره من المساجد بحديث الدنيا قال صلى الله عليه وسلم « يأتي على الناس زمان يكون حديثهم في مساجدهم أمر دينهم ليس الله تعالى فيهم حاجة فلا تجالسهم » (١) .

بيان الآداب والسنن الخارجة عن الترتيب السابق الذي يعم جميع النهار وهي سبعة أمور

(الأول) أن يحضر مجالس العلم بكرة أو بعد العصر ولا يحضر مجالس القصاص فلا خير في كلامهم . ولا ينبغي أن يخلو المرید في جميع يوم الجمعة عن الخيرات والدعوات حتى توافيه الساعة الشريفة وهو في خير ولا ينبغي أن يحضر الحلق قبل الصلاة وروى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما « أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن التحلق يوم الجمعة قبل الصلاة » (٢) إلا أن يكون عالما بالله يذكر بأيام الله ويفقه في دين الله يتكلم في الجامع بالغداة فيجلس إليه فيكون جامعا بين البكور وبين الاستماع . واستماع العلم النافع في الآخرة أفضل من اشتغاله بالذوائف فقد روى أبو ذر « إن حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة » (٣) قال أنس بن مالك في قوله تعالى ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ أما إنه ليس بطلب دنيا لكن عيادة من يرض وشهود جنازة وتعلم علم وزيارة أخ في الله عز وجل . وقد سمي الله عز وجل العلم فضلا في مواضع قال تعالى ﴿ وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما ﴾ وقال تعالى ﴿ ولقد آتينا داود منا فضلا ﴾ يعني العلم فتعلم العلم في هذا اليوم وتعليمه من أفضل القربات . والصلاة أفضل من مجالس القصاص إذ كانوا يرونه بدعة ويخرجون القصاص من الجامع : بكر ابن عمر رضي الله عنهما إلى مجلسه في المسجد الجامع فإذا قاص في موضعه فقال : قم عن مجلسي فقال : لا أقوم وقد جلست وسبقتك إليه ، فأرسل ابن عمر إلى صاحب الشرطة فأقامه . فلو كان ذلك من السنة لما جازت إقامته فقد قال صلى الله عليه وسلم « لا يقيم أحدكم أخاه من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن تفسحوا وتوسعوا » (٤) ، وكان ابن عمر إذا قام الرجل له من مجلسه لم يجلس فيه حتى يعود إليه . وروى أن قاصا كان يجلس بفناء حجرة عائشة رضي الله عنها فأرسلت إلى ابن عمر : إن هذا قد آذاني بقصصه وشغلني عن سبحتي ، فضربه ابن عمر حتى كسر عصاه على ظهره ثم طرده (الثاني) أن يكون حسن المراقبة للساعة الشريفة في الخبر المشهور « إن في الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله عز وجل فيها شيئا إلا أعطاه » (٥) وفي خبر آخر « لا يصادفها عبد يصلي » (٦) ، واختلف فيها فقيل لأنها عند طلوع الشمس وقيل عند الزوال وقيل مع الأذان وقيل إذا صعد الإمام المنبر وأخذ في الخطبة وقيل إذا قام

(١) حديث « يأتي على أمي زمن يكون حديثهم في مساجدهم أمر دينهم ... الحديث » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث الحسن مرسلًا وأسنده الحاكم من حديث أنس وصححه إسناده وأخرج ابن حبان نحوه من حديث ابن مسعود وقد تقدم
(٢) حديث « عبد الله بن عمر في النهي عن التحلق يوم الجمعة » أخرجه أبو داود والنسائي ورواه ابن ماجه من رواية عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده من حديث ابن عمر (٣) حديث أبي ذر « حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة » تقدم في العلم (٤) حديث « لا يقيم أحدكم أخاه من مجلسه .. الحديث » متفق عليه من حديث ابن عمر (٥) حديث « لمن في الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها شيئا إلا أعطاه » أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث عمرو بن عوف المزني .
(٦) حديث « لا يصادفها عبد يصلي » متفق عليه من حديث أبي هريرة

الناس إلى الصلاة وقيل آخر وقت العصر - أعنى وقت الاختيار - وقيل قبل غروب الشمس ، وكانت فاطمة رضى الله عنها تراعى ذلك الوقت وتأمّر خادمها أن تنظر إلى الشمس فتؤذنها بسقوطها فتأخذ في الدعاء والاستغفار إلى أن تغرب الشمس ، وتخبّر بأن تلك الساعة هي المنتظرة وتؤثره عن أبيها صلى الله عليه وسلم وعليها ^(١) ، وقال بعض العلماء : هي مهمة في جميع اليوم مثل ليلة القدر تتوفر الدواعى على مراقبتها . وقيل لأنها تنتقل في ساعات يوم الجمعة كنتقل ليلة القدر وهذا هو الأشبه ، وله سر لا يليق بعلم المعاملة ذكره ولكن ينغى أن يصدق بما قال صلى الله عليه وسلم « إن لرؤسكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها ^(٢) » ، ويوم الجمعة من جملة تلك الأيام فينبغى أن يكون العبد في جميع نهاره متعرضاً لها بإحضار القلب وملازمة الذكر والزوع عن وساوس الدنيا فعساه يحظى بشيء من تلك النفحات . وقد قال كعب الأحبار : إنها في آخر ساعة من يوم الجمعة وذلك عند الغروب ، فقال أبو هريرة : وكيف تكون آخر ساعة وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يوافقها عبد يصلى ولات حين صلاة ! فقال كعب : ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم من قعد ينتظر الصلاة فهو في الصلاة ^(٣) قال : بلى ، قال : فذلك صلاة ؟ فسكت أبو هريرة . وكان كعب مائلاً إلى أنها رحمة من الله سبحانه للقائمين بحق هذا اليوم وأوان لإرسالها عند الفراغ من تمام العمل . وبالجملة هذا وقت شريف مع وقت صعود الإمام المنبر فليكثر الدعاء فيهما (الثالث) يستحب أن يكثّر الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا اليوم فقد قال صلى الله عليه وسلم « من صلى على في يوم الجمعة ثمانين مرة غفر الله له ذنوب ثمانين سنة قيل يارسول الله كيف الصلاة عليك ؟ قال تقول اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمي ، وتعدّد واحدة ، وإن قلت اللهم صل على محمد وعلى آل محمد صلاة تكون لك رضاء ولحقة أداء وأعطه الوسيلة وابعثه المقام المحمود الذي وعدته واجزه عنا ما هو أهل واجزه أفضل ماجازيت نبيا عن أمته وصل عليه وعلى جميع إخوانه من النبيين والصالحين يا أرحم الراحمين ^(٤) » ، نقول هذا سبع مرات فقد قيل من قالها في سبع جمع في كل جمعة سبع مرات ونجبت له شفاعته صلى الله عليه وسلم . وإن أراد أن يزيد أتى بالصلاة المأثورة فقال « اللهم اجعل فضائل صلواتك ونواحي بركاتك وشرف زكواتك ورافتك ورحمتك وتحيتك على محمد سيد المرسلين وإمام المتقين وغاتم النبيين ورسول رب العالمين قائد الخير وفتح البر ونبي الرحمة وسيد الأمة اللهم ابعثه مقاما محمودا تضاف به قربه وتقربه بعينه يغبطه به الأولون والآخرون اللهم اعطه الفضل والفضيلة والشرف والوسيلة والدرجة الرفيعة والمنزلة الشامخة المنيفة اللهم أعط محمدًا سؤاله وبلغه مأموله واجعله أول شافع وأول مشفع اللهم عظم برهانه وثقل ميزانه وأبلغ حجته وارفع في أعلى المقربين درجته اللهم احشرننا في زمرة واحملنا من أهل شفاعته وأحينا على سنته وتوفنا على ملته

(١) حديث فاطمة « في ساعة الجمعة أخرجه الدارقطني في المال والبهقي والشب وهاتيه الاختلاف (٢) حديث « إن لرؤسكم في أيام دهركم نفحات . الحديث » أخرجه المسكيني في الموادر والطبراني والأوسط من حديث محمد بن مسلمة . ولان عبد البر في التمهيد نحوه من حديث أس ورواه ابن أبي الدنيا في كنز العمال من حديث أبي هريرة واختلف في اسناده

(٣) حديث « اختلاف كعب وأبي هريرة في ساعة الجمعة وقول أبي هريرة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يوافقها عبد يصلى ولات حين صلاة فقال كعب ألم يقل عليه الصلاة والسلام من قعد ينتظر الصلاة فهو في صلاة » قلت في الإحياء أن كعباً هو القائل لأنها آخر ساعة وليس كذلك وإنما هو عبد الله بن سلام . وأما كعب فإنا قال أنها في كل سنة مرة ثم رجعت الحديث رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان من حديث أبي هريرة وابن ماجه ونحوه من حديث عبد الله بن سلام

(٤) حديث « من صلى على في يوم الجمعة ثمانين مرة ... الحديث » أخرجه الدارقطني من رواية ابن المسيب قال أظنسه عن أبي هريرة وقال حديث غريب ، وقال ابن التمام حديث حسن

وأوردنا حوضه واسقنا بكأسه غير خزايا ولا نادمين ولا شاكين ولا مبدلين ولا فاتنين ولا مفتونين آمين يارب العالمين ^(١) ، وعلى الجملة فكل ما أتى به من ألفاظ الصلاة ولو بالمتهورة في التشهد كان مصليا . وينبغي أن يضيف إليه الاستغفار فإن ذلك أيضا مستحب في هذا اليوم (الرابع) قراءة القرآن فليكثر منه وليقرأ سورة الكهف خاصة . فقد روى عن ابن عباس وأبي هريرة رضى الله عنهما « أن من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أو يوم الجمعة أعطى نورا من حيث يقرؤها إلى مكة وغفر له إلى يوم الجمعة الأخرى وفضل ثلاثة أيام وحصل عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح وعوفي من النداء والديلة وذات الخب والبرص والجذام وقمة الدجال ^(٢) ، ويستحب أن يتختم القرآن في يوم الجمعة وليلتها إن قدر ، وليكن ختمه للقرآن في ركعتي الفجر إن قرأ بالليل أو في ركعتي المغرب أو بين الأذان والإقامة للجمعة فله فضل عظيم . وكان العابدون يستحبون أن يقرأوا يوم الجمعة قل هو الله أحد ألف مرة . ويقال إن من قرأها في عشر ركعات أو عشرين فهو أفضل من ختمه و كانوا يصلون على النبي صلى الله عليه وسلم ألف مرة وكانوا يقولون « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » ألف مرة وإن قرأ المسبجات الست في يوم الجمعة أو ليلتها أحسن . وليس يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقرأ سورا بأعيانها إلا في يوم الجمعة وليلتها كان يقرأ في صلاة المغرب ليلة الجمعة « قل يا أيها الكافرون . وقل هو الله أحد ، وكان يقرأ في صلاة العشاء الآخرة ليلة الجمعة : سورة الجمعة والمنافقين ^(٣) وروى أنه صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في ركعتي الجمعة . وكان يقرأ في الصباح يوم الجمعة . سورة سجدة لقمان وسورة هل أتى على الإنسان ^(٤) (الخامس) الصلوات يستحب إذا دخل الجامع أن لا يجلس حتى يصلى أربع ركعات يقرأ فيهن « قل هو الله أحد ، مائة مرة في كل ركعة خمسين مرة ^(٥) فقد نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أن من فعله لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له ، ولا يدع ركعتي التحية وإن كان الإمام يخطب ولكن يحفف . أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ^(٦) وفي حديث غريب « أنه صلى الله عليه وسلم سكت للداخل حتى صلاهما ^(٧) ، فقال الكوفيون : إن سكت له الإمام صلاهما . ويستحب في هذا اليوم أو ليلته أن يصلى أربع ركعات بأربع سور : الأنعام والكهف وطه ويس . فإن لم يحس قرأ يس وسورة سجدة لقمان وسورة الدخان وسورة الملك . ولا يدع قراءة هذه الأربع سور في ليلة الجمعة ففيها فضل كثير . ومن لا يحسن القرآن قرأ ما يحسن فهو له بمنزلة الختمة . ويكثر من قراءة سورة الإخلاص . ويستحب أن يصلى صلاة التسييح - كما سيأتى في باب التطوعات كيفيتها - لأنه صلى الله عليه وسلم قال لعنه العباس « صلها في كل جمعة ^(٨) وكان ابن عباس رضى الله عنهما لا يدع هذه الصلاة يوم الجمعة بعد الزوال

(١) حديث « اللهم اجعل فضائل صلواتك .. الحديث » أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم من حديث ابن مسعود نحوه بسند صحيح وقفه على ابن مسعود (٢) حديث ابن عباس وأبي هريرة « من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أو يوم الجمعة .. الحديث » لم أجده من حديثهما (٣) حديث « القراءة في المغرب ليلة الجمعة قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد ، وفي عشاؤها الجمعة والمنافقين » أخرجه ابن حبان والبيهقي من حديث سمرة وفي ثقات ابن حبان المحفوظ عن سماك مرسلات لا يصح مسداً ولا مرسلات (٤) حديث « القراءة في الجمعة بالجمعة والمنافقين ، وفي صبح الجمعة بالسجدة وهل أتى » أخرجه مسلم من حديث ابن عباس وأبي هريرة (٥) حديث « من دخل يوم الجمعة المسجد فصلى أربع ركعات يقرأ فيها قل هو الله أحد مائة مرة .. الحديث » أخرجه الخطيب في الرواة عن مالك من حديث ابن عمر وقال غريب جدا (٦) حديث « الأمر بالتخفيف في التحية إذا دخل والإمام يخطب » أخرجه مسلم من حديث جابر والبخاري « الأمر بالركعتين » ولم يذكر التخفيف (٧) حديث « سكوته صلى الله عليه وسلم من المطبة للداخل حتى فرع من التحية » أخرجه الدارقطني من حديث أنس وقال أسنده عبيد بن محمد ووم فيه والصواب عن متمر عن أبيه مرسلات (٨) حديث « صلاة التسييح ونحوه لعنه العباس صلها في كل جمعة » أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن خزيمة والحاكم من حديث ابن عباس وقال القيلي وغيره ليس فيها حديث صحيح

وكان يخبر عن جلالة فضلها . والأحسن أن يجعل وقته إلى الزوال للصلاة وبعد صلاة الجمعة إلى العصر لاستماع العلم وبعد العصر إلى المغرب للتسبيح والاستغفار . (السادس) الصدقة مستحبة في هذا اليوم خاصة فإنها تتضاعف إلا على من سأل والإمام يخطب وكان يتكلم في كلام الإمام فهذا مكروه . وقال صالح بن محمد : سأل مسكين يوم الجمعة والإمام يخطب - وكان إلى حانب أبي - فأعطى رجل أبي قطعة ليناوله إياها فلم يأخذها منه أبي . وقال ابن مسعود إذا سأل الرجل في المسجد فقد استحق أن لا يعطى وإذا سأل على القرآن فلا تعطوه . ومن العلماء من كره الصدقة على السؤال في الجامع الذين يتخطون رقاب الناس ؛ إلا أن يسأل قائماً أو قاعداً في مكانه من غير تخط . وقال كعب الأحبار : من شهد الجمعة ثم انصرف فتصدق بشيئين مختلفين من الصدقة ثم رجع فركع ركعتين يتم ركوعهما وسجودهما وخشوعهما ثم يقول : اللهم إني أسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم وباسمك الذي لا إله إلا الله هو الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، لم يسأل الله تعالى شيئاً إلا أعطاه . وقال بعض السلف . من أطعم مسكيناً يوم الجمعة ثم غداً وابتكر ولم يؤذ أحداً ثم قال حين يسلم الإمام « بسم الله الرحمن الرحيم الحى القيوم أسألك أن تغفر لى وترحمنى وتعافينى من النار » ثم دعا بما بداله استجيب له (السابع) أن يجعل يوم الجمعة للآخرة فيسكف فيه عن جميع أشغال الدنيا ويكثر فيه الأوراد ولا يبتدىء فيه السفر فقد روى « أنه من سافر في ليلة الجمعة دعا عليه ملكاه ^(١) » وهو بعد طلوع الفجر حرام إلا إذا كانت الرفقة تفوت . وكره بعض السلف شراء الماء في المسجد من السقاء ليشربه أو بسبله حتى لا يكون مبتاعاً في المسجد فإن البيع والشراء في المسجد مكروه . وقالوا : لا بأس لو أعطى القطعة خارج المسجد ثم شرب أو سبل في المسجد . وبالجملة ينبغى أن يزيد في الجمعة في أوراده وأنواع خيراته فإن الله سبحانه إذا أحب عبداً استعمله في الأوقات الماضلة بفواضل الأعمال وإذا مقتته استعمله في الأوقات الفاضلة بسوء الأعمال ليكون ذلك أوجع في عقابه وأشد لمقتته لحرمانه بركة الوقت وانها كرهة حرمة الوقت . ويستحب في الجمعة دعوات ، وسيأتى ذكرها في كتاب الدعوات إن شاء الله تعالى . وصلى الله على كل عبد مصطنى .

الباب السادس : في مسائل متفرقة تعم بها البلوى ويحتاج المرید إلى معرفتها

فأما المسائل التي تقع نادراً فقد استقصيناها في كتب الفقه

(مسألة) الفعل القليل وإن كان لا يبطل الصلاة فهو مكروه إلا لحاجة وذلك في دفع المار وقتل العقرب التي تخاف ويمكن قتلها بضربة أو ضربتين فإذا صارت ثلاثاً فقد كثرت وبطلت الصلاة ، وكذلك القملة والبرغوث مهما تأذى بهما كان له دفعهما ، وكذلك حاجته إلى الحلك الذى يتشوش عليه الخشوع . كان معاذ يأخذ القملة والبرغوث في الصلاة . وابن عمر كان يقتل القملة في الصلاة حتى يظهر الدم على يده . وقال النخعي : يأخذها ويوهنها ولا شيء عليه إن قتلها . وقال ابن المسيب : يأخذها ويخترها ثم يطرحها . وقال مجاهد : الأحب إلى أن يدعها إلا أن تؤذيه فتسغله عن صلاته فيوهنها قدر ما لا تؤذى ثم يلقها . وهذه رخصة وإلا فالكمال الاحتراز عن الفعل وإن قل . ولذلك كان بعضهم لا يطرد الذباب وقال : لا أعوذ نفسى ذلك فأفسد على صلاتى . وقد سمعت أن الفساق بين يدي

(١) حديث « من سافر يوم الجمعة دعا عليه ملكاه » أخرجه الدارقطنى في الأفراد من حديث ابن عمر وفيه اس لهيعة وقال غريب والخطيب في الرواة عن مالك من حديث أبي هريرة بسند ضعيف

الملوك يصبرون على أذى كثير ولا يتحركون . ومهما تشاب فلا بأس أن يضع يده على فيه وهو الأولى . وإن عطس حمد الله عز وجل في نفسه ولا يحرك لسانه . وإن تجشأ فينبغي أن لا يرفع رأسه إلى السماء وإن سقط رداؤه فلا يبغي أن يسويه وكذلك أطراف عمامته فكل ذلك مكروه إلا لضرورة .

(مسألة) الصلاة في النعلين جائزة وإن كان نزع النعلين سهلاً ، وليست الرخصة في الحف لتسر النزاع بل هذه التجاسة معفو عنها . وفي معناها المداس صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في نعليه ، ثم نزع فزنع الناس نعالهم فقال : لم خلعتم نعالكم ؟ قالوا : رأيناك خلعت نعالنا فقال صلى الله عليه وسلم : إن جبرائيل عليه السلام أتاني فأخبرني أن بهما خبتا فإذا أراد أحدكم المسجد فليقلب نعليه ولينظر فيهما فإن رأى خبتا فليمسح بالأرض وليصل فيهما ^(١) ، وقال بعضهم : الصلاة في النعالين أفضل لأنه صلى الله عليه وسلم قال « لم خلعتم نعالكم ؟ » وهذه مبالغة فإنه صلى الله عليه وسلم سألهم ليعين لهم سبب خلعه إذ علم أنهم خلعوا على موافقته . وقد روى عبد الله بن السائب « أن النبي صلى الله عليه وسلم خلع نعليه ^(٢) » فأذن قد فعل كليهما فنخلع فلا يبغي أن يضعهما عن يمينه ويساره فيضيق الموضع ويفتح الصف بل يضعهما بين يديه ولا يتركهما وراءه فيكون قلبه ملتفتاً إليهما . ولعل من رأى الصلاة فيهما أفضل راعى هذا المعنى وهو التفات القلب إليهما . روى أبو هريرة رضى الله عنه . أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا صلى أحدكم فليجعل نعليه بين رجليه ^(٣) » وقال أبو هريرة لعيره : اجعلهما بين رجليك ولا تؤنهما مسلماً . ووضعهما رسول الله صلى الله عليه وسلم على يساره وكان إماماً ^(٤) ، فلإمام أن يفعل ذلك إذ لا يقف أحد على يساره . والأولى أن لا يضعهما بين قدميه فتشغلانه ولكن قدام قدميه ، ولعله المراد بالحديث . وقد قال جبير بن مطعم . وضع الرجل نعليه بين قدميه بدعة .

(مسألة) إذا بزق في صلاته لم تبطل صلاته لأنه فعل قليل . وما لا يحصل به صوت لا يعد كلاماً وليس على شكل حروف الكلام إلا أنه مكروه فينبغي أن يحتز منه إلا كما أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه إذ روى بعض الصحابة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في القبلة نخامة فمضت غضباً شديداً ثم حكها بـرجون كان في يده وقال : ائتوني بعير ، فاطخ أثرها بزعفران ثم التفت إلينا وقال : أيكم يحب أن يبزق في وجهه ؟ فقلنا : لا أحد ، قال : فإن أحدكم إذا دخل في الصلاة فإن الله عز وجل بينه وبين القبلة ^(٥) » وفي لفظ آخر « واجهه الله تعالى فلا يبزق أحدكم تلقاء وجهه ولا عن يمينه ولكن عن شماله أو تحت قدمه اليسرى فإن بدرته بادرة فليبصق في ثوبه وليقل به هكذا وذلك بعضه ببعض »

(مسألة) لوقوف المقتدى : سنة وفرض ؛ أما السنة : فأل يقف الواحد عن يمين الإمام متأخراً عنه قليلاً ، والمرأة الواحدة تقف خلف الإمام ؛ فإن وقفت بجانب الإمام لم يضر ذلك ولكن خالفت السنة . فإن كان معها رجل

الباب السادس

- (١) حديث « صل في نعليه ثم نزع فزنع الناس نعالهم .. الحديث » أخرجه أحمد واللفظ لاس ماجه وأبو داود والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد (٢) حديث عبد الله بن السائب في «خلع النبي صلى الله عليه وسلم نعليه » أخرجه مسلم
- (٣) حديث أبي هريرة « إذا صلى أحدكم فليجعل نعليه بين رجليه » أخرجه أبو داود بسند صحيح وضمنه المنذرى وليس مجيد
- (٤) حديث « وضعه نعليه على يساره » أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن السائب
- (٥) حديث « رأى في القبلة نخامة فمضت .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث جابر وأما عليه مختصراً من حديث أنس وعائشة وأبي سعيد وأبي هريرة وابن عمر .

وقف الرجل عن يمين الإمام وهي خلف الرجل . ولا يقف أحد خلف الصف منفردا بل يدخل في الصف أو يخرج إلى نفسه واحدا من الصف . فإن وقف منفردا صحت صلاته مع الكراهية . وأما الفرص . فاتصال الصف وهو أن يكون بين المقتدى والإمام رابطة جامعة فإنهما في جماعة فإن كانا في مسجد كفي ذلك جامعا لأنه بي له فلا يحتاج إلى اتصال صف بل إلى أن يعرف أفعال الإمام ، صلى أبو هريرة رضي الله عنه على طهر المسجد بصلاة الإمام . وإذا كان المأموم على فناء المسجد في طريق أو صحراء مشتركة وليس بينهما اختلاف بناء مصرق فيكفي القرب بقدر غلوة سهم وكفي بها رابطة إذ يصل فعل أحدهما إلى الآخر . وإنما يشترط إذا وقف في صحن دار على يمين المسجد أو يساره وبابها لاطيء في المسجد فالشرط أن يمتد صف المسجد في دهليزها من غير انقطاع إلى الصحن . ثم تصح صلاة من في ذلك الصف ومن خلفه دون من تقدم عليه وهكذا حكم الابنية المختلفة فأما البناء الواحد والعرصة الواحدة فكالصحراء .

(مسألة) المسبوق إذا أدرك آخر صلاة الإمام فهو أول صلاته فليوافق الإمام وليبين عليه وليقنت في الصبح في آخر صلاة نفيه . وإن قنت مع الإمام وإن أدرك مع الإمام رمض القيام فلا يشتغل بالدعاء وليبدأ بالفاتحة وليخففها . فإن ركع الإمام قبل تمامها وقدر على لحوقه في اعتداله من الركوع فليتم . فإن عجز وافق الإمام وركع وكان لبعض الفاتحة حكم جميعها فتسقط عنه بالسبق . وإن ركع الإمام وهو في السورة فليقطعها . وإن أدرك الإمام في السجود أو التشهد كبر الإحرام ثم جلس ولم يكبر بخلاف ما إذا أدركه في الركوع فإنه يكبر ثانيا في الهوى لأن ذلك انتقال محسوب له . والتكبيرات للانتقالات الأصلية في الصلاة لا للعوارض بسبب القدوة . ولا يكون مدركا للركعة مالم يطمنن راعيا في الركوع والإمام بعد في حد الراكعين . فإن لم يتم طمأنينته إلا بعد مجاوزة الإمام حد الراكعين فاتته تلك الركعة .

(مسألة) من فاتته صلاة الظهر إلى وقت العصر فليصل الظهر أو لا ثم العصر ، فإن ابتداء العصر أجزاء ولكن ترك الأولى واقتم شبهة الخلاف . فإن وجد إماما فليصل العصر ثم ليصل الظهر بعده فإن الجماعة بالأداء أولى . فإن صلى منفردا في أول الوقت ثم أدرك جماعة صلى في الجماعة ونوى صلاة الوقت والله يحتسب أيهما شاء . فإن نوى فاتته أو تخطأ جاز . وإن كان قد صلى في الجماعة فأدرك جماعة أخرى فلينو فاتته أو النافلة لإعادة المؤداة بالجماعة مرة أخرى لا وجه له وإنما احتتمل ذلك لدرك فضيلة الجماعة .

(مسألة) من صلى ثم رأى على ثوبه نجاسة فالأحب قضاء الصلاة ولا يلزمه . ولو رأى النجاسة في أثناء الصلاة رمى بالثوب وأتم والأحب الاستئناف . وأصل هذا قصة خلع النعلين حين أخبر جبرائيل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن عليهما نجاسة فإنه صلى الله عليه وسلم لم يستأنف الصلاة .

(مسألة) من ترك التشهد الأول أو القنوت أو ترك الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم في التشهد الأول أو فعل فعلا سهواً وكانت تبطل الصلاة بتعمده أو شك فلا يدرأ صلى ثلاثاً أو أربعاً : أخذ باليقين وسجد بسجدتي الهوى قبل السلام . فإن نسي فبعد السلام مهما تذكر على القرب . فإن سجد بعد السلام وبعد أن أحدث بطلت صلاته . فإنه لما دخل في السجود كأنه جعل سلامه نسياناً في غير محله فلا يحصل التحلل به وعاد إلى الصلاة فلذلك يستأنف السلام بعد السجود . فإن تذكر سجود الهوى بعد خروجه من المسجد أو بعد طول الفصل فقد فات .

(مسألة) الوسوسة في نية الصلاة سببها خبل في العقل أو جهل بالشرع لأن امتثال أمر الله عز وجل مثل

امثال أمر غيره وتعظيمه كتعظيم غيره في حق القصد . ومن دخل عليه عالم فقام له فلو قال : نويت أن أنتصب قائما تعظيما لدخول زيد الفاضل لأجل فضله مقبلا عليه بوجهي ، كان سفها في عقله بل كما يراه ويعلم فضله تنبث داعية التعظيم فتقييمه ويكون معظما إلا إذا قام لشغل آخر أو في غفلة . واشترط كون الصلاة ظهرا أداء فرضا في كونه امتثالا كاشترط كون القيام مقرونا بالدخول مع الإقبال بالوجه على الداخل وانتفاء باعث آخر سواء . وقصد التعظيم به ليكون تعظيما . فإنه لو قام مدبرا عنه أو صبر فقام بعد ذلك بمدة لم يكن معظما . ثم هذه الصفات لا بد وأن تكون معلومة وأن تكون مقصودة ثم لا يطول حضورها في النفس في لحظة واحدة وإنما يطول نظم الألفاظ الدالة عليها إما تلفظا باللسان وإما تفكرا بالقلب . فن لم يفهم نية الصلاة على هذا الوجه فكانه لم يفهم النية . فليس فيه إلا أنك دعيت إلى أن تصلى في وقت فأجبت وقت فالوسوسة محض الجهل . فإن هذه القصد وهذه العلوم تجتمع في النفس في حالة واحدة ولا تكون مفصلة الآحاد في الذهن بحيث تطالعها النفس وتتأملها . وفرق بين حضور الشيء في النفس وبين تفصيله بالفكر . والحضور مضاد للعزوب والغفلة ، وإن لم يكن مفصلا . فإن من علم الحادث مثلا فيعمله بعلم واحد في حالة واحدة وهذا العلم يتضمن علوما هي حاضرة وإن لم تكن منمنصلة فإن من علم الحادث فقد علم الموجود والمعدوم والتقدم والتأخر والزمان ، وأن التقدم للعدم وأن التأخر للوجود ، فهذه العلوم منظورية تحت العلم بالحادث ، بدليل أن العالم بالحادث إذا لم يعلم غيره لو قيل له هل علمت التقدم فقط أو التأخر أو العدم أو تقدم العدم أو تأخر الوجود أو الزمان المنقسم إلى المتقدم والتأخر ؟ فقال ما عرفت قط كان كاذبا وكان قوله منافضا لقوله : إنى أعلم الحادث . ومن الجهل بهذه الدقيقة يثور الوسواس فإن الوسواس يكلف نفسه أن يحضر في قلبه الظاهرية والأدائية والفرضية في حالة واحدة مفصلة بألفاظها وهو يطالعها وذلك محال . ولو كلف نفسه ذلك في القيام لأجل العالم لتعذر عليه . فهذه المعرفة يندفع الوسواس وهو أن امثال أمر الله سبحانه في النية كامثال أمر غيره ثم أزيد على سبيل التسهيل والترخص وأقول . لو لم يفهم الوسواس النية إلا بإحضار هذه الأمور مفصلة ولم يمثل في نفسه الامثال دفعة واحدة وأحضر جملة ذلك في أثناء التكبير من أوله إلى آخره بحيث لا يفرغ من التكبير إلا وقد حصلت النية كفاه ذلك . ولا نمكفه أن يقرن الجميع بأول التكبير أو آخره فإن ذلك تكليف شطط . ولو كان مأمورا به لوقع الأولين سؤال عنه ولو وسوس واحد من الصحابة في النية ، فعدم وقوع ذلك دليل على أن الأمر على التساهل ، فكيفما تيسرت الية للوسوس ينغى أن يقنع به حتى يتعود ذلك وتفارقه الوسوسة ، ولا يطالب نفسه بتحقيق ذلك فإن التحقيق يزيد في الوسوسة . وقد ذكرنا في الفتاوى وحوها من التحقيق في تحقيق العلوم . والقصد المتعلقه بالنية تستقر العلية إلى معرفتها أما العامة فربما ضرها سماعها ويبيح . عليها الوسواس فلذلك تركناها .

(مسألة) ينبغي أن لا يتقدم المأموم على الإمام في الركوع والسجود والرفع منهما ولا في سائر الأعمال ولا ينبغي أن يساويه بل يتبعه ويقف أثره فهذا معنى الاقتداء ، فإن ساواه عمدا لم تبطل صلاته كما لو وقف بجانبه غير متأخر عنه . فإن تقدم عليه ففي بطلان صلاته خلاف ، ولا يبعد أن يقضى بالبطلان تشبيها بما لو تقدم في الموقف على الإمام ؛ بل هذا أولى لأن الجماعة اقتداء في الفعل لافي الموقف فالتبعية في الفعل أهم . وإتسا شرط ترك التقدم في الموقف تسبيلا للمتابعة في الفعل وتحصيلا لصورة التبعية إذ اللائق بالمقتدى به أن يتقدم فالتقدم عليه في الفعل لا وجه له إلا أن يكون سهوا . ولذلك شدد رسول الله صلى الله عليه وسلم التكبير فيه فقال « أما يخشى

الذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يحول الله رأسه رأس حمار (١) ، وأما التأخر عنه بركن واحد فلا يبطل الصلاة ، وذلك بأن يعتدل الإمام عن ركوعه وهو بعد لم يركع ولكن التأخر إلى هذا الحد مكروه فإن وضع الإمام جبهته على الأرض وهو بعد لم ينته إلى حد الركوع بطلت صلاته . وكذا إن وضع الإمام جبهته للسجود الثاني وهو بعد لم يسجد السجود الأول .

(مسألة) حق على من حضر الصلاة إذا رأى من غيره إساءة في صلاته أن يغيره ويتكبر عليه . وإن صدر من جاهل رفق بالجاهل وعله . فمن ذلك الأمر بتسوية الصفوف ومنع المنفرد بالوقوف خارج الصف ، والإنكار على من يرفع رأسه قبل الإمام إلى غير ذلك من الأمور . فقد قال صلى الله عليه وسلم « ويل للعالم من الجاهل حيث لا يعلمه » (٢) ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه : من رأى من يسيء صلاته فلم ينهه فهو شريكه في وزرها . وعن بلال بن سعد أنه قال : الخطيئة إذا أخفيت لم تضر إلا صاحبها فإذا أظهرت فلم تغير أضرت بالعامه . وجاء في الحديث « أن بلالا كان يسوي الصفوف ويضرب عراقبيهم بالدره » (٣) ، وعن عمر رضي الله عنه قال : تفقدوا إخوانكم في الصلاة فإذا فقدتموهم فإن كانوا مرضى فعودوهم وإن كانوا أصحاء فعاتبوهم . والعتاب إنكار على من ترك الجماعة ولا ينبغي أن يتساهل فيه وقد كان الأولون يبالغون فيه حتى كان بعضهم يحمل الجنازة إلى بعض من تخلف عن الجماعة إشارة إلى أن الميت هو الذي يتأخر عن الجماعة دون الحي . ومن دخل المسجد ينبغي أن يقصد بين الصف ؛ ولذلك تراحم الناس عليه في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قيل له : تعطلت الميسرة فقال صلى الله عليه وسلم « من عمر ميسرة المسجد كان له كفلان من الأجر » (٤) ، ومهما وجد غلاما في الصف ولم يجد لنفسه مكانا فله أن يخرجه إلى خلف ويدخل فيه - أعني إذا لم يكن بالغاً - وهذا ما أردنا أن نذكره من المسائل التي تعم بها البلوى . وسيأتي أحكام الصلوات المتفرقة في كتاب الأوراد إن شاء الله تعالى .

الباب السابع : في النوافل من الصلوات

اعلم أن ما عدا الفرائض من الصلوات ينقسم إلى ثلاثة أقسام : سنن ومستحبات وتطوعات . ونعني بالسنن ما نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم المواظبة عليه كالرواتب عقيب الصلوات وصلاة الضحى والوتر والتهجد وغيرها ؛ لأن السنة عبارة عن الطريق المسلوكة . ونعني بالمستحبات ما ورد الخبر بفضله ولم ينقل المواظبة عليه - كما سننقله في صلوات الأيام والليالي في الأسبوع - وكالصلاة عند الخروج من المنزل والدخول فيه وأمثاله . ونعني بالتطوعات ما وراه ذلك مما لم يرد في عينه أثر ولكنه تطوع به العبد من حيث رغب في مناجاة الله عز وجل بالصلاة التي ورد الشرع بفضلها مطلقا ؛ فكأنه متبرع به إذا لم يندب إلى تلك الصلاة بعينها وإن ندب إلى الصلاة مطلقا ، والتطوع عبارة عن التبرع . وسميت الأقسام الثلاثة نوافل من حيث إن النفل هو الزيادة وجملة زائد على الفرائض . فلنفظ : النافلة والسنة والمستحب والتطوع ؛ أردنا الاصطلاح عليه لتعريف هذه المقاصد . ولا حرج على من يغير هذا الاصطلاح فلا مشاحة في الألفاظ بعد فهم المقاصد . وكل قسم من هذه الأقسام تتفاوت درجاته في

(١) حديث « أما يخشى الذي يرفع رأسه قبل الإمام » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(٢) حديث « ويل للعالم من الجاهل . . الحديث » أخرجه صاحب مسند الفردوس من حديث أس بن سند ضعيف .

(٣) حديث « أن بلالا كان يسوي الصفوف ويضرب عراقبيهم بالدره » لم أجده .

(٤) حديث « قيل له قد تعطلت الميسرة فقال من عمر ميسرة المسجد . . الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث عمر بسند ضعيف

الفضل بحسب ما ورد فيها من الأخبار والآثار المعروفة لفضلها وبحسب طول مواظبة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها وبحسب صحة الأخبار الواردة فيها واشتهارها ، ولذلك يقال سنن الجماعات أفضل من سنن الانفراد . وأفضل سنن الجماعات : صلاة العيد ثم الكسوف ثم الاستسقاء . وأفضل سنن الانفراد : الوتر ثم ركعتا الفجر ثم ما بعدها من الرواتب على تفاوتها . واعلم أن التوافل باعتبار الإضافة إلى معلقاتها تنقسم إلى ما يتعلق بأسباب الكسوف والاستسقاء وإلى ما يتعلق بأوقات ، والمتعلق بالأوقات ينقسم إلى ما يتكرر بتكرار اليوم والليلة أو بتكرار الأسبوع أو بتكرار السنة فالجملة أربعة أقسام

القسم الأول : ما يتكرر بتكرار الأيام والليالي وهي ثمانية ، خمسة هي رواتب الصلوات الخمس ، وثلاثة وراماها وهي صلاة الضحى وإحياء ما بين العشاءين والتهجد

(الأولى) راتبة الصبح وهي ركعتان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها »^(١) ، ويدخل وقتها بطول الفجر الصادق وهو المستطير دون المستطيل . وإدراك ذلك بالمشاهدة عسير في أوله إلا أن يتعلم منازل القمر أو يعلم اقتراع طلوعه بالكواكب الطاهرة للبصر . فيستدل بالكواكب عليه ويعرف بالقمر في ليلتين من الشهر فإن القمر يطلع مع الفجر ليلة ست وعشرين ، ويطلع الصبح مع غروب القمر ليلة اثني عشر من الشهر هذا هو الغالب ، ويتطرق إليه تفاوت في بعض البروج وشرح ذلك يطول . وتعلم منازل القمر من المهمات للريد حتى يطلع به على مقادير الأوقات بالليل وعلى الصبح ، ويفوت وقت ركعتي الفجر بفوات وقت فريضة الصبح وهو طلوع الشمس ، ولكن السنة أداؤها قبل الفرس . فإن دخل المسجد وقد قامت الصلاة فليشتغل بالمكتوبة فإنه صلى الله عليه وسلم قال « إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة »^(٢) ، ثم إذا فرغ من المكتوبة قام لإيها وصلاتها . والصحيح أنهما أداء ما وقتنا قبل طلوع الشمس لأنهما تابعتان للعرض في وقته وإنما الترتيب بينهما سنة في التقديم والتأخير إذا لم يصادف جماعة . فإذا صادف جماعة انقلب الترتيب وبقية أداء . والمستحب أن يصلحها في المزل ويخففهما ، ثم يدخل المسجد ويصلي ركعتين تحية المسجد ، ثم يجلس ولا يصلي إلى أن يصلي المكتوبة . وفيما بين الصبح إلى طلوع الشمس الأحب فيه الذكر والفكر والاقتضار على ركعتي المجر والفريضة (الثانية) راتبة الظهر وهي ست ركعات : ركعتان بعدها وهي أيضاً سنة مؤكدة ، وأربع قبلها وهي أيضاً سنة وإن كانت دون الركعتين الأخيرتين . روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى أربع ركعات بعد زوال الشمس يحسن قراءتهن وركوعهن وسجودهن صلى معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى الليل »^(٣) ، وكان صلى الله عليه وسلم لا يدع أربعاً بعد الزوال يطيلهن ويقول إن أبواب السماء تفتح في هذه الساعة فأحب أن يرفع لي فيها عمل^(٤) ، رواه أبو أيوب الأنصاري وتفرد به ، ودل عليه أيضاً ما روت أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى في كل يوم اثنتي عشرة ركعة غير المكتوبة بنى له بيت في الجنة

الباب السابع

- (١) حديث « ركعتا الفجر خير من الدنيا .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث عائشة .
- (٢) حديث « إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة .
- (٣) حديث أبي هريرة « من صلى أربع ركعات بعد زوال الشمس يحسن قراءتهن . الحديث » ذكره عبد الملك بن حبيب بلافا من حديث أبي مسعود ولم أره من حديث أبي هريرة (٤) حديث أبي أيوب « كان لا يدع أربعاً بعد الزوال . الحديث » أخرجه أحمد بسند ضعيف نحوه وهو عبد أبي داود وابن ماجه مختصراً وروى الترمذي نحوه من حديث عبد الله بن السائب وقال حسن (٢٥ - إحياء علوم الدين - ١)

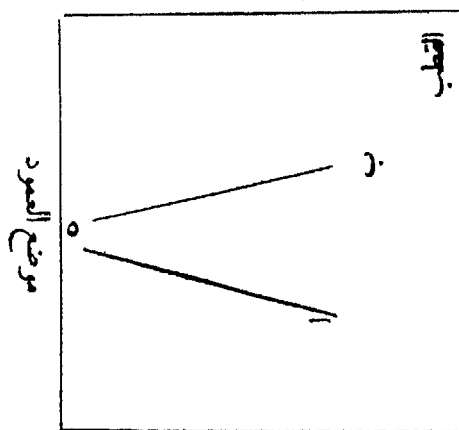
ركعتين قبل الفجر وأربعاً قبل الظهر وركعتين بعدها وركعتين قبل العصر وركعتين بعد المغرب^(١) ، وقال ابن عمر رضی الله عنهما : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل يوم عشر ركعات^(٢) فذكر ما ذكرته أم حبيبة رضی الله عنها إلا ركعتي الفجر فإنه قال : تلك ساعة لم يكن يدخل فيها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن حدثتني أختي حفصة رضی الله عنها أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلي ركعتين في بيتها ثم يخرج . وقال في حديثه : ركعتين قبل الظهر وركعتين بعد العشاء . فصارت الركعتان قبل الظهر آكد من جملة الأربعة . ويدخل وقت ذلك بالزوال . والزوال يعرف بزيادة ظل الأشخاص المنتصبه مائلة إلى جهة الشرق ، إذ يقع للشخص ظل عند الطلوع في جانب المغرب يستطيل فلا تزال الشمس ترتفع والظل ينقص وينحرف عن جهة المغرب إلى أن تبلغ الشمس منتهى ارتفاعها وهو قوس نصف النهار فيكون ذلك منتهى نقصان الظل . فإذا زالت الشمس عن منتهى الارتفاع أخذ الظل في الزيادة فمن حيث صارت الزيادة مدركة بالحس دخل وقت الظهر . ويعلم قطعاً أن الزوال في علم الله سبحانه وقع قبله ولكن التكليف لا ترتبط إلا بما يدخل تحت الحس . والقدر الباقي من الظل الذي منه يأخذ في الزيادة يطول في الشتاء ويقصر في الصيف ، ومنتهى طولها بلوغ الشمس أول الجدى ، ومنتهى قصرها بلوغها أول السرطان . ويعرف ذلك بالأقدام والموازين . ومن الطرق القريبة من التحقيق لمن أحسن مراعاته أن يلاحظ القطب الشمالي بالليل ويضع على الأرض لوحاً مربعاً وضماً مستويًا بحيث يكون أحد أضلاعه من جانب القطب ، بحيث لو توهمت سقوط حجر من القطب إلى الأرض ثم توهمت خطاً من مسقط الحجر إلى الضلع الذي يليه من اللوح لقام الخط على الضلع على زاويتين قائمتين أي لا يكون الخط مائلاً إلى أحد الضلعين ، ثم تنصب عموداً على اللوح نصباً مستويًا في موضع علامة ه وهو بإزاء التقب فيقع ظله على اللوح في أول النهار مائلاً إلى جهة المغرب في صوب خط اثم لا يزال يعميل إلى أن ينطبق على خط ب ، بحيث لو مد رأسه لانتهى على الاستقامة إلى مسقط الحجر ، ويكون موازياً للضلع الشرقي والغربي غير مائل إلى أحدهما ، فإذا بطل ميله إلى الجانب الغربي فالشمس في منتهى الارتفاع ، فإذا انحرف الظل عن الخط الذي على اللوح إلى جانب الشرق فقد زالت الشمس . وهذا يدرك بالحس تحميها في وقت هو قريب من أول الزوال في علم الله تعالى ، ثم يعلم على رأس الظل عند انحرافه علامة ، فإذا صار الظل من تلك العلامة مثل العمود دخل وقت العصر فهذا القدر لا بأس بمعرفته في علم الزوال وهذه صورته :

جانب الشرق

(الثالثة) راتبة العصر وهي أربع ركعات قبل

العصر . روى أبو هريرة رضی الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : رحم الله عبداً صلى قبل العصر أربعاً^(٣) ، ففعل ذلك على رجاء الدخول في دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم مستحب استجابة مؤكداً فإن دعوته تستجاب لا محالة له . ولم تكن مواظبته على السنة قبل العصر كمواظبته على ركعتين قبل الظهر

(الرابعة) راتبة المغرب وهما ركعتان بعد الفريضة لم



جانب الشرق

(١) حديث أم حبيبة « من صل في يوم اثنى عشرة ركعة .. الحديث » أخرجه النسائي والماهم وصححه اساده على شرط مسلم ورواه مسلم مختصراً ليس فيه تعيين أوقات الركعات (٢) حديث ابن عمر « حفظت من النبي صلى الله عليه وسلم في كل يوم عشر ركعات .. الحديث » متفق عليه واللفظ للبخاري ولم يقل في كل يوم (٣) حديث أبي هريرة « رحم الله عبداً صلى أربعاً قبل العصر » =

تختلف الرواية فيهما ، وأما ركعتان قبلها بين أذان المؤذن وإقامة المؤذن على سبيل المبادرة فقد نقل عن جماعة من الصحابة كأبي بن كعب وعبادة بن الصامت وأبي ذرّ وزيد بن ثابت وغيرهم قال عبادة أو غيره : كان المؤذن إذا أذن لصلاة المغرب ابتدر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم السواري يصلون ركعتين ^(١) وقال بعضهم : كنا نصلي الركعتين قبل المغرب حتى يدخل الداخل فيحسب أننا صلينا فيسأل أصليتم المغرب ؟ وذلك يدخل في عموم قوله صلى الله عليه وسلم « بين كل أذانين صلاة لمن شاء » ^(٢) . وكان أحمد بن حنبل يصلهما فعابه الناس فتركهما فقيل له في ذلك فقال : لم أر الناس يصلوهما ، فتركتهما وقال : لئن صلاهما الرجل في بيته أو حيب لا يراه الناس خمس . ويدخل وقت المغرب بغيوبة الشمس عن الأبصار في الأراضي المستوية التي ليست مخنوفة بالجبال فإن كانت مخنوفة بها في جهة المغرب فيتوقف إلى أن يرى إقبال السواد من جانب المشرق قال صلى الله عليه وسلم « إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا فقد أفطر الصائم » ^(٣) ، والأحب المبادرة في صلاة المغرب خاصة وإن أحرقت وصليت قبيل غيبوبة الشفق الأحمر وقعت أداء ولكنه مكروه . وآخر عمر رضى الله عنه صلاة المغرب ليلة حتى طلع محم فأعتق رقبة وأخرها ابن عمر حتى طلع كوكبان فأعتق رقبتين (الخامسة) راتبه العشاء الآخرة أربع ركعات بعد الفريضة . قالت عائشة رضى الله عنها « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بعد العشاء الآخرة أربع ركعات ثم ينام » ^(٤) ، واختار بعض العلماء من مجموع الأخبار أن يكون عدد الرواتب سبع عشرة كعدد المكتوبة : ركعتان قبل الصبح وأربع قبل الظهر وركعتان بعدها وأربع قبل العصر وركعتان بعد المغرب وثلاث بعد العشاء الآخرة وهي الوتر ^(٥) ومهما عرفت الأحاديث الواردة فيه فلا معنى للتقدير فقد قال صلى الله عليه وسلم « الصلاة خير موضع فمن شاء أكثر ومن شاء أقل » ^(٦) ، فإذا اختير كل مرید من هذه الصلاة بقدر رغبته في الخير فقد ظهر فيما ذكرناه أن بعضها أكد من بعض ، وترك الآكد أبعد لاسيما والفرائض تكمل بالنوافل فمن لم يستكثر منها يوشك أن لا تسلم له فريضة من غير جابر (السادسة) الوتر : قال أنس بن مالك « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوتر بعد العشاء بثلاث ركعات ، يقرأ في الأولى سبح اسم ربك الأعلى وفي الثانية قل يا أيها الكافرون وفي الثالثة قل هو الله أحد » ^(٧) ، وجاء في الخبر « أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلي بعد الوتر ركعتين جالسا وفي بعضهما متربعا » ^(٨) ، وفي بعض الأخبار « إذا أراد أن يدخل فراشه زحف إليه وصلى فوقه ركعتين قبل أن يرقد يقرأ فيهما إذا رزلت الأرض وسورة التكاثر » ^(٩) ، وفي رواية أخرى « قل يا أيها الكافرون ، ويجوز الوتر مفصولا وموصولا ، بتسليمه واحدة

= أخرجه أبو داود والترمذي وابن حبان من حديث ابن عمر وأعله ابن القطان ولم أره من حديث أبي هريرة (١) حديث عبادة أو غيره « في ابتداء أصحاب رسوله صلى الله عليه وسلم السواري إذا أذن لصلاة المغرب » وهو عليه من حديث أنس لا من حديث عبادة ، وروى عبد الله بن أحمد في زيادات المسند « أن أبي بن كعب وعبد الرحمن بن عوف كانا يركعان حبر وتر الشمس ركعتين قبل المغرب (٢) حديث « كنا نصلي الركعتين قبل المغرب حتى يدخل الداخل فيحسب أننا صلينا » أخرجه مسلم من حديث أنس (٣) حديث « بين كل أذانين صلاة لمن شاء » متفق عليه من حديث عبد الله بن مسعود (٤) حديث « إذا أقبل الليل من ههنا .. الحديث » متفق عليه من حديث عمر (٥) حديث عائشة « كان يصلي بعد العشاء الآخرة أربع ركعات ثم ينام » أخرجه أبو داود (٦) حديث « الوتر بثلاث بعد العشاء » أخرجه أحمد واللفظ له والنسائي من حديث عائشة « كان يوتر بثلاث لا يفصل بينهما » (٧) حديث « الصلاة خير موضع » أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبي ذر (٨) حديث أنس « كان يوتر بعد العشاء بثلاث ركعات يقرأ في الأولى سبح .. الحديث » أخرجه ابن عدى في ترجمة محمد بن أبان ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عباس بسند صحيح (٩) حديث « كان يصلي بعد الوتر ركعتين جالسا » أخرجه مسلم من حديث عائشة (١٠) حديث « إذا أراد أن يدخل فراشه زحف إليه ثم صلى ركعتين .. الحديث » أخرجه البيهقي من حديث أنس وأمس نحوه وضمفه وليس فيه « زحف إليه » ولا ذكر « أهما التكاثر »

وتسليمتين : وقد أورد رسول الله صلى الله عليه وسلم بركة (١) وثلاث (٢) وخمس (٣) وهكذا بالأوتار (٤) إلى إحدى عشرة ركعة (٥) والرواية مترددة في ثلاث عشرة (٦) وفي حديث شاذ « سبع عشرة ركعة (٧) » وكانت هذه الركعات - أعني ما سمها جملتها وترا - صلاة بالليل وهو التهجد والتهجد بالليل سنة مؤكدة - وسيأتي ذكر فضلها في كتاب الأوراد وفي الأفضل خلاف فقيل إن الإيتار بركة فردة أفضل إذ صح أنه صلى الله عليه وسلم كان يواظب على الإيتار بركعة فردة وقيل الموصولة أفضل للخروج عن شبهة الخلاف لاسمها الإمام إذ قد يقتدى به من لا يرى الركعة الفردة صلاة ، فإن صلى موصولا نوى بالجميع الوتر وإن اقتصر على ركعة واحدة بعد ركعتي العشاء أو بعد فرض العشاء نوى الوتر وضح . لأن شرط الوتر أن يكون في نفسه وترا وأن يكون موترا لغيره بما سبق قبله وقد أوتر العريض ولو أوتر قبل العشاء لم يصح أي لا ينال فضيلة الوتر الذي هو خير له من حمر النعم (٨) كما ورد به الخبر . وإلا فركعة فردة صحيحة في أي وقت كان وإنما لم يصح قبل العشاء لأنه خرق لإجماع الخلق في الفعل ولأنه لم يتقدم ما يصير به وترا . فأما إذا أراد أن يوتر بثلاث مفصولة ففي نيته في الركعتين نظر . فإنه إن نوى بهما التهجد أو سنة العشاء لم يكن هو من الوتر . وإن نوى الوتر لم يكن هو في نفسه وترا . وإنما الوتر ما بعده . ولكن الأظهر أن ينوي الوتر كما ينوي في الثلاث الموصولة الوتر . ولكن للوتر معنيان ، أحدهما : أن يكون في نفسه وترا ، والآخر أن ينشأ ليجمع وترا بما بعده فيكون مجموع الثلاثة وترا ، والركعتان من جملة الثلاث إلا أن ترتبته موقوفة على الركعة الثالثة . وإذا كان هو على عزم أن يوترها بثالثة كان له أن ينوي بهما الوتر . والركعة الثالثة وتر بنفسها وموترة لغيرها . والركعتان لا يوتران غيرهما وليستا وترا بأنفسهما ولكنهما موترتان بغيرهما . والوتر ينبغي أن يكون آخر صلاة الليل فيقع بعد التهجد . وسيأتي فضائل الوتر والتهجد وكيفية الترتيب بينهما في كتاب ترتيب الأوراد (السابعة) صلاة الضحى : فالموظبة عليها من عرائم الأفعال وفواصلها ، أما عدد ركعاتها فأكثر ما نقل فيه ثمان ركعات . روت أم هاني* أخت علي بن أبي طالب رضي الله عنهما « أنه صلى الله عليه وسلم صلى الضحى ثمان ركعات أطالهن وحسنهن (٩) » ولم ينقل هذا القدر غيرها . فأما عائشة رضي الله عنها فإسما ذكرت « أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلي الضحى أربعاً ويريد ما شاء الله سبحانه (١٠) » فلم تعد الزيادة أي أنه كان يواظب على الأربعة ولا ينقص منها وقد يزيد زيادات . وروى في حديث مفرد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي الضحى ست ركعات (١١) ، وأما وقتها فقد روى علي رضي الله عنه « أنه

- (١) حديث « الوتر ركعة » متفق عليه من حديث ابن عمر وهو لمسلم من حديث عائشة (٢) حديث « الوتر بثلاث » تقدم (٣) حديث « الوتر خمس » من حديث عائشة « يوتر من ذلك بخمس ولا يجلس في شيء إلا في آخرها » (٤) حديث « الوتر سبع » أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي « واللفظ له من حديث عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كبر وصلى أوتر سبع ركعات لا يمد إلا في السادسة ثم ينهض ولا يسلم فيصلي السابعة » حديث « الوتر تسع » أخرجه مسلم من حديث عائشة وهو في الذي قبله (٥) حديث الوتر بإحدى عشرة . أخرجه أبو داود بإسناد صحيح من حديث عائشة « كان يوتر أربع وثلاث ، وست وثلاث ، وثمان وثلاث ، وعشر وثلاث . الحديث » وأسلم من حديثها « كان يصلي بالليل إحدى عشرة ركعة . الحديث » (٦) حديث « الوتر ثلاث عشرة » تقدم في الذي قبله . وللترمذي والنسائي من حديث أم سلمة « كان يوتر ثلاث عشرة » وقال الترمذي حسن . وأسلم من حديث عائشة « كان يصلي من الليل ثلاث عشرة ركعة » راد في رواية « ركعتي العجر » (٧) حديث « الوتر سبع عشرة » أخرجه ابن المبارك من حديث طاوس مرسلاً « كان يصلي سبع عشرة ركعة من الليل » (٨) حديث « الوتر خير من حمر النعم » أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث خارحة اس حذافة « إن الله أمركم بصلاة هي خير لكم من حمر النعم » وضعفه السارقي وغيره . (٩) حديث أم هاني* « صلى الضحى ثمان ركعات أطالهن وأحسنهن » متفق عليه دون زيادة « أطالهن وأحسنهن » وهي مسكوة (١٠) حديث عائشة « كان يصلي الضحى أربعاً ويريد ما شاء الله » أخرجه مسلم (١١) حديث « كان يصلي الضحى ست ركعات » أخرجه الحاكم في فضل صلاة الضحى من حديث جابر ورحاله ثقات

صلى الله عليه وسلم كان يصلي الضحى ستاً في وقتين ، إذا أشرقت الشمس وارتفعت قام وصلى ركعتين - وهو أول الورد الثاني من أوراد النهار كما سيأتي - وإذا انبسطت الشمس وكانت في ربع السماء من جانب الشرق صلى أربعاً (١) ، فالأول إنما يكون إذا ارتفعت الشمس قيد نصف رمح والثاني إذا مضى من النهار ربه بإزاء صلاة العصر فإن وقته أن يبقى من النهار ربه ، والظهر على منتصف النهار ، ويكون الضحى على منتصف ما بين طلوع الشمس إلى الزوال ، كما أن العصر على منتصف ما بين الزوال إلى الغروب . وهذا أفضل الأوقات . ومن وقت ارتفاع الشمس إلى ما قبل الزوال وقت للضحى على الجملة . (الثامنة) إحياء ما بين العشاءين وهي سنة مؤكدة ومما نقل عدده من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بين العشاءين ست ركعات (٢) . ولهذه الصلاة فضل عظيم . وقيل إنها المراد بقوله عز وجل (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ، من صلى بين المغرب والعشاء فإنها من صلاة الأوابين (٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم من عكف نفسه فيما بين المغرب والعشاء في مسجد جماعة لم يتكلم إلا بصلاة أو بقرآن كان حقاً على الله أن يبنى له قصرين في الجنة مسيرة كل قصر منهما مائة عام ويغرس له بينهما غراساً لو طافه أهل الأرض لوسعهم (٤) ، وسيأتي بقية فضائلها في كتاب الأوراد إن شاء الله تعالى .

القسم الثاني ما يتكرر بتكرار الأسابيع

وهي صلاة أيام الأسبوع ولياليه لكل يوم ولكل ليلة

أما الأيام فنبتدا فيها بيوم الأحد . يوم الأحد : روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى يوم الأحد أربع ركعات يقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب وأمن الرسول مرة كتب الله له بعدد كل نصراني و نصرانية حسنة وأعطاه الله ثواب نبي وكتب له حجة وعمرة وكتب له بكل ركعة ألف صلاة وأعطاه الله في الجنة بكل حرف مدينة من مسك أذفر (٥) » وروى عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « وحدوا الله بكثرة الصلاة يوم الأحد فإنه سبحانه واحد لا شريك له فمن صلى يوم الأحد بعد صلاة الظهر أربع ركعات بعد الفريضة والسنة يقرأ في الأولى فاتحة الكتاب وتنزيل السجدة ، وفي الثانية فاتحة الكتاب وتبارك الملك ثم تشهد وسلم ثم قام فصلى ركعتين أخريين يقرأ فيهما فاتحة الكتاب وسورة الجمعة وسأل الله سبحانه حاجته كان حقاً على الله أن يقضى حاجته (٦) » .

يوم الاثنين : روى جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى يوم الاثنين عند ارتفاع النهار ركعتين يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وآية الكرسي مرة وقل هو الله أحد والمعوذتين مرة مرة فإذا سلم

(١) حديث « كان إذا أشرقت وارتفعت قام وصلى ركعتين وإذا انبسطت الشمس وكانت في ربع النهار من جانب المشرق صلى أربعاً » أخرجه الترمذى والنسائى وابن ماجه من حديث على كان نبي الله صلى الله عليه وسلم « ما رأيت الشمس من مطلقها قيد ربع أو ربعين كقدر صلاة العصر من غيرها صلى ركعتين ثم أمهل حتى إذا ارتفع الضحى صلى أربع ركعات » لعظ النسائى وقال الترمذى حسن . (٢) حديث « صلى بين العشاءين ست ركعات » أخرجه ابن منده في الضحى والطبرانى في الأوسط والأصغر من حديث عمار اس يارسند ضعيف والترمذى وسهفه من حديث أبي هريرة « من صلى بعد المغرب ست ركعات لم يتكلم فيما بينهما بسوء عدل له بهيادة نبي هشرة سد . » (٣) حديث « من صلى بين المغرب والعشاء لأنها من صلاة الأوابين » أخرجه ابن المبارك والرفائى من رواية ابن المنذر مرسل . (٤) حديث « من عكف نفسه بين المغرب والعشاء في مسجد جماعة » أخرجه أبو الوليد الصغار في « كتاب الصلاة » من طريق عبد الملك بن حبيب بلاغا له من حديث عبد الله بن عمر (٥) حديث « من صلى يوم الأحد أربع ركعات ... الحديث » أخرجه أبو موسى المدائنى من حديث أبي هريرة بسند صحيح (٦) حديث على « وحدوا الله ، كثرة الصلاة يوم الأحد .. الحديث » ذكره أبو موسى المدائنى فيه بغير إسناد

استغفر الله عشر مرات وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم عشر مرات غفر الله تعالى له ذنوبه كلها^(١) ، وروى أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى يوم الاثنين ثنتي عشرة ركعة يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وآية الكرسي مرة فإذا فرغ قرأ قل هو الله أحد اثنتي عشرة واستغفر اثنتي عشرة مرة ينادى به يوم القيامة : أين فلان بن فلان ليقيم فليأخذ ثوابه من الله عز وجل ؟ فأقول ما يعطى من الثواب ألف حلة ويتزوج ويقال له ادخل الجنة ويستقبله مائة ألف ملك مع كل ملك هدية يتسبعونه حتى يدور على ألف قصر من نور يتلألا^(٢) ، يوم الثلاثاء : روى يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال « قال صلى الله عليه وسلم : من صلى يوم الثلاثاء عشر ركعات عند انتصاف النهار^(٣) ، وفي حديث آخر « عند ارتفاع النهار يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وآية الكرسي مرة وقل هو الله أحد ثلاث مرات لم تكتب عليه خطيئة إلى سبعين يوماً فإن مات إلى سبعين يوماً مات شهيداً وغفر له ذنوب سبعين سنة .

يوم الأربعاء : روى أبو إدريس الخولاني عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى يوم الأربعاء عشر ركعات عند ارتفاع النهار يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وآية الكرسي مرة وقل هو الله أحد ثلاث مرات والمعوذتين ثلاث مرات نادى مناد عند العرش : يا عبد الله استأنف العمل فقد غفرك ما تقدم من ذنبك ورفع الله سبحانه عنك عذاب القبر وصيقه وظلمته ورفع عنك شدايد القيامة ، ورفع له من يومه عمل بي^(٤) ،

يوم الخميس : عن عكرمة عن ابن عباس قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من صلى يوم الخميس بين الظهر والعصر ركعتين يقرأ في الأولى فاتحة الكتاب وآية الكرسي مائة مرة وفي الثانية فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد مائة مرة ويصلى على محمد مائة مرة أعطاه الله ثواب من صام رجب وشعبان ورمضان وكان له من الثواب مثل حاج الميت وكتب له بعدد كل من آمن بالله سبحانه وتوكل عليه حسنة^(٥) ،

يوم الجمعة ، روى عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « يوم الجمعة صلاة كاه ما من عبد مؤمن قام إذا استقلت الشمس وارتفعت قدر رمح أو أكثر من ذلك فتوصاً ثم أسبغ الوضوء فصلى سبحة الضحى ركعتين إيماناً واحتساباً إلا كتب الله له مائة حسنة ومائة سيئة ومن صلى أربع ركعات رفع الله سبحانه له في الجنة أربع مائة درجة ومن صلى ثمان ركعات رفع الله تعالى له في الجنة ثمان مائة درجة وغفر له ذنوبه كلها ومن صلى ثنتي عشرة ركعة كتب الله له ألفين ومائة حسنة ومائة سيئة ورفع له في الجنة ألفين ومائة درجة^(٦) ، وعن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من دخل الجامع

(١) حديث جابر « من صلى يوم الاثنين عند ارتفاع النهار ركعتين .. الحديث » أخرجه أبو موسى المديني من حديث جابر عن عمر مراهوقا وهو حديث منكر (٢) حديث أنس « من صلى يوم الاثنين اثنتي عشرة ركعة .. الحديث » ذكره أبو موسى المديني سيره وهو منكر . (٣) حديث يزيد الرقاشي عن أنس « من صلى يوم الثلاثاء عشر ركعات عند انتصاف النهار .. الحديث » أخرجه أبو موسى المديني ولم يقل « عند انتصاف النهار ولا عند ارتفاعه » (٤) حديث أبي إدريس الخولاني عن معاذ « من صلى يوم الأربعاء اثنتي عشرة ركعة .. الحديث » أخرجه أبو موسى المديني وقال رواه نقات والحديث مركب . قلت : بل فيه غير مسمى وهو محمد بن حميد الرازي أحد السكذابين (٥) حديث عكرمة عن ابن عباس « من صلى يوم الخميس بين الظهر والعصر ركعتين .. الحديث » أخرجه أبو موسى المديني بسند صحيح حداه (٦) حديث علي « يوم الجمعة صلاة كاه ما من عبد مؤمن قام إذا استقلت الشمس .. الحديث » لم أجده أسلاوه وباطل

يوم الجمعة فصلى أربع ركعات قبل صلاة الجمعة يقرأ في كل ركعة الحمد لله وقل هو الله أحد خمسين مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له (١) .

يوم السبت : روى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من صلى يوم السبت أربع ركعات يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وقل هو الله أحد ثلاث مرات فإذا فرغ قرأ آية الكرسي كتب الله له بكل حرف حجة وعمرة ورفع له بكل حرف أجر سنة صيام نهارها وقيام ليلها وأعطاه الله عز وجل بكل حرف ثواب شهيد وكان تحت ظل عرش الله مع النبيين والشهداء (٢) .

وأما الليالي . ليلة الأحد : روى أنس بن مالك في ليلة الأحد أنه صلى الله عليه وسلم قال « من صلى ليلة الأحد عشرين ركعة يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد خمسين مرة والمعوذتين مرة مرة واستغفر الله عز وجل مائة مرة واستغفر لنفسه ولوالديه مائة مرة وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم مائة مرة وتبرأ من حوله ووقته والتجأ إلى الله ثم قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن آدم صفوة الله وفطرته وإبراهيم خليل الله وموسى كليم الله وعيسى روح الله ومحمداً حبيب الله كان له من الثواب بعدد من دعا لله ولداً ومن لم يدع لله ولداً وبعثه الله عز وجل يوم القيامة مع الآمين وكان حقا على الله تعالى أن يدخله الجنة مع النبيين (٣) .

ليلة الاثنين : روى الأعمش عن أنس قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى ليلة الاثنين أربع ركعات يقرأ في الركعة الأولى الحمد لله وقل هو الله أحد عشر مرات ، وفي الركعة الثانية الحمد لله وقل هو الله أحد عشرين مرة ، وفي الثالثة الحمد لله وقل هو الله أحد ثلاثين مرة ، وفي الرابعة الحمد لله وقل هو الله أحد أربعين مرة ثم يسلم ويقرأ قل هو الله أحد حمسا وسبعين مرة واستغفر الله لنفسه ولوالديه خمسا وسبعين مرة ثم سأل الله حاجته كان حقا على الله أن يعطيه سؤله ما سأل (٤) ، وهي صلاة الحاجة .

ليلة الثلاثاء : من صلى ركعتين يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد والمعوذتين خمس عشرة مرة ، ويقرأ بعد التسليم خمس عشرة مرة آية الكرسي واستغفر الله تعالى خمس عشرة مرة كان له ثواب عظيم وأجر جسيم . وروى عن عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى ليلة الثلاثاء ركعتين يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وأنا أنزلناه وقل هو الله أحد سبع موات أعتق الله رقبتة من النار ويكون يوم القيامة قائده ودليله إلى الجنة (٥) .

ليلة الأربعاء : روت فاطمة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى ليلة الأربعاء ركعتين يقرأ في الأولى فاتحة الكتاب وقل أعوذ برب الفلق عشر مرات ، وفي الثانية بعد الفاتحة قل أعوذ برب الناس عشر مرات

(١) حديث نافع عن ابن عمر « من دخل الجامع يوم الجمعة فصل أربع ركعات . الحديث » أخرجه الدارلطني في غرائب مالك وقال لا يصح وعند الله بن وصيف مجهول والخطيب في الرواة عن مالك وقال غريب جدا ولا أحرف له وجهها غير هذا

(٢) حديث أبي هريرة « من صلى يوم السبت أربع ركعات .. الحديث » أخرجه أبو موسى المديني في كتاب وظائف الليل والأيام بدمد ضعيف جدا

(٣) حديث « من صلى ليلة الأحد عشرين ركعة .. الحديث » ذكره أبو موسى المديني بنير لسان وهو منكر وروى أبو موسى من حديث أنس « في فضل الصلاة فيها ست ركعات وأربع ركعات » وكلاهما ضعيف جدا

(٤) حديث « الأعمش عن أنس « من صلى ليلة الاثنين أربع ركعات .. الحديث » ذكره أبو موسى المديني هكذا عن الأعمش بغير لسان من رواية يزيد الرقاشي عن أنس حديثنا « في صلاة ست ركعات فيها » وهو منكر .

(٥) حديث « الصلاة في ليلة الثلاثاء ركعتين .. الحديث » ذكره أبو موسى أمير لسان حكاية عن بعض المصنفين وأسنده من حديث ابن مسعود وجابر حديثنا « في صلاة أربع ركعات فيها » وكلها منكرة

ثم إذا سلم استغفر الله عشر مرات ثم يصلى على محمد صلى الله عليه وسلم عشر مرات نزل من كل سماء سبعون ألف ملك يكتبون ثوابه إلى يوم القيامة (١) ، وفي حديث آخر « ست عشرة ركعة يقرأ بعد الفاتحة ماشاء الله ويقرأ في آخر الركعتين آية الكرسي ثلاثين مرة وفي الأوليين ثلاثين مرة قل هو الله أحد يشفع في عشرة من أهل بيته كلهم وجبت عليهم النار ، وروت فاطمة رضى الله عنها أنها قالت « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من صلى ليلة الأربعاء ست ركعات قرأ في ركعة بعد الفاتحة قل اللهم مالك الملك إلى آخر الآية فإذا فرغ من صلاته يقول جزى الله محمدًا عنا ما هو أهله غفر له ذنوب سبعين سنة وكتب له براءة من النار (٢) » .

ليلة الخميس : قال أبو هريرة رضى الله عنه « قال النبي صلى الله عليه وسلم : من صلى ليلة الخميس ما بين المغرب والعشاء ركعتين يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وآية الكرسي خمس مرات وقل هو الله أحد خمس مرات والمعوذتين خمس مرات فإذا فرغ من صلاته استغفر الله تعالى خمس عشرة مرة وجعل ثوابه لوالديه فقد أدى حق والديه عليه وإن كان حاقا لها وأعطاه الله تعالى ما يعطى الصديقين والشهداء (٣) » .

ليلة الجمعة : قال جابر « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من صلى ليلة الجمعة بين المغرب والعشاء اثنتي عشرة ركعة يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وقل هو الله أحد إحدى عشرة مرة فكأنما عبد الله تعالى اثنتي عشرة سنة صيام نهارها وقيام ليلها (٤) » ، وقال أنس « قال النبي صلى الله عليه وسلم : من صلى ليلة الجمعة صلاة العشاء الآخرة في جماعة وصلى ركعتي السنة ثم صلى بعدهما عشر ركعات قرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد والمعوذتين مرة مرة ثم أوتر بثلاث ركعات ونام على جنبه الأيمن وجهه إلى القبلة فكأنما أحيا ليلة القدر (٥) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « أكثروا من الصلاة على في الليلة الغراء واليوم الأزهري ليلة الجمعة ويوم الجمعة (٦) » .

ليلة السبت : قال أنس « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من صلى ليلة السبت بين المغرب والعشاء اثنتي عشرة ركعة بني له قصر في الجنة وكأنما تصدق على كل مؤمن ومؤمنة وتبرأ من اليهود وكان حقا على الله أن يغفر له (٧) » .

القسم الثالث ما يتكرر بتكرار السنين

وهي أربعة : صلاة العيدين والتراويح وصلاة رجب وشعبان (الأولى) صلاة العيدين : وهي سنة مؤكدة وشعار من شعائر الدين وينبغي أن يراعى فيها سبعة أمور ؛ الأول . التكبير ثلاثا لسقا فيقول « الله أكبر الله أكبر الله أكبر

(١) حديث « من صلى ليلة الأربعاء ركعتين . الحديث » لم أجد فيه إلا حديث جابر « في صلاة أربع ركعات فيها » ورواه أبو موسى المديني وروى من حديث أنس « ثلاثين ركعة » (٢) حديث فاطمة « من صلى ست ركعات - أي ليلة الأربعاء ... الحديث » أخرجه أبو موسى المديني بسند ضعيف جدا (٣) حديث أبي هريرة « من صلى ليلة الخميس ما بين المغرب والعشاء ركعتين .. الحديث » أخرجه أبو موسى المديني وأبو منصور الديلمي في مسند المرادوس بسند ضعيف حداره ومنسك (٤) حديث جابر « من صلى ليلة الجمعة بين المغرب والعشاء اثنتي عشرة ركعة .. الحديث » باطل لا أصل له (٥) حديث أنس « من صلى ليلة الجمعة العشاء الآخرة في جماعة وصلى ركعتي السنة ثم صلى بعدها عشر ركعات .. الحديث » باطل لا أصل له وروى المظفر بن الحسين الأرجاني في كتاب فضائل القرآن ولما روى ابن المظفر في كتاب وصول القرآن للبيت من حديث أنس « من صلى ركعتين ليلة الجمعة قرأ فيهما بفاتحة الكتاب ولذا زلزلت خمس عشرة مرة » وقال إبراهيم بن المظفر « حين مرة آمنه الله من عذاب القبر ومن أهوال يوم القيامة » ورواه أبو منصور الديلمي في مسند المرادوس من هذا الوجه ومن حديث ابن عباس أيضاً وكلها ضعيفة منسكرة وليس يصح في أيام الأسبوع واليا فيه شيء والله أعلم (٦) حديث « أكثروا على من الصلاة في الليلة الغراء واليوم الأزهري » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة وفيه عبد المنعم بن بشير ضعيف ابن معين وابن حبان (٧) حديث أنس « من صلى ليلة السبت بين المغرب والعشاء اثنتي عشرة ركعة .. الحديث » لم أجد له أصلا

الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً لا إله إلا الله وحده لا شريك له مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ، يفتتح بالتكبير ليلة الفطر إلى الشروع في صلاة العيد ، وفي العيد الثاني يفتتح بالتكبير عقيب الصبح يوم عرفة إلى آخر النهار يوم الثالث عشر ، وهذا أكمل الأفاويل . ويكبر عقيب الصلوات المفروضة وعقيب النوافل وهو عقيب الفرائض أكد : الثاني : إذا أصبح يوم العيد يغتسل ويتزين ويتطيب كما ذكرناه في الجمعة والرداء والعمامة هو الأفضل للرجال ، وليجنب الصبيان الحرير والعجائر التي عند الخروج . الثالث : أن يخرج من طريق ويرجع من طريق آخر ^(١) هكذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان صلى الله عليه وسلم يأمر بإخراج العواتق وذوات الخدور ^(٢) . الرابع : المستحب الخروج إلى الصحراء إلا بمكة وبيت المقدس ، فإن كان يوم مطر فلا بأس بالصلاة في المسجد ، ويجوز في يوم الصحوا أن يأمر الإمام رجلاً يصلي بالضعفة في المسجد ويخرج بالأقوياء مكبرين . الخامس : يراعى الوقت فوق صلاة العيد ما بين طلوع الشمس إلى الزوال . ووقت الذبح للضحايا ما بين ارتفاع الشمس بقدر خطبتين وركعتين إلى آخر اليوم الثالث عشر ويستحب تعجيل صلاة الأضحية لأجل الذبح وتأخير صلاة الفطر لأجل تفريق صدقة الفطر قبلها . هذه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٣) . السادس : في كيفية الصلاة فليخرج الناس مكبرين في الطريق . وإذا بلغ الإمام المصلي لم يجلس ولم يتنفل ويقطع الناس التنفل . ثم ينادى مناد : الصلاة جامعة . ويصلي الإمام بهم ركعتين يكبر في الأولى سوى تكبيرة الإحرام والركوع سبع تكبيرات يقول بين كل تكبيرتين « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » ويقول « وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض » عقيب تكبيرة الافتتاح ويؤحر الاستعاذة إلى ما وراء الثامنة ويقرأ سورة ق ، في الأولى بعد الفاتحة « واقتربت » في الثانية . والتكبيرات الزائدة في الثانية خمس سوى تكبيرتي القيام والركوع . وبين كل تكبيرتين ما ذكرناه . ثم يخطف خطبتين بينهما جلسة ومن فاتته صلاة العيد قضائها ، السابع : أن يضحى بكبش « ضحى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكبشين أملحين وذبح بيده وقال « بسم الله والله أكبر هذا عني وعن من لم يضح من أمتي ^(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم : « من رأى هلال ذي الحجة وأراد أن يضحى فلا يأخذ من شعره ولا من أظفاره شيئاً ^(٥) » قال أبو أيوب الأنصاري : كان الرجل يضحى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشاة عن أهل بيته يأكلون ويطعمون ^(٦) . وله أن يأكل من الضحية بعد ثلاثة أيام فما هو ، وردت فيه الرخصة بعد الهوى عنه وقال سفيان الثوري : يستحب أن يصلي بعد عيد الفطر اثنتي عشرة ركعة وبعد عيد الأضحية ست ركعات ^(٧) وقال هو من السنة (الثانية) التراويح : وهي عشرون ركعة

- (١) حديث « الخروج في طريق والرجوع في أخرى » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة
- (٢) حديث « كان يأمر بإخراج العواتق وذوات الخدور » متفق عليه من حديث أم عطية
- (٣) حديث « تعجيل صلاة الأضحية وتأخير صلاة الفطر » أخرجه الشافعي من رواية أبي الحويرث مرسل أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إلى عمرو بن حرم وهو بجزيرة أن يحل الأضحية وأحر الفطر
- (٤) حديث « ضحى بكبشين أملحين وذبح بيده وقال . سم الله والله أكبر هذا عني وعن من لم يضح من أمتي » متفق عليه دون قوله « عني » الخ من حديث أس وهدمة الزيادة عند أبي داود والترمذي من حديث حار وقال الترمذي عريب ومنقطع .
- (٥) حديث « من رأى هلال ذي الحجة وأراد أن يضحى فلا يأخذ من شعره وأظفاره » أخرجه من حديث أم سلمة .
- (٦) حديث أبي أيوب « كان الرجل يضحى على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الشاة عن أهله فيأكلون ويطعمون » أخرجه الترمذي وابن ماجه قال الترمذي حسن صحيح (٧) قال سفيان الثوري : من السنة أن يصلي بعد الفطر اثنتي عشرة ركعة وبعد الأضحية ست ركعات . لم أجده أصلاً في كونه سنة وفي الحديث الصحيح ما يخالفه وهو أنه صلى الله عليه وسلم لم يصل قبلها ولا بعدها وقد اختلفوا في قول النابغى : من السنة كذا ، وأما قول تابعي التابع كذا كالثوري فهو مقطوع .

وكيفيتها مشهورة وهي سنة مؤكدة وإن كانت دون العيدين واختلعا في أن الجماعة فيها أفضل أم الانفراد ؟ وقد حرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها ليلتين أو ثلاثا للجماعة ثم لم يخرج وقال « أخاف أن توحب عليكم ^(١) » ، وجمع عمر رضي الله عنه الناس عليها في الجماعة حيث أمن من الوجوب بانتطاق الوحي ؛ فقيل إن الجماعة أفضل لفعل عمر رضي الله عنه ولأن الاجتماع بركة وله فضيلة بدليل الفرائض ولأنه ربما يكسل في الانفراد ويذشط عند مشاهدة الجمع . وقيل الانفراد أفضل لأن هذه سنة ليست من الشعائر كالعيدين فإلحاقها بصلاة الضحى ونحية المسجد أولى ولم تشرع فيها جماعة . وقد جرت العادة بأن يدخل المسجد جمع معا ثم لم يصلوا التحية بالجماعة ولقوله صلى الله عليه وسلم « فضل صلاة التطوع في بيته على صلاته في المسجد كفضل صلاة المكتوبة في المسجد على صلاته في البيت ^(٢) » ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال « صلاة في مسجدي هذا أفضل من مائة صلاة في غيره من المساجد وصلاة في المسجد الحرام أفضل من ألف صلاة في مسجدي ، وأفضل من ذلك كله رجل يصلي في زاوية بيته ركعتين لا يعلمها إلا الله عز وجل ^(٣) » ، وهذا لأن الرياء والتصنع ربما يتطرق إليه في الجمع ويأمن منه في الوحدة فهذا ما قيل فيه . والمختار أن الجماعة أفضل كما رآه عمر رضي الله عنه . فإن بعض النوافل قد شرعت فيها الجماعة وهذا جدير بأن يكون من الشعائر التي تطهر . وأما الالتفات إلى الرياء في الجمع والكسل في الانفراد عدول عن مقصود النظر في فضلة الجمع من حيث إنه جماعة ، وكان قائله يقول : الصلاة خير من تركها بالكسل والإخلاص خير من الرياء . فلنفرض المسألة فبمن يثق بنفسه أنه لا يكسل لو انفرد ولا يرائي لو حضر الجمع فأيهما أفضل له ؟ فيدور النظر بين بركة الجمع وبين مزيد قوة الإخلاص وحضور القلب في الوحدة ، فيجوز أن يكون في تفضيل أحدهما على الآخر تردد وبما يستحب القنوت في الوتر في النصف الأخير من رمضان . أما صلاة رجب : فقد روى بإسناد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما من أحد يصوم أول خميس من رجب ثم يصلي فيما بين العشاء والعتمة اثنتي عشرة ركعة يفصل بين كل ركعتين بتسليمة يقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب مرة وإنا أنزلناه في ليلة القدر ثلاث مرات وقل هو الله أحد اثنتي عشرة مرة ، فإذا فرغ من صلاته صلى على سبعين مرة يقول : اللهم صل على محمد النبي الأمي وعلى آله ثم يسجد ويقول في سجوده سبعين مرة : سبح قدوس رب الملائكة والروح ، ثم يرفع رأسه ويقول سبعين مرة : رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم إنك أنت الأعز الأكرم ، ثم يسجد بسجدة أخرى ويقول فيها مثل ما قال في السجدة الأولى ثم يسأل حاجته في سجوده فإمها تقضى ^(٤) » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يصلي أحد هذه الصلاة إلا غفر

(١) حديث « ح وحه لقيام رمضان ليلتين أو ثلاثا ثم لم يخرج وقال أحاف أن يوحب عليكم » متفق عليه من حديث عائشة بلهظ « حشيت أن تفرص عليكم » (٢) حديث « فضل صلاة التطوع في بيته على صلاته في المسجد كفضل صلاة المكتوبة في المسجد على صلاته في البيت » رواه آدم بن أبي إياس في كتاب القنوت من حديث ضمرة بن حبيب مرسل ورواه ابن أبي شيبة في المصنف فعله عن سمرة بن حبيب عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم موثوقا . وفي سنن أبي داود بإسناد صحيح من حديث زيد بن ثابت صلاة المرء في بيته أفضل من صلاته في مسجدي هذا إلا المكتوبة

(٣) حديث « صلاة في مسجدي هذا أفضل من مائة صلاة في غيره وصلاة في المسجد الحرام أفضل من ألف صلاة في مسجدي وأفضل من هذا كله رجل يصلي ركعتين في زاوية بيته لا يعلمها إلا الله » أخرجه أبو الشيخ في الثواب من حديث أنس « صلاة في مسجدي تعمل عشرة آلاف صلاة وصلاة في المسجد الحرام تعدل بمائة ألف صلاة والصلاة بأرض الرباط تعدل بألف صلاة وأكثر من ذلك كله الركعتان يصليهما المدي في جوف الليل لا يريد بهما إلا وجه الله عز وجل » وإسناده ضعيف وذكر أبو الوليد الصغاري في كتاب الصلاة تعليقا من حديث الأوراعي قال : سحلت على محبي وأسند لي حديثنا فذكره ، لإلا أنه قال في الأولى « أم » وفي الثانية « مائة » (٤) حديث « ما من أحد يصوم أول خميس من رجب ... الحديث » في صلاة الرغائب أورده رزيق في كتابه وهو حديث موصوع

الله تعالى له جميع ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر وعدد الرمل ووزن الجبال وورق الأشجار ويشفع يوم القيامة في سبعمائة من أهل بيته عن قد استوجب النار ، فهذه صلاة مستحبة ، وإنما أوردناها في هذا القسم لأنها تتكرر بتكرار السنين وإن كانت رتبها لا تبلغ رتبة التراويح وصلاة العيد لأن هذه الصلاة تنقلها الآحاد ، ولكي رأيت أهل القدس بأجمعهم يواظبون عليها ولا يسمعون بتركها فأحببت ليرادها . وأما صلاة شعبان : فليلة الخامس عشر منه يصلى مائة ركعة كل ركعتين بتسليمة يقرأ في كل ركعة بعد الفاتحة قل هو الله أحد إحدى عشرة مرة ، وإن شاء صلى عشر ركعات يقرأ في كل ركعة بعد الفاتحة مائة مرة قل هو الله أحد ، فهذا أيضا مروى في جملة الصلوات كان السلف يصلون هذه الصلاة ويسمونها صلاة الخير ويجتمعون فيها وربما صلوا جماعة . روى عن الحسن أنه قال : حدثني ثلاثون من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن من صلى هذه الصلاة في هذه الليلة نظر الله إليه سبعين نظرة وقضى له بكل نظرة سبعين حاجة أدناها المغفرة (١)

القسم الرابع من النوافل : ما يتعلق بأسباب عارضة ولا يتعلق بالمواعيت وهي تسعة

صلاة الخسوف والكسوف والاستسقاء وتحية المسجد وركعتي الرضوء وركعتين بين الأذان والإقامة وركعتين عند الخروج من المنزل والدخول فيه . ونظائر ذلك فذكر منها ما يحضرنا الآن (الأولى) صلاة الخسوف : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يحسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله والصلاة (٢) » ، قال ذلك لما مات ولده إبراهيم صلى الله عليه وسلم وكسفت الشمس فقال الناس : إنما كسفت لموته . والنظر في كيفية وقوعها ، أما الكيفية : فإذا كسفت الشمس في وقت الصلاة فيه مكروهة أو غير مكروهة نودى « الصلاة جامعة » ، وصلى الإمام بالناس في المسجد ركعتين وركع في كل ركعة ركوعين أو ثلثهما أطول من أواخرهما . ولا يجهر فيقرأ في الأولى من قيام الركعة الأولى الفاتحة والبقرة ؛ وفي الثانية الفاتحة وآل عمران ، وفي الثالثة الفاتحة وسورة النساء ، وفي الرابعة الفاتحة وسورة المائدة ، أو مقدار ذلك من القرآن من حيث أراد ، ولو اقتصر على الفاتحة في كل قيام أجزاء ولو اقتصر على سور قصار فلا بأس . ومقصود التطويل دوام الصلاة إلى الإنجلاء . ويسبح في الركوع الأول قدر مائة آية ، وفي الثاني قدر ثمانين ، وفي الثالث قدر سبعين ، وفي الرابع قدر خمسين . وليكن السجود على قدر الركوع في كل ركعة . ثم يخطف خطبتين بعد الصلاة بينهما جلسة ويأمر الناس بالصدقة والعتق والتوبة . وكذلك يفعل بخسوف القمر إلا أنه يجهر فيها لأنها ليلية . فأما وقتها فعند ابتداء الكسوف إلى تمام الانجلاء ويخرج وقتها بأن تغرب الشمس كاسفة . وتفوت صلاة خسوف القمر بأن يطلع قرص الشمس إذ يبطل سلطان الليل ولا تفوت بغروب الزمر خاسفا لأن الليل كله سلطان القمر ، فان انجلى في أثناء الصلاة أممها مخففة . ومن أدرك الركوع الثاني مع الإمام فقد فاتته تلك الركعة لأن الأصل هو الركوع الأول (الثانية) صلاة الاستسقاء : فإذا غارت الأنهار وانقطعت الأمطار أو إنهارت قناة فيستحب للإمام أن يأمر الناس أولا بصيام ثلاثة أيام وما أطاؤوا من الصدقة والخروج من المظالم والتوبة من المعاصي ، ثم يخرج بهم في اليوم الرابع والمعجزات والصبيان متنظفين في ثياب بذلة واستكانة متواضعين - بخلاف العيد - وقيل يستحب

(١) حديث « صلاة ليلة نصف شعبان » حديث باطل رواه ابن ماجه من حديث علي « إذا كانت ليلة نصف من شعبان فقوموا ليلها وصوروا نهارها » وأسناده ضعيف (٢) حديث « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله .. الحديث » أخرجه من حديث المنيرة بن شعبة

إخراج الدواب لمشاركتها في الحاجة ولقوله صلى الله عليه وسلم « لولا صبيان رضع ومشايخ ركع وبهائم رتع لصب عليكم العذاب صبا »^(١) ، ولو حرج أهل الذمة أيضا متميزين لم يمنعوا فإذا اجتمعوا في المصلى الواصل من الصحراء نودي « الصلاة جامعة » فصلى بهم الامام ركعتين مثل صلاة العيد - بغير تكبير - ثم يخطب خطبتين وبينهما حلقة خفيفة ، وليكن الاستغفار معظم الخطبتين ، وينبغي في وسط الخطبة الثانية ، أن يستدبر الناس ويستقبل القبلة ويحول رداءه في هذه الساعة تفاهولا بتحويل الحال^(٢) . هكذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجعل أعلاه أسفله وما على اليمن على الشمال وما على الشمال على اليمن . وكذلك يفعل الناس ويدعون في هذه الساعة سرا ، ثم يستقبلهم فيختم الخطبة ويدعون أردبتهم محولة كما هي حتى ينزعوها متى نزعوا الشيا . ويقول في الدعاء : اللهم إنك أمرتنا بدعائك ووعدتنا إجابةك فقد دعوناك كما أمرتنا فأجبنا كما وعدتنا اللهم فامنن علينا بمغفرة ما قارفنا وإحابتك في سقيانا وسعة أرزاقنا . ولا بأس بالدعاء أدبار الصلوات في الأيام الثلاثة قبل الخروج ولهذا الدعاء آداب وشروط باطنة من التوبة ورد المظالم وغيرها ، وسيأتي ذلك في كتاب الدعوات (الثالثة) صلاة الخنازير : وكيفيتها مشهورة وأجمع دعاء مأثور ماروى في الصحيح عن عوف بن مالك قال « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى على حنزة فحفظت من دعائه : اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه وأكرم نزله ووسع مدخله واغسله بالماء والثلج والبرد ونقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس وأبدله داراً خيراً من داره وأهلاً خيراً من أهله وزوجاً خيراً من زوجه وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر ومن عذاب النار »^(٣) ، حتى قال عوف : تمتيت أن أكون أنا ذلك الميت . ومن أدرك التكبير الثانية فينبغي أن يراعى ترتيب الصلاة في نفسه ويكبر مع تكبيرات الإمام فإذا سلم الإمام قضى تكبيره الذي فات كفعل المسبوق ، وإنه لو بادر التكبيرات لم تبق للقدوة في هذه الصلاة معنى ، فالتكبيرات هي الأركان الظاهرة ، وجدير بأن تقام مقام الركعات في سائر الصلوات ، هذا هو الأوجه عندي وإن كان غيره محتملاً . والأخبار الواردة في فضل صلاة الجنائز وتشجيعها مشهورة فلا نطيل بإيرادها ، وكيف لا يعظم فضلها وهي من فرائض الكفایات ؟ وإنما تصير نفلا في حق من لم تتعين عليه بحضور غيره ، ثم يال بها فضل فرض الكفایة وإن لم يتعين لأنهم بجملتهم قاموا بما هو فرض الكفایة وأسقطوا الحرج عن غيرهم ، فلا يكون ذلك كفعل لا يسقط به فرض عن أحد ، ويستحب طلب كثرة الجمع تبركا بكثرة المهتم والأدعية واشتبهه على ذي دعوة مستجابة لما روى كريب عن ابن عباس : أنه مات له ابن فقال : يا كريب أنظر ما احتتمع له من الناس قال : فخرجت فإذا ناس قد اجتمعوا له فأخبرته فقال : تقول هم أربعون قلت : نعم ، قال : أخرجوه فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلا لا يشركون بالله شيئا إلا شفعم الله عز وجل فيه »^(٤) ، وإذا شيع الجنائز فوصل المقابر أو دخلها ابتداء قال : السلام عليكم أهل هذه الديار من المؤمنين والمسلمين ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون . والأولى أن لا ينصرف حتى يدفن الميت فإذا سوى على الميت قبره قام عليه وقال : اللهم عبدك رد اليك فأرف به وارحمه اللهم جاف الأرض عن جنبيه وافتح أبواب السماء لروحه وتقبله منك بقول حس اللهم

(١) حديث « لولا صبيان رضع ومشايخ ركع .. الحديث » أخرجه البيهقي وضعه من حديث أبي هريرة (٢) حديث « استدبر الناس واستقبل القبلة وتحول الرداء بالاستسقاء » أخرجه من حديث عبد الله بن زيد المارني (٣) حديث عوف بن مالك في الصلاة على الجنائز « اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه .. الحديث » أخرجه مسلم دون الدعاء للمصلى (٤) حديث ابن عباس « ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون .. الحديث » أخرجه مسلم

إن كان محسناً فضعف له في إحسانه وإن كان مسيئاً فتجاوز عنه (الرابعة) تحية المسجد : ركعتان فصاعداً سنة مؤكدة حتى أنها لا تسقط وإن كان الإمام يخطب يوم الجمعة مع تؤكد وجوب الإصغاء إلى الخطيب . وإن اشتغل بفرص أو قضاء بأدى به التحية وحصل الفضل إذ المقصود أن لا يحلوا ابتداء دخوله عن العبادة الخاصة بالمسجد قياماً بحق المسجد . ولهذا يكره أن يدخل المسجد على غير وضوء فإن دخل لعبور أو جلوس فليقل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، يقولها أربع مرات يقال إنها عدل ركعتين في الفضل . ومذهب الشافعي رحمه الله أنه لا تكره التحية في أوقات الكراهية : وهي بعد العصر وبعد الصبح ووقت الزوال ووقت الطلوع والغروب ، لما روى أنه صلى الله عليه وسلم صلى ركعتين بعد العصر فقبل له أما نهيتنا عن هذا ؟ فقال : هما ركعتان كنت أصليهما بعد الظهر فتشغلتني عنهما الوعد^(١) ، فأفاد هذا الحديث فأنه يتبين لإحداهما ؛ أن الكراهية مقصورة على صلاة لاسبب لها ومن أضعف الأسباب قضاء النوافل إذ اختلف العلماء في أن النوافل هل تقضى وإذا فعل مثل ما هاته هل يكون قضاء ؟ وإذا انتفت الكراهية بأضعف الأسباب فبأحرى أن تنتفي بدخول المسجد وهو سبب قوي . ولذلك لا تكره صلاة الجنائز إذ حضرت ولا صلاة الخسوف والاستسقاء في هذه الأوقات لأن لها أسباباً . الفائدة الثانية : قضاء النوافل إذا قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ولنا فيه أسوة حسنة . وقالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غلبه نوم أو مرض فلم يقم تلك الليلة صلى من أول النهار اثنتي عشرة ركعة^(٢) ، وقد قال العلماء : من كان في الصلاة ففاته جواب المؤذن فإذا سلم قضى وأجاب وإن كان المؤذن سكت ، ولا معنى الآن لقول من يقول : إن ذلك مثل الأول وليس يقضى ، إذ لو كان كذلك لما صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في وقت الكراهية . نعم من كان له ورد فعاقه عن ذلك عذر فينبغي أن لا يرخص لنفسه في تركه بل يتداركه في وقت آخر حتى لا تميل نفسه إلى الدعة والرفاهية . وتداركه حسن على سبيل مجاهدة النفس ولأنه صلى الله عليه وسلم قال : أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قل^(٣) ، فيقصد به أن لا يفتر في دوام عمله وروت عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : من عبد الله عز وجل بعبادة ثم تركها ملالة مقتته الله عز وجل^(٤) ، فليحذر أن يدخل تحت الوعيد . وتحقيق هذا الخبر . أنه مقتته الله تعالى بتركها ملالة فلولا المقت والإبعاد لما سلطت الملالة عليه (الخامسة) ركعتان بعد الوضوء مستحبتان لأن الوضوء قربة ومقصودها الصلاة والأحداث عارضة فربما يطرأ الحدث قبل صلاة فينتقض الوضوء ويضيع السعي فالمبادرة إلى ركعتين استيفاء لمقصود الوضوء قبل الفوات . وعرف ذلك بحديث بلال إذ قال صلى الله عليه وسلم : دخلت الجنة فرأيت بلالاً فيها فقلت لبلال بم سبقتني إلى الجنة ؟ فقال بلال لا أعرف شيئاً إلا أني لا أحدث وضوءاً إلا أصلي عقبه ركعتين^(٥) ، (السادسة) ركعتان عند دخول المنزل وعند الخروج منه : روى أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا خرجت من منزلك فصل ركعتين يمنعانك من خروج السوء وإذا دخلت إلى منزلك فصل ركعتين

(١) حديث « صلى ركعتين بعد العصر قبل له أما نهيتنا عن هذا فقال هما ركعتان كنت أصليهما بعد الظهر ... الحديث »

أخرجه من حديث أم سلمة وأسلم من حديث عائشة « كان يصلي ركعتين قبل العصر ثم انه شغل عنهما .. الحديث »

(٢) حديث عائشة « كان إذا غلبه نوم أو مرض فلم يقم تلك الليلة .. الحديث » أخرجه مسلم (٣) حديث « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » أخرجه من حديث عائشة (٤) حديث عائشة « من عبد الله عز وجل بعبادة ثم تركها ملالة مقتته الله » ورواه

ابن السني في رياضة المتعبدين موقوفاً على عائشة (٤) حديث « دخلت الجنة ورأيت بلالاً فيها فقلت يا بلال بم سبقتني إلى الجنة .

الحديث » أخرجه من حديث أبي هريرة

يمنعناك مدخل السوء^(١) ، وفي معنى هذا كل أمر يتبدأ به مما له وقع، ولذلك ورد ركعتان عند الإحرام^(٢) وركعتان عند ابتداء السفر^(٣) وركعتان عند الرجوع من السفر^(٤) في المسجد قبل دخول البيت فكل ذلك مأثور من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان بعض الصالحين إذا أكل أكلة صلى ركعتين وإذا شرب شربة صلى ركعتين ، وكذلك في كل أمر يحدثه . وبداية الأمور ينبغي أن يتبرك فيها بذكر الله عز وجل وهي على ثلاث مراتب : بعضها يتكرر مراراً كالأكل والشرب فيبدأ فيه باسم الله عز وجل وقال صلى الله عليه وسلم « كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أبت^(٥) » ، الثانية : ما لا يكثر تكرره وله وقع كعقد النكاح وابتداء النصيحة والمشورة فالمستحب فيها أن يصدر بحمد الله فيقول المزوج « الحمد لله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجتك ابنتي ، ويقول القابل « الحمد لله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلت النكاح ، وكانت عادة الصحابة رضي الله عنهم في ابتداء أداء الرسالة والنصيحة والمشورة تقديم التحميد . الثالثة : ما لا يتكرر كثيراً وإذا وقع دام وكان له وقع كالسفر وشراء دار جديدة والاحرام وما يجري مجراه فيستحب تقديم ركعتين عليه وأداء الخروج من المنزل والدخول إليه فإنه نوع سفر قريب (السابعة) صلاة الاستخارة : فمن أمر وكان لا يدري عاقبته ولا يعرف أن الخير في تركه أو في الإقدام عليه فقد أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم « بأن يصلي ركعتين يقرأ في الأولى فاتحة الكتاب وقل يا أيها الكافرون ، وفي الثانية الفاتحة وقل هو الله أحد ، فإذا فرغ دعا وقال اللهم إنى أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ودنياي وعاقبة أمري وعاجله وآجله فاقدره لي وبارك لي فيه ثم يسره لي وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ودنياي وعاقبة أمري وعاجله وآجله فاصرفني عنه واصرفه عني واقدر لي الخير أينما كان إنك على كل شيء قدير^(٦) » ، رواه جابر بن عبد الله قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا هم أحدكم بأمر فليصل ركعتين ثم ليسم الأمر ويدعو بما ذكرناه ، وقال بعض الحكماء من أعطى أربعاً لم يمنع أربعاً ، من أعطى الشكر لم يمنع المزيد ومن أعطى التوبة لم يمنع القبول ومن أعطى الاستخارة لم يمنع الخيرة ومن أعطى المشورة لم يمنع الصواب (الثامنة) صلاة الحاجة^(٧) فنضاق عليه الأمر ومستته حاجة في صلاح دينه ودنياه إلى أمر تعذر عليه فليصل هذه الصلاة فقد روى عن وهيب بن الورد أنه قال : إن من الدعاء الذي لا يردان يصلي العبد ثلثي عشرة ركعة يقرأ في كل ركعة

(١) حديث أبي هريرة « إذا خرجت من منزلك فصل ركعتين يمنعاك مخرج السوء ، وإذا دخلت منزلك . . الحديث » أخرجه البيهقي في الشعب من رواية بسكر بن عمرو عن صفوان بن سليم ، قال « كرحبته عن أبي سلمة عن أبي هريرة ذكره : وروى الحارثي في مكارم الأخلاق وابن عدي في الكامل من حديث أبي هريرة « إذا دخل أحدكم بيته فلا يجلس حتى يركع ركعتين فإن الله جاعل له من ركعتيه خيراً » قال ابن عدي . وهو بهذا الإسناد منكروا وقال البخاري لأصله (٢) حديث « ركعتي الإحرام » أخرجه البخاري من حديث ابن عمر (٣) حديث « صلاة ركعتين عند ابتداء السفر » أخرجه الحارثي و مكارم الأخلاق من حديث أنس « ما استخلف في أهل من خليفة أحب إلى الله من أربع ركعات يصلهن العبد في بيته إذا شد عليه نيات سمره . . الحديث » وهو ضعيف (٤) حديث « الركعتين عند القدوم من السفر » أخرجه من حديث كعب بن مالك (٥) حديث « كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بسم الله فهو أبت^(٥) » أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن جابر في صحيحه من حديث أبي هريرة (٦) حديث « صلاة الاستخارة » أخرجه البخاري من حديث جابر قال أحمد حديث منكروا (٦) حديث ابن مسعود « في صلاة الحاجة اثنتي عشرة ركعة » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس ناسدين صغيرين جدا فهما عمرو بن هارون البليخي كسبه ابن معين وفيه علة أخرى وقد وردت « صلاة الحاجة ركعتين » رواه الترمذي وابن ماجه من حديث عبد الله بن أبي أوفى وقال الترمذي حديث غريب وفي إسناده مقال

بأم الكتاب وآية الكرسي وقل هو الله أحد فإذا فرغ ختر ساجدا ثم قال « سبحان الذي ليس العز وقال به سبحان الذي تعطف بالمجد وتكرم به سبحان الذي أحصى كل شيء بعلمه سبحان الذي لا ينبغي التسييح لإلاله سبحان ذي المن والفضل سبحان ذي العز والكرم سبحان ذي الطول أسألك بمعاقد العز من عرشك ومنتهى الرحمة من كتابك وباسمك الأعظم وحدك الأعلى وكتابك النامات العامات التي لا يجاوزهن رولا فأحر أن تصلى على محمد وعلى آل محمد ، ثم سأل حاجته التي لا معصية فيها فيجاب إن شاء الله عز وجل . قال وهيب : بلغنا أنه كان يقال : لا تعلموها لسفهائكم فتعاونون بها على معصية الله عز وجل (التاسعة) صلاة التسييح : وهذه الصلاة مأتورة على وجهها ولا تختص بوقت ولا بسبب ويستحب أن لا يحلو الأسبوع عنها مرة واحدة أو الشهر مرة . فقد روى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما ، أنه صلى الله عليه وسلم قال للعباس بن عبد المطلب : ألا أعطيك ألا أمنحك ألا أحبوك بشيء إذا أنت فعلته غفر الله لك ذنبك أوله وآخره قديمه وحديثه خطأه وعمده سره وعلايته تصلى أربع ركعات تقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة ، فإذا فرغت من القراءة في أول ركعة وأنت قائم تقول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . خمس عشرة مرة ثم تركب فتقولها وأنت راكع عشر مرات ، ثم ترفع من الركوع فتقولها قائما عشرا ، ثم تسجد فتقولها عشرا ، ثم ترفع من السجود فتقولها حالسا عشرا ، ثم تسجد فتقولها وأنت ساجد عشرا ، ثم ترفع من السجود فتقولها عشرا ، فذلك خمس وسبعون في كل ركعة تفعل ذلك في أربع ركعات إن استطعت أن تصلها في كل يوم مرة فافعل فإن لم تفعل في كل جمعة مرة فإن لم تفعل في كل شهر مرة فإن لم تفعل في السنة مرة (١) ، وفي رواية أخرى « أنه يقول في أول الصلاة سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك وقدسدت أسماءك ولا إله غيرك ، ثم يسبح خمس عشرة تسبيحة قبل القراءة وعشرا بعد القراءة والباقي كما سبق عشرا وعشرا ولا يسبح بعد السجود الأخير قاعدا ، وهذا هو الأحسن وهو اختيار ابن المبارك . والمجموع من الروايتين ثلاثمائة تسبيحة فإن صلاها نهارا فبنسليمة واحدة وإن صلاها ليلا فبنسليمتين أحسن ؛ إذ ورد . أن صلاة الليل مثنى مثنى (٢) ، وإن زاد بعد التسييح قوله ، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، فهو حسن فقد ورد ذلك في بعض الروايات وهذه الصلوات المأتورة . ولا يستحب شيء من هذه النوافل في الأوقات المكروهة إلا تحية المسجد « وما أوردناه بعد التحية من ركعتي الوضوء وصلاة السفر والخروج من المنزل والاستخار فلا لأن الهى مؤكدا وهذه الأسباب ضعيفة فلا تبلغ درجته الخسوف والاستسقاء والتحية . وقد رأيت بعض المنصوفة يصل في الأوقات المكروهة ركعتي الوضوء وهو في غاية البعد لأن الوضوء لا يكون سببا للصلاة بل الصلاة سبب الوضوء . فينبغي أن يتوضأ ليصل لأنه يصل لأنه يتوضأ . وكل محدث يريد أن يصل في وقت الكراهية فلا سبيل له إلا أن يتوضأ ويصل فلا يبقى للكراهية معنى . ولا ينبغي أن ينوي ركعتي الوضوء كما ينوي ركعتي التحية بل إذا توضأ صلى ركعتين تطوعا كيلا يتعطل وضوءه كما كان يفعل بلال فهو تطوع محض يقع عقيب الوضوء . وحديث بلال لم يدل على أن الوضوء سبب للخسوف والتحية حتى ينوي ركعتي الوضوء فيستحيل أن ينوي بالصلاة الوضوء بل ينبغي أن ينوي بالوضوء الصلاة . وكيف ينتظم أن يقول في وضوئه أتوضأ للصلاة وفي صلاته يقول أصلى لوضوئي ، بل من أراد أن يحرس وضوءه عن التعطيل في وقت الكراهية فلينبو قضاء إن كان يجوز أن يكون في ذمته صلاة تطرق إليها خلل لسبب من الأسباب فإن قضاء الصلوات في أوقات الكراهية غير مكروه « فأمانية التطوع فلا وجه لها . ففي النهى في أوقات الكراهية مهمات ثلاثة

(١) حديث « صلاة التسييح » تقدم (٢) حديث « صلاة الليل مثنى مثنى » أخرجه من حديث ابن عمر

أحدها التوقى من مضاهاة عبدة الشمس ، والثانى : الاحتراز من انتشار الشياطين إذ قال صلى الله عليه وسلم « إن الشمس لتطلع ومعها قرن الشيطان فإذا طلعت قارنها وإذا ارتفعت فارقتها فإن استوت قارنها فإذا زالت فارقتها فإذا تضيفت للغروب قارنها فإذا غربت فارقتها » ونهى عن الصلوات فى هذه الأوقات ونبه به على العلة ، والثالث : أن سالكى طريق الآخرة لا يزالون يواظبون على الصلوات فى جميع الأوقات . والمواظبة على نمط واحد من العبادات يورث الملل . ومهما منع منها ساعة زاد النشاط وانبعثت الدواعى ، والإنسان حريص على ما منع منه فى تعطيل هذه الأوقات زيادة تحريض وبعث على انتظار انقضاء الوقت ، نقصت هذه الأوقات بالتسييح والاستغفار حذرا من الملل بالمداومة وتفرجا بالانتقال من نوع عبادة إلى نوع آخر . فى الاستطراف والاستجداد لذة ونشاط وفى الاستمرار على شىء واحد استئقال وملال . ولذلك لم تكن الصلاة بمجردا مجردا ولا ركوعا مجردا ولا قياما مجردا بل رتبت العبادات من أعمال مختلفة وأذكار متباينة ، فإن القلب يدرك من كل عمل منهما لذة جديدة عند الانتقال إليها ولو واطب على الشىء الواحد لتسارع إليه الملل . فإذا كانت هذه أمور مهمة فى النهى عن ارتكاب أوقات الكراهة إلى غير ذلك من أسرار آخر ليس فى قوة البشر الاطلاع عليها والله ورسوله أعلم بها . فهذه المهمات لا تترك إلا بأسباب مهمة فى الشرع مثل قضاء الصلوات وصلاة الاستسقاء والخسوف وتحية المسجد . فأما ما ضحف عنها فلا ينبغى أن يصادم به مقصود النهى . هذا هو الأوجه عندنا والله أعلم .

كامل كتاب : أسرار الصلاة من كتاب إحياء علوم الدين يتلوه إن شاء الله كتاب أسرار الزكاة بحمد الله وعونه وحسن توفيقه . والحمد لله وحده وصلاته على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

كتاب أسرار الزكاة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذى أسعد وأشقى وأمات وأحيا وأضحك وأبكى وأوجد وأفنى وأفقر وأغنى وأضر وأقنى الذى خلق الحيوان من نطفة تبنى ، ثم تفرد عن الخلق بوصف الغنى ، ثم خصص بعض عبادته بالحسنى فأفاض عليهم من نعمة ما ليس به من شاء واستغنى وأحوج إليه من أخفق فى رزقه وأكدى إظهارا لامتحان والابتلا . ثم جعل الزكاة للدين أساسا ومنى وبين أن الفضله تزكى من عباده من تزكى ومن غناه زكى ماله من زكى والصلاة على محمد المصطفى سيد الورى وشمس الهدى وعلى آله وأصحابه المخصوصين بالعلم والتقى .

أما بعد : فإن الله تعالى جعل الزكاة لإحدى مباني الإسلام وأردف بذكرها الصلاة التى هى أعلى الأعلام فقال تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) وقال صلى الله عليه وسلم « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة (٢) ، وشدد الوعيد على المقصرين فيها فقال (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعبذاب أليم) ومعنى الإنفاق فى سبيل الله لإخراج حق الزكاة قال

(١) حديث « إن الشمس تطلع ومعها قرن الشيطان فإذا طلعت قارنها ... الحديث » أخرجه السائى من حديث عبد الله العنابى وهو مرسل ومالك هو الذى يقول عبد الله الصائى وروى فيه والصواب عبد الرحمن ولم ير النى صلى الله عليه وسلم

كتاب أسرار الزكاة

(٢) حديث « بنى الإسلام على خمس » أخرجاه من حديث ابن عمر

الأخنف بن قيس : كنت في نفر من قريش فمر أبو ذر فقال بشر السكانيين بكى في ظهورهم يخرج من جنوبهم وبكى في أفئاتهم يخرج من جباههم . وفي رواية أنه يوضع على حلبة ثدى أحدهم فيخرج من نفض كتفيه ويوضع على نفض كتفيه حتى يخرج من حمله ثديه ينزلزل . وقال أبو ذر : انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في ظل الكعبة فلما رأيته قال : هم الأخرسون ورب الكعبة فقلت ومن هم : قال : الأكثرون أموالا إلا من قال هكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليل ما هم ، ما من صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لا يؤدي زكاتها إلا جاءت بوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها كلها فغدت أخراما عادت عليه أولاهما حتى يقضى بين الناس^(١) ، وإذا كان هذا التشديد مخترجاً للصحيحين فقد صار من مهمات الدين الكشف عن أسرار الزكاة وشروطها الجليلة والخفية ومعانيها الظاهرة والباطنة مع الافتصار على ما لا يستغنى عن معرفته مؤدى الزكاة وقاضها وينكشف ذلك في أربعة فصول (الفصل الأول) في أنواع الزكاة وأسباب وجوبها (الثاني) آدابها وشروطها الباطنة والظاهرة (الثالث) في القاض وشروط استحقاقه وآداب قبضه (الرابع) في صدقة التطوع وفضلها

الفصل الأول : في أنواع الزكاة وأسباب وجوبها والزكوات باعتبار متعلقاتها ستة أنواع :
زكاة النعم والتقدين والتجارة وزكاة الركا والمعادن وزكاة المعشرات وزكاة العطر

النوع الأول : زكاة النعم

ولا تجب هذه الزكاة وغيرها إلا على حر مسلم . ولا يشترط البلوغ بل تجب في مال الصبي والمجنون هذا شرط من عليه . وأما المال فشروطه خمسة : أن يكون نفعاً سائمة باقية حولاً نصيباً كاملاً مملوكاً على الكمال (الشرط الأول) كونه نعماً فلا زكاة إلا في الإبل والبقر والغنم . أما الخيل والبغال والحمير والمتولد من بين الظباء والغنم فلا زكاة فيها (الثاني) السوم : فلا زكاة في معلوفة وإذا أسيمت في وقت وعلقت في وقت تظهر بذلك مؤنتها فلا زكاة فيها (الثالث) الحول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا زكاة في مال حتى يحول عليه الحول^(٢) » ويستثنى من هذا نتاج الحول (الرابع) كمال الملك والتصرف : فتجب الزكاة في الماشية المرهونة لأنه الذي حجر على نفسه فيه ولا تجب في الضال والمغصوب إلا إذا عاد بجميع ماله فيجب زكاة ماضى عند عوده ولو كان عليه دين يستغرق ماله فلا زكاة عليه فإنه ليس غنياً به إذ الغنى ما يفضل عن الحاجة . (الخامس) كمال النصاب .

أما الإبل فلا شيء فيها حتى تبلغ حمساً ففيها جذعة من الضأن والحذقة هي التي تكون في السنة الثانية ، أو ثنية من المعز وهي التي تكون في السنة الثالثة . وفي عشر شاتان ، وفي خمس عشرة ثلاث شياه . وفي عشرين أربع شياه . وفي خمس وعشرين بنت مخاض وهي التي في السنة الثانية ، فإن لم يكن في ماله بنت مخاض فابن لبون ذكر وهو الذي في السنة الثالثة يؤخذ إن كان قادراً على شرائها . وفي ست وثلاثين ابنة لبون . ثم إذا بلغت ستاً وأربعين ففيها حقة وهي التي في السنة الرابعة . فإذا صارت إحدى وستين ففيها جذعة وهي التي في السنة الخامسة ، فإذا صارت ستاً وسبعين ففيها بنتا لبون . فإذا صارت إحدى وتسعين ففيها حقتان . فإذا صارت إحدى وعشرين ومائة ففيها ثلاث بنات لبون . فإذا صارت مائة وثلاثين فقد استقر الحساب ؛ ففي كل خمسين حقة ، وفي كل أربعين بنت لبون .

(١) حديث أبي ذر « انتهيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو جالس في ظل الكعبة فلما رأيته قال : هم الأخرسون ورب الكعبة . الحديث » أخرجه مسلم والبخاري (٢) حديث « لا زكاة في مال حتى يحول عليه الحول » أخرجه أبو داود من حديث علي بإسناد جيد وابن ماجة من حديث عائمة بإسناد ضعيف

وأما البقر فلا شيء فيها حتى تبلغ ثلاثين ففيها تبيع وهو الذي في السنة الثانية . ثم في أربعين مسنة وهي التي في السنة الثالثة . ثم في ستين تبيعان . واستقر الحساب بعد ذلك . ففي كل أربعين مسنة . وفي كل ثلاثين تبيع .
وأما الغنم فلا زكاة فيها حتى تبلغ أربعين ففيها شاة جذعة من الضأن أو ثنية من المعز . ثم لاشيء فيها حتى تبلغ مائة وعشرين وواحدة ففيها شاتان . إلى مائتي شاة وواحدة ففيها ثلاث شياه إلى أربع مائة ففيها أربع شياه . ثم استقر الحساب في كل مائة شاة . وصدقة الخليطين كصدقة المالك الواحد في النصاب فإذا كان بين رجلين أربعون من الغنم ففيها شاة . وإن كان بين ثلاثة نفر مائة شاة وعشرون ففيها شاة واحدة . على جميعهم . وخططة الجوار خلطة الشيوخ ولكن يشترط أن يريحا معا ويسقيا معا ويحلبا معا ويسرحا معا ويكون المرعى معا ويكون إنزاء الفحل معا وأن يكونا جميعاً من أهل الزكاة ولا حكم للخلطة مع الذمي والمكاتب . ومهما نزل في واحب الإبل عن سن إلى سن فهو جائز ما لم يجاوز بنت مخاض في النزول . ولكن تضم إليه جبران السن لسنة واحدة شاتين أو عشرين درهما . ولستين أربع شياه أو أربعين درهما . وله أن يصعد في السن ما لم يجاوز الجذعة في الصعود ويأخذ الجبران من الساعين من بيت المال . ولا تؤخذ في الزكاة مريضة إذا كان بعض المال صحيحاً ولو واحدة . ويؤخذ من الكرائم كريمة ومن اللثام أثيمة . ولا يؤخذ من المال الأكولة ولا المناخض ولا الربا ولا الفحل ولا غراء المال .

النوع الثاني : زكاة المعشرات

فيجب العشر في كل مستنبت مقتات بلغ ثمانمائة من ولا شيء فيما دونها ولا في الفواكه والقطر ، ولكن في الحبوب التي تقتات وفي التمر والزبيب . ويعتبر أن تكون ثمانمائة من تمرأ أو زيبياً لأرطبا وعنبا ، ويخرج ذلك بعد التجفيف . ويكفل مال أحد الخليطين بمال الآخر في خلطة الشيوخ كالبستان المشترك بين ورثة لجميعهم ثمانمائة من من زبيب ، فيجب على جميعهم ثمانون منا من زبيب بقدر حصصهم . ولا يعتبر خلطة الجوار فيه . ولا يكفل نصاب الخلطة بالشعير . ويكفل نصاب الشعير بالسلت فإنه نوع منه ، هذا قدر الواجب إن كان يسقى بسبح أو قنارة فإن كان يسقى بنضح أو دالية فيجب نصف العشر ، فإن اجتمعا فالأغاب يعتمر . وأما صفة الواجب فالتمر والزبيب اليابس والحب اليابس بعد التنقية . ولا يؤخذ عنب ولا رطب إلا إذا حلت بالأشجار آفة وكانت المصلحة في قطعها قبل تمام الإدراك ، فيؤخذ الرطب ويكال تسعة للمالك وواحد للفقير . ولا يمنع من هذه القسمة قولنا : إن القسمة بيع ، بل يرخص في مثل هذا للحاجة . ووقت الوجوب أن يبدو الصلاح في الثمار وأن يشتد الحب . ووقت الأداء بعد الجفاف .

النوع الثالث : زكاة النقدين

فإذا تم الحول على وزن مائتي درهم بوزن مكة نقره خالصة ففيها خمسة دراهم ، وهو ربع العشر ، وما زاد محسابه ولو درهما . ونصاب الذهب عشرون مثقالاً خالصاً بوزن مكة ففيها ربع العشر ، وما زاد فحسابه ، وإن نقص من النصاب حبة فلا زكاة . وتجيب على من معه دراهم مغشوشة إذا كان فيها هذا المقدار من النقرة الخالصة . وتجيب الزكاة في التبر وفي الحلي المحظور كأواني الذهب والفضة ومراكب الذهب للرجال . ولا تجيب في الحلي المباح . وتجيب في الدين الذي هو على مليء . ولكن تجيب عند الاستيفاء وإن كان مؤجلاً فلا تجيب إلا عند حلول الأجل .

النوع الرابع : زكاة التجارة

وهى كزكاة التقدين ، وإنما ينعقد الحول من وقت ملك التقد الذى به اشترى البضاعة إن كان النقد نصاباً ؛ فإن كان ناقصاً أو اشترى لعرض على نية التجارة فالحول من وقت الشراء . وتؤدى الزكاة من نقد البلد وبه يقوم . فإن كان ما به الشراء نقداً وكان نصاباً كاملاً كان التقويم به أولى من نقد البلد . ومن نوى التجارة من مال قنية فلا ينعقد الحول بمجرد نيته حتى يشترى به شيئاً ومهما قطع نية التجارة قبل تمام الحول سقطت الزكاة . والأولى أن تؤدى زكاة تلك السنة ، وما كان من ربح فى السلعة فى آخر الحول وجبت الزكاة فيه بحول رأس المال ولم يستأنف له حولاً كما فى النتائج . وأموال الصياغة لا ينقطع حولها بالمبادلة الجارية بينهم كسائر التجارات وزكاة ربح مال القراض على العامل وإن كان قبل القسمة ؛ هذا هو الأقيس .

النوع الخامس : الركاى والمعدن

والركاى مال دفن فى الجاهلية ووجد فى أرض لم يجر عليها فى الإسلام ملك ، فعلى واجده فى الذهب والفضة منه الخمس والحول غير معتبر . والأولى أن لا يعتبر النصاب أيضاً لأن لإيجاب الخمس يؤكد شبهه بالقيمة . واعتباره أيضاً ليس ببعيد لأن مصرف الزكاة ولذلك يخصص على الصحيح بالتقدين .
وأما المعدن فلا زكاة فيما استخرج منها سوى الذهب والفضة ؛ ففيها بعد الطحن والتخليص ربع العشر على أصح القولين ، وعلى هذا يعتبر النصاب . وفى الحول قولان ، وفى قول : يجب الخمس ؛ فعلى هذا لا يعتبر . وفى النصاب قولان والأشبه - والعلم عند الله تعالى - أن يلحق فى قدر الواجب بزكاة التجارة فإنه نوع اكتساب . وفى الحول بالمعشرات فلا يعتبر لأنه عين الرفق ويعتبر النصاب بالمعشرات ، والاحتياط أن يخرج الخمس من القليل والكثير ، ومن عين التقدين أيضاً خروجاً عن شبهة هذه الاحتلافات فإنها ظنون قريبة من التعارض وحزم الفتوى فيها خطر لتعارض الاشتباه .

النوع السادس : فى صدقة الفطر

وهى واجبة - على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم - على كل مسلم فضل عن قوته وقوت من بقوته يوم الفطر وليلته صاع مما يقتات^(١) بصاع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو منوان وثلاث من ، يخرج من جنس قوته أو من أفضل منه . فإن اقتات بالحنطة لم يجز الشعير . وإن اقتات حبواً مختلفة اختار خيرها ومن أيها أخرج أجرأه . وقسمتها كقسمة زكاة الأموال فيجب فيها استيعاب الأصناف ولا يجوز لإخراج الدقيق والسويق . ويجب على الرجل المسلم فطرة زوجته وماليكة وأولاده وكل قريب هو فى نفقته أعنى من تجب عليه نفقته من الآباء والأمهات والأولاد . قال صلى الله عليه وسلم : أدوا صدقة الفطر عن تمونون^(٢) ، وتجب صدقة العبد المشترك على الشريكين ولا تجب صدقة العبد الكافر . وإن تبرعت الزوجة بالإخراج عن نفسها أجزاءها وللزوج الإخراج عنها دون إذنها . وإن فضل عنه ما يؤدى عن بعضهم أدى عن بعضهم ، وأولام بالتقديم من كانت نفقته أكد . وقد

(١) حديث « وجوب صدقة الفطر على كل مسلم » أخرجه من حديث ابن عمر قال « فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر من رمضان .. الحديث » (٢) حديث « أدوا زكاة الفطر عن تمونون » أخرجه القمارقطنى والبيهقى من حديث ابن عمر « أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بصدقة الفطر من الصنير والكبير والحمر والعبد من تمونون » قال البيهقى لسانه غير قوى

قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم نفقة الولد على نفقة الزوجة ونفقتها على نفقة الخادم^(١) فهذه أحكام فقهية لا بد للفتي من معرفتها ، وقد تعرض له وقائع نادرة خارجة عن هذا فله أن يتكلم فيها على الاستفتاء عند نزول الواقعة بعد إحصائه بهذا المقدار .

الفصل الثاني : في الأداء وشروطه الباطنة والظاهرة

اعلم أنه يجب على مؤدى الزكاة خمسة أمور (الأول) النية : وهو أن ينوي بقلبه زكاة الفرض ويسنّ عليه تعيين الأموال . فإن كان له مال غائب فقال هذا عن مالى الغائب إن كان سالماً وإلا فهو نافلة حاز ؛ لأنه إن لم يصرح به فكذلك يكون عند إطلاقه . ونية الولي تقوم مقام نية المجنون والصبي . ونية السلطان تقوم مقام نية المالك الممتنع عن الزكاة ولكن في ظاهر حكم الدنيا - أعنى في قطع المطالبة عنه - أما في الآخرة فلا بل تبقى ذمته مشغولة إلى أن يستأنف الزكاة وإذا وكل بأداء الزكاة ونوى عند التوكيل أو وكل الوكيل بالنية كفاه لأن توكيله بالنية نية (الثاني) البدار عقيب الحول وفي زكاة الفطر لا يؤخرها عن يوم الفطر . ويدخل وقت وجوبها بغروب الشمس من آخر يوم من شهر رمضان . ووقت تعجيلها شهر رمضان كله . ومن آخر زكاة ماله مع التمكن عصى ولم يسقط عنه بتلف ماله وتمككه بمصادفة المستحق . وإن آخر لعدم المستحق فتلف ماله سقطت الزكاة عنه . وتعجيل الزكاة جائز بشرط أن يمع بعد كمال النصاب وانقضاء الحول . ويجوز تعجيل زكاة حولين . ومهما عجل فئات المسكين قبل الحول أو ارتد أو صار غنياً بغير ما عجل إليه أو تلف مال المالك أو مات ، فالمدفوع ليس بزكاة واسترجاعه غير ممكن إلا إذا قيد الدفع بالاسترجاع فليكن المعجل مراقباً آخر الأمور وسلامة العاقبة (الثالث) أن لا يخرج بدلا باعتبار القيمة بل يخرج المنصوص عليه ، فلا يجزئ ورق عن ذهب ولا ذهب عن ورق وإن زاد عليه في القيمة . ولعل بعض من لا يدرك غرض الشافعي رضي الله عنه يتساهل في ذلك ويلاحظ المقصود من سد الخلة وما أبده عن التحصيل ، فإن سد الخلة مقصود وليس هو كل المقصود بل واجبات الشرع ثلاثة أقسام : قسم هو تعبد محض لا مدخل للفظ والاعتراض فيه . وذلك كرمى الحمرات مثلاً إذ لاحظ للجمرة في وصول الحصى إليها ، فقصد الشرع فيه الابتلاء بالعمل ليظهر العبد رقه وعبوديته بفعله ما لا يعقل له معنى ، لأن ما يعقل معناه فقد يساعده الطبع عليه ويدعوه إليه فلا يظهر به خلوص الرق والعبودية ، إذ العبودية تظهر بأن تكون الحركة لحق أمر المعبود فقط للمعنى آخر . وأكثر أعمال الحج كذلك ولذلك قال صلى الله عليه وسلم في إحرامه « لبيك بحجة حقا تعبداً ورقاً^(٢) » ، تذييها على أن ذلك اظهر للعبودية بالانقياد لمجرد الأمر وامتثاله كما أمر من غير استئناس العقل منه بما يميل إليه ويحث عليه . القسم الثاني : من واجبات الشرع ما المقصود منه حظ معقول وليس يقصد منه التعبد كقضاء دين الآدميين ورد المغصوب فلا جرم لا يعتبر فيه فعله ونيته . ومهما وصل الحق إلى مستحقه بأخذ المستحق أو يبدل عنه عند رضاه تأدى الوجوب وسقط خطاب الشرع . فهذان قسمان لا تركيب فيهما يشتركان في دركهما جميع الناس والقسم الثالث : هو المركب الذي يقصد منه الأمران جميعاً وهو حظ العباد وامتحان المكلف بالاستعداد ، فيجتمع فيه تعبد رمى الجار وحظ رد الحقوق فهذا قسم في نفسه معقول ، فإن ورد الشرع به وجب الجمع بين المعنيين ولا ينبغي أن

(١) حديث « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم نفقة الولد على نفقة الزوجة ونفقتها على نفقة الخادم » أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة بسند صحيح وابن حبان والحاكم وصححه ورواه النسائي وابن حبان بتقديم « الروجة على الولد » وسأقي
(٢) حديث « لبيك بحجة حقا تعبداً ورقاً » أخرجه البزار والدارقطني في العلل من حديث أنس

ينسى أدق المعنيتين وهو التعبد والاسترقاق بسبب أحلاهما ، ولعل الأدق هو الأهم والزكاة من هذا القبيل ولم ينتبه له غير الشافعي رضي الله عنه لحظ الفقير مقصود في سد الخلة وهو جلي سابق إلى الأفهام وحق التعبد في اتباع التفاصيل مقصود للشرع . وباعتباره صارت الزكاة قرينة للصلاة والحج في كونها من مباني الإسلام . ولا شك في أن على المكلف تعبا في تمييز أجناس ماله وإخراج حصة كل مال من نوعه وجنسه وصفته . ثم توزيعه على الأصناف الثمانية كما سيأتي . والتساهل فيه غير قادح في حظ الفقير لكنه قادح في التعبد . ويدل على أن التعبد مقصود بتعيين الأنواع أمور ذكرناها في كتب الخلاف من الفقهيات . ومن أوضحها أن الشرع أوجب في خمس من الإبل شاة فعُدل من الإبل إلى الشاة ولم يعدل إلى النعدين والتقويم وإن قدر أن ذلك لقلة النعود في أيدي العرب بطل بذكره عشرين درهما في الجبران مع الشاتين فلم يذكر في الجبران قدر النقصان من القيمة ؟ ولم قدر بعشرين درهما وشاتين ؟ وإن كانت الشيات والأمتعة كلها في معناها . فهذا وأمثاله من التخصيصات يدل على أن الزكاة لم تترك خالية عن التعبدات كما في الحج ولكن جمع بين المعنيتين . والأذهان الضعيفة تقتصر عن درك المركبات فهذا شأن الغلط فيه (الرايع) أن لا ينقل الصدقة إلى بلد آخر فإن أعين المساكين في كل بلدة تمتد إلى أموالها ، وفي النقل تخييب للطنون . فإن فعل ذلك أجزاء في قول ولكن الخروج عن شبهة الخلاف أولى فليخرج زكاة كل مال في تلك البلدة . ثم لا بأس أن يصرف إلى الغرباء في تلك البلدة (الخامس) أن يقسم ماله بعدد الأصناف الموحودين في بلده ، فإن استيعاب الأصناف واجب وعليه يدل ظاهر قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ ﴾ الآية فإنه يشبه قول المريض إنما تلك مالى للفقراء والمساكين وذلك يقتضى التشريك في التملك . والعبادات ينبغي أن يتوق عن الهجوم فيها على الظواهر . وقد عدم من الثانية صنفان في أكثر البلاد : وهم المؤلففة قلوبهم والعاملون على الزكاة . ويوجد في جميع البلاد أربعة أصناف : الفقراء والمساكين والغارمون والمسافرون - أعنى أبناء السبيل - وصنفان يوجدان في بعض البلاد دون البعض : وهم الغزاة والمكاتبون . فإن وحد خمسة أصناف مثلا قسم بينهم زكاة ماله بخمسة أقسام متساوية أو متقاربة وعين لكل صنف قسم . ثم قسم كل قسم ثلاثة أسهم فإه فورة إما متساوية أو متفاوتة وليس عليه التسوية بين آحاد الصنف فإن له أن يقسمه على عشرة وعشرين فينقص نصيب كل واحد . وأما الأصناف فلا تقبل الزيادة والنقصان فلا ينبغي أن ينقص في كل صنف عن ثلاثة إن وجد . ثم لولم يجب إلا صاع للفطرة ووجد خمسة أصناف فعليه أن يوصله إلى خمسة عشر نفرا . ولو نقص منهم واحد مع الإمكان غرم نصيب ذلك الواحد . فإن عسر عليه ذلك لقلة الواجب فليشارك جماعة ممن عليهم الزكاة وليخلط مال نفسه بمالهم وليجمع المستحقين وليسلم إليهم حتى يتسامهوا فيه فإن ذلك لا بد منه .

بيان دقائق الآداب الباطنة في الزكاة

اعلم أن على مر يد طريق الآخرة بركاته وظائف الوظيفة الأولى : هم وجوب الزكاة ومعناها ووجه الامتحان فيها وأنها لم جعلت من مباني الإسلام مع أنها تصرف مالى وليست من عبادة الأبدان وفيه ثلاث معان : الأول : أن التلفظ بكلمتي الشهادة التزام للتوحيد وشهادة بإفراد المعبود وشرط تمام لوفاء به أن لا يبق للموحد محبوب سوى الواحد الفرد فإن المحبة لا تقبل الشركة ، والتوحيد باللسان قليل الجدوى وإنما يمتحن به درجة المحب بمبارقة المحبوب والأموال محبوبة عند الخلاق لأنها آلة تمتعهم بالدنيا وبسببها يأنسون بهذا العالم وينفرون عن الموت مع أن فيه لقاء المحبوب ، فامتنحوا بتصدق دعواهم في المحبوب واستنزوا عن المال الذى هو مرموقهم ومعشوقهم . ولذلك قال

الله تعالى ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ وذلك بالجهاد وهو مسأحة بالمهجة شوقاً إلى لقاء الله عز وجل والمسأحة بالمال أهون . ولما فهم هذا المعنى في بذل الاموال انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام : قسم صدقوا التوحيد ووفوا بعهدهم ونزلوا عن جميع أموالهم فلم يذخروا ديناراً ولا درهماً فأبوا أن يتعرضوا لوجوب الزكاة عليهم حتى قيل لبعضهم كم يجب من الزكاة في مائتي درهم ؟ فقال : أما على العوام بحكم الشرع خمسة دراهم ، وأما نحن فيجب علينا بذل الجميع . ولهذا تصدق أبو بكر رضي الله عنه بجميع ماله وعمر رضي الله عنه بشرط ماله فقال صلى الله عليه وسلم « ما بقيت لأهلك ، فقال : مثله ، وقال لابي بكر رضي الله عنه « ما بقيت لأهلك » قال الله ورسوله ، فقال صلى الله عليه وسلم « بينكما ما بين كلتيكما ^(١) » فالصديق وفي تمام الصدق فلم يسك سوى المحبوب عنده وهو الله ورسوله . القسم الثاني : درجتهم دون درجة هذا وهم المسكون أموالهم المراقبون لمواقيت الحاجات ومواسم الخيرات ، فيكون قصدهم في الادخار الإنفاق على قدر الحاجة دون التعم و صرف الفاضل عن الحاجة إلى وجوه البرمها ظهر وجوهها ، وهؤلاء لا يقتصرون على مقدار الزكاة . وقد ذهب جماعة من التابعين إلى أن في المال حقوقاً سوى الزكاة كالنخعي والشعبي وعطاء ومجاهد . قال الشعبي بعد أن قيل له هل في المال حق سوى الزكاة ؟ قال : نعم أما سمعت قوله عز وجل ﴿ وآتى المال على حبه ذوى القربى ﴾ الآية واستدلوا بقوله عز وجل ﴿ وما رزقناهم ينفقون ﴾ بقوله تعالى ﴿ وأنفقوا مما رزقناكم ﴾ وزعموا أن ذلك غير منسوخ بآية الزكاة بل هو داخل في حق المسلم على المسلم ، ومعناه أنه يجب على الموسر مهما وجد محتاجاً أن يزيل حاجته فضلاً عن مال الزكاة والذي يصح في الفقه من هذا الباب أنه مهما أرفقته حاجته كانت إزالتها فرض كفاية إذ لا يجوز تضييع مسلم ، ولكن يحتتمل أن يقال ليس على الموسر إلا تسليم ما يزيل الحاجة قرصاً ولا يلزمه بذله بعد أن أسقط الزكاة عن نفسه ، ويحتتمل أن يقال يلزمه بذله في الحال ولا يجوز له الاقتراض أى لا يجوز له تكليف الفقير قبول القرض وهذا مختلف فيه ، والاقتراض نزول إلى الدرجة الأخيرة من درجات العوام وهي درجة القسم الثالث الذين يقتصرون على أداء الواجب فلا يزيدون عليه ولا ينقصون عنه وهي أقل الرتب ، وقد اقتصر جميع العوام عليه لئلا يخلهم بالمال ويميلهم إليه وضعف حبهم للأخرة قال الله تعالى ﴿ إن يسألوكوها فيحلفكم بئجلوا ﴾ يحفكم أى يستقص عليكم فكم بين عبد اشترى منه ماله ونفسه بأن له الجنة وبين عبد لا يستقصى عليه لئلا يخله ؛ فهذا أحد معاني أمر الله سبحانه عباده ببذل الاموال المعنى الثاني : التطهير من صفة البخل فإنه من المهلكات قال صلى الله عليه وسلم « ثلاث مهلكات شيع مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه ^(٢) » وقال تعالى ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ وسيأتى في ربيع المهلكات وجه كونه مهلكاً وكيفية التقصى منه ، وإنما نزول صفة البخل بأن تتمود بذل المال لحب الشيء لا ينقطع إلا بقهر النفس على مفارقتها حتى يصير ذلك اعتياداً . فالزكاة بهذا المعنى طهرة أى تطهر صاحبها عن خبث البخل المهلك وإنما طهارته بقدر بذله وبقدر فرجه بإخراجه واستبشاره بصرفه إلى الله تعالى . المعنى الثالث : شكر النعمة فإن الله عز وجل على عبده نعمة في نفسه وفي ماله فالعادات البدنية شكر لنعمة البدن والمالية شكر لنعمة المال . وما أخص من ينظر إلى الفقير وقد ضيق عليه الرزق وأحوج إليه ثم لا تسمع نفسه بأن يؤدي شكر الله تعالى على إغناؤه عن السؤال وإحواج غيره إليه بربع العشر أو العشر من ماله .

(١) حديث « جاء أبو بكر بجميع ماله وعمر بشرط ماله .. الحديث » أخرجه أبو داود والترمذي والمحاكم وصححه من حديث ابن عمر وليس فيه قوله « بينكما ما بين كلتيكما » . (٢) حديث « ثلاث مهلكات .. الحديث » تقدم

الوظيفة الثانية: في وقت الأداء؛ ومن آداب ذوى الدين التعجيل عن وقت الوجوب لإظهارها للرغبة في الامتثال بإيصال السرور إلى قلوب الفقراء ومبادرة لعوائق الزمان أن تعوقه عن الخيرات وعلمنا بأن في التأخير آفات مع ما يتعرض العبد له من العصيان لوأخر عن وقت الوجوب. ومهما ظهرت داعية الخير من الباطن فينبغي أن يستتم فإن ذلك لمة الملك وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن، فما أسرع تقبله والشيطان يعد الفقر ويأمر بالفحشاء والمنكر. وله لمة عقيب لمة الملك فليستتم الفرصة فيه وليعين لوزكاتها إن كان يؤديها جميعا شهرا معلوما وليجتهد أن يكون من أفضل الأوقات ليكون ذلك سببا لنماء قربته وتضاعف زكاته. وذلك كشهر المحرم فإنه أول السنة وهو من الأشهر الحرم أو رمضان فقد كان صلى الله عليه وسلم أجود الخلق وكان في رمضان كالريح المرسلة لايمسك فيه شيئا^(١) ولرمضان فضيلة ليلة القدر وأنه أنزل فيه القرآن. وكان مجاهد يقول: لا تقولوا رمضان فإنه اسم من أسماء الله تعالى ولكن قولوا شهر رمضان. وذو الحجة أيضا من الشهور الكثيرة الفضل فإنه شهر حرام وفيه الحج الأكبر وفيه الأيام المعلومات وهي العشر الأول والأيام المعدودات وهي أيام التشريق. وأفضل أيام شهر رمضان العشر الأواخر. وأفضل أيام ذى الحجة العشر الأول.

الوظيفة الثالثة: الإسرار؛ فإن ذلك أبعد عن الرياء والسمعة قال صلى الله عليه وسلم: أفضل الصدقة جهد المقل إلى فقير في سر^(٢)، وقال بعض العلماء: ثلاث من كنوز البر منها إخفاء الصدقة^(٣) وقد روى أيضا مسندا. وقال صلى الله عليه وسلم: إن العبد ليعمل عملا في السر فيكتبه الله له سرا فإن أظهره نقل من السر وكتب في العلانية فإن تحدث به نقل من السر والعلانية وكتب رياء^(٤) وفي الحديث المشهور: سبعة يظلمهم الله يوم لا ظل إلا ظله أحدهم رجل تصدق بصدقة فلم تعلم شماله بما أعطت يمينه^(٥)، وفي الخبر: صدقة السر تطفى غضب الرب^(٦)، وقال تعالى ﴿وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾ وفائدة الإخفاء الخلاص من آفات الرياء والسمعة فقد قال صلى الله عليه وسلم: لا يقبل الله من مسرع ولا مرء ولا منان والمتحدث لصدقته يطلب السمعة والمعطى في ملأ من الناس يبغي الرياء والإخفاء والسكوت هو المخلص منه^(٧)، وقد بالغ في فضل الإخفاء جماعة حتى اجتهدوا أن لا يعرف القابض المعطى فكان بعضهم يلقبه في يد أعمى وبعضهم يلقبه في طريق الفقير وفي موضع جلوسه حيث يراه ولا يرى المعطى وبعضهم كان يصره في ثوب الفقير وهو نائم. وبعضهم كان يوصل إلى يد الفقير على يد غيره بحيث لا يعرف المعطى وكان يستكتم المتوسط شأنه ويوصيه بأن لا يفشيه: كل ذلك توصلا إلى إطفاء غضب الرب سبحانه واحترازاً من الرياء والسمعة. ومهما لم يتمكن إلا بأن يعرفه شخص واحد فتسليمه إلى وكيل ليسلم إلى المسكين والمسكين لا يعرف أولى؛ إذ في معرفة المسكين الرياء والمنة جميعا وليس في معرفة المتوسط إلا الرياء. ومهما كانت الشهرة مقصودة له

(١) حديث « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الخلق وأجود ما يكون في رمضان .. الحديث » أخرجه من حديث ابن عباس (٢) حديث « أفضل الصدقة حود المقل إلى فقير في سر » أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم من حديث أبي ذر ولأبي داود من حديث أبي هريرة « أى الصدقة أفضل؟ قال جهد المقل » (٣) حديث « ثلاث من كنوز البر فذكر منها إخفاء الصدقة » أخرجه أبو نعيم في كتاب الإيجاز وجوامع الكلم من حديث ابن عباس بسند ضعيف (٤) حديث « إن العبد ليعمل عملا في السر فيكتبه الله له سرا فإن أظهره نقل من السر .. الحديث » أخرجه الطحاوي في التاريخ من حديث أنس نحوه بإسناد ضعيف (٥) حديث « سبعة يظلمهم الله في طله .. الحديث » أخرجه من حديث أبي هريرة (٦) حديث « صدقة السر تطفى غضب الرب » أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة ورواه أبو الصيغ في كتاب الثواب واليهيق في الفع من حديث أنس سعيد كلاما ضعيف والترمذى وحسنه من حديث أبي هريرة « إن الصدقة لتطفى غضب الرب » ولابن حبان نحوه من حديث أنس وهو ضعيف أيضا (٧) حديث « لا يقبل الله من مسرع ولا مرء ولا منان » لم أظفر به هكذا

حبط عمله لأن الزكاة لإزالة البخل وتضعيف حب المال . وحب الجاه أشد استيلاء على النفس من حب المال وكل واحد منهما مهلك في الآخرة ؛ ولكن صفة البخل تنقلب في القبر في حكم المثال عقربا لادغا ، وصفة الرياء تنقلب في القبر أفعى من الأفاعى وهو مأمور بتضعيفيهما أو قتلهما لدفع أذاهما أو تخفيف أذاهما فهما قصد الرياء والسمعة فكأنه جعل بعض أطراف العقرب مقويا للحية فبقدر ما ضعف من العقرب زاد في قوة الحية ولو ترك الأمر كما كان لكان الأمر أهون عليه . وقوة هذه الصفات التي بها قوتها العمل بمقتضاها ، وضعف هذه الصفات بمجاهدتها ومخالفتها والعمل بخلاف مقتضاها فأى فائدة في أن يخالف دواعى البخل ويحجب دواعى الرياء فيضعف الأدنى ويقوى الأفعوى ؟ وستأتى أسرار هذه المعانى في ربيع المهلكات .

الوظيفة الرابعة : أن يظهر حيث يعلم أن في إظهاره ترغيبا للناس في الاقتداء ويحرس سره من داعية الرياء بالطريق الذى سنذكره في معالجة الرياء في كتاب الرياء فقد قال الله عز وجل ﴿ إن تبدوا الصدقات فنعما هي ﴾ وذلك حيث يقتضى الحال الإبداء إما للاقتداء وإما لأن السائل إنما سأل على ملأ من الناس فلا ينبغي أن يترك التصدق خيفة من الرياء في الإظهار بل ينبغي أن يتمتدق ويحفظ سره عن الرياء بقدر الإمكان ، وهذا لأن في الإظهار محذورا ثالثا سوى المن والرياء وهو هتك ستر الفقير ، فإنه ربما يتأذى بأن يرى في صورة المحتاج فن أظهر السؤال فهو الذى هتك ستر نفسه . فلا يحذر هذا المعنى في إظهاره وهو كإظهار الفسق على من تستر به فإنه محذور ، والتجسس فيه والاعتیاد بذكره منبه عنه : فأما من أظهره لإقامة الحد عليه لإشاعة ولكن هو السبب فيها . وبمثل هذا المعنى قال صلى الله عليه وسلم « من أتى جلباب الحياء فلا غيبة له ^(١) ، وقد قال الله تعالى ﴿ وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ﴾ ندب إلى العلانية أيضا لما فيها من فائدة الترغيب فليكن العبد دقيق التأمل في وزن هذه الفائدة بالمحذور الذى فيه فإن ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص ، فقد يكون الإعلان في بعض الأحوال لبعض الأشخاص أفضل . ومن عرف الفوائد والغوائل ولم ينظر بعين الشهوة اتضح له الأولى والأليق بكل حال .

الوظيفة الخامسة : أن لا يفسد صدقته بالمن والأذى قال الله تعالى (لا تبطلوا صدقاتكم بالمس والاذى) واختلّفوا في حقيقة المن والأذى فقيل المن أن يذكرها والأذى أن يظهرها : وقال سفيان : من منّ وسدت صدقته فقيل له كيف المن ، فقال : أن يذكره ويتحدث به . وقيل : المن أن يستخدمه بالعطاء ، والأذى أن يعيره بالفقر . وقيل : المن أن يتكبر عليه لأجل عطائه ، والأذى أن ينتهره أو يوبخه بالمسألة . وقد قال صلى الله عليه وسلم « لا يقبل الله صدقة من ^(٢) ، وعندى أن المن له أصل ومعنى وهو من أحوال القلب وصفاته : ثم يتفرع عليه أحوال ظاهرة على اللسان والجوارح فأصله أن يرى نفسه محسنا إليه ومنعا عليه ، وحقه أن يرى الفقير محسنا إليه بقبول حق الله عز وجل منه الذى هو طهرته ونجاته من النار ، وأنه لو يقبله لبقى مرتبنا به فحقه أن يتقلد منه الفقير إذ جعل كفه نائبا عن الله عز وجل في قبض حق الله عز وجل . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الصدقة تقع بيد الله عز وجل قبل أن تقع في يد السائل ^(٣) ، فليتحقق أنه مسلم إلى عز وجل حقه والفقير آخذ من الله تعالى . رزقه بعد صيرورته إلى الله عز وجل . ولو كان عليه دين لإنسان فأحال به عبده أو خادمه الذى هو متكفل برزقه

(١) حديث « من أتى جلباب الحياء فلا غيبة له » أخرجه ابن عدى وابن حبان في الصغفاء من حديث أس بن سديع

(٢) حديث « لا يقبل الله صدقة من ^(٢) ، هو كالأذى قبله بحديث لم أجده (٣) حديث « إن الصدقة تقع بيد الله قبل أن تقع في يد السائل » أخرجه الدارقطنى في الأفراد من حديث ابن عباس وقال غريب من حديث عكرمة عنه ورواه البيهقى في الشعب بسند ضعيف

لكان اعتقاد مؤدى الدين كون القابض تحت منته سفها و جهلا ، فإن المحسن لإيه هو المتكفل برزقه . أما هو فإيما يقضى الذى لزمه بشراء ما أحبه فهو ساع فى حق نفسه فلم يمن به على غيره . ومهما عرف المعانى الثلاثة التى ذكرناها فى فهم وجوب الزكاة أو أحدها لم ير نفسه محسنا إلا إلى نفسه ؛ إما يبذل ماله لإظهارا لحب الله تعالى أو تطهيرا لنفسه عن رذيلة البخل أو شكرا على نعمة المال طلبا للمزيد . وكيفا كان فلا محاملة بينه وبين الفقير حتى يرى نفسه محسنا إليه ، ومهما حصل هذا الجهل بأن رأى نفسه محسنا إليه فتفرغ منه على ظاهره ما ذكر فى معنى المن وهو التحدث به وإظهاره وطلب المكافأة منه بالشكر والدعاء والخدمة والتوقير والتعظيم والقيام بالحقوق والتقديم فى المحاسن والمتابعة فى الأمور ؛ فهذه كلها ثمرات المنة ، ومعنى المنة فى الباطن ما ذكرناه . وأما الأذى : فظاهره التوبيخ والتعيير وتحسين الكلام وتقطيب الوجه وهتك الستر بالإظهار وفنون الاستخفاف ، وباطنه وهو منبعه أمران ؛ أحدهما : كراهيته لرفع اليد عن المال وشدة ذلك على نفسه فإن ذلك يضيق الخلق لا محالة . والثانى : رؤيته أنه خير من الفقير وأن الفقير لسبب حاجته أحسن منه وكلاهما منشؤه الجهل . أما كراهية تسليم المال فهو حق لأن من كره بذل درهم فى مقابلة ما يساوى ألفا فهو شديد الحق . ومعلوم أنه يبذل المال لطلب رضا الله عز وجل والثوب فى الدار الآخرة وذلك أشرف مما بذله أو يبدله لتطهير نفسه عن رذيلة البخل أو شكرا لطلب المزيد . وكيفا فرض الكراهية لا وجه لها . وأما الثانى : فهو أيضا جهل لأنه لو عرف فضل القرع على الغنى وعرف خطر الأغنياء لما استحققر الفقير بل تبرك به وتمنى درجته ، فصلاح الأغنياء يدخلون الجنة بعد الفقراء بخمسةائة عام . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ، هم الأخرسون ورب الكعبة فقال أبو ذر : من هم ؟ قال : هم الأكثرون أموالا ، الحديث ؟ ثم كيف يستحققر الفقير وقد جعله الله تعالى متجرا له ؟ إذ يكتسب المال بجهده ويستكثرنه ويمتهد فى حفظه بمقدار الحاجة وقد ألزم أن يسلم إلى الفقير قدر حاجته ويكف عنه الفاضل الذى يضره لو سلم إليه ؛ فالغنى مستخدم للسعى فى رزق الفقير ويتميز عليه بتقليد المظالم والتزام المشاق وحراسة الفضلات إلى أن يموت فيأكله أعداؤه ، فإن مهما انتقلت الكراهية وتبدلت بالسرور والفرح بتوفيق الله تعالى له أداء الواجب وتفضيله الفقير حتى يخلصه عن عهده بقبوله منه انتفى الأذى والتوبيخ وتقطيب الوجه وتبدل بالاستبشار والثناء وقول المنة فهذا منشأ المن والأذى . فإن قلت : فرؤيته نفسه فى درجة المحسن أمر غامض فهل من علامة يتمنح بها قلبه فيعرف بها أنه لم ير نفسه محسنا ؟ فاعلم أن له علامة دقيقة واضحة وهو أن يقدر أن الفقير لوجنى عليه جنابة أو مالا عدوا له عليه مثلا هل كان يزيد استنكاره واستبعاده له على استنكاره قبل التصدق ؟ فإن زاد لم تغل صدقته عن شائبة المنة لأنه توقع سببه ما لم يكن يتوقعه قبل ذلك . فإن قلت ، وهذا أمر غامض ولا ينفك قلب أحد عنه فما دواؤه ؟ فاعلم أن له دواء باطنا ودواء ظاهرا : أما الباطن : فالمعرفة بالحقائق التى ذكرناها فى فهم الوجوب وأن الفقير هو المحسن إليه فى تطهيره بالقبول . وأما الظاهر : فالأعمال التى يتعاطاها متقلد المنة فإن الأفعال التى تصدر عن الاخلاق تصنع القلب بالأخلاق - كما سيأتى أسراره فى الشطر الأخير من الكتاب - ولهذا كان بعضهم يضع الصدقة بين يدى الفقير ويمثل قائما بين يديه يسأله قبولها حتى يكون هو فى صورة السائلين وهو يستشعر مع ذلك كراهية لو رده . وكان بعضهم يبسط كفه لياخذ الفقير من كفه وتكون يد الفقير هى العليا . وكانت عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما إذا أرسلتا معروفا إلى فقير قالتا للرسول : احفظ ما يدعو به ثم كانتا تردان . عليه مثل قوله ، وتقولان : هذا بذاك حتى تخلص لنا صدقتنا . فكانوا لا يتوقعون الدعاء لأنه شبه المكافأة وكانوا يقابلون الدعاء

بمثله . وهكذا فعل عمر بن الخطاب وابنه عبد الله رضى الله عنهما . وهكذا كان أرباب القلوب يداونون قلوبهم ولا دواء من حيث الطاهر إلا هذه الأعمال الدالة على التذلل والتواضع وقبول المنة ومن حيث الباطن المعارف التي ذكرناها ؛ هذا من حيث العمل وذلك من حيث العلم . ولا يعالج القلب إلا بمعجون العلم والعمل ، وهذه الشريطة من الزكوات تجرى مجرى الخسوع من الصلاة وثبت ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم ، ليس للمرء من صلواته إلا ما عقل منها (١) . وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم « لا يتقبل الله صدقة منان » وكقوله عز وجل ﴿ لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾ وأما فتوى الفقيه بوقوعها موقعتها وبرائة ذمته عنها دون هذا الشرط لحديث آخر وقد أشرنا إلى معناه في كتاب الصلاة .

الوظيفة السادسة : أن يستصغر العظيمة فإنه إن استعظمها أعجب بها والعجب من المهلكات وهو محبط للأعمال قال تعالى ﴿ ويوم حنين إذا أعجبتكم كثيرتكم فلم تغن عنكم شيئا ﴾ ويقال إن الطاعة كلما استصغرت عظمت عند الله عز وجل . والمعصية كلما استعظمت صغرت عند الله عز وجل . وقيل لا يتم المعروف إلا بثلاثة أمور : تصغيره وتجميله وستره . وليس الاستعظام هو المن والأذى ، فإنه لو صرف ماله إلى عمارة مسجد أو رباط أمكن فيه الاستعظام ولا يمكن فيه المن والأذى بل العجب والاستعظام يجرى في جميع العبادات ودواؤه علم وعمل . أمام العلم : فهو أن يعلم أن العشر أو ربع العشر قليل من كثير وأنه قد قنع لنفسه بأخس درجات البذل - كما ذكرنا في فهم الوجوب - فهو جدير بأن يستحي منه فكيف يستعظمه ؟ وإن ارتقى إلى الدرجة العليا فبذل كل ماله أو أكثره فليتأمل أنه من أين له المال وإلى ماذا يصرفه ؟ فالمال لله عز وجل وله المنة عليه إذ أعطاه ووفقه لبذله فلم يستعظم في حق الله تعالى ما هو عين حق الله سبحانه ؟ وإن كان مقامه يقتضى أن ينظر إلى الآخرة وأنه يبذله للثواب فلم يستعظم بذل ما ينتظر عليه أضعافه ؟ وأما العمل : فهو أن يعطيه عطاء الخجل من بخله بإمساك بقية ماله عن الله عز وجل فتكون هيئته الانكسار والحياء ، كهيئته من يطلب رداً ودبيعة فبمسك بعضها ويرد البعض ، لأن المال كاه لله عز وجل وبذل جميعه هو الاحب عند الله سبحانه ، وإنما لم يأمر به عبده لأنه يشق عليه بسبب بخله كما قال الله عز وجل ﴿ فيحفظكم تبخلوا ﴾

الوظيفة السابعة : أن ينتقى من ماله أجوده وأحبه إليه وأجله وأطيبه فإن الله تعالى لا يقبل إلا طيباً . وإذا كان المخرج من شبهة فربما لا يكون ملكاً له مطلقاً فلا يقع الموضع . وفي حديث أبان عن أنس بن مالك « طوبى لعبد أنفق من مال اكتسبه من غير معصية (٢) ، وإذا لم يكن المخرج من حيد المال فهو من سوء الأدب إذ قد يمسك الجيد لنفسه أو لعبدته أو لاهله فيكون قد آثر على الله عز وجل غيره ، ولو فعل هذا بضيعة وقدم إليه أردأ طعام في بيته لأوغر بذلك صدره ، هذا إن كان نظره إلى الله عز وجل ، وإن كان نظره إلى نفسه وثوابه في الآخرة فليس بعاقل من يؤثر غيره على نفسه ، وليس له من ماله إلا ما تصدق به فأبقى أو أكل فأفنى ، والذي يأكله قضاء وطر في الحال فليس من العقل قصر النظر على العاجلة وترك الادخار وقد قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم وما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بأخذيه إلا أن تغمضوا فيه ﴾ أى لا تأخذوه إلا مع كراهية وحياء وهو معنى الإغماض فلا تؤثروا به ربكم . وفي الخبر « سبق درهم مائة ألف درهم (٣) ،

(١) حديث « ليس للمرء من صلواته إلا ما عقل منها » تقدم في الصلاة

(٢) حديث أنس « طوبى لعبد أنفق من مال اكتسبه من غير معصية » أخرجه ابن عدى والبرار (٣) حديث « سبق درهم مائة ألف » أخرجه النسائي وابن حبان وصححه من حديث أبي هريرة

وذلك بأن يخرج الإنسان وهو من أحل ماله وأحوده فيصدر ذلك عن الرضا والفرح بالبذل ، وقد يخرج مائة ألف درهم مما يكره من ماله فيبدل ذلك على أنه ليس يؤثر الله عز وجل بشيء مما يجبه . وبذلك ذم الله تعالى قوما جعلوا الله ما يكرهون فقال تعالى ﴿ ويحعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى لا ﴾ وقف بعض القراء على النبي تكذيباً لهم ، ثم ابتداء وقال ﴿ جرم أن لهم النار ﴾ أى كسب لهم جعلهم لله ما يكرهون النار .

الوظيفة الثامنة : أن يطلب لصدقته من تزكو به الصدقة ولا يكتفى بأن يكون من عموم الأصناف الثمانية فإن في عمومهم خصوص صفات فليراع خصوص تلك الصفات وهى ستة . الأولى : أن يطلب الاتقياء المعرضين عن الدنيا المتجردين لتجارة الآخرة قال صلى الله عليه وسلم « لا تأكل إلا طعام تقي ولا يأكل طعامك إلا تقي »^(١) . وهذا لأن التقي يستعين به على التقوى فتكون شريكاً في طاعته بإعانتك إياه ، وقال صلى الله عليه وسلم « أطعموا طعامكم الاتقياء وأولوا معروفكم المؤمنين »^(٢) ، وفى لفظ آخر « أضف بطعامك من تحبه فى الله تعالى ، وكان بعض العلماء يؤثر بالطعام فقراء الصوفية دون غيرهم ف قيل له : لو عمدت بمعرفةك جميع الفقراء لكان أفضل . فقال : لا هؤلاء قوم همهم لله سبحانه فإذا طرقتهما فاقة نشئت هم أحدهم فلأن أرد همة واحد إلى الله عز وجل أحب إلى من أن أعطى ألفاً بمن همته الدنيا ، فدكر هذا الكلام للجديد فاستحسنه وقال . هذا ولى من أولياء الله تعالى وقال ما سمعت منذ زمان كلاماً أحسن من هذا ، ثم حكى أن هذا الرجل اختل حاله وهم بترك الحانوت فبعث إليه الجعيداً ما لا وقال : اجعله بضاعتك ولا تترك الحانوت فإن التجارة لا تضر مثلك ، وكان هذا الرجل بقالا لا يأخذ من الفقراء ممن ما يبتاعون منه . الصفة الثانية : أن يكون من أهل العلم خاصة فإن ذلك إعانة له على العلم ، والعلم أشرف العبادات مهما صححت فيه النية . وكان ابن المبارك يخصص بمعرفة أهل العلم ف قيل له : لو عمدت ، فقال : إنى لأعرف بعد مقام النبوة أفضل من مقام العلماء فإذا اشتغل قلب أحدهم بحاجته لم يتفرغ للعلم ولم يقبل على التعلم فتفرغ بهم للعلم أفضل . الصفة الثالثة : أن يكون صادقاً فى تقواه وعلمه بالتوحيد . وتوحيده أنه إذا أخذ العطاء حمد الله عز وجل وشكره ورأى أن النعمة منه ولم ينظر إلى واسطة فهذا هو أشكر العباد لله سبحانه وهو أن يرى أن النعمة كلها منه . وفى وصية لقمان لابنه : لا تجعل بينك وبين الله منعاً واعدد نعمة غيره عليك مغرماً . ومن شكر غير الله سبحانه فكأنه لم يعرف المنعم ولم يتيقن أن الواسطة مقهور مسخر بتسخير الله عز وجل إذ ساط الله تعالى عليه دواعى الفعل ويسر له الأسباب فأعطى وهو مقهور ، ولو أراد تركه لم يقدر عليه بعد أن ألقى الله عز وجل فى قلبه أن صلاح دينه ودينه فى فعله . فهما قوى الباعث أو جب ذلك جزم الإرادة وانتهاض القدرة ولم يستطع العبد مخالفة الباعث القوى الذى لا تردد فيه والله عز وجل خالق البواعث ومهيجهها ومزيل للضعف والتردد عنها ومسخر القدرة للانتهاض بمقتضى البواعث . فمن تيقن هذا لم يكن له نظر إلا إلى مسبب الأسباب : وتيقن مثل هذا العبد أنفع للمعطى من ثناء غيره وشكره ، فذلك حركة لسان يقل فى الأكثر جدواه وإعانة مثل هذا العبد الموحد لا تصيب . وأما الذى يمدح بالعطاء ويدعو بالخير فسيديم بالمنع ويدعو بالشر عند الإيذاء وأحواله متفاوتة . وقد روى أنه صلى الله عليه وسلم بعث معروفاً إلى بعض الفقراء وقال للرسول احفظ ما يقول ؛ فلما أخذ قال : الحمد لله الذى لا ينسى من ذكره ولا يضيع من شكره . ثم قال اللهم إنك لم تنس فلاناً - يعنى نفسه - فأجعل فلاناً لا ينساك - يعنى بفلان نفسه - فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك

(١) حديث « لا تأكل إلا طعام تقي ولا يأكل طعامك إلا تقي » أخرجه أبو داود والترمذى من حديث أبي سعيد بلقظ « لا تصحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي » (٢) حديث « أطعموا طعامكم الاتقياء وأولوا معروفكم المؤمنين » ، أخرجه ابن المبارك فى البر والعتة من حديث أبي سعيد الخدرى قال ابن طاهر غريب فيه مجهول (٣) حديث « أضف بطعامك من يحبه الله » أخرجه ابن المبارك أبناً جويبر عن الضحاك .

فسر وقال صلى الله عليه وسلم : علمت أنه يقول ذلك ^(١) ، فأنظر كيف قصر التفاته على الله وحده ، وقال صلى الله عليه وسلم لرجل : تب فقال أتوب إلى الله وحده ولا أتوب إلى محمد فقال صلى الله عليه وسلم عرف الحق لأهله ^(٢) ، ولما نزلت براءة عائشة رضی الله عنها في قصة الإفك قال أبو بكر رضی الله عنه : قومي فقيل رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت والله لأفعل ولا أحد إلا الله فقال صلى الله عليه وسلم : دعها يا أبا بكر ^(٣) ، وفي لفظ آخر : أنها رضی الله عنها قالت لأبي بكر رضی الله عنه : بحمد الله لا بحمدك ولا بحمد صاحبك ، فلم ينكر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما ذلك مع أن الوحي وصل إليهما على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم . ورؤية الأشياء من غير الله سبحانه وصف الكافرين قال الله تعالى ﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ﴾ ومن لم يصف باطنه عن رؤية الوسائط إلا من حيث لهم وسائط فكأنه لم ينفك عن الشرك الخفي سره . فليتنق الله سبحانه في تصفية توحيدته عن كدورات الشرك وشوائبه .

الصفة الرابعة : أن يكون مستترا مخفيا حاجته لا يكتر البت والشكوى أو يكون من أهل المروءة ممن ذهبت نعمته وبقيت عادته فهو يتعیش في جلباب التجمل قال الله تعالى ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا ﴾ أي لا يباحون في السؤال لأنهم أغنياء بيقينهم أعة بصبرهم ، وهذا ينبغي أن يطلب بالتفحص عن أهل الدين في كل محلة ويستكشف عن مواطن أحوال أهل الخير والتجمل فتواب صرف المعروف إليهم أضعاف ما يصرف إلى المحاهرين بالسؤال . الصفة الخامسة : أن يكون ميلا أو محبوسا بمرض أو بسبب من الأسباب فيوجد فيه معنى قوله عز وجل ﴿ للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله ﴾ أي حبسوا في طريق الآخرة بعيلة أو ضيق معيشة أو لإصلاح قلب ﴿ لا يستطيعون ضربا في الأرض ﴾ لأنهم مقصوصو الجناح مقيدو الأطراف . فهذه الأسباب كان عمر رضی الله عنه يعطى أهل البيت القطيع من الغنم - العشرة فما فوقها - وكان صلى الله عليه وسلم يعطى العطاء على مقدار العيلة ^(٤) وسأل عمر رضی الله عنه عن جهد البلاء فقال كثرة العيال وقلة المال . الصفة السادسة : أن يكون من الأقارب وذوى الأرحام فتكون صدقة وصلة ورحم وفي صلة الرحم من الثواب ما لا يحصى . قال علي رضی الله عنه : لأن أصل أخا من إخواني بدرهم أحب إلي من أن أتصدق بعشرين درهما ولأن أصله بعشرين درهما أحب إلي من أن أتصدق بمائة درهم ولأن أصله بمائة درهم أحب إلي من أن أعطي رقبة . والأصدقاء وإخوان الخير أيضا

(١) حديث « بث معروف إلى بعض الفقراء وقال للرسول احفظ ما يقول فلما أخذه قال الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره ... الحديث » لم أجده أصلا إلا في حديث ضعيف من حديث ابن عمر وروى ابن منده في الصحابة أوله ولم يسق هذه القطعة التي أوردتها المصنف وسمى الرجل حديرا ، فقد روي من طريق البيهقي « أنه وصل لحدير من أبي الدرداء شيء فقال اللهم لك لم تنس حديرا فأجبت حديرا لا ينساك » وقيل لن هذا آخر لصحبة له يسكنى أبا جريرة وقد ذكره ابن حبان في ثقات التابعين .

(٢) حديث « قال لرجل تب فقال أتوب إلى الله ولا أتوب إلى محمد . . . الحديث » أخرجه أحمد والطبراني من حديث الأسود ابن سريع بسند ضعيف (٣) حديث « لما نزلت براءة عائشة قال أبو بكر قومي فقيل رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث » أخرجه أبو داود من حديث عائشة بلفظ « فقال أبواي قومي فقيل رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت أحمد الله لا إياكما » ولبخاري تليقا « فقال أبواي قومي لآله فقلت لا والله لا أقوم لآله ولا أحمدك ولا بكر أحمد الله » وله ولم « فقالت لي أبي قومي آله فقلت لا والله لا أقوم آله ولا أحمد لآله » ولطبراني « فقالت بحمد الله لا بحمد صاحبك » وله من حديث ابن عباس « فقالت لا بحمدك ولا بحمد صاحبك » وله من حديث ابن عمر « فقال أبو بكر قومي فأحضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت لا والله لا أدنو منه . . . الحديث » وفيه « أنها قالت لآبي صلى الله عليه وسلم بحمد الله لا بحمدك »

(٤) حديث « كان يعطى العطاء على مقدار العيلة » لم أر له أصلا ولأبي داود من حديث عوف بن مالك « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لما أتاه التيء قسمه في يومه وأعطى الأهل حظين وأعطى العزب حظا »

يقدمون على المعارف كما يتقدم الأقارب على الأجانب ؛ فليراعى هذه الدقائق فهذه هي الصفات المطلوبة ، وفي كل صفة درجات فينبغي أن يطلب أعلاها ، فإن وجد من جمع جملة من هذه الصفات فهي الذخيرة الكبرى والنسيمة العظمى . ومهما اجتهد في ذلك وأصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر واحد ، فإن أجد أجره في الحال تطهيره نفسه عن صفة البخل وتأكيد حب الله عز وجل في قلبه واجتهاده في طاعته ، وهذه الصفات هي التي تقوى في قلبه فتشوقه إلى لقاء الله عز وجل . والأجر الثاني ما يعود إليه من فائدة دعوة الآخذ وهمته فإن قلوب الأبرار لها آثار في الحال والمآل ، فإن أصاب حصل الأجران وإن أخطأ حصل الأول دون الثاني فهذا يضاعف أجر المصيب في الاجتهاد مهنا وفي سائر المواضع والله أعلم .

الفصل الثالث في القابض وأسباب استحقاقه ووظائف قبضه

بيان أسباب الاستحقاق

اعلم أنه لا يستحق الزكاة إلا الحر مسلم ليس بهاشمي ولا مطلبى اتصف بصفه من صفات الأصناف الثمانية المذكورين في كتاب الله عز وجل . ولا تصرف زكاة إلى كافر ولا إلى عبد ولا إلى هاشمي ولا إلى مطلبى أما العبي والمجنون فيجوز الصرف إليهما إذا قبض وليهما فلنذكر صفات الأصناف الثمانية (الصف الأول) الفقراء : والفقير هو الذي ليس له مال ولا قدرة له على الكسب ، فإن كان معه قوت يومه وكسوة حاله فليس بفقير ولكنه مسكين ، وإن كان معه نصف قوت يومه فهو فقير ، وإن كان معه قيس وليس معه منديل ولا خف ولا سراويل ولم تكن قيمة القميص بحيث تفي بجميع ذلك كما يليق بالفقراء فهو فقير ، لأنه في الحال قد عدم ما هو محتاج إليه وما هو عاجز عنه فلا ينبغي أن يشترط في الفقير أن لا يكون له كسوة سوى سائر العورة فإن هذا غلو ، والغالب أنه لا يوجد مثله ولا يخرج عن الفقر كونه معتاداً للسؤال ، فلا يجعل السؤال كسباً بخلاف ما لو قدر على كسب فإن ذلك يخرج عن الفقر فإن قدر على الكسب بآلة فهو فقير ويجوز أن يشتري له آلة . وإن قدر على كسب لا يليق بمروءته وبحال مثله فهو فقير ، وإن كان متفقها ويمتنع الاشتغال بالكسب عن التفقه فهو فقير ولا تعتبر قدرته ، وإن كان متعبداً يمنع الكسب من وظائف العبادات وأوراد الأوقات فليكتسب لأن الكسب أولى من ذلك قال صلى الله عليه وسلم «طلب الحلال فريضة بعد الفريضة»^(١) ، وأراد به السعي في الأكتساب . وقال عمر رضي الله عنه : كسب في شبهة خير من مسألة . وإن كان مكتفياً بنفقة أبيه أو من يجب عليه نفقته فهذا أهون من الكسب فليس بفقير (الصف الثاني) المساكين : والمسكين هو الذي لا يفي دخله بخرجه فقد يملك ألف درهم وهو مسكين وقد لا يملك إلا فأساً وجبلاً وهو غني ، والدورة التي يسكنها والثوب الذي يستره على قدر حاله لا يسلبه اسم المسكين ، وكذا أثاث البيت - أعني ما يحتاج إليه - وذلك ما يليق به ، وكذا كتب الفقه لا يخرج عن المسكنة وإذا لم يملك إلا الكتب فلا تلزمه صدقة الفطر . وحكم الكتاب حكم الثوب وأثاث البيت فإنه محتاج إليه ولكن ينبغي أن يحتاط في قطع الحاجة بالكتاب ، فالكتاب محتاج إليه لثلاثة أغراض : التعليم والاستفادة والتفريج بالمطالعة . أما حاجة التفريج فلا تعتبر كافتناء كتب الأشعار وتواريخ الأخبار وأمثال ذلك مما لا يرفع في الآخرة ولا يجري في الدنيا إلا المجري التفريج والاستئناس ، فهذا يباع في الكفارة وزكاة الفطر وتمتع اسم المسكنة . وأما حاجة التعليم إن كان لأجل الكسب كالمؤدب والمعلم والمدرس بأجره فهذه آتية فلا تباع في الفطرة كأدوات الحياض وسائر المحترفين ، وإن كان يدرس للقيام بفرض

(١) حديث « طلب الحلال فريضة بعد الفريضة » أخرجه الطبراني والبيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن مسعود

الكفاية فلا تباع ولا يسلبه ذلك اسم المسكين لأنها حاجة مهمة ، وأما حاجة الاستفادة والتعلم من الكتاب كادخاره كتب طب ليعالج بها نفسه أو كتاب وعظ ليطالع فيه ويتعظ به فإن كان في الدلد طيب وواعظ فهذا مستغنى عنه وإن لم يكن فهو محتاج إليه ثم ربما لا يحتاج إلى مطالعة الكتاب إلا بعد مدة فينبغي أن يضبط مدة الحاجة . والأقرب أن يقال ما لا يحتاج إليه في السنة فهو مستغنى عنه فإن من فضل من قوت يومه شيء لزمته الفطرة . فإذا قدرنا القوت باليوم لحاجة أثاث البيت وثياب البدن يذبحى أن تقدر بالسنة ؛ فلا تباع ثياب الصيف في الشتاء والكتب بالثياب والأثاث أشبه وقد يكون له من كتاب نسختان فلا حاجة إلى إحداها ؛ فإن قال : إحداها أصح والأخرى أحسن فأنا محتاج إليهما ؟ قلنا : اكتف بالأصح وبع الأحسن ودع التفرج والترفه . وإن كان نسختان من علم واحد إحداها بسيطة والأخرى وجيزة فإن كان مقصوده الاستفادة فليكتف بالبسيطة وإن كان قصده التدريس فيحتاج إليهما إذ في كل واحدة فائدة ليست في الأخرى . وأمثال هذه الصور لا تنحصر ولم يتعرض له في فن الفقه وإنما أوردناه لعموم البلوى والتنبه بحسن هذا النظر على غيره . فإن استقصاء هذه الصور غير ممكن إذ يتعدى مثل هذا النظر في أثاث البيت في مقدارها وعددها ونوعها وفي ثياب البدن وفي الدار وسعتها وضيقتها . وليس لهذه الأمور حدود محدودة ولكن الفقيه يحتهد فيها برأيه ويقرب في التحديدات بما يراه ويقترح فيه خطر الشبهات . والمتوزع يأخذ فيه بالأحوط ويدع ما يريه إلى ما يريه . والدرجات المتوسطة المشككة بين الأطراف المتقابلة الجليلة كثيرة ولا ينحى منها إلا الاحتياط والله أعلم . (الصف الثالث) العاملون : وهم السعاة الذين يجمعون الزكوات سوى الخليفة والقاضى ويدخل فيه العريف والكتاب والمستوى والحافظ والقال ولايزاد واحد منهم على أجره المثل ؛ فإن فضل شيء من الثمن عن أجر مثلهم رد على بقية الأصناف وإن نقص كل من مال المصالح (الصف الرابع) المؤلفون قلوبهم على الإسلام : وهم الأشراف الذين أسلموا وهم مطاعون في قومهم ، وفي إعطائهم تقريرهم على الإسلام وترعيب نظائرهم وأتباعهم (الصف الخامس) المكاتبون : فيدفع إلى السيد سهم المكاتب وإن دفع إلى المكاتب جاز ولا يدفع السيد زكاته إلى مكاتب نفسه لأنه يمد عبدا له . (الصف السادس) الغارمون : والغارم هو الذى استقرض في طاعة أو مباح وهو فقير فإن استقرض في معصية فلا يعطى إلا إذا تاب ، وإن كان غنيا لم يقض دينه إلا إذا كان قد استقرض لمصلحة أو إطفاء فتنه (الصف السابع) الغزاة : الذين ليس لهم مرسوم في ديوان المرتزقة فيصرف إليهم سهم وإن كانوا أغنياء إعانة لهم على الغزو (الصف الثامن) ابن السبيل : وهو الذى شخص من بلده ليسافر في غير معصية أو اجتاز بها فيعطى إن كان فقيرا وإن كان له مال ببلد آخر أعطى بقدر بلغته ؛ فإن قلت : فم تعرف هذه الصمات ؟ قلنا : أما الفقر والمسكنة فبقول الآخذ ولا يطالب ببينة ولا يحلف بل يجوز اعتماد قوله إذا لم يعلم كذبه . وأما الغزو والسفر فهو أمر مستقيل فيعطى بقوله إنى غاز فإن لم يف به استرد . وأما بقية الأصناف فلا بد فيها من البينة فهذه شروط الاستحقاق . وأما مقدار ما يصرف إلى كل واحد فسيأتى .

بيان وظائف القابض وهى خمسة

(الاولى) أن يعلم أن الله عزوجل أوجب صرف الزكاة إليه ليكنى همه ويجعل همومه هما واحدا . فقد تعبد الله عزوجل الخلق بأن يكون همهم واحدا وهو الله سبحانه واليوم الآخر وهو المعنى بقوله تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ ولكن لما اقتضت الحكمة أن يسلم على العبد الشهوات والحاجات وهى تفرق همه

اقتضى الكرم إفاضة نعمة تكفي الحاجات فأكثر الأموال وصبها في أيدي عباده لتكون آله لهم في دفع حاجاتهم ووسيلة انفرغهم لطاعتهم ، فمنهم من أكثر ماله فتنة وبلية فأقجمه في الخطر ومنهم من أحبه لحماه عن الدنيا كما يحمي المشفق مريضه فروى عنه فضولها وساق إليه قدر حاجته على يد الأغنياء ليكون سهل الكسب والتعب في الجمع والحفظ عليهم ، وفائدته تنصب إلى الفقراء فيتجردون لعبادة الله والاستعداد لما بعد الموت فلا تصرفهم عنها فضول الدنيا ولا تشغلهم عن التأهب الفاقة وهذا منتهى النعمة . فحق المقيم أن يعرف قدر نعمة الفقر ويتحقق أن فضل الله عليه فيما زواه عنه أكثر من فضله فيما أعطاه - كما سيأتي في كتاب الفقر تحقيقه وبيانه إن شاء الله تعالى - وأياً أخذ ما يأخذه من الله سبحانه رزقا له وعونا له على الطاعة ولتكن نيته فيه أن يتقوى به على طاعة الله فإن لم يقدر علمه فليصرفه إلى ما أباحه الله عز وجل فإن استعان به على معصية الله كان كافرا لأنعم الله عز وجل مستحقا للبعد والمقت من الله سبحانه (الثانيه) أن يشكر المعطى ويدعو له ويثني عليه ويكون شكره ودعاؤه بحيث لا يخرج عن كونه واسطة ولكنه طريق وصول نعمة الله سبحانه إليه ، وللطريق حق من حيث جعله الله طريقا وواسطة وذلك لا ينافي رؤية النعمة من الله سبحانه فقد قال صلى الله عليه وسلم « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » (١) ، وقد أثنى الله عز وجل على عباده في مواضع على أعمالهم وهو خالقها وفاطر القدرة عليها نحو قوله تعالى ﴿ نعم العبد إنه أواب ﴾ إلى غير ذلك . وليقل القابض في دعائه طهر الله قلبك في قلوب الأبرار وزكى عملك في عمل الأخيار وصلى على روحك في أرواح الشهداء وقد قال صلى الله عليه وسلم « من أسدى إليكم معروفًا فكافئوه فإن لم تستطيعوا فادعوا له حتى تعلموا أنكم قد كافأتموه » (٢) ، ومن تمام الشكر أن يستر عيوب العطاء إن كان فيه عيب ولا يحقره ولا يذمه ولا يعيره بالمنع إذا منع ويفخم عند نفسه وعند الناس صنيعه فوظيفة المعطى الاستصغار ووظيفة القابض تقلد المنه والاستعظام وعلى كل عند القيام بحقه ؛ وذلك لاتفاض فيه إذ موجبات التصغير والتعظيم تتعارض . والنافع للمعطى ملاحظة أسباب التصغير ويضره خلافه والآخذ بالعكس منه . وكل ذلك لا ينافي رؤية النعمة من الله عز وجل فإن من لا يرى الوسطة واسطة فقد جهل وإنما المنكر أن يرى الوسطة أصلا (الثالثة) أن ينظر فيما يأخذه فإن لم يكن من حل تورع عنه (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب) وإن يعدم المتورع عن الحرام فتوحا من الحلال . فلا يأخذ من أموال الأتراك والهنود وعمال السلاطين ومن أكثر كسبه من الحرام إلا إذا ضاق الأمر عليه وكان ما يسلم إليه لا يعرف له مالكا مميئا فله أن يأخذ بقدر الحاجة ؛ فإن فتوى الشرع في مثل هذا أن يتصدق به - على ما سيأتي بيانه في كتاب الحلال والحرام - وذلك إذا عجز عن الحلال فإذا أخذ لم يكن أخذه أحد زكاة إذ لا يقع زكاة عن مؤديه وهو حرام (الرابعة) أن يتوقى مواقع الريبة والاشتباه في مقدار ما يأخذه فلا يأخذ إلا المقدار المباح ولا يأخذ إلا إذا تحقق أنه موصوف بصفة الاستحقاق . فإن كان يأخذه بالكتابة والغرامة فلا يزيد على مقدار الدين . وإن كان يأخذ بالعمل فلا يريد على أجرة المثل . وإن أعطى زيادة أبي وامتنع إذ ليس المال للمعطى حتى يتبرع به . وإن كان مسافرا لم يزد على الزاد وكراه الدابة إلى مقصده . وإن كان غازيا لم يأخذ إلا ما يحتاج إليه للغزو خاصة من خيل وسلاح ونفقة . وتقدير ذلك بالاجتهاد وليس له حد ، وكذا زاد السفر ، والورع ترك ما يريبه إلا ما لا يريبه . وإن أخذ بالمسكنة فلينظر أولا إلى أمثاله بيته وثمانه

(١) حديث « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » أخرجه الترمذي وحسنه من حديث أبي سعيد وله ولأبي داود وابن جبان عموه من حديث أبي هريرة وقال حسن صحيح (٢) حديث « من أسدى إليكم معروفًا فكافئوه » الحديث « أخرجه أبو داود والنسائي من حديث ابن عمر بإسناد صحيح بلفظ « من صنع »

وكتبه هل فيها ما يستغنى عنه بعينه أو يستغنى عن نفاسته فيمكن أن يبدل بما يكفي ويفضل بعض قيمته ؟ وكل ذلك إلى اجتهاده . وفيه طرف ظاهر يتحقق معه أنه مستحق وطرف آخر مقابل يتحقق معه أنه غير مستحق ، بينهما أوساط مشتبهة ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، والاعتدال في هذا على قول الآخذ ظاهرا . والمحتاج في تقدير الحاجات مقامات في التصنيق والتوسيع ولا تحصر مراتبه وميل الورع إلى التصنيق وميل المتساهل إلى التوسيع حتى يرى نفسه محتاجا إلى فنون من التوسيع وهو عمقوت في الشرع . ثم إذا تحققت حاجته فلا يأخذن مالا كثيرا بل ما يتم كفايته من وقت أخذه إلى ستة . فهذا أقصى ما يرخص فيه من حيث أن السنة إذا تكررت تكررت أسباب الدخول . ومن حيث إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ادخر لعياله قوت سنة ^(١) فهذا أقرب ما يحتمل به حد الفقير والمسكين ولو اقتصر على حاجة شهره أو حاجة يومه فهو أقرب للتقوى . ومذاهب العلماء في قدر المأخوذ بحكم الزكاة والصدقة مختلفة فمن مبالغ في التقليل إلى حد أوجب الاقتصاد على قدر قوت يومه وليته وتمسكوا بما روى سهل بن الحنظلية « أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن السؤال مع الغنى فمثل عن ضناه . فقال صلى الله عليه وسلم غداؤه وعشاؤه ^(٢) ، وقال آخرون : يأخذ إلى حد الغنى . حد الغنى نصاب الزكاة إذ لم يوجب الله تعالى الزكاة إلا على الأغنياء فقالوا له أن يأخذ بنفسه ولكل واحد من عياله نصاب زكاة . وقال آخرون : حد الغنى خمسون درهما أو قيمتها من الذهب لما روى ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم قال « من سأل وله مال يغنيه جاء يوم القيامة وفي وجهه خورش فسل وماغناه ؟ قال خمسون درهما أو قيمتها من الذهب ^(٣) ، وقيل : راويه ليس بقوى وقال قوم : أو بعون ، لما رواه عطاء بن يسار منقطعاً أنه صلى الله عليه وسلم قال « من سأل وله أوقية فقد ألحف في السؤال ^(٤) ، وبالنسبة آخرون في التوسيع فقالوا : له أن يأخذ مقدار ما يشتري به ضيعة فيستغنى به طول عمره أو يهيئ بضاعة ليتهجر بها ويستغنى بها طول عمره لأن هذا هو الغنى وقد قال عمر رضي الله عنه : إذا أعطيتم فأغنوا ، حتى ذهب قوم إلى أن من افتقر فله أن يأخذ بقدر ما يعود به إلى مثل حاله ولو عشرة آلاف درهم إلا إذا خرج عن حد الاعتدال . ولما شغل أبو طلحة ببستانه عن الصلاة قال : جعلته صدقة . فقال صلى الله عليه وسلم « اجعله في قرابتك فهو خير لك ^(٥) ، فأعطاه حسان وأبا قتادة . لحاط من نخل لرجلين كثير مغن وأعطى عمر رضي الله عنه أعرابيا ناقة معها ظئر لها ، فهذا ما حكي فيه فأما التقليل إلى قوت اليوم أو الأوقية فذلك ورد في كراهية السؤال والتردد على الأبواب وذلك مستنكر وله حكم آخر ، بل التجوز إلى أن يشتري ضيعة فيستغنى بها أقرب إلى الاحتمال وهو أيضاً مائل إلى الإسراف . والأقرب إلى الاعتدال كفاية سنة فما وراه فيه خطر وفيما دونه تصنيق . وهذه الأمور إذا لم يكن فيها تقدير جزم بالتوقيف فليس للمجتهد إلا الحكم بما يقع له . ثم يقال للورع « استفت قلبك وإن أفوتك وأفتوك ^(٦) ، كما قاله صلى الله عليه وسلم إذ الإثم حراز القلوب ، فإذا وجد القابض في نفسه شيئا مما يأخذه فليبتق الله فيه ولا يترخص تعطلا بالفتوى من

(١) حديث « ادخر لعياله قوت سنة » أخرجه من حديث عمر « كان يعزل بقعة أهل سنة » واطبراني في الأوسط من حديث أنس « كان إذا ادخر لأهله قوت سنة تصدق عايق » قال الذهبي حديث منكر
(٢) حديث سهل بن الحنظلية « في النهي عن السؤال مع النبي فيسأل ما ينيه فقال غداؤه وعشاؤه » أخرجه أبو داود وابن حبان بلفظ « من سأل وله ما ينيه فإنما يستكثر من جرهم .. الحديث » (٣) حديث ابن مسعود « من سأل وله ما ينيه جاء يوم القيامة وفي وجهه خورش .. الحديث » أخرجه أصحاب السنن وحسنه الترمذي وضعفه النسائي والخطابي (٤) حديث عطاء بن يسار منقطعاً « من سأل وله أوقية فقد ألحف في السؤال » أخرجه أبو داود والنسائي من رواية عطاء بن يسار من أبي أسد متصلاً وليس بمتقطع كما ذكر المصنف لأن الرجل صحابي فلا يضر عدم تسميته وأخرجه أبو داود والنسائي وابن حبان من حديث أبي سعيد (٥) حديث « لما شغل أبو طلحة ببستانه عن الصلاة قال جعلته صدقة » تقدم في الصلاة
(٦) حديث « استفت قلبك وإن أفوتك » تقدم في العلم .

علماء الظاهر وإن اختلفوا في قیودا ومطلقا من الضرورات ، وفيها تخمينات واقتحام شبهات . والتوقى من الشبهات من شیم ذوی الدین وعادات السالکین لطریق الآخرة (الخامسة) أن یسأل صاحب المال عن قدر الواجب علیه فإن کان ما یعطیه فوق الثمن فلا يأخذه منه فإنه لا یستحق مع شریکة إلا الثمن فلینقص من الثمن مقدار ما یصرف إلى اثنين من صنغه . وهذا السؤال واجب علی أكثر الخلق فإنهم لا یراعون هذه القسمة إما للجهل وإما للتساهل ، وإنما یحوز ترك السؤال عن مثل هذه الأمور إذا لم یغلب علی الظن احتمال التحريم . وسيأتی ذکر ميطان السؤال ودرجة الاحتمال فی کتاب الحلال والحرام إن شاء الله تعالى .

الفصل الرابع : فی صدقة التطوع وفضلها وآداب أخذها وإعطائها

بيان فضيلة الصدقة

من الأخبار : قوله صلى الله عليه وسلم « تصدقوا ولو بتمررة فإنها تسد من الجائع وتطفي الحطية كما يطفى الماء النار » (١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « اتقوا النار ولو بشق تمررة فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة » (٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم « ما من عبد مسلم يتصدق بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا طيبا إلا كان الله أخذها بيمينه فيربها كما يربى أحدكم فضيله حتى تبلغ التمرة مثل أحد » (٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها ثم انظر إلى أهل بيت من جيرانك فأصبهم منه بمعروف » (٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم « ما أحسن عبد الصدقة إلا أحسن الله عز وجل الخلافة على تركته » (٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم « كل امرئ في ظل صدقته حتى يقضى بين الناس » (٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم « الصدقة تسد سبعين بابا من الشر » (٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم « صدقة السر تطفي غضب الرب عز وجل وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما الذى أعطى من سعة بأفضل أجرا من الذى يقبل من حاجة » (٨) ، ولعل المراد به الذى يقصد من دفع حاجته التفرغ للدين فيكون مساويا للبعطى الذى يقصد بإعطائه عمارة دينه . وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم « أى الصدقة أفضل ؟ قال : أن تصدق وأنت صحيح تأمل البقاء وتحشى الفاقة ولا تمهل حتى إذا بلغت الخلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان » (٩) ، وقد قال صلى الله عليه وسلم يوما لأصحابه « تصدقوا فقال رجل إن عندى دينار فقال أنفق على نفسك فقال : إن عندى آخر قال أنفق

(١) حديث « تصدقوا ولو بتمررة فإنها تسد من الجائع وتطفي الحطية كما يطفى الماء النار » أخرجه ابن المبارك في الزهد من حديث عكرمة مرسلا ولأحمد من حديث عائشة سدد حسن « استترى من النار ولو بشق تمررة فإنها تسد من الجائع مسدها من الشبان » ولأبي يعلى والزرار من حديث أنى بكر « اتقوا النار ولو بشق تمررة فإنها تقوم العوج وتدفع ميتة السوء وتقع من الجائع موقعها من الشبان » ولإساده ضعيف وللترمذى والنسائى فى السكبرى وابن ماجه فى حديث معاذ « والصدقة تطفي الحطية كما يطفى الماء النار » (٢) حديث « اتقوا النار ولو بشق تمررة فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة » أخرجه ابن ماجه من حديث عدى بن حاتم (٣) حديث « ما من عبد مسلم يتصدق بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا طيبا . الحديث » أخرجه البخارى تعليقا ومسلم والترمذى والنسائى فى السكبرى واللفظ لابن ماجه من حديث أنى هريرة (٤) حديث « قال لأبى الدرداء إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها .. الحديث » أخرجه من حديث أنى ذر أنه قال ذلك له وما ذكره المصنف أنه قال لأبى الدرداء وم (٥) حديث « ما أحسن عبد الصدقة إلا أحسن الله الخلافة على تركته » أخرجه ابن المبارك فى الزهد من حديث ابن شهاب مرسلا بإسناد صحيح وأسند الخطيب فيمن روى عن مالك من حديث ابن عمر وضعفه (٦) حديث « كل امرئ في ظل صدقته حتى يقضى بين الناس » أخرجه ابن حبان والحاكم وصححه على شرط مسلم من حديث عقبة بن عامر (٧) حديث « الصدقة تسد سبعين بابا من الشر » أخرجه ابن المبارك فى البر من حديث أنس سدد ضعيف « لأن الله ليدرأ فالصدقة سبعين بابا من ميتة السوء » (٨) حديث « ما المعطى من سعة بأفضل أجرا من الذى يقبل من حاجة » أخرجه ابن حبان فى الضعفاء والطبرانى فى الأوسط من حديث أنس ورواه فى السكبرى من حديث ابن عمر بسند ضعيف (٩) حديث « سئل أى الصدقة أفضل قال أن تصدق وأنت صحيح صحيح شحيح ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث أنى هريرة

على زوجته قال إن عندى آخر قال أنفقته على ولدك قال إن عندى آخر قال أنفقته على خادمك قال إن عندى آخر قال صلى الله عليه وسلم أنت أبصر به (١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « لا تحل الصدقة لآل محمد وإنما هى أو ساخ الناس (٢) » وقال « ردوا مدممة السائل ولو بمثل رأس الطائر من الطعام (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « لو صدق السائل ما أفلح من رده (٤) » وقال عيسى عليه السلام . من رد سائلا خائبا من بيته لم تغش الملائكة ذلك البيت سبعة أيام « وكان نبينا صلى الله عليه وسلم لا يسكل خصلتين إلى غيره كان يضع ظهوره بالليل ويخمره وكان يناول المسكين بيده (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « ليس المسكين الذى ترده التمرة والترتان واللقمة واللقمتان إنما المسكين المتعفف اقرءوا إن شئتم لا يسألون الناس إلحافا (٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « ما من مسلم يكسو مسلما إلا كان فى حفظ الله عز وجل مادامت عليه منه رقعة (٧) » * الآثار : قال عروة بن الزبير لقد تصدقت عائشة رضى الله عنها بخمسين ألفا وإن درعها المرقع وقال يجاهد فى قول الله عز وجل ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا ﴾ فقال : وهم يتستهون به وكان عمر رضى الله عنه يقول : اللهم اجعل الفضل عند خيارنا لعلمهم يعودون به على ذوى الحاجة منا . وقال عمر عبد العزيز : الصلاة تبلغك نصف الطريق والصوم يبلغك باب الملك والصدقة تدخلك عليه . وقال ابن أبي الجعد : إن الصدقة لتدفع سبعين بابا من السوء وفضل سرها على علاجيتها بسبعين ضعفا وإنما لتضك لحي سبعين شيطانا . وقال ابن مسعود : إن رحلا عبد الله سبعين سنة ثم أصاب فاحشة فأحبط عمله ثم مر بمسكين فتصدق عليه برعيف فغفر الله له ذنبه ورد عليه عمل السبعين سنة . وقال لقمان لابنه : إذا أخطأت خطيئة فأعط الصدقة . وقال يحيى بن معاذ ما أعرف حمة تزن جبال الدنيا إلا الحبة من الصدقة . وقال عبد العزيز بن أبي رواد : كان يقال ثلاثة من كنوز الجنة كتمان المرض وكتيان الصدقة وكتيان المصائب . وروى مسندا وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إن الأعمال تباغت فقالت الصدقة أنا أفضل لكن . وكان عبد الله بن عمر يتصدق بالسكر ويقول سمعت الله يقول ﴿ إن تناولوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ والله يعلم أنى أحب السكر . وقال النخعي : إذا كان الشيء لله عز وجل لا يسرفى أن يكون فيه عيب . وقال عبيد بن عمير : يحشر الناس يوم القيامة أحوج ما كانوا قط وأعطش ما كانوا قط وأعرى ما كانوا قط ، فمن أطعم الله عز وجل أشبعه الله ومن سقى الله عز وجل سقاه الله ومن كسا الله عز وجل كساه الله ، وقال الحسن : لو شاء الله لجعلكم أغنياء لا فقير فيكم ولكنه ابتلى بعضكم ببعض . وقال الشعبي : من لم ير نفسه إلى ثواب الصدقة أحوج من الفقير إلى صدقته فقد أبطل صدقته وضرب بها وجهه . وقال مالك : لا ترى بأسا بشرب المؤمن من الماء الذى يتصدق به ويسقى فى المسجد لأنه إنما جعل للعطشان من كان ، ولم يرد به أهل الحاجة والمسكنة على الخصوص ويقال : إن الحسن مر به نخاس

- (١) حديث « قال يوما لأصحابه تصدقوا فقال رجل لار عدى ديارا فقال أنفقته على نفسك .. الحديث » أخرجه أبو دواد والنسائي والمنظله وابن حبان والحاكم من حديث أبي هريرة وقد تقدم قبل يسير .
- (٢) « حديث لا تحل الصدقة لآل محمد .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث المطالب بن ربيعة .
- (٣) حديث « ردوا مدممة السائل ولو بمثل رأس الطائر من الطعام » أخرجه العقيلي فى الصعاء من حديث عائمة .
- (٤) حديث « لو صدق السائل ما أفلح من رده » أخرجه العقيلي فى الصعاء وابن عبد البر فى التمهيد من حديث عائشة ، قال العقيلي لا يصح فى هذا الباب شيء وللطبرانى نحوه من حديث أبي أمامة بسند ضعيف (٥) حديث « كان لا يسكل خصلتين إلى غيره .. الحديث » أخرجه الدارقطنى من حديث ابن عباس بسند ضعيف ورواه ابن المبارك فى البر مرسلا .
- (٦) حديث « ليس المسكين الذى ترده التمرة والترتان .. الحديث » متفق عليه من حديث عائشة .
- (٧) حديث « ما من مسلم يكسو مسلما إلا كان فى حفظ الله .. الحديث » أخرجه الترمذى وحسنه والحاكم وصحح إسناده من حديث ابن عباس وفيه خالد بن طهمان ضعيف

ومعه حارية فقال للنخاس أترضى في ثمنها الدرهم والدرهمين ؟ قال : لا ، قال فاذهب فإن الله عز وجل رضى في الحور العين بالفلس واللقة .

بيان إخفاء الصدقة وإظهارها

قد اختلف طريق طلاب الإخلاص في ذلك فال قوم إلى أن الإحفاء أفضل ومال قوم إلى أن الإظهار أفضل ونحن لتشير إلى مافي كل واحد من المعاني والآفات ثم نكشف الغطاء عن الحق فيه .

أما الإخفاء ففيه خمسة معان (الأول) أنه أبقى للستر على الآخذ فإن أخذه ظاهراً هتك لستر المرورة وكشف عن الحاحه وخروج عن هيئة التعفف والتصون المحبوب الذي يحسب الجاهل أهله أغنياء من التعفف . (الثاني) أنه أسلم لقلوب الناس وألسنتهم فإنهم ربما يحسدون أو ينكرون عليه أخذه ويطنون أنه آخذ مع الاستغناء أو ينسبون له إلى أخذ زيادة . والحسد وسوء الظن والغيبة من الذنوب الكبار وصياتهم عن هذه الجرائم أولى . وقال أبو أيوب السجستاني : إني لأترك لبس الثوب الحديد خشية أن يحدث في جيراني حسدا . وقال بعض الرهاد : ربما تركت استعمال الشيء لأجل إخواني يقولون من أين له هذا ؟ وعن اراهيم التيمي : أنه رأى عليه قيص جديد فقال بعض إخوانه من أين لك هذا ؟ فقال كسانيه أخى خيشمة ولو علمت أن أهله علموا به ما قبلته . (الثالث) إعانة المعطى على إسرار العمل فإن فضل السر على الجهر في الإعطاء أكثر والإعانة على إتمام المعروف معروف ، والكتمان لا يتم إلا بائنين فهما أظهر هذا انكشف أمر المعطى . ودفع رجل إلى بعض العلماء شيئاً ظاهراً فرده إليه ودفع إليه آخر شيئاً في السر فقبله ، فقيل له في ذلك فقال : إن هذا عمل الأدب في إخفاء معروفه فقبلته وذلك أساء أدبه في عمله فردده عليه وأعطى رجل بعض الصوفية شيئاً في الملاء فرده فقال له : لم ترد على الله عز وجل ما أعطاك ؟ فقال : إنك أشركت غير الله سبحانه فيما كان لله تعالى ولم تقنع بالله عز وجل فرددت عليك شركك . وقبل بعض العارفين في السر شيئاً كان رده في العلانية فقيل له في ذلك ؛ فقال عصيت الله بالجهر فلم أك عوناً لك على المعصية وأطعته بالإخفاء فأعنتك على برك وقال الثوري : لو علمت أن أحدهم لا يذكر صدقته ولا يتحدث بها لقبلك صدقته . (الرابع) أن في إظهار الآخذ ذلاً وامتهاناً وليس للؤمن أن يذل نفسه . كان بعض العلماء يأخذ في السر ولا يأخذ في العلانية ويقول : إن في إظهاره إذلالاً للعلم وامتهاناً لأهله فإذ كان بالذي أرفع شيئاً من الدنيا بوضع العلم وإذلال أهله (الخامس) الاحتراز من شبهة الشركة قال صلى الله عليه وسلم ، من أهدى له هدية وعنده قوم فهم شركاؤه فيها ^(١) ، وبأن يكون ورقاً أو ذهباً لا يخرج عن كونه هدية قال صلى الله عليه وسلم « أفضل ما يهدى الرجل إلى أخيه ورقاً أو يطعمه خبزاً ^(٢) ، فجعل الورق هدية بانفراده فما يعطى في الملاء مكروه إلا برضا جميعهم ولا يخلو عن شبهة ، فإذا انفرده سلم من هذه الشبهة .

أما الإظهار والتحدث به ففيه معان أربعة (الأول) الإخلاص والصدق والسلامة عن تلبس الحلال والمرآة (الثاني) إسقاط الجاه والمنزلة وإظهار العبودية والمسكنة والتبري عن الكبرياء ودعوى الاستغناء وإسقاط النفس من أعين الخلق . قال بعض العارفين لتلميذه : أظهر الآخذ على كل حال إن كنت آخذاً فإنك لا تخلو عن أحد رجلين :

(١) حديث « من أهدى له هدية وعنده قوم فهم شركاؤه فيها » أخرجه العقيلي وإن جابن في الضمراء والعلواني في الأوسط والبيهقي من حديث ابن عباس قال العقيلي لا يصح في هذا المتن حديث (٢) حديث « أفضل ما يهدى الرجل إلى أخيه ورقاً أو يطعمه خبزاً » أخرجه ابن عدى وضمفه من حديث ابن عمر « أفضل العمل عند الله أن يقضى عن مسلم دينه أو يدخل عليه سروراً أو يطعمه خبزاً » ولأحمد والترمذي وصححه من حديث البراء « من منح منحة ورق أو منحة لبن أو أهدي رقفاً فهو كمنافق نسمة »

رجل تسقط من قلبه إذا فعلت ذلك فذلك هو المراد لأنه أسلم لدينك وأقل لآفات نفسك ، أورد رجل تزداد في قلبه بإظهارك الصدق فذلك الذي يريد أخوك لأنه يزداد ثواباً بزيادة حبه لك وتعظيمه إياك فتوَجَّر أنت إذ كنت سبب مزيد ثوابه . (الثالث) هو أن العارف لا نظر له إلا إلى الله عز وجل والسر والعلانية في حقه واحد فاختلاف الحال شرك في التوحيد . قال بعضهم : كنا لانعباً بدعاء من يأخذ في السر ويرد في العلانية . والاتفات إلى الخلق حضروا أم غابوا نقصان في الحال ، بل ينبغي أن يكون النظر مقصور على الواحد الفرد . حكى أن بعض الشيوخ كان كثير الميل إلى واحد من جملة المريدين هشق على الآخرين فأراد أن يظهر لهم فضيلة ذلك المريد ، فأعطى كل واحد منهم دجاجة وقال : لينفرد كل واحد منكم بها وليذبها حيث لا يراه أحد . فانفرد كل واحد وذبح إلا ذلك المريد فإنه رد الدجاجة ، فسألهم فقالوا : فعلنا ما أمرنا به الشيخ ، فقال الشيخ للمريد : مالك لم تذبح كما ذبح أصحابك ؟ فقال ذلك المريد . لم أقدر على مكان لا يراني فيه أحد فإن الله يراني في كل موضع ، فقال الشيخ : لهذا أميل إليه لأنه لا يلتفت لغير الله عز وجل . (الرابع) أن الإظهار إقامة لسنة الشكر وقد قال تعالى ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ والسكتان كفران النعمة وقد ذم الله عز وجل من كتم ما آتاه الله عز وجل وقرنه بالبخل فقال تعالى ﴿ الذين يبخلون ويأمزون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « إذا أنعم الله على عبد نعمة أحب أن ترى نعمته عليه ^(١) ، وأعطى رجل بعض الصالحين شيئاً في السر فرفع به يده وقال : هذا من الدنيا والعلانية فيها أفضل والسر في أمور الآخرة أفضل . ولذلك قال بعضهم . إذا أعطيت في المأثم فخذ ثم اردد في السر والشكر فيه محثوث عليه . قال صلى الله عليه وسلم « من لم يتشكر الناس لم يتشكر الله عز وجل ^(٢) ، والشكر قائم مقام المكافأة حتى قال صلى الله عليه وسلم « من أسدى إليكم معروفًا فكافؤوه فإن لم تستطيعوا فأمسوا عليه به حيرا وادعوا له حتى تعلموا أنكم قد كافأتموه ، ولما قال المهاجرون في الشكر « يا رسول الله ما رأينا خيراً من قوم نزلنا عندهم قاسمونا الأموال حتى خفنا أن يذهبوا بالأجر كله فقال صلى الله عليه وسلم كل ما شكرتم لهم وأنتميتهم عليهم به فهو مكافأة ^(٣) . » .

فالآن إذا عرفت هذه المعاني فاعلم أن ما نقل من اختلاف الناس فيه ليس اختلافاً في المسئلة بل هو اختلاف حال ، فكشف الغطاء في هذا أنا لانحكم حكماً بتنا بأن الإخفاء أفضل في كل حال أو الإظهار أفضل بل يختلف ذلك باختلاف النيات وتختلف البيات باختلاف الأحوال والأشخاص . فينبغي أن يكون المخلص مراقباً لنفسه حتى لا يتبدل بجبل الغرور ولا يتخذ بتبليس الطبع ومكر الشيطان والمكر والخداع أغلب في معاني الإخفاء منه في الإظهار مع أن له دخلاً في كل واحد منهما . فأما مدخل الخداع في الإسرار فمن ميل الطبع إليه لما فيه من في خفض الجاه والمنزلة وسقوط القدر عن أعين الناس ونظر الخلق إليه بعين الازدراء وإلى المعطى بعين المنعم المحسن فهذا هو الداء الدفين ويستكن في النفس . والشيطان بواسطته يظهر معاني الخير حتى يتعمل بالمعاني الخسة التي ذكرناها . ومعيار كل ذلك ومحكمه أمر واحد وهو أن يكون تأمله بانكشاف أخذه الصدقة كتأمله بانكشاف صدقة أخذها بعض نظرائه وأمثاله ، فإنه إن كان ينبغي صيانة الناس عن الغيبة والحسد وسوء الظن أو يتقى

(١) حديث « إذا أنعم الله تعالى على عبد نعمة أحب أن ترى عليه » أخرجه أحمد من حديث عمران بن حصين بسند صحيح وحسنه الترمذى من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . (٢) حديث « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » تقدم . (٣) حديث « قالت المهاجرون يا رسول الله ما رأينا خيراً من قوم نزلنا عليهم .. » أخرجه الترمذى وصححه من حديث أنس ورواه مختصراً أبو داود والسنائي في اليوم واللييلة والحاكم وصححه ابن ماجه

انتهاك الستر أو إعانة المعطى على الإسرار أو صيانة العلم عن الابتدال فكل ذلك مما يحصل بانكشاف صدقة أخيه ، فإن كان انكشاف أمره أثقل عليه من انكشاف أمر غيره فتقديره الحذر من هذه المعاني أظليظ وأباطيل من مكر الشيطان وخدعه ، فإن إذلال العلم محدود من حيث إنه علم لا من حيث إنه علم زيد أو علم عمرو . والغيبة محذورة من حيث إنها تعرض لعرض مصون لا من حيث إنها تعرض لعرض زيد على الخصوص ومن أحسن من ملاحظة مثل هذا ربما يعجز الشيطان عنه وإلا فلا يزال كثير العمل قليل الخط . وأما جانب الإظهار فيل الطبع إليه من حيث إنه تطيب لقلب المعطى واستحثاث له على مثله وإظهاره عند غيره أنه من المبالغين في الشكر حتى يرغبوا في إكرامه وتفقدته وهذا داء دفين في الباطن ، والشيطان لا يقدر على المتدين إلا بأن يروج عليه هذا الخبث في معرض السنة ويقول له الشكر من السنة والإخفاء من الرياء ويورد عليه المعاني التي ذكرناها ليحمله على الإظهار وقصده الباطن ما ذكرناه ومعيار ذلك ومحك أن ينظر إلى ميل نفسه إلى الشكر حيث لا ينتهي الخبر إلى المعطى ولا إلى من يرغب في عطائه ؛ وبين يدي جماعة يكرهون إظهار العطفية ويرغبون في إخفائها وعادتهم أنهم لا يعطون إلا من يخفى ولا يشكر . فإن استوت هذه الأحوال عنده فليعلم أن باعته هو إقامة السنة في الشكر والتحدث بالنعمة وإلا فهو مغرور . ثم إذا علم أن باعته السنة في الشكر فلا ينبغي أن يعمل عن قضاء حق المعطى فينظر فإن كان هو بمن يجب الشكر والنشر فينبغي أن يخفى ولا يتشكر ، لأن قضاء حقه أن لا ينصره على الظلم وطلبه الشكر ظلم . وإذا علم من حاله أنه لا يجب الشكر ولا يقصده فعند ذلك يتشكره ويظهر صدقته . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للرجل الذي مدح بين يديه « ضربتم عنقه لو سمعها ما أفلح »^(١) ، مع أنه صلى الله عليه وسلم كان يثنى على قوم في وجوههم لثقتهم بيقينهم وعلمه بأن ذلك لا يضرهم بل يريد في رغبتهم في الخير فقال لواحد « إنه سيد أهل الوبر »^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم في آخر « إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه »^(٣) ، وسمع كلام رجل فأعجبه فقال صلى الله عليه وسلم « إن من البيان لسحراً »^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إذا مدح المؤمن ربا الإيمان في قلبه »^(٥) ، وقال الثوري : من عرف نفسه لم يضره مدح الناس . وقال أيضاً ليوسف بن أسباط : إذا أوليتك معروفا كنت أنا أسر به منك ورأيت ذلك نعمة من الله عز وجل على فاشكر وإلا فلا تشكر . ورقائق هذه المعاني ينبغي أن يلحظها من يراعى قلبه فإن أعمال الجوارح مع إهمال هذه الدقائق صحكة للشيطان وشماتة له لكثرة التعب وقلة النفع ، ومثل هذا العلم هو الذي يقال فيه : إن تعلم مسألة واحدة منه أفضل من عبادة سنة إذ بهذا العلم تحيا عبادة العمل وبالجهل به تموت عبادة العمل كله وتتعلل . وعلى الجملة فالأخذ في الملأ والرد في السر أحسن المسالك وأسلمها ، فلا ينبغي أن يدفع بالتزويقات إلا أن تكمل المعرفة

- (١) حديث « قال للرجل الذي مدح بين يديه ضربتم عنقه لو سمعها ما أفلح » متفق عليه من حديث أبي بكر بن نافع « ويحك قطعت عنق صاحبك » راد الطبراني في رواية « والله لو سمعها ما أفلح أبدا » وفي نسخة على بن زيد بن جندعان متكلم فيه وابن ماجه نحوه من حديث أبي موسى (٢) حديث « إنه سيد أهل الوبر » أخرجه العبري والطبراني وابن ماجه وابن حبان في الثقات من حديث قيس بن عاصم المقرئ « أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له ذلك » .
- (٣) حديث « إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه » أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر ورواه أبو داود في المراسيل من حديث الشعبي مرسلًا بسند صحيح وقال روى متصلًا وهو صيف والحاكم نحوه من حديث معبد بن خالد الأصبغى عن أبيه وصححه إسناده
- (٤) حديث « إن من البيان لسحرا » أخرجه البخاري من حديث ابن عمر
- (٥) حديث « إذا علم أحدكم من أخيه خيرا فليخبره فإنه يزداد رعة في الخير » أخرجه الدارقطني في الملل من رواية ابن المسيب عن أبي هريرة . وقال لا يصح عن الزهري وروى عن ابن المسيب مرسلًا
- (٦) حديث « إذا مدح المؤمن ربا الإيمان في قلبه » أخرجه الطبراني من حديث أسامة بن زيد بسند ضعيف

بحيث يستوى السر والعلانية وذلك هو الكبريت الأحمر الذي يتحدث به ولا يرى . نسأل الله الكريم حسن العون والتوفيق .

بيان الأفضل من أخذ الصدقة أو الزكاة

كان إبراهيم الخواص والجنييد وجماعة يرون أن الآخذ من الصدقة أفضل فإن في أخذ الزكاة مزاحمة للمساكين وتضييقا عليهم ولأنه ربما لا يكمل في أخذه صفة الاستحقاق كما وصف في الكتاب العزيز وأما الصدقة فالأمر فيها أوسع . وقال قائلون : بأخذ الزكاة دون الصدقة لأنها إعانة على الواجب . ولوترك المساكين كلهم أخذ الزكاة لأثموا : ولأن الزكاة لأمته فيها وإنما هو حق واجب لله سبحانه رزقا لعباده المحتاجين . ولأنه أخذ بالحاجة والإنسان يعلم حاجة نفسه قطعا . وأخذ الصدقة أخذ بالدين فإن العال أن المتصدق يعطى من يعتقد فيه حيرا ؛ ولأن مرافقة المساكين أدخل في الذل والمسكنة وأبعد من التكبر ؛ إذ قد يأخذ الإنسان الصدقة في معرض الهدية فلا تتميز عنه ؛ وهذا تضييق على ذل الآخذ وحاجته . والقرول الحق في هذا يختلف بأحوال الشخص وما يغلب عليه وما يحضره من النية فإن كان في شبهة من اتصافه بصفة الاستحقاق فلا ينبغي أن يأخذ الزكاة . فإذا علم أنه مستحق قطعا إذا حصل عليه دين صرفه إلى خير وليس له وجه في قضائه وهو مستحق قطعا . فإذا خير هذا بين الزكاة وبين الصدقة فإذا كان صاحب الصدقة لا يتصدق بذلك المال لو لم يأخذه هو فليأخذ الصدقة ؛ فإن الزكاة الواجبة يصرها صاحبها إلى مستحقها في ذلك تكثير للخير وتوسيع على المساكين . وإن كان المال معترضا للصدقة ولم يكن في أخذ الزكاة تضييق على المساكين وهو مخير والأمر بهما يتفاوت وأخذ الزكاة أشد في كسر النفس وإذلالها في أغلب الأحوال والله أعلم .

كل كتاب أسرار الزكاة بحمد الله وعونه وحسن توفيقه ؛ ويتلوه إن شاء الله تعالى كتاب أسرار الصوم والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى جميع الأنبياء والمرسلين وعلى الملائكة والمقرئين من أهل السموات والأرضين وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا دائما إلى يوم الدين والحمد لله وحده وحسبنا الله ونعم الوكيل ،

كتاب أسرار الصوم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أعظم على عباده المنة ، بما دفع عنهم كيد الشيطان وفنه ، ورد أمه وخيب ظنه ؛ إذ جعل الصوم حصنا لأولياؤه وجنة ، وفتح لهم به أبواب الجنة ، وعرفهم أن وسيلة الشيطان إلى قلوبهم الشهوات المستكنة ، وإن بقمعها تصبح النفس المطمئنة ظاهرة الشوكة في قضم خصمها قوية المنة ، والصلاة على محمد قائد الخلق ومهد السنة وعلى آله وأصحابه ذوى الأنصار الثاقبة والعقول المرجحة وسلم تسليما كثيرا . أما بعد : فإن الصوم روح الإيمان بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم « الصوم نصف الصبر »^(١) ، وبمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم « الصبر نصف

كتاب أسرار الصيام

(١) حديث « الصوم نصف الصبر » أخرجه الترمذي وحسنه من حديث رجل من بنى سليم وابن ماجه من حديث أبي هريرة

الإيمان^(١)، ثم هو متميز بحاصية النسبة إلى الله تعالى من بين سائر الأركان إذ قال الله تعالى فيما حكاه عنه نبيه صلى الله عليه وسلم « كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصيام فإنه لي وأنا أجرى به^(٢) » وقد قال الله تعالى (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) والصوم نصف الصبر فقد جاوز ثوابه قانون التقدير والحساب وناهيك في معرفة فضله قوله صلى الله عليه وسلم « والذي نفسى بيده لخلوف فم الصائم أطيب عنده الله من ريح المسك يقول الله عز وجل إنما يذر شهوته وطعامه وشرابه لأحلى فالصوم لي وأنا أجرى به^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « للجنة باب يقال له الريان لا يدخله إلا الصائمون وهو موعود بقاء الله تعالى في جزء صومه^(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « للصائم فرحتان فرحة عند إفطاره وفرحة عند لقاء ربه^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « لكل شيء باب وباب العبادة الصوم^(٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « نوم الصائم عبادة^(٧) » وروى أبو هريرة رضى الله عنه « أنه صلى الله عليه وسلم قال : إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار وصفدت الشياطين ونادى مناد يا باغي الخير هلم ويا باغي الشر أقصر^(٨) » وقال وكيع في قوله تعالى (كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية) هي أيام الصيام إذ تركوا فيها الأكل والشرب وقد جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم في رتبة المساهة بين الزهد في الدنيا وبين الصوم فقال « إن الله تعالى يباهى ملائكته بالشباب العابد فيقول : أيها الشاب التارك شهوته لأحلى المبدل شبابه لي أنت عندي كبعض ملائكتي^(٩) » وقال صلى الله عليه وسلم في الصائم « يقول الله عز وجل : انظروا يلاملائكتي إلى عبدي ترك شهوته ولذته وطعامه وشرابه من أجل^(١٠) » وقيل في قوله تعالى (ولا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين حراء بما كانوا يعملون) قيل كان عملهم الصيام لأنه قال (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) فيفرغ للصائم حزاؤه إفراغا ويجازف جزافا فلا يدخل تحت وهم وتقدير، وحدير بأن يكون كذلك لأن الصوم إنما كان له ومشرفا بالنسبة إليه وإن كانت العبادات كلها له كما شرف البيت بالنسبة إلى نفسه والأرض كلها له لمعنيين؛ أحدهما: أن الصوم كف وترك وهو في نفسه سر ليس فيه عمل يشاهد. وجميع أعمال الطاعات تمتهد من الخلق ومرأى والصوم لا يراه إلا الله عز وجل فإنه عمل في الباطن بالصبر المحترق. والثاني: أنه قهر لعدو الله عز وجل فإن وسيلة الشيطان لعنة الله الشهوات؛ وإنما تقوى الشهوات بالأكل والشرب. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان

(١) حديث « الصبر نصف الإيمان » أخرجه أبو نعيم في الحلية والطبيب في التاريخ من حديث ابن مسعود بسند حسن

(٢) حديث « كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصوم الحديث .. » أخرجه من حديث أبي هريرة

(٣) حديث « والذي نفسى بيده لخلوف فم الصائم .. الحديث » أخرجه من حديثه وهو بعض الذي قلناه

(٤) حديث « للجنة باب يقال له الريان .. الحديث » أخرجه من حديث سهل بن سعد (٥) حديث للصائم فرحتان .. الحديث « أخرجه من حديث أبي هريرة (٦) حديث « لكل شيء باب وباب العبادة الصوم » أخرجه ابن المبارك في الزهد ومن طريقه أبو الشيخ في الثواب من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف (٧) حديث « نوم الصائم عبادة » رويناه في أمالي ابن منده من رواية ابن المعمرة القواس عن عبد الله بن عمر بسند ضعيف ولعله عند الله بن عمرو فافهم لم يدكروا لابن المغيرة رواية لأبيه، ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث عبد الله بن أبي أوفى وفيه سليمان بن عمرو النخعي أحد السكندانيين

(٨) حديث « إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب الجنة » أخرجه الترمذي وقال غريب وابن ماجه والحاكم وصححه على شرطهما من حديث أبي هريرة وصحح البخاري وقته على محاهد وأصله متفق عليه دون قوله « ونادى مناد »

(٩) حديث « إن الله تعالى يباهى ملائكته بالنام العابد فيقول أيها الشاب التارك شهوته .. الحديث » أخرجه ابن عدي من حديث ابن مسعود بسند ضعيف (١٠) حديث « يقول الله تعالى للملائكته ياملائكتي انظروا إلى عبدي ترك شهوته ولذته

وطعامه وشرابه من أجل »

ليجرى من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع^(١) ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها « داومي قرع باب الجنة ؛ قالت : بماذا ؟ قال صلى الله عليه وسلم : بالجوع^(٢) ، - وسيأتي فضل الجوع في كتاب : شره الطعام - وعلاجه ، من ربح المهلكات - فلما كان الصوم على الخصوص قمعاً للشيطان وسداً لمسالكه وتضييقاً لمجاريه استحق تخصيصاً بالنسبة إلى الله عز وجل ففي قمع عدو الله نصرة لله سبحانه وناصر الله تعالى موقوف على النصرة له قال الله تعالى (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) فالبدية بالجهاد من العبد والجزاء بالهداية من الله عز وجل ولذلك قال تعالى (والذين حادوا فينا لنهدينهم سبلاً) وقال تعالى (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وإنما التغير تكثير الشهوات فهي مرتع الشياطين ومرعاهم فما دامت مخصصة لم ينقطع ترددهم وبها داموا يترددون لم ينكشف للعبد جلال الله سبحانه وكان محجوباً عن لقاءه . وقال صلى الله عليه وسلم « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السموات^(٣) ، فمن هذا الوجه صار الصوم باب العبادة وصار جنة وإذا عظمت فضيلته إلى هذا الحد فلا بد من بيان شروطه الظاهرة والباطنة بذكر أركانه وسننه وشروطه الباطنة ، ونبين ذلك بثلاثة فصول .

الفصل الأول : في الواجبات والسنن الظاهرة واللوامز بإفساده

أما الواجبات الظاهرة فسته

(الأول) مراقبة أول شهر رمضان وذلك برؤية الهلال فإن غم فاستكمال ثلاثين يوماً من شعبان . ونعني بالرؤية العلم ، ويحصل ذلك بقول عدل واحد . ولا يثبت هلال شوال إلا بقول عدلين احتياطاً للعبادة . ومن سمع عدلاً ووثق بقوله وغلب على ظنه صدقه لزمه الصوم وإن لم يقض القاضي به فليتبع كل عبد في عبادته موجب ظنه ، وإذا روى الهلال ببلدة ولم ير بأخرى وكان بينهما أقل من مرحلتين وحب الصوم على الكل ، وإن كان أكثر كان لكل بلدة حكمها ولا يتعدى الوجوب (الثاني) النية : ولا بد لكل ليلة من نية مبينة معينة جازمة فلو نوى أن يصوم شهر رمضان دفعة واحدة لم يكفه ، وهو الذي عيننا بقولنا « كل ليلة » ولو نوى بالنهار لم يحزه صوم رمضان ولا صوم الفرض إلا التطوع ، وهو الذي عيننا بقولنا « مبينة » ، ولو نوى الصوم مطلقاً أو الفرض مطلقاً لم يحزه حتى ينوى فريضة الله عز وجل صوم رمضان ولو نوى ليلة الشك أن يصوم غداً إن كان من رمضان لم يحزه فإنها ليست جازمة إلا أن تستند نيته إلى قول شاهد عدل ، واحتمال غلط العدل أو كذبه لا يبطل الجزم أو يستند إلى استصحاب حال كالشك في الليلة الأخيرة من رمضان ، فذلك لا يمنع جزم النية أو يستند إلى اجتهاد كالمحبوس في المظمورة إذا غلب على ظنه دخول رمضان باجتهاده فشكه لا يمنعه من النية . ومهما كان شاكاً ليلة الشك لم ينفعه جزمه السية باللسان فإن النية محلها القلب . ولا يتصور فيه جزم القصد مع الشك كما لو قال في وسط رمضان : أصوم غداً إن كان من رمضان فإن ذلك لا يضره لأنه ترديد لفظ ومحل النية لا يتصور فيه تردد بل هو قاطع بأنه من رمضان : ومن نوى ليلاً ثم أكل لم تفسد نيته ولو نوت امرأة في الحيض ثم ظهرت قبل الفجر صح صومها (الثالث) الإمساك عن إيصال شيء إلى الجوف عمداً مع ذكر الصوم فيفسد صومه بالأكل والشرب والسعوط والحقنة . ولا يفسد بالفصد والحجامة

(١) حديث « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم .. الحديث » متفق عليه من حديث صفية دون قوله « فضيقوا مجاريه بالجوع » (٢) حديث « قال لعائشة داومي قرع باب الجنة . الحديث » لم أجده له أصلاً
(٣) حديث « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم .. الحديث » أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة بنحوه

الاكتحال وإدخال الميل في الأذن والإحليل إلا أن يقطر فيه ما يبلغ المائة وما يصل بغير قصد من غبار الطريق . ذبابة تسبق إلى جوفه أو ما يسبق إلى جوفه في المضمضة ، فلا يفطر إلا إذا بالغ في المضمضة فيفطر نه مقصر وهو الذي أردنا بقولنا « عمدا » ، وأما ذكر الصوم فأردنا به الاحتراز عن الناس فإنه لا يفطر . ا من أكل عمدا في طرفي النهار ثم ظهر له أنه أكل هارا بالتحقيق فعليه القضاء وإن بقي على حكم ظنه واجتهاده لا قضاء عليه ولا ينبغي أن يأكل في طرفي النهار إلا بنظر واجتهاد . (الرابع) الإمساك عن الجماع : وحده مغيب لشفة وإن جامع ناسيا لم يفطر وإن جامع ليلا أو احتلم فأصبح جنباً لم يفطر وإن طلع الفجر وهو محالط أهله فزرع الحال صح صومه فإن صبر فسد وزمته الكفارة . (الخامس) الإمساك عن الاستمناء : وهو إخراج المنى قصداً مع أو بغير جماع فإن ذلك يفطر ولا يفطر بقبلة زوجته ولا بمضاجعتها ما لم ينزل ، لكن يكره ذلك إلا أن يكون ينخا أو مالكا لإربه ، فلا بأس بالتقيل وتركه أولى . وإذا كان يخاف من التقيل أن ينزل فقبل وسبق المنى أفطر نصيره . (السادس) الإمساك عن إخراج القيء فالاستقاء يفسد الصوم وإن ذرعه القيء لم يفسد صومه ، وإذا لمع نخامة من حلقة أو صدره لم يفسد صومه رخصة لعموم البلوى به إلا أن يتلعه بعد وصوله إلى فيه فإنه طر عند ذلك .

وأما لوازم الإفطار فأربعة

القضاء والكفارة والغدية وإمساك بقية النهار تشبها بالصائمين . أما القضاء : فوجوبه عام على كل مسلم مكلف يك الصوم بعذر أو بغير عذر ، فالحائض تقضى الصوم وكذا المرتد . وأما الكافر والصبي والمجنون فلا قضاء عليهم لا يشترط التتابع في قضاء رمضان ولكن يقضى كيف شاء متفرقا ومجموعا .

وأما الكفارة : فلا تجب إلا بالجماع . وأما الاستمناء والأكل والشرب وما عدا الجماع لا يجب به كفارة فالكفارة تتق رقبة فإن أعسر فصوم شهرين متتابعين وإن عجز فأطعام ستين مسكينا مدا مدا .

وأما إمساك بقية النهار : فيجب على من عصى بالفطر أو قصر فيه . ولا يجب على الحائض إذا ظهرت إمساك يية نهارها ولا على المسافر إذا قدم مفطرا من سفر بلغ مرحلتين . ويجب الإمساك إذا شهد بالهلال عدل واحد رم الشك . والصوم في السفر أفضل من الفطر إلا إذا لم يطق ولا يفطر يوم يخرج وكان مقيا في أوله ولا يوم ندم إذا قدم صائما .

وأما الغدية : فتجب على الحامل والمرضع إذا أفطرتا خوفا على ولديهما ، لكل يوم مده حنطة لمسكين واحد مع قضاء والشيخ الهرم إذا لم يصم تصدق عن كل يوم مدا .

وأما السنن فست : تأخير السحور ؛ وتعجيل الفطر بالتمر أو الماء قبل الصلاة ، وترك السواك بعد الزوال ، الجود في شهر رمضان لما سبق من فضائله في الزكاة ، ومدارسة القرآن ، والاعتكاف في المسجد ، لاسيا في العشر لأخير فهو عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان إذا دخل العشر الأواخر طوى الفراش وشد المنزر ودأب أدأب أهله ^(١) ، أى أداموا النصب في العبادة إذ فيها ليلة القدر والأغلب أنها في أوتارها وأشبه الأوتار ليلة إحدى ثلاث وحس وسبع . والتتابع في هذا الاعتكاف أولى فإن نذر اعتكافا متتابعا أونواه انقطع تتابعه بالخروج من

(١) حديث « كان إذا دخل العشر الأواخر طوى الفراش .. الحديث » متفق عليه من حديث عائشة بلفظ « أحيا الليل وأيقظ هله وجد وشد المنزر » .

غير ضرورة؛ كما لو خرج لقيادة أو شهادة أو جنازة أو زيارة أو تجديد طهارة، وإن خرج لقضاء الحاجة لم ينقطع وله أن يتوصلاً في البيت. ولا ينبغي أن يعرج على شغل آخر «كان صلى الله عليه وسلم لا يخرج إلا للحاجة الإنسان ولا يسأل عن المريض إلا ماراً»^(١)، ويقطع التتابع بالجماع ولا يقطع بالتقيل. ولا بأس في المسجد بالطيب وعقد التسكح وبالأكل والنوم وغسل اليد في الطست فكل ذلك قد يحتاج إليه في التتابع. ولا ينقطع التتابع بخروج بعض بدنه «كان صلى الله عليه وسلم يذني رأسه فترحله عائشة رضی الله عنها وهي في الحجر»^(٢)، ومهما خرج المعتكف لقضاء حاجته فإذا عاد ينبغي أن يستأنف النية إلا إذا كان قد نوى أولاً عشرة أيام مثلاً. والأفضل مع ذلك التجديد.

الفصل الثاني: في أسرار الصوم وشروطه الباطنية

اعلم أن الصوم ثلاث درجات: صوم العموم وصوم الخصوص وصوم الخصوص. أما صوم العموم فهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة كما سبق تفصيله. وأما صوم الخصوص فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام. وأما صوم الخصوص فهو كف الصائم عن المضغ الدنية والأفكار الدنيوية وكفه عما سوى الله عز وجل بالكلية، ويحصل الفطر في هذا الصوم بالسكر فيما سوى الله عز وجل والبوم الآخر وبالفكر في الدنيا إلا دنياً تراد للدين، فإن ذلك من زاد الآخرة وليس من الدنيا حتى قال أرباب القلوب: من تحركت همته بالتصرف في نهاره اتدبير ما يفطر عليه كتبت عليه حطيئة، فإن ذلك من قلة الوثوق بفضل الله عز وجل وقلة اليقين برزقة الموعود، وهذه رتبة الأنبياء والصدّيقين والمقربين ولا يطول النظر في تفصيلها قولا ولكن في تحقيقها عملاً، فإنه إقبال بكنهه الهمة على الله عز وجل وانصراف عن غير الله سبحانه وتلبس بمعنى قوله عز وجل ﴿قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾ وأما صوم الخصوص وهو صوم الصالحين فهو كف الجوارح عن الآثام وتسامه ستة أمور: الأول: غض البصر وكفه عن الاتساع في النظر إلى كل ما يذم ويكره وإلى كل ما يشغل القلب ويلهى عن ذكر الله عز وجل قال صلى الله عليه وسلم «الظنرة سهم مسموم من سهام إبليس لعنه الله فمن تركها خوفاً من الله آتاه الله عز وجل إيماناً يحد حلاوته في قلبه»^(٣)، وروى جابر عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «خمس يفطرن الصائم الكذب والغيبة والنميمة واليمين الكاذبة والنظر بشهوة»^(٤). الثاني: حفظ اللسان عن الهديان والكذب والغيبة والنميمة والفحش والجفاء والخصومة والمرأء، وإلزامه السكوت وشغله بذكر الله سبحانه وتلاوة القرآن فهذا صوم اللسان. وقد قال سفيان: الغيبة تفسد الصوم. رواه بشر بن الحارث عنه. وروى ليث عن مجاهد: خصلتان يفسدان الصيام الغيبة والكذب. وقال صلى الله عليه وسلم «لما الصوم جنة فإذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إلى صائم إلى صائم»^(٥)، وجاء في الخبر «أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجهدهما الجوع والعطش من آخر النهار حتى كادت أن تتلفا فبعثنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستأذناه في الإفطار فأرسل إليهما قدحا وقال صلى الله عليه وسلم: قل لهما

(١) حديث «كان لا يخرج إلا للحاجة ولا يسأل عن المريض إلا ماراً» متفق على الشطر الأول من حديث عائشة والشطر الثاني «رواه أبو داود نحوه بسندين» (٢) حديث «كان يذني رأسه لمائشة» متفق عليه من حديثها (٣) حديث «الظنرة سهم مسموم من سهام إبليس.. الحديث» أخرجه الحاكم وصححه إسناده من حديث حذيفة (٤) حديث جابر عن أنس «خمس يفطرن الصائم... الحديث» أخرجه الأزدي في الضعفاء من رواية جابان عن أنس وقوله جابر تصحيف قال أبو حاتم الرازي هذا كذاب (٥) حديث «الصوم جنة فإذا كان أحدكم صائماً.. الحديث» أخرجاه من حديث أبي هريرة

قيثا فيه ما أكلنا فقامت إحداهما نصفه دما عيطا ولحما غريضا وقامت الأخرى مثل ذلك حتى ملأناه فموجب الناس من ذلك فقال صلى الله عليه وسلم هاتان صامتتا عما أحل الله لها وأفطرتا على ما حرم الله تعالى عليهما . فعدت إحداهما إلى الأخرى فجعلنا يعتابان الناس فهذا ما أكلنا من لحومهم^(١) ، الثالث : كف السمع عن الإصغاء إلى كل مكروه لأن كل ما حرم قوله حرم الإصغاء إليه ولذلك سوى الله عز وجل بين المستمع وآكل السحت فقال تعالى ﴿ سماعون للكذب أكلون للسحت ﴾ وقال عز وجل ﴿ لولا ينهائم الربابيون والآخر عن قولهم الإثم وأكلهم السحت ﴾ فالسكوت على الغيبة حرام وقال تعالى ﴿ إنكم إذا مثلهم ﴾ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم د المغتاب والمستمع شريكان في الإثم^(٢) ، الرابع : كف بقية الجوارح عن الآثام من اليد والرجل عن المكراه ، وكف البطن عن الشبهات وقت الإفطار . فلا معنى للصوم وهو الكف عن الطعام الحلال ثم الإفطار على الحرام . فثال هذا الصائم مثال من يبى قصره ويهدم مصرا فإن الطعام الحلال إنما يضربكثرته لابنوعه ، فالصوم لتقليله . وتارك الاستكثار من الدواء خوفا من ضرره إذا عدل إلى تناول السم كان سفيها . والحرام سم مهلك للدين . والحلال دواء ينفع قليله ويضر كثيره . وقصد الصوم تقليله . وقد قال صلى الله عليه وسلم « كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش^(٣) » ، فمقل هو الذى يفطر على الحرام ، وقيل هو الذى يمسك عن الطعام الحلال ويفطر على لحوم الناس بالغيبة وهو حرام ، وقيل هو الذى لا يحفظ حوارحه عن الآثام . الخامس : أن لا يستكثر من الطعام الحلال وقت الإفطار بحيث يمتلى " حوفه " من وعاء أبغض إلى الله عز وجل من لطن ملى " من حلال . وكيف يستفاد من الصوم قهر عدو الله وكسر الشهوة إذا تدارك الصائم عند فطره ما فاهه ضخوة نهاره وربما يريد عليه في ألوان الطعام ؟ حتى استمرت العادات بأن تدخر جميع الأطعمة لرمضان فيؤكل من الأطعمة فيه ما لا يؤكل في عدة أشهر . ومعلوم أن مقصود الصوم الحوام وكسر الهوى لتقوى النفس على التقوى . وإذا دفعت المعدة من ضخوة نهار إلى العشاء حتى هاجت شهوتها وقويت رغبتها ثم أطعمت من اللذات وأشبعت رادت لذتها وتضاعفت قوتها وانبعث من الشهوات ما عساها كانت راكدة لو تركت على عاداتها . فروح الصوم وسره تضعيف القوى التي هي وسائل الشيطان في العود إلى الشرور ، وإن يحصل ذلك إلا بالتقليل وهو أن يأكل أكلته التي كان يأكلها كل ليلة لولم يصم فأما إذا جمع ما كان يأكل ضخوة إلى ما كان يأكل ليلا فلم ينتفع بصومه . بل من الآداب أن لا يكتر النوم بالنهار حتى يحس بالجوع والعطش ويستشعر ضعف القوى فيصفو عند ذلك قلبه ويستديم في كل ليلة قدرا من الضعف حتى يخف عليه تهجده وأوراده ، فعسى الشيطان أن لا يحوم على قلبه فينظر إلى ملكوت السماء . وليلة القدر عبارة عن الليلة التي ينكشف فيها شيء من الملكوت وهو المراد بقوله تعالى (إنا أنزلناه في ليلة القدر) ومن جعل بين قلبه وبين صدره مخللة من الطعام فهو عنه محجوب . ومن أخلى معدته فلا يكتفبه ذلك لرفع الحجاب مالم يخل همته عن غير الله عز وجل وذلك هو الأمر كله . ومبدأ جميع ذلك تقليل الطعام . وسيأتى له مزيد بيان في كتاب الأطعمة إن شاء الله عز وجل . السادس : أن يكون قلبه بعد الإفطار معلقا مضطربا بين الخوف والرجاء إذ ليس يدرى أيقبل صومه فهو من المقرين أو يرد عليه فهو من الممقوتين ؟ وليكن كذلك في آخر كل عبادة يفرغ

(١) حديث « أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث » في المية للصائم أخرجه أحمد من حديث عبيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث سند فيه مجهول (٢) حديث « المتاب والمستمع شريكان في الإثم » غريب ولطبراني من حديث ابن عمر سند ضعيف نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة وعن الاستماع إلى الغيبة (٣) حديث « كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش » أخرجه الدسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة

منها فقد روى عن الحسن بن أبي الحسن البصرى أنه مر بقوم وهم يضحكون فقال : إن الله عز وجل جعل شهر رمضان مضماراً لخلقه يستبقون فيه لطاعته فسبق قوم ففازوا وتخلف أقوام فخابوا فالعجب كل العجب للضحك اللاعب في اليوم الذي فاز فيه السابقون وخاب فيه المبطلون . أما والله لو كشف الغطاء لاشتغل المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته أى كان سرور المقبول يشغله عن اللعب وحسرة المردود تسد عليه باب الضحك . وعن الاحنف بن قيس : أنه قيل له إنك شيخ كبير وإن الصيام يضعفك فقال : إنى أعده لسفر طويل والصبر على طاعة الله سبحانه أهون من الصبر على عذابه . فهذه هى المعاني الباطنة فى الصوم * فإن قلت : فمن اقتصر على كف شهوة البطن والفرج وترك هذه المعاني فقد قال الفقهاء . صومه صحيح فما معناه ؟ فأعلم أن فقهاء الظاهر يشبثون شروط الظاهر بأدلة هى أضعف من هذه الأدلة التى أوردناها فى هذه الشروط الباطنة لاسيما الغيبة وأمثالها ، ولكن ليس إلى فقهاء الظاهر من التكاليف إلا ما يتيسر على عموم العاقلين المقبلين على الدنيا الدخول تحته . فأما علماء الآخرة فيؤمنون بالصحة القبول وبالقبول الوصول إلى المقصود . ويفهمون أن المقصود من الصوم التخلق بخلق من أخلاق الله عز وجل وهو الصمدية ، والاقتداء بالملائكة فى الكف عن الشهوات بحسب الإمكان فإنهم منزهون عن الشهوات . والإنسان رتبته فوق رتبة البهائم لقدرته بنور العقل على كسر شهوته ودون رتبة الملائكة لاستيلاء الشهوات عليه وكونه مبتلى بمجاهدتها ، فكما انهمك فى الشهوات انحط إلى أسفل السافلين والتحق بغمار البهائم ، وكما قمع الشهوات ارتفع إلى أعلى عليين والتحق بأفق الملائكة . والملائكة مقرَّبون من الله عز وجل والذى يقتدى بهم ويتشبه بأخلاقهم يقرب من الله عز وجل كقربهم ، فإن التشبيه من القريب قريب ، وليس القرب ثم بالمكان بل بالصفات . وإذا كان هذا سر الصوم عند أرباب الآليات وأصحاب القلوب فأى جدوى لتأخير أكلة وجمع أكلتين عند العشاء مع الانهماك فى الشهوات الأخر طول النهار ؟ ولو كان لمثله جدوى فأى معنى لقوله صلى الله عليه وسلم « كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش ، ولهذا قال أبو الدرداء : يا حبيذا يوم الأكياس وفطرم كيف لا يعيرون صوم الحق وسهرهم ! ولذرة من ذوى يقين وتقوى أفضل وأرجح من أمثال الجبال عبادة من المغتربين . ولذلك قال بعض العلماء كم من صائم مفطر وكم من مفطر صائم . والمعطر الصائم هو الذى يحفظ جوارحه عن الآثام ويأكل ويشرب ، والصائم المفطر هو الذى يجوع ويعطش ويطلق جوارحه . ومن فهم معنى الصوم وسره علم أن مثل من كف عن الأكل والجماع وأفطر بمخالطة الآثام كن مسح على عضو من أعضائه فى الرضوء ثلاث مرات فقد وافق فى الظاهر العدد إلا أنه ترك المهم وهو الغسل فصلاته مردودة عليه بجهله ، ومثل من أفطر بالأكل وصام بجوارحه عن المكراه كن غسل أعضائه مرة مرة فصلاته متقبلة إن شاء الله لإحكامه الأصل وإن ترك الفضل . ومثل من جمع بينهما كن غسل كل عضو ثلاث مرات لجمع بين الأصل والفضل وهو الكمال . وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن الصوم أمانة فليحفظ أحدكم أمانته ^(١) ، ولما تلا قوله عز وجل (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) وضع يده على سنامه وبصره فقال : السمع أمانة والبصر أمانة ^(٢) ، ولولا أنه من أمانات الصوم لما قال صلى الله عليه وسلم « فليقل إنى صائم ، أى إنى أودعت لسانى لأحفظه فكيف أطلقه بجوابك ؟ فإذا ظهر أن لكل عبادة ظاهرا وباطنا

(١) حديث « لنا الصوم أمانة فليحفظ أحدكم أمانته » أخرجه المراتضى فى مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود فى حديث فى الأمانة والصوم وإسناده حسن (٢) حديث « لما تلا قوله تعالى (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) وضع يده على سنامه وبصره وقال السمع أمانة والبصر أمانة » أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة دون قوله « السمع أمانة »

وقشرا ولبا ولقشرها درجات ولكل درجة طبقات . فإليك الخيرة الآن في ان تقنع بالقشر عن اللباب أو تتحيز إلى غمار أرباب الألباب .

الفصل الثالث : في التطوع بالصيام وترتيب الأوراد فيه

اعلم أن استحباب الصوم يتأكد في الأيام الفاضلة وفواضل الأيام بعضها يوجد في كل سنة وبعضها يوجد في كل شهر وبعضها في كل أسبوع . أما في السنة بعد أيام رمضان فيوم عرفة ويوم عاشوراء والعشر الأول من ذي الحجة والعشر الأول من المحرم . وجميع الأشهر الحرم مظان الصوم وهي أوقات فاضلة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر صوم شعبان حتى كان يظن أنه في رمضان ^(١) ، وفي الخبر « أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم ^(٢) . لأنه ابتداء السنة فبناؤها على الخير أحب وأرحى لدوام بركته . وقال صلى الله عليه وسلم « صوم يوم من شهر حرام أفضل من ثلاثين من غيره وصوم يوم من رمضان أفضل من ثلاثين من شهر حرام ^(٣) » وفي الحديث « من صام ثلاثة أيام من شهر حرام الخميس والجمعة والسبت كتب الله له بكل يوم عبادة تسعمائة عام ^(٤) » وفي الخبر : إذا كان النصف من شعبان فلا صوم حتى رمضان ^(٥) ولهذا يستحب أن يفطر قبل رمضان أياما فإن وصل شعبان برمضان لجأز ^(٦) فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة وفصل مرارا كثيرة ^(٧) ولا يجوز أن يقصد استقبال رمضان بيومين أو ثلاثة إلا أن يوافق وردا له وكره بعض الصحابة أن يصام رجب كله حتى لا يضاهى بشهر رمضان . فالأشهر الفاضلة : ذو الحجة والمحرم ورجب وشعبان . والأشهر الحرم : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ، واحد فرد وثلاثة سرد . وأفضلها ذو الحجة لأن فيه الحج والأيام المعلومات والمعدودات . وذو القعدة من الأشهر الحرم وهو من أشهر الحج ، وشقوال من أشهر الحج وليس من الحرم والمحرم ورجب ليسا من أشهر الحج . وفي الخبر « ما من أيام العمل فيهن أفضل وأحب إلى الله عز وجل من أيام عشر ذي الحجة إن صوم يوم منه يعدل صيام سنة وقيام ليلة منه تعدل قيام ليلة القدر « قيل : ولا الجهاد في سبيل الله تعالى ، قال : ولا الجهاد في سبيل الله عز وجل إلا من عقر جواده وأهريق دمه ^(٨) » وأما ما يتكرر في الشهر : فأقول الشهر وأوسطه وآخره ، ووسطه الأيام البيض وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر . وأما في الأسبوع : فالأثنين والخميس والجمعة فهذه هي الأيام الفاضلة فيستحب فيها الصيام وتكثير الخيرات لتضاعف أجورها ببركة هذه الأوقات . وأما صوم الدهر فإنه

(١) حديث « كان يكثر صيام شعبان .. الحديث » متفق عليه من حديث عائشة

(٢) حديث « أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٣) حديث « صوم يوم من شهر حرام أفضل من صوم ثلاثين .. الحديث » لم أجده هكذا وفي العجم الصير للطبراني من حديث ابن عباس « من صام يوما من المحرم فله بكل يوم ثلاثون يوما » (٤) حديث « من صام ثلاثة أيام من شهر حرام الخميس والجمعة والسبت .. الحديث » أخرجه الأزدى في الضعفاء من حديث أس (٥) حديث « إذا كان النصف من شعبان فلا صوم حتى رمضان » أخرجه الأربعة من حديث أبي هريرة واس حبان في صحيحه عنه « إذا كان النصف من شعبان فأفطروا حتى يمضي رمضان » وصححه الترمذي (٦) حديث « وصل شعبان برمضان مرة » أخرجه الأربعة من حديث أم سلمة « لم يكن يوم من السنة شهرا تاما إلا لشعبان يصل به رمضان وأخرج أبو داود والنسائي نحوه من حديث عائشة (٧) حديث « فصل شعبان من رمضان مرارا » أخرجه أبو داود من حديث عائشة قالت « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحفظ من هلال شعبان مالا يحفظ من غيره فإن عم عليه عد ثلاثين يوما ثم صام » وأخرجه الدارقطني وقال إسناده صحيح والمآكم وقال صحيح على شرط الشيخين (٨) حديث « ما من أيام العمل فيهن أفضل وأحب إلى الله من عشر ذي الحجة .. الحديث » أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة دون قوله « قيل ولا الجهاد الخ وعند البخاري من حديث ابن عباس « ما العمل في أيام أفضل من العمل في هذا الشهر قالوا ولا الجهاد قال ولا الجهاد إلا رجل خرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشيء »

شامل للسكل وزيادة وللسالكين فيه طرق فمنهم من كره ذلك إذ وردت أخبار تدل على كراهته . والصحيح أنه إنما يكره لشيئين ؛ أحدهما : أن لا يفطر في العيدين وأيام التشريق فهو الدهر كله ^(١) والآخر أن يرغب عن السنة في الإفطار ويجعل الصوم حجرا على نفسه مع أن الله سبحانه يجب أن توتي رحمة كما يجب أن توتي عزائمه . فإذا لم يكن شيء من ذلك ورأى صلاح نفسه في صوم الدهر فليفعل ذلك . فقد فعله جماعة من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم . وقال صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو موسى الأشعري « من صام الدهر كله ضيقت عليه جهنم وعقد تسعين ^(٢) » ومعناه لم يكن له فيها موضع ، ودونه درجة أخرى وهو صوم نصف الدهر بأصوم يوما ويفطر يوما وذلك أشد على النفس وأقوى في قهرها ، وقد ورد في فضله أخبار كثيرة لأن العبد فيه بين صوم يوم وشكر يوم فقد قال صلى الله عليه وسلم « عرضت على مفاتيح خزائن الدنيا وكنوز الأرض فردتها وقلت أحوج يوما وأشبع يوما أحمدك إذا شبعت وأتضرع إليك إذا حجت ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل الصيام صوم أخي داود كان يصوم ويفطر يوما ^(٤) » ومن ذلك « منازلته صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما في الصوم وهو يقول ؛ إني أطيق أكثر من ذلك ، فقال صلى الله عليه وسلم : صم يوما وأفطر يوما ، فقال : إني أريد أفضل من ذلك ، فقال صلى الله عليه وسلم : لا أفضل من ذلك ^(٥) » وقد روى « أنه صلى الله عليه وسلم ما صام شهرا كاملا قط إلا رمضان ^(٦) » بل كان يفطر منه ومن لا يقدر على صوم نصف الدهر فلا بأس بثلثه وهو أن يصوم ويفطر يومين . وإذا صام ثلاثة من من أول الشهر وثلاثة من الوسط وثلاثة من الآخر فهو ثلث ، وواقع في الأوقات الفاصلة . وإن صام الاثنين والخميس والجمعة فهو قريب من الثلث . وإذا ظهرت أوقات الفضيلة فالكامل في أن يفهم الإنسان معنى الصوم وأن مقصوده تصفية القلب وتفريغ الهم لله عز وجل . والفقيه بدقائق الباطن ينظر إلى أحواله فقد يقتضى حاله دوام الصوم وقد يقتضى دوام الفطر وقد يقتضى مزج الإفطار بالصوم . وإذا فهم المعنى وتحقق حده في سلوك طريق الآخرة بمراقبة القلب لم يخف عليه صلاح قلبه وذلك لا يوجب ترتيبا مستمرا . ولذلك روى أنه صلى الله عليه وسلم « كان يصوم حتى يقال لا يفطر ويفطر حتى يقال لا يصوم وينام حتى يقال لا يقوم ويقوم حتى يقال لا ينام ^(٧) » وكان ذلك بحسب ما ينكشف له بنور النبوة من القيام بحق الأوقات . وقد كره العلماء أن يوالى بين الإفطار أكثر من أربعة أيام تقديرا بيوم العيد وأيام التشريق وذكروا أن ذلك يقسى القلب ويولد ردى العادات ويفتح أبواب الشهوات ويعمرى هو كذلك في حق أكثر الخلق لاسيما من يأكل في اليوم والليل مرتين . فهذا ما أردنا ذكره من ترتيب الصوم المتطوع به والله أعلم بالصواب . تم كتاب : أسرار الصوم ، والحمد لله بجميع محامده كلها ما علمنا منها وما لم نعلم على جميع نعمه كلها ما علمنا منها

(١) الأحاديث الدالة على كراهة صيام الدهر أخرجه البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمرو في حديث لابن ماجة « لا صام من صام الأبد » ومسلم من حديث أبي قتادة « قيل يا رسول الله كيف من صام الدهر قال لا صام ولا أفطر » وأخرج النسائي نحوه من حديث عبد الله بن عمرو وعمران بن حصين وعبد الله بن الشيخير
(٢) حديث أبي موسى الأشعري « من صام الدهر كله ضيقت عليه جهنم هكذا وعقد تسعين » أخرجه أحمد والسنائي في الكبير وابن حبان وحسنه أبو علي الطوسي (٣) حديث « عرضت على مفاتيح خزائن الدنيا .. الحديث » أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة بنظير « عرض على ربي ليجعل لي بطحاء مكة دهايا » وقال حسن (٤) حديث « أفضل الصيام صوم أخي داود .. الحديث » أخرجه من حديث عبد الله بن عمرو (٥) حديث « منازلته لعبد الله بن عمرو قوله : صم يوما وأفطر يوما .. الحديث » أخرجه من حديثه (٦) حديث « ما صام شهرا كاملا قط إلا رمضان » أخرجه من حديث عائشة (٧) حديث « كان صوم حتى لا يقال لا يفطر .. الحديث » أخرجه من حديث عائشة وابن عباس دون ذكر « القيام والنوم » والبخاري من حديث أسس « كان يفطر من الشهر حتى يظن أن لا يصوم منه شيئا ويعصم حتى يظن أن لا يفطر منه شيئا وكان لا ينام تراه من الليل مصليا لا رأيت ولا نائما لا رأيت »

وما لم نعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وكرم وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسما يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب : أسرار الحج ، والله المعين لارب غيره وما توفيقى إلا بالله وحسبنا الله ونعم الوكيل .

كتاب أسرار الحج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذى جعل كلمة التوحيد لعباده حرزا وحصنا . وجعل البيت العتيق مثابة للناس وأمنا ، وأكرمه بالنسبة إلى نفسه تشريفا وتحصينا ومنا ، وجعل زيارته والطواف به حجابا بين العبد وبين العذاب ومجنا ، والصلاة على محمد بى الرحمة وسيد الأمة وعلى آله وصحبه قادة الحق وسادة الخلق وسلم تسليما كثيرا . أما بعد : فإن الحج من بين أركان الإسلام ومبانيه عبادة العمر وختام الأمر وتمام الإسلام وكال الدين . فيه أنزل الله عز وجل (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً) وفيه قال صلى الله عليه وسلم « من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا ^(١) ، فأعظم بعبادة يعدم الدين يفقدها الكمال ويساوى تاركها اليهود والنصارى فى الضلال ، وأحذر بها أن تصرف العناية إلى شرحها وتفصيل أركانها وسننها وآدابها وفضائلها وأسرارها . وجملة ذلك ينكشف بتوفيق الله عز وجل فى ثلاثة أبواب :

الباب الأول : فى فضائلها وفضائل مكة والبيت العتيق وجمال أركانها وشرايط وجوبها .

الباب الثانى : فى أعمالها الطاهرة على الترتيب من مبدأ السفر إلى الرجوع .

الباب الثالث : فى آدابها الدقيقة وأسرارها الخفية وأعمالها الباطنة : فلتبدأ بالباب الأول وفيه فصلان :

الفصل الأول : فى فضائل الحج وفضيلة البيت ومكة والمدينة حرسهما الله تعالى

وشد الرحال إلى المساجد

فضيلة الحج

قال الله عز وجل (وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) وقال قتادة لما أمر الله عز وجل لإبراهيم صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا وعلى كل عبد مصطفى أن يؤذن فى الناس بالحج نادى : يا أيها الناس إن الله عز وجل بنى بيتا فحجوه وقال تعالى (ليشهدوا منافع لهم) قيل التجارة فى الموسم والأجر فى الآخرة . ولما سمع بعض السلف هذا قال : غفر لهم ورب الكعبة . وقيل فى تفسير قوله عز وجل (لافعدن لهم صراطك المستقيم) أى طريق مكة يقعد الشيطان عليها لئمنع الناس منها وقال صلى الله عليه وسلم « من حج البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ^(٢) ، وقال أيضا صلى الله عليه وسلم « من حج البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » أخرجه من حديث أبى هريرة

كتاب أسرار الحج

(١) حديث « من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا » أخرجه ابن عدى من حديث أبى هريرة والترمذى نحوه من حديث على وقال عريب وفى إسناده مقال (٢) حديث « من حج البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » أخرجه من حديث أبى هريرة

الشیطان فی يوم اصفر ولا أدر ولا أحقر ولا أغيظ منه يوم عرفة ^(١) ، وما ذلك إلا لما يرى من نزول الرحمة وتجاوز الله سبحانه عن الذنوب العظام إذ يقال « إن من الذنوب ذنوبا لا يكفرها إلا الوقوف بعرفة ^(٢) » ، وقد أسنده جعفر بن محمد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وذكر بعض المكاشفين من المقربين أن إبليس لعنة الله عليه ظهر له في صورة شخص بعرفة فإذا هو ناحل الجسم مصفر اللون بأكي العين مقصوف الظهر فقال له : ما الذي أبكى عينك ؟ قال : خروج الحاج إليه بلا تجارة ، أقول قد قصدوه أخاف أن لا يخيبهم فيحزني ذلك قال : فما الذي أنحل جسمك ؟ قال : سهيل الخيل في سبيل الله عز وجل ولو كانت في سبيل كان أحب إلى ، قال : فما الذي غير لونك ؟ قال تعاون الجماعة على الطاعة ولو تعاونوا على المعصية كان أحب إلى ، قال : فما الذي قصف ظهرك ؟ قال : قول العبد أسألك حسن الخاتمة ، أقول يا ويلتي متى يعجب هذا بعمله أخاف أن يكون قد فطن ؟ وقال صلى الله عليه وسلم « من خرج من بيته حاجا أو معتمرا فمات أجرى له أجر الحاج المعتمر إلى يوم القيامة ومن مات في أحد الحرمين لم يعرض ولم يحاسب وقيل له ادخل الجنة ^(٣) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « حجة مبرورة خير من الدنيا وما فيها وحجة مبرورة ليس لها حزاء إلا الجنة ^(٤) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « الحجاج والعمار وفد الله عز وجل وزواره إن سألوه أعطاهم وإن استغفروه غفر لهم وإن دعوا استجيب لهم وإن شفَعوا شفَعوا ^(٥) » ، وفي حديث مسند من طريق أهل البيت عليهم السلام « أعظم الناس ذنبا من وقف بعرفة فظن أن الله تعالى لم يغفر له ^(٦) » ، وروى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ينزل على هذا البيت في كل يوم مائة وعشرون رحمة ستون للطائفين وأربعون للصلين وعشرون للناظرين ^(٧) » ، وفي الخبر « استكثروا من الطواف بالبيت فإنه من أجل شيء تجددونه في صحفكم يوم القيامة وأغبط عمل تجدونه ^(٨) » ، ولهذا يستحب الطواف ابتداء من غير حج ولا عمرة وفي الخبر « من طاف أسبوعا حافيا حاسرا كان له كعتق رقبة ومن طاف أسبوعا في المطر غفر له ما سلف من ذنبه ^(٩) » ، ويقال : إن الله عز وجل إذا غفر لعبد ذنبا في الموقف غفره لكل من أصابه في ذلك الموقف . وقال بعض السلف : إذا وافق يوم عرفة يوم جمعة غفر لكل أهل عرفة وهو أفضل

- (١) حديث « ما روى الشيطان في يوم هو أصفر .. الحديث » أخرجه مالك عن إبراهيم بن أبي عيلة عن طلحة بن عبد الله بن كريب مرسل
(٢) حديث « من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الوقوف بعرفة » لم أحده أصلا
(٣) حديث « من خرج من بيته حاجا أو معتمرا فمات أجرى الله له أجر الحاج المعتمر إلى يوم القيامة ومن مات في أحد الحرمين لم يعرض ولم يحاسب وقيل له ادخل الجنة » أخرجه البيهقي في الشعب بالشرط الأول من حديث أبي هريرة . وروى هو والدارقطني من حديث عائشة الشطر الثاني نحوه وكلاهما ضعيف
(٤) حديث « حجة مبرورة خير من الدنيا وما فيها وحجة مبرورة ليس لها حزاء إلا الجنة » أخرجه من حديث أبي هريرة الموطأ الثاني بلط « الحج المبرور » وقال « إن الحجة المبرورة » وعند ابن عدي « حجة مبرورة »
(٥) حديث « الحجاج والعمار وفد الله وزواره » أخرجه من حديث أبي هريرة دون قوله « وزواره » ودون قوله « إن سألوه أعطاهم وإن شفَعوا شفَعوا » وله من حديث ابن عمر « وسألوه فأعطاهم » ورواه ابن حبان
(٦) حديث « أعظم الناس ذنبا من وقف بعرفة فظن أن الله لم يغفر له » أخرجه الخطيب في المنتقى والمفتوح وأبو منصور شهر دار بن شيرويه الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر ماسدا ضعيف
(٧) حديث « ينزل على هذا البيت في كل يوم مائة وعشرون رحمة » أخرجه ابن حبان في الضعفاء والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس حسن وقان أبو حاتم حديث منكر
(٨) حديث « استكثروا من الطواف بالبيت » الحديث « أخرجه ابن حبان والحاكم من حديث ابن عمر « استمتعوا من هذا البيت فإنه هدم مرتين ويرفع في الثالثة » وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين .
(٩) حديث « من طاف أسبوعا حافيا حاسرا كان له كعتق رقبة ومن طاف أسبوعا في المطر غفر له ما سلف من ذنوبه » لم أجده هكذا وهند الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عمر « من طاف بهذا البيت أسبوعا فأحصاه كان كعتق رقبة » لفظ الترمذي وحسنه .

يوم في الدنيا ، وفيه حج رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع وكان واقفا إذ نزل قوله عز وجل (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً) (١) ، قال أهل الكتاب . لو أنزلت هذه الآية علينا لجعلناها يوم عيد فقال عمر رضى الله عنه : أشهد لقد نزلت هذه الآية في يوم عيدين اثنين ؛ يوم عرفة ويوم جمعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو واقف بعرفة . وقال صلى الله عليه وسلم : اللهم اغفر للحاج ولمن استغفر له الحاج (٢) ، ويروى أن علي بن موفق حج عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حججا قال : فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقال لى : يا ابن موفق حججبت عنى ؟ قلت : نعم ، قال : وليت عنى ؟ قلت : نعم . قال : فأبى أكافئك بها يوم القيامة آخذ بيدك فى الموقف فأدخلك الجنة والخلاق فى كرب الحساب . وقال مجاهد وغيره من العلماء : إن الحجاج إذا قدموا مكة تلقتهم الملائكة فسلوا على ركبنا الإبل وصالحوا ركبنا الحر واعتنقوا المشاة اعتناقاً . وقال الحسن : من مات عقيب رمضان أو عقيب غزو أو عقيب حج مات شهيداً . وقال عمر رضى الله عنه : الحاج مغفور له ولمن يستغفر له فى شهر ذى الحجة والحرم وصفر وعشرين من ربيع الأول . وقد كان من سنة السلف رضى الله عنهم أن يشيعوا الغزاة وأن يستقبلوا الحاج ويقبلوا بين أعينهم ويسألوهم الدماء ويبادرون ذلك قبل أن يتدنسوا بالآثام . ويروى عن علي بن موفق قال : حججت سنة فلما كان ليلة عرفة نمت بمى فى مسجد الخيف فرأيت فى المنام كأن ملكين قد نزلا من السماء عليهما ثياب حضر فنادى أحدهما صاحبه : يا عبد الله فقال الآخر : لبيك يا عبد الله ، قال : تدرى كم حج بيت ربنا عز وجل فى هذه السنة ؟ قال : لا أدرى قال : حج بيت ربنا ستائة ألف أفتردى كم قبل منهم ؟ قال : لا ، قال : ستة أنفس ، قال : ثم ارتفعا فى الهواء فعابا عنى فانتبهت فزعا واغتمت غما شديدا وأهمنى أمرى فقلت : إذا قبل حج ستة أنفس فأين أكون أنا فى ستة أنفس ؟ فلما أفضت من عرفة قمت عند المشعر الحرام فجعلت أفكر فى كثرة الخلق وفى قلة من قبل منهم ؛ فحملنى النوم فإذا الشخصان قد نرلا على هيتئما ؛ فنادى أحدهما صاحبه واعاد الكلام بعينه ثم قال : أتدرى ماذا حكم ربنا عز وجل فى هذه الليلة ؟ قال : لا ، قال : فإنه وهب لكل واحد من الستة مائة ألف ، قال : فانتبهت وبى من السرور ما يحل عن الوصف . وعنه أيضا رضى الله عنه قال : حججت سنة فلما قضيت مناسكى تفكرت فيمن لا يقبل حجه فقلت : اللهم إنى قد وهبت حجى وجعلت ثوابها لمن لم تقبل حجته قال : فرأيت رب العزة فى النوم جل جلالة فقال لى : يا على تنسخى على وأنا خلقت السخاء والاشخياء وأنا أجود الأجودين وأكرم الأكرمين وأحق بالجوهر والكرم من العالمين قد وهبت كل من لم أقبل حجه لمن قبلته .

فضيلة البيت ومكة المشرفة

قال صلى الله عليه وسلم : إن الله عز وجل قد وعد هذا البيت أن يحجه كل سنة ستائة ألف فإن تقصوا أكملهم الله عز وجل من الملائكة (٣) ، وإن الكعبة تحشر كالعروس المزفوفة وكل من حجها يتعلق بأستارها يسعون حولها حتى تدخل الجنة فيدخلون معها وفى الخبر ، إن الحجر الأسود ياقوته من يواقيت الجنة وأنه يبعث يوم القيامة له عينان ولسان ينطق

(١) حديث « وقوفه فى حجة الوداع يوم الجمعة ونزول (اليوم أكملت لكم دينكم) الحديث » أخرجه من حديث عمر

(٢) حديث « اللهم اغفر للحاج ولمن استغفر له الحاج » أخرجه الحاكم من حديث أنى هريرة وقال صحيح على شرط مسلم

(٣) حديث « من الله قد وعد هذا البيت أن يحجه فى كل سنة ستائة ألف .. الحديث » لم أجده أصلا

به يشهد لكل من استلمه بحق وصدق (١) ، وكان صلى الله عليه وسلم يقبله كثيرا (٢) وروى أنه صلى الله عليه وسلم سجد عليه وكان يطوف على الراحلة فيضع المحجن عليه ثم يقبل طرف المحجن (٣) وقبله عمر رضی الله عنه ثم قال: إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع (٤) ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك ، ثم بكى حتى علا نسيجه فالتفت إلى ورائه فرأى عليا كرم الله وجهه ورضى الله عنه فقال : يا أبا الحسن ههنا تسكب العبرات وتستجاب الدعوات ، فقال علي رضی الله عنه : يا أمير المؤمنين بل هو يضر وينفع ، قال : وكيف ؟ قال : إن الله تعالى لما أخذ الميثاق على الذرية كتب عليهم كتابا ثم القمه هذا الحجر ؛ فهو يشهد للمؤمن بالوفاء ويشهد على الكافر بالحدود . قيل : فذلك هو معنى قول الناس عند الاستلام « اللهم إيماناً بك وتصديقاً بكتابك ووفاء لعهدك . وروى عن الحسن البصري رضی الله عنه : إن صوم يوم فيها بمائة ألف يوم وصدقة درهم بمائة ألف درهم وكذلك كل حسنة بمائة ألف ويقال : طواف سبعة أسابيع يعدل عمرة وثلاث عمر تعدل حجة . وفي الخبر الصحيح : عمرة في رمضان كحجة معي (٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم « أنا أول من تلتحق عنه الأرض ثم آتى أهل البقيع فيحشرون معي ثم آتى أهل مكة فأحشر بين الحرمين (٦) ، وفي الخبر « إن آدم صلى الله عليه وسلم لما قضى مناسكه لقيته الملائكة فقالوا : برحمتك يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بالنبي عام (٧) ، وجاء في الأثر : إن الله عز وجل ينظر في كل ليلة إلى أهل الأرض فأول من ينظر إليه أهل الحرم وأول من ينظر إليه من أهل الحرم أهل المسجد الحرام فمن رآه طائفا غفر له ومن رآه مصليا غفر له ومن رآه قائما مستقبلا الكعبة غفر له . وكوشف بعض الأولياء رضی الله عنهم قال : إني رأيت الثغور كلها تسجد لعبادان ورأيت عبادان ساجدة لحدّة . ويقال : لا تغرب الشمس من يوم إلا ويطوف بهذا البيت رحل من الأبدال ، ولا يطلع الفجر من ليلة إلا طاف به واحد من الأوتاد ، وإذا انقطع ذلك كان سبب روجه من الأرض فيصبح الناس وقد رومت الكعبة لا يرى الناس لها اثرا ، وهذا إذا أتى عليها سبع سنين لم يحجها أحد . ثم يرفع القرآن من المصاحف فيصبح الناس فإذا الورق أبيض يلوح ليس فيه حرف ، ثم ينسخ القرآن من القلوب فلا يذكر منه كلمة ثم يرحم الناس إلى الأشعار والأعاني وأخبار الجاهلية . ثم يخرج الدجال وينزل عيسى عليه السلام فيقتله والساعة عند ذلك بمنزلة الحامل المقرب التي تتوقع ولادتها . وفي الخبر « استكثروا من الطواف بهذا البيت قبل أن يرفع فقد هدم مرتين ويرفع في الثالثة (٨) ، وروى عن علي رضی الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : قال

- (١) حديث « إن الحجر ناقورة من يواقيت الحمة ويعت يرم القيام له عينان . الحديث » أخرجه الترمذی وصححه النسائي من حديث ابن عباس « الحجر الأسود من الحمة » لعط النسائي وباقي الحديث رواه الترمذی وحسنه وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه إسناده من حديث ابن عباس أيضا وللحاكم من حديث أنس « إن الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الحمة » وصححه إسناده ورواه النسائي وابن حبان والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو .
- (٢) حديث « أنه صلى الله عليه وسلم كان يقبله كثيرا » أخرجاه من حديث عمر دون قوله « كثيرا » والنسائي « أنه كان يقبله كل مرة ثلاثا أو رآه حاليا » (٣) حديث « أنه كان يسجد عليه » أخرجه البرار والحاكم من حديث عمر وصححه إسناده .
- (٤) « قبله عمر وقال إني لأعلم أنك حجر » أخرجاه دون الزيادة التي رواها علي ورواه بتلك الزيادة الحاكم وقال ليس من شرط النبيين (٥) حديث « عمرة في رمضان كحجة معي » أخرجاه من حديث ابن عباس دون قوله « معي » فهي عند مسلم على ذلك « تصفى حجة أو حجة معي » ورواه الحاكم بزادتها من غير شك (٦) حديث « أنا أول من تلتحق عنه الأرض ثم آتى أهل البقيع ويحشرون معي .. الحديث » أخرجه الترمذی وحسنه ابن حبان من حديث ابن عمر .
- (٧) حديث « إن آدم لما قضى مناسكه لقيته الملائكة فقالوا برحمتك يا آدم .. الحديث » رواه المفضل الجمعدی ومن طريقه ابن الحوزی في الملل من حديث ابن عباس وقال لا يصح ورواه الأزرقي في تاريخ مكة موقوفا على ابن عباس .
- (٨) حديث « استكثروا من الطواف بهذا البيت .. الحديث » أخرجه العزاز وابن حبان والحاكم وصححه من حديث ابن عمر « استكثروا من هذا البيت فإنه هدم مرتين ويرفع في الثالثة »

الله تعالى « إذا أردت أن أخرب الدنيا بدأت ببيتي فخرته ثم أخرب الدنيا على أثره » (١) .

فضيلة المقام بمكة حرسها الله تعالى وكرهه

كره الخائفون المحتاطون من العلماء المقام بمكة لمعان ثلاثة (الأول) خوف التبرم والأذى بالبيت ؛ فإن ذلك ربما يؤثر في تسكين حرقة القلب في الاحترام ، وهكذا كان عمر رضی الله عنه يضرب الحجاج إذا حجوا ويقول : يا أهل اليمن يمينكم ويا أهل الشام شامكم ويا أهل العراق عراقكم . ولذلك هم عمر رضی الله عنه بمنع الناس من كثرة الطواف ، وقال : خشيت أن يأنس الناس بهذا البيت (الثاني) تهيب الشوق بالمفارقة لتنبعث داعية العودة فإن الله تعالى جعل البيت مثابة للناس وأمنا أى يثوبون ويعودون إليه مرة بعد أخرى ولا يقضون منه وطرا . وقال بعضهم تكون في بلد وقلبك مشتاق إلى مكة متعلق بهذا البيت خير لك من أن تكون فيه وأنت متبرم بالمقام وقلبك في بلد آخر . وقال بعض السلف : كم من رجل بحراسان وهو أقرب إلى هذا البيت من يطوف به ؟ ويقال : إن الله تعالى عمادا تطوف بهم الكعبة تقربا إلى الله عز وجل (الثالث) الخوف من ركوب الخطايا والذنوب بها ، فإن ذلك مخطر وبالحرى أن يورث مقت الله عز وجل لشرف الموضع . وروى عن وهيب بن الورد المكي قال : كنت ذات ليلة في الحجر أصلى فسمعت كلاما بين الكعبة والأستار يقول إلى الله أشكركم ثم إليك يا جبرائيل ما ألقى من الطائفين حولي من تفكرهم في الحديث ولغوهم وهوهم لأن لم ينتهوا عن ذلك لأن تنفضن انتفاضة يرجع كل حجر مني إلى الجبل الذي قطع منه . وقال ابن مسعود رضی الله عنه : ما من بلد يؤخذ فيه العبد بالنية قبل العمل إلا مكة وتلا قوله تعالى ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾ أى أنه على مجرد الإرادة . ويقال : إن السيئات تضاعف بها كما تضاعف الحسنات . وكان ابن عباس رضی الله عنه يقول : الاحتكار بمكة من الإلحاد في الحرم ، وقيل : الكذب أيضا وقال ابن عباس : لأن أذنب سبعين ذنبا بركية أحب إلى من أن أذنب ذنبا واحدا بمكة . وركية منزل بين مكة والطائف . والخوف ذلك انتهى بعض المقيمين إلى أن لم يقض حاجته في الحرم بل كان يخرج إلى الحل عند قضاء الحاجة . وبعضهم أقام شهرا وما وضع جنبه على الأرض . وللنوع من الإقامة كره بعض العلماء أجور دور مكة . ولا تظن أن كراهة المقام يناقض فضل البقعة لأن هذه كراهة علتها ضعف الخلق وقصورهم عن القيام بحق الموضع فعنى قولنا إن ترك المقام به أفضل أى بالإضافة إلى مقام مع التقصير والتبرم ، أما أن يكون أفضل من المقام مع الوفاء بحقه فهيات وكيف لا ولما عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة استقبل الكعبة وقال : إنك خير أرض الله عز وجل وأحب بلاد الله تعالى إلى ولولا أنى أخرجت منك لما خرجت (٢) ، وكيف لا والنظر إلى البيت عبادة والحسنات فيها مضاعفة كما ذكرناه .

فضيلة المدينة الشريفة على سائر البلاد

ما بعد مكة بقعة أفضل من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم فالأعمال فيها أيضا مضاعفة قال صلى الله عليه وسلم « صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام » (٣) ، وكذلك كل عمل بالمدينة بألف

(١) حديث « قال الله إذا أردت أن أخرب الدنيا بدأت ببيتي فخرته ثم أخرب الدنيا على أثره » ليس له أصل

(٢) حديث « إنك خير أرض الله وأحب بلاد الله إلى الله ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت » أخرجه الترمذى وسححه النسائى فى السكبرى وابن ماجه وابن سبان من حديث عبد الله بن عدى بن الحمراء (٢) حديث « صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام » متفق عليه من حديث أنى هريرة ورواه مسلم من حديث ابن عمر

وبعد مدینته الأرض المقدسة فإن الصلاة فيها بخمسة صلاة فيما سواها إلا المسجد الحرام ، وكذلك سائر الأعمال . وروى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « صلاة في مسجد المدينة بعشرة آلاف صلاة وصلاة في المسجد الأقصى بألف صلاة وصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من صبر على شدتها ولأوائها كنت له شفيعا يوم القيامة »^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت فإنه لن يموت بها أحد إلا كنت له شفيعا يوم القيامة »^(٣) ، وما بعد هذه البقاع الثلاث فالمواضع فيها متساوية إلا الثغور فإن المقام بها للرابطة فيها فيه فضل عظيم . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ، لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى^(٤) ، وقد ذهب بعض العلماء إلى الاستدلال بهذا الحديث في المنع من الرحلة لزيارة المشاهد وقبور العلماء والصلحاء . وما تبين لي أن الأمر كذلك بل الزيارة مأمور بها قال صلى الله عليه وسلم « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ولا تقولوا هجرا »^(٥) ، والحديث إنما ورد في المساجد وليس في معناها المشاهد ، لأن المساجد بعد المساجد الثلاثة متماثلة ولا بلد إلا وفيه مسجد فلا معنى للرحلة إلى مسجد آخر ، وأما المشاهد فلا تتساوى بل بركة زيارتها على قدر درجاتهم عند الله عز وجل ، نعم لو كان في موضع لا مسجد فيه فله أن يشد الرحال إلى موضع فيه مسجد وينتقل إليه بالكلية إن شاء ثم ليت شعري هل يمنع هذا القائل من شد الرحال إلى قبور الأنبياء عليهم السلام مثل إبراهيم وموسى ويحيى وغيرهم عليهم السلام ، فالمنع من ذلك في غاية الإحالة ، فإذا جاز هذا قبور الأولياء والعلماء والصلحاء في معناها ، فلا يبعد أن يكون ذلك من أغراض الرحلة كما أن زيارة العلماء في الحياة من المقاصد ؛ هذا في الرحلة . أما المقام فالأولى بالمريد أن يلزم مكانه إذا لم يكن قصده من السفر استفادة العلم مهما سلم له حاله في وطنه ؛ فإن لم يسلم فيطلب من المواضع ما هو أقرب إلى الخمول وأسلم للدين وأفرح للقلب وأيسر للعبادة فهو أفضل المواضع له ، قال صلى الله عليه وسلم « البلاد بلاد الله عز وجل والخلق عباده فأى موضع رأيت فيه رفقا فأقم واحمد الله تعالى »^(٦) ، وفي الخبر « من بورك له في شيء فليلزمه ومن جعلت معيشته في شيء فلا ينتقل عنه حتى يتغير عايه »^(٧) ، وقال أبو نعيم : رأيت سعيان الثوري وقد جعل جرابه على كتفه وأخذ نعلبه بيده فقلت : لى أين يا أبا عبد الله ؟ قال : إلى بلد أملا فيه جرابي بدرهم . وفي حكاية أخرى بلغني عن قرية فيها رخص أقيم فيها ، قال فقلت : وتفعل هذا يا أبا عبد الله ؟ فقال : نعم إذا سمعت برخص في بلد فأقصده فإنه أسلم لدينك وأقل لهلك ، وكان يقول هذا زمان سوء لا يؤمن فيه على الخاملين فكيف

(١) حديث ابن عباس « صلاة في مسجد المدينة بعشرة آلاف صلاة وصلاة في المسجد الأقصى بألف صلاة وصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة » غريب لم أجده بمجملته هكذا وأخرجه ابن ماجه من حديث ميمونة باسناد جيد في بيت المقدس « اثنونه فصلوا فيه فان الصلاة فيه كألف صلاة في غيره » وابن ماجه من حديث أنس « صلاة بالمسجد الأقصى بخمسين ألف صلاة وصلاة في مسجدي خمسين ألف صلاة » وليس في إسناده من ضعف وقال الذهبي إنه منكر

(٢) حديث « لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كنت له شفيعا يوم القيامة » من حديث أبي هريرة وابن عمر وأبي سعيد
(٣) حديث « من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها . . الحديث » أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عمر قال الترمذي حسن صحيح (٤) حديث « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد . . الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد (٥) حديث « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها » أخرجه مسلم من حديث بريدة بن الحصيب
(٦) حديث « البلاد بلاد الله والعباد عباد الله فأى موضع رأيت فيه رفقا فأقم » أخرجه أحمد والبخاري من حديث الربيع بسند ضعيف (٧) حديث « من رزق في شيء فليلزمه ومن جعلت معيشته في شيء فلا ينتقل عنه حتى يتغير عايه » أخرجه ابن ماجه من حديث أنس بالجملة الأولى بسند حسن ومن حديث عائشة بسند فيه جهالة باللفظ « إذا سبب الله لأحدكم رزقا من وجه فلا يدعه حتى يتغير أو يتنكر له »

بالمشهورين ؟ هذا زمان تنقل ينتقل الرحل من قرية إلى قرية يفتردينه من العتن . ويحكى عنه أنه قال : والله ما أدري أى البلاد أسكن ؟ فقيل له : خراسان ، فقال : مذاهب مختلفة وآراء فاسدة ، قيل : فالتسام ، قال : يشار إليك بالأصابع - أراد الشهرة - قيل : فالعراق ، قال : بلد الجابرة ، قيل : مكة ، قال : مكة تديب الكيس والمدن . وقال له رجل غريب : عزمت على المجاورة بمكة فأوصنى ، قال : أوصيك بثلاث : لاتصلين فى الصف الأول ولا تصحبين قرشياً ولا تظهرن صدقة . وإنما كره الصف الأول لأنه يشتهر فيفتقد إذا غاب فيختلط بعمله التزين والتصنع .

الفصل الثانى : فى شروط وجوب الحج وصحة أركانه وواجباته ومحظوراته

أما الشروط فشرط صحة الحج اثنان : الوقت والإسلام . فيصح حج الصبى ويحرم بنفسه إن كان يمىزا ويحرم عنه وليه إن كان صغيراً ويفعل به ما يفعل فى الحج من الطواف والسعى وغيره . وأما الوقت فهو شؤال وذو القعدة وتسع من ذى الحجة إلى طلوع الفجر من يوم النحر ، فمن أحرم بالحج فى غير هذه المدة فهى عمرة وجميع السنة وقت العمرة ، ولكن من كان معكوفاً على النسك أيام منى فلا ينبغى أن يحرم بالعمرة لأنه لا يتمكن من الاشتغال عقيبها لاشتغاله بأعمال منى . وأما شروط وقوعه عن حجة الإسلام فخمسة : الإسلام والحرية والبلوغ والعقل والوقت ، فإن أحرم الصبى أو العبد ولكن عتق العبد وبلغ الصبى بعرفة أو بمردلعة وعاد إلى عرفة قبل طلوع الفجر أجزأهما عن حجة الإسلام ، لأن الحج عرفة ، وليس عليهما دم لإشادة . وتنتشر هذه الشروط فى وقوع العمرة عن ورس الإسلام إلا الوقت . وأما شروط وقوع الحج نفلاً عن الحر البالغ فهو بعد براءة ذمته عن حجة الإسلام فحج الإسلام متقدم ، ثم القضاء لمن أسداه فى حالة الوقوف ؛ ثم النذر ، ثم النياية ، ثم النقل ؛ وهذا الترتيب مستحق ، وكذلك يقع وإن نوى خلافه . وأما شروط لزوم الحج فخمسة : البلوغ والإسلام والعقل والحرية والاستطاعة . ومن لزمه فرص الحج لزمه فرض العمرة . ومن أراد دخول مكة لزيارة أو تجارة ولم يكن خطاباً لزمه الإحرام على قول ثم يتحلل بعمل عمرة أو حج ، وأما الاستطاعة فبوعان : أحدهما المباشرة وذلك له أسباب أما فى نفسه فبالصحة ، وأما فى الطريق فبأن تكون خصبة آمنة بلا بحر مخطر ولا عدو قاهر ، وأما فى المال فبأن يجد نفقة ذهابه وإيابه إلى وطنه - كان له أهل أو لم يكن - لأن ممارسة الوطن شديدة وأن يملك نفقة من تلزمه نفقته فى هذه المدة وأن يملك ما يقضى به ديونه وأن يقدر على راحلة أو كرائها بمحمل أو زاملة إن استمسك على الزاملة . وأما النوع الثانى : فاستطاعة المعضوب بماله وهو أن يستأجر من يحج عنه بعد فراغ الأجير عن حجة الإسلام لنفسه . ويكفى نفقة الذهاب بزاملة فى هذا النوع ، والابن إذا عرس طاعته على الأب الزمن صار به مستطيعاً ولو عرض ماله لم يصربه مستطيعاً ؛ لأن الخدمة بالبدن فيها شرف للولد ، وبدل المال فيه منة على الوالد . ومن استطاع لزمه الحج وله التأخير ولكنه فيه على خطر فإن تيسر له ولو فى آخر عمره سقط عنه ؟ وإن مات قبل الحج لقي الله عز وجل عاصياً بترك الحج ، وكان الحج فى تركته يحج عنه وإن لم يوص كسائر ديونه . وإن استطاع فى سنة فلم يخرج مع الناس وهلك ماله فى تلك السنة - قبل حج الناس - ثم مات لقي الله عز وجل ولا حج عليه . ومن مات ولم يحج مع اليسار فأمره شديد عند الله تعالى . قال عمر رضى الله عنه : لقد هممت أن أكتب فى الأمصار بضرب الجزية على من لم يحج من يستطيع إليه سبيلاً . وعن سعيد بن جبيرة وإبراهيم النخعى وبجاهد وطاوس : لو علمت رجلاً غنياً وجب عليه الحج ثم مات قبل أن يحج ما صليت عليه وبعضهم كان له جار موسر فمات ولم يحج فلم يصل عليه . وكان ابن عباس يقول : من مات ولم يرك ولم يحج سأل الرجعة إلى الدنيا وقرأ قوله عز وجل ﴿ رب ارجعون لى لأعمل صالحاً فإني تركت ﴾ قال :

الحج وأما الأركان التي لا يصح الحج بدونها خمسة : الإحرام والطواف والسعى بعده والوقوف بعرفة والحلق بعده على قول وأركان العمرة كذلك إلا الوقوف والواجبات المجبورة بالدم مست : الإحرام من الميقات فمن تركه وحاوز الميقات محلاً فعلياً شاة والرمي فيه الدم قولاً واحداً ، وأما الصبر بعرفة إلى غروب الشمس والمبيت بمزدلفة والمييب بمبنى وطواف الوداع فهذه الأربعة يجبر تركها بالدم على أحد القولين ، وفي القول الثاني فيهدم على وجه الاستحباب . وأما حوّه أداء الحج والعمرة الثلاثة (الأول) الأفراد وهو الأفضل وذلك أن يقدم الحج وحده فإذا فرغ خرج إلى الحل فأحرم واعتمر . وأفضل الحل لإحرام العمرة الجعزاة ثم التمتع ثم الحديبية . وليس على المرد دم إلا أن يتطوع (الثاني) القران وهو أن يجمع فيقول « لبيك حجة وعمرة معا » فيصير محرماً بهما ويكفيه أعمال الحج وتندرج العمرة تحت الحج كما يندرج الوضوء تحت الغسل ؛ إلا أنه إذا طاف وسعى قبل الوقوف بعرفة فسعيه محسوب من النسكين وأما طوافه فغير محسوب ، لأن شرط الطواف الفرض في الحج أن يقع بعد الوقوف . وعلى القارن دم شاة إلا أن يكون مكياً فلا شيء عليه لأنه لم يترك ميقاته إذ ميقاته مكة (الثالث) التمتع وهو أن يجاوز الميقات محرماً بعمرة ويتحلل بمكة ويتمتع بالمحظورات إلى وقت الحج ثم يحرم بالحج ولا يكون متمتعاً إلا بخمس شرائط . أحدها أن لا يكون من حاضري المسجد الحرام وحاضره من كان منه على مسافة لا تقصر فيها الصلاة . الثاني . أن يقدم العمرة على الحج . الثالث . أن تكون عمرته في أشهر الحج . الرابع : أن لا يرجع إلى ميقات الحج ولا إلى مثل مسافته لإحرام الحج . الخامس : أن يكون حجه وعمرته عن شخص واحد فإذا وجدت هذه الأوصاف كان متمتعاً ولزمه دم شاة ؛ فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج قبل يوم النحر متفرقة أو متتابعة وسبعة إذا رجع إلى الوطن ، وإن لم يصم الثلاثة حتى رجع إلى الوطن صام العشرة تنابعا أو متفرقا وبدل دم القران والتمتع سواء . والأفضل الأفراد ثم التمتع ثم القران . وأما محظورات الحج والعمرة فستة ؛ الأول : اللبس للقميص والسراويل والخف والغمامة بل ينبغي أن يلبس لإزاراً ورداء ونعلين ، فإن لم يجد نعلين فكعبين فإن لم يجد إزاراً فسراويل ولا بأس بالمنطقة والاستغلال في المحمل ولكن لا ينبغي أن يغطي رأسه فإن إحرامه في الرأس وللرأة أن تلبس كل مخيط بعد أن لاتستر وجهها بما يماسه فإن إحرامها في وجهها . الثاني الطيب فليجتنب كل ما يعده العقلاء طيباً فإن تطيب أو لبس فعليه دم شاة . الثالث : الحلق والقلم وفيهما المدية أعنى دم شاة ، ولا بأس بالكحل ودخول الحمام والنفد والحجامة وترجيل الشعر ، الرابع : الجماع وهو مفسد قبل التحلل الأول وفيه بدنة أو بقرة أو سبع شياه وإن كان بعد التحلل الأول لزمه الهدنة ولم يفسد حجه . والخامس : مقدمات الجماع كالقبلة والملازمة التي تنقض الطهر مع النساء فهو محرّم وفيه شاة وكذا في الاستمناء ، ويحرم النكاح والإنكاح ولا دم فيه لأنه لا ينعقد . السادس : قتل صيد البر أعنى ما يؤكل أو هو متولد من الحلال والحرام فإن قتل صيدا فعليه مثله من النعم يراعى فيه التقارب في الحلقة وصيد البحر حلال ولا جزاء فيه .

الباب الثاني في ترتيب الاعمال الظاهرة من أول السفر إلى الرجوع وهي عشر جعل

الجملة الأولى : في السير من أول الخروج إلى الإحرام وهي ثمانية

(الأولى) في المال : فينبغي أن يبدأ بالتوبة ورد المظالم وقضاء الديون وإعداد النفقة لكل من تلزمه نفقته إلى وقت الرجوع ويرد ما عنده من الودائع . ويستصحب من المال الحلال الطيب ما يكفي لذهابه وإيابه من غير

تتميز بل على وحه يمكنه معه التوسع في الزاد والرفق بالضعفاء والفقراء . ويتصدق بشيء قبل خروجه ويشترى لنفسه دابة قوية على الحمل لا تضعف أو يكثرها فإن اكثرى فليظهر للكارى كل ما يريد أن يحمله من قليل أو كثير ويحصل رضاه فيه (الثانية) في الرفيق : ينبغى أن يلتمس رفيقاً صالحاً محباً للخير معيناً عليه إن نسى ذكره وإن ذكر أعانه وإن جبن شجعه وإن عجز قواه وإن صاق صدره صبره . ويودع رفقاء المقيمين وإخوانه وحيرانه فيودعهم ويلتمس أديعتهم فإن الله تعالى جاعل في أديعتهم خيراً والسنة في الوداع أن يقول أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك ^(١) وكان صلى الله عليه وسلم يقول لمن أراد السفر : في حفظ الله وكفه زودك الله التقوى وغفر ذنبك ووجهك للخير أينما كنت ^(٢) ، (الثالثة) في الخروج من الدار : ينبغى إذا هم بالخروج أن يصلى ركعتين أولاً يقرأ في الأولى بعد الفاتحة : قل يا أيها الكافرون وفي الثانية الإخلاص فإذا فرغ رفع يديه ودعا الله سبحانه عن إخلاص صاف ونية صادقة وقال : اللهم أنت صاحب في السفر وأنت الخليفة في الأهل والمال والولد والأصحاب احفظنا وإياهم من كل آفة وعاهة . اللهم إنا نسألك في مسيرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى . اللهم إنا نسألك أن تطوى لنا الأرض وتهون علينا السفر وأن ترزقنا في سفرنا سلامة البدن والدين والمال وتبلغنا حج بيتك وزيارة قبر نبيك محمد صلى الله عليه وسلم اللهم إنا نعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال والولد والأصحاب . اللهم اجعلنا وإياهم في جوارك ولا تسلبنا وإياهم نعمتك ولا تعير ما بنا وبهم من عافيتك (الرابعة) إذا حصل على باب الدار قال : بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله رب أعوذ بك أن أضل أو أضل أو أذل أو أذل أو أزل أو أزل أو أظلم أو أظلم أو أجهل أو أجهل أو يجهل على . اللهم إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة بل خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك وقضاء فرضك واتباع سنة نبيك وشوقاً إلى لقائك . فإذا مشى قال : اللهم بك انتشرت وعليك توكلت وبك اعتصمت وإليك توجهت . اللهم أنت ثقتي وأنت رحائي فاكفني ما أهمني وما لا أهتم به وما أنت أعلم به مني عز جارك وجل ثناؤك ولا إله غيرك . اللهم زدني التقوى واغفر لي ذنبي ووجهني للخير أينما توجهت . ويدعو بهذا الدعاء في كل منزل يدخل عليه (الخامسة) في الركوب . فإذا ركب الراحلة يقول : بسم الله وبالله والله أكبر توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ما شاء الله كان وما لم يتسألم يكن سبحانه الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون . اللهم إني وجهت وجهي إليك وفوضت أمري كله إليك وتوكلت في جميع أموري عليك أنت حسبي ونعم الوكيل . فإذا استوى على الراحلة واستوت تحته قال : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر - سبع مرات - وقال ﴿ الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لو أن هدانا الله ﴾ اللهم أنت الحامل على الظهر وأنت المستعان على الأمور (السادسة) في النزول : والسنة أن لا ينزل حتى يحمى النهار ويكون أكثر سيره بالليل قال صلى الله عليه وسلم « عليكم بالدلجة فإن الأرض تطوى بالليل مالا تطوى بالنهار ^(٣) » وليقلل نومه بالليل حتى يكون

الباب الثاني - في ترتيب الأفعال الظاهرة

- (١) حديث « أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك » أخرجه الترمذى وصححه والنسائي من حديث ابن عمر « أنه كان يقول لمرحل إذا أراد سفراً : أدن حتى أودعك كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يودعنا »
- (٢) حديث « كان صلى الله عليه وسلم يقول لمن أراد سفراً . في حفظ الله وكفه زودك الله التقوى وغفر ذنبك ووجهك للخير أينما توجهت » أخرجه الطبراني في الدعاء من حديث أنس وهو عند الترمذى وحسنه دون قوله « في حفظ الله وكفه »
- (٣) حديث « عليكم بالدلجة فإن الأرض تطوى بالليل مالا تطوى بالنهار » أخرجه أبو داود من حديث أنس دون قوله « مالا تطوى بالنهار » وهذه الريادة في الموطأ من حديث خالد بن معدان مرسل

عونا على السير . ومهما أشرف على المنزل فليقل : اللهم رب السموات السبع وما أظللن ورب الأرضين السبع وما أفللن ورب الشياطين وما أضللن ورب الرياح وما ذرين ورب البحار وما جرين أسألك خير هذا المنزل وخير أهله وأعوذ بك من شره وشر ما فيه أصرف عنى شر شرارهم . فإذا نزل المنزل صلى ركعتين فيه ثم قال : أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق . فإذا جن عليه الليل يقول : يا أرض ربى وربك الله أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك وشر مادد عليك أعوذ بالله من شر كل أسد وأسد وحية وعقرب ومن شر ساكن البلد ووالد وما ولد ﴿وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم﴾ (السابعة) في الحراسة : ينبغى أن يحتاط بالنهار فلا يمشى منفردا خارج القافلة لأنه ربما يغتال أو ينقطع ، ويكون بالليل متحفظا عند النوم فإن نام في ابتداء الليل افترش ذراعه ، وإن نام في آخر الليل نصب ذراعه نصبا وجعل رأسه في كفه ، هكذا كان ينام رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفره ^(١) لأنه ربما استقل النوم فتطلع الشمس وهو لا يدري فيكون ما يفوته من الصلاة أفضل مما يناله من الحج والاحب في الليل أن يتناوب الرفيقان في الحراسة فإذا نام أحدهما حرس الآخر ^(٢) فهو السنة فإن قصده عدو أو سبع في ليل أو نهار فليقرأ آية الكرسي وشهد الله والإخلاص والمعوذتين وليقل بسم الله ماشاء الله لا قوة إلا بالله حسبي الله توكلت على الله ماشاء الله لا يأتي بالخير إلا الله ماشاء الله لا يصرف السوء إلا الله حسبي الله وكفى سمع الله لمن دعا ليس وراء الله منتهى ولا دون الله ملجأ ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾ تحصنت بالله العظيم واستغثت بالحى الذى لا يموت اللهم احرسنا بعينك التى لا تنام واكنفنا بركنك الذى لا يرام . اللهم ارحمنا بقدرتك علينا فلا نهلك وأنت ثقتنا ورجاؤنا . اللهم أعطف علينا قلوب عبادك وإمامك برأفة ورحمة إنك أنت أرحم الراحمين (الثامنة) مهما علا نشزا من الأرض فى الطريق فيستحب أن يكبر ثلاثا ثم يقول : اللهم لك الشرف على كل شرف ولك الحمد على كل حال . ومهما هبط سبج ومهما خاف الوحشة فى سفره قال : سبحان الله الملك القدوس رب الملائكة والروح جللت السموات بالعزة والجبروت .

الجملة الثانية : فى آداب الإحرام من الميقات إلى دخول مكة وهى خمسة

(الأول) أن يعتسل وينوى به غسل الإحرام أعنى إذا انتهى إلى الميقات المشهور الذى يحرم الناس منه . ويتم غسله بالتنظيف ويسرح لحيته ورأسه وبقلم اظفاره ويقص شاربه ويستكمل النظافة التى ذكرناها فى الطهارة (الثانى) أن يفارق الثياب المخيطة ويلبس ثوبى الإحرام فيرتدى ويتزر بثوبين أبيضين فالأبيض هو أحب الثياب إلى الله عز وجل ، ويتطيب فى ثيابه وبدنه ولا بأس بطيب يبقى جرمه بعد الإحرام ؛ فقد رأى بعض المسلك على مفرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الإحرام بما كان استعمله قبل الإحرام ^(٣) (الثالث) أن يصبر بعد لبس الثياب حتى تنبعث به راحلته إن كان راكبا أو يبدأ بالسير إن كان راجلا فعند ذلك ينوى الإحرام بالحج أو بالعمرة

(١) حديث « كان إذا نام فى أول الليل افترش ذراعه وإذا نام فى آخر الليل نصب ذراعه وجعل ذراعه فى كفه » أخرجه أحمد والترمذى فى المعجم فى حديث أبى قتادة باسناد صحيح وعزاه أبو مسعود الدهشقى والحيدى إلى مسلم ولم أره به .
(٢) حديث « تناوب الرفيقان فى الحراسة فإذا نام أحدهما حرس الآخر » أخرجه البيهقى من طريق ابن اسحق من حديث جابر فى حديث فيه « فقال الأنصارى أى الليل أحب إليك أن أكفيسك أوله أو آخره ؟ » وقال : بل أكفنى أوله فاضطجع المهاجرى . الحديث عند أبى داود ولكن ليس فيه قول الأنصارى للمهاجرين (٣) حديث رؤية وبص المسلك على مفرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الإحرام « متفق عليه من حديث عائشة قالت « كأنما أنظر إلى ويس المسك » الحديث .

قرانا أو لإفراد كما أراد . ويكفي مجرد النية لانعقاد الإحرام ولكن السنة أن يقرن بالنية لفظ التلبية فيقول « لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك ، وإن زاد قال « لبيك وسعديك والخير كله بيدك والرغبات إليك لبيك بحجة حقا تصدا ورفقا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، (الرابع) إذا انعقد إحرامه بالتلبية المذكورة فيستحب أن يقول : اللهم إني أريد الحج فيسره لي وأعني على أداء فرضه وتقبله مني . اللهم إني نويت أداء فريضتك في الحج فأجعلني من الذين استجابوا لك وآمنوا بوعدك واتبعوا أمرك واجعلني من وفدك الذين رضيت عنهم وارتضيت وقبلت منهم . اللهم فيسر لي أداء ما نويت من الحج ، اللهم قد أحرم لك لحمي وشعري ودمي وعصبي ومخي وعظامي وحرمت على نفسي النساء والطيب ولبس الخيط ابتغاء وجهك والدار الآخرة . ومن وقت الإحرام حرم عليه المحظورات الستة التي ذكرناها من قبل فليجتنبها (الخامس) يستحب تجديد التلبية في دوام الإحرام خصوصا عند اصطدام الرفاق وعند اجتماع الناس وعند كل صعود وهبوط وعند كل ركوب وروول ورافعا بها صوته بحيث لا يبيح حلقه ولا يذهر ، فإنه لا يبادى أصم ولا غائبا (١) كما ورد في الخبر . ولا بأس برفع الصوت بالتلبية في المساجد الثلاثة فإنها مظلة المناسك - أعني المسجد الحرام ومسجد الخيف ومسجد الميقات - وأما سائر المساحد فلا بأس فيها بالتلبية من غير رفع صوت : وكان صلى الله عليه وسلم إذا أعجبه شيء قال « لبيك إن العيش عيش الآخرة (٢) »

الجملة الثالثة في آداب دخول مكة إلى الطواف وهي ستة

(الأول) أن يغتسل بذي طوى لدخول مكة . والاعتسالات المستحبة المسنونة في الحج تسعة . الأول : الإحرام من الميقات ثم لدخول مكة ثم الطواف القدوم ثم للوقوف بعرفة ثم للوقوف بمزدلفة ثم ثلاثة أغسال لرى الحمار الثلاث ؛ ولا غسل لرى جمرة العقبة ، ثم لظواف الوداع . ولم ير الشافعي رضي الله عنه في الجديد : الغسل لطواف الزيارة ولطواف الوداع فتعود إلى ساعة ، الثاني : أن يقول عند الدخول في أول الحرم وهو خارج مكة ، اللهم هذا حرمك وأمنك فحرم لحمي ودمي وشعري وشري على النار وآمني من عذابك يوم تبعث عبادك واجعلني من أوليائك وأهل طاعتك . الثالث أن يدخل مكة من جانب الأبطح وهو ثنية ، كذا - بفتح الكاف - عدل رسول الله صلى الله عليه وسلم من حادة الطريق إليها (٣) فالتأسي به أولى ، وإذا خرج خرج من ثنية كدى - بضم الكاف - وهي الثنية السفلى والأولى هي العليا . الرابع : إذا دخل مكة وانتهى إلى رأس الردم فعنده يقع بصره على البيت فليقل « لا إله إلا الله والله أكبر اللهم أنت السلام ومنك السلام ودارك دار السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام اللهم إن هذا بيتك عظمته وكرمه وشرفته اللهم فرده تعظيما وزده تشريفا وتكريما وزده مهابة وزد من حجة يرا وكرامة اللهم افتح لي أبواب رحمتك وأدخلني جنتك وأعذني من الشيطان الرجيم » . الخامس : إذا دخل المسجد الحرام فليدخل من باب بني شيبه ولبقل « بسم الله وبالله ومن الله ولإلى وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا قرب من البيت قال الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطنى . اللهم

(١) حديث « لا تكلم لانا دون أصم ولا غائبا » متفق عليه من حديث أبي موسى (٢) حديث « كان إذا أعجبه شيء قال : لبيك إن العيش عيش الآخرة » أخرجه الشافعي في المسند من حديث مجاهد مرسل بوجه وللحاكم وصححه من حديث ابن عباس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف بعرفات فلما قال لبيك اللهم لبيك » قال « لما الحير حير الآخرة » (٣) حديث « دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم من ثنية كداء - بفتح الكاف - متفق عليه من حديث ابن عمر قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل مكة دخل من الثنية العليا التي بالأبطح .. الحديث »

صل على محمد عبدك ورسولك وعلى إبراهيم خليلك وعلى جميع أنبيائك ورسلك ، ويرفع يديه وليقل : اللهم إني أسألك في مقامى هذا في أول مناسكى أن تتقبل توبتى وأن تتجاوز عن خطيئتى وتضع عنى وزرى الحمد لله الذى بلغنى بيته الحرام الذى جعله مثابة للناس وأمنا وجعله مباركا وهدى للعالمين . اللهم إني عبدك والبلد بلدك والحرم حرمك والبيت بيتك حرمك أطلب رحمتك وأسألك مسألة المضطر الخائف من عقوبتك الراحى لرحمتك الطالب مرضاتك . السادس : أن تقصد الحجر الأسود بعد ذلك وتمسه بيدك اليمنى وتقبله وتقول : اللهم أمانتى أديتها وميثاقى وحيته اشهد لى بالموافاة فإن لم يستطع التقبيل وقف فى مقابلته ويقول ذلك . ثم لا يعرج على شىء دون الطواف وهو طواف القدوم إلا أن يجد الناس فى المكتوبة فيصلى معهم ثم يطوف .

الجملة الرابعة : فى الطواف

فإذا أراد افتتاح الطواف إما للقدوم وإما لغيره فينبغى أن يراعى أموراً ستة (الأول) أن يراعى شروط الصلاة من طهارة الحدث والحبث فى الثوب والبدن والمكان وستر العورة . فالطواف بالبيت صلاة ولكن الله سبحانه أباح فيه الكلام . وليضطبع قبل ابتداء الطواف وهو أن يجعل وسط رداءه تحت إبطه اليمنى ويجمع طرفيه على منكبه الأيسر هيرخى طرفاً وراء ظهره وطرفاً على صدره . ويقطع التلية عند ابتداء الطواف ويشغل بالأدعية التى سند كرها (الثانى) إذا فرغ من الاضطباع فليجعل البيت على يساره وامقف عند الحجر الأسود وليتحن عنه قليلاً ليكون الحجر قدماه فيمر بجميع الحجر بجميع بدنه فى ابتداء طوافه . ولجعل يديه وبنى البنت قدر ثلاث خطوات لسكون قريباً من البنت فإنه أفضل ولكبلاً يكون طائفاً على الساذروان فإنه من البيت ، وعند الحجر الأسود قد يتصل الساذروان بالأرض ويلتبس به ، والطائف عليه لا يصح طوافه ؛ لأنه طائف فى البيت . والشاذروان هو الذى فضل عن عرص حدار البيت بعد أن صبق أعلى الجدار ثم من هذا الموقف يبتدئ الطواف (الثالث) أن يقول قبل مجاوزة الحجر بل فى ابتداء الطواف : بسم الله والله أكبر اللهم إيماناً بك وتصديقاً بكتابك ووفاء بعهدك واتباعاً لسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ، ويطوف . فأقول ما يجاوز الحجر ينتهى إلى باب البيت فيقول : اللهم هذا البيت بيتك وهذا الحرم حرمك وهذا الأمن أمنك وهذا مقام العائذ بك من النار ، وعند ذكر المقام يشير بعينه إلى مقام إبراهيم عليه السلام : اللهم إن بيتك عظيم ووجهك كريم وأنت أرحم الراحمين فأعذنى من النار ومن الشيطان الرجيم وحزمت لحمى ودمى على النار وآمنى من أهوال يوم القيامة واكفى مؤنة الدنيا والآخرة ، ثم يسبح الله تعالى ويحمده حتى يبلغ الركن العراقى فعنده يقول : اللهم إني أعوذ بك من الشرك والشك والكفر والنفاق والشقاق وسوء الأخلاق وسوء المنظر فى الأهل والمال والولد ، فإذا بلغ الميزاب قال : اللهم أظلمنا تحت عرشك يوم لا ظل إلا ظلك اللهم اسقنى بكأس محمد صلى الله عليه وسلم شربة لا أظلم بعدها أبداً ، فإذا بلغ الركن التمامى قال : اللهم اجعله حجاً مبروراً وسعياً مشكوراً وذنباً معفوراً وتحارة لى تبور يا عزيز يا عفور رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم إنك أنت الأعز الأكرم ، فإذا بلغ الركن اليمانى قال : اللهم إني أعوذ بك من الكفر وأعوذ بك من الفقر ومن عذاب القبر ومن فتنة المحام والممات وأعوذ بك من الخزي فى الدنيا والآخرة ، ويقول بين الركن اليمانى والحجر الأسود : اللهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا برحمتك فتنة القبر وعذاب النار ، فإذا بلغ الحجر الأسود قال اللهم اغفر لى رحمتك أعوذ برب هذا الحجر من الدين والفقر وضيق الصدر وعذاب القبر ، وعند ذلك قد تم شوط واحد فيطوف كذلك سبعة أشواط فيدعو بهذه الأدعية فى كل شوط (الرابع) أن يرمل فى ثلاثة أشواط ويمشى فى الأربعة الأخر

على الهيئة المعتادة . ومعنى الرمل الإسراع في المشى مع تقارب الخطأ ، وهو دون العدو وفوق المشى المعتاد . والمقصود منه ومن الاضطباع إظهار الشطارة والجلادة والقوة ، هكذا كان القصد أولاً قطعاً لطمع الكفار وبقيت تلك السنة^(١) والأفضل الرمل مع الدنو من البيت فإن لم يمكنه للزحمة فالرمل مع البعد أفضل فيخرج إلى حاشية المطاف وليرمل ثلاثاً ثم يقرب إلى البيت في المزدحم ويمش أربعة . وإن أمكنه استلام الحجر في كل شرط فهو الأحب ، وإن منعه الزحمة أشار باليد وقبل يده ، وكذلك استلام الركن اليماني يستحب من سائر الأركان . وروى أنه صلى الله عليه وسلم كان يستلم الركن اليماني^(٢) ويقبله^(٣) ويضع حذاه عليه^(٤) ، ومن أراد تخصيص الحجر بالتفصيل واقتصر في الركن اليماني على الاستلام أغنى عن اللبس باليد فهو أولى (الخامس) إذا تم للطواف سبعا فليأت الملتزم وهو بين الحجر والباب وهو موضع استجابة الدعوة ، وليلتزم بالبيت وليلتزم بالاستار ويلصق بطنه بالبيت وليضع عليه خده الأيمن وليبسط عليه ذراعيه وكفيه ، وليقل : اللهم يارب البيت العتيق أعتق رقبتي من النار وأعدني من الشيطان الرحيم وأعدني من كل سوء وقتني بما رزقتني وبارك لي فيما آتيتني اللهم إن هذا البيت بيتك والعبد عبدك وهذا مقام العائذ بك من النار اللهم اجعلني من أكرم وفدك عليك ، ثم ليحمد الله كثيراً في هذا الموضع وليصل على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الرسل كثيراً وليدع بجوائحه الخاصة وليستغفر من ذنوبه . كان بعض السلف في هذا الموضع يقول لمواليه : تنحوا عني حتى أقف لربي بذنوبي (السادس) إذا فرغ من ذلك ينبغي أن يصلي خلف المقام ركعتين يقرأ في الأولى قل يا أيها الكافرون وفي الثانية الإخلاص وهما ركعتا الطواف . قال الزهري : مضت السنة أن يصلى لكل سبع ركعتين^(٥) وإن قرن بين أسبوع وصلى ركعتين جاز^(٦) . فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل أسبوع طواف . وليدع بعد ركعتي الطواف وليقل : اللهم يسر لي اليسرى وجنبي اليسرى واغفر لي في الآخرة والأولى واعصني بالطواف حتى لا أعصيك وأعني على طاعتك بتوفيقك وجنبي معاصيك واجعلني ممن يحبك ويحب ملائكتك ورسلك ويحب عبادك الصالحين . اللهم حببني إلى ملائكتك ورسلك وإلى عبادك الصالحين اللهم فكا هديتي إلى الإسلام فثبتني عليه بالطواف وولايتك واستعملني لطاعتك وطاعة رسولك وأحرنى من مضلات

(١) حديث « مشروعية الرمل والاضطباع قطعاً لطمع الكفار وبقيت تلك السنة » أما الرمل فتفق عليه من حديث ابن عباس قال « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فقال المشركون إنه يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حتى يثرب فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يرموا الأشواط الثلاثة ... الحديث » وأما الاضطباع فروى أبو داود وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث عمر قال « هم الرمال الآن والكشف عن الماك ونادى الله الإسلام ونفى الكفر وأهل ومع ذلك لا بدع شيئاً كسنا فعله على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم » (٢) حديث « استلامه صلى الله عليه وسلم للركن اليماني » متفق عليه من حديث ابن عمر قال « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يقدم مكة إذا استلم الركن الأسود ... الحديث » ولهما من حديثه « لم أر رسول الله صلى الله عليه وسلم يمس من الأركان إلا اليمانيين » ولما لم من حديث ابن عباس « لم أره يستلم غير الركنين اليمانيين » وله من حديث جابر الطويل « حتى إذا أقيمت اليت معه استلم الركن » (٣) حديث « تقيله صلى الله عليه وسلم له » متفق عليه من حديث عمر « أنه قبل الحجر وقال لولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلك ما قبلتسك » ولبخاري من حديث ابن عمر « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستلمه ويقبله » وله في التاريخ من حديث ابن عباس « كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا استلم الركن اليماني قبله » (٤) حديث « وضع الحذاه عليه » أخرجه الدارقطني من حديث ابن عباس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الركن اليماني .. الحديث » قال الحاكم صحيح الإسناد قلت فيه عبد الله بن مسلم بن هسرمر صدمه الجمهور (٥) حديث الزهري « مضت السنة أن يصلى لكل أسبوع ركعتين » ذكره البخاري تعليقا السنة أفضل لم يعط النبي صلى الله عليه وسلم أسبوعاً إلا صلى ركعتين وفي الصحيحين من حديث ابن عمر « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وطاف بالبيت سبعا وصلى خلف المقام ركعتين » (٦) حديث « قرأه صلى الله عليه وسلم بين أسبوع » ورواه ابن أبي حاتم من حديث ابن عمر « أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ ثلاثة أطواف ليس بينهما صلاة » ورواه العقيلي في الضمراء وابن شاهين في أماليه من حديث أبي هريرة وزاد « ثم صلى لكل أسبوع ركعتين » وفي مسندهما عبد السلام بن أبي الجيوب منسك الحديث

الفتن . ثم ليعد إلى الحجر وليستله وليختم به الطواف قال صلى الله عليه وسلم ، من طاف بالبيت أسبوعا وصلى ركعتين فله من الأجر كعتق رقبة ^(١) ، وهذه كيفية الطواف . والواجب من جملته بعد شروط الصلاة أن يستكمل عدد الطواف سبعا بجميع البيت ، وأن يبتدئ بالحجر الأسود ويجعل البيت على يساره وأن يطوف داخل المسجد وخارج البيت لأعلى الشاذروان ولا في الحجر ، وأن يوالى بين الأشواط ولا يفترقها تفريقا خارجا عن المعتاد وما عدا هذا فهو سنن وهيات .

الجملة الخامسة : في السعى

فإذا فرغ من الطواف فليخرج من باب الصفا وهو في محاذة الضلع الذى بين الركن اليماني والحجر . فإذا خرج من ذلك الباب وانتهى إلى الصفا وهو جبل فيرقى فيه درجات في حضيض الجبل بقدر قامة الرجل . رقى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت له الكعبة ^(٢) . وابتداء السعى من أصل الجبل كاف وهذه الزيادة مستحبة ، ولكن بعض تلك الدرج مستحذثة فينبغى أن لا يتخلفها وراء ظهره فلا يكون متما للسعى ، وإذا ابتدأ من ههنا سعى بينه وبين المروة سبع مرات . وعند رقية في الصفا ينبغى أن يستقبل البيت ويقول : الله أكبر الله أكبر الحمد لله على ما هدانا الحمد لله بمحامده كلها على جميع نعمه كلها لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت بيده الخير وهو على كل شيء قدير لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون لا إله إلا الله مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنثرون ﴾ اللهم إني أسألك إيمانا دائما وقينا صادقا وعلما ناهعا وقلبا خاشعا ولسانا ذا ذكرا وأسألك العفو والعافية والمعافة الدائمة في الدنيا والآخرة ويصلى على محمد صلى الله عليه وسلم ، ويدعو الله عز وجل بما شاء من حاجته عقيب هذا الدعاء ثم ينزل ويبتدئ السعى وهو يقول : رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم إنك أنت الأعز الأكرم اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، ويمشى على هيئة حتى ينتهى إلى الميل الأخضر وهو أول ما يلقاه إذا نزل من الصفا - وهو على زاوية المسجد الحرام - فإذا بقى بينه وبين محاذة الميل ستة أذرع أخذ في السير السريع وهو الرمل حتى ينتهى إلى الميلين الأخضرين . ثم يعود إلى الهيئة فإذا انتهى إلى المروة صعدها كما صعده الصفا وأقبل بوجهه على الصفا ودعا بمثل ذلك الدعاء وقد حصل السعى مرة واحدة ؛ فإذا عاد إلى الصفا حصلت مرتان . يفعل ذلك سبعا ويرمل في موضع الرمل في كل مرة ويسكن في موضع السكون - كما سبق - وفى كل نوبة يصعد الصفا والمروة فإذا فعل ذلك فقد مرغ من طواف القدوم والسعى وهما سنتان . والطهارة مستحبة للسعى وليست بواجبة بخلاف الطواف وإذا سعى فينبغى أن لا يعيد السعى بعد الوقوف ويكتفى بهذا ركعا ؛ فإنه ليس من شروط السعى أن يتأخر عن الوقوف وإنما ذلك شرط في طواف الركن . نعم شرط كل سعى أن يقع بعد طواف أى طواف كان .

(١) حديث « من طاف بالبيت أسبوعا وصلى ركعتين فله من الأجر كعتق رقبة » أخرجه الترمذى وحسنه والنسائى وابن ماجه من حديث ابن عمر « من طاف بالبيت وصلى ركعتين كان كعتق رقبة » لفظ ابن ماجه وقال « الآخر من طاف بهذا البيت أسبوعا فأحصاه كان كعتق رقبة » والبيهقى في الشعب « من طاف أسبوعا وركع ركعتين كانت كعتاق رقبة »
 (٢) حديث « أنه رقى على الصفا حتى بدت له الكعبة » أخرجه مسلم من حديث جابر « فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت » وله من حديث ابن هريرة « أنى الصفا فعلا عليه حتى نزل إلى البيت » .

الجملة السادسة : في الوقوف وما قبله

الحاج إذا انتهى يوم عرفة إلى عرفات يتفرغ لطواف القدوم ودخول مكة قبل الوقوف . وإذا وصل قبل ذلك بأيام فطاف طواف القدوم فيمكث محرماً إلى اليوم السابع من ذى الحجة . فيخطب الإمام مكة خطبة بعد الظهر عند الكعبة ويأمر الناس بالاستعداد للخروج إلى منى يوم التروية والمبيت بها ، وبالغدو منها إلى عرفة لإقامة فرض الوقوف بعد الزوال ؛ إذ وقت الوقوف من الزوال إلى طلوع الفجر الصادق من يوم النحر ، فينبغي أن يخرج إلى منى ملياً : ويستحب له المشي من مكة في المناسك إلى انقضاء حجته إن قدر عليه . والمشى من مسجد إبراهيم عليه السلام إلى الموقف أفضل وأكد . فإذا انتهى إلى منى قال : اللهم هده منى فأمّن على مما مننت به على أوليائك وأهل طاعتك ولبيك هذه الليلة بمنى - وهو مبيت منزل لا يتعلق به نسك - فإذا أصبح يوم عرفة صلى الصبح فإذا طلعت الشمس على ثبير سار إلى عرفات ويقول ، اللهم أجعلها خير غدوة غدوتها قط وأقرها من رضوانك وأبعدها من سخطك اللهم إليك غدوت وإياك رجوت وعليك اعتمدت ووجهك أردت فأجعلنى ممن تباهى به اليوم من هو خير منى وأفضل . فإذا أتى عرفات فليضرب خباه بثمره قريباً من المسجد ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم قننه (١) ونمرة هي بطن عرنة دون الموقف ودون عرفة . وليغتسل للوقوف فإذا زالت الشمس حطب الإمام خطبة وجيزة وقعد ، وأخذ المؤذن في الأذان والإمام في الخطبة الثانية ووصل الإقامة بالأذان ، وفرغ الإمام مع تمام إقامة المؤذن . ثم جمع بين الظهر والعصر بأذان وإقامتين ، وقصر الصلاة ، وراح إلى الموقف فليقف بعرفة ولا يقف في وادي عرنة . وأما مسجد إبراهيم عليه السلام فصدره في الوادي وأخرياته من عرفة فمن وقف في صدر المسجد لم يحصل له الوقوف بعرفة . ويتميز مكان عرفة من المسجد بصخرات كبار فرشت ثم . والأفضل أن يقف عند الصخرات بقرب الإمام مستقبلاً للقبلة راكباً . وليكثر من أنواع التمجيد والتسبيح والتلهيل والثناء على الله عز وجل والدعاء والتوبة . ولا يصوم في هذا اليوم لقوى على المواظبة على الدعاء . ولا يقطع التلبية يوم عرفة بل الأحب أن يلبى تارة ويكسب على الدعاء أخرى . وينبغي أن لا ينفصل من طرف عرفة إلا بعد العروب ليجمع في عرفة بين الليل والنهار : وإن أمكنه الوقوف يوم الثامن ساعة عند إمكان الخلط في الهلال فهو الحزم وبه الأمان من الفوات . ومن فاتته الوقوف حتى طلع الصجر يوم النحر فقد فاتته الحج ، فعليه أن يتحلل عن إحرامه بأعمال العمرة ثم يريق دماً لأجل الفوات ، ثم يقضى العام الآتي ، وليكن أهم استغاله في هذا اليوم الدعاء . ففي مثل تلك البقعة ومثل ذلك الجرع ترجى لإجابة الدعوات . والدعاء المسأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) وعن السلف

(١) حديث « ضرب به صلى الله عليه وسلم قننه بعمرة » أخرجه مسلم من حديث جابر الطويل « أمر بقننه من شعر تضرب له نمرة .. الحديث » (٢) حديث « الدعاء المسأثور في يوم عرفة لا إله إلا الله وحده لا شريك له .. الحديث » أخرجه الترمذي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده « أن النبي صلى الله عليه وسلم قال خير الدعاء دعاء يوم عرفة وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » وقال حسن غريب وله من حديث علي قال « أكثر ما دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية عرفة في الموقف اللهم لك الحمد كالتى تقول وخيراً مما تقول لك صلاح ونسك ومحباي ومحباي وإليك مأني ولك رب ترأى اللهم لاني أعوذ بك من شر ما يحى به الريح » وقال ليس بالقوى أسناده وروى المستمصرى في الدعوات من حديثه « يا على لمن أكثر دعاء من قبلي يوم عرفة أن أقول لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير اللهم اجعل في صدري نورا وفي سمي نورا وفي قلبي نورا اللهم اشرح لي صدري ويسر لي أمري اللهم لاني أعوذ بك من وسواس الصدر وشحات الأمر وفتنة القبر وشر ما يلج في الليل وشر ما يلج في النهار وشر ما يهب به الرياح ومن شر بوائق الدهر » وأسناده ضيف وروى الطبراني في المعجم الصغير من حديث ابن عباس قال « كان مما دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية عرفة : اللهم أدرك ترى مكانى وتسمع كلامى وتعلم سرى وعلايتى ولا يخفى عليك شئ من أمرى أنا البائس =

في يوم عرفة أول ما يدعو به فيقول « لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير . اللهم اجعل في قلبي نورا وفي سمعي نورا وفي بصري نورا وفي لساني نورا . اللهم اشرح لي صدري ويسر لي أمري وليقل : اللهم رب الحمد لك الحمد كما تقول وخيراً مما تقول لك صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي وإليك مآبي وإليك ثوابي . اللهم إني أعوذ بك من وساوس الصدر وشتات الأمر وعذاب القبر . اللهم إني أعوذ بك من شر ما يلج في الليل ومن شر ما يلج في النهار ومن شر ما تنهب به الرياح . ومن شر بوائق الدهر . اللهم إني أعوذ بك من تحوّل عافيتك وبقاة تقمّتك وجميع سخّطك . اللهم اهدني بالهدى واغفر لي في الآخرة والأولى ياخير مقصود وأسنى منزل به وأكرم مسئول مألديه أعطني العشية أفضل ما أعطيت أحداً من خلقك وحجاج بيتك يا أرحم الراحمين . اللهم يارفع الدرجات ومنزل البركات ويافطر الأرضين والسماوات ضجت إليك الأصوات بصوف اللغات يسألونك الحاحات وحاجتي إليك أن لاتنساني في دار البلاء إذا نسيتني أهل الدنيا . اللهم إنك تسمع كلامي وترى مكاني وتعلم سرى وعلايتي ولا يحق عليك شيء من أمري أنا البائس الفقير المستغيث المستجير الوجع المشفق المعترف بذنبي أسألك مسألة المسكين وأبتهل إليك ابتهاج المدّنب الدليل وأدعوك دعاء الخائف الضرير دعاء من خضعت لك رقبته وفاضت لك عبرته وذل لك جسده ورغم لك أنفه . اللهم لاتجعلني بدعائك رب شقياً وكن لي رءوفاً رحيماً ياخير المسئولين وأكرم المعطين إلهي من مدح لك نفسه فإني لأتم نفسي . إلهي أخرست المعاصي لساني فإني وسيلة عن عمل ولاشفيح سوى الأمل . إلهي إني أعلم أن ذنوبي لم تبق لي عندك جاهاً ولا للاعتذار وجهاً ولكم الأكرم إلهي إن لم أكن أهلاً أن أبلغ رحمتك فإن رحمتك أهل أن تبغني ورحمتك وسعت كل شيء وأنا شيء إلهي إن ذنوبي وإن كانت عظاماً ولكنها صغار في جنب عفوك فاغفرها لي يا كريم إلهي أنت أنت وأنا أنا ، أنا العواد إلى الذنوب وأنت العواد إلى المغفرة . إلهي إن كنت لا ترحم إلا أهل طاعتك فإني من يفرغ المذنبون . إلهي تجنبت عن طاعتك عمداً وتوجهت إلى معصيتك قصداً فسبحانك ما أعظم حجبتك علي وأكرم عفوك عني فبوحوب حجبتك علي وانقطاع حجتي عنك وفقري إليك وغناك عني إلا غفرت لي ياخير من دعاه داع وأفضل من رجاء راج بجرمة الإسلام وبدمة محمد عليه السلام أتوسل إليك فاغفر لي جميع ذنوبي واصرفني من موقفي هذا مقضى الحوائج وهب لي ما سألت وحقق رجائي فيما تمنيت . إلهي دعوتك بالدعاء الذي علمته فلا تحرمي الرجاء الذي عرفته إلهي ما أنت صانع العشية بعبد مقرّك بذنبي خاشع لك بدلته مستكين بجرمه متضرع إليك من عمله تائب إليك من اقترافه مستغفر لك من ظلمه مبتهل إليك في العفو عنه طالب إليك نجاح حوائجه راج إليك في موقفه مع كثرة ذنوبه فياملجاً كل حي وولي كل مؤمن من أحسن فبرحمتك يفوز ومن أخطأ فبخطيئته يهلك . اللهم إليك خرجنا وبفنائك أنحنأ وإياك أملنا وما عندك طلبنا وإحسانك تعرضنا ورحمتك رجونا ومن عذابك أشفقنا وإليك بأثقال الذنوب هربنا وليبتك الحرام حججنا يامن يملك حوائج السائلين ويعلم صمائر الصامتين يامن ليس معه رب يدعي ويامن ليس فوقه خالق يخشى ويامن ليس له وزير يؤتى ولا حاجب يرشى يامن لا يزداد على كثرة السؤال إلا جوداً وكرماً وعلى كثرة الحوائج إلا انفضلاً وإحساناً . اللهم إنك جعلت لكل ضيف قري ونحن أضيافك فاجعل قرانا منك الجنة . اللهم إن لكل وفد جائزة ولكل زائر كرامة ولكل سائل عطية ولكل راج ثواباً ولكل ملتئم لما عندك جزاء ولكل

= الفقير « فذكر الحديث إلى قوله « ياخير المسئولين وياخير المعطين » ولإسناده ضعيف وباقى الدعاء من دعاء بعض السلف في بعض ما هو مرفوع ، لكن ليس مقيداً بموقف عرفه .

مسترحم عندك رحمة ولكل راغب إليك زلني ولكل متوسل إليك عفواً وقد وفدنا إلى بيتك الحرام ووقفنا بهذه المشاعر العظام وشهدنا هذه المشاهد الكرام رجاء لما عندك فلا تخيب رجاءنا . إلهنا تابعت النعم حتى اطمانت الأنفس بتتابع نعمك وأظهرت العبر حتى نطقت الصوامت بحجتك وظهرت المنن حتى اعترف أولياؤك بالتقصير عن حقلك وأظهرت الآيات حتى أفصححت السموات والأرضون بأدلتك وقهرت بقدرتك حتى خضع كل شيء لهزتك وعنت الوجوه لعظمتك إذا أسامت عبادك حلمت وأمهلته وإن أحسنوا تفضلت وقبلت وإن عصوا سترت وإن أذنبوا عفوت وغفرت وإذا دعونا أجبت وإذا نادينا سمعت وإذا أقبلنا إليك قربت وإذا ولينا عنك دعوت . إلهنا إنك قلت في كتابك المبين لمحمد خاتم النبيين ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ﴾ فأرضاك عنهم الإقرار بكلمة التوحيد بعد الجحود وإنا نشهد لك بالتوحيد محبتين ولمحمد بالرسالة محاضرين فأغفر لنا بهذه الشهادة سوائف الإجمام ولا تجعل حظنا فيه أنقص من حظ من دخل في الإسلام . إلهنا إنك أحببت التقرب إليك بعق ماملكت أيماننا ونحن عبيدك وأنت أولى بالتفضل فاعتقنا . وإنك أمرتنا أن نتصدق على فقرائنا ونحن فقراؤك وأنت أحق بالتطول فتصدق علينا . ووصيتنا بالعرف عن ظلمنا وقد ظلمنا أنفسنا وأنت أحق بالكرم فأعف عنا . ربنا اغفر لنا وارحمنا أنت مولانا ربنا آمنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقتنا رحمتك عذاب النار، وليكثر من دعاء الخضر عليه السلام وهو أن يقول « يا من لا يشغله شأن عن شأن ولا سمع عن سمع ولا تشبه عليه الأصوات ، يا من لا تعلقه المسائل ولا تختلف عليه اللغات ، يا من لا يبرمه إلحاح الملاحين ولا تضجره مسألة السائلين أذفنا برد عفوك وحلاوة مناجاتك ، وليدع بما بدا له وليستغفر له ولو الدية وجميع المؤمنين والمؤمنات ولبلح في الدعاء وليعظم المسألة فإن الله لا يتعاطمه شيء ، وقال مطرف بن عبد الله وهو بعرفة : اللهم لا ترد الجميع من أجلي . وقال بكر المزني : قال رجل لما نظرت لمي أهل عرفات طننت أنهم قد غفر لهم لولا أني كنت فيهم .

الجملة السابعة : في بقية أعمال الحج بعد الوقوف من المبيت والرمي والنحر والحلق والطواف

فإذا أفاض من عرفة بعد غروب الشمس فينبغي أن يكون على السكينة والوقار وليحتنب وجيف الخيل وإيضاع الإبل كما يعتاده بعض الناس . فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم « نهى عن وجيف الخيل وإيضاع الإبل وقال : اتقوا الله وسيروا سيراً جميلاً لا تطأوا ضعيفاً ولا تؤذوا مسلماً ^(١) ، فإذا بلغ المزدلفة اغتسل لها لأن المزدلفة من الحرم وليدخله بغسل ، وإن قدر على دحوه ماشياً فهو أفضل وأقرب إلى توقيح الحرم . ويكون في الطريق رافعاً صوته بالنلبية فإذا بلغ المزدلفة قال « اللهم إن هذه مزدلفة جمعت فيها ألسنة مختلفة تسألك حوائج مؤتلفه فأجعلني ممن دعاك فاستجبت له وتوكل عليك فكفيتها ، ثم يجمع بين المغرب والعشاء بمزدلفة في وقت العشاء قاصراً له بأذان وإقامتين ليس بيدهما نافلة ، ولكن يجمع نافلة المغرب والعشاء والوتر بعد الفريضتين ، ويبدأ بنافلة المغرب ثم بنافلة العشاء كما في الفريضتين . فإن ترك النوافل في السفر خسرت ظاهر . وتكليف إيقاعها في الأوقات وإضرار وقطع للتبعية بينهما وبين الفرائض فإذا جاز أن يؤدي النوافل مع الفرائض بتيمم واحد بحكم التبعية فبأن يجوز أدائها على حكم الجمع بالتبعية أولى . ولا يمنع من هذا مفارقة النفل للفرض في حواز أدائه على الراحة لما أو ماناً إليه من التبعية والحاجة . ثم يمكث تلك الليلة

(١) حديث « نهى النبي عن وجيف الخيل وإيضاع الإبل » أخرجه النسائي والحاكم وصححه من حديث أسامة بن زيد « عليكم بالسكينة والوقار فإن البر ليس في إيضاع الإبل » وقال الحاكم « ليس البر بإيجاف الخيل والإبل » ولبخاري من حديث ابن عباس « فإن البر ليس بالإيضاع » .

بمردلفة وهو مييت نسك ، ومن خرج منها في النصف الأول من الليل ولم يبيت فعليه دم ، وإحياء هذه الليلة الشريفة من محاسن القربات لمن يقدر عليه ثم إذا انتصف الليل يأخذ في التأهب للرحيل ويتزود الحصى منها - ففيها أحجار رخوة - فليأخذ سبعين حصة فإنها قدر الحاجة ، ولأبأس أن يستظهر بزيادة فرمها يسقط منه بعضها وتتمكن الحصى خفافاً بحيث يحتوى عليه أطراف البراجم . ثم ليغسل بصلاة الصبح وليأخذ في المسير حتى إذا انتهى إلى المشعر الحرام وهو آخر المزدلفة فيقف ويدعو إلى الإسفار ويقول : اللهم بحق المشعر الحرام والبيت الحرام والشعر الحرام والركن والمقام أبلغ روح محمد منا التحية والسلام وأدخلنا دار السلام يا ذا الجلال والإكرام ، ثم يدفع منها قبل طوع الشمس حتى ينتهي إلى موضع يقال له وادي محسر فيستحب له أن يحرك دابته حتى يقطع عرض الوادي وإن كان راجلاً أسرع في المشي . ثم إذا أصبح يوم النحر خلط التلبية بالتكبير فيلبي تارة ويكبر أخرى . فينتهي إلى منى ومواضع الجمرات وهي ثلاثة فيتجاوز الأولى والثانية فلا شغل له معهما يوم النحر ، حتى ينتهي إلى جمره العقبة وهي على يمين مستقبل القبلة في الجادة - والمرمى مرتفع قليلاً في سفح الجبل وهو ظاهر بمواقع الجمرات - ويرمى جمره العقبة بعد طلوع الشمس بقدر رمح . وكيفيته أن يقف مستقبلاً القبلة وإن استقبل الجمره فلا بأس ويرمى سبع حصيات رافعاً يده ، ويبدل التلبية بالتكبير ويقول مع كل حصة : الله أكبر على طاعة الرحمن ، ورغم الشيطان اللهم تصديقاً بكتابك واتباعاً لسنة نبيك ، فإذا رمى قطع التلبية والتكبير إلا التكبير عقيب فرائض الصلوات من ظهر يوم النحر إلى عقيب الصبح من آخر أيام التشريق . ولا يقف في هذا اليوم للدعاء بل يدعو في منزله . وصفة التكبير أن يقول : الله أكبر الله أكبر الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً لا إله إلا الله وحده لا شريك له محليين له الدين ولو كره الكافرون لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده لا إله إلا الله والله أكبر ، ثم ليذبح الهدى إن كان معه والأولى أن يذبح بنفسه وليقل : سم الله والله أكبر اللهم منك وبك وإليك تقبل منى كما تقبلت من خليلك إبراهيم ، والتضحية بالبدن أفضل ثم بالبقر ثم بالشاة . والشاة أفضل من مشاركة ستة في البدنة أو البقرة . والضأن أفضل من المعز قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خير الأضحية الكبش الأقرن والبيضاء أفضل من الغبراء والسوداء ^(١) ، وقال أبو هريرة : البيضاء أفضل في الأضحية من دم سوداوين وليأكل منه إن كانت من هدى التطوع ولا يضحين بالعرجاء والجدعاء والعضباء والجرباء والشرقاء والخرقاء والمقابلة والمدابرة والعجفاء . والجذع في الأنف والأذن للقطع منهما ، والعضب في القرن وفي نقصان القوائم والشرقاء المشقوقة الأذن من فوق ، والخرقاء من أسفل ، والمقابلة المخروقة الأذن من قدام ، والمدابرة من خلف . والعجفاء المهزولة التي لا تنقي أي لامخ فيها من الهزال . ثم ليحلق بعد ذلك والسنة أن يستقبل القبلة ويبتدئ بمقدم رأسه فيحلق الشق الأيمن إلى العظمين المشرفين على القفا ثم ليحلق الباقي ويقول : اللهم أمتب لي بكل شعرة حسنة وامح عني بها سيئة وارفع لي بها عندك درجة ، والمرأة تقصر الشعر . والأصلح يستحب له إمرار الموسى على رأسه ومهما حلق بعد رمى الجمره فقد حصل له التحلل الأول وحل له كل المحذورات إلا النساء والصيد . ثم يفيض إلى مكة يطوف كما وصفناه . وهذا الطواف طواف ركن في الحج ويسمى طواف الزيارة وأول وقته بعد نصف الليل من ليلة النحر ، وأفضل وقته يوم النحر ولا آخر لوقته بل له أن يؤجر إلى أي وقت شاء ، ولكن يبقى مقيداً بعلقة الإحرام فلا تحل له النساء إلى أن يطوف . فإذا طاف تم التحلل وحل الجماع وارتفع الإحرام بالكلية ولم يبق

(١) حديث « خير الأضحية الكرش » أخرجه أبو داود من حديث عاترة الصامت والترمذي من حديث أبي أمامة قال الترمذي دريب وعمر يصف في الحديث .

إلا رمى أيام التشريق والمبيت بمنى وهى واجبات بعد زوال الإحرام على سبيل الاتباع للحق وكيفية هذا الطواف مع الركعتين كما سبق في طواف القدوم . فإذا فرغ من الركعتين فليسع كما وصفنا إن لم يكن سعى بعد طواف القدوم وإن كان قد سعى فقد وقع ذلك ركناً فلا ينبغي أن يعيد السعى . وأسباب التحلل ثلاثة : الرمي والحلق والطواف الذى هو ركن . ومهما أتى باثنين من هذه الثلاثة فقد تحلل أحد التحللين ، ولا حرج عليه في التقديم والتأخير بهذه الثلاث مع الذبح ، ولكن الأحسن أن يرمى ثم يذبح ثم يحلق ثم يطوف . والسنة للإمام في هذا اليوم أن يخطف بعد الزوال وهى خطبة وداع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحج أربع خطب : خطبة يوم السابع وخطبة يوم عرفة وخطبة يوم النحر ^(١) وخطبة يوم النفر الأول ، وكلها عقيب الزوال وكلها لإفراد إلا خطبة يوم عرفة فأنها خطبتان بينهما جلسة . ثم إذا فرغ من الطواف عاد إلى منى للمبيت والرمي فببيت تلك الليلة بمنى وتسمى ليلة القز لأن الناس في غد يقرون بمنى ولا ينفرون . فإذا أصبح اليوم الثانى من العيد وزالت الشمس اغتسل للرمي وقصد الجمرة الأولى التى تلى عرفة وهى على يمين الجادة ويرمى إليها بسبع حصيات ، فإذا تعادها انحرف قليلاً عن يمين الجادة ووقف مستقبل القبلة وحمد الله تعالى وهال وكبر ودعا مع حضور القلب وخشوع الجوارح ووقف مستقبل القبلة قدر قراءة سورة البقرة مقبلاً على الدعاء ، ثم يتقدم إلى الجمرة الوسطى ويرمى كما رمى الأولى ويقف كما وقف للأولى ثم يتقدم إلى جمرة العقبة ويرمى سبجاً ، ولا يخرج على شغل بل يرجع إلى منزله ويبت تلك الليلة بمنى وتسمى هذه الليلة ليلة النفر الأول ، ويصبح فإذا صلى الظهر فى اليوم الثانى من أيام التشريق رمى فى هذا اليوم لإحدى وعشرين حصاة كالיום الذى قبله . ثم هو يخير بين المقام بمنى وبين العود إلى مكة . فإن خرج من منى قبل غروب الشمس فلا شئ عليه وإن صبر إلى الليل فلا يجوز له الخروج بل لزمه المبيت حتى يرمى فى يوم النفر الثانى أحداً وعشرين حجراً كما سبق . وفى ترك المبيت والرمي لإراقة دم وليتصدق باللحم . وله أن يزور البيت فى ليالى منى بشرط أن لا يبيت إلا بمنى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك ^(٢) ولا يترك حضور الفرائض مع الإمام فى مسجد الخيف فإن فضله عظيم فإذا أفاض من منى فالأولى أن يقيم بالمحصب من منى ويصلى العصر والمغرب والعشاء ويرقد رقة ^(٣) فهو السنة . رواه جماعة من الصحابة رضى الله عنهم . فإن لم يفعل ذلك فلا شئ عليه .

الجملة الثامنة : فى صفة العمرة وما بعدها إلى طواف الوداع

من أراد أن يعتمر قبل حججه أو بعده كيفما أراد فليغتسل ويلبس ثياب الإحرام كما سبق فى الحج ويحرم بالعمرة من ميقاتها ، وأفضل مواقيتها الجعرانة ثم التنعيم ثم الحديبية . وينوى العمرة ويلبى ويقصد مسجد عائشة رضى الله

(١) حديث « الخطبة يوم النحر وهى خطبة وداع رسول الله صلى الله عليه وسلم » أخرجه البخارى من حديث أبى بكره « خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النحر » وله من حديث ابن عباس « خطب الناس يوم النحر » وى حديث علقه البخارى ووصله ابن ماجه من حديث ابن عمر « وقف النبى صلى الله عليه وسلم يوم النحر بين الجمرات فى المحجة التى حج فيها فقال : أى يوم هذا ؟ الحديث » وبه « ثم ودع الناس فقالوا هذه حجة الوداع »

(٢) حديث « زيارة البيت فى ليالى منى والمبيت بمنى » أخرجه أبو داود فى المراسيل من حديث طاوس « قال أشهد أن ابن عباس قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزور البيت أيام منى » وفيه عمرو بن رباح ضيف والمرسل صحيح الإسناد ولأن داود من حديث عائشة « أن النبى صلى الله عليه وسلم مكث بمنى ليالى أيام التشريق »

(٣) حديث « نزول المحصب وصلاة العصر والمغرب والعشاء به والرقد به رقة » أخرجه البخارى من حديث أس « أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء بالبطحاء ثم هجع هجمة . الحديث »

عنها ويصل ركعتين ويدعو بما شاء . ثم يعود إلى مكة وهو يلبي حتى يدخل المسجد الحرام . فإذا دخل المسجد ترك التلبية وطاف سبعا وسعى سبعا كما وصفنا . فإذا فرغ حلق رأسه وقد تمت عمرته والمقيم بمكة ينبغي أن يكثر الاعتمار والطواف . وليكثر النظر إلى البيت . فإذا دخله فليصل ركعتين بين العمودين فهو الأفضل وليدخله حافياً موقراً . قيل لبعضهم : هل دخلت بيت ربك اليوم ؟ فقال : والله ما أرى هاتين القدمين أهلا للطواف حول بيت ربي فكيف أراهما أهلا لأن أطأ بهما بيت ربي أو قد علمت حيث متيتا وإلى أين مشيتا . وليكثر شرب ماء زمزم وليستق بيده من غير استنابة إن أمكنه وليرتو منه حتى يتضلع وايقل : اللهم اجعله شفاء من كل داء وسقم وارزقني الإخلاص واليقين والمعافاة في الدنيا والآخرة قال صلى الله عليه وسلم « ماء زمزم لما شرب له ^(١) ، أى يشفى ما قصد به .

الجملة التاسعة : في طواف الوداع

مهما عن له الرجوع إلى الوطن بعد الفراغ من إتمام الحج والعمرة فلينجز أولاً أشعاله وليشد رحاله وليجعل آخر أشعاله وداع البيت . ووداعه بأن يطوف به سبعا كما سبق ولكن من غير رمل واضطباع . فإذا فرغ منه صلى ركعتين خلف المقام وشرب من ماء زمزم ثم يأتي الملتزم ويدعو ويتضرع ويقول « اللهم إن البيت بيتك والعبد عبدك وابن عبدك وابن أمك حملتني على ما سخرت لي من حلقك حتى سيرتني في بلادك وبلغتني بنعمتك حتى أعنتني على قضاء مناسكك ، فإن كنت رضية عني فأزدد عني رضا وإلا فزنا الآن قبل تباعدى عن بيتك هذا أو ان الصراى إن أذنت لي غير مستبدل بك ولا ببيتك ولا راغب عنك ولا عن بيتك . اللهم أصحبنى العافية في بدنى والعصمة في دينى وأحسن منقبى وارزقنى طاعتك أبداً ما أبقيتني واجمع لي خير الدنيا والآخرة إنك على كل شىء قدير . اللهم لا تجعل هذا آخر عهدى ببيتك الحرام وإن جعلته آخر عهدى فعوضنى عنه الجنة ، والأحب أن لا يصرف بصره عن البيت حتى يغيب عنه .

الجملة العاشرة : في زيارة المدينة وآدابها

قال صلى الله عليه وسلم « من زارني بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من وجد سعة ولم يفتد إلى فقد جفاني ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من جاءني زائراً لا يهيمه إلا زيارتي كان حقا على الله سبحانه أن أكون له شفيعاً ^(٤) ، من قصد زيارة المدينة فليصل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في طريقه كثيراً . فإذا وقع بصره على حيطان المدينة وأشجارها قال « اللهم هذا حرم رسولك فاجعله لي وقاية من النار وأماناً من العذاب وسوء الحساب ، وليغتسل قبل الدخول من بئر الحرة وليتطيب ويلبس أنظف ثيابه . فإذا دخلها فليدخلها

(١) حديث « ماء زمزم لما شرب له » أخرجه ابن ماجة من حديث جابر بسند ضعيف ورواه الدارقطني والحاكم في المستدرک من حديث ابن عباس قال الحاكم صحيح الإسناد من سلم من محمد بن حبيب الجلاودي قال ابن القطان سلمه فان الخطيب قال فيه كان صدوقاً ، قال ابن القطان لسكن الراوى عنه مجهول وهو محمد بن همام المروزي (٢) حديث « من زارني بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي » أخرجه الطبراني والدارقطني من حديث ابن عمر (٣) حديث « من وجد سعة ولم يفتد الى فقد جفاني » أخرجه ابن عدى والدارقطني في غرائب مالك وابن حبان في الصعاء والخطيب في الرواة عن مالك في حديث ابن عمر « من حج ولم يزرني فقد جفاني » وذكره ابن الجوزى في الموضوعات . وروى ابن النجار في تاريخ المدينة من حديث أنس « ما من أحد من أمتي له سعة ثم لم يزرني فليس له عذر » (٤) حديث « من جاءني زائراً لا يهيمه إلا زيارتي كان حقا على الله أن أكون له شفيعاً » أخرجه الطبراني من حديث ابن عمر وصححه ابن السكس .

متواضعاً معظماً وليقل : بسم الله وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً ﴾ ثم يقصد المسجد ويدخله ويصلي بجانب المنبر ركعتين . ويجعل عمود المنبر حذاء منكبها الأيمن ويستقبل السارية التي إلى جانبها الصندوق وتكون الدائرة التي في قبلة المسجد بين عينيه فذلك موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يعبر المسجد . وليجتهد أن يصل في المسجد الأول قبل أن يزد فيه . ثم يأتي قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيقف عند وجهه وذلك بأن يستدير القبلة ويستقبل جدار القبر على نحو من أربعة أذرع من السارية التي في زاوية جدار القبر ، ويجعل القنديل على رأسه وليس من السنة أن يمس الجدار ولا أن يقبله بل الوقوف من بعد أقرب الاحترام ، فيقف ويقول : السلام عليك يا رسول الله السلام عليك يا نبي الله السلام عليك يا أمين الله السلام عليك يا حبيب الله السلام عليك يا صفوة الله السلام عليك يا خيرة الله السلام عليك يا أحمد السلام عليك يا محمد السلام عليك يا أبا القاسم السلام عليك يا ماحي السلام عليك يا عاقب السلام عليك يا حاشر السلام عليك يا بشير السلام عليك يا نذير السلام عليك يا طهر السلام عليك يا طاهر السلام عليك يا أكرم ولد آدم السلام عليك يا سيد المرسلين السلام عليك يا خاتم النبيين السلام عليك يا رسول رب العالمين السلام عليك يا قائد الخير السلام عليك يا فاتح البر السلام عليك يا نبي الرحمة السلام عليك يا هادي الأمة السلام عليك يا قائد الغر المحجلين السلام عليك وعلى أهل بيتك الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً السلام عليك وعلى أصحابك الطيبين وعلى أزواجك الطاهرات أمهات المؤمنين جزاك الله عنا أفضل ما جرى نبياً عن قومه ورسولاً عن أمته وصلى عليك كلما ذكرك الذاكرون وكلما غفل عنك الغافلون وصلى عليك في الآزئين والآخريين أفضل وأكمل وأعلى وأحل وأطيب وأطهر ما صلى على أحد من خلقه كما استقنذنا بك من الضلالة وبصرنا بك من العماية وهدانا بك من الجهالة أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنك عبده ورسوله وأمينه وصفيه وخيرته من خلقه وأشهد أنك قد بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة وجاهدت عدوك وهديت أمتك وعبدت ربك حتى أتاك اليقين فصلى الله عليك وعلى أهل بيتك الطيبين وسلم وترف وكترم وعظم وإن كان قد أوصى بتبليغ سلام فيقول : السلام عليك من - فلان - السلام عليك من - فلان - ثم يتأخر قدر ذراع ويسلم على أبي بكر الصديق رضي الله عنه لأن رأسه عند منكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأس عمر رضي الله عنه عند منكب أبي بكر رضي الله عنه . ثم يتأخر قدر ذراع ويسلم على الفاروق عمر رضي الله عنه ويقول : السلام عليك يا وزير رسول الله صلى الله عليه وسلم والمعاونين له على القيام بالدين مادام حياً والقائمين في أمته بعده بأمر الدين تتبعان في ذلك آثاره وتعملان بسنته فجزا كما الله خير ماجزى وزيرى نبي عن دينه . ثم يرجع فيقف عند رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم - بين القبر والاسطوانة اليوم - ويستقبل القبلة وليحمد الله عز وجل وليمجده وليكثر من الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يقول : اللهم إنك قد قلت وقولك الحق ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيباً ﴾ اللهم إنا قد سمعنا قولك وأطعنا أمرك وقصدنا نبيك متشفعين به إليك في ذنوبنا وما أثقل ظهورنا من أوزارنا تأمبين من زللتنا معترفين بخطايانا وتقصيرنا فتب اللهم علينا وشفع نبيك هذا فينا وارفعنا بمنزلة عندك وحقه عليك . اللهم اغفر للهاجرين والأنصار واغفر لنا وإخواننا الذين سبقونا بالإيمان . اللهم لا تجعله آخر العهد من قبر نبيك ومن حرمك يا أرحم الراحمين . ثم يأتي الروضة فيصل فيهما ركعتين ويكثر من الدعاء ما استطاع لقوله صلى الله

عليه وسلم « ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على حوضي ^(١) » ، ويدعو عند المنبر ويستحب أن يضع يده على الرمانة السفلى التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع يده عليها عند الخطبة ^(٢) ويستحب له أن يأتي أحدا يوم الخنيس ويزور قبور الشهداء فيصلي الغداة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم . ثم يخرج ويعود إلى المسجد لصلاة الظهر فلا يفوته فريضة في الجماعة في المسجد . ويستحب أن يخرج كل يوم إلى البقيع بعد السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويزور قبر عثمان رضي الله عنه وقبر الحسن بن علي رضي الله عنهما ، وفيه أيضا قبر علي ابن الحسين ومحمد بن علي وجعفر بن محمد رضي الله عنهم ، ويصلي في مسجد فاطمة رضي الله عنها ويزور قبر إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبر صفية عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فذلك كله بالبقيع . ويستحب له أن يأتي مسجد قباء في كل سبت ويصلي فيه لما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال من خرج من بيته حتى يأتي مسجد قباء ويصلي فيه كان له عدل عمرة ^(٣) » ، ويأتي بئر أريس يقال إن النبي صلى الله عليه وسلم تغفل فيها وهي عند المسجد فيتوضأ منها ويشرب من ماؤها ^(٤) ويأتي مسجد الفتح وهو على الخندق . وكذا يأتي سائر المساجد والمشاهد ويقال إن جميع المشاهد والمساجد بالمدينة ثلاثون موضعا يعرفها أهل البلد فيقصد ما قدر عليه وكذلك يقصد الآبار التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ منها ويغتسل ويشرب منها ^(٥) وهي سبع آبار طلبا للشفاء

(١) حديث « ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على حوضي » متفق عليه من حديث أبي هريرة وعبد الله ابن زيد (٢) حديث « وصمه صلى الله عليه وسلم يده عند الخطبة على رمانة المر » لم أقف له على أصله وذكر محمد بن الحسن ابن زبالة في تاريخ المدينة أن طول رمانتي المر اللتين كان يسكهما صلى الله عليه وسلم بيديه السكريتين إذا جلس شبر وأصمان . (٣) حديث « من خرج من بيته حتى يأتي مسجد قباء ويصلي فيه كان عدل عمرة » أخرجه النسائي وابن ماجه من حديث سهل بن حنيف بإسناد صحيح (٤) حديث « أن النبي صلى الله عليه وسلم تغفل في بئر أريس » لم أقف له على أصله وإنما ورد أنه تغفل في بئر الصفة وبئر غرس — كما سيأتي عند ذكرها — (٥) حديث « الآبار التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يتوضأ ويمتسل ويشرب منها » وهي سبعة آبار . قلت : وهي بئر أريس وبئر حار وبئر رومة وبئر غرس وبئر بضاعة وبئر الصفة وبئر السقيا أو المهن أو بئر جبل . حديث « بئر أريس » رواه مسلم من حديث أبي موسى الأشعري في حديث فيه « حتى دخل بئر أريس قال جلست عند بابها وبابها من حديد حتى قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجته وتوضأ . . . الحديث » وحديث « بشرحا » متفق عليه من حديث أنس قال « كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة نخلا وكان أحب أمواله إليه بئر حار وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب . . . الحديث » وحديث « بئر رومة » رواه الترمذي والنسائي من حديث عثمان « أنه قال أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وليس بها ماء يستعدت غير بئر رومة فقال من يشترى بئر رومة ويحمل دلوه مع دلاء المسلمين . . . الحديث » قال الترمذي حديث حسن . وفي رواية لها « هل تعلمون أن رومة لم يكن يشرب منها أحد إلا بالثمن فأبنتها جعلتها للمني والمقير وابن السبيل . . . الحديث » وقال حسن صحيح وروى البزري والطيبراني من حديث بشير الأسلمي قال « لما قدم المهاجرون المدينة استنكروا الماء وكانت لرجل من بني غفار عين يقال لها رومة وكان يبيع منها القربة بعد ، . الحديث » وحديث « بئر غرس » رواه ابن حبان في الثقات . من حديث أنس « أنه قال اتتوني بئاء من بئر غرس فأتيت رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرب منها ويتوضأ » ولأن ماجه بإسناد جيد مرفوعا « إذا أتت فاضلوني بسبع قرب من بئر غرس » وروينا في تاريخ المدينة لابن العنبر بإسناد ضعيف مرسلا « أن النبي صلى الله عليه وسلم توضأ منها وبزق فيها وغسل منها حين توفي » وحديث « بئر بضاعة » رواه أصحاب السنن من حديث أبي سعيد الخدري « أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أتوضأ من بئر بضاعة » وفي رواية « أنه يستقيك من بئر بضاعة . . . الحديث » قال يحيى بن معين بإسناد جيد وقال الترمذي حسن ولا يظن أني من حديث أبي أسيد « بصق النبي صلى الله عليه وسلم في بئر بضاعة » وروينا أيضا في تاريخ ابن العنبر من حديث سهل بن سعد . وحديث « بئر الصفة » رواه ابن عدي من حديث أبي سعيد الخدري « أن النبي صلى الله عليه وسلم جاء يوما فقال هل عندكم من سدر أغسل به رأسي فان اليوم الجمعة ؟ قال نعم فأخرج له سدرًا وخرج معه إلى الصفة فمسح رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه وصبغ رأسه وصبغ رأسه وصبر رأسه وصبر رأسه وفي الصفة » وفيه محمد بن الحسن بن زبالة ضعيف وحديث « بئر السقيا » رواه أبو داود من حديث عائشة « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستعذب له من بيوت السقيا » زاد البزار في مسنده « أو من بئر السقيا » ولأحمد من حديث علي « خرج جامع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كنا بالسقيا التي كانت لسعد بن أبي وقاص قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اتنوني بوضوء فلما توضأ

وتبركا به صلى الله عليه وسلم وإن أمكنه الإقامة بالمدينة مع مراعاة الحرمة فلها فضل عظيم قال صلى الله عليه وسلم « لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كنت له شفيعا يوم القيامة ^(١) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت فإنه لن يموت بها أحد إلا كنت له شفيعا أو شهيدا يوم القيامة ^(٢) » ، ثم إذا فرغ من أشغاله وعزم على الخروج من المدينة فالمستحب أن يأتي القبر الشريف ويعيد دعاء الزيارة - كما سبق - ويودع رسول الله صلى الله عليه وسلم ويسأل الله عز وجل أن يرزقه العودة إليه ويسأل السلامة في سفره . ثم يصلي ركعتين في الروضة الصغيرة وهي موضع مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن زيدت المقصورة في المسجد . فإذا خرج فليخرج رجله اليسرى أولا ثم اليمنى وليقل « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ولا تجعله آخر العهد بنبيك وحط أوزاري بزيارته وأصغني في سفرى السلامة ويسر رجوعى إلى أهلى ووطنى سالميا أرحم الراحمين ، وليصدق على حيران رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قدر عليه . وليتبع المساجد التي بين المدينة ومكة فيصلى فيها وهي عشرون موضعا .

فصل : في سنن الرجوع من السفر

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قفل من غزو أو حح أو عمرة يكبر على رأس كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات ويقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير آيرون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ^(٣) » ، وفي بعض الروايات « وكل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون » فينبغى أن يستعمل هذه السنة في رجوعه . وإذا أشرف على مدينته يحرك الدابة ويقول « اللهم اجعل لنا بها قرارا ورزقا حسنا . ثم ليرسل إلى أهله من يخبرهم بقدمه كي لا يقدم عليهم بعته فذلك هو السنة ^(٤) » ولا ينبغى أن يطرق أهله ليلا فإذا دخل البلد فليقصد المسجد أولا وليصل ركعتين فهو السنة ^(٥) كذلك كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإذا دخل بيته قال « توبا توبا لربنا أوبا لا يغادر علينا حوبا ، فإذا استقرت في منزله فلا ينبغى أن ينسى ما أنعم الله به عليه من زيارة بيته وحرمة وقبر بنيه صلى الله عليه وسلم فيكفر تلك النعمة بأن يعود إلى الغفلة والهوى والخوض في المعاصي ، فما ذلك علامة الحج المبرور بل علامته أن يعود راهدا في الدنيا راغبا في الآخرة متأهبا للقائه رب البيت بعد لقاء البيت .

الباب الثالث : في الآداب الدقيقة والأعمال الباطنة

بيان دقائق الآداب وهي عشرة

(الاول) أن تكون العفة حللا وتكون اليد حالية من تجارة تشغل القلب وتفترق الهم حتى يكون الهم مجردا

== قام .. الحديث « وأما برجل في الصحيحين من حديث أبي الهمم « أتبل رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو ثمرجل .. الحديث » وصله البخارى وعاقه مسلم والمشهور أن الآثار بالمدينة سبعة . وقد روى الدارمى من حديث عائشة « أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في مرضه : صوا على سبع قرب من آبار شتى .. الحديث . وهو عند البخارى دون قوله « من آبار شتى »

(١) حديث « لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كنت له شفيعا يوم القيامة » تقدم في الباب قبله (٢) حديث « من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها .. الحديث » تقدم في الباب قبله (٣) حديث « كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قفل من غزو أو حح أو عمرة يكبر على كل شرف من الأرض .. الحديث » متفق عليه من حديث ابن عمر وما رآه في آخره في بعض الروايات من قوله « وكل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون » رواه الحاملى في الدعاء بأسناد جيد .

(٤) حديث « لرسال المسافر إلى أهل بيته من يخبرهم بقدمه كيلا يقدم عليهم بعته » لم أجده في ذكر الإرسال وفي الصحيحين من حديث جابر « كما مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة فلما قدما المدينة ذهبا ليدخل فقال أمهلوا حتى ندخل ليلا أى عشاء كي تمشط الشمنة وتستجد الميية » (٥) حديث « صلاة ركعتين في المسجد سد القدم من السم » تقدم في الصلاة

الله تعالى والقلب مطمئناً منصرفاً إلى ذكر الله تعالى وتعظيم شعائره . وقد روى في خبر من طريق أهل البيت « إذا كان آخر الزمان خرج الناس إلى الحج أربعة أصناف سلاطينهم للزئمة وأغنياؤهم للتجارة وفقراؤهم للسألة وقراؤهم للسمعة ^(١) ، وفي الخبر إشارة إلى جملة أغراض الدنيا التي يتصور أن تتصل بالحج ، فكل ذلك مما يمنع فضيلة الحج ويخرجه عن حيز حج الخصوص ؛ لا سيما إذا كان متجرداً بنفس الحج بأن يحج لغيره بأجرة فيطلب الدنيا بعمل الآخرة . وقد كره الورعون وأرباب القلوب ذلك إلا أن يكون قصده المقام بمكة ولم يكن له ما يبلعه فلا بأس أن يأخذ ذلك على هذا القصد ، لا ليتوصل بالدين إلى الدنيا بل بالدنيا إلى الدين . فعند ذلك ينبغي أن يكون قصده زيارة بيت الله عز وجل ومعاونة أخيه المسلم بإسقاط الفرص عنه . وفي مثله ينزل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « يدخل الله سبحانه بالحجة الواحدة ثلاثة الجنة : الموصى بها والمنفذ لها ومن حج بها عن أخيه ^(٢) ، ولست أقول لا تحل الأجرة أو يحرم ذلك بعد أن أسقط فرض الإسلام عن نفسه ، ولكن الأولى أن لا يفعل ولا يتخذ ذلك مكسبه ومتجره فإن الله عز وجل يعطى الدنيا بالدين ولا يعطى الدين بالدنيا . وفي الخبر « مثل الذي يغزو في سبيل الله عز وجل ويأخذ أجراً مثل أم موسى عليه السلام ترضع ولدها وتأخذ أجرها ^(٣) ، فمن كان مثاله في أخذ الأجرة على الحج مثال أم موسى فلا بأس بأخذه فإنه يأخذ ليعتد من الحج والزيارة فيه ، وليس يحج ليأخذ الأجرة بل يأخذ الأجرة ليحج كما كانت تأخذ أم موسى ليتيسر لها الإرضاع بتلبس حالها عليهم (الثاني) أن لا يعاون أعداء الله سبحانه بتسليم المكس وهم الصادون عن المسجد الحرام من أمراء مكة والأعراب المترصدين في الطريق . فإن تسليم المال إليهم إعانة على الظلم وتيسير لأسبابه عليهم فهو كالإعانة بالنفس ؛ فليستلطف في حيلة الخلاص فإن لم يقدر فقد قال بعض العلماء - ولا بأس بما قاله - إن ترك التنفل بالحج والرجوع عن الطريق أفضل من إعانة الظلمة فإن هذه بدعة أحدثت وفي الانقياد لها ما يجعلها سنة مطردة وفيه ذل وصغار على المسلمين يبذل جزية . ولا معنى لقول القائل إن ذلك يؤخذ مني وأنا مضطر فإنه لو قعد في البيت أو رجع من الطريق لم يؤخذ منه شيء بل ربما يظهر أسباب الترفه فتكثر مطالبته فلو كان في زى الفقراء لم يطالب فهو الذي ساق نفسه إلى حالة الاضطرار (الثالث) التوسع في الزاد وطيب النفس بالبذل والإنفاق من غير تقثير ولا إسراف بل على اقتصاد ، وأعنى بالإسراف التعم بأطيب الأطعمة والترفه بشرب أنواعها على عادة المترقيين . فأما كثرة البذل فلا سرف فيه . إذ لاخير في السرف ولا سرف في الخير ، كما قيل . وبذل الزاد في طريق الحج نفقته في سبيل الله عز وجل والدرهم بسبعائة درهم . قال ابن عمر رضى الله عنهما : من كرم الرجل طيب زاده في سفره . وكان يقول أفضل الحاج أخلصهم نية وأزكاهم نفقة وأحسنهم يقينا . وقال صلى الله عليه وسلم « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة فقيل له يارسول الله ما بر الحج ؟ فقال : طيب الكلام وإطعام الطعام ^(٤) ، (الرابع) ترك الرفث والفسوق

الباب الثالث : في الآداب الدقيقة والأعمال الباطنة

(١) حديث « إذا كان في آخر الزمان خرج الناس للحج أربعة أصناف سلاطينهم للزئمة وأغنياؤهم للتجارة وفقراؤهم للسؤال وقراؤهم للسمعة » أخرجه الخطيب من حديث أنس بن مالك وهو ليس فيه ذكر السلاطين ، ورواه أبو عثمان الصابوني في كتاب المسائين فقال « يحج أغنياء أمن للزئمة وأوساطهم للتجارة وفقراؤهم للسألة وقراؤهم للرياء والسمعة » (٢) حديث « يدخل بالحجة الواحدة ثلاثة الجنة الموصى بها والمنفذ لها ومن حج بها عن أخيه » أخرجه البيهقي من حديث جابر بسند ضعيف (٣) حديث « مثل الذي يغزو ويأخذ أجراً مثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها » أخرجه ابن عدى من حديث معاذ وقال مستتم الإسناد منكر المتن (٤) حديث « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » فقيل له ما بر الحج ؟ قال طيب الكلام وإطعام الطعام » أخرجه أحمد من حديث جابر بإسناد لين ورواه الحاكم مختصراً وقال صحيح الإسناد

والجدال كما نطق به القرآن . والرث اسم جامع لكل لغو وخنى ولحش من الكلام ويدخل فيه مغازلة النساء ومداعبتن والتحدث بشأن الجماع ومقدماته ، فإن ذلك يهيج داعية الجماع المحظور والداعى إلى المحظور محظور . والفسق اسم جامع لكل خروج عن طاعة الله عز وجل . والجدال هو المبالغة في الخصومة والممارة بما يورث الضغائن ويفرق في الحال الهمة وينافض حسن الخلق . وقد قال سفيان : من رث فسد حجه . وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم طيب الكلام مع إطعام الطعام من بر الحج . والممارة تناقض طيب الكلام فلا ينبغي أن يكون كثير الاعتراض على رفيقه وجماله وعلى غيره من أصحابه بل يلين جانبه ويخفض جناحه للسائرين إلى بيت الله عز وجل ويلزم حسن الخلق وليس حسن الخلق كفى الأذى بل احتمال الأذى وقيل سمى السفر سفرا لأنه يسفر عن أخلاق الرجال . ولذلك قال عمر رضى الله عنه لمن زعم أنه يعرف رجلا : هل صحبته في السن ، الذى يستدل به على مكارم الأخلاق ؟ قال : لا ، فقال : ما أراك تعرفه (الخامس) أن يحج ماشيا إن قدر عليه فذلك الأفضل . أوصى عبدالله ابن عباس رضى الله عنهما بنبيه عند موته فقال . يا بنى حجوا مشاة فإن للحاج المشى بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة من حسنات الحرم ، قيل وما حسنات الحرم ؟ قال : الحسنة بمائة ألف والاستحباب في المشى في المناسك والتردد من مكة إلى الموقف وإلى منى أكد منه في الطريق . وإن أضاف إلى المشى الإحرام من دورية أهله فقد قيل إن ذلك من إتمام الحج قاله عمر وعلى وابن مسعود رضى الله عنهم في معنى قوله عز وجل ﴿واتموا الحج والعمرة لله ﴾ وقال بعض العلماء : الركوب أفضل لما فيه من الإنفاق والمؤنة ولأنه أبعد عن ضجر النفس وأقل لأذاه وأقرب إلى سلامته وتمام حجه . وهذا عند التحقيق ليس مخالفا للأول بل ينبغي أن يفصل . ويقال من سهل عليه المشى فهو أفضل فإن كان يضعف ويؤدى به ذلك إلى سوء الخلق وقصور عن عمل فالركوب له أفضل ، كما أن الصوم للمسافر أفضل وللريض مالم يفيض إلى ضعف وسوء خلق . وسئل بعض العلماء عن العمرة : أيمشى فيها أويكترى حمارا بدرهم ؟ فقال : إن كان وزن الدرهم أشد عليه فالركاء أفضل من المشى ، وإن كان المشى أشد عليه كالأغنياء فالمشى له أفضل ؛ فكأنه ذهب فيه إلى طريق مجاهدة النفس وله وجه . ولكن الأفضل له أن يمشى ويصرف ذلك الدرهم إلى خير فهو أولى من صرفه إلى المكاري عوضا عن ابتذال الدابة . فإذا كانت لا تتسع نفسه للجمع بين مشقة النفس ونقصان المال فما ذكره غير بعيد فيه (السادس) أن لا يركب إلا زاملة أما المحمل فليجتنبه إلا إذا كان يخاف على الزاملة أن لا يستمسك عليها لعدر وفيه معنيان أحدهما : التخفيف على البعير فإن المحمل يؤذيه . والثاني : اجتناب زى المترفين المتكبرين « حج رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلة وكان تحته رحل رث وقطيفة خلقة قيمتها أربعة دراهم (١) وطاف على الراحلة لينظر الناس إلى هديه وشمائله (٢) ، وقال صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم « خذوا عني مناسككم (٣) » وقيل إن هذه المحامل أحدثها الحجاج وكان العلماء في وقته ينكرونها . فروى سفيان الثوري عن أبيه أنه قال : برزت من الكوفة إلى القادسية للحج ووافيت الرفاق من البلدان فرأيت الحاج كلهم على زوامل وجوالقات ورواحل ومارأيت في جميعهم إلا محملين . وكان ابن عمر إذا نظر إلى ما أحدث الحجاج من الزى والمحامل يقول الحاج قليل والركب كثير ثم نظر إلى رجل مسكين رث الهيئة تحته جوالق فقال : هذا نعم من الحجاج .

(١) حديث « حج رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلة وكان تحته رجل رث وقطيفة خلقة قيمتها أربعة دراهم » أخرجه

الترمذي في المعالم وابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف (٢) حديث « طوافه صلى الله عليه وسلم على راحلته » تقدم .

(٣) حديث « خذوا عني مناسككم » أخرجه مسلم والنسائي واللفظ له من حديث جابر

(السابع) أن يكون رث الهيئة أسعث أغبر غير مستكثر من الزينة ولا مائل إلى أسباب التفاخر والتكاثف فيكتب في ديوان المتكبرين المترفين ويخرج عن حزب الضعفاء والمساكين وخصوص الصالحين ، فقد أمر صلى الله عليه وسلم بالشعث والاختفاء^(١) ونهى عن التعمم والرفاهية^(٢) في حديث فضالة بن عبيد وفي الحديث «لما الحاج الشعث النفث^(٣)» ويقول الله تعالى : انظروا إلى زوار بيتي قد جاءوني شعثا غربا من كل فج عميق^(٤) ، وقال تعالى ﴿ثم ليقتضوا تفههم﴾ والشعث الشعث والاغبرار ، وقضاؤه بالخلق وقص الشارب والأظفار . وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أمراء الأجناد : اخذوا قلوبكم واخشوشنوا . أى البسوا الخلقان واستعملوا الخشونة في الأشياء . وقد قيل : زين الحجاج أهل اليمن لأنهم على هيئة التواضع والضعف وسيرة السلف فبذبح أن يجتذب الحمرة في زيه على الخصوص والشهرة كيفما كانت على العموم . فقد روى أنه صلى الله عليه وسلم كان في سفر فنزل أصحابه منزلا فسرحت الإبل فنظر إلى أكسية حمر على الأفتاب فقال صلى الله عليه وسلم أرى هذه الحمرة قد غلبت عليكم^(٥) قالوا فقمنا إليها ونزعناها عن ظهورها حتى شرد بعض الإبل ، (الثامن) أن يرفق بالدابة فلا يحملها مالا تطيق والمحمل خارج عن حد طاقتها والنوم عليها يؤذيها ويثقل عليها كان أهل الورع لا ينامون على الدواب إلا غفوة عن قعود وكانوا لا يقفون عليها الوقوف الطويل قال صلى الله عليه وسلم «لا تتخذوا ظهور دوابكم كراسي^(٦)» ، ويستحب أن ينزل عن دابته غدوة وغشية يروحها بذلك فهو سنة^(٧) وفيه آثار عن السلف . وكان بعض السلف يكثرى بشرط أن لا ينزل ويوى الأجرة ثم كان ينزل عنها ليكون بذلك محسنا إلى الدابة ، فيكون في حسنة ويوضع في ميزانه لا في ميزان المكارى . وكل من أذى بهيمة وحملها مالا تطيق طوبى له يوم القيامة . قال أبو الدرداء لبعير له عند الموت : يا أيها البعير لا تخاصمني إلى ربك فإنى لم أكن أحملك فوق طاقتك . وعلى الجملة في كل كبد حزاء أجر فليراع حق الدابة وحق المكارى جميعا وفي نزوله ساعة ترويح الدابة وسرور قلب المكارى . قال رجل لابن المبارك : احمللى هذا الكتاب معك لتوصله فقال : حتى استأمر الجمال فإنى قد اكرتيت . فانظر كيف توزع من استصحب كتاب لا وزن له ؟ وهو طريق الحزم في الورع فإنه إذا فتح باب القليل انجر إلى الكثير يسيرا يسيرا (التاسع) أن يتقرب بإراقة دم وإن لم يكن واجبا عليه ويجتهد أن يكون من سمين النعم ونفيسه ، وليأكل منه إن كان تطوعا ولا يأكل منه إن كان واجبا . قيل في تفسير قوله تعالى ﴿ذئب ومن يعظم شعائر الله﴾ إنه تحسينه وتسمينه . وسوق الهدى من الميقات أفضل إن كان لا يجهد ولا يكده . وليرتك المكاس في شراثة فقد كانوا يغالون في ثلاث ويكرهون

(١) حديث « الأمر بالثمت والاختفاء » أخرجه البوصى والطبرانى من حديث عدالة بن أبي حمزة قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تمددوا واخفوشنوا واتصلوا وامشوا حفاة » وفيه اختلاف ورواه ابن عدى من حديث أنى هريرة وكلاهما ضعيف (٢) حديث فضالة بن عبيد « فى النهى عن التعمم والرفاهية وأن الذى صلى الله عليه وآله وسلم كان ينهى عن كثير من الإرفاه » ولأحمد من حديث معاذ لياك والتعمم .. الحديث (٣) حديث « لما الحاج الشعث النفث » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث ابن عمر وقال غريب (٤) حديث « يقول الله تعالى أنظروا إلى زوار بيتي قد جاءوا شعثا غربا من كل فج عميق » أخرجه الحاكم وصححه من حديث أنى هريرة دون قوله « من كل فج عميق » وكذا رواه أحمد من حديث عبد الله بن عمر (٥) حديث « أنه صلى الله عليه وسلم كان فى سفر فنزل أصحاه منزلا فسرحت الإبل فنظر إلى أكسية حمر على الأفتاب فقال أرى هذه الحمرة قد غلبت عليكم . الحديث » أخرجه أبو داود من حديث رافع بن خديج وفيه رجل لم يسم . (٦) حديث « لا تتخذوا ظهور دوابكم كراسي » أخرجه أحمد من حديث سهل بن معاذ بن سعد ضعيف ورواه الحاكم وصححه من رواية معاذ بن أنس عن أبيه (٧) حديث « النزول عن الدابة غدوة وعشية يريحها بذلك » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث أنس بن مالك جيد « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا صلى الحجر فى السفر مسمى » ورواه البيهقى فى الأدب وقال « مسمى قليلا ونالته تقاد »

المكاس فيهن: الهدى والأضحية والرقبة، فإن أفضل ذلك أغلاه ثمنا وأنفسه عند أهله، وروى ابن عمر، أن عمر رضى الله عنهما أهدى بختية فطلبت منه بثلاثمائة دينار فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيعها ويشتري بثمنها بدنانفهاه عن ذلك وقال بل أهدها (١) ، وذلك لأن القليل الجيد خير من الكثير الدون . وفي ثلاثمائة دينار قيمة ثلاثين بدنة وفيها تكشير اللحم ولكن ليس المقصود اللحم إنما المقصود تركية النفس وتطهيرها عن صفة البخل وتزيينها بجمال التعظيم لله عز وجل ف ﴿ ان ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ﴾ وذلك يحصل بمراعاة النفاسة في القيمة كثر العدد أو قل « وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تبر الحج فقال العجج والشجج (٢) ، والعجج هو رفع الصوت بالتلمية ، والشجج هو نحر البدن . وروت عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما عمل آدمى يوم النحر أحب إلى الله عز وجل من إهراقه دما وإنما لتأتى يوم القيامة بقرونها وأظلافها وإن الدم يقع من الله عز وجل بمكان قبل أن يقع بالأرض فطيسوا بها نفسا (٣) » وفي الخبر « لكم بكل صوفة من حادها حسنة وكل قطرة من دمها حسنة وإنما لتوضع في الميزان فأبشروا (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « استجدوا هداياكم فإنها مطاياكم يوم القيامة ، (العاشر) أن يكون طيب النفس بما أنفقته من نفقة وهدى وبما أصابه من خسران ومصيبة في مال أو بدن إن أصابه ذلك فإن ذلك من دلائل قبول حجه . فإن المصيبة في طريق الحج تعدل النفقة في سبيل الله عز وجل الدرهم لسبعائة درهم بمثابة السدائد في طريق الجهاد فله بكل أذى احتمله وخسران أصابه ثواب فلا يضيع منه شيء عند الله عز وجل . ويقال إن من علامة قبول الحج أيضا ترك ما كان عليه من المعاصي وأن يتبدل بإخوانه البطالين لإخوانا صالحين ، وبمجالس اللهو والغفلة بمجالس ذكر واليقظة .

بيان الأعمال الباطنة ووجه الإخلاص في النية وطريق اعتبار بالمشاهد الشريفة

وكيفية الافتكار فيها والتذكر لأسرارها ومعانيها من ول الحج إلى آخره

اعلم أن أول الحج الفهم - أعنى فهم موقع الحج في الدين - ثم التسوق إليه ثم العزم عليه ثم قطع العلائق المانعة منه ثم شراء ثوب الإحرام ثم شراء الزاد ثم اكتراء الراحلة ثم الخروج ثم المسير في البادية ثم الإحرام من الميقات بالتلبية ثم دخول مكة ثم استتمام الأفعال كما سبق . وفي كل واحد من هذه الأمور تذكرة للتذكير وعبرة للمعتبر وتنبية للمريد الصادق وتعريف وإشارة للقطب . فلنمرن إلى مما تحبها حتى إذا انتمت بابها وعرفت أسبابها انكشمت لكل حاج من أسرارها ما يقتضيه صفاء قلبه وطهارة باطنه وغزارة فهمه .

أما الفهم : اعلم أنه لا وصول إلى الله سبحانه وتعالى إلا بالتنزه عن الشهوات والكف عن اللذات والاقتصار على الضرورات فيها والتجرد لله سبحانه في جميع الحركات والسكنات . ولأجل هذا انفرد الرهبانيون في الملل السالفة

(١) حديث ابن عمر « أن عمر أهدى بختية فطلبت منه بدنة » أخرجه أبو داود وقال « امرها » (٢) حديث « مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تبر الحج ؟ قال : العجج والشجج » أخرجه الترمذى واستنبره وابن ماجه والحاكم وصححه والبخاري وألفظه من حديث أبي بكر وقال الياقوتى « أى الحج أفضل » (٣) حديث عائشة « ما عمل آدمى يوم النحر أحب إلى الله من إهراقه دما . الحديث » أخرجه الترمذى وحسنه ابن ماجه وضعفه ابن حبان وقال البخارى لأنه مرسل ووصله ابن خزيمة (٤) حديث « لكم بكل صوفة من جلدتها حسنة وكل قطرة من دمها حسنة وإنما لتوضع في الميزان فأبشروا » أخرجه ابن ماجه وصححه البيهقي من حديث زيد بن أرقم في حديث فيه « بكل شعرة حسنة قالوا فالصوف قال بكل شعرة من الصوف حسنة » وفي رواية للبيهقي « بكل قطرة حسنة » قال البخارى لا يصح وروى أبو الشيخ في كتاب الصحايا من حديث علي « أما لأنها يجاه بها يوم القيامة لحومها ودمائها حتى توضع في مبراك » قولها لهاطمة .

عن الخلق وانحازوا إلى قلة الجبال وآثروا التوحش عن الخلق لطلب الأُنس بالله عز وجل فتركوا الله عز وجل اللذات الحاضرة وأرموا أنفسهم المجاهدات الشاقة طمعا في الآخرة وأثنى الله عز وجل عليهم في كتابه فقال ﴿ ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ﴾ فلما اندرس ذلك وأقبل الخلق على اتباع الشهوات وهجروا التجرد لعبادة الله عز وجل وفتروا عنه بعث الله عز وجل نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم لإحياء طريق الآخرة وتجديد سنة المرسلين في سلوكها . فسأله أهل الملل عن الرهبانية والسياسة في دينه فقال صلى الله عليه وسلم : « أبدلنا الله بها الجهاد والتكبير على كل شرف »^(١) يعني الحجج « وسئل صلى الله عليه وسلم عن السائحين فقال : هم الصائمون »^(٢) « فأنعم الله عز وجل على هذه الأمة بأن جعل الحج رهبانية لهم فشرف البيت العتيق بالإضافة إلى نفسه تعالى . ونصبه مقصدا لعباده وجعل ماحواليه حرما لبيته تفضيحا لأمره . وجعل عرفات كالميزاب على فناء حوضه : وأكد حرمة الموضع بتحريم صيده وشجره . ووضع على مثال حضرة الملوك يقصده الزوار من كل فج عميق ومن كل أوب سحيق شعنا غبرا متواضعين لرب البيت ومستكبين له خضوعا لجلاله واستكانة لعزته . مع الاعتراف بتزويجه عن أن يحويه بيت أو يكتنفه بلد ليكون ذلك ابلغ في رقهم وعبوديتهم وأتم في إذعانهم وانقيادهم . ولذلك وظف عليهم فيها أعمالا لا تأنس بها النفوس ولا تهتدى إلى معانيها العقول كرمى الجمار بالأحجار ، والتردد بين الصفا والمروة على سبيل التكرار . وبمثل هذه الأعمال يظهر كال الرق والعبودية . فإن الزكاة إرفاق ووجه مفهوم وللعقل إليه ميل . والصوم كسر للشهوة التي هي آلة عدو الله وتفرغ للعبادة بالكف عن الشواغل . والركوع والسجود في الصلاة تواضع لله عز وجل بأفعال هي هيئة النواضع وللنفوس أنس بتعظيم الله عز وجل . فأما ترددات السعي ورمى الجمار وأمثال هذه الأعمال فلا حظ للنفوس ولا أنس فيها ولا اهتمام للعقل إلى معانيها فلا يكون في الإقدام عليها باعث إلا الأمر المحرد وقصد الامتثال للأمر من حيث إنه أمر واجب الاتباع فقط . وفيه عزل للعقل عن تصرفه وصرف النفس والطبع عن محل أنسه فإن كل ما أدرك العقل معناه ؛ مال الطبع إليه ميلا ما . فيكون ذلك الميل معينا للأمر وباعثا معه على الفعل فلا يكاد يظهر به كال الرق والانقياد . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم في الحج على الخصوص « لبيك بحجة حقا تعبدا ورقا »^(٣) ، ولم يقل ذلك في صلاة ولا غيرها . وإذا اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى ربط نحة الخلق بأن تكون أعمالهم على خلاف هوى طباعهم وأن يكون زمامها بيد الشرع فيترددون في أعمالهم على سنن الانقياد وعلى مقتضى الاستعداد . كان مالا يهتدى إلى معانية أبلغ أنواع التعبدات في تزكية النفوس وصرافها عن مقتضى الطباع والأخلاق . مقتضى الاسترقاق . ولذا تفطنت لهذا فهمت أن تعجب النفوس من هذه الأفعال العجيبة مصدره الذهول عن أسرار التعبدات . وهذا القدر كاف في تفهم أصل الحج إن شاء الله تعالى .

وأما الشوق : فإنما ينبعث بعد الفهم والتحقق بأن البيت بيت الله عز وجل وأنه وضع على مثال حضرة الملوك

(١) حديث « سئل عن الرهبانية والسياسة فقال : بدلنا الله بها الجهاد والتكبير على كل شرف » أخرجه أبو داود من حديث أبي أمامة « أن رجلا قال يارسول الله أئذن لي في السياحة فقال إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله » رواه الطبراني بلفظ « لمن لسكر أمة سياحة وسياحة أمتي الجهاد في سبيل الله والسكلك أمة رهبانية ورهبانية أمتي الرباط في نحر العدو » ولبيهقي في الشعب من حديث أنس « رهبانية أمتي الجهاد في سبيل الله » وكلاهما ضعيف والترمذي وحسنه والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه من حديث أبي هريرة « أن رجلا قال يارسول الله لاني أريد أن أسافر فأوصني قال عليك بتقوى الله والتكبير على كل شرف » .

(٢) حديث « سئل عن السائحين فقال هم الصائمون » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة وقال المنهوط عن

هيبد بن عمير عن عمر مرسل

(٣) حديث « لبيك بحجة حقا تعبدا ورقا » تقدم في الزكاة .

فقاصده قاصد إلى الله عز وجل وزائر له وأن من قصد البيت في الدنيا جدير بأن لا يضيع زيارته فيرزق مقصود الزيارة في ميعاده المضروب له وهو النظر إلى وجه الله الكريم في دار القرار ، من حيث إن العين القاصرة الفانية في دار الدنيا لا تنهياً لقبول النظر إلى وجه الله عز وجل ولا تطبيق احتمال ولا تستعد للاكتحال به لقصورها ، وأنها إن أمدت في الدار الآخرة بالبقاء ونزهت عن أسباب التغير والفناء استعدت للنظر والإبصار ولكنها بقصد البيت والنظر إليه تستحق لقاء رب البيت بحكم الوعد الكريم . فالشوق إلى لقاء الله عز وجل يشوقه إلى أسباب اللقاء لاحالة ، هذا مع أن المحب مشتاق إلى كل ماله إلى محبوبه إضافة والبيت مضاف إلى الله عز وجل فبالحرى أن يشتاق إليه لمجرد هذه الإضافة فضلاً عن الطلب لنيل ما وعد عليه من الثواب الجزيل .

وأما العزم : فليعلم أنه بعزمه قاصداً إلى مفارقة الأهل والوطن ومهاجرة الشهوات واللذات متوجهاً إلى زيارة بيت الله عز وجل . وليعظم في نفسه قدر البيت وقد رب البيت وليعلم أنه عزم على أمر رفيع شأنه خطير أمره وأن من طلب عظيمًا خاطر عظيم . وليجعل عزمه خالصاً لوجه الله سبحانه بعيداً عن شوائب الرياء والسمعة . وليستحق أنه لا يقبل من قصده وعمله إلا الخالص وإن من أخت الفواحش أن يقصد بيت الله وحرمه والمقصود غيره . فليصحح مع نفسه العزم وتصحيحه بإخلاصه وإخلاصه باجتنب كل ما فيه رياء وسمعة فليحذر أن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير .

وأما قطع العلائق : فمعناه رد المظالم والتوبة الخالصة لله تعالى عن جملة المعاصي فكل مظلمة علاقة وكل علاقة مثل غريم حاضر متعلق بتلاييه ينادى عليه ويقول ؛ إلى أين تتوجه أتقصد بيت ملك الملوك وأنت مضيع أمره في منزلك هذا ومستهين به ومهمله ؟ أو لا تستحي أن تقدم عليه قدوم العبد العاصي فيردك ولا يقبلك ؟ فإن كنت راغباً في قبول زيارتك فنقد أو امره ورد المظالم وتب إليه أولاً من جميع المعاصي واقطع علاقة قلبك عن الالتفات إلى ما وراءك لتكون متوجهاً إليه بوجه قلبك كما أنك متوجه إلى بيته بوجه ظاهرك . فإن لم تفعل ذلك لم يكن لك من سفرك أولاً إلا النصب والشقاء وآخراً إلا الطرد والرد . وليقطع العلائق عن وطنه انقطع من قطع عنه وقد أن لا يعود إليه وليكتب وصيته لأولاد وأهله فإن المسافر وماله لعل خطر إلا من وقى الله سبحانه . وليتذكر عند قطعه العلائق لسفر الحج قطع العلائق لسفر الآخرة فإن ذلك بين يديه على القرب وما يقدمه من هذا السفر طمع في تيسير ذلك السفر فهو المستقر وإليه المصير . فلا ينبغي أن يغفل عن ذلك السفر عند الاستعداد بهذا السفر .

وأما الزاد : فليطلبه من موضع حلال وإذا أحسن من نفسه الحرص على استكثاره وطلب ما يبقى منه على طول السفر ولا يتغير ولا يفسد قبل بلوغ المقصد فليتذكر أن سفر الآخرة أطول من هذا السفر ، وأن زاده التقوى وأن ما عده مما يظن أنه زاده يتخلف عنه عند الموت ويخونه فلا يبقى معه ، كالطعام الرطب الذي يفسد في أول منازل السفر فيبقى وقت الحاجة متحيراً محتاجاً لاحتياجه له . فليحذر أن تكون أعماله التي هي زاده إلى الآخرة لا تصحبه بعد الموت بل يفسدها شوائب الرياء وكدورات التقصير .

وأما الراحلة : إذا أحضرها فليشكر الله بقلبه على تسخير الله عز وجل له الدواب لتحمل عنه الأذى وتخفف عنه المشقة . وليتذكر عند المركب الذي يركبه إلى دار الآخرة وهي الجنائز التي يحمل عليها . فإن أمر الحج من وجه يوازى أمر السفر إلى الآخرة ولينظر أيا صلاح سفره على هذا المركب لأن يكون زادا له لذلك السفر على ذلك المركب ؟ فما أقرب ذلك منه . وما يدرى لعل الموت قريب ويكون ركوبه للجنائز قبل ركوبه للجمل ، وركوب

الجنائز مقطوع به وتيسر أسباب السفر مشكوك فيه فكيف يحتاط في أسباب السمر المشكوك فيه ويستظهر في زاده وراحته ويهمل أمر السفر المستيقن ؟

وأما شراء ثوب الإحرام : فليتذكر عنده الكفن ولفه فيه فإنه سبردى ويتزر بثوب الإحرام عند القرب من بيت الله عز وجل وربما لا يتم سفره إليه . وأنه سيلقى الله عز وجل ملفوفاً في ثياب الكفن لا محالة . فكما لا يلقى بيت الله عز وجل إلا محالفاً عادته في الزي والهئية فلا يلقى الله عز وجل بعد الموت إلا في زي مخالف لزي الدنيا . وهذا الثوب قريب من ذلك الثوب إذ ليس فيه مخيط كما في الكفن .

وأما الخروج من البلد : فليعلم عنده أنه فارق الأهل والوطن متوجهاً إلى الله عز وجل في سفر لا يضاهاه أسعار الدنيا . فليحضر في قلبه أنه ماذا يريد وأين يتوجه وزيارة من يقصد ؟ وأنه متوجه إلى ملك الملوك في زمرة الزائرين له الذين نودوا فأجابوا وشوقوا فاشتاقوا واستنهضوا فهضوا وقطعوا العلائق وفارقوا الخلائق وأقبلوا على بيت الله عز وجل الذى نغم أمره وعظم شأنه ورفع قدره تسليماً بلقاء البيت عن لقاء رب البيت إلى أن يرزقوا منتهى مناهم ويسعدوا بالنظر إلى مولاهم . وليحضر في قلبه رجاء الوصول والقبول لا إدلالاً بأعماله في الارتحال ومفارقة الأهل والمال ولكن ثقة بفضل الله عز وجل ورجاء لتحقيقه وعده لمن زار بيته . وليرج أنه إن لم يصل إليه وأدركته المنية في الطريق لقي الله عز وجل واهدأ إليه إذ قال حل جلاله ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ﴾ .

وأما دخول السادية إلى الميقات ومشاهدة تلك العقبات : فليتذكر فيها ما بين الخروج من الدنيا بالموت إلى ميقات يوم القيامة وما بينهما من الأهوال والمطالبات . وليتذكر من هول قطاع الطريق هول سؤال منكر ونكير ومن سباع البوادي عقارب القبر وديدانه وما فيه من الأفاعى والحيات ومن انفراده من أهله وأقاربه وحشة القبر وكربته ووحدته . وليكن في هذه المخاوف في أعماله وأقواله متزوداً لمخاوف القبر .

وأما الإحرام والتلبية من الميقات . فليعلم أن معناه إجابة نداء الله عز وجل فارح أن تكون مقبولاً واخش أن يقال لك لا لبيك ولا سعديك فكن بين الرجاء والخوف متردداً وعن حولك وقوتك متبرئاً وعلى فضل الله عز وجل وكرمه متكلاً . فإن وقت التلبية هو بداية الأمر وهى محل الخطر . قال سفيان بن عيينة : حج على ابن الحسين رضى الله عنهما فلما أحرم واستوت به راحلته اصفرت لونه وانتفض ووقعت عليه الرعدة ولم يستطع أن يلبي فقيل له : لم لا تلي ؟ فقال : أخشى أن يقال لى لا لبيك ولا سعديك . فلما لبي غشى عليه ووقع عن راحلته فلم يزل يعتربه ذلك حتى قضى حجه وقال أحمد بن أبي الخوارى : كنت مع أبي سليمان الداراني رضى الله عنه حين أراد الإحرام فلم يلب حتى سرنا ميلاً فأخذته الغشية ثم أفاق وقال : يا أحمد إن الله سبحانه أوحى إلى موسى عليه السلام مرظلة بنى إسرائيل أن يقولوا من ذكرى فإني أذكر من ذكرى منهم باللعنة . ويحك يا أحمد بلغنى أن من حج من غير حله ثم لبي قال الله عز وجل لا لبيك ولا سعديك حتى ترد ما في يدك فما نأمن أن يقال لنا ذلك . وليتذكر الملبي عند رفع الصوت بالتلبية في الميقات إجابته لنداء الله عز وجل إذ قال ﴿ وأذن في الناس بالحج ﴾ ونداء الخلق بنفخ الصور وحشرهم من القبور وازدحامهم في عرصات القيامة مجيبين لنداء الله سبحانه ؛ ومنقسمين إلى مقربين ومقوتين . ومقبولين ومردودين . ومترددين في أول الأمر بين الخوف والرجاء تردد الحاج في الميقات حيث لا يدرون أيتيسر لهم إتمام الحج وقبوله أم لا ؟

وأما دخول مكة : فإيتذكر عندها أنه قد انتهى إلى حرم الله تعالى آمناً وليرج عنده أن يأمن بدخوله من عقاب الله عزوجل وليخس أن لا يكون أهلاً للقرب فيكون بدخوله الحرم خائباً ومستحقاً للمقت . وليكن رجاؤه في جميع الأوقات غالباً فالكرم عظيم والرب رحيم وشرف البيت عظيم وحق الزائر مرعى وذمام المستحير اللاتذ غير مضيع .

وأما وقوع البصر على البيت : فينبغي أن يحضر عنده عظمة البيت في القلب ويقدر كأنه مشاهد لرب البيت لشدة تعظيمه إياه . وارج أن يرزقك الله تعالى النظر إلى وجهه الكريم كما رزقك الله النظر إلى بيته العظيم . واشكر الله تعالى على تبليغه إياك هذه الرتبة وإلحاقه إياك رمرة الواهدين عليه . واذكر عند ذلك انصباب الناس في القيامة إلى جهة الجنة آملين لدخولها كافة ثم انقسامهم إلى مأذونين في الدخول ومصروفين انقسام الحاج إلى مقبولين ومردودين . ولا تغفل عن تذكر أمور الآخرة في شيء مما تراه فإن كل أحوال الحاج دليل على أحوال الآخرة .

وأما الطواف بالبيت : فاعلم أنه صلاة فأحضر في قلبك فيه من التعظيم والحواف والرجاء والمحبة ما فصلناه في كتاب الصلاة . واعلم أنك بالطواف متمسكاً بالملائكة المقربين الخافين حول العرش الطائمين حوله . ولا تظن أن المقصود طواف جسمك بالبيت بل المقصود طواف قلبك بذكر رب البيت حتى لا تبتدىء الذكر إلا منه ولا تختم إلا به كما تبتدىء الطواف من البيت وتختم بالبيت . واعلم أن الطواف الشريف هو طواف القاب بحضرة الربوبية . وأن البيت مثال طاهر في عالم الملك لتلك الحضرة التي لا تشاهد بالبصر وهي عالم الملكوت ، كما أن البدن مثال ظاهر في عالم الشهادة للقلب الذي لا يشاهد بالبصر وهو في عالم الغيب . وأن عالم الملك والشهادة مدركة إلى عالم الغيب والملكوت لمن فتح الله له الباب وإلى هذه الموازنة وقعت الإشارة بأن البيت المعمور في السموات بإزاء الكعبة . فإن طواف الملائكة به كطواف الأنس بهذا البيت . ولما قصرت رتبة أكثر الخلق عن مثل ذلك الطواف أمروا بالتشبه بهم بحسب الإمكان ووعدوا بأن من تشبه بقوم فهو منهم ^(١) والذي يقدر على مثل ذلك الطواف هو الذي يقال إن الكعبة تزوره وتطوف به على ما رآه بعض المكاشفين لبعض أولياء الله سبحانه وتعالى .

وأما الاستلام : فاعتقد عنده أنك مبايع لله عز وجل على طاعته فصمم عزيمتك على الوفاء ببيعتك فمن غدر في المبايعه استحق المقت . وقد روى ابن عباس رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « الحجر الأسود يمين الله عزوجل في الأرض يصافح بها خلقه كما يصافح الرجل أخاه ^(٢) » .

وأما التعلق بأستار الكعبة والاتصاق بالملتزم : فلتكن نيتك في الالتزام طلب القرب حبا وشوقا للبيت ولرب البيت وتبركا بالمهاسة ورجاءاً للتحصن عن النار في كل جزء من بدنك لاقى البيت . ولتكن نيتك في التعلق بالأستار الإلحاح في طلب المغفرة وسؤال الأمان كالمذنب المتعلق بثياب من أذنب إليه المتضرع إليه في عفوه عنه المظهر له أنه لا ملجأ له منه إلا إليه ولا معزج له إلا كرمه وعفوه وأنه لا يفارق ذيله إلا بالعمفو وبذل الأمان في المستقبل .

وأما السعى بين الصفا والمروة في فناء البيت : فإنه يضاهي تردد العبد بفناء دار الملك جائئياً وذاها مرة بعد أخرى

(١) حديث « من تشبه بقوم فهو منهم » أخرجه أبو دواد من حديث ابن عمر بسند صحيح (٢) حديث ابن عباس « الحجر يمين الله في الأرض يصافح بها خلقه .. الحديث » تقدم في العلم من حديث عبدالله بن عمرو .

إظهاراً للخلوص في الخدمة ورجاء للملاحظة بعين الرحمة ، كالذى دخل على الملك وخرج وهو لا يدري ما الذى يقضى به الملك في حقه من قبول أو رد ؟ فلا يزال يتردد على فناء الدار مرة بعد أخرى يرجو أن يرحم في الثانية إن لم يرحم في الأولى . وليتذكر عند ترده بين الصفا والمروة ترده بين كفتى الميزان في عرصات القيامة وليمثل الصفا بكفة الحسنات والمروة بكفة السيئات . وليتذكر ترده بين الكفتين ناظراً إلى الرجحان والتقصان متردداً بين العذاب والغفران .

وأما الوقوف بعرفة . فاذا ذكر - بما ترى من ازدحام الخلق وارتفاع الأصوات واختلاف اللغات واتباع الفرق أممهم في الترددات على المشاعر اقتفاء لهم وسيرا بسيرهم - عرصات القيامة واجتماع الأمم مع الأنبياء والأئمة واقتفاء كل أمة نبيها وطمعهم في شفاعتهم وتحريرهم في ذلك الصعيد الواحد بين الرد والقبول . وإذا تذكرت ذلك فالزم قلبك الضراعة والابتهاال إلى الله عز وجل فتحشر في زمرة الفائزين المرحومين وحقق رجاءك بالإجابة فالموقف شريف والرحمة إنما تصل من حضرة الجلال إلى كافة الخلق بواسطة القلوب العزيزة من أوتاد الأرض . ولا ينفك الموقف عن طبقة من الأبدال والأوتاد وطبقة من الصالحين وأرباب القلوب . فإذا اجتمعت همهم وتجردت للضراعة والابتهاال قلوبهم وارتفعت إلى الله سبحانه أيديهم وامتدت إلى أعناقهم وشخصت نحو السماء أبصارهم مجتمعين بهمة واحدة على طلب الرحمة فلا تظن أنه يخيب أملهم ويضيع سعيهم ويدخر عنهم رحمة تغمرهم . ولذلك قيل : إن من أعظم الذنوب أن يحضر عرفات، ويظن أن الله تعالى لم يغفر له . وكان اجتماع الهمم والاستظهار بمجاورة الأبدال والأوتاد مجتمعين من أقطار البلاد هو سر الحج وغاية مقصوده فلا طريق إلى استدرار رحمة الله سبحانه مثل اجتماع الهمم وتعاون القلوب في وقت واحد .

وأما رمى الحجار : فأقصد به الانقياد للأمر إظهاراً للرق والعبودية وانتهاضاً لمحرد الامتثال من غير حظ للعقل والنفس فيه . ثم أقصد به التشبه بإبراهيم عليه السلام حيث عرض له إبليس لعنه الله تعالى في ذلك الموضع ليدخل على حجه شهة أو يفتنه بمعصية فأمره الله عز وجل أن يرميه بالحجارة طرداً له وقطعاً لأمله . فإن خطر لك : أن الشيطان عرض له وشاهده فلذلك رماه وأما أنا فليس يعرض لى الشيطان ؟ فاعلم أن هذا الخاطر من الشيطان وأنه الذى ألقاه في قلبك ليفتر عزمك في الرمي ويخيل إليك أنه فعل لافائدة فيه وأنه يضاهى اللعب فلم تشتعل به فاطرده عن نفسك بالجدة والتشمير في الرمي فيه برغم أنف الشيطان . واعلم أنك في الظاهر ترمى الحصى إلى العقبة وفي الحقيقة ترمى به وحه الشيطان وتقصم به ظهره إذ لا يحصل لإرغام أنفه إلا بامتثالك أمر الله سبحانه وتعالى تعظيماً له بمجرد الأمر من غير حظ للنفس والعقل فيه .

وأما ذبح الهدى : فاعلم أنه تقرب إلى الله تعالى بحكم الامتثال فأكل الهدى وارج أن يعتق الله بكل حزم منه جزءاً منك من النار ^(١) فهكذا ورد الوعد . فكلمة كان الهدى أكبر وأجراؤه أوفر كان فداوك من النار أعم

وأما زيارة المدينة : فإذا وقع بصرك على حيطانها فتذكر أنها البلدة التي اختارها الله عز وجل لمبيه صلى الله عليه وسلم وجعل إليها هجرته وأنها داره التي شرع فيها فرائض ربه عز وجل وسنته وجاهد عدوه وأظهر بها دينه إلى أن

(١) حديث « أنه يعتق بكل حزم من الأحمية جزءاً من المضحي من النار » لم أتف له على أصل وفي كتاب الضحايا لأبي الشيخ من حديث أبي سعيد « فان لك لأول قطرة تقطر من دمه أن نفر لك ما تقدم من ذنوبك » يقوله لفاطمة رضي الله عنها وإسناده ضعيف

توفاه الله عز وجل . ثم جعل تربته فيها وتربة وزيريه القائمين بالحق بعده رضى الله عنهما ثم مثل في نفسك مواقع أقدام رسول الله صلى الله عليه وسلم عند تردداته فيها وأنه ما من موضع قدم تطؤه إلا وهو موضع أقدامه العزيرة فلا تضع قدمك عليه إلا عن سكينته ووجل . وتذكر مشيه وتخطيه في سككها وتصور خشوعه وسكيفته في المشى وما استودع الله سبحانه قلبه من عظيم معرفته ورفعة ذكره مع ذكره تعالى حتى قرنه بذكر نفسه وإحباطه عمل من هتك حرمة ولو برفع صوته فوق صوته . ثم تذكر ما من الله تعالى به على الذين أدركوا صحبته وسعدوا بمشاهدته واستماع كلامه وأعظم تأسفك على ما فاتك من صحبته وصحبة أصحابه رضى الله عنهم . ثم اذكر أنك قد فاتت رؤيته في الدنيا وأنك من رؤيته في الآخرة على خطر . وأنك ربما لاتراه إلا بحسرة وقد حيل بينك وبين قبوله إليك بسوء عملك كما قال صلى الله عليه وسلم « يرفع الله إلى أقواما فيقولون يا محمد فأقول يارب أصحابي فيقول إنك لاتدرى ما أحدثوا بعدك فأقول بعدا وسحقاً ^(١) ، فإن تركت حرمة شريعته ولو في دقيقة من الدقائق فلا تأمن أن يحال بينك وبينه بعد ذلك عن محبته . وليعظم مع ذلك رجاؤك أن لا يحول الله تعالى بينك وبينه بعد أن رزقك الإيمان وأشخصك من وطنك لأجل زيارته من غير تجارة ولا حظ في دنيا بل لمحض حبك له وشوقك إلى أن تنظر إلى آثاره وإلى حائط قبره ؛ إذ سمحت نفسك بالسفر بمجرد ذلك لما فاتت رؤيته فما أجدرك بأن ينظر الله تعالى إليك بعين الرحمة . فإذا بلغت المسجد فاذا ذكر أنها العرصة التي اختارها الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم ولأول المسلمين وأفضلهم عصابة . وان فرائض الله سبحانه أول ما أقيمت في تلك العرصة . وأنها جمعت أفضل خلق الله حيا وميتا فليعظم أملك في الله سبحانه أن يرحمك بدخولك إياه فادخله خاشعاً معظماً . وما أجدر هذا المكان بأن يستدهى الخشوع من قلب كل مؤمن كما حكى عن أبي سليمان أنه قال : حج أويس القرني رضى الله عنه ودخل المدينة فلما وقف على باب المسجد قيل له : هذا قبر النبي صلى الله عليه وسلم فغشى عليه . فلما أفاق قال : أخرجوني فليس يلد لي بلد فيه محمد صلى الله عليه وسلم مدفون .

وأما زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم : فينبغي أن تقف بين يديه كما وصفنا وتزوره ميتا كما تزوره حياً ولا تقرب من قبره إلا كما كنت تقرب من شخصه الكريم لو كان حيا . وكما كنت ترى الحرمة في أن لاتمس شخصه ولا تقبله بل تقف من بعد ما تلا بين يديه فكذلك فافعل فإن المس والتقبيل للمشاهد عادة النصارى واليهود . واعلم أنه عالم بحضورك وقيامك وزيارتك وأنه يبلغه سلامك وصلاتك : فثل صورته الكريمة في خيالك . وضوعاً في اللحد بإزائك وأحضر عظيم رتبته في قلبك فقد روى عنه صلى الله عليه وسلم « أن الله تعالى وكل بقبره ملكا يبلغه سلام من سلم عليه من أمته ^(٢) ، هذا في حق من لم يحضر قبره فكيف بمن فارق الوطن وقطع البوادي شوقاً إلى لقائه واكتفى بمشاهدة مشهده الكريم إذ فاته مشاهدة غزته الكريمة ؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم « من صلى على مرة واحدة صلى الله عليه عشرا ^(٣) ، فهذا جزاؤه في الصلاة عليه بلسانه فكيف بالحضور لزيارته بيده ؟ ثم ائت منبر الرسول صلى الله عليه وسلم وتوهم صعود النبي صلى الله عليه وسلم المنبر ومثل في قلبك طلعتة البهية كأنها على المنبر

(١) حديث « يرفع إلى أقوام فيقولون يا محمد فأقول يارب أصحابي فيقول إنك لاتدرى ما أحدثوا بعدك فأقول بعدا وسحقاً » متفق عليه من حديث ابن مسعود وأمس وغيرهما دون قوله « يا محمد يا محمد » (٢) حديث « إن الله وكل بقبره صلى الله عليه وسلم ملكا يبلغه سلام من سلم عليه من أمته » أخرجه النسائي وابن حبان والحاكم من حديث ابن مسعود بلفظ « إن الله ملائكة سياحين في الأرض يلدونني عن أمي السلام »

(٢) حديث « من صلى على واحدة صلى الله عليه عشرا » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وعبد الله بن عمرو

وقد أحدق به المهاجرون والأنصار رضى الله عنهم وهو صلى الله عليه وسلم يحتهم على طاعة الله عز وجل بخطبته وسل الله عز وجل أن لا يفرق في القيامة بينك وبينه فهذه وظيفة القلب في أعمال الحج . فإذا فرغ منها كلها فينبغي أن يلزم قلبه الحزن والهجم والخوف وأنه ليس يدرى أقبل منه حجه وأثبت في زمرة المحبوبين أم رد حجه وألحق بالمطرودين؟ وليتعرف ذلك من قلبه وأعماله فإن صادف قلبه قد ازداد تحافيا عن دار الغرور وانصرافا إلى دار الأانس بالله تعالى ووجد أعماله قد اتزنت بميزان الشرع فاشق بالقبول فإن الله تعالى لا يقبل إلا من أحبه؛ ومن أحبه تولاه وأطهر عليه آثار محبته وكف عنه سطوه عدوه إبليس لعنه الله . فإذا طهر ذلك عليه دل على القبول، وإن كان الأمر بخلافه فيسوتك أن يكون حظه من سفره : العناء والتعب نحو ذب الله سبحانه وتعالى من ذلك .

تم كتاب : أسرار الحج . يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب . آداب تلاوة القرآن .

كتاب آداب تلاوة القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى امن على عباده بنبيه المرسل صلى الله عليه وسلم وكتابه المنزل الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴿ حتى اتسع على أهل الأفكار طريق الاعتبار بما فيه من القصص والأخبار . واتضح به سلوك المنهج القويم والصراط المستقيم بما فصل فيه من الأحكام . وفرق بين الحلال والحرام فهو الضياء والنور وبه النجاة من الغرور وفيه شفاء لما فى الصدور . ومن خالفه من الجبارة قصمه الله ومن ابتغى العلم فى غيره أضله الله . هو جبل الله المتين ونوره المبين والعروة الوثقى والمعتمد الآوى وهو المحيط بالقليل والكثير والصغير والكبير . لا تنقض عجماته ولا تنهاى غرائبه لا يحيط بفوائده عند أهل العلم تحديد ولا يخلق عند أهل التلاوة كثرة التردد هو الذى أرشد الأولين والآخرين ولما سمعه الجن لم يلبثوا أن ولوا إلى قومهم منذرين ﴿ فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشده فأما به ولنا نشارك ربنا أحدا ﴿ فكل من آمن به فقد وفق ومن قال به فقد صدق ومن تمسك به فقد هدى ومن عمل به فقد فاز وقال تعالى ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴿ ومن أسباب حفضه فى القلوب والمصاحف استدامة تلاوته والمواظبة على دراسته مع القيام بأدابه وشروطه والحفاظة على ما فيه من الأعمال الباطنة والآداب الظاهرة . وذلك لا بد من بيانه وتمصيله وتنكتهف مقاصده فى أربعة أبواب : (الباب الأول) فى فضل القرآن وأهله . (الباب الثانى) فى آداب التلاوة فى الظاهر . (الباب الثالث) فى الأعمال الباطنة عند التلاوة . (الباب الرابع) فى فهم القرآن وتفسيره بالرأى وغيره .

الباب الأول : فى فضل القرآن وأهله وذم المقصرين فى تلاوته

فضيله القرآن

قال صلى الله عليه وسلم : من قرأ القرآن ثم رأى أن أحداً أوتى أفضل مما أوتى فقد استصغر ما عظمه الله

تعالى (١) « وقال صلى الله عليه وسلم ، ما من شفيح أفضل منزلة عند الله تعالى من القرآن لا نبي ولا ملك ولا غيره (٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم « لو كان القرآن في إهاب ما مسته النار (٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل عبادة أمتي تلاوة القرآن (٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم أيضاً « إن الله عز وجل قرأ طه ويس قبل أن يخلق الخلق بألف عام فلما سمعت الملائكة القرآن قالت : طوبى لأمة ينزل عليهم هذا وطوبى لأجواف تحمل هذا وطوبى لألسنة تنطق بهذا (٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم « خيركم من تعلم القرآن وعلمه (٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم « يقول الله تبارك وتعالى من شغله قراءة القرآن عن دعائي ومسألتي أعطيته أفضل ثواب الشاكرين (٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم « ثلاثة يوم القيامة على كتيب من مسك أسود لا يهولهم فرع ولا ينالهم حساب حتى يفرغ ما بين الناس : رحل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله عز وجل والح أم به قوما وهم به رضوان (٨) ، وقال صلى الله عليه وسلم « أهل القرآن أهل الله وخاصته (٩) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد فقيل يارسول الله وما جلاؤها ؟ فقال : تلاوة القرآن وذكر الموت (١٠) ، وقال صلى الله عليه وسلم « لله أشد أذنا إلى قارئ القرآن من صاحب القينة إلى قيذته (١١) ، الآثار . قال أبو أمامة الباهلي : اقرءوا القرآن ولا تغزبنكم هذه المصاحف المعلقة فإن الله لا يعذب قلبا هو وعاء للقرآن . وقال ابن مسعود : إذا أردتم العلم فاثروا القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين . وقال أيضاً : اقرءوا القرآن فإنكم توجرون عليه بكل حرف منه عشر حسنات أما إنى لا أقول : الحرف ألم ولكن الألف حرف واللام حرف والميم حرف . وقال أيضاً : لا يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن فإن كان يحب القرآن ويعجبه فهو يحب الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وسلم وإن كان يبغض القرآن فهو يبغض الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وسلم . وقال عمرو بن العاص : كل آية في القرآن درجة في الجنة ومصباح في بيوتكم وقال أيضاً : من قرأ القرآن فقد ادرحت النبوة بين جنبيه لإلانه لا يوحى إليه . وقال أبو هريرة :

كتاب آداب تلاوة القرآن

الباب الأول في فضل القرآن وأهله

- (١) حديث « من قرأ القرآن ثم رأى أن أحدا أوتي أفضل مما أوتي فقد استصم ما عظمه الله » أخرجه الطبراني من حديث عبد الله بن عمرو بسند ضعيف (٢) حديث « ما من شفيح أعظم منزلة عند الله من القرآن لا نبي ولا ملك ولا غيره » رواه عبد الملك بن حبيب من رواية سعيد بن سليم مرسلًا للطبراني من حديث ابن مسعود « القرآن شافع مشفع » ولمسلم من حديث أبي أمامة « اقرءوا القرآن فانه يحىء يوم القيامة شفيحا لصاحبه »
- (٢) حديث « لو كان القرآن في إهاب ما مسته النار » أخرجه الطبراني وابن حبان في الصعفاء من حديث سهل بن سعد ولأحمد والدارمي والطبراني من حديث عقبة بن عامر وفيه ابن طيبة ورواه ابن عدى والطبراني والبيهقي في الشعب من حديث عصمة ابن مالك بإسناد ضعيف (٤) حديث « أفضل هادة أمتي تلاوة القرآن » أخرجه أبو نعيم في فضائل القرآن من حديث العمان ابن بشير وأنس ولمسنادهما ضعيف (٥) حديث « إن الله عز وجل قرأ طه ويس قبل أن يخلق الخلق بألف عام . الحديث » أخرجه الدارمي من حديث أبي هريرة بسند ضعيف (٦) حديث « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » أخرجه البخاري من حديث عثمان بن عفان (٧) حديث « يقول الله من شغله قراءة القرآن عن دعائي ومسألتي أعطيته ثواب الشاكرين » أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد « من شغله القرآن عن ذكرى أو مستلقى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » وقال حس غريب ورواه ابن شاهين بلفظ المصنف (٨) حديث « ثلاثة يوم القيامة على كتيب من مسك . الحديث » تقدم في الصلاة
- (٩) حديث « أهل القرآن أهل الله وخاصته » أخرجه النسائي في السكبرى وابن ماجه والحاكم من حديث أس بإسناد حسن .
- (١٠) حديث « إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد قين ما جلاؤها قال تلاوة القرآن وذكر الموت » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث ابن عمر بسند ضعيف (١١) حديث « لله أشد أذنا إلى قارئ القرآن من صاحب القينة إلى قيذته » أخرجه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه من حديث فضالة بن عبيد

إن البيت الذي يتلى فيه القرآن اتسع بأهله وكثر خيره وحضرته الملائكة وحررت منه الشياطين ، وإن البيت الذي لا يتلى فيه كتاب الله عز وجل : صاق بأهله وقل خيره وخرحت منه الملائكة وحضرته الشياطين . وقال أحمد ابن حنبل : رأيت الله عز وجل في المنام فقلت : يا رب ما أفضل ما تقرب به المتقربون إليك ؟ قال : بكلامى يا أحمد ، قال قلت : يا رب بفهم أو بغير فهم ؟ قال : بفهم وبعير فهم . وقال محمد بن كعب القرظى : إذا سمع الناس القرآن من الله عز وجل يوم القيامة فكأنهم لم يسموه قط . وقال الفضيل بن عياض : ينبغى لحامل القرآن أن لا يكون له إلى أحد حاجة ولا إلى الخلفاء فمن دونهم فينبغى أن تكون حوائج الخلق لإله . وقال أيضا حامل القرآن حامل راية الإسلام فلا ينبغى أن يلهو مع من يلهو ولا يسهو مع من يسهو ولا يلغو مع من يلغو تعظيما لحق القرآن . وقال سفيان الثوري : إذا قرأ الرجل القرآن قبل الملك بين عيذه . وقال عمرو بن ميمون : من نشر مصحفا حين يصلى الصبح فقرأ منه مائة آية رفع الله عز وجل له مثل عمل جميع أهل الدنيا . ويروى : أن خالد بن عقبة جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اقرأ على القرآن فقرأ عليه ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ﴾ الآية فقال له أعد فأعاد فقال : والله إن له للحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمورق وإن أعلاه لمثمر وما يقول هذا بشر ^(١) ، وقال الحسن والله مادون القرآن من عنى ولا بعده من فاقة . وقال الفضيل : من قرأ خاتمة سورة الحشر حين يصبح ثم مات من يومه ختم له بطابع الشهداء ومن قرأها حين يمسي ثم مات من ليلته ختم له لطابع الشهداء وقال القاسم بن عبد الرحمن : قلت لبعض النساك ما ههنا أحد ستأنس به فديده إلى المصحف ووضعه على حجره وقال : هذا . وقال علي بن أبي طالب رضى الله عنه : ثلاث يزدن في الحفظ ويذهبن البلغم ؛ السواك والصيام وقراءة القرآن .

في ذم تلاوة الغافلين

قال أنس بن مالك : رب تال للقرآن والقرآن يلغنه . وقال ميسرة : العريب هو القرآن في حروف الفاجر وقال أبو سليمان الداراني : الزبانية أسرع إلى حملة القرآن الذين بعصون الله عز وجل منهم إلى عبدة الأوثان حين عصوا الله سبحانه بعد القرآن . وقال بعض العلماء : إذا قرأ ابن آدم القرآن ثم خلط ثم عاد فقرأ قيل له : مالك ولكلامى . وقال ابن الرماح : ندمت على استظهارى القرآن لأنه بلغنى أن أصحاب القرآن يسألون عما يسأل عنه الأنبياء يوم القيامة . وقال ابن مسعود ، ينبغى لحامل القرآن أن يعرف بليته إذا الناس ينامون وبهاره إذا الناس يفرطون وبحزنه إذا الناس يفرحون وببكاؤه إذا الناس يضحكون وبصمته إذا الناس يحوصون وبخشوعه إذا الناس يختالون . وينبغى لحامل القرآن أن يكون مستكينا لنا ولا ينبغى له أن يكون جافبا ولا ماريبا ولا صياحا ولا صخابا ولا حديدا . وقال صلى الله عليه وسلم : « أكثر منافق هذه الأمة قراؤها ^(٢) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « اقرأ القرآن ما نهاك فإن لم ينهك فلست تقرؤه ^(٣) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « ما آمن بالقرآن من استحل محارمه ^(٤) » ، وقال بعض السلف :

(١) حديث « أن خالد بن عقبة جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اقرأ على القرآن فقرأ عليه ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ﴾ فقال : أعد فأعاد فقال : إن له للحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمورق وإن أعلاه لمثمر وما يقول هذا بشر » ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب سير أئمة ورواه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بسند جيد لا أنه قال « الوليد بن الميرة » بدل « خالد بن عقبة » وكسدا ذكره ابن مسعود في السيرة بنحوه (٢) حديث « أكثر منافق أمتي قراؤها » أخرجه أحمد من حديث عقبة بن عامر وعبد الله بن عمرو وفيهما ابن طيبة (٣) حديث « اقرأ القرآن ما نهاك فان لم ينهك فلست تقرؤه » أخرجه الطبراني من حديث عبد الله بن عمرو بسند صحيح (٤) حديث « ما آمن بالقرآن من استحل محارمه » أخرجه الترمذى من حديث صحيح وقال ليس لأسناده بالقوى

إن العبد ليفتتح سورة فتصلي عليه الملائكة حتى يفرغ منها ، وإن العبد ليفتتح سورة فتلعنه حتى يفرغ منها ، فقيل له : وكيف ذلك ؟ فقال : إذا أحل حلالها وحرم حرامها صلت عليه وإلا لعنته . وقال بعض العلماء : إن العبد ليتلو القرآن فيلعن نفسه وهو لا يعلم يقول ﴿ ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ وهو ظالم نفسه ﴿ ألا لعنة الله على الكاذبين ﴾ وهو منهم . وقال الحس : إنكم اتخذتم قراءة القرآن مراحل وجعلتم الليل حملا فأنتم تركبونه فتقطعون به مراحل ، وإن من كان قبلكم رأوه رسائل من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل وينفذونها بالنهار . وقال ابن مسعود أنزل القرآن عليهم ليعملوا به فاتخذوا دراسته عملا إن أحدكم ليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يسقط منه حرفا وقد أسقط العمل به . وفي حديث ابن عمر وحديث حنبل رضي الله عنهما : لقد عشنا دهرا طويلا وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن فتنزل السورة على محمد صلى الله عليه وسلم فيتعلم حلالها وحرامها وأمرها وزاخرها وما ينبغي أن يقف عنده منها . ثم لقد رأيت رجالا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته لا يدرى ما أمره ولا زاجره ولا ما ينبغي أن يقف عنده منه ينثره نثر الدقل (١) وقد ورد في التوراة : يا عبدي أما تستحي مني يا تيك كتاب من بعض إخوانك وأنت في الطريق تمشي فتعدل عن الطريق وتقعده لأجله وتقرؤه وتتدبره حرفا حرفا حتى لا يفوتك شيء منه ، وهذا كتابي أنزلته إليك انظر كم فصلت لك فيه من القول وكم كررت عليك فيه لتتأمل طوله وعرضه ثم أنت معرض عنه أفكنت أهون عليك من بعض إخوانك ؟ يا عبدي يقعد إليك بعض إخوانك فتقبل عليه بكل وجهك وتصغي إلى حديثه بكل قلبك فإن تكلمت متكلم أو شغلك شاعل عن حديثه أو مات إليه أن كف وما أنا ذا مقتل عليك ومحدث لك وأنت معرض بقلبك عنى أفعلتني أهون عندك من بعض إخوانك ؟

الباب الثاني : في ظاهر آداب التلاوة وهي عشرة

(الأول) في حال القارئ : وهو أن يسكون على الوضوء واقفا على هيئة الأدب والسكون إما قائما وإما جالسا مستقبلا القبلة مطرفا رأسه غير متربع ولا متسكى ولا حالس على هيئة التكبر . ويكون جلوسه وحده بجلوسه بين يدي أستاذه . وأفضل الأحوال أن يقرأ في الصلاة قائما وأن يكون في المسجد وذلك من أفضل الأعمال . فإن قرأ على غير وضوء وكان مضطجعا في الفراش فله أيضا فضل ولكنه دون ذلك . قال الله تعالى ﴿ الدين يذكر الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ﴾ فأنتي على السك والكن قدم القيام في الذكر ثم القعود ثم الذكر مضطجعا . قال علي رضي الله عنه من قرأ القرآن وهو قائم في الصلاة كان له بكل حرف مائة حسنة ومن قرأه وهو جالس في الصلاة فله بكل حرف خمسون حسنة . ومن قرأه في غير صلاة وهو على وضوء فخمس وعشرون حسنة . ومن قرأه على غير وضوء وحشر حسنات . وما كان من القيام بالليل فهو أفضل لأنه أفرغ للقلب ، قال أبو ذر الغفاري رضي الله عنه : إن كثرة السجود بالنهار وإن طول القيام بالليل أفضل (الثاني) في مقدار القراءة : وللقراء عادات مختلفة في الاستكثار والاختصار فهم من يحتم القرآن في اليوم واللييلة مرة وبعضهم مرتين وانتهى بعضهم إلى ثلاث ومهم من يحتم في السهر مرة وأولى ما يرجع إليه في التقديرات قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفقهه » (٢) ، وذلك لأن الريادة عليه تمنعه الترتيل . وقد قالت عائشة

(١) حديث ابن عمر وحديث حنبل « لقد عشنا دهرا وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن .. الحديث » تقدم في العلم

الباب الثاني في ظاهر آداب التلاوة

(٢) حديث « من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفقهه » أخرجه أصحاب السنن من حديث عبد الله بن عمرو وصححه الترمذي

رضى الله تعالى عنها - لما سمعت رجلا يهذر القرآن هذرا - « إن هذا ما قرأ القرآن ولا سكت » وأمر النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن يختم القرآن في كل سبع (١) وكذلك كان جماعة من الصحابة رضى الله عنهم يختمون القرآن في كل جمعة كعثمان وزيد بن ثابت وابن مسعود وأبي س كعب رضى الله عنهم . ففى الختم أربع درجات : الختم فى يوم وليلة وفد كرهه جماعة والختم فى كل شهر كل يوم جزء من ثلاثين جزءا - وكأنه مبالغة فى الاقتصار كما أن الأول مبالغة فى الاستكثار - وبينهما درجتان معتدلتان إحداهما فى الأسبوع مرة والثانية فى الأسبوع مرتين تقريبا من الثلاث . والأحـ أن يختم ختمة بالليل وختمة بالنهار ، ويجعل ختمة بالنهار يوم الاثنين فى ركعتى الفجر أو بعدها ، ويجعل ختمة بالليل ليلة الجمعة فى ركعتى المغرب أو بعدها ، ليستقبل أول النهار وأول الليل بختمة . فإن الملائكة عليهم السلام تصلى عليه إن كانت ختمة ليلا حتى يصبح وإن كان نهارا حتى يمسي فتشمل بركتهما جميع الليل والنهار . والتفصيل فى مقدار القراءة أنه إن كان من العابدين السالكين طريق العمل فلا ينبغى أن ينقص عن ختمتين فى الأسبوع . وإن كان من السالكين بأعمال القلب وضروب الفكر أو من المستغلين بنشر العلم فلا بأس أن يقتصر فى الأسبوع على مرة . وإن كان نافذ الفكر فى معانى القرآن فقد يكتفى فى الشهر بمرة لكثرة حاجته إلى كثرة التردد والتأمل (الثالث) فى وجه القسمة : أما من حتم فى الأسبوع مرة فيقسم القرآن سبعة أحزاب فقد حزب الصحابة رضى الله عنهم القرآن أحزابا (٢) فروى أن عثمان رضى الله عنه كان يفتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائة ، وليلة السبت بالأنعام إلى هود ، وليلة الأحد بيوسف إلى مريم ، وليلة الاثنين بطة إلى طسم ، موسى وفرعون ، وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى ص ، وليلة الأربعاء بتزويل إلى الرحمن ، ويختم ليلة الخميس . وابن مسعود كان يقسمه أقساما لاعلى هذا الترتيب وقيل أحزاب القرآن سبعة فالحزب الأول ثلاث سور والحزب الثانى خمس سور والحزب الثالث سبع سور والرابع تسع سور والخامس إحدى عشرة سورة والسادس ثلاث عشرة سورة والسابع المفصل من ق إلى آخره . فهكذا حازه الصحابة رضى الله عنهم وكانوا يقرءونه كذلك . وفيه خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا قبل أن تعمل الأخماس والأعشار والأجزاء فاسوى هذا محدث (الرابع) فى الكتابة : يستحب تحسين كتابة القرآن وتبينه ولا بأس بالنقط والعلامات بالحرمة وغيرها فإنها تزيين وتبين وصد عن الخطأ واللحن لمن يقرؤه . وقد كان الحسن وابن سيرين ينكرون الأخماس والعواشر والأجزاء . وروى عن الشعبي وإبراهيم كراهية النقط بالحرمة وأخذ الأجرة على ذلك ، وكانوا يقولون جردوا القرآن . والطن بهؤلاء أنهم كرهوا فتح هذا الباب خوفا من أن يؤدى إلى إحداث زيادات وحسبا للباب وتشوقا إلى حراسة القرآن عما يطرؤ عليه تغييرا . وإذا لم يؤد إلى محذور واستقر أمر الأمة فيه على ما يحصل به مزيد معرفة فلا بأس به . ولا يمنع من ذلك كونه محدثا فكم من محدث حسن كما قيل فى إقامة الجماعات فى التراويح إنها من محدثات عمر رضى الله عنه وأنها بدعة حسنة . إنما البدعة المذمومة ما يصادم السنة القديمة أو يكاد يفضى إلى تغييرها . وبعضهم كان يقول . أقرأ من المصحف فى المنقوط ولا أنقطه بنفسى وقال الأوزاعى عن يحيى بن أبي كثير : كان القرآن مجزدا فى المصاحف فأول ما أحدثوا فيه النقط على الباء والتاء وقالوا

(١) حديث « أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عمرو أن يختم القرآن فى كل أسبوع » متفق عليه من حديثه .

(٢) حديث « تجزيت القرآن على سبعة أجزاء » أخرجه ابن ماجه من حديث أوس بن حذيفة فى حديث فيه « طرأ على حرى من القرآن » قال أوس فسألت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تجزى القرآن ؟ قالوا : ثلاث وحس وسبع وتسع وإحدى عشرة وثلاث عشرة وحزب المفصل . وفى رواية للطبرانى فسألنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجزئ القرآن ؟ فقالوا . كان يجزئه ثلاثا . فذكره مهروغا ولمساده حسن

لأبأس به فإنه نور له . ثم أحدثوا بعده نقطا كبيرا عند منتهى الآي فقالوا : لأبأس به يعرف به رأس الآية . ثم أحدثوا بعد ذلك الخواتم والعواتح . قال أبو بكر الهذلي سألت الحسن عن تنقيط المصاحف بالأحمر فقال : وما تنقيطها ؟ قلت : يعربون الكلمة بالعربية قال : أما إعراب القرآن فلا أبأس به وقال خالد الحذاء : دخلت على ابن سيرين فرأيتة يقرأ في مصحف منقوط وقد كان يكره النقط . وقيل : إن الحجاج هو الذى أحدث ذلك وأحضر القراء حتى عدوا كلمات القرآن وحروفه وسوا أجزاءه وقسموه إلى ثلاثين جزءا وإلى أقسام أخر . (الخامس) الترتيل : هو المستحب فى هيئة القرآن لأناسنين أن المقصود من القراءة التفكير والترتيل معين عليه . ولذلك نعتت أم سلمة رضى الله عنها قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هى تمتت قراءة منسرة حرفا حرفا (١) وقال ابن عباس رضى الله عنه : لأن أقرأ البقرة وآل عمران أرتلها وأتدبرهما أحب إلى من أن أقرأ القرآن هدرمة . وقال أيضا : لأن أقرأ إذا زلزلت والقارة أتدبرهما أحب إلى من أن أقرأ البقرة وآل عمران تهذيرا . وسئل مجاهد عن رجلين دخلا فى الصلاة فكان قيامهما واحدا إلا أن أحدهما قرأ البقرة فقط والآخر القرآن كله فقال . هما فى الأحر سواء . واعلم أن الترتيل مستحب للمجرد التدبر فإن العجمى الذى لا يفهم معنى القرآن يستحب له فى القراءة أيضا الترتيل والتودة لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام وأشد تأثيرا فى القلب من الهدرمة والاستعجال (السادس) البكاء : البكاء مستحب مع القراءة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اتلوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فنبأ كوا (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « ليس منا من لم يتغن بالقرآن (٣) » وقال صالح المزنى : قرأت القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال لى يصالح هذه القراءة فأين البكاء ؟ وقال ابن عباس رضى الله عنهما : إذا قرأتم سجدة سبحان ؛ فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه وإنما طريق تكلف البكاء أن يحضر قلبه الحزن فن الحزن يذشأ البكاء قال صلى الله عليه وسلم « إن القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فتحازنوا (٤) » ، ووجه إحضار الحزن أن يتأمل مافيه من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود . ثم يتأمل تقصيره فى أوامره وزواجره فيحزن لاحالة ويبكى . فإن لم يحضره حزن وبكاء كما يحضر أرباب القلوب الصافية فليبك على فقد الحزن والبكاء فإن ذلك أعظم المصائب . (السابع) أن يراعى حق الآيات : فإذا مر بآية سجدة يسجد ، وكذلك إذا سمع من غيره سجدة يسجد إذا سجد التالى ، ولا يسجد إلا إذا كان على طهارة . وفى القرآن أربع عشرة سجدة . وفى الحج سجدة تان وليس فى ص سجدة وأقله أن يسجد بوضع جبهته على الأرض وأكمله أن يكبر فيسجد ويدعو فى سجوده بما يليق بالآية التى قرأها مثل أن يقرأ قوله تعالى ﴿ خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون ﴾ فيقول « اللهم اجعلنى من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك أو هلى أوليائك » وإذا قرأ قوله تعالى ﴿ ويحزون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا ﴾ فيقول « اللهم اجعلنى من الباكين إليك الخاشعين لك ، وكذلك كل سجدة ، ويشترطى هذه السجدة شروط الصلاة من ستر العورة واستقبال القبلة وطهارة الثوب والبدن من الحدث والخبث . ومن لم يكن على طهارة عند السماع فإذا تطهر يسجد ، وقد قيل فى كالمها أنه يكبر رافعا يديه لتحريمه ثم يكبر للهوى للسجود ثم يكبر الارتفاع ثم يسلم . وزاد زائدون

(١) حديث « نمت أم سلمة قراءة النبي صلى الله عليه وسلم فادا هى تمتت قراءة منسرة حرفا حرفا » أخرجه أبو داود والنسائي والترمذى وقال حسن صحيح (٢) حديث « اتلوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فنبأ كوا » أخرجه ابن ماجه . من حديث سعد

ابن أنى وقاس بإسناد جيد (٣) حديث « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » أخرجه البخارى من حديث أبي هريرة

(٤) حديث « ان القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فتحازنوا » أخرجه أبو يعلى وأبو يعين فى الحلبه من حديث ابن عمر

التشهد ولا أصل لهذا إلا القياس على سجود الصلاة وهو بعيد فإنه ورد الأمر في السجود فليتبع فيه الأمر وتكبيره الهوى أقرب للبداية وما عدا ذلك ففيه بعد . ثم المأموم ينبغي أن يسجد عند سجود الإمام ولا يسجد لتلاوة نفسه إذا كان مأموماً (الثامن) أن يقول في مبتدأ قراءته : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ﴿ رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾ وافقراً : قل أعوذ برب الناس وسورة الحمد لله وليقل عند فراغه من القراءة : صدق الله تعالى وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم انفعنا به وبارك لنا فيه الحمد لله رب العالمين وأستغفر الله الحى القيوم . وفى أثناء القراءة إذا مر بآية تسييح سبح وكبر ، وإذا مر بآية دعاء واستغفار دعا واستغفر ، وإن مر بمرجق سأل وإن مر بمخوف استعاذ . يفعل ذلك بلسانه أو بقلبه فيقول : سبحان الله نعوذ بالله اللهم ارزقنا اللهم ارحمنا . قال حذيفة : صليت مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم فابتدأ سورة البقرة فكان لا يمر بآية رحمة إلا سأل ولا بآية عذاب إلا استعاذ ولا بآية تنزيه إلا سبح (١) ، فإذا فرغ قال ما كان يقول صلوات الله وسلامه عند ختم القرآن « اللهم ارحمني بالقرآن واجعله لى إماماً ونوراً وهدى ورحمة اللهم ذكرنى منه ما نسيت وعلمنى منه ما جهلت وارزقنى تلاوته آناء الليل وأطراف النهار واجعله لى حجة يارب العالمين (٢) » (التاسع) فى الجهر بالقراءة : ولا شك فى أنه لا بد أن يجهر به لى حد يسمع نفسه إذ القراءة عبارة عن تقطيع الصوت بالحروف ولا بد من صوت فأقله ما يسمع نفسه فإن لم يسمع نفسه لم تصح صلاته . فأما الجهر بحيث يسمع غيره فهو محبوب على وجه ومكروه على وجه آخر . ويدل على استحباب الإسرار ما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال « فضل قراءة السر على قراءة العلانية كفضل صدقة السر على صدقة العلانية » وفى لفظ آخر « الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر به كالمسر بالصدقة (٣) » وفى الخبر العام « يفضل عمل السر على عمل العلانية سبعين ضعفاً (٤) » وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم « خير الرزق ما يكتفى وخير الذكر الحفى (٥) » وفى الخبر « لا يجهر بعضهم على بعض فى القراءة بين المغرب والعشاء (٦) » وسمع سعيد بن المسيب ذات ليلة فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن عبد العزيز يجهر بالقراءة فى صلاته وكان حسن الصوت فقال لغلامه : اذهب لى هذا المصلى فره أن يخفض صوته ، فقال الغلام : إن المسجد لى لنا وللرحل فيه نصيب ، فرفع سعيد صوته وقال : يا أيها المصلى إن كنت تريد الله عز وجل بصلواتك فاخفض صوتك وإن كنت تريد الناس فإنهم لن يغفوا عمك من الله شيئاً ، فسكت عمر بن عبد العزيز وخفف ركعته فلما سلم أخذ نعليه وانصرف وهو يومئذ أمير المدينة . ويدل على استحباب الجهر ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع جماعة من أصحابه يجهرون فى صلاة الليل فصوب ذلك (٧) وقد قال صلى الله

(١) حديث حذيفة « كانت لا يمر آية عذاب إلا نعوذ ولا بآية رحمة إلا سأل ولا بآية تنزيه إلا سبح » أخرجه مسلم مع اختلاف لفظ (٢) حديث « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عند ختم القرآن اللهم ارحمني بالقرآن واجعله لى إماماً وهدى ورحمة اللهم ذكرنى منه ما نسيت وعلمنى منه ما جهلت وارزقنى تلاوته آناء الليل وأطراف النهار واجعله لى حجة يارب العالمين » رواه أبو منصور المصنف بن الحسين الأرحانى فى فضائل القرآن وأبو بكر بن الضحاك فى الشمانل كلاهما من طريق أبى در الهروى من رواية داود بن قيس معصلاً (٣) حديث « فضل قراءة السر على قراءة العلانية كفضل صدقة السر على صدقة العلانية » قاله وفى لفظ آخر « الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة » أخرجه أبو داود والسنائى والترمذى وحسنه من حديث عقب بن عامر باللفظ الثانى (٤) حديث « يفضل عمل السر على عمل العلانية سبعين ضعفاً » أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث عائشة (٥) حديث « خير الرزق ما يكتفى وخير الذكر الحفى » أخرجه أحمد وابن حبان من حديث سعد بن أبى وقاص (٦) حديث « لا يجهر بعضهم على بعض فى القراءة بين المغرب والعشاء » رواه أبو داود من حديث البياضى دون قوله « بين المغرب والعشاء » والبيهقى فى الشعب من حديث على « قبل العشاء وبعدها » وهى الحارث الأعور وهو ضعيف (٧) حديث « أنه سمع جماعة من الصحابة يجهرون فى صلاة الليل فصوب ذلك » فى الصحيحين من حديث عائشة « أن رجلاً قام من الليل فقرأ ورفع صوته بالقرآن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحم الله فلاناً ... الحديث » ومن حديث أبى موسى قال =

عليه وسلم « إذا قام أحدكم من الليل يصلي فليجهر بالقراءة فإن الملائكة وعمار الدار يستمعون قراءته ويصلون بصلاته (١) » ومر صلى الله عليه وسلم بثلاثة من أصحابه رضى الله عنهم مختلفي الأحوال فرعى على أبي بكر رضى الله عنه وهو يخافت فسأله عن ذلك فقال : إن الذى أناجيه هو يسمعى . ومر على عمر رضى الله عنه وهو يجهر فسأله عن ذلك فقال : أوقف الوسنان وأزجر الشيطان . ومر على بلال وهو يقرأ آيا من هذه السورة وآيا من هذه السورة فسأله عن ذلك فقال أخلط الطيب بالطيب . فقال صلى الله عليه وسلم : كلكم قد أحسن وأصاب (٢) . فالوجه فى الجمع بين هذه الأحاديث أن الإسرار أبعد عن الرياء والتصنع فهو أفضل فى حق من يخاف ذلك على نفسه فإن لم يخف ولم يكن فى الجهر ما يشوش الوقت على مصل آخر فالجهر أفضل لأن العمل فيه أكثر ، ولأن فائدته أيضاً تتعلق بغيره فالخير المتعدى أفضل من اللازم ، ولأنه يوقف قلب القارئ ويجمع همه إلى الفكر فيه ويصرف إليه سمعه ، ولأنه يطرد النوم فى رفع الصوت ولأنه يزيد فى نشاطه للقراءة ويقلل من كسله ، ولأنه يرجو بجهره تيقظ نائم فيكون هو سبب إحيائه ، ولأنه تقديره بطل غافل فينشط بسبب نشاطه ويشتاق إلى الخدمة « حتى حضره شيء من هذه النيات فالجهر أفضل . وإن اجتمعت هذه النيات تضاعف الأجر وبكثرة النيات تزكو أعمال الأبرار وتتضاعف أحوالهم فإن كان فى العمل الواحد عشر نيات كان فيه عشر أجور . ولهذا نقول قراءة القرآن فى المصاحف أفضل إذ يزيد فى العمل النظر وتأمل المصحف وحمله فيزيد الأجر بسببه . وقد قيل الختمة فى المصحف بسبع لأن النظر فى المصحف أيضاً عبادة . وخرق عثمان رضى الله عنه مصحفين لكثرة قراءته منهما فكان كثير من الصحابة يقرءون فى المصاحف ويكرهون أن يخرج يوم ولم ينظروا فى المصحف . ودخل بعض فقهاء مصر على الشافعى رضى الله عنه فى السحر وبين يديه مصحف فقال له الشافعى : شغلكم الفكر عن القرآن لى لأصلى العتمة وأضع المصحف بين يدي فما أطبقه حتى أصبح (العاشر) تحسين القراءة وترتيبها بتريد الصوت من غير تمطيط مفراط يغير النظم فذلك سنة قال صلى الله عليه وسلم « زينوا القرآن بأصواتكم (٣) » وقال عليه السلام « ما أذن الله لشيء إلا أنه لحسن الصوت بالقرآن (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » فقيل أراد به الاستغناء وقيل أراد به الترم وترديد الأحكام به وهو أقرب عند أهل اللغة . وروى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ليلة ينتظر عائشة رضى الله عنها فأبطأت عليه فقال صلى الله عليه وسلم : ما حبسك قالت : يا رسول الله كنت أستمع قراءة رجل ما سمعت أحسن صوتاً منه ، فقام صلى الله عليه وسلم حتى استمع إليه طويلاً ثم رجع فقال صلى الله عليه وسلم : هذا سالم مولى أبى حذيفة الحمد لله الذى جعل فى أمى مثله (٥) » واستمع صلى الله عليه وسلم أيضاً ذات ليلة إلى عبد الله بن مسعود ومعه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما فوقفوا طويلاً ثم قال

= « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو رأيته وأنا أسمع قراءة تلك البارحة . الحديث » ومن حديث أيضاً « لما أعرف أصوات رفعة الأشعرين بالقرآن حين يدخلون بالليل وأعرف ما رآهم من أصواتهم بالقرآن . الحديث » (١) حديث « إذا قام أحدكم من الليل يصلى فليجهر بقراءته فإن الملائكة وعمار الدار يستمعون لى قراءته ويصلون بصلاته » رواه نحوه زيادة فى أبو بكر البزار ونصر لمقدسى فى المواعظ وأبو شجاع من حديث معاذ بن جبل وهو حديث منكر منقطع .

(٢) حديث « مروره صلى الله عليه وسلم بأبى بكر وهو يخافت وهو يجهر ويبلال وهو يقرأ من هذه السورة ومن هذه السورة .. الحديث » تقدم فى الصلاة (٢) حديث « زينوا القرآن بأصواتكم » أخرجه أبو داود والنسائى وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه من حديث البراء بن عازب (٤) حديث « ما أذن الله لشيء إلا أنه لحسن الصوت بالقرآن » متفق عليه من حديث أبى هريرة بلفظ « ما أذن الله لشيء إلا أنه لشيء بالقرآن » زاد مسلم « لشيء حسن الصوت » وفى رواية له « كإذنه لشيء يتنى بالقرآن » .

(٥) حديث « كان ينتظر عائشة فأبطأت عليه فقال ما حبسك قالت يا رسول الله كنت أسمع قراءة رجل ما سمعت أحسن صوتاً منه فقام صلى الله عليه وسلم حتى استمع إليه طويلاً ثم رجع فقال هذا سالم مولى أبى حذيفة الحمد لله الذى جعل فى أمى مثله » أخرجه أبو داود من حديث عائشة ورجال إسناده ثقات .

صلى الله عليه وسلم « من أراد أن يقرأ القرآن غضا طربا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم لابن مسعود « اقرأ على فقال يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل فقال صلى الله عليه وسلم : إني أحب أن أسمعه من غيري فكان يقرأ وعينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تفيضان^(٢) » واستمع صلى الله عليه وسلم إلى قراءة أبي موسى فقال « لقد أوتي هذا من مزامير آل داود » وبلغ ذلك أبا موسى فقال : يا رسول الله لو علمت أنك تسمع لخبرت لك تحبيرا^(٣) ورأى هيثم القارئ رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام قال : فقال لي أنت الهيثم الذي تزين القرآن بصوتك قلت نعم قال جزاك الله خيرا . وفي الخبر . كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اجتمعوا أمروا أحدهم أن يقرأ سورة من القرآن وقد كان عمر يقول لأبي موسى رضى الله عنهما : ذكرنا ربنا فيقرأ عنده حتى يكاد وقت الصلاة أن يتوسط فيقال يا أمير المؤمنين الصلاة الصلاة فيقول : أولسنا في صلاة ؟ إشارة إلى قوته عز وجل ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « من استمع إلى آية من كتاب الله عز وجل كانت له نورا يوم القيامة^(٤) » وفي الخبر : كتب له عشر حسنات . ومهما عظم أجر الاستماع وكان التالي هو السبب فيه كان شريكا في الأجر إلا أن يكون قصده الرياء والتصنع .

الباب الثالث : في أعمال الباطن في التلاوة وهي عشرة

فهم أصل الكلام . ثم التعظيم . ثم حضور القلب . ثم التدبر . ثم التفهم . ثم التخلي عن موانع الفهم . ثم التحصيل . ثم التأثر . ثم الترتي . ثم التبري . (فالأول) فهم عظمة الكلام وعلوه وفصل الله سبحانه وتعالى ولطفه بخلقه في نزوله عن عرش جلاله إلى درجة إفهام خلقه . فلينظر كيف لطف بخلقه في إيصال معاني كلامه الذي هو صفة قديمة قائمة بداته إلى أفهام خلقه ؟ وكيف تجملت لهم تلك الصفة في طي حروف وأصوات هي صفات البشر إذ يعجز البشر عن الوصول إلى فهم صفات الله عز وجل إلا بوسيلة صفات نفسه . ولولا استتار كنهه جلالة كلامه بكسوة الحروف لما ثبت لسماح الكلام عرش ولا ثرى ولتلاشى ما بينهما من عظمة سلطانه وسبحات نوره . ولولا تبيت الله عز وجل لموسى عليه السلام لما أطاق لسماح كلامه كما لم يطق الجبل مبادئ تجليه حيث صار دكا . ولا يمكن تفهيم عظمة الكلام إلا بأمثلة على حد فهم الخلق . ولهذا عبر بعض العارفين عنه فقال : إن كل حرف من كلام الله عز وجل في اللوح المحفوظ أعظم من جبل قاف وإن الملائكة عليهم السلام لو اجتمعت على الحرف الواحد أن يقلوه ما أطاقوه حتى يأتي لإسرافيل عليه السلام وهو ملك اللوح ويرفعه فيقله بإذن الله عز وجل ورحمته لا يقوته وطاقته ولكن الله عز وجل طوقه ذلك واستعمله به ، ولقد تألق لبعض الحكماء في التعبير عن وجه اللطف في إيصال معاني الكلام مع علاوة درجته إلى فهم الإنسان وتثبيته مع قصور رتبته وضرب له مثلا لم يعصفيه ؛ وذلك أنه دعا

(١) حديث « استمع ذات ليلة إلى عبد الله بن مسعود ومعه أبو بكر وعمر فوقوا طويلا ثم قال من أراد أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد » أخرجه أحمد والنسائي في الكبرى من حديث عمر والترمذي وابن ماجه من حديث ابن مسعود « أن أبا بكر وعمر بصراه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من أحب أن يقرأ القرآن... الحديث » قال الترمذي حسن صحيح (٢) حديث « أنه قال لابن مسعود : اقرأ فقال يا رسول الله اقرأ عليك أنزل فقال لاني أحب أن أسمعه من غيري... الحديث » متفق عليه من حديث ابن مسعود . (٣) حديث « استمع إلى قراءة أبي موسى فقال لهذا من مزامير آل داود » متفق عليه من حديث أبي موسى . (٤) حديث « من استمع إلى آية من كتاب الله كانت له نورا يوم القيامة » وفي الخبر « كتب له عشر حسنات » أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة « من استمع إلى آية من كتاب الله كتب له حسنة مضاعفة ومن تلاها كانت له نورا يوم القيامة » وفيه ضعف وانقطاع .

بعض الملوك حكيم إلى شريعة الأنبياء عليهم السلام فسأله الملك عن أمور فأجاب بما لا يحتمله فهمه ؛ فقال الملك : رأيت ما أتى به الأنبياء إذا ادعت أنه لبس بكلام الناس وأنه كلام الله عز وجل فكيف يطبق الناس حمله ؟ فقال الحكيم : إننا رأينا الناس لما أرادوا أن يفهموا بعض الدواب والطيور ما يريدون من تقديمها وتأخيرها وإقبالها وإدبارها ورأوا الدواب يقصر تمييزها عن فهم كلامهم الصادر عن أوار عقولهم مع حسنه وترينته وبديع نظمه ، فنزلوا إلى درجة تمييز البهائم وأوصلوا مقاصدهم إلى بواطن البهائم بأصوات يضعونها لا ثقة بهم من النقر والصفير والأصوات القرية من أصواتها لكي يطبقوا حملها . وكذلك الناس يعجزون عن حمل كلام الله عز وجل بكنهه وكالصفاته . وصاروا بما تراحوها بينهم من الأصوات التي سمعوا بها الحكمة كصوت النقر والصفير الذي سمعت به الدواب من الناس . ولم يمنع ذلك معاني الحكمة الخبوءة في تلك الصفات من أن شرف الكلام أى الأصوات لشرفها وعظم تعظيمها ، فكان الصوت للحكمة جسدا ومسكنا والحكمة للصوت نفسا وروحا . فكما أن أحساد البشر تكرم وتعر لمكان الروح فكذلك أصوات الكلام تشرف للحكمة التي فيها . والكلام على المنزلة رفيع الدرجة فاهر السلطان نافذ الحكم في الحق والباطل . وهو الغاضى العدل والشاهد المرتضى يأمر وينهى . ولا طاقة للباطل أن يقوم قدام كلام الحكمة كما لا يستطيع الطل أن يقول قدام شعاع الشمس ولا طاقة للبشر أن يفقدوا غور الحكمة كما لا طاقة لهم أن ينفذوا بأبصارهم ضوء عين الشمس ، ولكنهم يتألون من ضوء عين الشمس ما تحميا به أنصارهم ويستدلون به على حوائجهم فقط . والكلام كالمالك المحجوب الغائب ووجهه النافذ أمره وكالشمس الغزيرة الظاهرة مكون عنصرها وكالنجوم الزهرة التي قديمتدى بها من لا يقف على سيرها فهو مفتاح الحزائن النفيسة وشراب الحياة الذى من شرب منه لم يمت ودواء الأسقام الذى من سقى منه لم يسقم . فهذا الذى ذكره الحكيم نذرة من تفهيم معنى الكلام والزيادة عليه لا تليق بعلم المعاملة فينبغى أن يقتصر عليه . (الثانى) التعظيم للمتكلم : فالقارئ عند البداية بتلاوة القرآن ينبغى أن يحضر في قلبه عظمة المتكلم ويعلم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر وان فى تلاوة كلام الله عز وجل غاية الخطر فإنه تعالى قال (لا يمسه إلا المطهرون) وكما أن ظاهر حلد المصحف وورقه محروس عن طاهر نشرة اللامس إلا إذا كان متطهرا ، فباطن معناه أيضا بحكم عزه وجلاله محجوب عن باطن القلب إلا إذا كان متطهرا عن كل رجس ومستئيرا بنور التعظيم والتوقير . وكما لا يصلح لمس حلد المصحف كل يد فلا يصلح لتلاوة حروفه كل لسان ولا لتليل معانيه كل فلب . ومثل هذا التعظيم كان عكرمة بن أبى جهل إذا نشر المصحف غشى عليه ويقول : هو كلام ربى هو كلام ربى ؟ فتعظيم الكلام تعظيم المتكلم ولن تحضره عظمة المتكلم ما لم يتفكر فى صفاته وجلاله وأفعاله . فإذا حضر بالله العرش والكرسى والسموات والأرض وما بينهما من الجن والإنس والدواب والأشجار ، وعلم أن الخالق لجميعها والقادر عليها والرازق لها واحد ، وأن الكل فى قبضة قدرته مترددون بين فضله ورحمته وبين نقمته وسطوته إن أنعم وبفضله وإن عاقب فبعده ، وأنه الذى يقول هؤلاء إلى الجنة ولا أبالى وهؤلاء إلى النار ولا أبالى وهذا غاية العظمة والتعالى . وبالتفكر فى أمثال هذا يحضر تعظيم المتكلم ثم تعظيم الكلام (الثالث) حضور القلب وترك حديث النفس : قيل فى تفسير (يا يحيى خذ الكتاب بقوة) أى يجد واجتهاد وأخذ بالجد أن يكون متجردا له عند قراءته منصرف الهممة إليه عن غيره ، وقيل لبعضهم : إذا قرأت القرآن تحدث نفسك بشيء ؟ فقال أو شيء أحب إلى من القرآن حتى أحدثت به نفسى ! وكان بعض السلف إذا قرأ آية لم يكن قلبه فيها أعادها ثانية وهذه الصفة تتولد عما قبلها من التعظيم فإن المعظم للكلام الذى يتلوه يستبشر به ويستأنس ولا يغفل عنه . ففى القرآن ما يستأنس به القلب إن كان التالى أهلا له فكيف يطلب الأنس بالفكر فى غيره وهو فى متزده ومتفرج

والدى يتفرج في المتزهات لا يتمكر في غيرها ؟ فقد قيل إن في القرآن ميادين وبساتين ومقاصير وعرائس وديابيح ورياضا وخانات فالميادين القرآن والرايات بساتين القرآن والحامات مقاصيره والمسبجات عرائس القرآن والحاميات ديابيح القرآن والمفصل رياضه والخانات ماسوى ذلك فإذا دخل القارئ الميادين وقطف من البساتين ودخل المقاصير وشهد العرائس ولبس الديابيح وتنزه في الرياض وسكن غرف الخانات استغرقه ذلك وشغله عما سواه فلم يحزب قلبه ولم يتفرق فكره .

(الرابع) التدبر : وهو وراء حضور القلب فإنه قد لا يتمكر في غير القرآن ولكنه يقتصر على سماع القرآن من نفسه وهو لا يتدبره . والمقصود من القراءة التدبر . ولذلك سن لأن الترتيل فيه الترتيل في الطاهر ليتمكن من التدبر بالباطن . قال على رضى الله عنه : لا خير في عبادة لا فقه فيها ولا في قراءة لا تدبر فيها . وإذا لم يتمكن من التدبر إلا بترديد فليردد إلا أن يكون خلف إمام . فإنه لو بقي في تدبر آية وقد اشتغل الإمام بآية أخرى كان مسيئاً مثل من يشتغل بالتعجب من كلمة واحدة بمن يناجيه عن فهم بقية كلامه . وكذلك إن كان في تسبيح الركوع وهو متفكر في آية قرأها إمامه فهذا وسواس . فقد روى عن عامر بن عبد قيس أنه قال : الوسواس يعتريني في الصلاة ، فقيل : في أمر الدنيا ؟ فقال : لأن تختلف في الأسته أحب إلى من ذلك ، ولكن يستغل قلبى بموقفي بين يدي ربى عز وجل . وأنى كيف انصرف ، فعند ذلك وسواسا وهو كذلك فإنه يشغله عن فهم ما هو فيه والشيطان لا يقدر على مثله إلا بأن يشغله بهمهم ديني ولكن يمنعه به عن الأفضل . ولما ذكر ذلك للحسن قال إن كنتم صادقين عنه فما اصطنع الله ذلك عندنا . ويروى أنه صلى الله عليه وسلم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم فرددتها عشرين مرة (١) ، وإما ردها صلى الله عليه وسلم لتدبره في معانيها . وعن أبي ذر قال « قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بنا ليلة فقام بآية يرددتها وهي (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم) (٢) الآية » وقام تميم الدارى ليلة بهذه الآية (أم حسب الذين اجترحوا السيئات) الآية . وقام سعيد بن جبير ليلة يردد هذه الآية (وامتازوا اليوم أيها المجرمون) وقال بعضهم : إنى لأفتح السورة فيوقفنى بعض ما أشهد فيها عن الفراغ منها حتى يطلع الفجر . وكان بعضهم يقول : آية لا أتفهمها ولا يكون قلبى فيها لا أعد لها ثوابا ، وحكى عن أبي سليمان الداراني أنه قال : إنى لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليال أو خمس ليال ولولا أنى أقطع الفكر فيها ما جاوزتها إلى غيرها . وعن بعض السلف أنه بقى في سورة هود ستة أشهر يكثرها ولا يفرغ من التدبر فيها . وقال بعض العارفين : لى في كل جمعة ختمة وفى كل شهر ختمة وفى كل سنة ختمة ولى ختمته منذ ثلاثين سنة ما فرغت منها بعد . وذلك بحسب درجات تدبره وتفهمه . وكان هذا أيضا يقول : أقت نفسى مقام الأجر فأنا أعلم مياومة ومجامعة ومتساهرة ومسائفة .

(الخامس) التفهم : وهو أن يستوضح من كل آية ما يليق بها إذ القرآن يشتمل على ذكر صفات الله عز وجل . وذكر أفعاله . وذكر أحوال الأنبياء عليهم السلام . وذكر أحوال المكذبين لهم وأنهم كيف أهلكوا ، وذكر أوامره وزواجره ، وذكر الجنة والنار .

أما صفات الله عز وجل فكقوله تعالى (ليس كمثل شيء وهو السميع البصير) وكقوله تعالى (الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر) فليتأمل معاني هذه الأسماء والصفات لينكشف له أسرارها فتحتها معان

الباب الثالث : في أعمال الباطن في التلاوة

(١) حديث « أنه قرأ بسم الله الرحمن الرحيم فرددتها عشرين مرة » رواه أبو ذر الهروى في معجمه من حديث أنى هريرة بسند ضعيف (٢) حديث أبى ذر « قام رسول الله صلى الله عليه وسلم ديا ليلة بآية يرددتها وهي (إن تعذبهم فإنهم عبادك) » أخرجه النسائى وابن ماجه بسند صحيح

مدفونة لا تتكشف إلا للموقنين : وإليه أشار على رضى الله عنه بقوله ما أسر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً كتمه عن الناس إلا أن يؤتى الله عز وجل عبداً وهما في كتابه فليكن حريصاً على طلب ذلك الفهم (١) وقال ابن مسعود رضى الله عنه : من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن . وأعظم علوم القرآن تحت أسماء الله عز وجل وصفاته إذ لم يدرك أكثر الخلق منها إلا أموراً لا ثقة بأفهامهم ولم يعثروا على أغوارها .

وأما أفعاله تعالى فكأنه خلق السموات والأرض وغيرها . فليعلم التالى منها صفات الله عز وجل وجلاله إذ الفعل يدل على الفاعل فتدل عظمته على عظمته . فينبغى أن يشهد في العفل الفاعل دون الفعل ، فمن عرف الحق رآه في كل شىء إذ كل شىء هو منه وإليه وبه وله فهو السكل على التحقيق . ومن لا يراه في كل ما يراه فكأنه ما عرفه . ومن عرفه عرف أن كل شىء ما خلا الله باطل وأن كل شىء هالك إلا وجهه ، لأنه سيدطل في ثانى الحال ؛ بل هو الآن باطل إن اعتبر ذاته من حيث هو إلا أن يعتبر وجوده من حيث إنه موجود بالله عز وجل وبقدرته فيكون له بطريق التبعية ثبات وبتريق الاستقلال بطلان محض « وهذا مبدأ من مبادئ علم المكاشفة : ولهذا ينبغى إذا قرأ التالى قوله عز وجل ﴿ أقرأيت ما تحرثون - أقرأيت ما تمنون - أقرأيت الماء الذى تشربون - أقرأيت النار التى تورون ﴾ فلا يقصر نظره على الماء والماء والحار والحرث والمنى بل يتأمل فى المنى وهو نطفة متشابهة الأجزاء ثم ينظر فى كيفية انقسامها إلى اللحم والعظم والعروق والعصب وكيفية تشكل أعضائها بالأشكال المختلفة من الرأس واليد والرجل والكبد والقلب وغيرها ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات الشريفة من السمع والبصر والعقل وغيرها ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات المدمومة من الغضب والشهوة والكبر والجهل والتكذيب والمجادلة كما قال تعالى ﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ فيتأمل هذه العجائب ليترقى منها إلى عجب العجائب وهو الصفة التى منها صدرت هذه الأعاجيب فلا يزال ينظر إلى الصنعة فيرى الصانع .

وأما أحوال الأنبياء عليهم السلام : فإذا سمع منها كيف كذبوا وضربوا وقتل بعضهم . فليفهم منه صفة الاستغناء لله عز وجل عن الرسل والمرسل إليهم وأنه لو أهلك جميعهم لم يؤثر فى ملكه شيئاً . وإذا سمع نصرتهم فى آخر الأمر فليفهم قدرة الله عز وجل وإرادته لنصرة الحق .

وأما أحوال المكذبين ؛ كعاد وتمود وما جرى عليهم فليكن فهمه منه استشعار الخوف من سطوته ونقمته وليكن حظه منه الاعتبار فى نفسه وأنه إن غفل وأساء الأدب واغتر بما أمهل فرمما تدركه النقمة وتنفذ فيه القضية : وكذلك إذا سمع وصف الجنة والنار وسائر ما فى القرآن فلا يمكن استقصاء ما يفهم منه لأن ذلك لا نهاية له وإنما لكل عند بقدر رزقه ، فلا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفذ البحر قبل أن تنفذ كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً ﴾ ولذلك قال على رضى الله عنه : لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب . فالغرض مما ذكرناه التنبيه على طريق التفهيم لينفتح بابه فأما الاستقصاء فلا مطمع فيه . ومن لم يكن له فهم ما فى القرآن ولو فى أدنى الدرجات دخل فى قوله تعالى (ومنهم من يستمع إليك حتى إذا

(١) حديث على « ما أسر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً كتمه عن الناس إلا أن يؤتى الله عبداً وهما فى كتابه » أخرجه النسائى من رواية أى جحيفة قال « سألتنا علياً فقلنا هل عندكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم شىء سوى القرآن ؟ فقال : لا والذى خلق الجنة وسألتنا النعمة إلا أن يعطى الله عبداً وهما فى كتابه .. الحديث » وهو عند البخارى بلفظ « هل عندكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس فى القرآن » وفى رواية « وقال مرة ما ليس عند الناس » ولأبى داود والنسائى « فقلنا هل عهد إليك رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً لم يعده إلى الناس ؟ قال : لا إلا ما فى كتابى هذا ... الحديث » ولم يذكر « العهد فى القرآن »

خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم ﴿ والطابع هي الموانع التي سئد كرها في موانع الفهم . وقد قيل : لا يكون المرید مریدا حتى يجد في القرآن كل ما يريد ويعرف منه نقصان من المزيد ويستغنى بالمولى عن العبيد (السادس) التخلي عن موانع الفهم فإن أكثر الناس منعوا عن فهم معاني القرآن لأسباب وحجب أسد لها الشيطان على قلوبهم فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن قال صلى الله عليه وسلم « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى الملكوت (١) » ومعاني القرآن من حملة الملكوت وكل ما غاب عن الحواس ولم يدرك إلا بنور البصيرة فهو من الملكوت . وحجب الفهم أربعة ؛ أولها : أن يكون الهم منصرفا إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها ، وهذا يتولى حفظه شيطان وكل بالقراء ليصرفهم عن فهم معاني كلام الله عز وجل فلا يزال يحملهم على ترديد الحرف يخيل إليهم أنه لم يخرج من مخرجه . فهذا يكون تأمله مقصورا على مخارج الحروف فأنى تنكشف له المعاني ؟ وأعظم ضحكة للشيطان من كان مطيعاً لمثل هذا التلبس . ثانياً ؛ أن يكون مقلداً للمذهب سمعه بالتقليد وجد عليه وثبت في نفسه التعصب له بمجرد الاتماع للسموع من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة . وهذا شخص قيده معتقده عن أن يجاوزه فلا يمكنه أن يخطر بباله غير معتقده فصار نظره موقفا على مسموعه ، فإن لمع برق على بعد وبدا له معنى من المعاني التي تبين مسموعه حمل عليه شيطان التقليد حلة وقال كيف يخطر هذا ببالك وهو خلاف معتقد آبائك ، ويرى أن ذلك غرور من الشيطان فيتباعد منه ويحترز عن مثله . ولمثل هذا قالت الصوفية : إن العلم حجاب وأرادوا بالعلم العقائد التي استمر عليها أكثر الناس بمجرد التقليد أو بمجرد كلمات جدلية حررها المتعصبون للبدهاب وألقوها إليهم . فأما العلم الحقيقي الذي هو الكشف والمشاهدة بنور البصيرة فكيف يكون حجابا وهو منتهى المطلب ؟ وهذا التقليد قد يكون باطلا فيكون مانعا كمن يعتقد في الاستواء على العرش التمكن والاستقرار فإن خطر له مثلا في القدوس أنه المقدس عن كل ما يجوز على خلقه لم يمكنه تقليده من أن يستقر ذلك في نفسه . . ولو استقر في نفسه لانجز إلى كشف ثان وثالث وتواصل . ولكن يتسارع إلى دفع ذلك عن خاطره لمناقضته تقليده الباطل . وقد يكون حقا ويكون أيضاً مانعا من الفهم والكشف لأن الحق الذي كلف الخلق اعتقاده له مراتب ودرجات وله مبدأ ظاهر وغور باطن وجود الطبع على الظاهر يمنع من الوصول إلى الغور الباطن - كما ذكرناه في الفرق بين العلم الظاهر والباطن في كتاب قواعد العقائد - ثالثها : أن يكون مصرا على ذنب أو متصفا بكبر أو مبتلى في الجملة بهوى في الدنيا مطاع فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدته ، وهو كالحبث على المرأة فيمنع جليلة الحق من أن يتجلى فيه وهو أعظم حجاب للقلب وه حجب الأكرتون . وكلما كانت الشهوات أشد تراكما كانت معاني الكلام أشد احتجابا وكلما خف عن القلب أثقال الدنيا قرب تجلى المعنى فيه . فالقلب مثل المرأة والشهوات مثل الصدا ومعاني القرآن مثل الصور التي تتراءى في المرأة . والرياضة للقلب بإمالة الشهوات مثل تصفيل الحلاء للمرأة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إذا عظمت أمى الدينار والدرهم بزغ منها هيبة الإسلام وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حرموا بركة الوحي (٢) » قال الفضيل : يعنى حرموا فهم القرآن . وقد شرط الله عز وجل الإنابة في الفهم والتذكير فقال تعالى (تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) وقال عز وجل (وما يتذكر إلا من ينيب) وقال تعالى (إنما يتذكر أولو الألباب) فالذى آثر غرور الدنيا على نعيم الآخرة

(١) حديث « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى الملكوت » تقدم في الصلاة

(٢) حديث « إذا عظمت أمى الدينار والدرهم بزغ منها هيبة الإسلام وإذا تركوا الأمر بالمعروف حرموا بركة الوحي » رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الأمر بالمعروف موصلا من حديث الفضل بن عياض قال . ذكر عن نبي الله صلى الله عليه وسلم

فليس من ذوى الأبواب ولذلك لا تتكشف له أسرار الكتاب . رابعها: أن يكون قد قرأ تفسيراً طاهراً واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلا ما تداوله النقل عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما وأن ما وراء ذلك تفسير بالرأى وأن من فسر القرآن برأيه فقد تبوأ مقعده من النار فهذا أيضاً من الحجب العظيمة . وسنبين معنى التفسير بالرأى في الباب الرابع وأن ذلك لا يناقض قول على رضى الله عنه إلا أن يؤتى الله عبداً فهما في القرآن . وأنه لو كان المعنى هو الظاهر المنقول لما اختلفت الناس فيه (السابع) التخصص وهو أن يقدر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن فإن سمع أمراً أو نهياً قدر أنه المنهى والمأمور وإن سمع وعداً أو وعيداً فكثرت ذلك ، وإن سمع قصص الأولين والأنبياء علم أن السمر غير مقصود وإنما المقصود ليعتبر به وليأخذ من تضاعيفه ما يحتاج إليه فما من قصة في القرآن إلا وسياقها لفائدة في حق النبي صلى الله عليه وسلم وأمه . ولذلك قال تعالى ﴿ ما ثبت به فؤادك ﴾ فليقدر العبد أن الله ثبت فؤاده بما يقصه عليه من أحوال الأنبياء وصبرهم على الإيذاء وثباتهم في الدين لا ينتظار نصر الله تعالى . وكيف لا يقدر هذا والقرآن ما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم لرسول الله خاصة بل هو شفاء وهدى ورحمة ونور للعالمين؟ ولذلك أمر الله تعالى الكافة بشكر نعمة الكتاب فقال تعالى ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ﴾ وقال عز وجل ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم . كذلك يضرب الله للناس أمثالهم . واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم . هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون . هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴾ وإذا قصد بالخطاب جميع الناس فقد قصد الآحاد فهذا القارئ الواحد مقصود فإله ولسائر الناس فليقدر أنه المقصود قال الله تعالى (وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) قال محمد بن كعب القرظي : من بلغه القرآن فكأنما كلبه الله . وإذا قدر ذلك لم يتخذ دراسة القرآن عمله بل يقرؤه كما يقرأ العبد كتاب مولاة الذى كتبه إليه ليتأمله ويعمل بمقتضاه . ولذلك قال بعض العلماء : هذا القرآن رسائل أتت من قبل ربنا عز وجل بعهوده تتدبرها في الصلوات ونقف عليها في الخلوات وتنفذها في الطاعات والسنن المتبعات . وكان مالك بن دينار يقول : مازرع القرآن في قلوبكم يا أهل القرآن إن القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض . وقال قتادة : لم يجالس أحد هذا القرآن إلا قام بزيادة أو نقصان قال تعالى ﴿ هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ (الثامن) التأثير وهو أن يتأثر قلبه بأمار مختلفة بحسب اختلاف الآيات فيكون له بحسب كل فهم حال ووجد يتصف به قلبه من الحزن والخوف والرجاء وغيره . ومهما تمت معرفته كانت الحثية أغلب الأحوال على قلبه فإن التضييت غالب على آيات القرآن فلا يرى ذكر المغفرة والرحمة إلا مقروناً بشروط يقصر العارف عن نيلها كقوله عز وجل (وإني لغفار) ثم أتبع ذلك بأربعة شروط (لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) وقوله تعالى (والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) ذكر أربعة شروط وحيث اقتصر ذكر شرطاً جامعاً فقال تعالى (إن رحمة الله قريب من المحسنين) فالإحسان يجمع الكل وهكذا من يتصفح القرآن من أوله إلى آخره . ومن فهم ذلك لخدير بأن يكون حاله الحثية والحزن . ولذلك قال الحسن : والله ما أصبح اليوم عبد يتلو القرآن يؤمن به إلا أكثر حزنه وقل فرحه وأكثر بكاءه وقل ضحكه وأكثر نصبه وشغله وقلت راحته وبطالته . وقال وهيب بن الورد نظرنا في هذه الأحاديث والمواعظ فلم نجد شيئاً أرق للقلوب ولا أشد استجلاباً للحزن من قراءة القرآن وتفهمه وتدبره . فتأثر العبد بالتلاوة أن يصير بصفة الآية المتلوة فخذ الوعيد وتقييد المغفرة بالشروط يتضاءل من خيفته كأنه يكاد يموت . وعند التوسع ووعده المغفرة يستبشر كأنه يطهر من

الفرح . وعند ذكر الله وصفاته وأسمائه يتطأطأ خضوعاً لجلاله واستشعاراً لعظمته . وعند ذكر الكفار ما يستحيل على الله عز وجل كذا كرههم لله عز وجل ولدا وصاحبة يفض صوته ويكسر في باطنه حياء قبح مقاتلتهم . وعند وصف الجنة ينبعث بباطنه شوقاً إليها . وعند وصف النار ترتعد فرائضه خوفاً منها ، ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن مسعود « اقرأ على »^(١) قال : فافتتحت سورة النساء فلما بلغت ﴿ فكيف إذا حثنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ رأيت عينيه تدرقان بالدمع فقال لي : حسبك الآن ، وهذا لأن مشاهدة تلك الحالة استغرقت قلبه بالكلية . ولقد كان في الخائفين من ختر مغشياً عليه عند آيات الوعيد . ومنهم من مات في سماع الآيات . فمثل هذه الأحوال يخرج عنه أن يكون حاكياً في كلامه . فإذا قال ﴿ إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾ ولم يكن خائفاً كان حاكياً . وإذا قال ﴿ عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ﴾ ولم يكن حاله التوكل والإنابة كان حاكياً . وإذا قال ﴿ ولنصبرن على ما آذيتنونا ﴾ فايكّن حاله الصبر أو العزيمة عليه حتى يجمد حلوة التلاوة . فإن لم يكن بهذه الصفات ولم يتردد قلبه بين هذه الحالات كان حظه من التلاوة حركة اللسان مع صريح اللعن على نفسه في قوله تعالى ﴿ ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ وفي قوله تعالى ﴿ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ وفي قوله عز وجل ﴿ وهم في غفلة معرضون ﴾ وفي قوله ﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ﴾ وفي قوله تعالى ﴿ ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ﴾ إلى غير ذلك من الآيات وكان داخلاً في معنى قوله عز وجل ﴿ ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى ﴾ يعنى التلاوة المجردة وقوله عز وجل ﴿ وكأين من آية في السموات والأرض يمّون عليها وهم عنها معرضون ﴾ لأن القرآن هو المدين لتلك الآيات في السموات والأرض ، ومهما تجاوزها ولم يتأثر بها كان معرضاً عنها . ولذلك قيل : إن من لم يكن متصفاً بأخلاق القرآن فإذا قرأ القرآن ناداه الله تعالى : مالك ولكلامى وأنت معرض عنى دع عنك كلامى إن لم تتب إلى . ومثال العاصى إذا قرأ القرآن وكرره مثال من يكرر كتاب الملك في كل يوم مرات وقد كتب إليه في عمارة مملكته وهو مشغول بتخريبها ومقتصر على دراسة كتابه ؛ فلعله لو ترك الدراسة عند المخالفة لكان أبعد عن الاستزاه واستحقاق المقت . ولذلك قال يوسف بن أسباط : إني لأهم بقراءة القرآن فإذا ذكرت ما فيه خشيت المقت فاعدل إلى التسييح والاستغفار . والمعرض عن العمل به أريد بقوله عز وجل ﴿ فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون ﴾ ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اقرأوا القرآن ما اختلفت عليه قلوبكم ولانتم له جلودكم فإذا اختلفتم فليستم تقرأونه - وفي بعضها - فإذا اختلفتم فقوموا عنه »^(٢) ، قال الله تعالى ﴿ الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « إن أحسن الناس صوتاً بالقرآن الذى إذا سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى الله تعالى »^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم « لا يسمع القرآن من أحد أشهى ممن يخشى الله عز وجل »^(٤) ، يراد لاستجلاب هذه الأحوال إلى القلب والعمل به ؛ وإلا فاللؤنة في تحريك اللسان بحروفه خفيفة . ولذلك قال بعض القراء : قرأت القرآن على شبيح لى ثم رجعت لأقرأ ثانياً فأنهتني وقال جعلت القرآن على عملا اذهب فاقراً على الله عز وجل . فانظر بماذا يأمرك وبماذا ينهك . وبهذا كان شغل

(١) حديث « أنه قال لابن مسعود اقرأ على . . الحديث » تقدم في الباب قبله (٢) حديث « اقرأوا القرآن ما اختلفت عليه قلوبكم ولانتم له جلودكم فإذا اختلفتم فليستم تقرأونه - وفي بعضها - فإذا اختلفتم فقوموا عنه » متفق عليه من حديث جندب ابن عبد الله الجلى في اللفظ الثانى دون قوله « ولانتم جلودكم » (٣) حديث « إن أحسن الناس صوتاً بالقرآن الذى إذا سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى الله تعالى » أخرجه ابن ماجه بسند ضعيف (٤) حديث « لا يسمع القرآن من أحد أشهى ممن يخشى الله تعالى » رواه أبو عبد الله الحاكم فيما ذكره أبو القاسم العافى في كتاب فضائل القرآن

الصحابة رضی الله عنهم في الأحوال والأعمال . مات رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عشرين ألفاً من الصحابة لم يحفظ القرآن منهم إلا ستة اختلف في اثنين منهم . وكان أكثرهم يحفظ السورة والسورتين . وكان الذي يحفظ البقرة والأنعام من علمائهم (١) ولما جاء واحد ليتعلم القرآن فأتى إلى قوله عز وجل (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره (٢)) قال : يكفي هذا وانصرف . فقال صلى الله عليه وسلم : انصرف الرجل وهو فقيه . وإنما العزير مثل تلك الحالة التي من الله عز وجل بها على قلب المؤمن عقيب فهم الآية . فأما مجرد حركة اللسان فقليل الجدوى . بل التالي باللسان المعروض عن العمل جدير بأن يكون هو المراد بقوله تعالى (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) وبقوله عز وجل (كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) أي تركتها ولم تنتظر لإيها ولم تعبأ بها فإن المقصر في الأمر يقال إنه نسي الأمر وتلاوة القرآن حق تلاوته هو أن يتشارك فيه اللسان والعقل والقلب ، فحفظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل وحفظ العقل تفسير المعاني وحفظ القلب الاتعاظ والتأثر بالانزجار والاتجار . فاللسان يرتل والعقل يترجم والقلب يتعطف . (الناسع) الترقى : وأعنى به أن يترقى إلى أن يسمع الكلام من الله عز وجل لا من نفسه « فدرجات القراءة ثلاث ، أدناها : أن يقدر العبد كأنه يقرؤه على الله عز وجل واقفاً بين يديه وهو ناظر إليه ومستمع منه ، فيكون حاله عند هذا التقدير السؤال والتلق والتضرع والابتهاج . الثانية : أن يشهد بقلبه كأن الله عز وجل يراه ويحاطبه بالطفاه ويناجيه بإنعامه وإحسانه فقامه الحياء والتعظيم والإصغاء والفهم . الثالثة : أن يرى في الكلام المتكلم وفي الكلمات الصفات فلا ينظر إلى نفسه ولا إلى قراءته ولا إلى تعلق الإنعام به من حيث إنه منعم عليه بل يكون مقصوراً لهم على المتكلم موقوف الفكر عليه كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم عن غيره . وهذه درجة المقرئين وما قبله درجة أصحاب اليمين وما خرج عن هذا فهو درجات العاقلين . وعن الدرجة العليا أخبر جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنه قال : والله لقد تجلى الله عز وجل لخلقته في كلامه ولكنهم لا يبصرون . وقال أيضاً وقد سأله عن حالة لحقته في الصلاة حتى خر معتسيا عليه فلما سرى عنه قيل له في ذلك فقال : ما زلت أردد الآية على قلبي حتى سمعتها من المتكلم

(١) حديث « مات رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم عن عشرين ألفاً من الصحابة لم يحفظ القرآن منهم إلا ستة - اختلف في اثنين منهم - وكان أكثرهم يحفظ السورة والسورتين وكان الذي يحفظ البقرة والأنعام من علمائهم » قلت : قوله « مات عن عشرين ألفاً » لعنه أراد بالمدين ، وإلا فقد روي عن أبي زرعة الرازي أنه قال : قبض عن مائة ألف وأربعة عشر ألفاً من الصحابة ممن روى عنه وسمع منه انتهى . وأما من حفظ القرآن في عهده ففي الصحيحين من حديث أنس قال « جمع القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة - كلهم من الأنصار - أبي بن كعب ومعاد بن جبل وريد وأبو زيد » قلت : ومن أبو زيد ؟ قال . أحد عمومي « وراى بن أبي شيبه كالصنف من رواية الشعبي سرسلاً وأبو الدرداء وسعيد بن عبيد وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو « استمرئوا القرآن من أربعة من عبد الله بن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة ومعاد بن جبل وأبي بن كعب » وروى ابن الأبارى بسنده إلى عمر قال « كان الفاضل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدر هذه الأمة من يحفظ القرآن السورة ومحوها . الحديث » وسنده ضعيف ولترمذى وحسنه من حديث أبي هريرة قال « مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا وهم ذو عدد فاستقرأهم فاستقرأهم كل رجل مامعه من القرآن فأتى على رجل من أحدتهم سا فقال مامعك يا هلال ؟ قال معي كذا وكذا ، وسورة البقرة فقال : أعمك سورة البقرة ؟ قال نعم ، قال : اذهب فأنت أميرهم ... الحديث » (٢) حديث « الرجل الذي جاء ليتعلم فأتى إلى قوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) فقال يكفى هذا وانصرف ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : انصرف الرجل وهو فقيه » أخرجه أبو داود والنسائي في الكبرى وابن حبان والحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمرو قال « أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أفرئني يا رسول الله ... الحديث » وفيه « وأقرأهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لماذا رلرت حتى فرغ منها فقال الرجل : والذي يموتك بالحق لأريد عليهما أداً ثم أدبر الرجل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . أطلع الرويحل أطلع الرويحل » ولأحمد والنسائي في الكبرى من حديث سمعة بن زهير قال « صاحب النصبة قال « حسي لأبالي أن لا أسمخ غيرها » .

بها فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته ، ففي مثل هذه الدرجة تعظم الحلاوة ولذة المناجاة . ولذلك قال بعض الحكماء : كنت أقرأ القرآن فلا أحد له حلاوة حتى تلوته كأني أسمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلوه على أصحابه ، ثم رفعت إلى مقام فوقه كنت أتلهه كأني أسمع من جبريل عليه السلام يلقيه على رسول الله عليه وسلم ، ثم جاء الله بميزة أخرى فأنا الآن أسمع من المتكلم به فعندها وجدت له لذة ونعما لأصبر عنه . وقال عثمان وحديفة رضى الله عنهما : لو ظهرت القلوب لم تشيع من قراءة القرآن ، وإنما قالوا ذلك لأنها بالطهارة تترقى إلى مشاهدة المتكلم في الكلام . ولذلك قال ثابت البناني : كابدت القرآن عشرين سنة وتعمت به عشرين سنة وبمشاهدة المتكلم دون ما سواه يكون العبد ممتلا لقوله عز وجل ﴿ ففروا إلى الله ﴾ ولقوله ﴿ ولا تجعلوا مع الله إلها آخر ﴾ فمن لم يره في كل شيء فقد رأى غيره وكل ما التفت إليه العبد سوى الله تعالى تضمن التفاته شيئا من الشرك الخفي ، بل التوحيد الخالص أن لا يرى في كل شيء إلا الله عز وجل . (العاشر) التبرى : وأعنى به أن يتبرأ من حوله وقوته والالتفات إلى نفسه بين الرضا والتزكية . فإذا تلا آيات الوعد والمدح للصالحين فلا يشهد نفسه عند ذلك بل يشهد الموقنين والصديقين فيها ويتشرف إلى أن يلحقه الله عز وجل بهم ، وإذا تلا آيات المقت وذم العصاة والمنفصرين شهد على نفسه هناك وقد رآه المخاطب خوفا وإشفاقا . ولذلك كان ابن عمر رضى الله عنهما يقول : اللهم إني أستغفرك لظلمي وكفري ، فقيل له : هذا الظلم فما بال الكفر ؟ فتلا قوله عز وجل (إن الإنسان لظالم كفار) وقيل لبوسف ابن أسباط : إذا قرأت القرآن مما ذاتدعو ، فقال : بماذا أدعو أستغفر الله عز وجل من نفسي سبعين مرة . فإذا رأى نفسه بصورة التقصير في القراءة كان رؤيته سبب قربه . فإن من شهد البعد في القرب لطف به في الخوف حتى يسوقه الخوف إلى درجة أخرى في القرب وراءها . ومن شهد القرب في البعد مكره بالأمن الذي يفضيه إلى درجة أخرى في البعد أسفل مما هو فيه . ومهما كان مشاهدا بنفسه بعين الرضا صار محجوبا بنفسه ، فإذا جاوز حد الالتفات إلى نفسه ولم يشاهد إلا الله تعالى في قراءته كشف له سر الملكوت . قال أوسليمان الداراني رضى الله عنه : وعد ابن ثوبان أخاه أن يفطر عنده فأبطأ عليه حتى طلع العجر فلقبه أحوه من العبد فقال له : وعدتني أنك تفطر عندي فأخلفت فقال لولا ميعادى معك ما أخبرتك الذي حبسى عنك ! إني لما صليت العتمة قلت . أوتر قبل أن أجيئك لأنى لا آمن ما يحدث من الموت فلما كنت في الدعاء من الوتر رفعت إلى روضة خضراء فيها أنواع الزهر من الجنة هازلت أنظر إليها حتى أصبحت . وهذه المكاشفات لا تكون إلا بعد التبرى عن النفس وعدم الالتفات إليها وإلى هواها ثم تخصص هذه المكاشفات بحسب أحوال المكاشف بحيث يتلو آيات الرجاء ويعلم على حاله الاستبصار تنكشف له صورة الجنة فيشاهدها كأنه يراها عيانا وإن غلب عليه الخوف كوشف بالمار حتى يرى أنواع عذابها . وذلك لأن كلام الله عز وجل يشمل على السهل اللطيف والشديد العسوف والمرح والخوف وذلك بحسب أوصافه ، إذ منها الرحمة والطف والانتقام والبطش . فبحسب مشاهدة الكلمات والصفات يتقلب في اختلاف الحالات وبحسب كل حالة منها يستعد للمكاشفة بأمر يناسب تلك الحالة ويقارنها ؛ إذ يستحيل أن يكون حالة المستمع واحدا والمسموع مختلفا إذ فيه كلام راض وكلام غضبان وكلام منعم وكلام منتقم وكلام حبار متكبر لا يبالي وكلام حنان متعطف لا بهل .

الباب الرابع : في فهم القرآن وتفسيره بالرأى من غير نقل

لعلك تقول : عظمت الأمر فيما سبق في فهم أسرار القرآن وما ينكشف لأرباب القلوب الزكية من معانيه

فكيف يستحب ذلك وقد قال صلى الله عليه وسلم « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار »^(١) ، وعن هذا شنع أهل العلم بظاهر التفسير على أهل التصوف من المقصرين المنسوبين إلى التصوف في تأويل كلمات في القرآن على خلاف ما نقل عن ابن عباس وسائر المفسرين وذهبوا إلى أنه كفر فإن صح ما قاله أهل التفسير فامعنى فهم القرآن سوى حفظ تفسيره ؟ وإن لم يصح ذلك فما معنى قوله صلى الله عليه وسلم « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » ؟ فاعلم أن من زعم أن لامعنى للقرآن إلا ما ترجمه ظاهر التفسير فهو مخبر عن حد نفسه وهو مصيب في الإخبار عن نفسه ، ولكنه مخطئ في الحكم برد الخلق كافة إلى درجته التي هي حده ومحطه بل الإخبار والآثار تدل على أن في معانى القرآن منحا لأرباب الفهم^(٢) قال على رضى الله عنه : إلا أن يؤتى الله عبدا فهما في القرآن . فإن لم يكن سوى الترجمة المنقولة فما ذلك الفهم ؟ وقال صلى الله عليه وسلم « إن للقرآن ظهرا وبطنا وحدا ومطلعا »^(٣) ، ويروى أيضا عن ابن مسعود موقوفا عليه وهو من علماء التفسير . فامعنى الظهر والبطن والحد والمطلع ؟ وقال على كرم الله وجهه : لوشئت لأوقرت سبعين بعيرا من تفسير فاتحة الكتاب . فامعناه وتفسير ظاهرها في غاية الاقتصار ؟ وقال أبو الدرداء . لا يفقه الرجل حتى يجعل للقرآن وحوها . وقد قال بعض العلماء : لكل آية ستون ألف فهم وما يق من فهمها أكثر . وقال آخرون : القرآن يحوى سبعة وسبعين ألف علم ومائتى علم إذ كل كلمة علم . ثم يتضاعف ذلك أربعة أصعاف إذ لكل كلمة ظاهر وباطن وحد ومطلع . وترديد رسول الله صلى الله عليه وسلم « سم الله الرحمن الرحيم عشرين مرة »^(٤) ، لا يكون إلا لتدبره باطن معانيها وإلا فترجمتها وتفسيرها ظاهر لا يحتاج مثله إلى تكرير . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : من أراد علم الأقران والآخريين فليستدبر القرآن . وذلك لا يحصل بمجرد تفسير الظاهر . وبالجملة فالعلوم كلها داخلية في أفعال الله عز وجل وصفاته ، وفي القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته : وهذه العلوم لانهاية لها ، وفي القرآن إشارة إلى مجامعها . والمقامات في التعمق في تفصيله راجع إلى فهم القرآن . وبمجرد ظاهره التفسير لا يشير إلى ذلك ، بل كل ما أشكل فيه على النظر واختلف فيه الخلائق في النظريات والمعقولات ففي القرآن إليه رموز ودلالات عليه يختص أهل الفهم بدركها . فكيف يبنى بذلك ترجمة ظاهره وتفسيره ؟ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « اقرءوا القرآن واتمسوا غرائبه »^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم في حديث على كرم الله وجهه « والذي بعثني بالحق نبيا ليفترق أمتي عن أصل دينها وجماعتها على اثنتين وسبعين فرقة كلها ضالة مضلة يدعون إلى النار فإذا كان ذلك فعليكم بكتاب الله عز وجل فإن فيه نبا من كان قبلكم ونبا ما يأتي بعدكم وحكم ما بينكم ، من خالفه من الجبابرة قصمه الله عز وجل ومن ابتغى العلم في غيره أضله الله عز وجل وهو جبل الله المتين ونوره المبين وشفاهه النافع ، عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه لا يعوج فيقوم ولا يزيغ فيستقيم ولا يتقضى عجائبه ولا يخلقه كثرة الترديد »^(٦) ،

الباب الرابع : في فهم القرآن وتفسيره بالرأى من غير نقل

- (١) حديث « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » تقدم في الباب الثالث من العلم (٢) حديث « الأخبار والآثار الدالة على أن في معانى القرآن متسعا لأرباب الفهم » تقدم قول على في الباب « إلا أن يؤتى الله عبدا فهما في كتابه » .
 (٣) حديث « إن للقرآن ظهرا وبطنا وحدا ومطلعا » تقدم في قواعد العقائد (٤) حديث « تكرير النبي صلى الله عليه وسلم البسلة عشرين مرة » تقدم في الباب قبله .
 (٥) حديث « اقرءوا القرآن واتمسوا غرائبه » أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف وأبو يعلى الموصلي والبيهقي في الشعب من حديث أنس بن مالك « أعرابوا » وسنده ضعيف (٦) حديث على « والذي بعثني بالحق ليفترق أمتي عن أصل دينها وجماعتها على اثنتين وسبعين فرقة كلها ضالة مضلة يدعون إلى النار فإذا كان ذلك فعليكم بكتاب الله فإن فيه نبا من كان قبلكم ... الحديث » بطوله هو عند الترمذي دون ذكر افتراق الأمة لفظ « ألا لمنها مستكون فتنة مضلة فقلت ما المخرج منها يا رسول الله قال كتاب الله فيه نبا من كان قبلكم » فذكره مع اختلاف وقال غريب وإسناده مجهول
 (٣٧ — إحياء علوم الدين — ١)

الحديث وفي حديث حذيفة « لما أحبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاختلاف والفرقة بعده قال : فقلت يا رسول الله فماذا تأمرني إن أدركت ذلك ؟ فقال : تعلم كتاب الله وأعمل بما فيه فهو المخرج من ذلك ، قال : فأعدت عليه ذلك ثلاثاً ، فقال صلى الله عليه وسلم ثلاثاً . تعلم كتاب الله عز وجل وأعمل بما فيه ففيه النجاة (١) » وقال على كرم الله وجهه : من فهم القرآن فسر به جمل العلم ، أشار به إلى أن القرآن يشير إلى محامع العلوم كلها ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما في قوله تعالى ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾ يعنى الفهم فى القرآن . وقال عز وجل ﴿ ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً ﴾ سمي ما آتاها علماً وحكماً وخصص ما انفرد به سليمان بالتنظير له باسم الفهم وجعله مقدماً على الحكم والعلم . فهذه الأمور تدل على أن فى فهم معانى القرآن مجالاً رحباً ومتسعاً بالغاً وأن المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه . فأما قوله صلى الله عليه وسلم : « من فسر القرآن برأيه ، ونهيه عنه (٢) » صلى الله عليه وسلم وفول أبى بكر رضى الله عنه أى أرض تقلنى وأى سماء تطلنى إذا قلت فى القرآن برأى ؟ إلى غير ذلك مما ورد فى الاختبار والآثار فى النهى عن تفسير القرآن بالرأى ، فلا يخلو إما أن يكون المراد به الاقتصار على النقل والمسموع وترك الاستنباط والاستقلال بالفهم . أو المراد به أمراً آخر . وباطل قطعاً أن يكون المراد به أن لا يتكلم أحد فى القرآن إلا بما يسمعه لوجوه (أحدهما) انه يشترط أن يكون ذلك مسموعاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومسنداً إليه وذلك مما لا يصادف إلا فى بعض القرآن . فأما ما يقوله ابن عباس وابن مسعود من أنفسهم فينبغى أن لا يقبل ويقال هو تفسير بالرأى لأنهم لم يسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذا غيرهم من الصحابة رضى الله عنهم . (والثانى) أن الصحابة والمفسرين اختلفوا فى تفسير بعض الآيات فقالوا فيها أقاويل مختلفة لا يمكن الجمع بينها ، وسماع جميعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم محال ، ولو كان الواحد مسموعاً لرد الباقي « فتبين على القطع أن كل مفسر قال فى المعنى بما ظهر له باستنباطه ، حتى قالوا فى الحروف التى فى أوائل السور سبعة أقاويل مختلفة لا يمكن الجمع بينها فقيل : إن « الر » هى حروف من الرحمن ، وقيل إن الألف الله واللام لطيف والراء رحيم وقيل غير ذلك . والجمع بين الكل غير ممكن فكيف يكون الكل مسموعاً ؟ (والثالث) أنه صلى الله عليه وسلم « دعا لابن عباس رضى الله عنه وقال : اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل (٣) » فإن كان التأويل مسموعاً كالتأويل ومحفوظاً مثله فامعنى تخصيصه بذلك ؟ (والرابع) أنه قال عز وجل (لعله الذى يستنبطونه منهم) فأثبت لأهل العلم استنباطاً ، ومعلوم أنه وراء السماع . وحلقة ما نقلناه من الآثار فى فهم القرآن يناقض هذا الخيال فبطل أن يشترط السماع فى التأويل ، وجزا لسلك واحد أن يستنبط من القرآن بقدر فهمه وحد عقله . وأما النهى فإنه ينزل على أحد وجهين ، أحدهما : أن يكون له فى الشيء رأى وإليه ميل من طبعه وهواه فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه ليحتج على تصحيح غرضه ، ولولم يكن له ذلك الرأى والهوى لسكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى . وهذا تارة يكون مع العلم كالذى يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته وهو يعلم انه ليس المراد بالآية ذلك ولكن يلبس به على خصمه . وتارة يكون مع الجهل ولكن إذا كانت الآية محتمة فيميل فهمه إلى الوجه الذى

(١) حديث حذيفة فى الاختلاف والفرقة منه « فقلت ما تأمرنى إن أدركت ذلك ؟ قال : تعلم كتاب الله وأعمل بما

فيه ... الحديث » أخرجه أبو داود والنسائى فى الكبرى وفيه « تعلم كتاب الله واتبع ما به - ثلاث صرات - »

(٢) حديث « النهى عن تفسير القرآن بالرأى » غريب . (٣) حديث دعائه لابن عباس « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل »

تقدم فى الباب الثانى من العلم .

يوافق غرضه ويرجح ذلك الجانب برأيه وهواه ، فيكون قد فسر برأيه أى رأيه هو الذى حمله على ذلك التفسير ، ولولا رأيه لما كان يترجم عنده ذلك الوجه وتارة قد يكون له غرض صحيح يطلب له دليلا من القرآن ويستدل عليه مما يعلم أنه ما أريد به كمن يدعو إلى الاستعصار بالأسحار فيستدل بقوله صلى الله عليه وسلم « تسحر وافان فى السحور بركة »^(١) ، ويزعم أن المراد به التمسح بالذكر وهو يعلم أن المراد به الأكل ، وكذلك يدعو إلى مجاهدة القلب القاسى فيقول قال الله عز وجل « اذهب إلى فرعون إنه طغى » ويشير إلى قلبه ويومئ إلى أنه المراد بفرعون وهذا الخنس قد يستعمله بعض العواطف فى المقاصد الصحيحة تحسينا للكلام وترغيبا للمستمع وهو ممنوع . وقد تستعمله الباطنية فى المقاصد الفاسدة لتغريب الناس ودعوتهم إلى مذهبهم الباطل فينزولون القرآن على وفق رأيهم ومذهبهم على أمور يعلمون قطعاً أنها غير مرادة به ، فهذه فنون أحد وجهى المعنى من التفسير بالرأى .. ويكون المراد بالرأى الفاسد الموافق للهوى دون الاجتهاد الصحيح والرأى يتناول الصحيح والفاسد والموافق للهوى قد يخصص باسم الرأى . والوجه الثانى أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماح والنقل فيما يتعلق بفرائض القرآن وما فيه من الألفاظ المهمة والمبدلة وما فيه من الاختصار والحدف والإحصار والتقديم والتأخير . فمن لم يحكم بظاهر التفسير وبأدب إلى استنباط المعانى بمجرد فهم العربية كثر غلظه ودخل فى زمرة من يفسر بالرأى . فالنقل والسماح لا بد منه فى ظاهر التفسير أو لا يلقى به مواضع الغلط ثم بعد ذلك يتسع التفهم والاستنباط . والغرائب التى لا تفهم إلا بالسماح كثيرة ، ونحن نرمنى إلى جعل منها ليستدل بها على أمثالها ويعلم أنه لا يجوز التهاون بحفظ التفسير الطاهر أولاً . ولا مطمع فى الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر . ومن ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر فهو كمن يدعى البلوغ إلى صدر البيت قبل مجاوزة الباب . أو يدعى فهم مقاصد الأتراك من كلامهم وهو لا يفهم لغة الترك . فان ظاهر التفسير يجرى مجرى تعليم اللغة التى لا بد منها للفهم . وما لا بد فيه من السماع فنون كثيرة : منها الإيجاز بالحدف والإحصار كقوله تعالى « وآتينا ثمود الناقة منصرة فظلموا بها » معناه آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها ، فانناظر إلى ظاهر العربية يطن أن المراد به أن الناقة كانت مبصرة ولم تكن عمياء ، ولم يدرك أنهم بماذا ظلموا غيرهم أو أنفسهم . وقوله تعالى « وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم » أى حب العجل ، وحذف الحب وقوله عز وجل « إذآذتنا كضعف الحياة وضعف المات » أى ضعف عذاب الأحياء وصعب عذاب الموتى وحذف العذاب ، وأبدل الأحياء والموتى بذكر الحياة والموت وكل ذلك جائز فى فصيح اللغة . وقوله تعالى (واسئل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها) أى أهل العير فالأهل فيهما محذوف مضمرة . وموله عز وجل (ثقلت فى السموات والأرض) معناه خفيت على أهل السموات والأرض والشىء إذا خفى ثقل وأبدل اللفظ به وأقيم (فى) مقام (على) وأضمر الأهل وحذف . وقوله تعالى (وتجعلون رزقكم أسكم تكذبون) أى شكر رزقكم وقوله عز وجل (آتانا ما وعدتنا على رسلك) أى على السنة رسلك فحذف السنة وقوله تعالى (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) أراد القرآن وما سبق له ذكر . وقال عز وجل (حتى توارت بالحجاب) أراد الشمس وما سبق لها ذكر . وقوله تعالى (والدين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) أى يقولون ما نعبدهم . وقوله عز وجل (فما ل هؤلاء المقوم لا يكادون يفقهون حديثاً ما أصابك من حسنة من الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) معناه لا يفقهون حديثاً يقولون ما أصابك من حسنة فمن الله فان لم يرد هذا كان مناقضا لقوله (قل كل من عند الله) وسبق إلى الفهم منه مذهب القدرية . ومنها المنقول المنقلب كقوله تعالى (وطور سينين) أى طور

(١) حديث « تسحروا فإن فى السحور بركة » تقدم فى الباب الثالث من العلم .

سيناء (سلام على آل ياسين) أى على الياس وقيل إدريس ، لأن فى حرف ابن مسعود ﴿ سلام على إدراسين ﴾ ومنها المكرر القاطع لوصول الكلام فى الظاهر كقوله عز وجل ﴿ وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن ﴾ وقوله عز وجل ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم ﴾ معناه: الذين استكبروا لمن آمن من الذين استضعفوا ومنها المقدم والمؤخر وهو مطنة الغلط كقوله عز وجل ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى ﴾ معناه لولا الكلمة وأجل مسمى لكان لزاما ولولاه لكان نصبا كاللزام وقوله تعالى ﴿ يسألونك كأنك حفي عنها ﴾ أى يسألونك عنها كأنك حفي بها وقوله عز وجل (لهم مغفرة ورزق كريم كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) فهذا الكلام غير متصل وإنما هو عائد إلى قوله السابق (قل الانتقال لله والرسول - كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) أى فصارت أنفال الغنائم لك إذ أنت راض بخروجك وهم كارهون فاعترض بين الكلام الأمر بالتقوى وغيره ومن هذا النوع قوله عز وجل (حتى تؤمنوا بالله وحده لإقول إبراهيم لأبيه) الآية . ومنها المبهم وهو اللفظ المشترك بين معان من كلمة أو حرف . أما الكلمة فكأشياء والقرين والأمة والروح ونظائرها قال الله تعالى (ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يصدر على شيء) أراد به النفقة مما رزق وقوله عز وجل (وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء) أى الأمر بالعدل والاستقامة وقوله عز وجل (فان اتبعنى فلا تسألنى عن شيء) أراد به من صفات الربوبية ، وهو العلوم التى لا يحل السؤال عنها حتى يبتدئ بها العارف فى أوان الاستحقاق . وقوله عز وجل (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون) أى من غير خالق فر بما توهم به أنه يدل على أنه لا يخلق شيء إلا من شيء . وأما القرين فكقوله عز وجل ﴿ وقال قرينه هذا ما لدى عتيد ألقيا فى جهنم كل كفار ﴾ أراد به الملك الموكل به وقوله تعالى (قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان) أراد به الشيطان . وأما الأمة فتطلق على ثمانية أوجه ، الأمة : الجماعة كقوله تعالى (وجد عليه أمة من الناس يسقون) وأتباع الأنبياء كقوله عز وجل (إن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ورحل حامع للخير يقتدى به كقوله تعالى (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله) والأمة : الدين كقوله عز وجل (إنا وحدنا آباءنا على أمة) والأمة : الحين والزمان كقوله عز وجل ﴿ إلى أمة معدودة ﴾ وقوله عز وجل (وادكر بعد أمة) والأمة : القامة يقال فلان حسن الأمة أى القامة ، وأمة : رجل منفرد بدين لا يشركه فيه أحد قال صلى الله عليه وسلم « بيعت زيد بن عمرو بن نفيل أمة وحده ^(١) ، والأمة يقال هذه أمة زيد أى أم زيد . والروح أيضا ورد فى القرآن على معان كثيرة فلا نطول بإيرادها . وكذلك قد يقع الإيهام فى الحروف مثل قوله عز وجل (فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا) فالهاء الأولى : كناية عن الحوافر وهى المسوريات أى أثرن بالحوافر نقعا والثانية : كناية عن الإغارة وهى المغيرات صبحا فوسطن به جمعا جمع المشركون فأغاروا بجمعهم وقوله تعالى (وأنزلنا به الماء) يعنى السحاب ﴿ فأخرجنا به من كل الثمرات ﴾ يعنى الماء . وأمثال هذا فى القرآن لا ينحصر . ومنها التدريج فى البيان كقوله عز وجل ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ﴾ إذ لم يظهر به أنه ليل أو نهار ، وبأن بقوله عز وجل (إنا أنزلناه فى ليلة مباركة) ولم يظهر به أى ليلة فظهر بقوله تعالى (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) وربما يظن فى الظاهر الاختلاف بين هذه الآيات ، فهذا وأمثاله مما لا يغنى فيه إلا النقل والسماع فالقرآن من أوله إلى آخره غير خال عن هذا الجنس لأنه أنزل بلغة العرب فكان متشتملا على أصناف كلامهم من إيجاز وتطويل وإضمار وحذف وإبدال وتقديم وتأخير ، ليكون ذلك مفحما لهم ومعجزا فى حقهم . فكل من اكتفى بفهم ظاهر العربية وبادر إلى تفسير القرآن ولم يستظهر بالسماع والنقل فى هذه الأمور فهو داخل فىمن فسر القرآن برأيه . مثل أن يفهم من الأمة المعنى الأشهر منه فبمبطل طبعه ورأيه البه فاذا سمعه فى موضع آخر مال برأيه إلى ما سمعه من مشهور

(١) حديث « بيعت زيد بن عمرو بن نفيل أمة وحده » أخرجه النسائى فى الكبرى من حديث زيد بن حارثة وأسماء بنت أبى بكر ياسنا دىن جيبدين

معناه وترك تتبع النقل في كثير معانيه فهذا ما يمكن أن يكون منهيًا عنه دون التفهم لأسرار المعاني - كما سبق - فإذا حصل السماع بأمثال هذه الأمور علم ظاهر التفسير وهو ترجمة الألفاظ . ولا يكفي ذلك في فهم حقائق المعاني . ويدرك الفرق بين حقائق المعاني وظاهر التفسير بمثال : وهو أن الله عز وجل قال ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ فظاهره تفسير واضح وحقيقة معناه غامض . فإنه إثبات للرمي ونفي له . وهما متضادان في الظاهر مالم يفهم أنه رمى من وجه ولم يرم من وجه ومن الوجه الذي لم يرم رماه الله عز وجل . وكذلك قال تعالى ﴿ قاتلهم يعذبهم الله بأيديكم ﴾ فإذا كانوا هم المقاتلين كيف يكون الله سبحانه هو المعذب ؟ وإن كان الله تعالى هو المعذب بتحريك أيديهم فما معنى أمرهم بالقتال ؟ حقيقة هذا يستمد من بحر عظيم من علوم المكاشفات لا يغني عنه ظاهر التفسير وهو أن يعلم وجه ارتباط الأفعال بالقدرة الحادثة . ويفهم وجه ارتباط القدرة بقدرة الله عز وجل حتى يتكشف - بعد إيضاح أمور كثيرة غامضة - صدق قوله عز وجل ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ ولعل العمر لو أنفق في استكشاف أسرار هذا المعنى وما يرتبط بمقدماته ولواحقه لانقضى العمر قبل استيفاء جميع لواحقه وما من كلبة من القرآن إلا وتحققها محوج إلى مثل ذلك . وإنما ينكشف للراغبين في العلم من أسرارها بقدر غزارة علومهم وصفاء قلوبهم وتوفر دواعيهم على التدبر وتجردهم للطلب . ويكون لكل واحد حد في الترقى إلى درجة أعلى منه . وأما الاستيفاء فلا مطمع فيه ولو كان البحر مداداً والأشجار أقلاماً فأسرار كلمات الله لانهائية لها فتتعد الأبحر قبل أن تنفذ كلمات الله عز وجل . فمن هذا الوجه تتفاوت الخلق في الفهم بعد الاشتراك في معرفة ظاهر التفسير وظاهر التفسير لا يغني عنه . ومثاله فهم بعض أرباب القلوب من قوله صلى الله عليه وسلم في سجوده أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ^(١) ، أنه قبل له السجود واقترب فوجد القرب في السجود فنظر إلى الصفات فاستعاذ ببعضها من بعض ؛ فإن الرضا والسخط وصفان ثم زاد قربه فاندرج القرب الأول فيه فرقى إلى الذات فقال « أعوذ بك منك » ثم زاد قربه بما استجيا به من الاستعاذة على ساطق القرب فالتجأ إلى الثناء فأثنى بقوله « لأحصى ثناء عليك » ثم علم أن ذلك قصور فقال « أنت كما أثنيت على نفسك » فهذه خواطر تفتح لأرباب القلوب . ثم لها أغوار وراء هذا وهو فهم معنى القرب واختصاصه بالسجود ومعنى الاستعاذة من صفة بصفة ومنه به . وأسرار ذلك كثيرة : ولا يدل تفسير ظاهر عليه وليس اللفظ هو مناقضا لظاهر التفسير بل هو استكمال له ووصول إلى لبابه عن ظاهره فهذا ما نوردته لفهم المعاني الباطنة لآما يناقض الظاهر والله أعلم . تم كتاب : آداب التلاوة . والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد خاتم النبيين وعلى كل عبد مصطنق من كل العالمين وعلى آل محمد وصحبه وسلم . يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب : الأذكار والدعوات . والله المستعان لأرب سواه .

كتاب الأذكار والدعوات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الشاملة رأفته العامة ورحمته الذي جازى عباده عن ذكرهم بذكرهم فقال تعالى (فاذكروني أذكركم)

(١) حديث « قوله صلى الله عليه وسلم في سجوده أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث عائشة .

ورغبتهم في السؤال والدعاء بأمره فقال (ادعوني أستجب لكم) فأطعم المطيع والعاصي والداني والقاصي في الانبساط إلى حضرة حلاله برفع الحاجات والأمان بقوله (فيأني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان) والصلاة على محمد سيد أنبيائه وعلى آله وأصحابه خيرة أصفياه وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد : فليس بعد تلاوه كتاب الله عز وجل عبادة تؤدي باللسان أفضل من ذكر الله تعالى ورفع الحاجات بالأدعية الخالصة إلى الله تعالى . فلا يد من شرح فضيلة الذكر على الجملة ثم على التفصيل في أعيان الأذكار . وشرح فضيلة الدعاء وشروطه وآدابه وتتمل المسأثور من الدعوات الجامعة لمقاصد الدين والدنيا والدعوات الخاصة لسؤال المغفرة والاستعاذة وغيرها . ويتحذر المقصود من ذلك بذكر أبواب خمسة (الباب الأول) في فضيلة الذكر وفائدته جملة وتفصيلا (الباب الثاني) في فضيلة الدعاء وآدابه وفضيلة الاستغفار والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم . (الباب الثالث) في أدعية مأثورة ومعزية إلى أصحابها وأسبابها (الباب الرابع) في أدعية منتجة من وفاة الإسناد من الأدعية المأثورة (الباب الخامس) في الأدعية المأثورة عند حدوث الحوادث .

الباب الأول : في فضيلة الذكر وفائدته على الجملة والتفصيل من الآيات والاختبار والآثار

ويدل على فضيلة الذكر على الجملة من الآيات : قوله سبحانه وتعالى (فاذكروني أذكركم) قال ثابت البناني رحمه الله : إني أعلم متى يدكرني ربي عز وجل ، ففرعوا منه وقالوا . كيف تعلم ذلك ؟ فقال : إذا ذكرته ذكرني . وقال تعالى (اذكروا الله ذكرا كثيرا) وقال تعالى (فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المنبر الحرام واذكروه كما هداكم) وقال عز وجل (فإذا قضيتُم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا) وقال تعالى (الدين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم) وقال تعالى (فإذا قضيتُم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم) قال ابن عباس رضي الله عنهما : أي بالليل والنهار في البر والبحر والسفر والحضر والغنى والفقر والمرض والصحة والسر والعلانية . وقال تعالى في ذم المنافقين (ولا يذكرون الله إلا قليلا) وقال عز وجل (واذكرك ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين) وقال تعالى (ولذكر الله أكبر) قال ابن عباس رضي الله عنهما : له وجهان أحدهما أن ذكر الله تعالى لكم أعظم من ذكركم إياه ، والآخر : أن ذكر الله أعظم من كل عبادة سواه . إلى غير ذلك من الآيات . وأما الأخبار فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذاكر الله في الغافلين كالشجرة في وسط الهتيم ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « ذاكر الله في الغافلين كالمقاتل بين الفارين » وقال صلى الله عليه وسلم « يقول الله عز وجل أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت شفقتاه ^(٢) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله عز وجل ، قالوا يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : ولا الجهاد في سبيل الله إلا أن تضرب سيفك حتى ينقطع ثم

كتاب الأذكار والدعوات

الباب الأول : في فضيلة الذكر

(١) حديث « ذاكر الله في الغافلين كالشجرة الحضر في وسط الهتيم » أخرجه أبو نعم في الحاية والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر بسند ضعيف وقال « في وسط الشجر » الحديث . (٢) حديث « يقول الله تعالى أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت في شفقتاه » أخرجه البيهقي وابن حبان من حديث أبي هريرة والحاكم من حديث أبي الرداء وقال صحيح الإسناد

تضرب به حتى ينقطع ، ثم تضرب به حتى ينقطع ^(١) فقال صلى الله عليه وسلم « من أحب أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله عز وجل ^(٢) ، وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم « أى الأعمال أفضل ؟ فقال : أن تموت ولسانك رطب بذكر الله عز وجل ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « أصبح وأمس ولسانك رطب بذكر الله تصبح وتمسى وليس عليك خطيئة ^(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « لذكر الله عز وجل بالغدأة والعشى أفضل من حطم السيوف في سبيل الله ومن إعطاء المال سبجاً ^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « يقول الله تبارك وتعالى إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرتة في نفسي وإذا ذكرني في ملاء خبير من ملئه وإذا تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً وإذا تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً وإذا مشى إلى هرولت إليه ^(٦) » ، يعنى بالهرولة سرعة الإجابة . وقال صلى الله عليه وسلم « سبعة يظلهم الله عز وجل في ظله يوم لا ظل إلا ظله - من جملتهم - رجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه من خشية الله ^(٧) » وقال أبو الدرداء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إعطاء الورق والذهب وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربون أعناقهم ويضربون أعناقكم قالوا وما ذلك يا رسول الله ؟ قال ذكر الله عز وجل دائماً ^(٨) » وقال صلى الله عليه وسلم « قال الله عز وجل من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ^(٩) » ، وأما الآثار : فقد قال الفضيل : بلغنا أن الله عز وجل قال عبدي إذا ذكرني بعد الصبح ساعة وبعد العصر ساعة أكفك ما بينهما . وقال بعض العلماء : إن الله عز وجل يقول أيما عبد اطلعت على قلبه فرأيت الغالب عليه التمسك بذكرى توليت سياسته وكنت جليسه ومحادثه وأنيسه . وقال الحسن الذكر ذكران ذكر الله عز وجل بين نفسك وبين الله عز وجل ما أحسنه وأعظم أجره وأفضل من ذلك ذكر الله سبحانه عند ما حرم الله عز وجل . ويروى « إن كل نفس تخرج من الدنيا عطشى إلا إذا ذكر الله عز وجل » وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه : ليس يتحسر أهل الجنة على شيء إلا على ساعة مرت بهم لم يدكروا الله سبحانه فيها ، والله تعالى أعلم .

- (١) حديث « ما عمل ابن آدم من عمل أحبى له من عذاب الله من ذكر الله قالوا يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال ولا الجهاد في سبيل الله إلا أن تضرب سيمك حتى يتقطع - ثلاث مرات » أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف والطبراني من حديث معاذ بإسناد حسن (٢) حديث « من أحب أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله تعالى » أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف والطبراني من حديث معاذ بسند ضعيف ورواه الطبراني في الدعاء من حديث أنس وهو عند الترمذي بلفظ « إذا صرتم برياض الجنة فارتعوا » وقد تقدم في الباب الثالث من العلم (٣) حديث « سئل أى الأعمال أفضل ؟ قال أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله تعالى » أخرجه ابن حبان والطبراني في الدعاء والبيهقي في الشعب من حديث معاذ (٤) حديث « أمس وأصبح ولسانك رطب بذكر الله تصبح وتمسى وليس عليك خطيئة » أخرجه أبو القاسم الأصبهاني في التزيين والترهيب من حديث أنس « من أصبح وأمسى ولسانه رطب من ذكر الله يمسى ويصبح وليس عليه خطيئة » وفيه من لا يعرف (٥) حديث « لذكر الله بالغدأة والعشى أفضل من حطم السيوف في سبيل الله ومن إعطاء المال سبجاً » رويته من حديث أنس بسند ضعيف في الأصل وهو معروف من قول ابن عمر كما رواه ابن عبد البر في التمهيد . (٦) حديث « قال الله عز وجل إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرتة في نفسي ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٧) حديث « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله - من جملتهم - رجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه » متفق عليه من حديث أبي هريرة أيضاً (٨) حديث « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم .. الحديث » أخرجه الترمذي والحاكم وابن ماجه وصححه إسناده من حديث أبي الدرداء (٩) حديث « قال الله تعالى من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » أخرجه البخاري في التاريخ والزراري في المسند والبيهقي في الشعب من حديث عمر بن الخطاب وفيه صفوان بن أبي الصفا ذكره ابن حبان في الضعفاء وفي الثقات أيضاً

فضيلة مجالس الذكر

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما جلس قوم مجلسا يذكرون الله عز وجل إلا حفت بهم الملائكة وغسبتهم الرحمة وذكرهم الله تعالى فيمن عنده (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله تعالى لا يريدون بذلك إلا وجهه إلا ناداهم مناد من السماء قوموا مغفوراً لكم قد بدلت لكم سيئاتكم حسنات (٢) » وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم « ما قعد قوم مقعداً لم يذكروا الله سبحانه وتعالى فيه ولم يصلوا على النبي صلى الله عليه وسلم إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة (٣) » وقال داود صلى الله عليه وسلم: إلهي إذا رأيتني أحاوز مجالس الذين إلى مجالس الغافلين فاكسر رجلي دونهم فإنها نعمة تتم بها علي . وقال صلى الله عليه وسلم « المجلس الصالح يكفر عن المؤمن ألفي مجلس من مجالس السوء (٤) » وقال أبو هريرة رضى الله عنه إن أهل السماء ليتراءون بيوت أهل الأرض التي يذكر فيها اسم الله تعالى كما تراءى النجوم . وقال سفیان بن عيينة رحمه الله إذا اجتمع قوم يذكرون الله تعالى اعتزل الشيطان والدنيا فيقول الشيطان للدنيا : ألا ترين ما يصنعون؟ فتقول الدنيا : دعهم فإنهم إذا تفرقوا أخذت بأعناقهم إليك . وعن أبي هريرة رضى الله عنه أنه دخل السوق وقال : أراكم ههنا وميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم في المسجد؟ فذهب الناس إلى المسجد وتركوا السوق فلم يروا ميراثاً ، فقالوا : يا أبا هريرة ما رأينا ميراثاً يقسم في المسجد؟ قال : فماذا رأيتم؟ قالوا : رأينا قوماً يذكرون الله عز وجل ويقرون القرآن ، قال . وذلك ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) وروى الأعمش عن أنى صالح عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدرى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن لله عز وجل ملائكة سياحين في الأرض فضلا عن كتاب الناس فإذا وحدوا قوماً يذكرون الله عز وجل تنادوا هلموا بغيتكم فيحيطون فيحفون بهم إلى السماء فيقول الله تبارك وتعالى . أى شيء تركتم عبادى يصنعونه فيقولون تركناهم يمدونك ويمجدونك ويسبحونك فيقول الله تبارك وتعالى وهل رأوني فيقولون لا فيقول جل جلاله كيف لو رأوني فيقولون لو رأوك لكانوا أشد تسييحاً وتحميلاً وتمجيهاً . فيقول لهم من أى شيء يتعذرون فيقولون من النار فيقول تعالى وهل رأوها فيقولون لا فيقول الله عز وجل فكيف لو رأوها فيقولون لو رأوها لكانوا أشد هرباً منها وأشد نفوراً فيقول الله عز وجل وأى شيء يطلبون فيقولون الجنة فيقول تعالى وهل رأوها فيقولون لا فيقول تعالى فكيف لو رأوها فيقولون لو رأوها لكانوا أشد عليها حرصاً . فيقول جل جلاله إنى أشهدكم أنى قد غفرت لهم فيقولون كان فيهم فلان لم يردهم وإنما جاء حاجة فيقول الله عز وجل هم القوم لا يشقى جلسهم (٦) » .

(١) حديث « ما جلس قوم مجلسا يذكرون الله تعالى إلا حفت بهم الملائكة وعشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٢) حديث « ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله تعالى لا يريدون بذلك إلا وجهه إلا ناداهم مناد من السماء قوموا مغفوراً لكم قد بدلت سيئاتكم حسنات » أخرجه أحمد وأبو يعلى والطبراني بسند ضعيف من حديث أنس (٣) حديث « ما قعد قوم مقعداً لم يذكروا الله ولم يصلوا على النبي صلى الله عليه وسلم فيه إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة » أخرجه الترمذى وحسنه من حديث أبي هريرة . (٤) حديث « المجلس الصالح يكفر عن المؤمن ألفي مجلس من مجالس السوء » ذكره صاحب الفردوس من حديث ابن وداعة وهو مرسل ولم يخرج له ولده وكذلك لم أجده له إسناداً (٥) حديث أبي هريرة « أنه دخل السوق وقال أراكم ههنا وميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم في المسجد فذهب الناس إلى المسجد وتركوا السوق ... الحديث » أخرجه الطبراني في المعجم الصغير بإسناد فيه جهالة أو انقطاع (٦) حديث الأعمش عن أنى صالح عن أبي هريرة أو أبي سعيد الخدرى عنه صلى الله عليه وسلم « أنه قال إن لله عز وجل ملائكة سياحين في الأرض فضلا عن كتاب الناس ... الحديث » رواه الترمذى من هذا الوجه والحديث في الصحيحين من حديث أبي هريرة وحده وقد تقدم في الباب الثالث من العلم

فضيلة التهليل

قال صلى الله عليه وسلم « أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له ^(١) »، وقال صلى الله عليه وسلم « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير كل يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك ^(٢) »، وقال صلى الله عليه وسلم « ما من عبد توشأ فأحسن الوضوء ثم رفع طرفه إلى السماء فقال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة يدخل من أيها شاء ^(٣) »، وقال صلى الله عليه وسلم « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا في نشورهم كأنى أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رموسهم من التراب ويقولون الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ^(٤) »، وقال صلى الله عليه وسلم أيضاً لأبي هريرة « يا أبا هريرة إن كل حسنة تعملها توزن يوم القيامة إلا شهادة أن لا إله إلا الله فإنها لا توضع في ميزان ، لأنها لو وضعت في ميزان من قالها صادقا ووضعت السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن كان لا إله إلا الله أرجح من ذلك ^(٥) »، وقال صلى الله عليه وسلم (لو جاء قائل لا إله إلا الله صادقا بقراب الأرض ذنوبا لعصر الله له ذلك ^(٦)) وقال صلى الله عليه وسلم (يا أبا هريرة لئن الموتي شهادة أن لا إله إلا الله فإنها تهدم الذنوب هدما ، قلت يا رسول الله هذا للموتى فكيف للأحياء قال صلى الله عليه وسلم : هي أهدم وأهدم ^(٧)) وقال صلى الله عليه وسلم (من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة ^(٨)) وقال صلى الله عليه وسلم (لتدخلن الجنة كلكم إلا من أبى وشرد عن الله عز وجل شراد البعير عن أهله فقيل يا رسول الله من الذى أبى ويشرد عن الله قال من لم يقل لا إله إلا الله ^(٩)) فأكثروا من قول لا إله إلا الله قبل أن

- (١) حديث « أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله ... الحديث » تقدم في الباب الثاني من الحج
(٢) حديث « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير مائة مرة . . . الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة (٣) حديث « ما من عبد توشأ فأحسن الوضوء ثم رفع طرفه إلى السماء فقال أشهد أن لا إله إلا الله . . . الحديث » أخرجه من حديث عقبة بن عامر وقد تقدم في الطهارة .
(٤) حديث « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا في النشور . . . الحديث » أخرجه أبو يعلى والطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر بسند ضعيف (٥) حديث « يا أبا هريرة إن كل حسنة تعملها توزن يوم القيامة إلا شهادة أن لا إله إلا الله فإنها لا توضع في ميزان ؛ لأنها لو وضعت في ميزان من قالها صادقا ووضعت السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن كان لا إله إلا الله أرجح من ذلك » قلت وصية أبي هريرة هذه موضوعة . وآخر الحديث رواه المستغفرى في الدعوات « ولو جعلت لا إله إلا الله » وهو معروف من حديث أبي سعيد مرفوعا « لو أن السموات السبع والأرضين السبع في كفة مالت من لا إله إلا الله » رواه النسائي في اليوم والليلة وابن حبان والمالك وصححه .
(٦) حديث « لوحاء حامل لا إله إلا الله صادقا بقراب الأرض ذنوبا لعصر الله له » غريب بهذا اللفظ . ولا ترمذى في حديث لأنس « يقول الله يا ابن آدم ملك لو أتيتني بقراب الأذى خطايا ثم تقبلي لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها معفرة » ولأبي الشيخ في الثواب من حديث أنس « يارب ماجزاه من هليل مخلصا من قلبه قال جراؤه أن يكون كيوم ولدته أمه من الذنوب » وفيه انقطاع .
(٧) حديث « يا أبا هريرة لئن الموتي شهادة أن لا إله إلا الله فإنها تهدم الذنوب . . . الحديث » أخرجه أبو مسعود الديلمي في مسند امردوس من طريق ابن المقرئ من حديث أبي هريرة وفيه موسى ابن وردان مختلف فيه ورواه أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف ورواه ابن أبي الدنيا في المختصرين من حديث الحسن مرسلا (٨) حديث « من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة » أخرجه الطبراني من حديث زيد بن أرقم بإسناد ضعيف (٩) حديث « لتدخلن الجنة كلكم إلا من أبى وشرد عن الله شرود البعير على أهله » أخرجه البخارى من حديث أبي هريرة « كل أمي يدخلون الجنة إلا من أبى » زاد المالك وصححها « وشرد عن الله شرود البعير على أهله » قال البخارى « قالوا يا رسول الله ومن أبى قال من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى » ولأن عدى وأبى يعلى والطبراني في الدعاء من حديثه « أكثروا من قول لا إله إلا الله قبل أن يحال بينكم وبينها » وفيه ابن وردان أيضاً ، ولأبي الشيخ في الثواب من حديث الحكم بن عمير التمسلى مرسلا « إذا قلت لا إله إلا الله وهي كلمة =
(٣٨) — أحياء علوم الدين — (١)

يحال بينكم وبينها فإنها كلمة التوحيد وهي كلمة الإخلاص وهي كلمة التقوى وهي كلمة طيبة وهي دعوة الحق وهي العروة الوثقى وهي ثمن الجنة ، وقال الله عز وجل ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ فقيل الإحسان في الدنيا قول لا إله إلا الله وفي الآخرة الجنة . وكذا قوله تعالى ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ وروى البراء بن عازب أنه صلى الله عليه وسلم قال « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير - عشر مرات - كانت له عدل رقبة أو قال نسمة ^(١) ، وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قال في يوم مائة مرة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير لم يسبقه أحد كان قبله ولا يدركه أحد بعده إلا من عمل بأفضل من عمله ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من قال في سوق من الأسواق لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير كتب الله له ألف حسنة ومحا عنه ألف سيئة وبنى له بيتا في الجنة ، وروى « إن العبد إذا قال لا إله إلا الله أتت إلى صحيفته فلا تمر على خطيته إلى محتها حتى تجد حسنة مثلها فتجلس إلى جنبها ^(٣) ، وفي الصحيح عن أيوب عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير عشر مرات كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل صلى الله عليه وسلم ^(٤) ، وفي الصحيح أيضا عن عبادة بن الصامت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من تعاز من الليل فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ثم قال اللهم اغفر لي غفر له أو دعا استجيب له فإن توحى وصلى قبلت صلاته ^(٥) . »

فضيلة التسبيح والتحميد وبقية الأذكار

قال صلى الله عليه وسلم « من سبح دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين وحمد ثلاثا وثلاثين وكبر ثلاثا وثلاثين وختم المائة بلا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر ^(٦) ، وقافى صلى الله عليه وسلم « من قال سبحان الله وبحمده في اليوم مائة مرة حطت عنه خطايا وإن كانت مثل زبد البحر ^(٧) ، وروى « أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : تولى عنى الدنيا وقلت ذات

= التوحيد ... الحديث « والحكم ضعيف ، ولأن بكر بن الصحاك في السائل من حديث ابن مسعود في إجابة المؤذن « اللهم رب هد الدعوة الحجابة المستجاب لها دعوة الحق وكلمة الإخلاص » ولأن عدى من حديث ابن عمر في إجابة المؤذن « دعوة الحق » للطبراني في الدعاء عن عبد الله بن عمرو « كلمة الإخلاص لا إله إلا الله ... الحديث » وللطبراني من حديث سلمة بن الأكوع « وألزمهم كلمة التقوى قال : لا إله إلا الله » وللطبراني في الدعاء عن ابن عباس « كلمة طيبة قال شهادة أن لا إله إلا الله » وله عنه في قوله « دعوة الحق » قال « شهادة أن لا إله إلا الله » وله عنه « فمد استمسك بالعروة الوثقى » قال « لا إله إلا الله » ولأن عدى والمستغفرى من حديث أنس « ثمن الجنة لا إله إلا الله » ولا يصح شيء منها ^(١) حديث البراء « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ... الحديث » أخرجه الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين وهو في مسند أحمد دون قوله « عشر مرات » .
^(٢) حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده « أنه صلى الله عليه وسلم قال من قال في كل يوم مائة مرة لا إله إلا الله وحده لا شريك له ... الحديث » أخرجه أحمد بلفظ « مائة » وكذا رواه الحاكم في المستدرک وسناده جيد وهكذا هو في بعض نسخ الإحياء .
^(٣) حديث « إن العبد إذا قال لا إله إلا الله أتت إلى صحيفته فلا تمر على خطيته إلا تحتها حتى تجد حسنة مثلها فتجاس إليها » أخرجه أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف ^(٤) حديث أبي أيوب « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير عشر مرات كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل » مرفق عليه ^(٥) حديث عبادة بن الصامت « من تعاز من الليل فقال لا إله إلا الله ... الحديث » رواه البخارى ^(٦) حديث « من سبح دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ^(٧) حديث « من قال سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت خطايا وإن كانت مثل زبد البحر » متفق عليه من حديث أبي هريرة

يدى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فأين أنت من صلاة الملائكة وتسبيح الخلائق وبها يرزقون؟ قال: فقلت وماذا يارَسُولُ الله؟ قال: قل سبحان الله وبمحمده سبحان الله العظيم أستغفر الله مائة مرة ما بين طلوع الفجر إلى أن تصلى الصبح تأتيتك الدنيا راغمة صاغرة ويخلق الله عز وجل من كل كلمة ملكا يسبح الله تعالى إلى يوم القيامة لك ثوابه (١) «وقال صلى الله عليه وسلم» إذا قال العبد الحمد لله ملأت ما بين السماء والأرض فإذا قال الحمد لله الثانية ملأت ما بين السماء والساعة إلى الأرض السفلى فإذا قال الحمد لله الثالثة قال الله عز وجل سل تعطى (٢) «وقال رفاعة الزرقى» كنا يوما نصلى وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رفع رأسه من الركوع وقال سمع الله لمن حمده قال رحل وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم: ربنا لك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاته قال: من المتكلم آنفا؟ قال: أنا يارَسُولُ الله، فقال صلى الله عليه وسلم: لقد رأيت بضعة وثلاثين ملكا يبتدرونها أجمعين يكتبونها أولها (٣) «وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم» الباقيات الصالحات هن لاله إلا الله وسبحان الله والحمد لله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله (٤) «وقال صلى الله عليه وسلم» ما على الأرض رحل يقول لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله إلا غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر (٥) «رواه ابن عمر وروى التميمي بن بشير عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال» الذين يذكرون من حلال الله وتسبيحه وسكبيره وتحميده يعظفون حول العرش لمن دوى كدوى النحل يذكرون بصاحبته أو لا يجب أحدكم أن لا يزال عند الله ما يدكر به (٦) «وروى أبو هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال» لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إلي مما طلعت عليه الشمس (٧) «وفي رواية أخرى زاد» لا حول ولا قوة إلا بالله وقال هي خير من الدنيا وما فيها «وقال صلى الله عليه وسلم» أحب الكلام إلى الله تعالى أربع: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر لا يضرك بأيهن بدأت (٨) «رواه سمرة بن جندب.

(١) حديث «أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال أتوت عبي الدنيا وقلد ذات يدي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فأين أنت من صلاة الملائكة وتسبيح الخلائق وبها يرزقون.. الحديث» أخرجه المستمري في الدعوات من حديث ابن عمر وقال غريب من حديث مالك ولا أعرف له أصلا في حديث مالك ولأحمد من حديث عبد الله بن عمرو «أن نوحا قال لابنه آسرك بلا اله إلا الله... الحديث» ثم قال «وسبحان الله ومحمده فانها صلاة كل شيء وبها يرزق الخلق» وأسناده صحيح (٢) حديث «إذا قال العبد الحمد لله ملأت ما بين السماء والأرض وإذا قال الحمد لله الثانية ملأت ما بين السماء والساعة إلى الأرض وإذا قال الحمد لله الثالثة قال الله تعالى سل تعطى» غريب هذا اللفظ لم أحده.

(٣) حديث رفاعة الزرقى «كنا يوما نصلى وراء النبي صلى الله عليه وسلم فلما رفع رأسه من الركوع وقال سمع الله لمن حمده قال رحل وراءه ربنا لك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه.. الحديث» رواه البخاري (٤) حديث «الباقيات الصالحات هن لاله إلا الله وسبحان الله والله أكبر والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله» أخرجه النسائي في اليوم الليلية وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أنى سميد والنسائي والحاكم من حديث أنى هريرة دون قوله «ولا حول ولا قوة إلا بالله».

(٥) حديث «ما على الأرض رجل يقول لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله إلا غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر» أخرجه الحاكم من حديث عبد الله بن عمرو وقال صحيح على شرط مسلم وهو عند الترمذي وحسنه والنسائي في اليوم والليلة مختصرا دون قوله «سبحان الله والحمد لله» (٦) حديث التميمي بن بشير «الذين يذكرون من حلال الله وتسبيحه وتحميده وتهليله وتحميده يعظفون حول العرش له دوى كدوى النحل يذكرون بصاحبته.. الحديث» أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه على شرط مسلم (٧) حديث أنى هريرة «لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إلي مما طلعت عليه الشمس» وزاد في رواية «ولا حول ولا قوة إلا بالله» وقال خير من الدنيا وما فيها «أخرجه مسلم باللفظ الأول والمستمري في الدعوات من رواية مالك بن دينار «أن أبا أمامة قال للنبي صلى الله عليه وسلم قلت سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر خير من الدنيا وما فيها قال أنت أعلم القوم» وهو مرسل جيد الإسناد.

(٨) حديث سمرة بن جندب «أحب الكلام إلى الله أربع.. الحديث» رواه مسلم.

وروى أبو مالك الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول « الظهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والله أكبر يملآن ما بين السماء والأرض والصلاة نور والصدقة برهان والصبر ضياء والقرآن حجة لك أو عليك كل الناس يغدو فبائع نفسه فوبقها أو مشتر نفسه فمعتقها (١) » وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كتبتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم (٢) » وقال أبو ذر رضي الله عنه « قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الكلام أحب إلى الله عز وجل قال صلى الله عليه وسلم ما اصطفى الله سبحانه لملائكته : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم (٣) » وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى اصطفى من الكلام : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر (٤) » فإذا قال العبد « سبحان الله » كتبت له عشرون حسنة وتحط عنه عشرون سيئة وإذا قال « الله أكبر » فمثل ذلك وذكر إلى آخر الكلمات . وقال جابر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة (٥) » وعن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال : قال الفقراء لرسول الله صلى الله عليه وسلم « ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم فقال : أو ليس قد جعل لكم ما تصدقون به ؟ إن بكل تسبيحة صدقة وتحميدة صدقة وتهليل صدقة وتكبير صدقة وأمر بمعروف صدقة ونهى عن منكر صدقة ويضع أحدكم اللقمة في في أهله فهي له صدقة . وفي بضع أحدكم صدقة . قالوا : يا رسول الله يأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال صلى الله عليه وسلم : أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر ؟ قالوا : نعم . قال : كذلك ان وضعها في الحلال كان له فيها أجر (٦) » وقال أبو ذر رضي الله عنه : قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم « سبق أهل الأموال بالأجر يقولون كما تقول وينفقون ولا تنفق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفلا أدلك على عمل إذا أنت عملته أدركت من قبلك وفقت من بعدك إلا من قال مثل قولك ؟ تسبح الله بعد كل صلاة ثلاثا وثلاثين وتحمده ثلاثا وثلاثين وتكبر أربعاً وثلاثين (٧) » وروى بسرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « عليكم بالتسبيح والتهليل والتقديس فلا تغفلن واعقدن بالأنامل فإنها مستنطقات (٨) » يعنى بالشهادة في القيامة . وقال ابن عمر : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يعقد التسبيح (٩) » وقد قال صلى الله عليه وسلم فيما شهد عليه أبو هريرة وأبو سعيد الخدرى « إذا قال العبد لا إله إلا الله والله أكبر قال الله عز وجل صدق عبدي لا إله إلا أنا وأنا أكبر وإذا قال العبد : لا إله إلا الله وحده لا شريك له قال تعالى صدق عبدي لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي ، وإذا قال لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة

(١) حديث أن مالك الأشعري « الظهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان .. الحديث » رواه مسلم وقد تقدم في الطهارة
(٢) حديث أبي هريرة « كتبتان خفيفتان على اللسان .. الحديث » متفق عليه (٣) حديث أبي ذر « أى الكلام أحب إلى الله قال ما اصطفى الله لملائكته سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » رواه مسلم وأبو داود والنسائي « قوله سبحان الله العظيم » .
(٤) حديث « إن الله اصطفى من الكلام سبحان الله والحمد لله .. الحديث » أخرجه النسائي في اليوم واللييلة والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم وصححه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد إلا أنها قالوا في ثواب الحمد لله « كتبت له ثلاثون حسنة وحطت عنه ثلاثون سيئة » (٥) حديث جابر « من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة » أخرجه الترمذى وقال حسن والنسائي في اليوم واللييلة وابن حبان والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم وصححه (٦) حديث أبي ذر « قال الفقراء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب أهل الدثور بالأجور يقولون كما تقول وينفقون ولا تنفق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفلا أدلك على عمل إذا أنت عملته أدركت من قبلك وفقت من بعدك إلا من قال مثل قولك ؟ تسبح الله بعد كل صلاة ثلاثا وثلاثين وتحمده ثلاثا وثلاثين وتكبر أربعاً وثلاثين » وأحمد في هذا الحديث « وتحمد أربعاً وثلاثين » وأساساً جيد ولأبي الشيخ في الثواب من حديث أبي الدرداء « وتكبر أربعاً وثلاثين » كما ذكر المصنف (٨) حديث بسرة « عليكم بالتسبيح والتهليل والتقديس ولا تغفلن واعقدن بالأنامل فإنها مستنطقات » أخرجه أبو داود والترمذى والحاكم بإسناد جيد (٩) حديث ابن عمر « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يعقد التسبيح » قلت : إنما هو عبد الله بن عمرو بن العاص كما رواه أبو داود والنسائي والترمذى وحسنه والحاكم .

إلّا بالله يقول الله سبحانه صدق عبدى لاحول ولاقوة إلّا بى ومن قالهن عند الموت لم تسمه النار^(١) ، وروى مصعب ابن سعد عن أبيه عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة فقيل : كيف ذلك يا رسول الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : يسبح الله مائة تسبيحة فيكسب له ألف حسنة ويحط عنه ألف سيئة^(٢) » . وقال صلى الله عليه وسلم « يا عبد الله بن قيس - أو يا أبا موسى - أولا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ قال : بلى ، قال : قل لاحول ولاقوة إلّا بالله^(٣) » وفى رواية أخرى « ألا أعلمك كلمة من كنز تحت العرش : لاحول ولاقوة إلّا بالله » ، وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أدلك على عمل من كنوز الجنة من تحت العرش قول لاحول ولاقوة إلّا بالله يقول الله تعالى أسلم عبدى واستسلم^(٤) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « من قال حين يصحح رضيت بالله ربا وبالإسلام ديننا وبالقرآن إماما وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا رسولا كان حقا على الله أن يرضيه يوم القيامة^(٥) » وفى رواية « من قال ذلك رضى الله عنه » وقال مجاهد إذا خرج الرجل من بيته فقال : بسم الله ، قال الملك : هديت : فإذا قال : توكلت على الله ، قال الملك : كفيت . وإذا قال : لاحول ولاقوة إلّا بالله ، قال الملك : وقيت فتتفرق عنه الشياطين فيقولون ماتريدون من رحل قد هدى وكفى ووقى ؟ لاسبيل لكم إليه . فإن قلت : فما بال ذكر الله سبحانه مع خفته على اللسان وقلة التعب فيه صار أفضل وأنفع من جملة العبادات مع كثرة المشقات فيها ؟ فاعلم أن تحقيق هذا لا يلبق إلّا بعلم المكاشفة . والقدر الذى يسمح بذكره فى علم المعاملة : أن المؤثر النافع هو الذكر على الدوام مع حضور القلب فأما الذكر باللسان والقلب لاه فهو قليل الجدوى . وفى الأخبار ما يدل عليه أيضا^(٦) وحضور القلب فى لحظة بالذكر والذهول عن الله عز وجل مع الاشتغال بالدينى أيضا قليل الجدوى . بل حضور القلب مع الله تعالى على الدوام أوفى أكثر الأوقات هو المقدم على العبادات بل به تشرف سائر العبادات وهو غاية ثمرة العبادات العملية . والمذكر أول وآخر ؛ فأوله يوجب الأناجى والحب لله وآخره يوجب الأناجى والحب ويصدر عنه ، والمطلوب ذلك الأناجى والحب . فإن المرید فى بداية أمره قد يكون متكلفا بصرف قلبه ولسانه عن الوسواس إلى ذكر الله عز وجل . فإن وفق للمداومة أنس به وانغرس فى قلبه حب المذكور . ولا ينبغي أن يتعجب من هذا فإن من المشاهد فى العادات أن تذكر غائبا غير مشاهد بين يدي شخص وتكرر ذكر خصاله عنده فيحبه وقد يعشق بالوصف وكثرة الذكر . ثم إذا عشق بكثرة الذكر المتكلف أولا صار مضطرا إلى كثرة الذكر آخرًا بحيث لا يصبر عنه . فإن من أحب شيئا أكثر من ذكره . ومن أكثر ذكر شيء - وإن كان تكلفا - أحبه . هكذا أول الذكر متكلف إلى أن يثمر الأناجى بالمذكور والحب له ثم يتمتع الصبر عنه آخرًا فيصير الموجب موجبا

(١) حديث أبي هريرة وأبي سعيد « إذا قال العبد لاله الا الله والله أكبر قال الله صدق عبدى .. الحديث » أخرجه الترمذى وقال حسن والنسائى فى اليوم والليلة وابن ماجه والحاكم وصححه (٢) حديث مصعب بن سعد عن أبيه « أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة ... الحديث » أخرجه مسلم إلا أنه قال « أو يحط » كما ذكره المصنف وقال حسن صحيح . (٣) حديث « يا عبد الله بن قيس - أو يا أبا موسى - ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة قال بلى قال لاحول ولاقوة إلّا بالله » متفق عليه (٤) حديث أبي هريرة « عمل من كنز الجنة ومن تحت العرش قول لاحول ولاقوة إلّا بالله يقول الله أسلم عبدى واستسلم » أخرجه النسائى فى اليوم والليلة والحاكم « من قال سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلّا بالله قال أسلم عبدى واستسلم » وقال صحيح الإسناد . (٥) حديث « من قال حين يصحح رضيت بالله ربا .. الحديث » أخرجه أبو داود والنسائى فى اليوم والليلة والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث خادم السى صلى الله عليه وسلم ورواه الترمذى من حديث ثوبان وحسنه وفيه نظر فقيه سعد بن المرزبان ضعيف جدا (٦) حديث « الدال على أن الذكر والقلب لاه قليل الجدوى » أخرجه الترمذى وقال حسن والحاكم وقال حديث مستقيم الإسناد من حديث أبي هريرة « واعلموا أن الله لا يقبل الدعاء من قلب لاه » .

والأثر مشمرا . وهذا معنى قول بعضهم . كابدت القرآن عشرين سنة ثم تعدت به عشرين سنة . ولا يصدر التمتع إلا من الأنس والحب . ولا يصدر الأنس إلا من المداومة على المكابدة والتكلف مدة طويلة حتى يصير التكلف طبعاً . فكيف يستبعد هذا وقد يتكلف الإنسان تناول طعام يستنتسه أولاً ويكابد أكله ويوظب عليه ويصير موافقاً لطبعه حتى لا يصبر عنه فالنفس معتادة متحملة لما تتكلف . هي النفس ماعودها تتعود . أى ما كلفتها أولاً يصبر لها طبعاً آخراً . ثم إذا حصل الأنس بذكر الله سبحانه انتقطع عن غير ذكر الله وما سوى الله عز وجل هو الذى يفارقه عند الموت فلا يبقى معه فى القبر أهل ولا مال ولا ولد ولا ولاية ولا يبقى إلا ذكر الله عز وجل . فإن كان قد أنس به تمتع به وتلذذ بانقطاع العوائق الصارفة عنه إذ ضرورات الحاجات فى الحياة الدنيا تصد عن ذكر الله عز وجل ، ولا يبقى بعد الموت عائق ؛ فكأنه حلى بينه وبين محبوبه فعظمت غمطته وتحلص من السجن الذى كان مموعا فيه عما به أنسه . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إن روح القدس نفثت فى روعى أحب من أحببت فأبك مفارقة (١) » أراد به كل ما يتعلق بالدنيا فإن ذلك ينفى فى حقه بالموت ف (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) وإنما تنفى الدنيا بالموت فى حقه إلى أن تنفى فى نفسها عند بلوغ الكتاب أجله . وهذا الأنس يتلذذ به العبد بعد موته إلى أن ينزل فى جوار الله عز وجل ويترقى من الذكر إلى اللقاء . وذلك بعد أن يبعث ما فى القبور ويحصل ما فى الصدور ولا ينكر بقاء ذكر الله عز وجل معه الموت فيقول إنه أعدم فكيف يبني معه ذكر الله عز وجل ؟ فإنه لم يعدم عد ما يمنع الذكر بل عدما من الدنيا وعالم الملك والشهادة لا من عالم الملكوت . وإلى ما ذكرناه الإساره بقوله صلى الله عليه وسلم « القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة (٢) » ويقول صلى الله عليه وسلم « أرواح الشهداء فى حواصل طيور حضر (٣) » ويقول صلى الله عليه وسلم لقتلى بدر من المشركين « يا فلان يا فلان وقد سماهم النبي صلى الله عليه وسلم هل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ فأبى وحدث ما وعدنى ربي حقا (٤) فسمع عمر رضى الله عنه قوله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله كيف يسمعون وأبى يحيون وقد جيفوا ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لساكنى منهم ولكنهم لا يتقدرون أن يحيبوا » والحديث فى الصحيح هذا قوله عليه السلام فى المشركين فأما المؤمنون والشهداء فقد قال صلى الله عليه وسلم « أرواحهم فى حواصل طيور حضر معلقة تحت العرش (٥) » وهذه الحالة وما أشبهه بهذه الانفاط إليه لا ينافى ذكر الله عز وجل وهال تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحبنا بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم) الآية ولأجل شرف ذكر الله عز وجل عظمت رتبة الشهادة لأن المطلوب الخاتمة ونعنى بالخاتمة وداع الدنيا والقدم على الله والقلب مستغرق بالله عز وجل منقطع العلائق

(١) حديث « إن روح القدس نفثت فى روعى أحب من أحببت فأبك مفارقة » تقدم فى الكتاب السابع من العلم .
(٢) حديث « القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة » أخرجه الترمذى من حديث أنى سمعت بتقدري وتأخير وقال عريب قلت فيه عبيد الله بن الوليد الوداعى ضعيف (٣) حديث « أرواح الشهداء فى حواصل طيور حضر » أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود « أنه سئل عن هذه الآية (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا) الآية قال : أما لما سألنا عن ذلك فقال أرواحهم فى جوف طير حضر فلم يسم فيه صلى الله عليه وسلم » وفى رواية الترمذى « أما لما سألنا عن ذلك فأخبرنا » وذكر صاحب مسند العرندوس أن أس مبيح صرح برفعه فى مسنده . (٤) حديث « ندأه لعل بدر من المشركين يا فلان يا فلان وقد سماهم النبي صلى الله عليه وسلم هل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ فأبى وحدث ما وعدنى ربي حقا » أخرجه مسلم من حديث أنس
(٥) حديث « أرواح المؤمنين فى حواصل طيور حضر معلقة تحت العرش » أخرجه ابن ماجه من حديث كعب بن مالك « إن أرواح المؤمنين فى طير حضر تعلق بشعر الجنة » وروى النسائى بلفظ « إنما أسماء المؤمنين طائر » ورواه الترمذى بلفظ « أرواح الشهداء » وقال حسن صحيح .

عن غيره . فإن قدر عبد على أن يجعل همه مستغرقاً بالله عز وجل فلا يقدر على أن يموت على تلك الحالة إلا في صف القتال . فإنه قطع الطمع عن مهبته وأهله وماله وولده بل من الدنيا كلها فإنه يريد لها حياة وقد هون على قلبه حياته في حب الله عز وجل وطلب مرضاته فلا تجرد لله أعظم من ذلك ، ولذلك عظم أمر الشهادة وورد فيه من المضائل ما لا يحصى . فمن ذلك أنه لما استشهد عبد الله بن عمرو الأنصاري يوم أحد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجابر (ألا أبشرك يا جابر ! قال : بلى بشرك الله بالخير قال: إن الله عز وجل أحيا أباك فأقعدته بين يديه وليس بينه وبينه ستر فقال تعالى : تمت على ياعبدى ماشئت أعطيك فقال يارب أن تردني إلى الدنيا حتى أقتل فيك وفي نبيك مرة أخرى . فقال عز وجل . سبق القضاء مني بأنهم إليها لا يرجعون^(١)) ثم القتل سبب الخاتمة على مثل هذه الحالة فإنه لو لم يقتل وبقى مدة ربما عادت شهوات الدنيا إليه وغلبت على ما استولى على قلبه من ذكر الله عز وجل . ولهذا عظم خوف أهل المعرفة من الخاتمة . فإن القلب وإن أزم ذكر الله عز وجل فهو متقلب لا يتخلو عن الالتفات إلى شهوات الدنيا ولا ينفك عن فترة تعتريه . فإذا تمثل في آخر الحال في قلبه أمر من الدنيا واستولى عليه وارتحل عن الدنيا والحالة هذه فيوشك أن يبقى استيلاؤه عليه فيحن بعد الموت إليه ويتمنى الرجوع إلى الدنيا . وذلك لقلته حظه في الآخرة إذ يموت المرء على ما عاش عليه ويحشر على ما مات عليه . فأسلم الأحوال عن هذا الخطر خاتمة الشهادة إذ لم يكن قصد الشهيد نيل مال أو أن يقال شجاع أو غير ذلك^(٢) كما ورد به الخبر بل حب الله عز وجل وإعلاء كلمته فهذه الحالة هي التي عبر عنها (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) ومثل هذا الشخص هو النافع للدنيا والآخرة . وحالة الشهيد توافق معنى قولك (لا إله إلا الله) فإنه لا مقصود له سوى الله عز وجل وكل مقصود معبود وكل معبود إله فهذا الشهيد قائل بلسان حاله (لا إله إلا الله) إذ لا مقصود له سواه . ومن يقول ذلك بلسانه ولم يساعده حاله فأمره في مشيئة الله عز وجل ولا يؤمن في حقه الخطر . ولذلك فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم قول لا إله إلا الله على سائر الأذكار^(٣) وذكر ذلك مطلقاً في مواضع الترغيب . ثم ذكر في بعض المواضع الترغيب . ثم ذكر في بعض المواضع الصدق والإخلاص فقال مرة (من قال لا إله إلا الله مخلصاً) ومعنى الإخلاص مساعدة الحال للمقال . فنسأل الله تعالى أن يجعلنا في الخاتمة من أهل لا إله إلا الله حالاً ومقالاً ظاهراً وباطناً حتى نودع الدنيا غير متلفتين إليها بل متبرمين بها ومحبين لقاء الله فإن من أحب لقاء الله تعالى أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه . فهذه مراسم إلى معاني الذكرات التي لا يمكن الزيادة عليها في علم المعاملة .

الباب الثاني : في آداب الدعاء وفضله وفضل بعض الأدعية المأثورة

وفضيلة الاستغفار والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم

فضيلة الدعاء

قال الله تعالى (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي) وقال تعالى

(١) حديث « ألا أبشرك يا جابر قال بلى بشرك الله بالخير قال لمن الله أحيا أباك وأقعدته بين يديه وليس بينه وبينه ستر فقال تعالى تمت على يدي ... الحديث » أخرجه الترمذي وقال حسن وابن ماجه والحاكم وصححه إسناده من حديث جابر . (٢) حديث « الرجل يقاتل نيل مال أو أن يقال شجاع أو غير ذلك » متفق عليه من حديث أبي موسى « قال جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال الرجل يقاتل المذكر والرجل يقاتل المذموم والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن في سبيل الله ؟ قال من قاتل لتكون كلمته الله هي العليا فهو في سبيل الله » . (٣) حديث « تفضيل لا إله إلا الله على سائر الأذكار » أخرجه الترمذي وقاله حسن والنسائي في اليوم والليلة وان ماجه من حديث جابر .

﴿ ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين ﴾ وقال تعالى ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ وقال عز وجل ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ وروى النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الدعاء هو العبادة ثم قرأ ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ (١) ، الآية - وقال صلى الله عليه وسلم (الدعاء منح العبادة (٢)) وروى أبو هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال (ليس شيء أكرم على الله عز وجل من الدعاء (٣)) وقال صلى الله عليه وسلم (إن العبد لا يخطئه من الدعاء إحدى ثلاث : إما ذنب يغفر له وإما خير يعجل له وإما خير يدخر له (٤)) وقال أبو ذر رضى الله عنه : يكفى من الدعاء مع البر ما يكتفى الطعام من الملح . وقال صلى الله عليه وسلم (سلوا الله تعالى من فضله فإن الله تعالى يحب أن يسأل وأفضل العبادة انتظار الفرج (٥)) .

آداب الدعاء وهى عشرة

(الأول) أن ترصد لدعائه الأوقات الشريفة كيوم عرفة من السنة . ورمضان من الأشهر ويوم الجمعة من الأسبوع ، ووقت السحر من ساعات الليل قال تعالى ﴿ وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم (ينزل الله تعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول عز وجل من يدعوني فأستجيب له من يسألنى فأعطيه من يستغفرنى فأغفر له (٦)) وقيل إن يعقوب صلى الله عليه وسلم إنما قال (سوف أستغفر لكم ربى) ليدعو فى وقت السحر . فقيل لأنه قام فى وقت السحر يدعو وأولاده يؤمنون خلفه فأوحى الله عز وجل لى قد غفرت لهم وجعلتهم أنبياء (الثانى) أن يفتتم الأحوال الشريفة . قال أبو هريرة رضى الله عنه: إن أبواب السماء تفتح عند زحف الصفوف فى سبيل الله تعالى وعند نزول الغيث وعند إقامة الصلوات المكتوبة فأغتنموا الدعاء فيها وقال مجاهد : إن الصلاة جعلت فى خير الساعات فعليكم بالدعاء خلف الصلوات . وقال صلى الله عليه وسلم (الدعاء بين الأذان والإقامة لا يرد (٧)) وقال صلى الله عليه وسلم أيضاً (الصائم لا ترد دعوته (٨)) وبالْحَقِيقَةُ يرجع شرف الأوقات إلى شرف الحالات أيضاً إذ وقت السحر وقت صماء القلب وإخلاصه وفراغه من المشوشات . ويوم عرفة ويوم الجمعة وقت اجتماع المهمم وتعاون القلوب على استدرار رحمة الله عز وجل فهذا أحد أسباب شرف الأوقات سوى ما فيها من أسرار لا يطلع البشر عليها . وحالة السجود أيضاً أجدر بالإجابة قال أبو هريرة رضى الله عنه : قال النبي

الباب الثانى فى آداب الدعاء وفضله

(١) حديث النعمان بن بشير « إن الدعاء هو العبادة » أخرجه أصحاب السنن والحاكم وقال صحيح الإسناد وقال الترمذى حسن صحيح . (٢) حديث « الدعاء مع العبادة » أخرجه الترمذى من حديث أنس وقال عريب من هذا الوجه لا يعرفه إلا من حديث ابن لهيعة . (٣) حديث أبي هريرة « ليس شيء أكرم عند الله من الدعاء » أخرجه الترمذى وقال عريب وان ماجه وابن حبان والحاكم وقال صحيح الإسناد . (٤) حديث « إن العبد لا يخطئه من الدعاء إحدى ثلاث : إما ذنب يغفر له وإما خير يعجل له وإما خير يدخر له » أخرجه ابن مسافر عن أبيان بن عياش وكلاهما ضعيف ولأحمد والبخارى فى الأدب والحاكم وصححه لسناده من حديث أنس بن سعيد « لما أن تعجل له دعوته ولما أن يدخر له فى الآخرة ولما أن يدفع عنه من السوء مثلها » . (٥) حديث « سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل وأفضل العبادة انتظار الفرج » أخرجه الترمذى من حديث ابن مسعود وقال حماد بن واقد ليس بالحافظ قلت وضممه ابن معين وغيره . (٦) حديث « ينزل الله كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٧) حديث « الدعاء بين الأذان والإقامة لا يرد » أخرجه أبو داود والنسائى فى اليوم واللييلة والترمذى وحسنه من حديث أنس وضمه ابن عدى وابن القطان ورواه فى اليوم واللييلة بإسناد آخر جيد وابن حبان والحاكم وصححه . (٨) حديث « الصائم لا ترد دعوته » أخرجه الترمذى وقال حسن وابن ماجه من حديث أبي هريرة بزيادة فيه .

صلى الله عليه وسلم « أقرب ما يكون العبد من ربه عز وجل وهو ساجد فأكثر ما فيه من الدعاء ^(١) وروى ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ، لاني نهيتم أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً فأما الركوع فعظموا فيه الرب تعالى وأما السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء فإنه قمن أن يستجاب لكم ^(٢) ، (الثالث) أن يدعو مستقبل القبلة ويرفع يديه بحيث يرى بياض إبطيه . وروى جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أتى الموقف بعرفة واستقبل القبلة ولم يزل يدعو حتى غربت الشمس ^(٣) ، وقال سلمان : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن ربكم حيي كريم يستحي من عبده إذا رفعوا أيديهم إليه أن يردّها صفراً ^(٤) ، وروى أنس أنه صلى الله عليه وسلم « كان يرفع يديه حتى يرى بياض إبطيه في الدعاء ولا يشير بأصبعيه ^(٥) وروى أبو هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم مر على إنسان يدعو ويشير بأصبعيه السبابتين فقال صلى الله عليه وسلم أحد أحد ^(٦) ، أى اقتصر على الواحدة . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه . ارفعوا هذه الأيدي قبل أن تغل بالأغلال . ثم ينبغى أن يمسح بهما وجهه في آخر الدعاء : قال عمر رضى الله عنه ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مد يديه في الدعاء لم يردهما حتى يمسح بهما وجهه ^(٧) ، وقال ابن عباس ، كان صلى الله عليه وسلم إذا دعا ضم كفيه وجعل بطونهما مما يلي وجهه ^(٨) ، وهذه هيئات اليد ولا يرفع بصره إلى السماء قال صلى الله عليه وسلم « لينتهين أقوام عن رفع أبصارهم إلى السماء عند الدعاء أو لتخطفن أبصارهم ^(٩) ، (الرابع) خفض الصوت بين الخافتة والجهر لما روى أن أبا موسى الأشعري قال : قد منا مع رسول الله فلما دنونا من المدينة كبر وكبر الناس ورفعوا أصواتهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم يا أيها الناس إن الذى تدعون ليس بأصم ولا غائب إن الذى تدعون بكم وبين أعناق ركابكم ^(١٠) ، وقالت عائشة رضى الله عنها في قوله عز وجل ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ^(١١) ﴾ أى بدعائك وقد أتى الله عز وجل على نبيه زكرياء عليه السلام حيث قال ﴿ إذ نادى ربه نداء خفياً ﴾ وقال عز وجل ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ﴾ (الخامس) أن لا يتكلف السجع في الدعاء فإن حال الداعي ينبغى أن يكون حال متضرع والتكلف لا يناسبه قال صلى الله عليه وسلم « سيكون قوم يعتدون في الدعاء ^(١٢) ، وقد قال عز وجل : ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه

(١) حديث أبي هريرة « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثر ما فيه من الدعاء » رواه مسلم (٢) حديث ابن عباس « لاني نهيتم أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً ... الحديث » أخرجه مسلم أيضاً (٣) حديث جابر « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى الموقف بعرفة واستقبل القبلة ولم يزل يدعو حتى غربت الشمس ... الحديث » أخرجه مسلم دون قوله « يدعو » فقال مكانها « واقفاً » والنسائي من حديث أسامة بن زيد « كست ردهه بعرفات ورفع يديه يدعو » ورجاله ثقات .

(٤) حديث سلمان « ان ربكم حيي كريم يستحي من عبده اذا رفع يديه أن يردهما صفراً » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم وقال استناده صحيح على شرطهما (٥) حديث أنس « كان يرفع يديه حتى يرى بياض إبطيه في الدعاء ولا يشير بأصبعه » أخرجه مسلم دون قوله ولا يشير بأصبعه . والحديث متفق عليه لكن مفيد بالاستسقاء (٦) حديث أبي هريرة « مر على إنسان يدعو بأصبعيه السبابتين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد أحد » أخرجه النسائي وقال حسن وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الإسناد (٧) حديث عمر « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مد يديه في الدعاء لم يردهما حتى يمسح بهما وجهه » أخرجه الترمذي وقال غريب والحاكم في المستدرک وسكت عليه وهو ضعيف (٨) حديث ابن عباس « كان صلى الله عليه وسلم إذا دعا ضم كفيه وجعل بطونهما مما يلي وجهه » أخرجه الطبراني في الكبير بسند ضعيف .

(٩) حديث « لينتهين أقوام عن رفع أبصارهم إلى السماء عند الدعاء أو لتخطفن أبصارهم » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقال عند الدعاء في الصلاة (١٠) حديث أبي موسى الأشعري « يا أيها الناس ان الذى تدعون ليس بأصم ولا غائب » متفق عليه مع اختلاف ، واللفظ الذى ذكره المصنف لأبي داود (١١) حديث عائشة في قوله تعالى ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ﴾ أى بدعائك متفق عليه . (١٢) حديث « سيكون قوم يعتدون في الدعاء » وفي رواية « والظهور » أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث عبد الله بن معقل

لا يجب المعتدين) قيل معناه التكلف للأبصار والأولى أن لا يجاوز الدعوات المأثورة فإنه قد يعتدى في دعائه فيسأل مالا تقتضيه مصلحته فما كل أحد يحسن الدعاء ولذلك روى عن معاذ رضى الله عنه : إن العلماء يحتاج إليهم في الجنة إذ يقال لأهل الجنة تمنوا فلا يدرون كيف يتمنون حتى يتعلموا من العلماء ؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم « إياكم والسجع في الدعاء حسب أحدكم أن يقول اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل (١) » وفي الخبر : سيأتى قوم يعتدون في الدعاء والظهور . ومر بعض السلف بقاص يدعو لسجع فقال له : أعلى الله تبالغ ؟ أشهد لقد رأيت حبيبا العجمي يدعو وما يزيد على قوله : اللهم اجعلنا جيدين اللهم لا تنفض خايوم القيامة اللهم وفقنا للخير ، والناس يدعون من كل ناحية وراءه وكان يعرف بركة دعائه وقال بعضهم . ادع بلسان الذلة والافتقار لا بلسان الفصاحة والانطلاق . ويقال إن العلماء والأبدال لا يريدون في الدعاء على سبع كلمات فادونها ويشهد له آخر سورة البقرة فإن الله تعالى لم يجبر في موضع من أدعية عبادة أكثر من ذلك . واعلم أن المراد بالسجع هو المتكلف من الكلام فإن ذلك لا يلائم الضراعة والذلة والإلحاح في الأدعية المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات متوازنة لكنها غير متكلفة كقوله صلى الله عليه وسلم « أسألك الأمن يوم الوعيد والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود والركع السجود الموفين بالعهود لأنك رحيم ودود وإنك تفعل ما تريد (٢) » وأمثال ذلك فليقتصر على المأثور من الدعوات أو يلتبس بلسان التضرع والخشوع من غير سجع وتكلف فالتضرع هو المحبوب عند الله عز وجل (السادس) التضرع والخشوع والرغبة والرغبة قال الله تعالى ﴿ لهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا ﴾ وقال عز وجل ﴿ ادعوا ربكم تضرعا وخفية ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « إذا أحب الله عبدا ابتلاه حتى يسمع تضرعه (٣) » . (السابع) أن يجزم الدعاء ويوقن بالإجابة ويصدق رجاءه فيه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يقل أحدكم إذا دعا اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت ليعزم المسألة فإنه لا مكره له (٤) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شيء (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله عز وجل لا يستجيب دعاء من قلب غافل (٦) » وقال سفيان بن عيينة : لا يمنع أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه فإن الله عز وجل أجاب دعاء شر الخلق إبليس لعنه الله ﴿ إذ قال رب فانظرني إلى يوم يبعثون قال إنك من المنظرين ﴾ (الثامن) أن يلح في الدعاء ويكرره ثلاثا قال ابن مسعود :

(١) حديث « إياكم والسجع في الدعاء بحسب أحدكم أن يقول اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل » غريب بهذا السياق وللبخاري عن ابن عباس « وانظر السجع من الدعاء فاجتنبه فإني عهدت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يفعلون الا ذلك » وابن ماجه والحاكم واللفظ له وقال صحيح الإسناد من حديث عائشة « عليك بالكوامل » وفيه « وأسألك الجنة ... إلى آخره » (٢) حديث « أسألك الأمن يوم الوعيد والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود والركع السجود الموفين بالعهود لأنك رحيم ودود وإنك تفعل ما تريد » أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ليلة حين فرغ من صلاته ... فذكر حديثا طويلا من جلته هذا » وقال حديث غريب انتهى . وفيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى سمي الحفظ (٣) حديث « إذا أحب الله عبدا ابتلاه حتى يسمع تضرعه » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أسد « إذا أحب الله عبدا صب عليه البلاء صبا ... الحديث » وفيه « دعاه فإني أحب أن أسمع صوته » وللطبراني من حديث أبي أمامة « إن الله يقول للملائكة انطلقوا لي عبدي فصبوا عليه البلاء ... الحديث » وفيه « فإني أحب أن أسمع صوته » وسندهما ضعيف (٤) حديث « لا يقل أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت ليعزم المسألة فإنه لا مكره له » متفق عليه من حديث أبي هريرة (٥) حديث « إذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شيء » أخرجه ابن حبان من حديث أبي هريرة .

(٦) حديث « ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل » أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال غريب والحاكم وقال مستقيم الإسناد ترد به صالح المري وهو أحد رهاد البصرة قلت لكنه ضعيف في الحديث .

كان عليه السلام إذا دعا دعا ثلاثاً وإذا سأل سأل ثلاثاً^(١) ، وينبغي أن لا يستطىء الإجابة لقوله صلى الله عليه وسلم « يستجاب لأحدكم ما لم يعجل فيقول قد دعوت فلم يستجب لي فإذا دعوت فاسأل الله كثيراً فإنك تدعو كريماً^(٢) » ، وقال بعضهم : انى أسأل الله عز وجل مند عشرين سنة حاجة وما أجابني وأنا أرحو الإجابة سألت الله تعالى أن يوفقتى لترك ما لا يعنينى . وقال صلى الله عليه وسلم « إذا سأل أحدكم ربه مسألة فتعرف الإجابة فليقل الحمد لله الذى بنعمته تم الصالحات ومن أبطأ عنه من ذلك فليقل الحمد لله على كل حال^(٣) » . (التاسع) أن يفتح الدعاء بذكر الله عز وجل فلا يبدأ بالسؤال . قال سلمة بن الأكوع « ماسمت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الدعاء بالاستفتاحه بقول : سبحان ربى العلى الأعلى الوهاب^(٤) » قال أبو سليمان الداراني رحمه الله : من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ثم يسأله حاجته ثم يختم بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فإن الله عز وجل يقبل الصلاتين وهو أكرم من أن يدع ما بينهما ، وروى فى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا سألتهم الله عز وجل حاجة فابتدئوا بالصلاة على فإن الله تعالى أكرم من أن يسأل حاجتين فيقضى إحداهما ويرد الأخرى^(٥) » ، رواه أبو طالب المسكى (العاشر) وهو الأدب الباطن وهو الأصل فى الإجابة : التوبة ورد المظالم والإقبال على الله عز وجل بسكته الهمة فذلك هو السبب القريب فى الإجابة . فيروى عن كعب الأجار أنه قال : أصاب الناس قحط شديد على عهد موسى رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج موسى بنى إسرائيل يستسقى بهم فلم يسقوا حتى خرج ثلاث مرات ولم يسقوا ، فأوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام : لاني لأستجيب لك ولألمن معك وفيكم نام ، فقال موسى : يارب ومن هو حتى نخرجه من بيننا فأوحى الله عز وجل إليه : يا موسى أنها كم عن النجيمة وأكون نماما ! فقال موسى : ابني إسرائيل : توبوا إلى ربكم بأجمعكم عن النجيمة فتابوا فأرسل الله تعالى عليهم الغيث . وقال سعيد بن جبير قحط الناس فى زمن ملك من ملوك بنى إسرائيل فاستسقوا فقال الملك لبنى إسرائيل : ايرسلن الله تعالى علينا السماء أو لنؤذيه قيل له وكيف تقدر أن تؤذيه وهو فى السماء ؟ فقال أقتل أوليائه وأهل طاعته فيكون ذلك أذى له فأرسل الله تعالى عليهم السماء . وقال سفيان الثورى : بلغنى أن بنى إسرائيل قحطوا سبع سنين حتى أكلوا الميتة من المزابل وأكلوا الأطفال وكانوا كذلك يخرجون إلى الجبال يسكون ويتضرعون ، فأوحى الله عز وجل إلى أنبيائهم عليهم السلام لو مشيتم إلى بأقدامكم حتى تحنى ركبتكم وتبلغ أيديكم عنان السماء وتكل ألسنتكم عن الدعاء فإني لأجيب لكم داعياً ولا أرحم لكم باكياً حتى تردوا المظالم إلى أهلها ففعلوا ففطروا من يومهم . وقال مالك بن دينار . أصاب الناس فى بنى إسرائيل قحط فخرجوا مرارا فأوحى الله عز وجل إلى نبيهم أن أخبرهم أنكم تخرجون إلى بأبدان نجسة وترفعون إلى أكفنا قد سفكتم بها الدماء وملاتم بطونكم من الحرام الآن قد اشتد غضبي عليكم ولن تزدادوا منى إلا بعدا ، وقال أبو الصديق الناجى : خرج سليمان عليه السلام يستسقى فتر بنملة لقاءة على ظهرها رافعة قوائمها

(١) حديث ابن مسعود « كان صلى الله عليه وسلم إذا دعا دعا ثلاثاً وإذا سأل سأل ثلاثاً » رواه مسلم وأصله متفق عليه .

(٢) حديث « يستجاب لأحدكم ما لم يعجل فيقول قد دعوت فلم يستجب لي » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(٣) حديث « إذا سأل أحدكم مسألة فتعرف الإجابة فليقل الحمد لله الذى بنعمته تم الصالحات ومن أبطأ عنه من ذلك شئ فليقل الحمد لله على كل حال » أخرجه البيهقي فى الدعوات من حديث أبي هريرة وللحاكم نحوه من حديث عائشة مختصراً بإسناد صحيح .

(٤) حديث سلمة بن الأكوع « ماسمت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الدعاء بالاستفتاحه وقال سبحان ربى العلى الأعلى الوهاب » أخرجه أحمد والحاكم وقال صحيح الإسناد قلت فيه عمر بن راشد الجبالي وضعه الجمهور (٥) حديث « إذا سألتهم الله حاجة فابتدئوا بالصلاة على فإن الله تعالى أكرم من أن يسأل حاجتين فيقضى إحداهما ويرد الأخرى » لم أجده مرفوعاً وإنما هو موقوف على أبي الدرداء .

إلى السماء وهي تقول : اللهم إنا خلقنا من خلقك ولا غنى بنا عن رزقك فلا تهلكنا بذنوب غيرنا ، فقال سليمان عليه السلام : ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم . وقال الأوزاعي : خرج الناس يستسقون فقام فيهم بلال بن سعد لحمد الله وأثنى عليه ثم قال يا معشر من حضر أستم مقترين بالإساءة ؟ فقالوا : اللهم نعم ، فقال : اللهم إنا قد سمعناك تقول ﴿ ما على المحسنين من سبيل ﴾ وقد أقررنا بالإساءة فهل تكون مغفرتك إلا لمثلنا ؛ اللهم فأغفر لنا وارحمنا واسقنا ؛ فرفع يديه ورفعوا أيديهم فسقوا . وقيل لمالك بن دينار : ادع لنا ربك فقال لأنكم تستبطلون المطر وأنا أستبطل الحجارة . وروى أن عيسى صلوات الله عليه وسلامه خرج يستسقي فلما ضجروا قال لهم عيسى عليه السلام : من أصاب منكم ذنبا فليرجع فرجعوا كلهم ولم يبق معه في المفازة إلا واحد ، فقال له عيسى عليهم السلام : أمالك من ذنب ؟ فقال : والله ما علمت من شيء غير أني كنت ذات يوم أصلي فمرت بي امرأة فنظرت إليها بعيني هذه فلما جاوزتني أدخلت أصبعي في عيني فأنزعتها وتبعها المرأة بها . فقال له عيسى عليه السلام : فداع الله حتى أو من على دعائك ، قال : فدعا فتجللت السماء سحابا ثم صبت فسقوا ، وقال يحيى الغساني : أصاب الناس قحط على عهد داود عليه السلام فاخترأوا ثلاثة من علمائهم فخرجوا حتى يستسقوا بهم فقال أحدهم : اللهم إنك أنزلت في توراةك أن نعضو عن ظلمنا اللهم إنا قد ظلمنا أنفسنا فاعف عنا : وقال الثاني : اللهم إنك أنزلت في نوراةك أن نذمتق أرقاءنا اللهم إنا أرفأؤك فأعتقنا . وقال الثالث : اللهم إنك أنزلت في توراةك أن لا يرد المساكين إذا وقفوا بأبوابنا اللهم إنا مساكينك وقفنا ببابك فلا ترد دعاءنا فسقوا ، وقال عطاء السلمي : منعنا الغيث فخرجنا نستسقي فإذا نحن بسعدون المحنون في المقابر فنظر إلى فقال يا عطاء أهذا يوم النشور أو بدمر ما في القبور ؟ فقلت : لا ولكننا منعنا الغيث فخرجنا نستسقي فقال يا عطاء : بقلوب أرضيه أم بقلوب سماوية ؟ فقلت : بل بقلوب سماوية فقال : هيات يا عطاء قل للمتبرجين لا تبرحوا فإن الناقد بصير . ثم رمق السماء بطرفه وقال لإلهي وسيدي ومولاي لا تهلك بلادك بذنوب عبادك ولكن بالسر المكثون من أسمائك وما وارت الحجب من آلائك إلا ماسقين ماء غدقا فراتنا تحي به العباد وتروى به البلاد يامن هو على كل شيء قدير ، قال عطاء : فما استتم الكلام حتى أرعدت السماء وأبرقت وجادت بمطر كأفواه القرب فولى وهو يقول :

أفلح الزاهدون والعابدون إذ لمولاهم أجاجوا البطونا
أسهروا الأعين العليلية حبا فانقضى ليلهم وهم ساهرون
شغلتهم عبادة الله حتى حسب الناس أن فيهم جنونا

وقال ابن المبارك : قدمت المدينة في عام شديد القحط فخرج الناس يستسقون فخرجت معهم إذا أقبل غلام أسود عليه قطعنا خيش قد اتزر بإحدهما وألقى الأخرى على عاتقه . فجلس إلى جنبي فسمعتة يقول لإلهي أخلقت الوجوه عندك كثرة الذنوب ومساوى الأعمال وقد حبست عنا غيث السماء لتودب عبادك بذلك فأسألك يا حليما ذا أناة يامن لا يعرف عباده منه إلا الجليل أن تسقيهم الساعة الساعة فلم يرل يقول الساعة الساعة حتى اكتست السماء بالغمام وأقبل المطر من كل جانب ، قال ابن المبارك : فحُت إلى الفضيل فقال مالي أراك كثيبا ؟ فقلت أمرسبقتنا إليه غيرنا فتولاه دوننا وقصصت عليه القصة فصاح الفضيل وخز ممشيا عليه . ويروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه استسقى بالعباس رضى الله عنه فلما فرغ عمر من دعائه قال العباس : اللهم لأنه لم ينزل بلاء من السماء إلا بذنوب ولم يكشف إلا بتوبة وقد توجه في القوم إليك لسكاني من نبيك صلى الله عليه وسلم وهذه أيدينا إليك بالذنوب ونواصينا بالتوبة وأنت

الراعى لا تهمل الضالة ولا تدع الكبير بدار مضيفة فقد ضرع الصغير ورق الكبير وارتفعت الاصوات بالشكوى وأنت تعلم السر وأحى اللهم فأعظم لغياثك قبل أن يقمطوا فيهلكوا فإنه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون قال فأتتم كلامه حتى ارتفعت السماء مثل الجبال .

فضيلة الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفضله صلى الله عليه وسلم

قال الله تعالى ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً ﴾ وروى أنه صلى الله عليه وسلم « جاء ذات يوم والبشرى ترى في وجهه فقال صلى الله عليه وسلم إنه جاءني جبريل عليه السلام فقال أمارضى يا محمد أن لا يصلى عليك أحد من أمتك صلاة واحدة إلا صليت عليه عشرة ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشرة (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « من صلى على صلت عليه الملائكة ماضى على فليقال عند ذلك أو ليكثر (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن أولى الناس بي أكثرهم على صلاة (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « بحسب المؤمن من البخل أن أذكر عنده فلا يصلى على (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « أكثروا من الصلاة على يوم الجمعة (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « من صلى على من أمتى كتبت له عشر حسنات ومحيت عنه عشر سيئات (٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « من قال حين يسمع الأذان والإقامة اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة صل على محمد عبدك ورسولك وأعطه الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة والشفاعة يوم القيامة حلت له شفاعتى (٧) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى على في كتاب لم تزل الملائكة يستغفرون له مادام اسمى في ذلك الكتاب (٨) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن في الأرض ملائكة سياحين يبلغونى عن أمتى السلام (٩) » وقال صلى الله عليه وسلم

(١) حديث « أنه صلى الله عليه وسلم جاء ذات يوم والبشرى ترى في وجهه فقال لأنه جاءني جبريل عليه الصلاة والسلام فقال أما رضى يا محمد أن لا يصلى عليك أحد من أمتك إلا صليت عليه عشرة ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشرة » أخرجه النسائي وابن حبان من حديث أبي طلحة باسناد جيد (٢) حديث « من صلى على صلت عليه الملائكة ماضى فليقال عند من ذلك أو ليكثر » أخرجه ابن ماجه من حديث عامر بن ربيعة باسناد صحيح والطبراني في الأوسط باسناد حسن . (٣) حديث « لمن صلى على من أمتى كتبت له عشر حسنات ومحيت عنه عشر سيئات » أخرجه النسائي في اليوم واليلة من حديث عمرو بن دينار وزاد فيه « مخلصاً من قلبه صلى الله عليه بها عشر صلوات ورفعه بها عشر درجات » وله في السير وابن حبان من حديث أنس نحوه دون قوله « مخلصاً من قلبه » ودون ذكر : نحو السيئات . ولم يذكر ابن حبان أيضاً : رفع الدرجات . (٤) حديث « من قال حين يسمع الأذان والإقامة اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة صل على محمد عبدك ورسولك وأعطه الوسيلة والفضيلة والشفاعة يوم القيامة حلت له شفاعتى » أخرجه البخارى من حديث حار دون ذكر الإقامة والشفاعة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وقال النداء والمستغفرى في الدعوات « حين يسمع النداء للصلاة » وزاد ابن وهب ذكر الصلاة والشفاعة فيه بسند ضعيف وزاد الحسن بن على المعمرى في اليوم واليلة من حديث أبي الدرداء ذكر الصلاة فيه وله والمستغفرى في الدعوات سند ضعيف من حديث أبى رافع « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمع الأذان » فذكر حديثاً فيه « وإذا قال قد قامت الصلاة قال اللهم رب هذه الدعوة التامة ... الحديث » و زاد « وتقبل شفاعتى في أمتى » ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو « إذا سمع المؤمن يقولون مثل ما يقول ثم صلوا على ثم صلوا الله لى الوسيلة » وفيه « من سأل الوسيلة حلت عليه الشفاعة » . (٨) حديث « من صلى على في كتاب لم تزل الملائكة تستغفرون له مادام اسمى في ذلك الكتاب » أخرجه الطبراني في الأوسط وأبو الشيخ في الثواب والمستغفرى في الدعوات من حديث أبى هريرة بسند ضعيف . (٩) حديث « لمن في الأرض ملائكة سياحين يبلغونى عن أمتى السلام » تقدم في آخر الحج .

« ليس أحد يسلم على إلا رد الله على روحى حتى أورد عليه السلام »^(١) ، و قيل له يارسول الله كيف نصلى عليك ؟ فقال قولوا اللهم صل على محمد عبدك وعلى آله وأزواجه وذريته كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد »^(٢) ، وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سمع بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم يبكي ويقول : بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد كان جذع تخطب الناس عليه فلما كثر الناس اتخذت منبرا لتسمعهم فحس الجذع لفراقك حتى جعلت يدك عليه فسكن فأمتك كانت أولى بالحنين إليك لما فارقتهم ، بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن جعل طاعتك طاعته فقال عز وجل ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أخبرك بالعمى عنك قبل أن يخبرك بالذنوب فقال تعالى ﴿ عما الله عنك لم أذنيت لهم ﴾ بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن بعثك آخر الأنبياء وذكرك في أولهم فقال عز وجل ﴿ وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم ﴾ الآية بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أهل النار يودون أن يكونوا قد أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ، بأبى أنت وأمى يارسول الله لئن كان موسى بن عمران أعطاه الله حجرا تتفجر منه الأنهار فإذا بأعجب من أصابعك حين نبع منها الماء صلى الله عليك ، بأبى أنت وأمى يارسول الله لئن كان سليمان بن داود أعطاه الله الريح غدوها شهر ورواحها شهر فإذا بأعجب من البراق حين سررت عليه إلى السماء السابعة ثم صليت الصبح من ليلتك بالأبطح صلى الله عليك ، بأبى أنت وأمى يارسول الله لئن كان عيسى بن مريم أعطاه الله إحياء الموتى فإذا بأعجب من الشاة المسمومة حين كلمتك وهى مشوية فقالت لك الذراع : لانا كفى فإنى مسمومة ، بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد دعا نوح على قومه فقال رب لا تدرك على الأرض من الكافرين ديارا ولو دعوت علينا بمثلها لهلكنا فلقد وطئ ظهرك وأدى وجهك وكسرت رباعيتك فأبيت أن تقول إلا خيرا فقلت اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون ، بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد اتبعك فى قلة سنك وقصر عمرك ما لم يتبع نوحا فى كثرة سنه وطول عمره ولقد آمن بك الكثير وما آمن معه إلا القليل ، بأبى أنت وأمى يارسول الله لو لم تجالس إلا كفواً لك ما جالسنا ولو لم تنسك إلا كفواً لك ما نسكحت لإينا ولو لم تواق كل إلا كفواً لك ما واكتتنا فلقد والله جالسنا ونسكحت لإينا وواكتتنا ولبست الصوف وركبت الحمار وأردفت خلفك ووضعت طعامك على الأرض ولعقت أصابعك تواضعا منك صلى الله عليك وسلم »^(٣) . وقال بعضهم : كنت أكتب

(١) حديث « ليس أحد يسلم على إلا رد الله على روحى حتى أورد عليه السلام » أخرجه أبو داود من حديث أنى هريرة بسند صحيح
(٢) حديث « قيل له يارسول الله كيف نصلى عليك قال قولوا اللهم صل على محمد وعلى آله وأزواجه وذريته . الحديث » متفق عليه من حديث أبى حميد الساعدى . (٣) حديث عمر « فى حنين الجذع ونبع الماء من بين أصابعه والإسراء به على البراق إلى السماء السابعة ثم صلاة الصبح من ليلته بالأبطح وكلام الشاة المسمومة وأنه دعى وجهه وكسرت رباعيته فقال اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون وأنه لبس الصوف وركب الحمار وأردف خلفه ووضع طعامه بالأرض ولعق أصابعه » وهو غريب بطوله من حديث عمر وهو معروف من أوجه أخرى . لحديث حين الجذع متفق عليه من حديث جابر وابن عمر ، وحديث نبع الماء من بين أصابعه متفق عليه من حديث أنس وعمره وحديث الإسراء متفق عليه من حديث أنس دون ذكر صلاة الصبح بالأبطح ، وحديث كلام الشاة المسمومة رواه أبو داود من حديث سائر وفيه انقطاع ، وحديث أنه دعى وجهه وكسرت رباعيته متفق عليه من حديث سهل بن سعد فى غزوة أحد ، وحديث اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون رواه البيهقي فى دلائل النبوة والحديث فى الصحيح من حديث ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم حكاه عن نبي من الأنبياء ضربه قومه ، وحديث لبس الصوف رواه الطيالسى من حديث سهل بن سعد ، وحديث ركوبه الحمار وأردافته خلفه متفق عليه من حديث أسامة بن زيد ، وحديث وضع طعامه بالأرض رواه أحمد فى الزهد من حديث الحسن مرسلًا والبخارى من حديث أنس ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوان قط ، وحديث لعقه أصابعه رواه مسلم من حديث كعب بن مالك وأنس بن مالك

الحديث وأصلى على النبي صلى الله عليه وسلم فيه ولا أسلم فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقال لي : أما تتم الصلاة على في كتابك ؟ فما كتبت بعد ذلك إلا صليت وسلمت عليه . وروى عن أبي الحسن قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقلت : يا رسول الله بم جوزى الشافعي عنك حيث يقول في كتابه الرسالة « وصلى الله على محمد كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون » ؟ فقال صلى الله عليه وسلم جوزى عنى أنه لا يوقف للحساب .

فضيلة الاستغفار

قال الله عز وجل ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا الذنوبهم ﴾ وقال علقمة والأسود قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنهم : في كتاب الله عز وجل آيتان ما أذنب عبد ذنبا فقرأهما واستغفر الله عز وجل إلا غفر الله تعالى له ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ﴾ الآية وقوله عز وجل (ومن يعمل سوما أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يمد الله غفورا رحيا) وقال عز وجل (فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) وقال تعالى (والمستغفرين بالأسحار) وكان صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول « سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي إنك أنت التواب الرحيم ^(١) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « من أكثر من الاستغفار جعل الله عز وجل له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب ^(٢) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « إنى لاستغفر الله تعالى وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة ^(٣) » ، هذا مع أنه صلى الله عليه وسلم غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وقال صلى الله عليه وسلم « إنه ليغان على قلبي حتى إنى لاستغفر الله تعالى في كل يوم مائة مرة ^(٤) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « من قال حين يأوى إلى فراشه استغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه ثلاث مرات غفر الله له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر - أو عدد رمل عالج أو عدد ورق الشجر أو عدد أيام الدنيا - ^(٥) » ، وقال صلى الله عليه وسلم في حديث آخر « من قال ذلك غفرت ذنوبه وإن كان فارا من الزحف ^(٦) » ، وقال حذيفة . كنت ذرب اللسان على أهلى فقلت « يا رسول الله لقد خشيت أن يدخلنى لسانى النار ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : فأين أنت من الاستغفار ؟ فإنى لاستغفر الله في اليوم مائة مرة ^(٧) » ، وقالت عائشة رضى الله عنها : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن كنت ألمت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه فإن التوبة من الذنب التدم والاستغفار ^(٨) » ، وكان صلى الله

(١) حديث « كان النبي صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم يكثر أن يقول سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لى انك أنت التواب الرحيم » أخرجه الحاكم من حديث ابن مسعود وقال صحيح ان كان أو عبدة سمع من أبيه والحديث متفق عليه من حديث عائشة « أنه كان يكثر أن يقول ذلك في ركوعه وسجوده » دون قوله « إنك أنت التواب الرحيم » .
(٢) حديث « من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل غم مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب » أخرجه أبو داود والسنائي في اليوم والليلة وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث ابن عباس وضمه ابن حبان .
(٣) حديث « انى لاستغفر الله وأتوب اليه في اليوم سبعين مرة » أخرجه البخارى من حديث أنى هريرة الا أنه قال « أكثر من سبعين » وهو فى الدعاء للطبرانى كما ذكره المصنف (٤) حديث « انه ليمارس على قلبي حتى انى لاستغفر الله فى كل يوم مائة مرة » أخرجه مسلم من حديث الأغر (٥) حديث « من قال حين يأوى الى فراشه استغفر الله العظيم الذى لا اله الا هو الحى القيوم وأتوب اليه ثلاث مرات غفر الله له ذنوبه وان كانت مثل زبد البحر ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أنى سعيد وقال غريب لا يعرفه الا من حديث عبد الله بن الوليد الوصافى . قلت الوصافى وان كان ضعيفا فقد تابعه عليه عاصم بن قدامة وهو ثقة ورواه البخارى فى التاريخ دون قوله « حين يأوى الى فراشه » وقوله « ثلاث مرات » (٦) حديث « من قال ذلك غفرت ذنوبه وان كان فارا من الزحف » أخرجه أبو داود والترمذى من حديث زيد مولى النبي صلى الله عليه وسلم وقال غريب « قلت ورجاله موثقون ورواه ابن مسعود والحاكم من حديث ابن مسعود وقال صحيح على شرط الشيخين (٧) حديث حذيفة « كنت ذرب اللسان على أهلى .. الحديث » وفيه « أين أنت من الاستغفار » أخرجه السنائي فى اليوم والليلة وابن ماجه والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين (٨) حديث عائشة « ان كنت ألمت بذنب فاستغفرى الله فإن التوبة من الذنب التدم والاستغفار » =

عليه وسلم يقول في الاستغفار : اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني اللهم اغفر لي
هزلي وجدي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت
أعلم به مني أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير^(١) ، وقال علي رضي الله عنه : كنت رجلاً إذا سمعت
من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً نفعني الله عز وجل بما شاء أن ينفعني منه وإذا حدثني أحد من أصحابه
استحلته فإذا حلف صدقته ، قال : وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقول : « ما من عبد يذنب ذنباً فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلي ركعتين ثم يستغفر الله عز وجل إلا غفر له ثم
تلا قوله عز وجل (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم)^(٢) الآية » وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه
وسلم أنه قال : « إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكته سوداء في قلبه فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه منها فإن زاد
زادت حتى تغلف قلبه^(٣) » فذلك الزان الذي ذكره الله عز وجل في كتابه (كلاب ران على قلوبهم ما كانوا
يكسبون) وروى أبو هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله سبحانه ليرفع الدرجة للعبد في
الجنة فيقول يارب أنى لي هذه فيقول عز وجل باستغفار ولدك لك^(٤) » ، وروى عائشة رضي الله عنها : أنه صلى الله
عليه وسلم قال : « اللهم اجعلني من الذين إذا أحسنوا استبشروا وإذا أساءوا استغفروا^(٥) » ، وقال صلى الله عليه وسلم
« إذا أذنب العبد ذنباً فقال اللهم اغفر لي فيقول الله عز وجل أذنب عبدى ذنباً فعلم أن له ربا يأخذ بالذنب ويغفر
الذنب عبدى اعلم ما شئت فقد غفرت لك^(٦) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم
سبعين مرة^(٧) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إن رجلاً لم يعمل خيراً قط نظر إلى السماء فقال إن لي ربا يارب فاغفر لي
فقال الله عز وجل قد غفرت لك^(٨) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « من أذنب ذنباً فعلم أن الله قد اطلع عليه غفر له
وإن لم يستغفر^(٩) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى يا هادي كلكم مذنب إلا من عافيته فاستغفروني
أغفر لكم ومن علم أنى ذو قدرة على أن أغفر له غفرت له ولا أبالي^(١٠) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « من قال سبحانك
ظلمت نفسي وعملت سوءاً فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت غفرت له ذنوبه ولو كانت كذب الحمل^(١١) » وروى

متفق عليه دون قوله « فإن التوبة .. الخ » وزاد « أو توب لي فيه فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه » وللطبراني
في الدعاء « فإن العبد إذا أدب ثم استغفر الله غفر له » (١) حديث « كان يقول اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في
أمري وما أنت أعلم به مني اللهم اغفر لي عمدي وجهلي وهزلي » متفق عليه من حديث أبي موسى واللفظ لمسلم (٢) حديث علي بن بكر
« ما من عبد يذنب ذنباً فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلي ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر الله له » أخرجه أصحاب السنن وحسنه الترمذي
(٣) حديث أبي هريرة « إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكته سوداء في قلبه فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه .. الحديث »
أخرجه الترمذي وصححه والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه وابن حبان والحاكم (٤) حديث أبي هريرة « من غفر الله له
الدرجة في الجنة فيقول يارب أنى لي هذه فيقول باستغفار ولدك لك » رواه أحمد بإسناد حسن . (٥) حديث عائشة « اللهم
اجعلني من الذين إذا أحسنوا استبشروا وإذا أساءوا استغفروا » أخرجه ابن ماجه وفيه على بن زيد بن جدهان مختلف فيه .
(٦) حديث « إذا أذنب العبد فقال اللهم اغفر لي يقول الله أدب عبدى ذنباً فعلم أن له ربا يأخذ بالذنب ويغفر الذنب .. الحديث »
متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٧) حديث « ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة » أخرجه أبو داود
والترمذي من حديث أبي بكر وقال غريب وليس له إسناد بالقوى . (٨) حديث « إن رجلاً لم يعمل خيراً قط نظر إلى السماء
فقال إن لي ربا يارب اغفر لي فقال الله تعالى قد غفرت لك » لم أقف له على أصل . (٩) حديث « من أذنب ذنباً فعلم أن الله قد
اطلع عليه غفر له وإن لم يستغفر » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن مسعود بسند ضعيف . (١٠) حديث « يقول الله
يا هادي كلكم مذنب إلا من عافيته فاستغفروني أغفر لكم ومن علم أنى ذو قدرة على أن أغفر له غفرت له ولا أبالي » أخرجه الترمذي
وابن ماجه من حديث أبي ذر وقال الترمذي حسن وأصله عند مسلم بلفظ آخر . (١١) حديث « من قال سبحانك ظلمت نفسي وعممت
سوءاً فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت غفرت له ذنوبه وإن كانت كذب الحمل » أخرجه البيهقي في الدعوات من حديث علي « أنى »

« إن أفضل الاستغفار اللهم أنت ربى وأنا عبدك خلقتنى وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك على وأبوء على نفسى بذنبي فقد ظلمت نفسى واعترفت بذنبي فاغفرلى ذنوبى ما قدمت منها وما أخرت فإنه لا يغفر الذنوب جميعها إلا أنت ^(١) ، والآثار : قال خالد بن معدان يقول الله عز وجل إن أحب عبادى إلى المتحابون بحبى والمتعلقة قلوبهم بالمساجد والمستغفرون بالأسجار أولئك الذين إذا أردت أهل الأرض بعقوبة ذكرتهم فتركهم وصرفت العقوبة عنهم . وقال قتادة رحمه الله : القرآن يدلكم عن دائمكم ردوائكم . أما داؤمكم فالذنوب وأما دوائكم فالاستغفار وقال على كرم الله وجهه : العجب من يهلك ومعه النجاة قيسل وما هى ؟ قال الاستغفار . وكان يقول : ما ألهم الله سبحانه عبدا الاستغفار وهو يريد أن يعذبه . وقال الفضيل : قول العبد « أستغفر الله » تفسيرها : أقتنى . وقال بعض العلماء : العبد بين ذنب ونعمة لا يصلحهما إلا الحمد والاستغفار . وقال الربيع بن خيثم رحمه الله : لا يقولن أحدكم أستغفر الله وأتوب إليه فيكون ذبياً وكذبا إن لم يفعل ؟ ولكن ليقل : اللهم اغفرلى وتب على . وقال الفضيل رحمه الله : الاستغفار بلا إقلاع توبة الكذابين : وقالت رابعة العدوية رحمها الله : استعمارنا يحتاج إلى استعمار كثير . وقال بعض الحكماء : من قدم الاستغفار على الندم كان مستهتراً بالله عز وجل وهو لا يعلم . وسمع أعرابي وهو متعلق بأستار الكعبة يقول : اللهم إن استعمارى مع إصرارى للؤم وإن تركى استغفارك مع علمى بسعة عفوك لعجز ، فكم تتعجب إلى بالنعم مع غناك عنى وكم أتبغض إليك بالمعاصى مع فقرى إليك يا من إذا وعد وفى وإذا أوعد عفا أدخل عظيم جرمى فى عظيم عفوك يا أرحم الراحمين . وقال أبو عبد الله الوراق : لو كان عليك مثل عدد القطر وزبد البحر ذنوباً لحيت عنك إذا دعوت ربك بهذا الدعاء ملخصاً إن شاء الله تعالى « اللهم إنى أستغفرك من كل ذنب تبت إليك منه ثم عدت فيه وأستغفرك من كل ما وعدتكم به من نفسى ولم أوف لك به وأستغفرك من كل عمل أردت به وجهك فخالطه غيرك وأستغفرك من كل نعمة أنعمت بها على فاستغنت بها على معصبتك وأستغفرك يا عالم الغيب والشهادة من كل ذنب أتيتته فى ضياء النهار وسواد الليل فى ملاء أو إخلاء وسر وعلائية يا حلیم . ويقال إنه استغفار آدم عليه والسلام وقيل الخضر عليه الصلاة والسلام .

الباب الثالث : فى أدعية مأثورة ومعزية إلى أسبابها وأربابها مما يستحب

أن يدعو بها المرء صباحا ومساء ويعقب كل صلاة

فإنها : دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ركعتى الفجر قال ابن عباس رضى الله عنهما . بعثنى العباس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنتهت ممسياً وهو فى بيت خالتي ميمونة فقام يصلى من الليل فلما صلى ركعتى الفجر قبل صلاة الصبح قال « اللهم إنى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى وتجمع بها شملى وتلم بها شعئى وترد بها الفتن عى وتصلح بها دينى وتحفظ بها غائبى وترفع بها شاهدى وترزق بها عملى وتبيض بها وجهى وتلهمى بها رشدى وتعصمى بها من كل سوء . اللهم أعطنى إيماناً صادقاً ويقيناً ليس بعده كفر ورحمة أنال بها شرف كرامتك فى الدنيا والآخرة . اللهم إنى أسألك الفوز عند القضاء ومنازل الشهداء وعيش السعداء والنصر على الأعداء ومرافقة الأنبياء . اللهم إنى

= رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ألا أعلمك كلمات تقولن لو كان عليك كمد الحمل - أو كمد النثر - ذنوب عمرها الله لك فذكره بزيادة « لا إله إلا أنت » فى أوله وبيه ابن لهيعة . (١) حديث « أفضل الاستعمار اللهم أنت ربى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ... الحديث » أخرجه البخارى من حديث شداد بن أوس دون قوله « وقد ظلمت نفسى واعترفت بذنبي » ودون قوله « ذنوبى ما قدمت منها وما أخرت » ودون قوله « جميعاً » .

أنزل بك حاجتي وإن ضعف رأبي وقلت حيلتي وقصر عملي وافتقرت إلى رحمتك فأسألك يا كافي الأمور ويا شافي الصدور كما تجير بين البحور أن تجيرني من عذاب السعير ومن دعوة الثبور ومن فتنة القبور . اللهم ما قصر عنه رأبي وضعف عنه عملي ولم تبلغه نيتي وأمنيته من خير وعدته أحدا من عبادك أو خير أنت معطيه أحدا من خلقك فأني أرغب إليك فيه وأسألكه يارب العالمين . اللهم اجعلنا هادين مهتدين غير ضالين ولا مضلين حربا لأعدائك وسلما لأوليائك نجب بحبك من أطاعك من خلقك ونعادي بعداوتك خالفك من خلقك . اللهم هذا الدعاء وعليك الإجابة وهذا الجهد وعليك التكلان وإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ذى الحبل الشديد والامر الرشيد أسألك إلا من يوم الوعيد والجنة يوم الخلود مع المقرئين الشهود والركوع السجود الموفين بالعهود إنك رحيم ودود وأنت تفعل ما تريد . سبحان الذى لبس العز وقال به سبحان الذى تعطف بالمجد وتكرم به سبحان الذى لا ينبغى التسبيح إلا له سبحان ذى الفضل والنعم سبحان ذى العزة والكرم سبحان الذى أحصى كل شيء بعلمه . اللهم اجعل لي نورا في قلبي ونورا في قبري ونورا في سمعي ونورا في بصري ونورا في شعري ونورا في بشرى ونورا في لحمي ونورا في دمي ونورا في عظامي ونورا من بين يدي ونورا من خلفي ونورا عن يميني ونورا عن شمالي ونورا من فوقي ونورا من تحتي . اللهم زدني نورا وأعطني نورا واجعل لي نورا (١) »

دعاء عائشة رضی الله عنها

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضی الله عنها « عليك بالجوامع الكوامل قولي اللهم إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم وأسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل وأسألك من الخير ما سألك عبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم وأستعينك بما استعاذك منه عبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم وأسألك ما قضيت لي من أمر أن تجعل عاقبته رشدا برحمتك يا أرحم الراحمين (٢) »

دعاء فاطمة رضی الله عنها

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا فاطمة ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به ؟ أن تقولي : يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث لا تسكني إلى نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كله

دعاء أبي بكر الصديق رضی الله عنه

علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق رضی الله عنه أن يقول اللهم إني أسألك بمحمد نبيك وإبراهيم خليلك وموسى نبيك وعيسى كلبتك وروحك وبتوراة موسى وإنجيل عيسى وزبور داود وفرقان محمد صلى الله عليه وسلم

الباب الثالث : في أدعية مأثورة

(١) حديث ابن عباس « اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي وتجمع بها شملتي وتلم بها شعبي ... الحديث » أخرجه الترمذي وقال غريب ولم يذكر في أوله : بعث العباس لابنه عبد الله ولا نومه في بيت ميمونة ، وهو بهذه الزيادة في الدعاء للطبراني .
(٢) حديث قوله لعائشة « عليك بالجوامع الكوامل قولي : اللهم إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم ... الحديث » أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه من حديثها (٣) حديث « يا فاطمة ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به أن تقولي يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث لا تسكني إلى نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كله » أخرجه النسائي في اليوم والليل والحاكم من حديث أنس وقال صحيح على شرط الشيخين .

وعليهم أجمعين وبكل وحى أوحيته أو قضاء قضيته أو سائل أعطيته أو غنى أفقرته أو فقير أغنيته أو ضال هديته وأسألك باسمك الذى أنزلته على موسى صلى الله عليه وسلم وأسألك باسمك الذى بثت به أرزاق العباد وأسألك باسمك الذى وضعت على الأرض فاستقرت وأسألك باسمك الذى وضعت على السموات فاستقلت وأسألك باسمك الذى وضعت على الجبال فرست وأسألك باسمك الذى استقل به عرشك وأسألك باسمك الطاهر الطاهر الأحد الصمد الوتر المنزل فى كتابك من لدنك من النور المبين وأسألك باسمك الذى وضعت على النهار فاستنار وعلى الليل فأظلم وبعظمتك وكبريائك وبنور وجهك الكريم أن ترزقنى القرآن والعلم به وتخططه بلحمى ودى وسمعى وبصرى وتستعمل به جسدى بحولك وقوتك فإنه لا حول ولا قوة إلا بك يا أرحم الراحمين (١) .

دعاء بريدة الأسلمى رضى الله عنه

وروى أنه قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا بريدة ألا أعلمك كلمات من أراد الله به خيراً علمهن إياه ثم لم يذهبن إياه أبداً قال : فقلت بلى يا رسول الله قال قل : اللهم إني ضعيف فقو في رضاك ضعيف وخذنى إلى الخير بناصيتي واجعل الإسلام منتهى رصاى ، اللهم إني ضعيف فقوئى وإني ذليل فأعزنى وإني فقير فأغنى يا أرحم الراحمين (٢) » .

دعاء قبيصة بن المخارق

إذا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم « علمنى كلمات ينفعنى الله عز وجل بها فقد كبر سنى وعجزت عن أشياء كثيرة كنت أعملها فقال عليه السلام : أما لدنياك فإذا صليت الغداة فقل ثلاث مرات سبحان الله وبمحمده سبحان الله العظيم لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فإنك إذا قلتين أمنت من الغم والجذام والبرص والفالج . وأما لآخرتك فقل : اللهم أهدنى من عندك وأفض على من فضلك وانشر على من رحمتك وأنزل على من بركاتك . ثم قال صلى الله عليه وسلم : أما إنه إذا وافى بهن عبد يوم القيامة لم يدعهن فتح له أربعة أبواب من الجنة يدخل من أيها شاء (٣)

دعاء أبي الدرداء رضى الله عنه

قيل لأبي الدرداء رضى الله عنه : قد احترقت دارك - وكانت النار قد وقعت فى محلته - فقال ما كان الله ليفعل ذلك ، فقيل له ذلك ثلاثاً وهو يقول : ما كان الله ليفعل ذلك . ثم أتاه آت فقال : يا أبا الدرداء إن النار حين دنت من دارك طفئت ، قال . قد علمت ذلك ، فقيل له : ما ندرى أى قوليك أعجب ؟ قال : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من يقول هؤلاء الكلمات فى ليل أو نهار لم يضره شيء وقد قلتين وهى « اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن أعلم أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً . اللهم إني أعوذ بك من شر نفسى

(١) حديث « علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبى بكر الصديق رضى الله عنه أن يقول اللهم إني أسألك بمحمد نبيك وإبراهيم خليلك وموسى محبك وعيسى كلمتك ... الحديث » فى الدعاء لحفظ القرآن رواه أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب التواتر من رواية عبد الملك بن هارون بن عبثرة عن أبيه « أن أبى بكر أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال إني أتعلم القرآن ودفلت مى » فذكره وعند الملك وأبوه صعبان وهو منقطع بن هارون وأبى بكر . (٢) حديث « يا بريدة ألا أعلمك كلمات من أراد الله به خيراً علمهن إياه .. الحديث » أخرجه الحاكم من حديث بريدة وقال صحيح الإسناد (٣) حديث « إن قبيصة بن المخارق قال الرسول الله صلى الله عليه وسلم علمى كلمات ينفعنى الله بها فقد كبرت سنى وعجزت ... الحديث » أخرجه ابن السنن فى اليوم والليلة من حديث ابن عباس وهو عند أحمد فى المسند مختصراً من حديث قبيصة نفسه وفيه رجل لم يسم

ومن شر كل دابة أنت أخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم (١) .

دعاء الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام

كان يقول إذا أصبح : اللهم إن هذا خلق جديد فافتحه على بطاعتك واختمه لي بمغفرتك ورضوانك وارزقني فيه حسنة تقبلها مني وزكها وضعفها لي وما عملت فيه من سيئة فاغفرها لي إنك غفور رحيم ودود كريم . قال : ومن دعا بهذا الدعاء إذا أصبح فقد أدى شكر يومه .

دعاء عيسى عليه الصلاة والسلام

كان يقول . اللهم إني أصبحت لأستطيع دفع ما أكره ولا أملك نفع ما أرجو وأصبح الأمر بيد غيري وأصبحت مرتها بعملي فلا فقير أفقر مني . اللهم لا تشمت بي عدوى ولا تسؤ بي صديق ولا تجعل مصيبتى في ديني ولا تجعل الدنيا أكبر همي ولا تسلط على من لا يرحمني يا حي يا قيوم .

دعاء الخضر عليه السلام

يقال : إن الخضر وإلياس عليهما السلام إذا التقيا في كل موسم لم يفترقا إلا عن هذه الكلمات « بسم الله ماشاء الله لا قوة إلا بالله ما شاء الله كل نعمة من الله ماشاء الله الخير كله بيد الله ماشاء الله لا يصرف السوء إلا الله ، فمن قالها ثلاث مرات إذا أصبح أمن من الحرق والغرق والسرق إن شاء الله تعالى .

دعاء معروف الكرخي رضي الله عنه

قال محمد بن حسان ؛ قال لي معروف الكرخي رحمه الله ألا أعلمك عشر كلمات خمس للدنيا وخمس للآخرة من دعا الله عز وجل بهن وحده الله تعالى عندهن : قلت . اكتسبها لي قال لا . ولكن أرددها عليك كما رددتها على بكر بن خنيس رحمه الله حسبي الله لديني حسبي الله لديناي حسبي الله الكريم لما أهمني حسبي الله الحلیم القوى لمن بغى على حسبي الله الشديد لمن كادني بسوء حسبي الله الرحيم عند الموت حسبي الله الرؤوف عند المسألة في القبر حسبي الله الكريم عند الحساب حسبي الله اللطيف عند الميزان حسبي الله القدير عند الصراط حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ، وقد روى عن أبي الدرداء أنه قال « من قال في كل يوم سبع مرات (فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) كفاه الله عز وجل ما أهمه من أمر آخرته صادقا كان أو كاذبا ، .

دعاء عتبة الغلام

وقد رأى في المنام بعد موته فقال : دخلت الجنة بهذه الكلمات ، اللهم يا هادي المضلين ويا راحم المذنبين ويا مقبل عثرات العائرين أرحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم أجمعين واجعلنا مع الأخيار المرزوقين الذين أنعمت عليهم من التبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين آمين يا رب العالمين .

دعاء آدم عليه الصلاة والسلام

قالت عائشة رضي الله عنها : لما أراد الله عز وجل أن يتوب على آدم صلى الله عليه وسلم طاف بالبيت سبعا

(١) حديث « قيل لأبي الدرداء : أحرققت دارك فقال ما كان الله ليعمل ذلك ... الحديث » أخرجه الطبراني في الدعاء من حديث أبي الدرداء ضيف .

وهو يومئذ ليس بمبني ربوة حراء ثم قام فصلى ركعتين ثم قال « اللهم إنك تعلم سرى وعلانيتي فاقبل معذرتي وتعلم حاجتي فأعطني سؤلي وتعلم ماى نمسى فأغفر لى ذنوبى . اللهم إنى أسألك لإيماناً يباشر قلبى ويقينا صادقا حتى أعلم أنه لن يصيبنى إلا ما كتبته على والرضا بما قسمته لى ياذا الجلال والإكرام ، فأوحى الله عز وجل إليه إنى قد غفرت لك ولم يأتى أحد من ذريتك فيدعونى بمثل الذى دعوتى به لإغفرت له وكشفت غمومه وهمومه ونزعت العقر من بين عينيه واتجرت له من وراء كل تاجر وجاءته الدنيا وهى راغمة وإن كان لا يريدتها .

دعاء على بن أبى طالب رضى الله عنه

رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الله تعالى يمجده نفسه كل يوم ويقول : إنى أنا الله رب العالمين . إنى أنا الله لا إله إلا أنا الحى القيوم . إنى أنا الله لا إله إلا أنا العلى العظيم . إنى أنا الله لا إله إلا أنا لم ألد ولم أولد إنى أنا الله لا إله إلا أنا العفو الغفور . إنى أنا الله لا إله إلا أنا مبدئ كل شىء وإلى يعود العزيز الحكيم الرحمن الرحيم مالك يوم الدين خالق الخير والشر خالق الجنة والنار الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يتخذ صاحبة ولا ولدا العرد الوتر عالم الغيب والشهادة الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الكبير المتعال المقننر القهار الحليم الكريم أهل الشاء والمجد أعلم السر وأخفى القادر الرزاق فوق الخلق والخليقة (١) ، وذكر قبل كل كلمة « إنى أنا الله لا إله إلا أنا ، كما أوردناه فى الأول فمن دعا بهذه الاسماء فليقل « إنى أنت الله لا إله إلا أنت كذا وكذا » فمن دعا بهن كتب من الساجدين الخجيتين الذين يجاورون محمداً وإبراهيم وموسى وعيسى والتبيين صلوات الله عليهم فى دار الجلال . وله ثواب العابدين فى السموات والأرضين وصلى الله على محمد وعلى كل عبد مصطفى .

دعاء ابن المعتز وهو سليمان التيمى وتسبيحاته رضى الله عنه

روى أن يونس بن عبيد رأى رجلا فى المنام من قتل شهيدا ببلاد الروم فقال : ما أفضل ما رأيت ثم من الأعمال ؟ قال : رأيت تسبيحات ابن المعتز من الله عز وجل بمكان وهى هذه « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم عدد ما خلق وعدد ما هو خالق وزنة ما خلق وزنة ما هو خالق وملء ما خلق وملء ما هو خالق وملء سمواته وملء أرضه ومثل ذلك وأضعاف ذلك وعدد خلقه وزنة عرشه ومنتهى رحمة ومداد كلماته ومبلغ رضاه حتى يرضى وإذا رضى وعدد ما ذكره به خلقه فى جميع ماضى وعدد ما هم ذا كروه فيما بقى فى كل سنة وشهر وجمعة ويوم وليلة وساعة من الساعات وشم ونفس من الأنفاس وأبد من الآباد من أبد إلى أبد أبد الدنيا وأبد الآخرة وأكثر من ذلك لا ينقطع أوله ولا ينشد آخره ، .

دعاء إبراهيم بن آدم رضى الله عنه

روى إبراهيم بن بشار خادمه : أنه كان يقول هذا الدعاء فى كل يوم جمعة إذا أصبح وإذا أمسى « مرحبا بيوم المرید والصبح الجديد والكاتب والشهيد يومنا هذا يوم عيد اكتب لنا فيه ما نقول بسم الله الحميد الحميد الرفيع الودود الفعال فى خلقه ما يريد أصبحت بالله مؤمنا وبلقاته مصدقا وبمجته معترفا ومن ذنبى مستغفرا ولربوبية الله خاضعا

(١) حديث على « إن الله تعالى يمجده نفسه كل يوم فيقول لنى أنا الله رب العالمين لنى أنا الله لا إله إلا أنا الحى القيوم .. الحديث » بطوله لم أجده أصلا .

ولسوى الله في الآلهة جاحداً وإلى الله فقيراً وعلى الله متكللاً وإلى الله منيباً أشهد الله وأشهد ملائكته وأنبياءه ورسوله وحمة عرشه ومن خلقه ومن هو خالقه بأنه هو الله الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم تسليماً وأن الجنة حق وأن النار حق والحوض حق والشفاعة حق ومنكراً وبكبراً حق ووعدهك حق ووعيدك حق ولقائك حق والساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور على ذلك أحياءاً وعليه أموت وعليه أبعث إن شاء الله . اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك اللهم من شر ما صنعت ومن شر كل ذي شر . اللهم إني ظلمت نفسي فأغفر لى ذنوبى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت واهدنى لأحسن الأخلاق فإنه لا يهدى لأحسنها إلا أنت واصرف عنى سيئها فإنه لا يصرف سيئها إلا أنت ليبيك وسعديك والخير كله بيدك أنا لك وإليك أستغفرك وأتوب إليك . آمنت اللهم بما أرسلت من رسول وآمنت اللهم بما أنزلت من كتاب وصلى الله على محمد النبي الأسمى وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً خاتم كلامى ومفتاحه وعلى أنبيائه ورسوله أجمعين آمين يارب العالمين . اللهم أوردنا حوض محمد واسقنا بكأسه مشرباً رويًا سائغاً هنياً لا نظماً بعده أبداً واحشرنا فى زمرة غير خزايا ولا ناكثين للعهد ولا مرتابين ولا مفتونين ولا مغضوب علينا ولا ضالين . اللهم اعصمنى من فتن الدنيا ووقفنى لما تحب وترضى وأصلح لى شأنى كله وثبتنى بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولا تضلنى وإن كنت ظالماً سبحانه ، سبحانه يا على يا عظيم يا بارئ يا رحيم يا عزيز يا حمار سبحانه من سبحته السموات بأكفائها وسبحان من سبحته له البحار بأمرائها وسبحان من سبحته له الجبال بأصدائها وسبحان من سبحته له الحيتان بلغاتها وسبحان من سبحته له النجوم فى السماء بأبراجها وسبحان من سبحته له الأشجار بأصولها وثمارها وسبحان من سبحته له السموات السبع والأرضون السبع ومن فهت ومن عليهن سبحانه من سبحته له كل شىء من مخلوقاته تباركت وتعاليت سبحانه ، سبحانه يا حى يا قيوم يا عليم يا حلیم سبحانه لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك نحي وتميت وأنت حى لا تموت بيدك الخير وأنت على كل شىء قدير .

الباب الرابع

فى أدعية مأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه رضى الله عنهم

مخدوفة الأسانيد منتخبة من جملة ما جمعه أبو طالب المكي وابن خزيمة وابن منذر رحمهم الله

يستحب للمرید إذا أصبح أن يكون أحب أوراده الدعاء - كما سيأتى ذكره فى كتاب الأوراد - فإن كنت من المریدين لحرث الآخرة المقتدين برسول الله صلى الله عليه وسلم فيما دعا به فقل فى مفتتح دعواتك (١) أعقاب صلواتك (٢) سبحان ربى الأعلى الوهاب لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير . وقل : رضيت بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً (٣) - ثلاث مرات - وقل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شىء ومليكه أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه (٤) وقل : اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى اللهم استر عوراتى وآمن روعاتى وأقل

الباب الرابع : فى أدعية مأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم

(١) حديث « افتتح الدعاء بسبحان ربى الأعلى الوهاب » تقدم فى الباب الثانى فى الدعاء (٢) حديث « القول عقب الصلوات لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير » متفق عليه من حديث المنيرة بن شعبة .

(٣) حديث « رضيت بالله ربا . . الحديث » تقدم فى الباب الأول من الأذكار (٤) حديث « اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شىء ومليكه أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه » =

عراقي واحفظني من بين يدي ومن خلقي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقی وأعوذ بك أن أغتال من تحتي (١) اللهم لا تؤمني مكرك ولا تولني غيرك ولا تنزع عني سترك ولا تنسني ذكرك ولا تجعلني من الغافلين (٢) وقل : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبي فأغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت (٣) - ثلاث مرات - وقل : اللهم عافني في بدني وعافني في سمعي وعافني في بصري لا إله إلا أنت (٤) - ثلاث مرات - وقل : اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك الكريم وشوقاً إلى لقائك من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة وأعوذ بك أن أظلم أو أظلم أو أعتدى أو يعتدى على أو أكسب خطيئة أو ذنبا لا تغفره (٥) اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة في الرشد وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك وأسألك قلبا خاشعا سليما وخالقا مستقيا ولسانا صادقا وعملا متقبلا وأسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم وأستغفرك لما تعلم فإنك تعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب (٦) اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني فإنك أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير وعلى كل غيب شهيد (٧) اللهم إني أسألك إيمانا لا يرتد ونعيا لا ينفذ وقرة عين الأبد ومرافقة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم في أعلى جنة الخلد (٨) اللهم إني أسألك الطيبات وفعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين أسألك حبك وحب من أحبك وحب كل عمل يقرب إلى حبك وأن تتوب علي وتغفر لي وترحمي وإذا أردت بقوم فتنة فأقبضني إليك غير مفتون (٩) اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما كانت الحياة خيرا لي وتوفى ما كانت الوفاة خيرا لي أسألك خشيتك في الغيب والشهادة وكلمة العدل في الرضا والغضب والقصد في الغنى والفقر ولذة النظر إلى وجهك والتسوق إلى لقائك وأعوذ بك من ضراء مضرة وفتنة مضلة . واللهم زينا

= أخرجه أبو داود والترمذي وصححه وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أنى هريرة « أن أبابكر الصديق قال : يارسول الله صرني بكلمات أقولهن إذا أصححت وإذا أمسيت قال قل اللهم « فذكره (١) حديث « اللهم إني أسألك العافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي اللهم استر عورتى وآمن روعتى وأقل عثرتي واحفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقى وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي » أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم من حديث ابن عمر « قال لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يدع هؤلاء الكلمات حين يمسي وحين يصبح » (٢) حديث « اللهم لا تؤمني مكرك ولا تولني غيرك ولا ترفع عني سترك ولا تنسني ذكرك ولا تجعلني من الغافلين » رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس دون قوله « ولا تولني غيرك » ولإسناده ضعيف (٣) حديث « اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبي فأغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » أخرجه البخارى من حديث شداد بن أوس وقد تقدم (٤) حديث « اللهم عافني في بدني وعافني في سمعي وعافني في بصري لا إله إلا أنت - ثلاث مرات - » أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة من حديث أبي بكره وقال النسائي جعفر بن ميمون ليس بالقوى (٥) حديث « اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء .. الحديث » لى قوله « أو ذنبا لا يغفره » أخرجه أحمد والحاكم من حديث زيد بن ثابت في أثناء حديث وقال صحيح الإسناد (٦) حديث « اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد ... الحديث » لى قوله « وأنت علام الغيوب » أخرجه الترمذي والنسائي والحاكم وصححه من حديث شداد بن أوس . قلت : بل هو منقطع وضعيف (٧) حديث « اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت ... الحديث » لى قوله « وعلى كل غيب شهيد » متفق عليه من حديث أنى موسى دون قوله « وعلى كل غيب شهيد » وقد تقدم في الباب الثاني من هذا الكتاب (٨) حديث « اللهم إني أسألك إيمانا لا يرتد ونعيا لا ينفذ وقرة عين الأبد ... الحديث » أخرجه النسائي في اليوم والليلة والحاكم من حديث عبد الله بن مسعود دون قوله « وقرة عين الأبد » وقال صحيح الإسناد والنسائي من حديث عمار بن ياسر باسناد جيد « وأسألك نعيا لا يبيد وقرة عين لا تنقطع » (٩) حديث « اللهم إني أسألك الطيبات وفعل الخيرات » الحديث . الحديث « لى قوله غير مفتون » أخرجه الترمذي من حديث ماذا « اللهم إني أسألك فعل الخيرات ... الحديث » وقال حسن صحيح ولم يذكر « الطيبات » وهي في الدعاء، للطبراني من حديث عبد الرحمن بن عايش وقال أبو حاتم ليست له صحبة

برينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين (١) اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا والآخرة (٢) اللهم املاً وحوها منك حياء وقلوبنا منك فرقا واسكن في نفوسنا من عظمتك ما تذلل به حوارنا لخدمتك واجعلك اللهم أحب إلينا من سواك واجعلنا أخشى لك ممن سواك (٣) اللهم اجعل أول يومنا هذا صلاحاً وأوسطه فلاحاً وآخره نجاحاً اللهم اجعل أوله رحمة وأوسطه نعمة وآخره تكريمة ومغفرة (٤) الحمد لله الذى تواضع كل شيء لعظمته وذل كل شيء لعزته وخضع كل شيء للملكة واستسلم كل شيء لقدرته والحمد لله الذى سكن كل شيء لهيبته وأطهر كل شيء بحكمته وتصاغر كل شيء لكبريائه (٥) اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأزواج محمد وذريته وبارك على محمد وعلى آل محمد وعلى آل إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد (٦) اللهم صلى على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمي رسولك الأمين وأعطه المقام المحمود الذى وعدته يوم الدين (٧) اللهم اجعلنا من أوليائك المتقين وحزبك المفلحين وعبادك الصالحين واستعملنا لمرضاة ربنا ووفقنا لمجالسنا وصرفنا بحسن اختيارك لنا (٨) نسألك جوامع الخير وفوائده وخواتمه ونعوذ بك من جوامع الشر وفوائده وخواتمه (٩) اللهم بقدرتك على تب على إنك أنت التواب الرحيم وبجلمك على اعف عنى إنك أنت الغفار الحليم وبعلمك بى أرفق بى إنك أنت أرحم الراحمين وبملكك لى ملكنى نفسى ولا تسلمها على إنك أنت الملك الجبار (١٠) سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءاً وظلمت نفسى فأغفر لى ذنبى إنك أنت ربى ولا يغفر الذنوب إلا أنت (١١) اللهم ألهمنى رشدى وفقى شر نفسى (١٢) اللهم ارزقنى حلالاً لا تعاقبنى عليه وقمى مما رزقتنى

(١) حديث « اللهم انى أسألك بملك العيب وقدرتك على الخلق أحببى ما كانت الحياة خيراً لى .. الحديث » الى قوله « واجعلنا هداة مهتدين » أخرجه النسائى والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث عمار بن ياسر « قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو به » (٢) حديث « اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك .. الحديث » أخرجه الترمذى وقال حسن والنسائى فى اليوم والليلة والحاكم وقال صحيح على شرط البخارى من حديث ابن عمر « أن ابي صلى الله عليه وسلم كان يجتم بجملة بذلك » (٣) حديث « اللهم املاً وحوها منك حياء وقلوبنا بك فرقا .. الحديث » الى قوله « واجعلنا أخشى لك من سواك » لم أقف له على أصل (٤) حديث « اللهم اجعل أول يومنا هذا صلاحاً وأوسطه فلاحاً وآخره نجاحاً اللهم اجعل أوله رحمة وأوسطه نعمة وآخره تكريمة » أخرجه عبد بن حميد فى المنتخب والطبرانى من حديث ابن أوى بالشرط الأول فقط الى قوله « نجاحاً » واسناده ضعيف .

(٥) حديث « الحمد لله الذى تواضع كل شيء لعظمته وذل كل شيء لعزته .. الحديث » الى قوله « وتصاغر كل شيء لكبريائه » أخرجه الطبرانى من حديث ابن عمر بسند ضعيف دون قوله « والحمد لله الذى سكن كل شيء لهيبته » الى آخره وكذلك رواه فى الدعاء من حديث أم سلمة وسنده ضعيف أيضاً (٦) حديث « اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته .. الحديث » الى قوله « حميد مجيد » تقدم فى الباب الثانى (٧) حديث « اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك الى الامي رسول الاميين وأعطه المقام المحمود يوم الدين » لم أجده بهذا اللفظ مجموعاً والبخارى من حديث أبى سعيد « اللهم صل على محمد عبدك ورسولك » وابن حبان والدارقطنى والحاكم والبيهقى من حديث ابن مسعود « اللهم صل على محمد الى الامي » والنسائى من حديث حابر « وابنه المقام المحمود الذى وعدته » وهو عند البخارى بلفظ « وابنه مقاماً محمداً » قال الدارقطنى لسانه حسن وقال الحاكم صحيح وقال البيهقى فى المعرفة لسانه صحيح (٨) حديث « اللهم اجعلنا من أوليائك المتقين وحزبك المفلحين .. الحديث » الى قوله « صرفنا بحسن اختيارك لنا » لم أقف له على أصل (٩) حديث « نسألك جوامع الخير وفوائده وخواتمه ونعوذ بك من جوامع الشر وفوائده وخواتمه » أخرجه الطبرانى من حديث أم سلمة « أنه كان يدعو بهؤلاء الكلمات » فذكر منها « اللهم لى أسألك فوائده الخير وخواتمه وأوله وآخره وطاهره وباطنه والدرجات العلى من الجنة آمين » فيه عاصم بن عبيد لأعلم روى عنه إلا موسى ابن عبيدة (١٠) حديث « اللهم بقدرتك على تب على إنك أنت التواب الرحيم وبجلمك على اعف عنى .. الحديث » الى قوله « إنك الملك الجبار » لم أقف له على أصل (١١) حديث « سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءاً وظلمت نفسى فأغفر لى ذنبى أنت ربى لأنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » أخرجه البيهقى فى الدعوات من حديث على بن موسى « ذنبى إنك أنت ربى » وقد تقدم فى الباب الثانى (١٢) حديث « اللهم ألهمنى رشدى وفقى شر نفسى » أخرجه الترمذى من حديث عمران بن حصين =

واستعلمني به صالحا تقبله مني (١) اللهم إني أسألك العفو والعافية وحسن اليقين والمعافاة في الدنيا والآخرة (٢) يامن لا تضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة هب لي مالا يضرك وأعطني مالا ينقصك ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين . أنت وليي في الدنيا والآخرة توفي مسلماً وألحقني بالصالحين . أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين . واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك . ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير . ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين . ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم . ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم . ربنا آتتنا من لذكرك رحمة وهي لنا من أمرنا رشداً . ربنا آتتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقتنا عذاب النار . ربنا إنا سمعنا منادياً ينادي للإيمان - إلى قوله عز وجل - إنك لا تخلف الميعاد . ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا - إلى آخر السورة (٣) - رب اغفر لي ولوالدي وارحمهما كما ربياني صغيراً . واغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات (٤) رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم وأنت الأعز الأكرم وأنت خير الراحمين وأنت خير الغافرين وإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على محمد خاتم النبيين وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً (٥) .

أنواع الاستعاذة المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم

اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمر وأعوذ بك من فتنة الدنيا وأعوذ بك من عذاب القبر (٦) اللهم إني أعوذ بك من طبع يهدي إلى طمع ومن طمع في غير مطمع ومن

= « أن النبي صلى الله عليه وسلم علمه الحصر » وقال حسن عريب ورواه النسائي في اليوم والليلة والحاكم من حديث حصين والدمعمران وقال صحيح على شرط الشيخين (١) حديث « اللهم ارحمني حلالاً لا تهاقني وبه وقعي بمسارقتي واستعلمي به صالحاً تقبله مني » أخرجه الحاكم من حديث ابن عباس « كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو اللهم قنني بما رزقتني وبارك لي فيه وأخلف على كل غائبة لي بخير » وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٢) حديث « اللهم إني أسألك العفو والعافية والمعافاة وحسن اليقين في الدنيا والآخرة » أخرجه النسائي من حديث أبي بكر الصديق « لفظ « سلوا الله المأفأة فإنه لم يؤت أحد بعد اليقين خيراً من المأفأة » وفي رواية للبيهقي « سلوا الله العفو والعافية واليقين في الأولى والآخرة فإنه ما أوتي المبد بعد اليقين خيراً من العافية » وفي رواية لأحمد « أسأل الله العفو والعافية » (٣) حديث « يامن لا تضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة هب لي مالا يضرك وأعطني مالا ينقصك » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث علي بن سعيد (٤) حديث « رب اغفر لي ولوالدي وارحمهما كما ربياني صغيراً واغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات » أخرجه أبو داود وابن ماجه بإسناد حسن من حديث أبي أسيد الساعدي « قال رجل من بني سلمة هل تقى على من برأبوى شيء ؟ قال نعم الصلاة عليهما والاستغفار لهما ... الحديث » ولأبي الشيخ ابن حبان في الثواب والمستغفر في الدعوات من حديث أنس « من استغفر للمؤمنين والمؤمنات رد الله عليه عن كل مؤمن مؤمنة من أول الدهر أو هو كاشى بل يوم القيامة » وسنده ضعيف وصحيح ابن حبان من حديث أبي سعيد « أيما رجل مسلم لم يكن عنده صدقة فليقل في دعائه اللهم صل على محمد عبدك ورسولك وصل على المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات فإنها زكاة » (٥) حديث « رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم وأنت الأعز الأكرم وأنت خير الراحمين وخير الغافرين » أخرجه أحمد من حديث أم سلمة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول رب اغفر وارحم واهدني السبل الأقوم » وفيه علي بن زيد بن جدعان مختلف فيه ، وللطبراني في الدعاء من حديث ابن مسعود « أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول لهذا سعى في بطن المسيل اللهم اغفر وارحم وأنت الأعز الأكرم » وفيه لبيد بن أبي سليم مختلف فيه ورواه موقفاً عليه بسند صحيح (٦) حديث « اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمر وأعوذ بك من فتنة الدنيا وأعوذ بك من عذاب القبر » أخرجه البخاري من حديث سعيد بن أبي وقاص .

طمع حيث لا مطمع ^(١) اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ودعاء لا يسمع ونفس لا تشبع .
وأعوذ بك من الجوع فإنه بثس الضجيج ومن الحبابة فإنها بثست البطانة ومن الكسل والبخل والجبن والهرم ومن
أن أرد إلى أرذل العمر ومن فتنة الدجال وعذاب القبر ومن فتنة المحيا والمات . اللهم إنا نسألك قلباً أواهة مخبئة
منية في سبيلك . اللهم إني أسألك عزائم مغفرتك وموجبات رحمتك والسلامة من كل إثم والغنيمة من كل بر
والفوز بالجنة والنجاة من النار ^(٢) . اللهم إني أعوذ بك من السردى وأعوذ بك من الغم والفرق والهدم وأعوذ بك
من أن أموت في سبيلك مدبراً وأعوذ بك من أن أموت في تطلب الدنيا ^(٣) اللهم إني أعوذ بك شر ما علمت
ومن شر ما لم أعلم ^(٤) . اللهم جنبني منكرات الأخلاق والأعمال والأدواء والأهواء ^(٥) . اللهم إني أعوذ بك
من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء ^(٦) اللهم إني أعوذ بك من الكفر والدين والفقر
وأعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من فتنة الدجال ^(٧) اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي وبصري وشر لساني
وقلبي وشر مني ^(٨) . اللهم إني أعوذ بك من جار السوء في دار المقامة فإن جار البادية يتحول ^(٩) . اللهم إني
أعوذ بك من القسوة والغفلة والعيلة والذلة والمسكنة وأعوذ بك من الكفر والفقر والفسوق والشقاق والتفاق
وسوء الأخلاق وضيق الأرزاق والسمعة والرياء وأعوذ بك من الصمم والبكم والعمى والجذام والبرص
وسوء الإسقام ^(١٠) اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك ومن تحول عافيتك ومن فجأة نعمتك ومن جميع سخطك ^(١١)
اللهم إني أعوذ بك من عذاب النار وفتنة النار وعذاب القبر وفتنة القبر وشر فتنة الغنى وشر فتنة الفقر وشر فتنة

(١) حديث « اللهم اني أعوذ بك من طبع يهدى الى طبع وطبع في غير مطمع ومن طمع حيث لا مطمع » أخرجه أحمد
والحاكم من حديث معاذ وقال مستقيم الإسناد .

(٢) حديث « اللهم اني أعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ودعاء لا يسمع ... الحديث » الى قوله « والنجاة من النار »
أخرجه الحاكم من حديث ابن مسعود وقال صحيح الإسناد وليس كما قال إلا أنه ورد مرفقاً في أحاديث جيدة الأسانيد

(٣) حديث « اللهم اني أعوذ بك من التردى وأعوذ بك من الغم ... الحديث » الى قوله وأعوذ بك من أن أموت في تطلب
الدنيا « أخرجه أبو داود والنسائي والحاكم وصحح اساده من حديث أبي اليسر واسمه كتب من عمر بزيادة فيه دون قوله « وأعوذ
بك من أن أموت في تطلب دنيا » وتقدم من عبد الجباري الاستعاذة من فتنة الدنيا . (٤) حديث « اللهم اني أعوذ بك من شر
ما علمت ومن شر ما لم أعلم » قلت : هكذا في غير نسخة « علمت » واعما هو « عملت ، وأعمل » كذا رواه مسلم من حديث
عائشة ولأبي بكر بن الضحاک في الضحاک في حديث مرسل في الاستعاذة وفيه « وشر ما لم أعلم وشر ما لم أعلم » .

(٥) حديث « اللهم جنبني منكرات الأخلاق والأعمال والأدواء والأهواء » أخرجه الترمذى وحسنه الحاكم وصححه واللفظ

له من حديث قطبة بن مالك . (٦) حديث « اللهم اني أعوذ بك من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء »

متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٧) حديث « اللهم اني أعوذ بك من الكفر والدين والفقر وأعوذ بك من عذاب جهنم

وأعوذ بك من فتنة الدجال » أخرجه النسائي والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله

عليه وسلم « أنه كان يقول من الكفر والدين » وفي رواية للنسائي « من الكفر والفقر » ولمسلم من حديث أبي هريرة عن النبي

صلى الله عليه وسلم « أنه كان يتعوذ من عذاب القبر وعذاب جهنم وفتنة الدجال » وللشيخين من حديث عائشة في حديث قال فيه

« ومن شر فتنة المسيح الدجال » . (٨) حديث « اللهم اني أعوذ بك من شر سمعي وشر لساني وقلبي وشر مني »

أخرجه أبو داود والنسائي والترمذى وحسنه الحاكم وصحح اساده من حديث سهل بن حميد . (٩) حديث « اللهم اني أعوذ بك

من جار السوء في دار المقامة فان جار البادية يتحول » أخرجه النسائي والحاكم من حديث أبي هريرة وقال صحيح على شرط مسلم

(١٠) حديث « اللهم اني أعوذ بك من القسوة والعملة والذلة والمسكنة وأعوذ بك من الكفر والفقر والفسوق والشقاق

والتفاق والسمعة والرياء وأعوذ بك من الصمم والبكم والجذام والبرص وسوء الإسقام » أخرجه أبو داود والنسائي

مقتصرين على الأمانة الأخيرة والحاكم يتأمله من حديث أسس وقال صحيح على شرط الشيخين .

(١٢) حديث « اللهم اني أعوذ بك من زوال نعمتك وتحول عافيتك وفجأة نعمتك ومن جميع سخطك » أخرجه مسلم من

حديث ابن عمر .

المسيح الدجال وأعوذ بك من المغرم والمأثم^(١) اللهم إني أعوذ بك من نفس لا تشبع وقلب لا يخشع وصلاة لا تنفع ودعوة لا تستجاب وأعوذ بك من شر الغم وفتنة الصدر^(٢) . اللهم إني أعوذ بك من غلبة الدين وغلبة العدو وشماتة الأعداء^(٣) وصلى الله على محمد وعلى كل عبد مصطفى من كل العالمين آمين .

الباب الخامس : في الأدعية المأثورة عند حدوث كل حادث من الحوادث

إذا أصبحت وممعت الأذان فيستحب لك جواب المؤذن وقد ذكرناه وذكرنا أدعية دخول الخلاء والخروج منه وأدعية الوضوء في كتاب الطهارة . فإذا خرجت إلى المسجد فقل « اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي لساني نوراً واجعل في سمعي نوراً واجعل في بصري نوراً واجعل خلقي نوراً وأمامي نوراً واحمل من فوق نوراً اللهم أعطني^(٤) نوراً ، وقل أيضاً : اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشأى هذا إليك^(٥) فإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك فأسألك أن تتقذني من النار وأن تغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، فإن خرجت من المنزل لحاجة فقل « بسم الله رب أعوذ بك أن أظلم أو أظلم أو أجمل أو يجمل علي^(٦) بسم الله الرحمن الرحيم لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم بسم الله التكلان على الله^(٧) ، فإذا انتهيت إلى المسجد تريد دخوله فقل « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وسلم اللهم اغفر لي جميع ذنوبي واقفح لي أبواب رحمتك^(٨) ، وقدم رجلك البيني في الدخول فإذا رأيت في المسجد من يبيع أو يبتاع فقل « لا أربح الله تجارتك^(٩) ، وإذا رأيت من ينشد ضالة في المسجد فقل « لا ردها الله عليك ، أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١٠) فإذا صليت ركعتي الصبح فقل « بسم الله اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي . . . السماء إلى آخره^(١١) »

(١) حديث « اللهم إني أعوذ بك من عذاب النار وفتنة النار وعذاب القبر وفتنة القبر وشر فتنة العنق وشر فتنة الفقر وشر فتنة المسيح الدجال وأعوذ بك من المأثم والمغرم » متفق عليه من حديث عائشة . (٢) حديث « اللهم إني أعوذ بك من نهم لا تشبع وقلب لا يخشع وصلاة لا تقع ودعوة لا تستجاب وأعوذ بك من سوء العمر وفتنة الصدر » أخرجه مسلم من حديث زيد بن أرقم في أثناء حديث « اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يشع ونفس لا تشبع وعمل لا يرفع ودعوة لا يستجاب لها وصلاة لا تنفع » وشك أبو المعتمر في سماعه من أسد والنسائي بإسناد جيد من حديث عمر في أثناء حديث « وأعوذ بك » وأبو داود من حديث أسد « اللهم إني أعوذ بك من سوء العمر وأعوذ بك من فتنة الصدر » . (٣) حديث « اللهم إني أعوذ بك من غلبة الدين وغلبة العدو وشماتة الأعداء » أخرجه النسائي والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو وقال صحيح على شرط مسلم .

الباب الخامس : في الأدعية المأثورة عند كل حادث من الحوادث

(٤) حديث « القول عند الخروج إلى المسجد اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي لساني نوراً ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن عباس . (٥) حديث « اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشأى هذا إليك ... الحديث » من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد حسن . (٦) حديث « القول عند الخروج من المنزل لحاجته بسم الله رب أعوذ بك أن أظلم أو أظلم أو أجمل أو يجمل علي » أخرجه أصحاب السنن من حديث أم سلمة قال الترمذي حسن صحيح . (٧) حديث « بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله التكلان على الله » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا خرج من منزله قال بسم الله » فذكره إلا أنه لم يقل « الرحمن الرحيم » وفيه ضعف . (٨) حديث « القول عند دخول المسجد اللهم صل على محمد اللهم اغفر لي ذنوبي واقفح لي أبواب رحمتك » أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث فاطمة ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الترمذي حسن وإسناد متصل لمسلم من حديث أبي حميد أو أبي أسيد « إذا دخل أحدكم المسجد فليقل اللهم افتح لي أبواب رحمتك » وزاد أبو داود في أوله « فليسلم على النبي صلى الله عليه وسلم » . (٩) حديث « القول إذا رأى من يبيع أو يبتاع في المسجد لأربح الله تجارتك » أخرجه الترمذي وقال حسن غريب والنسائي في اليوم والليلة من حديث أبي هريرة (١٠) حديث « القول إذا رأى من ينشد ضالة في المسجد لاردها الله عليك » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (١١) حديث ابن عباس في القول بعد ركعتي الصبح « اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي » الخ قد تقدم في الدعاء

كما أوردناه عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم فإذا ركعت فقل في ركوعك « اللهم لك ركعت
ولك خشعت وبك آمنت ولك أسلمت وعليك توكلت أنت ربى حسع سمعى وصرى ونخى وعظمى وعصبى
وما استقلت به قدمى لله رب العالمين ^(١) » وإن أحببت فقل « سبحان ربى العظيم - ثلاث مرات - ^(٢) » أو سبح
قدوس رب الملائكة والروح ^(٣) ، فإذا رفعت رأسك من الركوع فقل « سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد ملء
السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد لا مانع
لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد ^(٤) » وإذا سجدت فقل اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك
أسلمت سجد وجهى للذى خلقه وصوره وشق سمعه وبصره فتبارك الله أحسن الخالقين اللهم سجدتك سوادى وخیالى وآمن
بك فؤادى أبوء بنعمتك على وأبوء بذنبي وهذا ماجنيت على نفسى فاعف عني فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ^(٥) أو تقول
« سبحان ربى الأعلى - ثلاث مرات - ^(٦) » فإذا فرغت من الصلاة فقل « اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت
يا ذا الجلال والإكرام ^(٧) » وتدعو بسائر الأدعية التي ذكرناها . فإذا قمت من المجلس وأردت دعاء يكفر لغو المجلس
فقل « سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك عملت سوءا وطلت نفسى فاغفر لى
فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ^(٨) » فإذا دخلت السوق فقل « لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد
يحيى ويميت وهو حى لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير ^(٩) » بسم الله اللهم إني أسألك خير هذه السوق وخير
ما فيها اللهم إني أعوذ بك من شرها وشر ما فيها اللهم إني أعوذ بك أن أصيب فيها فيما فاجرة أو صفقة خاسرة ^(١٠) فإن كان
عليك دين فقل « اللهم أكفني بحلالك عن حرامك وأغنني بفضلك عن سواك ^(١١) » فإذا لبست ثوبا جديدا فقل
اللهم كسوتنى هذا الثوب فلك الحمد أسألك من خيره وخير ما صنع له وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له ^(١٢) » وإذا

- (١) حديث ابن عباس في القول في الركوع « اللهم لك ركعت ولك أسلمت ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث على
(٢) حديث القول فيه « سبحان ربى العظيم » ثلاثا أخرجه أبو داود والترمذى والبيهقى من حديث ابن مسعود وفيه انقطاع
(٣) حديث القول فيه « سبحان ربى الملائكة والروح » أخرجه مسلم من حديث عائشة
(٤) حديث القول عند الرفع من الركوع « سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث
أبي سعيد الخدرى وابن عباس دون قوله « سمع الله لمن حمده » فهو في اليوم واليلة للحسن بن على العمري وهو عند مسلم من
حديث ابن أبى أوفى وعند البخارى من حديث أبى هريرة (٥) حديث القول في السجود « اللهم لك سجدت ... الحديث »
أخرجه مسلم من حديث على « اللهم سجد لك سوادى وخیالى وآمن بك فؤادى أبوء بنعمتك على وأبوء بذنبي وهذا ماجنيت
على نفسى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » أخرجه الحاكم من حديث ابن مسعود وقال صحيح الإسناد وليس كما قال بل هو
ضعيف (٦) حديث « سبحان ربى الأعلى » ثلاثا أخرجه أبو داود والترمذى والبيهقى من حديث ابن مسعود وهو منقطع .
(٧) حديث القول إذا فرغ من الصلاة « اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام » أخرجه مسلم
من حديث ثوبان (٨) حديث « كسفاة المجلس سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت » أخرجه النسائى في اليوم
واليلة من حديث رافع بن خديج بإسناد حسن (٩) حديث القول عند دخول السوق « لا إله إلا الله وحده لا شريك له
له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير » من حديث عمر وقال غريب والحاكم وقال
صحيح على شرط الشيخين . (١٠) حديث « بسم الله اللهم إني أسألك خير هذه السوق وخير ما فيها اللهم إني أعوذ بك
من شرها وشر ما فيها اللهم إني أعوذ بك أن أصيب فيها فيما فاجرة أو صفقة خاسرة » أخرجه الحاكم من حديث بريدة وقال
أقربها للمرايط هذا الكتاب حديث بريدة . قلت فيه أبو هريرة جار لشعيب بن حرب ولعله حفص بن سليمان الأسدى يختلف فيه
(١١) حديث دعاء الدين « اللهم أكفني بحلالك عن حرامك وبفضلك عن سواك » أخرجه الترمذى وقال حسن غريب
والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث على بن أبى طالب (١٢) حديث الدعاء إذا لبس ثوبا جديدا « اللهم كسوتنى هذا الثوب
فلك الحمد أسألك من خيره وخير ما صنع له وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له » أخرجه أبو داود والترمذى وقال حسن
والنسائى في اليوم واليلة من حديث أبى سعيد الخدرى ورواه ابن السنى بلفظ المصنف .

رأيت شيئاً من الطيرة تكرهه فقل « اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يذهب بالسيئات إلا أنت لاجل ولا قوة إلا بالله ^(١) » ، وإذا رأيت الهلال فقل « اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان والبر والسلامة والإسلام والتوفيق لما تحب وترضى والحفظ عن تسخط ، ربى وربك الله ^(٢) » ، ويقول « هلال رشد وخير آمنت بحالقتك ^(٣) اللهم إني أسألك خير هذا الشهر وخير القدر وأعوذ بك من شر يوم الحشر ^(٤) » ، وتكبر قبله أولاً ثلاثاً . وإذا هبت الريح فقل « اللهم إني أسألك خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها ومن شر ما أرسلت به ^(٥) » ، وإذا بلغك وفاة أحد فقل « إنا لله وإنا إليه راجعون وإنا إلى ربنا لمنقلبون اللهم اكتبه في المحسنين واحمل كتابه في عليين واخلفه على عقبه في الغابرين اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده واغفر لنا وله ^(٦) » وتقول عند التصدق ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ وتقول عند الحسران ﴿ عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون ﴾ وتقول عند ابتداء الأمور ﴿ ربنا آتتنا من لدنك رحمة وهي لنا من أمرنا رشداً - رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري ﴾ وتقول عند النظر إلى السماء ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه فقتنا عذاب النار - تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً ﴾ وإذا سمعت صوت الرعد فقل ﴿ سبحانه من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ^(٧) ﴾ فإن رأيت الصواعق فقل « اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك ^(٨) » ، قاله كعب . فإذا أمطرت السماء فقل « اللهم سقيا هنيئاً وصيباً نافعاً ^(٩) » اللهم اجعله صيب رحمة ولا تجعله صيب عذاب ^(١٠) » ، فإذا غضبت فقل « اللهم اغفر لي ذنبي وأذهب غيظ قلبي

(١) حديث القول إذا رأى شيئاً من الطيرة يكرهه « اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يذهب بالسيئات إلا أنت لاجل ولا قوة إلا بالله » أخرجه ابن أبي شيبة وأبو نعيم في اليوم والليالي واليهيقي في الدعوات من حديث عروة بن عامر مرسلًا ورجاله ثقات وفي اليوم والليالي لابن السني عن عفة بن عامر لحفله مسنداً (٢) حديث « التكبير عند رؤية الهلال - ثلاثاً - ثم يقول : اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان والسلامة والإسلام ربى وربك الله » أخرجه الداريمى من حديث ابن عمر إلا أنه أطلق التكبير ولم يقل « ثلاثاً » ورواه الترمذى وحسنه من حديث طلحة بن عبيد الله دون ذكر التكبير واليهيقي في الدعوات من حديث قتادة مرسلًا « كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا رأى الهلال كره ثلاثاً » (٣) حديث « هلال خير ورشد آمنت بحالقتك » أخرجه أبو داود مرسلًا من حديث قتادة « أنه بلغه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى الهلال قال هلال خير ورشد هلال خير ورشد آمنت بالذي خلقك - ثلاث مرات - » وأسنده الدارقطنى في الأفراد والطبرانى في الأوسط من حديث أنس وقال أبو داود وليس في هذا عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث مسند صحيح (٤) حديث « اللهم إني أسألك خير هذا الشهر وخير القدر وأعوذ بك من شر يوم الحشر » أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد في مسنديهما من حديث عبادة بن الصامت وفيه من لم يسم بل قال الراوى عنه حدثني من لا الهيم (٥) حديث « القول إذا هبت الريح : اللهم إني أسألك خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به » أخرجه الترمذى وقال حسن صحيح والنسائى في اليوم والليالي من حديث أبي بن كعب (٦) حديث « القول إذا بلغه وفاة أحد لانا لله وإنا إليه راجعون وإنا إلى ربنا لمنقلبون اللهم اكتبه في المحسنين واجعله كتابه في عليين واخلفه على عقبه في الغابرين اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده واغفر لنا وله » أخرجه ابن السني في اليوم والليالي وابن حبان من حديث أم سلمة « إذا أصاب أحدكم مصيبة فليقل لانا لله وإنا إليه راجعون » وسلم من حديثها « اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين واخلفه في عقبه في الغابرين واغفر لنا وله يارب العالمين واسحله في قبره ونوره فيه .

(٧) حديث « القول إذا سمع صوت الرعد : سبحانه من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته » أخرجه مالك في الموطأ عن عبد الله بن الزبير موقوفًا ولم أجده مرصوعًا . (٨) حديث « القول عند الصواعق : اللهم لا تهلكنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك » أخرجه الترمذى وقال غريب والنسائى في اليوم والليالي من حديث ابن عمر وابن السني بإسناد حسن . (٩) حديث « القول عند المطر : اللهم سقيا هنيئاً وصيباً نافعاً » أخرجه البخارى من حديث عائشة « كان إذا رأى المطر قال : اللهم اجعله صيباً نافعاً » وابن ماجه « سيباً » بالسين أوله والنسائى في اليوم والليالي « اللهم اجعله صيباً هنيئاً » وأسادهما صحيح (١٠) حديث « اللهم اجعله صيب رحمة ولا تجعله صيب عذاب » أخرجه النسائى في اليوم والليالي من حديث سعيد بن المسيب مرسلًا .

وأجرني من الشيطان الرجيم (١) ، فإذا خفت قوما فقل « اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم (٢) » ، فإذا غزوت فقل « اللهم أنت عضدى ونصيرى وبك أقاتل (٣) » ، وإذا طنت أذنك فصل على محمد صلى الله عليه وسلم وقل « ذكر الله من ذكرنى بخير (٤) » ، فإذا رأيت استجابة دعائك فقل الحمد لله الذى بعزته وجلاله تم الصالحات ، وإذا أبطأت فقل « الحمد لله على كل حال (٥) » ، وإذا سمعت أذان المغرب فقل « اللهم هذا إقبال ليلىك وإدبار نهارك وأصوات دعائك وحضور صلواتك أسألك أن تغفر لى (٦) » ، وإذا أصابك هم فقل « اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك ماض فى حكك عدل فى قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزته فى كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء غمي وذهاب حزنى وهمى (٧) » ، قال صلى الله عليه وسلم « ما أصاب أحداً حزن فقال ذلك إلا أذهب الله همه وأبدله مكانه فرحاً فقيل له يا رسول الله أفلا نتعلمها ؟ فقال صلى الله عليه وسلم بل ينبغى لمن سمعها أن يتعلمها ، وإذا وجدت وجعاً فى جسدك أو جسد غيرك فارقه بريقة رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان إذا اشتكى الإنسان قرحة أو جرحاً وضع سبابة على الأرض ثم رفعها وقال بسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا يشفى سقيمنا بإذن ربنا (٨) » ، وإذا وجدت وجعاً فى جسدك فضع يديك على الذى يتألم من جسدك وقل « بسم الله - ثلاثاً - وقل سبع مرات : أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر (٩) » ، فإذا أصابك كرب فقل « لا إله إلا الله العلى الحليم لا إله إلا الله رب العرش العظيم لا إله إلا الله رب السموات السبع ورب العرش الكريم (١٠) » ، فإن أردت النوم فتوضأ أولاً ثم توسد على يمينك مستقبل القبلة ثم كبر الله تعالى أربعاً وثلاثين وسبجه ثلاثاً وثلاثين واحمده ثلاثاً وثلاثين (١١) ، ثم قل « اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك اللهم إني لا أستطيع أن أبلغ ثناء عليك ولو حرصت ولكن أنت كما أثبتت على نفسك (١٢) اللهم باسمك أحيا وأموت (١٣) اللهم رب السموات ورب الأرض ورب كل شئ ومليك فائق الحب والتوى ومنزل التوراة والإنجيل

(١) حديث « القول اذا عص : اللهم اغفر ذنبي وأذهب عيظ قلبي وأجرني من الشيطان الرجيم » أخرجه ابن السني في اليوم والليلية من حديث عائشة بسند ضعيف . (٢) حديث « القول اذا خاف قوما : اللهم اني أجملك فى نحورهم وأعوذ بك من شرورهم » أخرجه أبو داود والنسائي فى اليوم والليلية من حديث أبي موسى بسند صحيح . (٣) حديث « القول اذا عزا : اللهم أنت عضدى ونصيرى وبك أقاتل » أخرجه أبو داود والترمذى والنسائي من حديث أسى قال الترمذى حسن مرئب . (٤) حديث « القول عند طين الأذن : اللهم صل على محمد ذكر الله خير من ذكرنى » أخرجه الطبرانى وابن عدى وابن السني فى اليوم والليلية من حديث أنى رافع بسند ضعيف . (٥) حديث « القول اذا رأى استجابة دعائه : الحمد لله الذى بعثته تم الصالحات ، تقدم فى الدعاء . (٦) حديث « القول اذا سمع أذان المغرب : اللهم هذا إقبال ليلىك وإدبار نهارك وأصوات دعائك وحضور صلواتك أسألك أن تغفر لى » أخرجه الترمذى وأبو داود وقال غريب والحاكم من حديث أم سلمة دون قوله « وحضور صلواتك » فإنها عند الخرائطى فى مكارم الأخلاق والحسن بن على المعمرى فى اليوم والليلية . (٧) حديث « القول اذا أصابه هم : اللهم انى همك واس عبدك وان أمتك ناصيتي بيدك .. الحديث » أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم من حديث ابن مسعود وقال صحيح على شرط مسلم ان سلم من ارسال عبد الرحمن عن أبيه فإنه مختلف فى سماعه من أبيه . (٨) حديث « رقية رسول الله صلى الله عليه وسلم : بسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا يشفى سقيمنا بإذن ربنا » متفق عليه من حديث عائشة . (٩) حديث « وضع يدي على الذى يألم من جسده ويقول : بسم الله - ثلاثاً - ويقول : أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر سبع مرات » أخرجه مسلم بن حديث عثمان بن أبى العاص . (١٠) حديث « دعاء الكرب لاله الا الله العلى الحليم .. الحديث » متفق عليه من حديث ابن عباس . (١١) حديث « التكبير عند اليوم أربعاً وثلاثين والتسبيح ثلاثاً وثلاثين والتحميد ثلاثاً وثلاثين » متفق عليه من حديث على . (١٢) حديث « القول عند اراة النوم : اللهم انى أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك اللهم لا أستطيع أن أبلغ ثناء عليك ولو حرصت ولكن أنت كما أثبتت على نفسك » أخرجه النسائي فى اليوم والليلية من حديث على وفيه انقطاع . (١٣) حديث « اللهم باسمك أحيا وأموت » أخرجه البخارى من حديث حديفة ومسلم من حديث البراء .

والقرآن أعوذ بك من شر كل ذي شر ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عني الدين وأغنني من الفقر (١) اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة (٢) باسمك ربى وضعت جنبي فاغفر لى ذنبي (٣) اللهم قنى عذابك يوم تجمع عبادك (٤) اللهم أسلمت نفسى إليك ووجهت وجهى إليك وفوضت أمرى إليك والجات ظهرى إليك رغبة ورعفة إليك لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك آمنت بكتابك الذى أنزلت ونبيك الذى أرسلت (٥) ، ويكون هذا آخر دعائك فقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك وليقل قبل ذلك اللهم أيقظنى فى أحب الساعات إليك واستعملنى بأحب الأعمال إليك تقربنى إليك زنى وتبعدنى من سخطك بعداً أسألك فتعطينى واستغفرك فتغفر لى وأدعوك فتستجيب لى (٦) ، فإذا استيقظت من نومك عند الصباح فقل الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور (٧) أصبحنا وأصبح الملك لله والعظمة والسلطان لله والعزة والقدرة لله (٨) أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وملة أئمتنا إبراهيم خيفاً وما كان من المشركين (٩) اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت وإليك المصير (١٠) اللهم إنى أسألك أن تبعثنا فى هذا اليوم إلى كل خير ونعوذ بك أن تجترح فيه سوءاً أو نجرحه إلى مسلم فإنك قلت ﴿ وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ﴾ (١١) اللهم فالق الإصباح وجاعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً أسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه وأعوذ بك من شره وشر ما فيه (١٢) بسم الله ماشاء الله لاقوة إلا بالله ماشاء الله

- (١) حديث « اللهم رب السموات والأرض رب كل شيء ومليكه فالق الحب والنوى ... الحديث » الى قوله « وأغنا من الفقر » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة . (٢) حديث « اللهم أنت خلقت نفسى وأنت تتوفاها . الحديث » الى قوله « اللهم انى أسألك العافية » أخرجه مسلم من حديث ابن عمر . (٣) حديث « باسمك ربى وضعت جنبي فاغفر لى ذنبي » أخرجه النسائى فى اليوم والليله من حديث عبد الله بن عمرو بسند جيد وللشيخين من حديث أبي هريرة « باسمك ربى وضعت جنبي وبك أرفعه ان أمسكت نفسى فاغفر لها » وقال البخارى « فأرحمها وان أرسلتها فاحتملها عما تحفظ به عادك الصالحين » .
- (٤) حديث « اللهم قنى عذابك يوم تجمع عبادك » أخرجه الترمذى فى التهائم من حديث ابن مسعود وهو عند أنى داود من حديث حفصة بلفظ « نعمت » وكذا رواه الترمذى من حديث حذيفة وصححه من حديث البراء وحسنه .
- (٥) حديث « اللهم لنى أسلمت نفسى إليك وفوضت أمرى إليك .. الحديث » متفق عليه من حديث البراء . (٦) حديث « اللهم أيقظنى فى أحب الساعات إليك واستعملنى فى أحب الأعمال لك تقربنى إليك زنى وتبعدنى من سخطك بعداً أسألك فتعطينى وأستغفرك فتغفر لى وأدعوك فتستجيب لى » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عباس « اللهم اعننى فى أحب الساعات إليك حتى يدركك فتدكرنا وسألك فتعطينى وأدعوك فتستجيب لنا وستغفر لنا » ولإساده صعيد وهو معروف من قول جيب الطائى كما رواه ابن أبى الدنيا فى الدعاء . (٧) حديث « القول : إذا استيقظ من نومه الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » أخرجه البخارى من حديث حذيفة ومسلم من حديث البراء . (٨) حديث « أصبحنا وأصبح الملك لله والعظمة والسلطان لله والعزة والقدرة لله » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث عائشة أمهنا وأسحق بن عمار والحول والقوة والندرة والسلطان والسموات والأرض وكل شيء لله رب العالمين » وله فى الدعاء من حديث ابن أبى أوى « أصبحت وأصبح الملك والكبرياء والعظمة والخلق والليل والنهار وما سكن فيها لله » ولإسادهما صعيد ومسلم من حديث ابن مسعود « أصبحنا وأصبح الملك لله » . (٩) حديث « أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وملة أئمتنا إبراهيم خيفاً وما كان من المشركين » أخرجه النسائى فى اليوم والليله من حديث عبد الرحمن بن أبزى بسند صحيح ورواه أحمد من حديث ابن أبزى عن أبى بن كعب مرفوعاً . (١٠) حديث « اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت وإليك المصير » أخرجه أصحاب السنن وابن حبان وحسنه الترمذى إلا أنهم قالوا « وإليك النشور » ولا فى السنن « وإليك المصير » . (١١) حديث « اللهم أنا نسألك أن تبعثنا فى هذا اليوم إلى كل خير ونعوذ بك أن تجترح فيه سوءاً أو نجرحه إلى مسلم » لم أجده أوله والتزمى من حديث أبى بكر فى حديث له وأعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه وأن تقترف على أمسا سوءاً أو نجرحه إلى مسلم » رواه أبو داود من حديث أبى مالك الأشعري بإسناد جيد . (١٢) حديث « اللهم فالق الإصباح وجاعل الليل سكناً والشمس =

كل نعمة من الله ما شاء الله الخير كله بيد الله ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله ^(١) رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً - ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ^(٢) - وإذا أمسى قال ذلك إلا أنه يقول « أمسينا » ويقول مع ذلك أعوذ بكلمات الله التامات وأسمائه كلها من شر ما ذرأ وبرأ ومن شر كل ذي شر ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم ^(٣) وإذا نظرتي المرأة قال الحمد لله الذي سوى خلقى فعدله وكرم صورة وجهي وحسنها وجعلني من المسلمين ^(٤) وإذا اشتريت خادماً أو غلاماً أو دابة نغذ بناصيته وقل اللهم إني أسألك خيره وخير ما جبل عليه وأعوذ بك من شره وشر ما جبل عليه ^(٥) وإذا هنأت بالنكاح فقل بارك الله فيك وبارك عليك وجمع بينكما في خير ^(٦) وإذا قضيت الدين فقل للمقضى له بارك الله لك في أهلك ومالك إذ قال صلى الله عليه وسلم « وإنما جزاء السلف الحمد والأداء ^(٧) » .

فهذه أدعية لا يستغنى المرید عن حفظها وما سوى ذلك من أدعية السفر والصلاة والوضوء ذكرناها في كتاب الحج والصلاة والطهارة . فإن قلت : فما فائدة الدعاء والقضاء لامرده ؟ فاعلم أن من القضاء رد البلاء بالدعاء فالدعاء سبب

= والقمر حسبنا أسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه وأعوذ بك من شره وشر ما فيه « قلت هو صهرك من حديثين فروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو اللهم فائق الإصباح وجائل الليل سكا والشمس والقمر حسبنا اقم عى الدين وأغنى من الفقر وقوني على الجهاد في سبيلك » وللدارقطنى فى الأفراد من حديث البراء « نسألك خير هذا اليوم وخير ما بعده ونعوذ بك من شر هذا اليوم وشر ما بعده » وأبو داود من حديث أبي مالك الأشعري « اللهم إنا نسألك خير هذا اليوم فتحه ونصره ونوره وهداه وبركته وأعوذ بك من شر ما فيه وشر ما بعده » وسنده جيد وللحسن بن على المعمرى فى اليوم والليلة من حديث ابن مسعود « اللهم إني أسألك خير ماى هذا اليوم وخير ما بعده وأعوذ بك من شر هذا اليوم وشر ما بعده » والحديث عند مسلم فى المساء « خير ما فى هذه الليلة .. الحديث » ثم قال : ولما أصبح قال ذلك أيضاً .

(١) حديث « بسم الله ماشاء الله لا قوة إلا بالله ماشاء الله كل نعمة من الله ماشاء الله الخير كله بيد الله ماشاء الله لا يصرف السوء إلا الله » عند فى الكامل من حديث ابن عباس ولا أعلمه إلا من رفوعا إلى النبى صلى الله عليه وسلم قال يلتقى الخضر واللباس عليهما الصلاة والسلام كل عام بالموسم بمنى فيحلق كل واحد منهما رأس صاحبه فيفترقان عن هذه الكلمات « فذكره ولم يقل « الخير كله بيد الله » قال موضعها « لا يسوق الخير إلا الله » قال ابن عباس : من قالهن حين يصبح وحين يمسى أمسه الله من العرق والحرق وأحسبه قال : ومن الشيطان والسلطان والحية والعقرب . وأورده فى ترجمة الحسين بن رزين قال ليس بالمعروف وهو بهذا الإسناد منكر .

(٢) حديث « رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً » تقدم فى الباب الأول . (٣) حديث « القول عند المساء مثل الصلح الا أنك تقول : أمسينا » وتقول مع ذلك أعوذ بكلمات الله التامات وأسمائه كلها من شر ما ذرأ وبرأ ومن شر كل دى شر ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ان ربي على صراط مستقيم » أخرجه أبو الشيخ فى كتاب الثواب من حديث عبد الرحمن بن عوف « من قال حين يصبح أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق وذرأ وبرأ وذرأ اعتصم من شر الثقيلين ... الحديث » وفيه « وان قالهن حين يمسى كفى له كذلك حتى يصبح » وفيه ان لمبة ولأحمد من حديث عبد الرحمن بن حسن فى حديث « ان جبريل قال يا محمد قل أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق وذرأ وبرأ ومن شر ما ينزل من السماء ... الحديث » واستاده جيد ولمسلم من حديث أبي هريرة فى الدعاء عند النوم « أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها » وللطبرانى فى الدعاء من حديث أبي الدرداء « اللهم انى أعوذ بك من شر نفسى ومن شر كل دابة ... الخ الحديث » وقد تقدم فى الباب الثانى . (٤) حديث « القول اذا نظرتى المرأة : الحمد لله الذى سوى خلقى فعدله وكرم صورة وجهي وحسنها وجعلني من المسلمين » أخرجه الطبرانى فى الأوسط وابن السنن فى اليوم والليلة من حديث أنس بسند ضعيف . (٥) حديث « القول اذا اشتريت خادماً أو دابة : اللهم انى أسألك خيره وخير ما جبل عليه وأعوذ بك من شره وشر ما جبل عليه » أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بسند جيد . (٦) حديث « التهنئة بالنكاح : بارك الله لك وبارك عليك وجمع بينكما فى خير » أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث أبي هريرة قال الترمذى حسن صحيح .

(٧) حديث « الدعاء اصاحب الدين اذا قضى الله دينه : بارك الله لك فى أهلك ومالك انما جزاء السلف الحمد والأداء » أخرجه النسائى من حديث عبد الله بن أبي ربيعة قال « استقرض منى النبى صلى الله عليه وسلم أربعين ألفاً فجاءه مال فدفعه الى » قال فذكره واستاده حسن .

لرد البلاء واستجلاب الرحمة كما أن الترس سبب لرد السهم والماء سبب لخروج النبات من الأرض فكذا أن الترس يدفع السهم فيستدافعان فكذلك الدعاء والبلاء يتعالجان . وليس من شرط الاعتراف بقضاء الله تعالى أن لا يحمل السلاح وقد قال تعالى ﴿ خذوا حذركم ﴾ وأن لا يسقى الأرض بعد بث البذر فيقال إن سبق القضاء بالنبات نبت البذر وإن لم يسبق لم ينبت . بل ربط الأسباب بالمسببات هو القضاء الأول الذي هو كلبح البصر أو هو أقرب وترتيب تفصيل المسببات على تفاصيل الأسباب على التدرج والتقدير هو القدر والذي قدر الخير قدره بسبب . والذي قدر الشر قدره لدفعه سببها فلا تناقض بين هذه الأمور عند من انفتحت بصيرته . ثم في الدعاء من الفائدة ما ذكرناه في الذكر فإنه يستدعى حضور القلب مع الله وهو منتهى العبادات ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « الدعاء منج العباداة »^(١) ، والغالب على الخلق أنه لا تنصرف قلوبهم إلى ذكر الله عز وجل إلا عند إمام حجة وإرهاق ملة فإن الإنسان إذا مسه الشر فدو دعاء عريض . فالحاجة تخرج إلى الدعاء والدعاء يرد القلب إلى الله عز وجل بالتضرع والاستكانة فيحصل به الذكر الذي هو أشرف العبادات . ولذلك صار البلاء موكلا بالأنساء عليهم السلام ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل لأنه يرد القلب بالافتقار والتضرع إلى الله عز وجل وينع من نسيانه وأما الغنى فسبب للبطر في غالب الأمور فإن الإنسان ليطنى أن رآه استغنى . فهذا ما أردنا أن نورد من جملة الأذكار والدعوات والله الموفق للخير . وأما بقية الدعوات في الأكل والسفر وعبادة المريض وغيرها فستأتى في مواضعها إن شاء الله تعالى وعلى الله التكلان .

بجز كتاب الأذكار والدعوات ، بكأله . يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب : الأوراد . والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

كتاب ترتيب الأوراد وتفصيل إحياء الليل

وهو الكتاب العاشر من إحياء علوم الدين

وبه اختتام ربيع العبادات نفع الله به المسلمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حمد الله على آلائه حمدا كثيرا ونذكره ذكرا لا يغادر في القلب استكبارا ولا بهررا ونشكره إذ جعل الليل والنهار حلقة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ونصلى على نبيه الذي بعثه بالحق بشيرا ونديرا وعلى آله الطاهرين وصحبه الأكرمين الذين اجتهدوا في عبادة الله غدوة وعشيا وبكرة وأصيلا حتى أصبح كل واحد منهم نجما في الدين هاديا وسراجا منيرا .

أما بعد : فإن الله تعالى جعل الأرض ذلولا لعباده لالاستقرار في مناكها بل ليتخذوها منزلا فيتزودوا منها إذا يحملهم في سفرهم إلى أوطانهم ويكتنزون منها تحفا لنفوسهم عملا وفضلا محترزين من مصايدها ومعاطبها ويتحققون أن العمر يسير بهم سير السفينة برا كبحا . فالناس في هذا العالم سمر وأول منازلهم المهلد وآخرها اللحد والوطن هو الجنة أو النار . والعمر مسافة السفر ؛ فسنوه مراحلها ، وشهوره فرائضه ، وأيامه أمياله وأناسه خطواته وظاعته بضاعته وأوقانه رموس أمواله ، وشهواته وأغراضه قطاع طريقه ، وربحه الفوز بقاء الله تعالى في دار السلام مع الملك

(١) حديث « الدعاء منج العباداة » تقدم في الباب الأول

الكبير والمعيم المقيم ، وخسرانه الحد من الله تعالى مع الأسكال والأغلال والعداب الاليم في دركات الجحيم . فالغافل في نفس من أنفاسه حتى يقضى في غير طاعة تقتره إلى الله زلفى متعرض في يوم التعاس لغيبته وحسرة ما لها منتهى ولهذا الخطر العظيم والخطب الهائل شمر الموفقون عن ساق الحد وودعوا بالكلية ملاذ النفس واغتتموا بقايا العمر . ورتبوا بحسب تكرار الأوقات وظائف الأوراد حرصا على إحياء الليل والنهار في طلب القرب من الملك الجبار والسعى إلى دار القرار فصار من مهمات علم طريق الآخرة تمصيل القول في كيفية قسمة الأوراد وتوزيع العبادات التي سبق شرحها على مقادير الأوقات ويتضح هذا المهم بذكر بابين . (الباب الأول) في فضيلة الأوراد وترتيبها في الليل والنهار . (الباب الثاني) في كيفية إحياء الليل وفضيلته وما يتعلق به .

الباب الأول : في فضيلة الأوراد وترتيبها وأحكامها

فضيلة الأوراد وبيان أن المواظبة عليها هي الطريق إلى الله تعالى

اعلم أن الناظرين بنور المصبرة علموا أنه لا نحة إلا في لقاء الله تعالى وأنه لا سبيل إلى اللقاء إلا بأن يموت العبد بحبا لله تعالى وعارفا بالله سبحانه . وأن المحبة والأنس لا تحصل إلا من دوام ذكر المحبوب والمواظبة عليه . وأن المعرفة به لا تحصل إلا بدوام الفكر فيه وفي صفاته وأفعاله . وليس في الوجود سوى الله تعالى وأفعاله . ولن يتيسر دوام الذكر والفكر إلا بوداع الدنيا وشهواتها والاجتزاء منها بعدد البلغة والضرورة وكل ذلك لا يتم إلا باستغراق أوقات الليل والنهار في وظائف الأذكار والأفكار . والنفس لما حملت عليه من السامة والملال لا تصبر على فن واحد من الأسباب المعينة على الذكر والفكر بل إذا ردت إلى نمط واحد أظهرت الملل والاستئثار وأن الله تعالى لا يمل حتى تملوا . فمن ضروره اللطف بها أن نزوح بالتنقل من فن إلى فن ومن نوع إلى نوع بحسب كل وقت لتغزر بالانتقال لذتها وتعظم بالذمة رغبتها وتدوم بدوام الرغبة مواظبتها . فلذلك تقسم الأوراد قسمة مختلفة فالذكر والفكر ينبغي أن يستغرقا جميع الأوقات أو أكثرها فإن النفس بطبعها مائلة إلى ملاذ الدنيا . فإن صرف العبد شطر أوقاته إلى تدبيرات الدنيا وشهواتها المباحة مثلا والشطر الآخر إلى العبادات رجع جانب الميل إلى الدنيا لموافقها الطبع إذ يكون الوقت متساويا ؛ فأني يتقاومان والطبع لاحدهما مريح إذ الظاهر والباطن يتساعدان على أمور الدنيا ويصفو في طلبها القلب ويتجرد . وأما الرد إلى العبادات فتكلف ولا يسلم إخلاص القلب فيه وحضوره إلا في بعض الأوقات فن أراد أن يدخل الجنة نغير حساب فليستغرق أوقاته في الطاعة . ومن أراد أن تترجح كفة حسناته وتثقل موازين خيراته فليستوعب في الطاعة أكثر أوقاته فإن خلط عملا صالحا وآخر سيئا فأمره مخطر ولكن الرجاء غير منقطع والعفو من كرم الله منتظر فعسى الله تعالى أن يعفر له بجوده وكرمه ؛ فهذا ما انكشف للناظرين بنور البصيرة ؛ فإن لم تكن من أهله فانظر إلى خطاب الله تعالى لرسوله واقتبس به بنور الإيمان وقد قال الله تعالى لأقرب عباده إليه وأرفعهم درجة لديه ﴿ إن لك في النهار سبحا طويلا واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا ﴾ وقال تعالى ﴿ واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا ﴾ وقال تعالى ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسبحه وأدبار السجود ﴾ وقال سبحانه ﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ﴾ وقال تعالى ﴿ إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلا ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن آناه الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى ﴾ وقال عز وجل ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ ثم انظر كيف وصف العائزين من عباده وبماذا وصفهم فقال تعالى ﴿ أمن هو قانت

آناه الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون (وقال تعالى (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا) وقال عز وجل (والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما) وقال عز وجل (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسفار هم يستغمرون) وقال عز وجل (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون) وقال تعالى (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) فهذا كله يبين لك أن الطريق إلى تعالى مراقبة الأوقات وعمارتها بالأوراد على سننيل الدوام . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أحب عباد الله إلى الله الذين يراعون الشمس والقمر والأظلة لذكر الله تعالى (١) ، وقد قال تعالى (الشمس والقمر بحسبان) وقال تعالى (ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا) وقال تعالى (والقمر قدرناه منازل) وقال تعالى (وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر) فلا تظن أن المقصود من سير الشمس والقمر بحسبان منظوم مرتب ومن خلق الظل والنور والنجوم أن يستعان بها على أمور الدنيا بل لتعرف بها مقادير الأوقات فتشتغل بها بالطاعات والتجارة للدار الآخرة يدلك عليه قوله تعالى (وهو الذي جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا) أى يخلف أحدهما الآخر ليتدارك في أحدهما ما فات في الآخر وبين أن ذلك للذكر والتسكّر لاغير . وقال تعالى (وجعلنا الليل والنهار آيتين فحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب) وإنما الفضل المتبع هو الثواب والمغفرة ونسأل الله حسن التوفيق لما يرضيه .

بيان أعداد الأوراد وترتيبها

اعلم أن أوراد النهار سبعة : فما بين طلوع الصبح إلى طلوع قرص الشمس ورد ، وما بين طلوع الشمس إلى الزوال ورددان ، وما بين الزوال إلى وقت العصر ورددان ، وما بين العصر إلى المغرب ورددان . والليل يقسم إلى أربعة أوراد : ورددان من المغرب إلى وقت نوم الناس ، ورددان من النصف الأخير من الليل إلى طلوع الفجر . فلنذكر فضيلة كل ورد ووظيفته وما يتعلق به .

فالورد الأول : ما بين طلوع الصبح إلى طلوع الشمس وهو وقت شريف ويدل على شرفه وفضله إقسام الله تعالى به إذ قال (والصبح إذا تنفس) وقد حقه به إذ قال (فائق الإصباح) وقال تعالى (قل أعوذ برب الفلق) وإظهاره القدرة بقبض الظل فيه إذ قال تعالى (ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا) وهو وقت قبض ظل الليل ببسط نور الشمس وإرشاده الناس إلى التسييح فيه بقوله تعالى (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون) وبقوله تعالى (فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غمها) وقوله عز وجل (ومن آناه الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى) وقوله تعالى (واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا) .

فأما ترتيبه : فليأخذ من وقت انتباهه من النوم فإذا انتبه فليبغى أن يبتدئ بذكر الله تعالى فيقول الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور إلى آخر الأدعية والآيات التي ذكرناها دعاء الاستيقاظ من كتاب الدعوات

كتاب الأوراد وفضل إحياء الليل

الباب الأول في فضيلة الأوراد

(١) حدث « أحب عباد الله إلى الله الذين يراعون الشمس والقمر والأهلة لذكر الله » أخرجه الطبراني والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث ابن أبي أوفى بلفظ « خيار عباد الله »

وليلبس ثوبه وهو في الدعاء وينوي به ستر عورته امتثالاً لأمر الله تعالى واستعانة به على عبادته من غير قصد رياء ولا رعونة ثم يتوجه إلى بيت الماء إن كان به حاجة إلى بيت الماء ويدخل أولاً رجله اليسرى ويدعو بالأدعية التي ذكرناها فيه في كتاب الطهارة عند الدخول والخروج . ثم يستاك على السنة - كما سبق - ويتوضأ مرارياً لجميع السنن والأدعية التي ذكرناها في الطهارة فإنما قدمنا آحاد العبادات لكي نذكر في هذا الكتاب وجه التركيب والترتيب فقط . فإذا فرغ من الوضوء صلى ركعتي الفجر أعنى السنة في منزله (١) كذلك كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقرأ بعد الركعتين سواء أداها في البيت أو المسجد الدعاء الذي رواه ابن عباس رضي الله عنهما ويقول اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي إلا آخر الدعاء ... (٢) ، ثم يخرج من البيت متوجهاً إلى المسجد ولا ينسى دعاء الخروج إلى المسجد ولا يسعى إلى الصلاة سعياً بل يمشي وعليه السكينة والوقار (٣) كما ورد به الخبر ولا يشبك بين أصابعه . ويدخل المسجد ويقدم رجله اليمنى ويدعو بالدعاء المأثور لدخول المسجد (٤) ثم يطلب من المسجد الصف الأول إن وجد متمسكاً ولا يتخطى رقاب الناس ولا يراحم - كما سبق ذكره في كتاب الجمعة - ثم يصلي ركعتي الفجر إن لم يكن صلاحها في البيت ويشغل بالدعاء المذكور بعدهما . وإن كان قد صلى ركعتي الفجر صلى ركعتي التهجئة وجلس منتظراً للجماعة . والأحب التغليس بالجماعة فقد كان صلى الله عليه وسلم يخلس بالصبح (٥) ولا ينبغي أن يدع الجماعة في الصلاة عامة وفي الصبح والعشاء خاصة فلهما زيادة فضل . فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال في صلاة الصبح : من توضأ ثم توجه إلى المسجد ليصلي فيه الصلاة كان له بكل خطوة حسنة ومحى عنه سيئة والحسنة بعشر أمثالها ، فإذا صلى ثم انصرف عند طلوع الشمس كتب له بكل شعرة في جسده حسنة وانقلب بحجة مبرورة فإن جلس حتى يركع الضحى كتب له بكل ركعة ألف حسنة ، ومن صلى العتمة فله مثل ذلك وانقلب بحمرة مبرورة (٦) ، وكان من عادة السلف دخول المسجد قبل طلوع الفجر . قال رجل من التابعين : دخلت المسجد قبل طلوع الفجر فلقيت أبا هريرة قد سبقني فقال لي : يا ابن أخي لأي شيء خرجت من منزلك في هذه الساعة ؟ فقلت : لصلاة الغداة فقال : أشر فأيا كنا نعد خروجنا وعودنا في المسجد في هذه الساعة بمنزلة غزوة في سبيل الله تعالى (٧) - أو قال - مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن علي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم طرقة وفاطمة رضي الله عنهما وهما نائمان فقال : ألا تصليان قال علي : فقلت يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله تعالى فإذا شاء أن يبعثها بعثها فانصرف صلى الله عليه وسلم فسمعته وهو منصرف يضرب فخذه ويقول : وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً (٨) . ثم ينبغي أن يشتغل بعد ركعتي الفجر ودعائه بالاستغفار والتسبيح إلى أن تقام الصلاة فيقول : أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه سبعين مرة

(١) حديث « صلاة ركعتي الصبح في المنزل » متفق عليه من حديث حفصة . (٢) حديث « الدعاء بعد ركعتي الصبح : اللهم إني أسألك رحمة من عندك . الحديث » تقدم . (٣) حديث « المصلى إلى الصلاة وعليه السكينة » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٤) حديث « الدعاء المأثور لدخول المسجد » تقدم في الباب الخامس من الأذكار . (٥) حديث « التغليس في الصبح » متفق عليه من حديث عائشة . (٦) حديث « أنس في صلاة الصبح : من توضأ ثم توجه إلى المسجد يصلي فيه الصلاة كان له بكل خطوة حسنة ومحى عنه سيئة والحسنة بعشر أمثالها ولدا صلى ثم انصرف عند طلوع الشمس كتب له بكل شعرة في جسده حسنة وانقلب بحجة مبرورة فإن جلس حتى يركع الضحى كتب له بكل ركعة ألف حسنة ومن صلى العتمة فله مثل ذلك وانقلب بحجة مبرورة » لم أجده أصلها بهذا السياق وفي شعب الإيمان للبيهقي من حديث أنس بسند ضعيف « ومن صلى المغرب في جماعة كان له حجة مبرورة وعمرة مثقلة » (٧) حديث أبي هريرة « كنا نعد خروجنا وعودنا في المجلس في هذه الساعة بمنزلة غزوة في سبيل الله » لم أقف له على أصل . (٨) حديث علي « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طرقة وفاطمة وهما نائمان فقال ألا تصليان قال علي : فقلت يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله ... الحديث » متفق عليه .

وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر مائة مرة ، ثم يصلى الفريضة مراعيًا جميع ما ذكرناه من الآداب الباطنة والظاهرة في الصلاة والقدوة . فإذا فرغ منها قعد في المسجد إلى طلوع الشمس في ذكر الله تعالى كما سنرتبه فقد قال صلى الله عليه وسلم « لأن أقعد في مجلسي أذكر الله تعالى فيه من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس أحب إلى من أن أعتق أربع رقاب ^(١) » وروى « أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا صلى الغداة قعد في مصلاه حتى تطلع الشمس - وفي بعضها - ويصلى ركعتين ^(٢) ، أى بعد الطلوع وقد ورد في فضل ذلك ما لا يحصى . وروى الحسن « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فيما يذكره من رحمة ربه يقول إنه قال : يا ابن آدم اذكرني بعد صلاة الفجر ساعة وبعد صلاة العصر ساعة أكفك ما بينهما ^(٣) » وإذا طهر فضل ذلك فليقعد ولا يتكلم إلى طلوع الشمس بل ينبغي أن تكون وظفته إلى الطلوع أربعة أنواع أدعية وأذكار ويكررها في سبحة وقراءة قرآن وتفكير . أما الأدعية : فكلما يفرغ من صلاته فليبدأ وليقل « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وسلم اللهم أنت السلام ومنك السلام وإليك يعود السلام حينًا ربنا بالسلام وأدخلنا دار السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام » ثم يفتتح الدعاء بما كان يشتتح به رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قوله « سبحان ربى الأعلى الوهاب لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير لا إله إلا الله أهل النعمة والفضل والثناء الحسن لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ^(٤) » ثم يبدأ بالأدعية التي أوردناها في الباب الثالث والرابع من كتاب الأدعية فيدعو بجميعها إن قدر عليه أو يحفظ من جملتها ما يراه أوفق بحاله وأرق لقلبه وأخف على لسانه .

وأما الأذكار المكررة فهي كلمات وردت في تكرارها فضائل لم نطوّل بإيرادها وأقل ما ينبغي أن يكرر كل واحد منها ثلاثاً أو سبعمائة أو سبعون أو وسطه عشر . فليكثرها بقدر فراغه وسعة وقته وفضل الأكثر أكثر . والأوسط الأفضل أن يكثرها عشر مرات فهو أجدر بأن يدوم عليه وخير الأمور أدومها وإن قل . وكل وظيفة لا يمكن المواظبة على كثيرها فتقليلها مع المداومة أفضل وأشد تأثيراً في القلب مع كثيرها مع الفترة . ومثال القليل الدائم كقطرات ماء تتقاطر على الأرض على التوالي فتحدث فيها حفيرة ولو وقع ذلك على الحجر . ومثال الكثير المتفرق ماء يصب دفعة أو دفعات متفرقة متباعدة الأوقات فلا يبين لها أثر ظاهر وهذه الكلمات عشرة (الأولى) قوله : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير ^(٥) (الثانية) قوله : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله

(١) حديث « لأن أقعد في مجلسي أذكر الله فيه من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس أحب إلى من أن أعتق أربع رقاب » أخرجه أبو داود من حديث أنس وتقدم في الباب الثالث من العلم . (٢) حديث « كان إذا صلى الغداة قعد في مصلاه حتى تطلع الشمس وفي بعضها ويصلى ركعتين أى بعد الطلوع » أخرجه مسلم من حديث جابر بن سمرة دون ذكر الركعتين والترمذي من حديث أنس وحسنه « من صلى العجر في جماعة ثم قعد يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس ثم صلى ركعتين كانت له كأجر حجة وعمرة تامة تامة تامة » . (٣) حديث الحسن « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فيما يذكره من رحمة ربه أنه قال : يا ابن آدم اذكرني من بعد صلاة الفجر ساعة وبعد صلاة العصر ساعة أكفك ما بينهما » أخرجه ابن المبارك في الزهد هكذا مرسلًا . (٤) حديث « كان يفتتح الدعاء بسبحان ربى الأعلى الوهاب » تقدم . (٥) حديث « الفضل في تكرار لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير » تقدم من حديث أنى أيوب تكرارها عشرًا دون قوله « يحيى ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير » فإنها في اليوم واليلة للناس من حديث أنى در دون قوله « وهو حي لا يموت » وهي كلها عند البزار من حديث عبد الرحمن بن عوف فيما يقال عند الصباح والمساء وتقدم تكرارها مائة ومائتين والطران الدعاء من حديث عبد الله بن عمر وتكرارها ألف مرة وإسناده ضعيف .

العلی العظیم ^(١) (الثالثة) قوله : سبح قدوس رب الملائكة والروح ^(٢) . (الرابعة) قوله : سبحان الله العظيم وبجمده ^(٣) (الخامسة) قوله : أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأسأله التوبة ^(٤) (السادسة) قوله : اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الحد منك الجند ^(٥) (السابعة) قوله : لا إله إلا الله الملك الحق المبين ^(٦) (الثامنة) قوله : بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شئ فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم ^(٧) (التاسعة) اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك النى الأسمى وعلى آله وصحبه وسلم ^(٨) (العاشر) قوله : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم رب أعوذ بك من همزات النساطين وأعوذ بك رب أن يحضرون ^(٩) فهذه العشر كلسات إذا كرر كل واحدة عشر مرات حصل له مائة مرة « فهو أفضل من أن يكرر ذكرا واحدا مائة مرة » لأن لكل واحدة من هؤلاء الكلمات فضلا على حياله وللقلب بكل واحد نوع تذب وتلذذ وللنفس فى الانتقال من كلمة إلى كلمة نوع استراحة وأمن من الملل . فأما القراءة فيستحب له قراءة جملة من الآيات

(١) حديث « الفضل فى تكرار : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله » أخرجه السنائى فى اليوم والليلة وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أنى سعيد الحدري « استكثروا من البايات الصالحات » فذكرها (٢) حديث « تكرار : سبح قدوس رب الملائكة والروح » لم أجد ذكرها مكررة ولكن عند مسلم من حديث عائشة « أنه صلى الله عليه وسلم كان يقولها فى ركوعه وسجوده » وقد تقدم ولأن الشيخ فى الثواب من حديث البراء « أكثر من أن تقول سبحان الملك القدوس رب الملائكة والروح » . (٣) حديث « تكرار : سبحان الله وبجمده » متفق عليه من حديث أبى هريرة « من قال ذلك فى يوم مائة مرة حطت خطاياها وان كانت مثل زبد البحر » . (٤) حديث « تكرار أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأسأله التوبة » أخرجه المستغفرى فى الدعوات من حديث معاذ « أن من قالها بعد العجر وبعد العصر ثلاث مرات كسرت ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر » ولفظه « وأتوب إليه » وفيه صمد وهكذا رواه الترمذى من حديث أنى سعيد فى قولها « ثلاثا » وللبخارى من حديث أنى هريرة « أنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة » ولم يقل الطبرانى « أكثر » ولمسلم من حديث الأعرابى « لأستغفر الله فى كل يوم مائة مرة » تقدمت هذه الأحاديث فى الباب الثانى من الأذكار . (٥) حديث « تكرار . اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا يضر منك الجند » لم أجد تكرارها فى حديث واعا وردت مطلقا عقب الصلوات وفى الرفع من الركوع . (٦) حديث « تكرار : لا إله إلا الله الملك الحق المبين » أخرجه المستغفرى فى الدعوات والحطيط فى الرواة عن مالك من حديث على « من قالها فى يوم مائة مرة كان له أمان من الفقر وأمان من وحشة القبر واستجاب له العنى واستقرع باب الجنة » وفيه الفصل بن غام ضعيف ولأبى يعنى فى الحلية « من قال ذلك فى كل يوم ويلة ماتى مرة لم يسأل الله فيها حاجة الا قضاها » وفيه سليم الخواص ضعيف وقال فيه : أظنه عن على . (٧) حديث « تكرار : بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شئ فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم » أخرجه أصحاب السنن وابن حبان والحاكم وصححه من حديث عثمان « من قال ذلك ثلاث مرات حين يمسى لم يصبه حاة بلاء حتى يصبح ومن قالها حين يصبح ثلاث مرات لم يصبه حاة بلاء حتى يمسى » قال الترمذى حسن صحيح غريب .

(٨) حديث « تكرار : اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك الربى الأسمى وعلى آل محمد » ذكره أبو القاسم محمد بن عبد الواحد المافقى فى فضائل القرآن من حديث ابن أبى أوفى « من أراد أن يموت فى السماء الرامة فليقل كل يوم ثلاث مرات » فذكره وهو منكر . قلت : ورد التكرار عند الصباح والمساء من غير تسمية لهذه الصفة رواه الطبرانى من حديث أبى الدرداء بألفظ « من صلى على حين يصبح عشرا وحين يمسى عشرا أدركته شفاعة يوم القيامة » وفيه انقطاع .

(٩) حديث « تكرار : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم أعوذ بالله من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون » أخرجه الترمذى من حديث معقل بن أسار « من قال حين يصبح ثلاث مرات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر وكل الله به سبعين ألف ملك .. الحديث » ومن قالها حين يمسى كان بتلك المنزلة وقال حسن عريب ولابن أبى الدنيا من حديث أنس مثل حديث مقطوع قبله « من قالها حين يصبح عشر مرات أجبر من الشيطان لى الصبح .. الحديث » ولأبى الشيخ فى الثواب من حديث عائشة « ألا أعلمك يا حاد كلسات تقولها ثلاث مرات قل : أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون » والحديث عند أبى داود والترمذى وحسنه والحاكم وصححه فيما يقال عند الفزع دون تكرارها ثلاثا من حديث عبد الله بن عمرو .

وردت الأحبار بمضاهيها وهو أن يقرأ سورة الحمد ^(١) وآية الكرسي ^(٢) وخاتمة البقرة ^(٣) من قوله آمن الرسول وشهد الله ^(٤) وقل اللهم مالك الملك الآيتين ^(٥) وقوله تعالى لقد جاءكم رسول من أنفسكم إلى آخرها ^(٦) وقوله تعالى لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق إلى آخرها ^(٧) وقوله سبحانه الحمد لله لم يتخذ ولدا ^(٨) الآية وخمس آيات من أول الحديد ^(٩) وثلاثا من آخر سورة الحشر ^(١٠) وإن قرأ المسبعات العشر التي أهداها الخضر عليه السلام إلى إبراهيم التيمي رحمه الله ووصاه أن يقولها غدوة وعشية فقد استكمل المفضل وجمع له ذلك فضيلة جملة الأدعية المذكورة . فقد روى عن كرز بن وبرة رحمه الله وكان من الأبدال قال ، أتاني أخى من أهل الشام فأهدى لى هدية وقال : يا كرز اقبل مى هذه الهدية فأبى لعمت الهدية ، فقلت : يا أخى ومن أهدى لك هذه الهدية ؟ قال : أعطانيها إبراهيم التيمي ، قلت أفلم تسأل إبراهيم من أعطاه إياها ؟ قال : كنت جالسا فى فناء الكعبة وأنا فى التهليل والتسبيح والتحميد والتمجيد فأتانى رجل فسلم على وجلس عن يمينى فلم أر فى زمانى أحسن منه وجها ولا أحسن منه ثيابا ولا أشد بياضا ولا أطيب ريحا منه فقلت يا عبد الله من أنت ومن أين جئت ؟ فقال : أنا الخضر ، فقلت : فى أى شىء حدثنى ؟ فقال : جئتك للسلام عليك وحباً لك فى الله وعندى هدية أريد أن أهديها لك فقلت : ما هى ؟ قال : أن تقول

(١) حديث « فضل سورة الحمد » أخرجه البخارى من حديث أبى سعيد بن المعلى أنها أعظم الدور فى القرآن ومسلم من حديث ابن عباس « فى الملك الذى رل الى الأرض وقال للنبي صلى الله عليه وسلم أبشر بدينين أو تيتهما لم يؤتتهما أبى بقلبك : فاتحة الكتاب وحواتم سورة البقرة ، لم تقرأ بحرف منها إلا أعطيتك » . (٢) حديث « فضل آية الكرسي » أخرجه مسلم من حديث أبى بكر « يا أبا المندر أتدرى أى آية من كتاب الله معك أعظم ؟ قلت : الله لا اله الا هو الحى القيوم ... الحديث » والبخارى من حديث أبى هريرة فى توكيله بحفظ تمر الصدقة ومجىء الشيطان إليه وقوله « لدا آويت إلى فراشك فاقرا آية الكرسي فإنه لن يرال عليك من الله حافظ ... الحديث » وفيه « فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما له قد صدقتك وهو كدوب » . (٣) حديث « فضل حاتمة البقرة » متفق عليه من حديث أبى مسعود « من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه » وتقدم حديث ابن عباس قبله بحديث (٤) حديث « فصل » شهد الله » أخرجه أبو الشيخ وأبو حنبل من كتاب الثواب من حديث ابن مسعود « من قرأ شهد الله الى قوله الإسلام ثم قال وأنا أشهد عما شهد الله به واستودع الله هذه الشهادة وهى لى عنده ودية جىء به يوم القيامة فقيل له عبدى هذا عهد لى عهدا وأنا أحق من وفى بالعهد أدخلوا عبدى الجنة » وفيه عمر بن الخطاب روى الأباطيل قاله ابن عدى وسيأتى حديث على بعده (٥) حديث « فضل : قل اللهم مالك الملك الآيتين » أخرجه المستعمرى فى الدعوات من حديث على « أن فاتحة الكتاب وآية الكرسي والآيتين من آل عمران شهد الله إلى قوله الإسلام وقل اللهم مالك الملك إلى قوله بغير حساب معلقات مايبسهن وبس الله حجاب .. الحديث » وفيه « فقال الله لا يقرأ كى أحد من عبادى بركل صلاة لالا حملت الجبه مثواه ... الحديث » وفيه الحارث بن عمير وفى ترجمته ذكره ابن حبان فى الصعاء وقال موضوع لأصل له والحارث يروى عن الانبات الموضوعات . قالت : وثقه حماد بن زيد وابن معين وأبو زرعة وأبو حاتم واللساني وروى له البخارى تعليقا . (٦) حديث « فصل : لقد جاءكم رسول من أنفسكم إلى آخرها أخرجه الطبراني فى الدعاء من حديث أنس بسند ضعيف « علمى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحترز به من كل شيطان رجيم ومن كل جبار عبيد » وذكر حديثا وفى آخره « فقل حسبي الله إلى آخر السورة » وذكر أبو القاسم الدافقى فى فضائل القرآن فى رعايب القرآن لعبد الملك بن حبيب من رواية محمد بن بكر « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من لزم قراءة لقد جاءكم رسول من أنفسكم ... إلى آخر السورة - لم يمت هداما ولا غرقا ولا حرقا ولا صرنا بمحديدة » وهو ضعيف . (٧) حديث « فضل : لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق » لم أجد فيه حديثا يحصها ، لكن فى فصل سورة الفتح مارواه أبو الشيخ فى كتاب من حديث أبى بن كعب « من قرأ سورة الفتح فكأنما شهد فتح مكة مع الذى صلى الله عليه وسلم » وهو حديث موضوع . (٨) حديث « فضل : الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا .. الآية » أخرجه أحمد والطبراني من حديث معاذ بن أنس « آية العر : الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ... الآية كلها » وللسانده ضعيف . (٩) حديث « فضل : خمس آيات من أول الحديد » ذكر أبو القاسم الدافقى فى فضائل القرآن من حديث على « إذا أردت أن تسأل الله حاجة فاقرا خمس آيات من أول سورة الحديد إلى قوله - هلم هذات الصدور - ومن آخر سورة الحشر من قوله - لو أنزلنا هذا القرآن على جبل - إلى آخر السورة ثم تقول يامى هو كذا أفضل بى كذا وتدعو بما تريد . (١٠) حديث « فضل ثلاث آيات من آخر سورة الحشر » أخرجه الترمذى من حديث معقل بن يسار وقد تقدم قبل هذا وللبيهقى فى الشعب من حديث أبى أمامة بسند ضعيف « من قرأ خواتم سورة الحشر فى ليل أو نهار مات من يومه أو ليلته فقد أو جب الله له الجنة » .

قبل طلوع الشمس وقبل انبساطها على الأرض وقبل العروب سورة الحمد وقل أعوذ برب الناس وقل أعوذ برب الفلق وقل هو الله أحد وقل يا أيها الكافرون وآية الكرسي كل واحدة سبع مرات وتقول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر سبعا وتصلي على النبي صلى الله عليه وسلم سبعا وتستغفر لنفسك ولوالديك والمؤمنين والمؤمنات سبعا وتقول : اللهم افعل بي وبهم عاجلا وآجلا في الدين والدنيا والآخرة ما أنت له أهل ولا تفعل بنا يمولانا ما نحن له أهل لأنك غفور حلیم حواد كريم رهوف رحيم سبع مرات وانظر أن لاتدع ذلك غدوة وعشية فقلت : أحب أن تخبرني من أعطاك هذه العطية العظيمة ؟ فقال : أعطانيها محمد صلى الله عليه وسلم ^(١) وقلت : أخبرني بثواب ذلك ؟ فقال : إذا لقيت محمدا صلى الله عليه وسلم فأسأله عن ثوابه فإنه يخبرك بذلك ، فدكر إبراهيم التيمي : أنه رأى ذات يوم في منامه كأن الملائكة جاءت فاحتملته حتى أدخلوه الجنة فرأى ما فيها ووصف أمورا عظيمة مما رآه في الجنة قال . فسألت الملائكة فقلت : لمن هذا ؟ فقالوا : للذي يعمل مثل عملك وذكر أنه أكل من ثمرها وسقوه من شرابها قال : فأثنى النبي صلى الله عليه وسلم ومعه سبعون نبيا وسبعون صفا من الملائكة كل صف مثل ما بين المشرق والمغرب فسلم على وأخذ بدهي فقلت : يا رسول الله الخضر أخبرني أنه سمع منك هذا الحديث فقال : صدق الخضر صدق الخضر وكل ما يحكيه فهو حق وهو عالم أهل الأرض وهو رئيس الأبدال وهو من جنود الله تعالى في الأرض فقلت يا رسول الله فمن فعل هذا أو عمله ولم ير مثل الذي رأيت في منامى هل يعطى شيئا مما أعطيتة ؟ فقال والذي بعثني بالحق نبيا إنه ليعطى العامل بهذا وإن لم يرني ولم ير الجنة إنه ليغفر له جميع الكبائر التي عملها ويرفع الله تعالى عنه غضبه ومقته ويأمر صاحب الشمال أن لا يكتب عليه خطيئة من السيئات إلى سنة والذي بعثني بالحق نبيا ما يعمل بهذا إلا من خلقه الله سعيدا ولا يتركه إلا من خلقه الله شقيا ، وكان إبراهيم التيمي يمكث أربعة أشهر لم يطعم ولم يشرب فلعلة كان بعد هذه الرقيا . وهذه وظيفة الفرامة ؛ فإن أضاف إليها شيئا مما انتهى إليه ورده من القرآن أو اقتصر عليه فهو حسن فإن القرآن جامع لفضل الذكر والمكر والدعاء مهما كان بتدبر كما ذكرنا فضله وآدابه في باب التلاوة . وأما الأفكار : فليكن ذلك إحدى وظائفه - وسيأتي تفصيل ما يتفكر فيه وكيفيته في كتاب التفكير من ربيع المنجيات - ولكن مجامعه ترجع إلى فنين ؛ أحدهما : أن يتفكر فيما ينفعه من المعاملة بأن يحاسب نفسه فيما سبق من تقصيره ويرتب وظائفه في يومه الذي بين يديه ويدبر في دفع الصوارف والعوائق الشاغلة له عن الخير ويتذكر تقصيره وما يتطرق إليه الخلل من أعماله ليصلحه ويحضر في قلبه النيات الصالحة من أعماله في نفسه وفي معاملته المسلمين. والفقن الثاني : فيما ينفعه في علم المكاشفة وذلك بأن يتفكر مرة في نعم الله تعالى وتواتر آلائه الظاهرة والباطنة لتزيد معرفته بها ويكثر شكره عليها أو في عقوباته ونقائمه لتزيد معرفته بقدره الإله واستغناؤه ويريد حوافه منها . ولكل واحد من هذه الأمور شعب كثيرة يتسع التفكير فيها على بعض الخلق دون البعض وإنما يستقضى ذلك في كتاب التفكير . ومهما تيسر الفكر فهو أشرف العبادات إذ فيه معنى الذكر لله تعالى وزيادة أمرين ، أحدهما : زيادة المعرفة إذ الفكر مفتاح المعرفة والكشف . والثاني : زيادة المحبة إذ لا يحب القلب إلا من اعتقد تعظيمه ولا تنكشف عظمة الله سبحانه وجلاله إلا بمعرفة صفاته ومعرفة قدرته ومجائب أفعاله . فيحصل من الفكر المعرفة ومن المعرفة التعظيم ومن التعظيم المحبة . والذكر أيضا يورث الأناس وهو نوع من المحبة ولكن المحبة التي سببها المعرفة

(١) حديث كرز بن وبرة من أهل الشام عن إبراهيم التيمي « أن الخضر علمه المسلمات المشرة » وقال في آخرها « أعطانيها محمد صلى الله عليه وسلم » ليس له أصل ولم يصح في حديث قط اجتماع الخضر بالنبي صلى الله عليه وسلم ولا عدم اجتماعه ولا حياته ولا موته .

أقوى وأثبت وأعظم ونسبة حبه العارف إلى أنس الذاك من غير تمام الاستنصار كنسبة عنق من شاهد حال شخص بالعين واطلع على حسن أخلاقه وأفعاله وفضائله وخصاله الحميدة بالتجربة إلى أنس من كرر على سمعه وصف شخص غائب عن عييه بالحسن في الخلق والخلق مطلقا من غير تفصيل وجوه الحسن فيهما فليس محبته له كحبه المشاهد وليس الحبر كالمعاينة . فالعقاد المواظبون على ذكر الله بالقلب واللسان الذين يصدقون بما حامت به الرسل بالإيمان التقليدي لس معهم من محاسن صفات الله تعالى إلا أمور جملة اعتقدوها بتصديق عن وصفها لهم . والعارفون هم الذين شاهدوا ذلك الحلال والجمال بعين البصيرة الباطنة التي هي أقوى من البصر الظاهر لأن أحدا لم يحط بكنهه جلالة وجماله فإن ذلك غير مقدور لأحد من الخلق ولكن كل واحد شاهد بقدر ما رفع له من الحجاب ولا نهاية لجمال حضرة الربوبية ولا لحجبها . وإنما عدد حججها التي استحقت أن تسمى نورا وكاد يظن الواصل إليها أنه قد تم وصوله إلى الأصل سبعون حجابا . قال صلى الله عليه وسلم : إن لله سبعين حجابا من نور لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل ما أدرك بصره ^(١) ، وتلك الحجب أيضا مترتبة وتلك الأنوار متفاوتة في الرتب تفاوت الشمس والقمر والكواكب ويبدو في الأول أصغرهما ثم ما يليه وعليه أول بعض الصورية درجات ما كان يطهر لإبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم في ترقيه وقال ﴿ فلما جن عليه الليل ﴾ أي أظلم عليه الأمر ﴿ رأى كوكبا ﴾ أي وصل إلى حجاب من حجب النور فعبّر عنه بالكوكب وما أريد به هذه الأجسام المضيئة فان آحاد العوام لا يخفى عليهم أن الربوبية لا تنلي بالأجسام بل يدركون ذلك بأوامل نظرهم فما لا يضل العوام لا يضل الخليل عليه السلام . والحجب المسماة أنوارا ما أريد بها الضوء المحسوس بالبصر بل أريد بها ما أريد بقوله تعالى ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ﴾ الآية ولنتجاوز هذه المعاني فإنها خارجة عن علم المعاملة ولا يوصل إلى حقائقها إلا الكشف التابع للفكر الصافي وقل من يفتح له بابه والمتميسر على حاهير الخلاق الصكرفيا يفيد في علم المعاملة وذلك أيضا مما تغزر فائدته ويعظم نفعه . فهذه الوظائف الأربعة أعني : الدعاء والذكر والقراءة والفكر ، ينبغي أن تكون وظيفة المرید بعد صلاة الصبح بل في كل ورد بعد العشاء من وظيفة الصلاة فليس بعد الصلاة وطيمة سوى هذه الأربع . ويقوى على ذلك بأن يأخذ سلاحه ومجنته والصوم هو الجملة التي تضيق بجاري الشيطان المعادي الصارو له عن سبيل الرشاد . وليس بعد طلوع الصبح صلاة سوى ركعتي الفجر وفرض الصبح إلى طلوع الشمس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضی الله عنهم يشتغلون في هذا الوقت بالأذكار ^(٢) وهو الأولى إلى أن يغلبه النوم قبل الغرض ولم يندفع إلا بالصلاة فلو صلى لذلك فلا بأس به .

الورد الثاني : ما بين طلوع الشمس إلى ضحوة النهار وأعني بالضحوة منتصف ما بين طلوع الشمس إلى الزوال وذلك بمضي ثلاث ساعات من النهار إذا فرض النهار اثنتي عشرة ساعة وهو الربع . وفي هذا الربع من النهار وظيفتان زائدتان ؛ إحداهما : صلاة الضحى . وقد ذكرناها في كتاب الصلاة . وأن الأولى أن يصلي ركعتين عند الإشراق وذلك إذا انبسطت الشمس وارتفعت قدر نصف ربح ويصلي أربعاً أو ثمانياً إذا رمضت المصالح وضحيت الأقدام بحز الشمس . فوقت الركعتين هو الذي أراد الله تعالى بقوله ﴿ يسبحن بالعشى والإشراق ﴾ فإنه وقت إشراق الشمس وهو ظهور تمام نورها بارتفاعها عن موازات البخارات والغيارات التي على وجه الأرض

(١) حديث « إن لله سبعين حجاباً من نور ... الحديث » تقدم في قواعد العقائد .

(٢) حديث « اشتغاله بالأذكار من الصبح إلى طلوع الشمس » تقدم حديث جابر بن سمرة عند مسلم في جلوسه صلى الله عليه وسلم إذا صلى العجر في مجلسه حتى تطلع الشمس وليس به ذكر اشتغاله بالذكر ولذا هو من قوله عما تقدم من حديث أنس .

(٣) — لأحياء علوم الدين — (١)

فإنها تمنع إشرافها التام ، ووقت الركعات الأربع هو الضحى الأعلى الذى أقسم الله تعالى به فقال ﴿ والضحى والليل إذا يحى ﴾ وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه وهم يصلون عند الإشراق فنادى بأعلى صوته : **الآن صلاة الأوابين** إذ ارمضت المصال ^(١) ، فلذلك نقول إذا كان يقتصر على مرة واحدة في الصلاة فهذا الوقت أفضل لصلاة الضحى وإن كان أصل الفضل يحصل بالصلاة بين طرفى وقتى الكراهة وهو ما بين ارتفاع الشمس بطول نصف ربح بالتقريب إلى ما قبل الزوال في ساعة الاستواء . واسم الضحى ينطلق على الكل وكان ركعتى الإشراق تقع في مبتدأ وقت الإذن في الصلاة وانقضاء الكراهة إذ قال صلى الله عليه وسلم « إن الشمس تطلع ومعهما قرن الشيطان فإذا ارتفعت فارقهما ^(٢) » فأقل ارتفاعها أن ترتفع عن بخارات الأرض وغبارها وهذا يراعى بالتقريب .

الوظيفة الثانية في هذا الوقت : الخيرات المتعلقة بالناس التي جرت بها العادات بكرة من عيادة مريض وتشجيع جنازة ومعاونة على بر وتقوى وحضور مجلس علم وما يجرى مجراه من قضاء حاجة لمسلم وغيرها . فإن لم يكن شيء من ذلك عاد إلى الوظائف الأربع - التي قدمناها من الأدعية والذكر والقراءة والفكر والصلوات - المتطوع بها إن شاء فإنها مكروهة بعد صلاة الصبح وليست مكروهة الآن . فتصير الصلاة قسما خامسا من جملة وظائف هذا الوقت لمن أرادها أما بعد فريضه الصبح ففكره كل صلاة لا سبب لها . وبعد الصبح الأحب أن يقتصر على ركعتى الفجر وتحية المسجد ولا يشتغل بالصلاة بل بالأذكار والقراءة والدعاء والفكر .

الورد الثالث : من ضحوة النهار إلى الزوال ويعنى بالضحوة المنتصف وما قبله بقليل ، وإن كان بعد كل ثلاث ساعات أمر بصلاة فإذا انقضى ثلاث ساعات بعد الطلوع فعندها وقبل مضى صلاة الضحى . فإذا مضت ثلاث ساعات أخرى فالظهر . فإذا مضت ثلاث ساعات أخرى فالعصر . فإذا مضت ثلاث أخرى فالمغرب . ومنزلة الضحى بين الزوال والطلوع كنزلة العصر بين الزوال والغروب ، إلا أن الضحى لم تعرض لانه وقت انكباب الناس على أشغالهم يخفف عنهم . الوظيفة الرابعة : في هذا الوقت الأقسام الأربعة ، ويزيد أمران : أحدهما ؟ الاشتغال بالكسب وتدبير المعيشة وحضور السوق فإن كان تاجراً فينبغى أن يتجر بصدق وأمانة وإن كان صاحب صناعة فينبغى وشغفه ولا ينسى ذكر الله تعالى في جميع أشغاله ويقتصر من الكسب على قدر حاجته ليومه مهما قدر على أن يكتسب في كل يوم لقوته . فإذا حصل كفاية يومه فابرحع إلى بيت ربه ولا يتزود لآخرته فإن الحاجة إلى زاد الآخرة أشد والتنع به أدم فاشتغاله بكسبه أهم من طلب الزيادة على حاجة الوقت . فقد قيل : لا يوجد المؤمن إلا في ثلاث مواطن مسجد يعمره أو بيت يستره أو حاجة لا بد له منها . وقل من يعرف القدر فيما لا بد منه بل أكثر الناس يقتدرون فيما منه بد أنه لا بد لهم منه وذلك لأن الشيطان يعدم الفقر ويأمرهم بالفحشاء فيصغون إليه ويجمعون مالا يآكون خيفة الفقر والله يعدم مغفرة منه وفصلا فيعرضون عنه ولا يرغبون فيه . الأمر الثانى : القيلولة وهى سنة يستعان بها على قيام الليل كما أن السحر سنة يستعان به على صيام النهار . فإن كان لا يقوم بالليل لكن لو لم يتم لم يشتغل بخير وربما خالط أهل الغفلة وتحدث معهم فالتوم أحب له إذا كان لا ينبغى نشاطه للرجوع إلى الأذكار والوظائف المذكورة إذ في النوم الصمت والسلامة ، وقد قال بعضهم : يأتي على الناس زمان الصمت والنوم فيه أفضل أعمالهم . وكمن عابد أحسن أحواله التوم وذلك إذا كان يرائى بعبادته ولا يلخص فيها فكيف بالغافل

(١) حديث « خرج على أصحابه وهم يصلون عند الإشراق فنادى بأعلى صوته : **الآن صلاة الأوابين** إذا رمضت المصال » أخرجه الطبراني من حديث ريد بن أرقم دون قوله « نادى بأعلى صوته » وهو عند مسلم دون ذكر الإشراق . (٢) حديث « **لن الشمس تطلع ومعهما قرن الشيطان فإذا ارتفعت فارقهما** » تقدم في الصلاة .

الفاسق؟ قال سفيان الثوري رحمه الله: كان يعصمهم إذا تفرغوا أن يناموا طلبا للسلامة فإذا كان نومه على قصد طلب السلامة ونية قيام الليل كان نومه قربة. ولكن ينبغي أن يتنبه قبل الزوال بقدر الاستعداد للصلاة بالوضوء وحضور المسجد قبل دخول وقت الصلاة فإن ذلك من فضائل الأعمال وإن لم يتم ولم يشتغل بالكسب واشتغل بالصلاة والذكر فهو أفضل أعمال النهار لأنه وقت غفلة الناس عن الله عز وجل واشتغالهم بهموم الدنيا فالقالب المتفروح لخدمة ربه عند إعراض العميد عن بابه جدير بأن يزيه الله تعالى ويصطفيه لقربه ومعرفته. وفضل ذلك كفضل إحياء الليل فإن الليل وقت الغفلة بالنوم وهذا وقت الغفلة باتباع الهوى والاشتغال بهموم الدنيا وأحد معنى قوله تعالى: ﴿ وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر ﴾ أي يحلف أحدهما الآخر في الفضل والثاني: أنه يخلفه فيتدارك فيه ما فات في أحدهما.

الورد الرابع: ما بين الزوال إلى الفراغ من صلاة الظهر ورائته وهذا أقصر أوراد النهار وأفضلها: فإذا كان قد توصا قبل الزوال وحضر المسجد فهما زالت الشمس وابتدأ المؤذن الأذان فليصبر إلى الفراغ من جواب أذانه ثم ليقيم إلى إحياء ما بين الأذان والإقامة فهو وقت الإظهار الذي أراه الله تعالى بقوله ﴿ وحين تظهرون ﴾ وليصل في هذا الوقت أربع ركعات لا يفصل بينهن بتسليمة واحدة^(١) وهذه الصلاة وحدها من بين سائر صلوات النهار نقل بعض العلماء أنه يصلها بتسليمة واحدة ولكن طعن في تلك الرواية، ومذهب الشافعي رضي الله عنه أنه يصلي مثنى مثنى كسائر التوافل ويفصل بتسليمة^(٢) وهو الذي صححت به الأخبار وليطول هذه الركعات إذ فيها تفتح أبواب السماء كما أوردنا الخبر فيه في باب صلاة التطوع وليقرأ فيها سورة البقرة أو سورة من المثني أو أربعاً من المثاني فهذه ساعات يستجاب فيها الدعاء. وأحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرتفع له فيها عمل، ثم يصلي الظهر بجماعة بعد أربع ركعات طويلة - كما سبق - أو قصيرة لا ينبغي أن يدعها. ثم ليصل بعد الظهر ركعتين ثم أربعاً فقد كره ابن مسعود أن تتبع العريضة بمثلها من غير فاصل ويستحب أن يقرأ في هذه النافلة آية الكرسي وآخر سورة البقرة والآيات التي أوردناها في الورد الأول ليكون ذلك جامعاً له بين الدعاء والذكر والقراءة والصلاة والتحميد والتسبيح مع شرف الوقت.

الورد الخامس: ما بعد ذلك إلى العصر ويستحب فيه العكوف في المسجد مشتغلاً بالذكر والصلاة أو فنون الخير ويكون في انتظار الصلاة معتكفاً. فمن فضائل الأعمال انتظار الصلاة بعد الصلاة وكان ذلك سنة السلف كان الداخل يدخل المسجد بين الظهر والعصر فيسمع للمصلين دوياً كدوى النحل من التلاوة. فإن كان بيته أسلم لدينه وأجمع لهمه فالبيت أفضل في حقه فإحياء هذا الورد وهو أيضاً وقت غفلة الناس كإحياء الورد الثالث في الفضل. وفي هذا الوقت يكره النوم لمن نام قبل الزوال إذ يكره نومتان بالنهار قال بعض العلماء: ثلاث يمقت الله عليهما، الضحك بغير عجب والأكل من غير جوع والنوم بالنهار من غير سهر بالليل. والحد في النوم أن الليل والنهار أربع وعشرون ساعة فالاعتدال في نومه ثمان ساعات في الليل والنهار جميعاً فإن نام هذا القدر بالليل فلا معنى للنوم بالنهار، وإن نقص منه مقداراً استوفاه بالنهار فحسب أن آدم إن عاش ستين سنة أن ينقص من عمره عشرون سنة. ومهما نام ثمان ساعات وهو الثلث فقد نقص من عمره الثلث ولكن لما كان النوم عداء الروح كما أن الطعام غذاء الأبدان

(١) حديث « صلاة أربع بعد الزوال تسليمة واحدة » وفيه « أنها فيها تفتح أبواب السماء وأنها ساعة يستجاب فيها الدعاء فأحد أن يرتفع لي فيها عمل صالح » أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث أبي أيوب وقد تقدم في الصلاة في الباب السادس.

(٢) حديث « صلاة الليل والنهار مثنى مثنى » أخرجه أبو داود وابن حبان من حديث ابن عمر.

وكما أن العلم والذكر غذاء القلب لم يمكن قطعه عنه وقدّر الاعتدال هذا والنقصان منه ربما يفضى إلى اضطراب البدن إلا من يتعود السهر تدريجاً فقد يمتن نفسه عليه من غير اضطراب . وهذا الورد من أطول الأوراد وأمتعها للعباد وهو أحد الآصال التي ذكرها الله تعالى إذ قال ﴿ ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرها وظلالهم بالغدو والآصال ﴾ وإذا سجد لله عز وجل الجمادات فكيف يجوز أن يغفل العبد العاقل عن أنواع العبادات ؟

الورد السادس : إذا دخل وقت العصر دخل وقت الورد السادس وهو الذي أقسم الله تعالى به فقال تعالى ﴿ والعصر ﴾ هذا أحد معني الآية وهو المراد بالآصال في أحد التفسيرين وهو العشي المذكور في قوله ﴿ وعشيا ﴾ وفي قوله ﴿ بالعشي والإشراق ﴾ وليس في هذا الورد صلاة إلا أربع ركعات بين الأذان والإقامة - كما سبق في الظهر - ثم يصلى الفرض ويستغل بالأقسام الأربعة المذكورة في الورد الأول إلى أن ترتفع الشمس إلى رءوس الحيطان وتصفر . والأفضل فيه إذ منع عن الصلاة تلاوة القرآن بتدبر وتمهم إذ يجمع ذلك بين الذكر والدعاء والفكر فيندرج في هذا القسم أكثر مقاصد الأقسام الثلاثة .

الورد السابع : إذا اصفرت الشمس بأن تقرب من الأرض بحيث يغطي نورها العبارات والبخارات التي على وجه الأرض ويرى صفرة في ضوئها دخل وقت هذا الورد وهو مثل الورد الأول من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس لأنه قبل الغروب كما أن ذلك قبل الطلوع وهو المراد بقوله تعالى ﴿ فسبحان الله حين تمشون وحين تصبحون ﴾ وهذا هو الطرف الثاني المراد بقوله تعالى ﴿ فسبح وأطراف النهار ﴾ قال الحسن . كانوا أشد تعظيماً للعشي منهم لأول النهار . وقال بعض السلف : كانوا يجعلون أول النهار للدنيا وآخره للآخرة : فيستحب في هذا الوقت التمسح والاستغفار خاصة وسائر ما ذكرناه في الورد الأول مثل أن يقول : أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأسأله التوبة وسبحان الله العظيم وبحمده ، مأخوذ من قوله تعالى ﴿ واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار ﴾ والاستغفار على الأسماء التي في القرآن أحب كقوله ﴿ أستغفر الله إنه كان عصاراً - أستغفر الله إنه كان تواباً - رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين - فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين - فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ﴾ ويستحب أن يقرأ قبل غروب الشمس : والشمس وضحاها والليل إذا يعشي والمعوذتين . ولتغرب الشمس عليه وهو في الاستغفار فإذا سمع الأذان قال ، اللهم هذا إقبال ليلك وإدبار مارك وأصوات دعائك - كما سبق - ثم يجيب المؤذن ويشغل بصلاة المغرب . وبالمغرب قد انتهت أوراد النهار فينبغي أن يلاحظ العبد أحواله ويحاسب نفسه فقد انقضى من طريقه مرحلة ، فإن سوى يومه أمسه فيكون مغبوناً وإن كان شراً منه فيكون معلوناً فقد قال صلى الله عليه وسلم ، لا بورك لي في يوم لا أزداد فيه خيراً ^(١) ، فإن رأى نفسه متوفراً على الخير جميع نهاره مترفها عن التجشم كانت بشارة فليشكر الله تعالى على توفيقه وتسديده إياه لطريقه وإن تكن الأخرى فالليل خلقة النهار فليعزم على تلافي ماسبق من تفریطه فإن الحسنات يذهبن السيئات . وليشكر الله تعالى على صحة جسمه وبقاء بقية من عمره طول ليله ليشتغل بتدارك تقصيره وليحضر في قلبه أن نهار العمر له آخر تغرب فيه شمس الحياة فلا يكون لها بعدها طلوع . وعند ذلك يخلق باب التدارك والاعتذار فليس العمر إلا أياماً معدودة تنقضى لا محالة جملة بانقضاء آحادها .

(١) حديث « لا بورك لي في يوم لا أزداد فيه خيراً » تقدم في العلم في الباب الأول إلا أنه قال « علماً ، بدل « خيراً » .

بيان أوراد الليل وهي خمسة

الأول : إذا غربت الشمس صلى المغرب واستغل بإحياء ما بين العشاءين فآخر هذا الورد عند غيبوبة الشفق أعنى الحرة التي بغيبوبتها يدخل وقت العتمة وقد أقسم الله تعالى به فقال ﴿ فلا أقسم بالشفق ﴾ والصلاة فيه هي ناشئة الليل لأنه أول نسو ساعاته وهو أن من الآناء المذكورة في قوله تعالى ﴿ ومن آناء الليل فسبح ﴾ وهي صلاة الأوابين . وهي المراد بقوله تعالى ﴿ تتجاني جنوبهم عن المضاجع ﴾ روى ذلك عن الحسن وأسند ابن أبي زياد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه سئل عن هذه الآية فقال صلى الله عليه وسلم : الصلاة بين العشاءين ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : عليكم بالصلاة بين العشاءين فإنها تذهب بملاغات النهار وتهذب آخره ^(١) ، والملاغات جمع ملغاة من اللغو . وسئل أنس رحمه الله عن يوم بين العشاءين فقال : لا تفعل فإنها الساعة المعنية بقوله تعالى ﴿ تتجاني جنوبهم عن المضاجع ﴾ وسيأتى فضل لإحياء ما بين العشاءين في الباب الثاني . وترتيب هذا الورد أن يصلى بعد المغرب ركعتين أولاً يقرأ فيهما قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد ويصليهما عقيب المغرب من غير تخلل كلام ولا شغل ثم يصلى أربعاً يطيلها ثم يصلى إلى غيبوبة الشفق ما تيسر له . وإن كان المسجد قريباً من المنزل فلا بأس أن يصليها في بيته إن لم يكن عزمه العكوف في المسجد وإن عزم على العكوف في انتظار العتمة فهو الأفضل إذا كان آمناً من التصنع والرياء .

والورد الثاني : يدخل بدخول وقت العشاء الآخرة إلى حدّ نومة الناس وهو أول استحكام الظلام وقد أقسم الله تعالى به إذ قال ﴿ واللبل وما وسق ﴾ أي وما جمع من ظلمته وقال ﴿ إلى غسق الليل ﴾ فهناك يغسق الليل وتستوسق ظلمته . وترتيب هذا الورد بمراعاة ثلاثة أمور (الأول) أن يصلى سوى فرص العشاء عشر ركعات : أربعاً قبل الفرض لإحياء لما بين الأذانين وستاً بعد الفرض ركعتين ثم أربعاً ويقرأ فيها من القرآن الآيات المخصوصة كآخر البقرة وآية الكرسي وأول الحديد وآخر الحشر وغيرها . (والثاني) أن يصلى ثلاث عشرة ركعة آخرهن الوتر فإنه أكثر ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى بها من الليل ^(٢) ، والأوكياس يأخذون أوقاتهم من أول الليل والأقويام من آخره . والحزم التقديم فإنه ربما لا يستيقظ أو يشغل عليه القيام إلا إذا صار ذلك عادة له فآخر الليل أفضل . ثم ليقرأ في هذه الصلاة قدر ثلثمائة آية من السور المخصوصة التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر قراءتها مثل يس وسجدة لقمان وسورة الدخان وتبارك الملك والزمر والواقعة ^(٣) فإن لم يصل فلا يدع قراءة هذه السور أو بعضها

(١) حديث « مثل عن قوله تعالى ﴿ تتجاني جنوبهم عن المضاجع ﴾ فقال الصلاة بين العشاءين ثم قال عليكم بالصلاة بين العشاءين فإنها تذهب بملاغات النهار وتهذب آخره » قال المصنف أسنده ابن أبي الزناد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . قلت : لمعنا هو لإسماعيل بن أبي زياد بإيحاء المنتاة من تحت رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية لإسماعيل بن أبي زياد الداهي عن الأعمش . حدثنا أبو العلاء العنبري عن سلمان قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عليكم بالصلاة بين العشاءين فإنها تذهب بملاغات أول النهار ومهذبة آخره » وإسماعيل هذا متروك يضع الحديث قاله الدارقطني . واسم أبي زياد مسلم وقد اختلف فيه على الأعمش ولابن مردويه من حديث أنس « أنها نزلت في الصلاة بين المغرب والعشاء » والحديث عند الترمذي وحسنه بإفظ « نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة .

(٢) حديث « الوتر ثلاث عشرة ركعة يعني بالليل وأنه أكثر ما صلى به النبي صلى الله عليه وسلم من الليل » أخرجه أبو داود من حديث عائشة « لم يكن يوتر بأقصى من سبع ولا بأكثر من ثلاث عشرة ركعة » والبخاري من حديث ابن عباس « وكانت صلواته ثلاث عشرة ركعة يعني بالليل » وسئل « كان يصلى من الليل ثلاث عشرة ركعة » وفي رواية للشيخين « منها ركعتا المجر » ولها أيضاً ما كان يزيد في رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة . (٣) حديث « ما كثره صلى الله عليه وسلم من قراءة يس وسجدة لقمان وسورة الدخان وتبارك الملك والزمر والواقعة » غريب لم أقف على ذكر الإكثار فيه وابن حبان من حديث »

قبل النوم فقد روى في ثلاث أحاديث ما كان يقرؤه رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل ليلة أشهرها : السجدة وتبارك الملك ^(١) والزمر والواقعة وفي رواية : الزمر وبني إسرائيل ^(٢) وفي أخرى : أنه كان يقرأ المسبحات في كل ليلة ويقول فيها آية أفضل من ألف آية ^(٣) وكان العلماء يجعلونها ستاً فين يدون سبح اسم ربك الأعلى إذ في الخبر « أنه صلى الله عليه وسلم كان يحسب سبح اسم ربك الأعلى . وكان يقرأ في ثلاث ركعات الوتر ثلاث سور سبح اسم ربك الأعلى ^(٤) » وقل يا أيها الكافرون والإخلاص ^(٥) فإذا فرغ قال : سبحان الملك القدوس ثلاث مرات ، (الثالث) الوتر : وليوتر قبل النوم إن لم يكن عادته القيام قال أبو هريرة رضي الله عنه : أوصاني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أنام لإلا على وتر ^(٦) وإن كان معتاداً صلاة الليل والتأخير أفضل . قال صلى الله عليه وسلم « صلاة الليل مثنى مثنى فإذا خمت الصبح فأوتر بركعة ^(٧) » ، وقالت عائشة رضي الله عنها « أوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم أول الليل وأوسطه وآخره وانتهى وتره إلى السحر ^(٨) » ، وقال علي رضي الله عنه : الوتر على ثلاثة أنحاء إن شئت أوترت أول الليل ثم صليت ركعتين ركعتين يعني أنه يصير وترًا بما مضى وإن شئت أوترت بركعة فإذا استيقظت شفعت إليها أخرى ثم أوترت من آخر الليل وإن شئت أخرت الوتر ليكون آخر صلاتك ، هذا ما روى عنه والطريق الأول والثالث لا بأس به وأما نقض الوتر فقد صح فيه نهى فلا ينبغي أن ينقض ^(٩) وروى مطلقاً أنه صلى الله عليه وسلم قال « لا وتران في ليلة ^(١٠) » ، ولمن يتردد في استيقاظه تلتطف استحسنة بعض العلماء وهو أن يصلي بعد الوتر ركعتين جالساً على فراشه عند النوم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزحف إلى فراشه ويصليهما ويقرأ فيهما إذا زلزلت وأهلها كم ^(١١) لما فيهما من التحذير والوعيد وفي رواية قل يا أيها الكافرون لما فيها من التبرئة وإفراد العبادة لله تعالى ، فقيل إن استيقظ قائماً مقام ركعة واحدة وكان له أن يوتر بواحدة في آخر صلاة الليل وكأنه صار ماضياً شفعا بهما . وحسن استئناف الوتر واستحسن هذا أبو طالب المكي وقال فيه ثلاثة أعمال قصر الأمل وتحصيل الوتر والوتر آخر الليل ، وهو كما

= جندب « من قرأ يس في ليلة ابتداء وجه الله غفر له والترمذي من حديث جابر « كان لا ينام حتى يقرأ الم تنزيل السجدة وتبارك الذي بيده الملك » وله من حديث عائمة « كان لا ينام حتى يقرأ بني إسرائيل والرزم » وقال حسن عريب وله من حديث أبي هريرة « من قرأ حم الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك » قال غريب ولأن الشيخ في الثواب من حديث عائمة « من قرأ في ليلة الم تنزيل ويس وتبارك الذي بيده الملك واقترت كمن له نوراً ... الحديث » ولأن منصور المظفر بن الحسين المزبوي في فضائل القرآن من حديث علي « ياعلى أكثر من قراءة يس ... الحديث » وهو منكر وللحارث بن أبي أسامة من حديث ابن مسعود بسند ضعيف « من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً » والترمذي من حديث ابن عباس « شيتني هود والواقعة .. الحديث » وقال حسن غريب . (١) حديث « كان يقرأ في كل ليلة السجدة وتبارك الملك » أخرجه الترمذي وتقدم في الحديث قبله . (٢) حديث « كان يقرأ في كل ليلة الزمر وبني إسرائيل » أخرجه الترمذي وتقدم أيضاً .

(٣) حديث « كان يقرأ المسبحات في كل ليلة ويقول : فيهن آية أفضل من ألف آية » أخرجه أبو داود والترمذي وقال حسن والسائي في الكبرى من حديث عراب بن سارية .

(٤) حديث « كان يحسب سبح اسم ربك الأعلى » أخرجه أحمد والبخاري من حديث علي بسند ضعيف . (٥) حديث « كان يقرأ في ثلاث ركعات الوتر يسبح اسم ربك الأعلى وقل يا أيها الكافرون والإخلاص » أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث أبي بن كعب بإسناد صحيح وتقدم في الصلاة من حديث أنس . (٦) حديث أبي هريرة « أوصاني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أنام لإلا على وتر » متفق عليه بلفظ « أن أوتر قبل أن أنام » . (٧) حديث « صلاة الليل مثنى مثنى فإذا خت الصبح فأوتر بركعة » متفق عليه من حديث ابن عمر . (٨) حديث عائشة « أوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم أول الليل وأوسطه وآخره وانتهى وتره إلى السحر » متفق عليه . (٩) حديث « انتهى عن نقض الوتر » قال المصنف صح فيه نهى قلت : ولأنما صح من قول عابد بن عمرو وله صحبة كما رواه البخاري ومن قوله ابن عباس كما رواه البيهقي ولم يصرح بأنه مرفوع فظاهر أنه إنما أراد ما ذكرناه عن الصحابة . (١٠) حديث « لا وتران في ليلة » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه والنسائي من حديث طلق بن علي (١١) حديث « الركعتين بعد الوتر جالساً » تقدم في الصلاة رواه مسلم من حديث عائمة .

ذكره لكن ربما يخطر أهمها لشفعتها ماضى لكان كذلك ، وإن لم يستيقظ وأبطل وتره الأول فكونه شافعا إن استيقظ غير مشفع إن نام فيه نظرا إلا أن يصح من رسول الله صلى الله عليه وسلم إيتاره قبلهما وإعادته الوتر فيفهم منه أن الركعتين شفع بصورتها وتر بمعناها فيحسب وتر أن لم يستيقظ وشفعا إن استيقظ . ثم يستحب بعد التسليم من الوتر أن يقول سبحان الملك القدوس رب الملائكة والروح جللت السموات والأرض بالعظمة والجبروت ، وتعززت بالقدره وقهرت العباد بالموت روى « أنه صلى الله عليه وسلم ما مات حتى كان أكثر صلاته جالسا إلا المكتوبة (١) » وقد قال « للقاعد نصف أجر القائم وللنائم نصف أجر القاعد (٢) » ، وذلك يدل على صحة النافلة دائما .

الورد الثالث : النوم ولا بأس أن يعد ذلك في الأورد فإنه إذا روعيت آدابه احتسب عبادة فقد قيل : إن للعبد إذا نام على طهارة وذكر الله تعالى يكتب مصليا حتى يستيقظ ويدخل في شعاره ملك فإن تحرك في نومه فذكر الله تعالى دعا له الملك واستغفر له الله (٣) ، وفي الخبر « إذا نام على طهارة رفع روحه إلى العرش (٤) » ، هذا في العوام فكيف بالخواص والعلماء وأرباب القلوب الصافية ؟ فإنهم يكاشفون بالأسرار في النوم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « نوم العالم عبادة ونفسه تسبيح (٥) » ، وقال معاذ لأبي موسى : كيف تصنع في قيام الليل ؟ فقال أقوم الليل أجمع لا أنام منه شيئا وأنفوق القرآن فيه تفوقا قال معاذ : لكني أنا أنام ثم أقوم واحتسب في نومي ما احتسب في قومي . فذكرنا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : معاذ أفقه منك (٦) وأداب النوم عشرة (الأول) الطهارة والسواك : قال صلى الله عليه وسلم « إذا نام العبد على طهارة عرج بروحه إلى العرش فكانت رؤياه صادقة وإن لم ينم على طهارة قصرت روحه عن البلوغ فتلك المنامات أضغاث أحلام لا تصدق (٧) » ، وهذا أريد به طهارة الظاهر والباطن جميعا ، وطهارة الباطن هي المؤثرة في انكشاف حجب الغيب (الثاني) أن يعد عنه رأسه سواكه وطهوره وينوى القيام للعبادة عند التيقظ وكلما يتنبه يستاك ؛ كذلك كان يفعله بعض السلف . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنه كان يستاك في كل ليلة مرارا عند كل نومة وعند التنبه منها (٨) » وإن لم يتسمر له الطهارة يستحب له مسح الأعضاء بالماء فإن لم يجد فليقعد وليستقبل القبلة وليستغل بالذكر والدعاء والتفكير في آلاء الله تعالى وقدرته فذلك يقوم مقام قيام الليل . وقال صلى الله عليه وسلم « من أتى فراشه وهو ينوى أن يقوم يصلى من الليل فغلبته عيناه حتى يصبح كتب له ما نوى وكان نومه صدقة عليه من الله تعالى (٩) » (الثالث) أن لا يبيت من له وصية إلا ووصيته مكتوبة عند رأسه فإنه لا يأمن

(١) حديث « ما مات حتى كان أكثر صلاته جالسا إلا المكتوبة » متفق عليه من حديث عائشة « لما بدن إلى صلى الله عليه وسلم ونقل كان أكثر صلاته جالسا » . (٢) حديث « للقاعد نصف أجر القائم وللنائم نصف أجر القاعد » أخرجه البخاري من حديث عمران بن حصين . (٣) حديث « قيل إنه إذا نام على طهارة ذكر الله تعالى يكتب مصليا ويدخل في شعاره ملك .. الحديث » أخرجه ابن حبان من حديث ابن عمر « من بات طاهرا بات في شعاره ملك فلم يستيقظ إلا قال الملك اللهم اعمر لعبدك فلان فإنه بات طاهرا » (٤) حديث « إذا نام على الطهارة رفع روحه إلى العرش » أخرجه ابن المبارك في الرهد موقوفا على أبي الدرداء والبيهقي في الذم موقوفا على عبد الله بن عمرو بن العاص . وروى الطبراني في الأوسط من حديث علي « ما من عبدا ولا أمة تمام فتقبل يوما إلا عرج بروحه إلى العرش فالذي لا يستيقظ إلا بعد العرش فتلك الرؤيا التي تصدق والذي يستيقظ دون العرش فهي الرؤيا التي تكتب » هو ضعيف . (٥) حديث « نوم العالم عبادة ونفسه تسبيح » قلت المعروف فيه الصائم دون العالم . وقد تقدم في الصوم (٦) حديث « قال معاذ لأبي موسى كيف تصنع في قيام الليل ؟ فقال أقوم الليل أجمع لا أنام منه شيئا وأنفوق القرآن تفوقا قال معاذ لكني أنا أنام ثم أقوم واحتسب في نومي ما احتسب في قومي فذكر ذلك لأبي صلى الله عليه وسلم فقال : معاذ أفقه منك » متفق عليه بحوه من حديث أبي سعيد وليس فيه « أنها ذكرنا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم » ولأقوله « معاذ أفقه منك » وإنما زاد نيه الطبراني « فكان معاذ أفضل منه » . (٧) حديث « إذا نام العبد على طهارة عرج بروحه إلى العرش فكانت رؤياه صادقة » الحديث تقدم . (٨) حديث « أنه كان يستاك في كل ليلة مرارا عند كل نومه وعند التنبه منها » تقدم في الطهارة . (٩) حديث « من أتى فراشه وهو ينوى أن يقوم يصلى من الليل فغلبته عيناه حتى يصبح كتب له ما نوى وكان نومه صدقة من الله عليه » أخرجه النسائي وابن ماجه من حديث أبي الدرداء بسند صحيح .

القبص في النوم فإن من مات من غير وصه لم يؤذن له في السلام بالبرزخ إلى يوم القيامة ، يزاوره الاموات ويتحدثون وهو لا يتكلم فيقول بعضهم لبعض هذا المسكين مات من غير وصية ، وذلك مستحب خوف موت المعناه وموت المعناه تخفيف لإلا لم ليس مستعداً للموت بكونه مثقل الظهور بالمظالم (الرابع) أن ينام تاماً من كل ذنب سليم القلب لجميع المسلمين لا يحدث نفسه بظلم أحد ، ولا يعزم على معصية إن استيقظ ، قال صلى الله عليه وآله وسلم « من أوى إلى فراشه لا ينوي ظم أحد ولا يحدث على أحد غفر له ما أحترم ^(١) » ، (الخامس) أن لا يتنعم بتمهيد الفرش الناعمة بل يترك ذلك أو يقتصد فيه . كان بعض السلف يكره التمهيد للنوم ويرى ذلك سكلفاً . وكان أهل الصفة لا يجعلون بينهم وبين التراب حاجراً ويقولون منها حلقتنا وإليها نرد وكانوا يرون ذلك أرق لقلوبهم وأجدر بتواضع نفوسهم فمن لم تسمح بذلك نفسه فليقتصد (السادس) أن لا ينام مالم يغلبه النوم ولا يتكلف استجلابه إلا إذا قصد به الاستئمان على القيام في آخر الليل فقد كان نومهم غلبة وأكلهم فاقة وكلامهم ضرورة ولذلك وصفوا بأنهم كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وإن غلبه النوم عن الصلاة والذكر وضار لا يدري ما يقول فليتم حتى يعقل ما يقول . وكان ابن عباس رضي الله عنه يكره النوم قاعداً وفي الخبر « لا تكابدوا الليل ^(٢) » وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم « إن فلانة تصلى بالليل فإذا غلبها النوم تعلقت بجبل فنهى عن ذلك وقال : لصل أحدكم من الليل ما تيسر له فإذا غلبه النوم فليرقد ^(٣) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « تكفوا من العمل ما تطيقون فإن الله لن يمل حتى تملاوا ^(٤) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « خير هذا الدين أيسره ^(٥) » ، وقيل له صلى الله عليه وسلم « إن فلانا يصلي فلا ينام ويصوم فلا يفطر فقال لكني أصلي وأنام وأصوم وأفطر هذه سنتي فمن رغب عنها فليس مني ^(٦) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « لا تشادوا هذا الدين فإنه متين فمن يشاده يغلبه فلا تبغض إلى نفسك عبادة الله ^(٧) » ، (السابع) أن ينام مستقبل القبلة . والاستقبال على ضربين أحدهما . استقبال المخضر . وهو المستلق على ففاه . فاستقباله أن يكون وجهه وأخصاه إلى القبلة . والثاني : استقبال اللحد وهو أن ينام على جنب بأن يكون وجهه إليها مع قبالة بدنه إذا نام على شفه الأيمن (الثامن) الدعاء عند النوم فبقول باسمك ربى وضعت جنبي وباسمك أرهه إلى آخر الدعوات المسأورة التي أوردناها في كتاب الدعوات ^(٨) ويستحب أن يقرأ الآيات المخصوصة مثل آية الكرسي وآخر البقرة وغيرها وقوله تعالى ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو ﴾ إلى قوله ﴿ لقوم يعقلون ﴾ يقال إن من قرأها عند النوم حفظ الله عليه القرآن فلم ينسه ويقرأ من سورة الأعراف الآية ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ﴾ إلى قوله

(١) حديث « من أوى إلى فراشه لا ينوي ظم أحد ولا يحدث على أحد عمره ما أحترم » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب النية من حديث أنس « من أسع ولم يظم أحد عمره ما أحترم » وسنده صحيح . (٢) حديث « لا تكابدوا الليل » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بسند ضعيف وفي جامع سفيان الثوري موقوفاً على ابن مسعود « لا تكابدوا هذا الليل » . (٣) حديث « قيل له إن فلانة تصلي فإذا غلبها النوم تعلقت بجبل فنهى عن ذلك » الحديث « تمتق عليه من حديث عائشة سفظ حديث أنس . (٤) حديث « تكفوا من العمل ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملاوا » تمتق عليه من حديث عائشة سفظ « اكفوا » . (٥) حديث « خير هذا الدين أيسره » أخرجه أحمد من حديث مجاهد بن الأدرع وعدم في العلم . (٦) حديث « قيل له إن فلانا يصلي ولا ينام ويصوم ولا يفطر فقال : لكني أصلي وأنام وأصوم وأفطر هذه سنتي فمن رغب عنها فليس مني » أخرجه النسائي من حديث عبد الله بن عمرو دون قوله « هذه سنتي » الخ وهذه الزيادة لابن خزيمة « من رغب عن سنتي فليس مني » وهي تمتق عليها من حديث أنس . (٧) حديث « لا تشادوا هذا الدين فإنه متين فمن يشاده يملبه ولا تنصم إلى نفسك عبادة الله » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة « لن يشاد هذا الدين أحداً إلا غلبه فسددوا وماربوا » ولفظه من حديث جابر « إن هذا الدين متين فأوغل فيه بروق ولا تنصم إلى نفسك عبادة الله » ولا يصح إسناده . (٨) حديث « الدعاء المسأورة عند النوم باسمك اللهم رب وضعت جنبي ... الحديث » إلى آخر الدعوات المسأورة التي أوردناها في الدعوات تقدم هناك وبقية الدعوات .

(قريب من المحسنين) وآخر بنى لإسرائيل (قل ادعوا الله) الآيتين فإنه يدخل في شعاره ملك يوكل بحفظه فيستغفر له ويقرأ المعوذتين وينفث بهن في يديه ويمسح بهما وجهه وسائر جسده ، كذلك روى من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) وليقرأ عشرا من أول الكهف وعشرا من آخرها وهذه الآي للاستيقاظ لقيام الليل . وكان على كرم الله وجهه يقول : ما أرى أن رجلا مستكلا عقله ينام قبل أن يقرأ الآيتين من آخر سورة البقرة وليقل حسنا وعشرين مرة : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . ليكون مجموع هذه الكلمات الأربع مائة مرة (التاسع) أن يتذكر عند النوم أن النوم نوع وفاة واليقظ نوع بعث قال الله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها) وقال (وهو الذى يتوفاكم بالليل) فسماه توفيا وكما أن المستيقظ تكشف له مشاهدات لا تناسب أحواله في النوم فكذلك المبعوث يرى ما لم يحظر قط بباله ولا شاهده حسه . ومثل النوم بين الحياة والموت مثل البرزخ بين الدنيا والآخرة . وقال لقمان لابنه : يا بني إن كنت تشك في الموت فلا تتم فكما أنك تنام كذلك تموت ، وإن كنت تشك في المبعث فلا تنبته فكما أنك تنبته بعد نومك فكذلك تبعث بعد موتك . وقال كعب الأحبار : إذا نمت فاضطجع على شقك الأيمن واستقبل القبلة بوجهك فإنها وفاة وقالت عائشة رضيت الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم آخر ما يقول حين ينام وهو واضع خده على يده اليمنى وهو يرى أنه ميت في ليلته تلك اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شيء ومليك ^(٢) ، الدعاء إلى آخره كما ذكرناه في كتاب الدعوات . فحق على العبد أن يفترس عن ثلاثة عند نومه : أنه على ماذا ينام وما العالب عليه حب الله تعالى وحب لقاءه أوجب الدنيا ؟ وليتحقق أنه يتوفى على ما هو العالب عليه ويحشر على ما يتوفى عليه فإن المرء مع من أحب ومع ما أحب (العاشر) الدعاء عند التنبيه ليقظ في تيقظاته وتقلباته مهما تنبه ما كان يقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا إله إلا الله الواحد القهار رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار » ^(٣) ، وليجتهد أن يكون آخر ما يحرى على قلبه عند النوم ذكر الله تعالى وأول ما يرد على قلبه عند التيقظ ذكر الله تعالى فهو علامة الحب . ولا يلزم القلب في هاتين الحاليتين إلا ما هو الغالب عليه فليجرب قلبه به فهو علامة الحب فإنها علامة تكشف من باطن القلب وإنما استحبت هذه الأذكار لتستجر القلب إلى ذكر الله تعالى ، فإذا استيقظ ليقوم قال : الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه الذشور . إلى آخر ما أوردناه من أدعية التيقظ .

الورد الرابع . يدخل بمضى النصف الأول من الليل إلى أن يبقى من الليل سدسه وعند ذلك يقوم العبد للتهجد . فاسم التهجد يختص بما بعد الهجوع والنوم وهذا وسط الليل ويشبه الورد الذى بعد الزوال وهو وسط النهار وبه أقسم الله تعالى فقال (والليل إذا سجى) أى إذا سكن وسكونه هدوه في هذا الوقت فلا تبقى عين إلا نائمة سوى الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم . وقيل إذا سجد إذا امتد وطال وقيل إذا أظلم . وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم « أى الليل أسمع ؟ فقال جوف الليل ^(٤) » وقال داود صلى الله عليه وسلم : ألمهى لى أحب أن أعبد لك فأى وقت أفضل ؟ فأوحى الله تعالى ليه يادود لاتقم أول الليل ولا آخره ، فإن من قام

(١) حديث « قراءة المعوذتين عند النوم ينفث بهن في يديه ويمسح بهما وجهه وسائر جسده » متفق عليه من حديث عائشة .
 (٢) حديث عائشة « كان آخر ما يقول حين ينام وهو واضع خده على يده اليمنى اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم .. الحديث » تقدم في الدعوات دون : وضع اليد وتقدم من حديث حفصة . (٣) حديث « كان يقول عند تيقظه : لا إله إلا الله الواحد القهار رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار » أخرجه ابن السني وأبو نعيم في كتابيهما عمل اليوم واليلة من حديث عائشة . (٤) حديث « سئل أى الليل أسمع ؟ قال : جوف الليل » أخرجه أبو داود والترمذى وصححه من حديث عمرو بن عبسة .

أوله بام آجره ، ومن قام آخره لم يقيم أوله ، ولكن قم وسط الليل حتى تخلو بي وأخلو بك ، وارفع إلى حوائجك وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم « أى الليل أفضل ؟ فقال : نصف الليل الغابر ^(١) ، يعنى الباقي وفى آخر الليل وردت الأخبار باهتزاز العرش وانتشار الرياح من جنات عدن ومن نزول الجبار تعالى إلى سماء الدنيا ^(٢) وغير ذلك من الأخبار . وترتيب هذا الورد أنه بعد الفراغ من الأدعية التى للاستيقاظ يتوضأ وضوءاً - كما سبق - بسننه وآدابه وأدعيته . ثم يتوجه إلى مصلاه ويقوم مستقبلاً القبلة ، ويقول « الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً » ثم يسبح عشراً وليحمد الله عشراً ويهلل عشراً وليقل « الله أكبر ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة والجلال والقدرة » وليقل هذه الكلمات فإنها مأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قيامه للتهجد اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ولك الحمد أنت بهاء السموات والأرض ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فىهن ومن عليهن أنت الحق ومالك الحق ولقاؤك حق والجنة حق والنار حق والنشور حق والنبيون حق ومحمد صلى الله عليه وسلم حق . اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فأغفرلى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وأسرفت أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت ^(٣) اللهم آت نفسى تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها ^(٤) اللهم اهدنى لأحسن الأعمال لا يهدى لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت ^(٥) أسألك مسألة البائس المسكين وأدعوك دعاء المنفقر الدليل فلا تجعلنى بدعائك رب شقياً وكن بى رءوفاً رحيماً يا حير المسولين وأكرم المعطين ^(٦) وقالت عائشة رضى الله عنها « كان صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل افتتح صلاته قال . اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيماً ^(٧) ، ثم يفتتح الصلاة ويصلى ركعتين خفيفتين . ثم يصلى مثنى مثنى ما تيسر له ويختتم بالوتر لم يكن قد صلى الوتر . ويستحب أن يفصل بين الصلاتين عند تسليسه بمائة تسبيحة ليستريح ويزيد نشاطه للصلاة وقد صح فى صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالليل أنه صلى أولاً ركعتين خفيفتين ثم ركعتين طويلتين ثم ركعتين دون اللتين قبلهما ثم لم يزل يقصر بالتدرج إلى ثلاث عشرة

(١) حديث « سئل أى الليل أفضل ؟ قال : نصف الليل الغابر » أخرجه أحمد وابن حبان من حديث أنى ذكر قوله « الغابر » وهو فى بعض طرق حديث عمرو بن عيسى . (٢) الأخبار الواردة فى اهتزاز العرش وانتشار الرياح من جنات عدن فى آخر الليل ونزول الجبار إلى سماء الدنيا ؟ أما حديث النزول فقد تقدم وأما الباقي فهو آثار رواها محمد بن نصر فى قيام الليل من رواية سعيد الجريرى قال « قال داود : يا جبريل أى الليل أفضل ؟ قال : ما أدرى غير أن العرش يهتز من السحر » وفى رواية له عن الجريرى عن سعيد بن أنس الحسن قال « لىذا كان من السحر الأترى كىف تموح ربح كل شجر » وله من حديث أبى الدرداء سرفوعاً « لىن الله تبارك وتعالى لينزل فى ثلاث ساعات بقرى من الليل يهتج الذكر فى الساعة الأولى » وفيه « ثم ينزل فى الساعة الثانية إلى حمة عدن ... الحديث » وهو مثله . (٣) حديث « العول فى قيامه للتهجد : اللهم لك الحمد أنت نور السموات ولأرض ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن عباس دون قوله « أنت بهاء السموات والأرض ولك الحمد أنت زين السموات والأرض » ودون قوله « ومن عليهن ومالك الحق » . (٤) حديث « اللهم آت نفسى تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها » أخرجه أحمد باسناد جيد من حديث عائشة « أنها فقدت البى صلى الله عليه وسلم من مضجعه فاسته بيدها فوقت عليه وهو ساجد وهو يقول رب أعط نفسى تقواها ... الحديث » . (٥) حديث « اللهم اهدنى لأحسن الأعمال لا يهدى لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت » أخرجه مسلم من حديث على عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنه كان إذا قام إلى الصلاة » فذكره بلفظ « لأحسن الأخلاق » وفيه زيادة فى أوله . (٦) حديث « أسألك مسألة البائس المسكين وأدعوك دعاء المضطر الدليل .. الحديث » أخرجه الطبرانى فى الصغير من حديث ابن عباس « أنه كان من دعاء النبى صلى الله عليه وسلم عشية عرفة » تقدم فى الحج (٧) حديث عائشة « كان إذا قام من الليل افتتح صلاته قال : اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض ... الحديث » رواه مسلم .

ركعة (١) وسئلت عائشة رضى الله عنها « أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجهر في قيام الليل أم يسر؟ فقالت: ربما جهر وربما أسر (٢) وقال صلى الله عليه وسلم « صلاة الليل مثنى مثنى فإذا خفت الصبح فأوتر بركعة (٣) ، وقال « صلاة المغرب أوترت صلاة النهار فأوتروا صلاة الليل (٤) ، وأكثر ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قيام الليل ثلاث عشرة ركعة (٥) ، ويقرأ في هذه الركعات من ورده من القرآن أو من السور المخصوصة ما خف عليه وهو في حكم هذا الورد قريب من السدس الأخير من الليل .

الورد الخامس : السدس الأخير من الليل وهو وقت السحر فإن الله تعالى قال ﴿ وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ قيل يصلون لما فيها من الاستغفار وهو مقارب للفجر الذى هو وقت انصراف ملائكة الليل وإقبال ملائكة النهار وقد أمر بهذا الورد سلمان أخاه أبا الدرداء رضى الله عنهما ليلة زاره (٦) في حديث طويل قال في آخره « فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء ليقوم فقال له سلمان : نعم فنام ثم ذهب ليقوم فقال له : نعم فنام فلما كان عند الصبح قال له سلمان : قم الآن ، فقاما فصليا فقال : إن لنفسك عليك حقا وإن لضيفك عليك حقا وإن لأهلك عليك حقا فأعط كل ذى حق حقه ، وذلك أن امرأة أبي الدرداء أخبرت سلمان أنه لا ينام الليل قال : فأتيا النبي صلى الله عليه وسلم فدكرا ذلك له فقال : صدق سلمان . وهذا هو الورد الخامس وفيه يستحب السحور وذلك عند خوف طلوع الفجر والوظيفة في هذين الوردتين الصلاة . فإذا طلع الفجر انقضت أورد الليل ودخلت أورد النهار فيقوم ويصلى ركعتي المغرب وهو المراد بقوله تعالى ﴿ ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ﴾ ثم يقرأ ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة ﴾ إلى آخرها . ثم يقول وأنا أشهد بما شهد الله به لنفسه وشهدت به ملائكته وأور العلم من خلقه وأستودع الله هذه الشهادة وهي لى عند الله تعالى رديعة وأسأله حفظها حتى يتوفانى عليها . اللهم احفظ عني بها وزرا واجعلها لى عندك ذخرا واحفظها على وتوفنى عليها حتى ألقاك ها غير مبتدل تبديلا . فهذا ترتيب الأوراد للعباد وقد كانوا يستحبون أن يجمعوا مع ذلك فى كل يوم بين أربعة أمور صوم وصدقة وإن قلت وعبادة مريض وشهود جنازة فى الخبر « من جمع بين هذه الأربع فى يوم غفر له (٧) » وفى رواية « دخل الجنة » فإن أنفق بعضها وعجز عن الآخر كان له أجر الجميع بحسب نية وكانوا يكرهون أن يقضى اليوم ولم يتصدقوا فيه بصدقة ولو بتمر أو بصل أو كسرة خبز لقوله صلى الله عليه وسلم « الرجل فى ظل صدقته حتى يقضى بين الناس (٨) » ولقوله صلى الله عليه وسلم « اتقوا النار ولو بشق تمرة (٩) ، ودفعت عائشة رضى الله عنها إلى سائل عنبة واحدة فأحدها فنظر من كان عندها بعضهم إلى بعض فقالت : ما لكم إن فيها لمائئيل ذر كثير؟ وكانوا لا يستحبون رد السائل إذ كان من أحلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك

(١) حديث « أنه صلى بالليل أولا ركعتين حقيقتين ثم ركعتين طويلتين ثم صلى ركعتين درن اللتين قبلهما ثم لم يرل يقصر بالندريح إلى ثلاث عشرة ركعة » أخرجه مسلم من حديث زيد بن خالد الجهني .

(٢) حديث « سئلت عائشة أكان يجهر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قيام الليل أم يسر؟ فقالت رعبا حور ورعبا أسر » أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه بأسناد صحيح . (٣) حديث « صلاة الليل مثنى مثنى فإذا حمت الصبح فأوتر بركعة » متفق عليه وقد تقدم .

(٤) حديث « صلاة المغرب أوترت صلاة النهار فأوتروا صلاة الليل » أخرجه أحمد من حديث ابن عمر بإسناد صحيح .

(٥) حديث « القيام من الليل ثلاث عشرة ركعة فإنه أكثر ما صح عنه » تقدم . (٦) حديث « زار سلمان أبا الدرداء فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء ليقوم فقال له سلمان م فنام .. الحديث » وفى آخره فقال « صدق سلمان » أخرجه البخارى

من حديث أنى حقيفة . (٧) حديث « من جمع بين صوم وصدقة وعبادة مريض وشهود جنازة فى يوم غفر له » وفى رواية « دخل الجنة » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة « ما جتمع فى امرئ إلا أدخل الجنة » . (٨) حديث « الرجل فى ظل صدقته حتى يقضى بين الناس » تقدم فى الركعة .

(٩) حديث « اتقوا النار ولو بشق تمرة » تقدم فى الركعة .

ماسأله أحد شيئاً فقال : لا ، ولكنه إن لم يقدر عليه سكت ^(١) وفي الخبر « يصح ابن آدم وعلى كل سلامى من جسده صدقة يعنى المنفصل وفي جسده ثلاثمائة وستون منفصلاً فأمرك بالمعروف وصدقة ونهيك عن المنكر صدقة وحملك عن الضعيف صدقة وهدايتك إلى الطريق صدقة وإمطتك الأذى صدقة حتى ذكر التسبيح والتهليل . ثم قال وركعتا الضحى تأتي على ذلك كله أو تجتمع لك ذلك كله ^(٢) . » .

بيان اختلاف الأوراد باختلاف الأحوال

اعلم أن المرید لحرث الآخرة السالك لطريقها لا يخلو عن ستة أحوال فإنه : إما عابد وإما عالم وإما متعلم وإما وال وإما محترف وإما موحد مستغرق بالواحد الصمد عن غيره (الأول) العابد : وهو المتجرد للعبادة الذى لا شغل له غيرها أصلاً ولو ترك العبادة لجلس لظلالاً فترتيب أوراده ما ذكرناه ، نعم لا يبعد أن تختلف وطائفه بأن يستغرق أكثر أوقاته إما فى الصلاة أو القراءة أو فى التسبيحات فقد كان فى الصحابة رضى الله عنهم من ورده فى اليوم اثنا عشر ألف تسبيحة . وكان فيهم من ورده ثلاثون ألفاً . وكان فيهم من ورده ثلاثمائة ركعة إلى ستمائة وإلى ألف ركعة . وأقل ما نقل فى أورادهم من الصلاة مائة ركعة فى اليوم واللييلة . وكان بعضهم أكثر ورده القرآن وكان يجتم الواحد منهم فى اليوم مرة وروى مرتين عن بعضهم : وكان بعضهم يقضى اليوم أو الليل فى التمسك فى آية واحدة يرددها . وكان كرز بن وبرة مقياً بمكة فكان يطوف فى كل يوم سبعين أسبوعاً وفى كل ليلة سبعين أسبوعاً وكان مع ذلك يجتم القرآن فى اليوم واللييلة مرتين . حسب ذلك فكان عشرة فراسخ ويكون مع كل أسبوع ركعتان فهو مائتان وثمانون ركعة وختمتان وعشرة فراسخ . فإن قلت : فما الأولى أن يصرف إليه أكثر الأوقات من هذه الأوراد فاعلم أن قراءة القرآن فى الصلاة قائماً مع التدبر يجمع الجميع ولكن ربما تعسر المواظبة عليه فالأفضل يختلف باختلاف حال الشخص ومقصود الأوراد تزكية القلب وتطهيره وتحليته بذكر الله تعالى وإيناسه به فليتنظر المرید إلى قلبه فما يراه أشد تأثيراً فيه فليواظب عليه . فإذا أحس بهلالة منه ولينتقل إلى غيره ولذلك نرى الأصوب لاكثر الخلق توزيع هذه الخيرات المختلفة على الأوقات - كما سبق - والانتقال فيها من نوع إلى نوع لأن الملل هو الغالب على الطبع وأحوال الشخص الواحد فى ذلك أيضاً تختلف . ولكن إذا فهم فقه الأوراد وسرها فليتبع المعنى فإن سمع تسبيحة مثلاً وأحس لها بوقع قلبه فليواظب على تكرارها مادام يجد لها وقعاً . وقد روى عن إبراهيم بن آدم عن بعض الأبدال أنه قام ذات ليلة يصلى على شاطئ البحر فسمع صوتاً عالياً بالتسبيح ولم ير أحداً فقال من أنت أسمع صوتك ولا أرى شخصك ؟ فقال : أنا ملك من الملائكة موكل بهذا البحر أسبح الله تعالى بهذا التسبيح منذ خلقت قلت : فما اسمك ؟ قال : مهلهيائيل قلت : فما ثواب من قاله ؟ قال : من قاله مائة مرة لم يموت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له . والتسبيح هو قوله « سبحان الله العلى الديان سبحان الله الشديد الأركان سبحان من يذهب بالليل ويأتى بالنهار سبحان من لا يشغله شأن عن شأن سبحان الله الختان المنان سبحان الله المسبح فى كل مكان ، فهذا وأمثاله إذا سمعه المرید ووجد له فى قلبه وقعاً فليلازمه . وأياً ما وجد القلب عنده وفتح له فيه خير فليواظب عليه (الثانى) العالم الذى ينفع الناس بعمله فى فتوى أو تدريس أو تصنيف فترتبه الأوراد بحال ترتب العابد ؛ فإنه يحتاج إلى المطالعة للكتب وإلى التصنيف والإفادة ، ويحتاج إلى مدة لها لا محالة فإن أمكنه استغراق الأوقات فيه فهو أفضل ما يشتغل

(١) حديث « ماسأله أحد شيئاً فقال لا لم يقدر عليه سكت » أخرجه مسلم من حديث جابر والبرار من حديث أس « أو بسكت » . (٢) حديث « يصح ابن آدم وعلى كل سلامى من جسده صدقة... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي ذر.

به بعد المكتوبات وروايتها . ويدل على ذلك جميع ما ذكرناه في فضيلة التعليم والتعلم في كتاب العلم . وكيف لا يكون كذلك وفي العلم المواظمة على ذكر الله تعالى ؟ وتأمل ما قال الله تعالى وقال رسوله . وفيه منفعة الخلق وهذا يتهم إلى طريق الآخرة ورب مسألة واحدة يتعلمها المتعلم فصلاح بها عبادة عمره ولو لم يتعلمها لكان سعيه ضائعا . وإنما نعى بالعلم المقدم على العبادة العلم الذي يرب الناس في الآخرة ويهديهم في الدنيا أو العلم الذي يعينهم على سلوك طريق الآخرة إذا تعلموه على قصد الاستعانة به على السلوك ، دون العلوم التي تزيد بها الرغبة في المال والجاه وقبول الخلق والأولى بالعالم أن يقسم أوقاته أيضا فإن استغراق الأوقات في ترتيب العلم لا يمتلئ الطبع . فينبغي أن يخص ما بعد الصبح إلى طلوع الشمس بالأذكار والأوراد كما ذكرناه في الورد الأول . وبعد الطلوع إلى ضحوة النهار في الإفادة والتعليم إن كان عنده من يستفيد علما لأجل الآخرة ، وإن لم يكن فيصرفه إلى الفكر ويتفكر فيما يشكل عليه من علوم الدين فإن صفاء القلب بعد الفراغ من الذكر وقبل الاشتغال بهموم الدنيا يعين على التفطن للمشكلات . ومن ضحوة النهار إلى العصر للتصنيف والمطالعة لا يتركها إلا في وقت أكل وطهارة ومكتوبة وقبلولة خفيفة إن طال النهار . ومن العصر إلى الاصفرار يشتغل بسبح ما يقرأ بين يديه من تفسير أو حديث أو علم نافع . ومن الاصفرار إلى الغروب يشتغل بالذكر والاستغفار والتسبيح فيكون ورده الأول قبل طلوع الشمس في عمل اللسان . وورده الثاني في عمل القلب بالفكر إلى الضحوة . وورده الثالث إلى العصر في عمل العين واليد بالمطالعة والكتابة . وورده الرابع بعد العصر في عمل السمع ليرقح فيه العين واليد فإن المطالعة والكتابة بعد العصر ربما أضرا بالعين . وعند الاصفرار يعود إلى ذكر اللسان فلا يخلو جزء من النهار عن عمل له بالجوارح مع حضور القلب في الجميع . وأما الليل فأحسن قسم فيه قسمة الساعى رضى الله عنه إذ كان يقسم الليل ثلاثة أجزاء ثلثا للمطالعة وترتيب العلم وهو الأول وثلثا للصلاة وهو الوسط وثلثا للنوم وهو الأخير . وهذا يتيسر في ليالي الشتاء ، والصيف ربما لا يمتثل ذلك إلا إذا كان أكثر النوم بالنهار وهذا ما نستحبه من ترتيب أوراد العالم (الثالث) المتعلم : والاشتغال بالتعلم أفضل من الاشتغال بالأذكار والموافل فحكمه حكم العالم في ترتيب الأوراد ولكن يشتغل بالاستمادة حيث يشتغل العالم بالإفادة وبالتعليق والنسخ حيث يشتغل العالم بالتصنيف ويرتب أوقاته كما ذكرنا . وكل ما ذكرناه في فضيلة التعلم والعلم من كتاب العلم يدل على أن ذلك أفضل . بل إن لم يكن متعلما على معنى أنه يعلق ويحصل ليصير عالما . بل كان من العوام فحضوره مجالس الذكر والوعظ والعلم أفضل من اشتغاله بالأوراد التي ذكرناها بعد الصبح وبعد الطلوع وفي سائر الأوقات . ففي حديث أبي ذر رضى الله عنه « أن حضور مجلس ذكر أفضل من صلاة ألف ركعة وشهود ألف جنازة وعبادة ألف مريض ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم ، إذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا فيها فقيل يارسول الله وما رياض الجنة ؟ قال خلق الذكر ^(٢) » وقال كعب الأحبار رضى الله عنه : لو أن ثواب مجالس العلماء بدأ للناس لاقتتلوا عليه حتى يترك كل ذى إمارة لإمارته وكل ذى سوق سوقه . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إن الرجل ليخرج من منزله وعليه من الذنوب مثل جبال تهامة ، فإذا سمع العالم خاف واسترجع عن ذنوبه وانصرف إلى منزله وليس عليه ذنب ، فلا تفارقوا مجالس العلماء فإن الله عز وجل لم يخلق على وجه الأرض تربة أكرم من مجالس العلماء . وقال رجل للحسن رحمه الله أشكو إليك قساوة قلبي فقال : أده من مجالس الذكر .

(١) حديث أبي ذر « حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة ... الحديث » تقدم و العلم .

(٢) حديث « إذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا فيها ... الحديث » تقدم في العلم .

ورأى عمار الزاهدي مسكينة الطفاوية في المنام وكانت من المواظبات على حلق الذكر فقال : مرجبا يامسكينة فقالت : هيات هيات ذهبت المسكينة وجاء الغنى ! فقال : هيه ! فقالت : ما تسأل عمن أبيع لها الجنة بخذا فإيراهها ؟ قال : وبم ذلك ؟ قالت : بمحاسبة أهل الذكر . وعلى الجملة فما ينجل عن القلب من عقد حب الدنيا بقول واعظ حس الكلام زكي السيرة أشرف وأنفع من ركعات كثيرة مع اشتغال القلب على حب الدنيا (الرابع) المحترف الذي يحتاج إلى الكسب لعياله فليس له أن يضيع العيال ويستغرق الأوقات في العبادات بل ورده في وقت الصناعة حضور السور والاشتغال بالكسب ولكن ينبغي أن لا ينسى ذكر الله تعالى في صناعته بل يواظب على التسيجات الأذكار وقراءة القرآن فإن ذلك يمكن أن يجمع إلى العمل . وإعما لا يتيسر مع العمل الصلاة إلا أن يكون ناطورا فإنه لا يعجز عن إقامة أوراد الصلاة معه . ثم مهم ما فرغ من كهايته ينبغي أن يعود إلى ترتيب الأوراد . وإن داوم على الكسب وتصدق بما فضل عن حاجته فهو أفضل من سائر الأوراد التي ذكرناها لأن العبادات المتعدية فائدتها أنزع من اللزامة والصدقة والكسب على هذه النية عمادة له في نفسه تقربه إلى الله تعالى ثم يحصل به فائدة للغير وتتجنب إليه بركات دعوات المسلمين ويتضاعف به الأجر (الخامس) الوالي : مثل الإمام والقاضي والمتولى في أمور المسلمين فقيامه بحاجات المسلمين وأغراضهم على وفق الشرع وقصد الإحلاص أفضل من الأوراد المذكورة لخطته أن يشتغل بحقوق الناس نهارا ويقصر على المكتوبة ويقيم الأوراد المذكورة بالليل ، كما كان عمر رضي الله عنه يفعله إذ قال : مالي وللنوم فلونمت بالنهار صيغت المسلمين ولونمت بالليل ضيغت نفسي . وقد فهمت مما ذكرناه أنه يقدم على العبادات الدنية أمران أحدهما : العلم ، والآخر : الرفق بالمسلمين ، لأن كل واحد من العلم وفيل المعروف عمل في نفسه وعبادة تفضل سائر العبادات يتعدى فائدته وانتشار حدواه فكانا مقدمين عليه (السادس) الموحد المستغرق بالواحد الصمد الذي أصح وهمومه هم واحد فلا يحب إلا الله تعالى ولا يحاف إلا منه ولا يتوقع الرزق من غيره ولا ينظر في شيء إلا ويرى الله تعالى فيه . من ارتفعت رتبته إلى هذه الدرجة لم يفتقر إلى تنوع الأوراد واحتلافها بل كان ورده بعد المكتوبات واحد وهو حضور القلب مع الله تعالى في كل حال ، فلا يحظر بقلوبهم أمر ولا يقرع سمعهم قارع ولا يلوح لأبصارهم لا تخ إلا كان لهم فيه عبرة وفكر ومزید ، فلا يحرك لهم ولا مسك إلا الله تعالى فهو لاه جميع أحوالهم تصلح أن تكون سببا لآريادهم فلا تتميز عندهم عبادة عن عبادة وهم الذين هروا إلى الله عز وجل كما قال تعالى ﴿ لعلكم تذكرون ففروا إلى الله ﴾ وتحقق فيهم قوله تعالى (وإذا عزتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته) وإليه الإشارة بقوله (إلى ذاهب إلى ربي سيهدين) وهذه منتهى درجات الصديقين ولا وصول إليها إلا بعد ترتيب الأوراد والمواظبة عليها دهرًا طويلا فلا ينبغي أن يعتر المرید بما سمعه من ذلك فيدعيه لنفسه ويفتر عن وظائف عبادته فذلك علامته أن لا يهيجس في قلبه وسواس ولا يحظر في قلبه معصية ولا ترعجه هواجم الأحوال ولا تستفزة عظام الأشغال . وأنى ترزق هذه الرتبة لكل أحد . فيتعين على الكفاة ترتيب الأوراد كما ذكرناه وجميع ما ذكرناه طرق إلى الله تعالى قال تعالى (قل كل يعمل على شاكلته وربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا) فكلهم مهتدون وبعضهم أهدى من بعض . وفي الخبر « الإيمان ثلاث وثلاثون وثلاثمائة طريقة من لقي الله تعالى بالشهادة على طريق منها دخل الجنة ^(١) » وقال بعض العلماء : الإيمان ثلاثمائة وثلاثة عشر خلقا

(١) حديث « الإيمان ثلاث وثلاثون وثلاثمائة طريقة من لقي الله بالشهادة على طريق منها دخل الجنة » أخرجه اس شاهين واللاسكاني في السنة والطبراني والبيهقي في الشعب من رواية الميرة بن عبد الرحمن بن سعد عن أبيه عن جده « الإيمان ثلاثمائة وثلاثة وثلاثون شريعة من وافى شريعة منهن دخل الجنة » وقال الطبراني والبيهقي « ثلاثمائة وثلاثون » وفي إسناده جهالة .

بعدد الرسل هكل مؤمن على خلق منها فهو سالك الطريق إلى الله . فإذا الناس وإن احتلقت طرقهم في العبادة فكلهم على الصواب (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب) وإنما يتفاوتون في درجات القرب لاقب أصله ، وأقربهم إلى الله تعالى أعرفهم به ، وأعرفهم به لا بد وأن يكون أعبدهم له ؛ فمن عرفه لم يعبد غيره . والأصل في الأوراد في حق كل صنف من الناس المداومة فإن المراد منه تغيير الصفات الباطنة . وآحاد الأعمال يقل آثارها بل لا يحس بآثارها وإنما يترتب الأثر على المجموع فإذا لم يعقب العمل الواحد أثراً محسوساً ولم يردف بثان وثالث على القرب انمحي الأثر الأول وكان كالفقيه يريد أن يكون فقيه النفس فإنه لا يصير فقيه النفس إلا بتكرار كثير ؛ فلو بالغ ليلة في التكرار وترك شهراً أو أسبوعاً ثم عاد وبالغ ليلة لم يؤثر هذا فيه . ولو وزع ذلك القدر على الليالي المتواصلة لأثر فيه . ولهذا السر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » (١) . وسئلت عائشة رضي الله عنها عن عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : كان عمله ديمة وكان إذا عمل عملاً أثبته (٢) ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « من عوده الله عبادة وتركها ملالة مقتته الله (٣) » ، وهذا كان السبب في صلاته بعد العصر تداركاً لما فاته من ركعتين شغله عنهما الوفاء ثم لم يزل بعد ذلك يصلهما بعد العصر ولكن في منزله لاقى المسجد كيلاً يقتدى به (٤) رونه عائسة وأم سلمة رضي الله عنهما « فإن قلت : فهل لغیره أن يقتدى به في ذلك مع أن الوقت وقت كراهية ؟ فاعلم أن المعاني الثلاثة التي ذكرناها في الكراهية من الاحتراز عن التشبه بعبدة الشمس أو السجود وقت ظهور قرن الشيطان أو الاستراحة عن العبادة حذراً من الملل لا يتحقق في حقه ولا يقاس عليه في ذلك غيره . ويشهد لذلك فعله في المنزل حتى لا يقتدى به صلى الله عليه وسلم .

الباب الثاني : في الأسباب الميسرة لقيام الليل وفي الليالي التي يستحب إحيائها

وفي فضيلة إحياء الليل وما بين العشاءين وكيفية قسمة الليل

فضيلة إحياء ما بين العشاءين

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روت عائشة رضي الله عنها « إن أفضل الصلوات عند الله صلاة المغرب لم يحطها عن مسافر ولا عن مقيم فتح بها صلاة الليل وختم بها صلاة النهار فمن صلى المغرب وصلى بعدها ركعتين بنى الله له قصر في الجنة (٥) » ، قال الراوي : لأدرى من ذهب أو فضة ؟ ومن صلى بعدها أربع ركعات غفر له ذنب عشرين سنة أو قال أربعين سنة « وروت أم سلمة وأبو هريرة رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى ست ركعات بعد المغرب عدلت له عبادة سنة كاملة أو كأنه صلى ليلة القدر (٦) » ، وعن سعيد بن جبيرة عن ثوبان

(١) حديث « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » متفق عليه من حديث عائشة . (٢) حديث « سئلت عائشة عن عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت كان عمله ديمة وكان إذا عمل عملاً أثبته » رواه مسلم . (٣) حديث « من عوده الله عبادة فتركها ملالة مقتته الله » وهو موقوف على عائشة . (٤) حديث « شذله الوفاء عن ركعتين فصلاهما بعد العصر لم يزل يصلهما بعد العصر في منزله » متفق عليه من حديث أم سلمة « أنه صلى بعد العصر ركعتين وقال شذلي ناس من عبد القيس عن انركعتين بعد الظهر » ولها من حديث عائشة « ما تركهما حتى لقي الله وكان النبي صلى الله عليه وسلم يصلهما ولا يصلهما في المسجد مخافة أن يشغل على أمته » والله الموفق للصواب .

الباب الثاني : في الأسباب الميسرة لقيام الليل

(٥) حديث عائشة « إن أفضل الصلاة عند الله صلاة المغرب لم يحطها عن مسافر ولا عن مقيم . الحديث » رواه أبو الويد يونس بن عميد الله الصمار في كتاب الصلاة ورواه الطبراني في الأوسط مختصراً ومُساده ضعيف . (٦) حديث أم سلمة عن أبي هريرة « من صلى ست ركعات بعد المغرب عدلت له عبادة سنة أو كأنه صلى ليلة القدر » أخرجه الترمذي وابن ماجه بلفظ =

قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من عكف نفسه فيما بين المغرب والعشاء في مسجد جماعة لم يتكلم إلا بصلاة أو قرآن كان حقا على الله أن يبني له قصرين في الجنة مسيرة كل قصر مئمة عام ويعرس له بيدهما عرايا لو طافه أهل الدنيا لوسعهم ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « من ركع عشر ركعات ما بين المغرب والعشاء بنى الله له قصرًا في الجنة فقال عمر رضى الله عنه : إذا تكثرت قصوربا يارسول الله فقال : الله أكثر وأفضل - أو قال - أطيّب ^(٢) » وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى المغرب في جماعة ثم صلى بعدها ركعتين ولم يتكلم بشيء فيما بين ذلك من أمر الدنيا ويقرأ في الركعة الأولى فاتحة الكتاب وعشر آيات من أول سورة البقرة وآيتين من وسطها ولهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم إن في خلق السموات والأرض إلى آخر الآية وقال هو الله أحد خمس عشرة مرة ثم يركع ويسجد فإذا قام في الركعة الثانية قرأ فاتحة الكتاب وآية الكرسي وآيتين بعدها إلى قوله (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) وثلاث آيات من آخر سورة البقرة من قوله ما في السموات وما في الأرض إلى آخرها وقل هو الله أحد خمس عشرة مرة ^(٣) » وصف من ثوابه في الحديث ما يخرج عن الحصر وقال كرز بن وبرة وهو من الأبدال : قلت للخضر عليه السلام عنى شيئاً أعمله في كل ليلة فقال إذا صليت المغرب فقم إلى وقت صلاة العشاء مصلياً من غير أن تتكلم أحداً وأقبل على صلاتك التي أنت فيها وسلم من كل ركعتين وقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وقل هو الله أحد ثلاثاً فإن فرغت من صلاتك انصرف إلى منزلك ولا تتكلم أحداً وصل ركعتين وقرأ فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد سبع مرات في كل ركعة ثم استغفرت الله واستغفرتك واستغفرتك واستغفرتك واستغفرتك واستغفرتك والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم سبع مرات ، ثم ارفع رأسك من السجود واستو جالساً وارفع يديك وقل يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام يا إله الأولين والآخريين يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما يارب يارب يا الله يا الله يا الله ، ثم قم وأنت رافع يديك وأدع بهذا الدعاء ، ثم نم حيث شئت مستقبلاً القبلة على يمينك وصل على النبي صلى الله عليه وسلم وأدم الصلاة عليه حتى يذهب بك النوم . فقلت له : أحب أن تعلمي ممن سمعت هذا ؟ فقال : إني حضرت محمداً صلى الله عليه وسلم حيث علم هذا الدعاء وأوحى إليه به فكنت عنده وكان ذلك بحضور منى فتعلمته ممن علمه إياه ^(٤) ويقال إن هذا الدعاء وهذه الصلاة من داوم عليهما بحسن يمين وصدق نية رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامه قبل أن يخرج من الدنيا ؛ وقد فعل ذلك بعض الناس فرأى أنه أدخل الجنة ورأى فيها الأنبياء ورأى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكله وعلمه . وعلى الجملة ماورد في فضل إحياء ما بين المغرب والعشاء من كثير حتى قيل لعبيد الله مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بصلاة غير المكتوبة ؟ قال : ما بين المغرب والعشاء ^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « من صلى ما بين المغرب والعشاء تلك

= اثنتي عشرة سنة وضعفه الترمذي وأما قوله « كانه صلى ليلة القدر » فهو من قول كعب الأحمدي كما رواه أبو الوليد الصمار ، ولأبي منصور الديلمي في مسند العردوس من حديث ابن عباس « من صلى أربع ركعات بعد المغرب قل أن يتكلم أحداً وصمت له في عليين وكان كمن أدرك ليلة القدر في المسجد الأقصى » وسنده ضعيف . (١) حديث سعيد بن حدير عن نومان « من عكف نفسه ما بين المغرب والعشاء في مسجد جماعة لم يتكلم إلا بصلاة أو قرآن كان حقا على الله أن يبني له قصرين في الجنة » لم أجده له أصلاً من هذا الوجه وقد تقدم في الصلاة من حديث ابن عمر . (٢) حديث « من ركع عشر ركعات بين المغرب والعشاء بنى الله له قصرًا في الجنة فقال عمر إذا تكثرت قصوربا يارسول الله ... الحديث » أخرجه ابن المبارك في الزهد من حديث عبد الكريم ابن الحارث مرسلًا . (٣) حديث أنس « من صلى المغرب في جماعة ثم صلى بعدها ركعتين ولا يتكلم بشيء . فيما بين ذلك من أمر الدنيا ويقرأ في الركعة الأولى بفاتحة الكتاب وعشر آيات من أول البقرة وآيتين من وسطها ولهكم إله واحد .. الحديث » أخرجه أبو الشيخ في الثواب من رواية زياد بن ميثون عنه مع اختلاف يسير وهو صحيح . (٤) حديث كرز بن وبرة « أن الخضر علمه صلاة بين المغرب والعشاء ، وفيه أن كرزاً سأله الخضر عن هذا ؟ قال : إني حضرت محمداً صلى الله عليه وسلم حين علم هذا الدعاء .. الحديث » وهذا باطل لأصله . (٥) حديث عبيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل له « هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بصلاة غير المكتوبة ؟ قال ما بين المغرب والعشاء » رواه أحمد وفيه رجل لم يسم .

صلاة الأوابين^(١) ، وقال الأسود ما أنبت ابن مسعود رضى الله عنه في هذا الوقت إلا ورأيته يصلى فسألته فقال : نعم هي ساعة العسلة : وكان أنس رضى الله عنه يواظب عليها ويقول : هي ناشئة الليل ، ويقول : فيها نزل قوله تعالى (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) وقال أحمد بن أبي الخوارى : قلت لأبي سليمان الداراني أصوم النهار وأتعشى بين المغرب والعشاء أحب إليك أو أفطر بالنهار واحي ما بينهما ؟ فقال : اجمع بينهما ، فقلت : إن لم يتيسر ؟ قال أفطر وصل ما بينهما .

فضيلة قيام الليل

أما من الآيات : فقوله تعالى (إن ربك يعلم أنك تقوم أذنى من نلتى الليل) الآية وقوله تعالى (إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قبلا) وقوله سبحانه وتعالى (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) وقوله تعالى (أمن هو قانت آناء الليل) الآية وقوله عز وجل (والذين يديتون لرهم سجدا وقياماً) وقوله تعالى (واستعينوا بالصبر والصلاة) قيل هي قيام الليل يستعان بالصبر عليه على محاهدة النفس . ومن الأخبار : قوله صلى الله عليه وسلم ويعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هونام ثلاث عقدة يضربه كل عقدة عليك ليل طويل فارقد فإن استيقظ وذكر الله تعالى انحلت عقدة فإن توضأ انحلت عقدة فإن صلى انحلت عقدة فأصبح نسيطا طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان^(٢) ، وفي الخبر « أنه ذكر عنده راحل ينام كل الليل حتى يصبح فقال : ذاك رجل بال الشيطان في اذنه^(٣) » وفي الخبر « إن للشيطان سعوطا واعوقا وذرورا فإذا أسعط العبد ساء خلقه وإذا ألحقه ذرب لسانه بالشر وإذا ذره نام الليل حتى يصبح^(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « ركعتان يركعهما العبد في جوف الليل خير له من الدنيا وما فيها ولولا أن أشق على أمتي لمرضتهم عليهم^(٥) » ، وفي الصحيح عن حابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن من الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى خيرا إلا أعطاه إياه » ، وفي رواية « يسأل الله تعالى خيرا من الدنيا والآخرة وذلك في كل ليلة » وقال المغيرة بن شعبه : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تفتطرت قدماه فقيل له : أما قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : أفلا أكون عبدا شكورا^(٦) ويظهر من معناه أن ذلك كناية عن زيادة الرتبة فإن السكر سبب المزيد قال تعالى (لئن شكرتم لأزيدنكم) وقال صلى الله عليه وسلم « يا أبا هريرة أتريد أن تكون رحمة الله عليك حيا وميتا ومقبورا ومبعوثا قم من الليل فصل وأنت تريد رضا ربك يا أبا هريرة صل في زوايا بيتك يكن نور بيتك في السماء كنور الكواكب والنجم عند أهل الدنيا^(٧) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم . فإن قيام الليل قرينة إلى الله عز وجل وتكفير للذنوب

(١) حديث « من صلى ما بين المغرب والعشاء ذلك صلاة الأوابين » تقدم في الصلاة .

(٢) حديث « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هونام ثلاث عقدة .. الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(٣) حديث « ذكر عنده رجل نام حتى أصبح فقال : ذاك رجل بال الشيطان في أذنه » متفق عليه من حديث ابن مسعود .

(٤) حديث « إن للشيطان سعوطا واعوقا وذرورا ... الحديث » أخرجه الطبراني من حديث أنس « إن للشيطان لعوقا وكعلا

فإذا لعق الإنسان من لعوقه ذرب لسانه بالشر وإذا كحل من كحله نامت عيناه عن الذكر » ورواه الزنار من حديث سمرة بن جندب وسندهما ضعيف .

(٥) حديث « ركعتان يركعهما العبد في جوف الليل خير له من الدنيا وما فيها ولولا أن أشق على أمتي لمرضتهم عليهم » أخرجه آدم بن أبي إياس في الثواب ومحمد بن نصر المروزي في كتاب قيام الليل من رواية حسان بن عطية مرسلا ووسله أبو منصور الديلمي في مسند الردوس من حديث ابن عمر ولا يصح .

(٦) حديث المنيرة بن شعبة « قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تفتطرت قدماه ... الحديث » متفق عليه .

(٧) حديث « يا أبا هريرة أتريد أن تكون رحمة الله عليك حيا وميتا ومقبورا قم من الليل فصل وأنت تريد رضا ربك » ، يا أبا هريرة صل في زوايا بيتك يكن نور بيتك في السماء كنور الكواكب والنجوم عند أهل الدنيا « باطل لأصل له .

ومطرودة للداء عن الجسد ومنهارة عن الإثم^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « ما من امرئ تكون له صلاة بالليل فغلبه عليها النوم إلا كتب له أجر صلاته وكان نومه صدقة عليه^(٢) » ، وقال صلى الله عليه وسلم لأبي ذر « لو أردت سفرا أعددت له عدة؟ قال : نعم ، قال : فكيف سفر طريق القيامة ألا أنبئك يا أبا ذر ، ما ينفعك ذلك اليوم؟ قال : بلى بأبي أنت وأمي ، قال : صم يوما شديد الحر ليوم النشور وصل ركعتين في ظلمة الليل لوحشة القبور وحج حجة لعظام الأمور وتصدق بصدقة على مسكين أو كلبة حق تقولها أو كلبة شر تسكت عنها^(٣) » ، وروى « أنه كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم رجل إذا أخذ الناس مضاجعهم وهدأت العيون قام يصلي ويقرأ القرآن ويقول : يارب النار أجرني منها ، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : إذا كان ذلك فأذنوني فأناها فاستمع فلما أصبح قال : يا فلان هلا سألت الله الجنة؟ قال : يا رسول الله إني لست هناك ولا يبلغ عملي ذلك فلم يلبث إلا يسيرا حتى نزل جبرائيل عليه السلام وقال : أخبر فلانا أن الله قد أجاره من النار وأدخله الجنة^(٤) » ، ويروى « أن جبرائيل عليه السلام قال للنبي صلى الله عليه وسلم : نعم الرجل ابن عمر لو كان يصلي بالليل ، فأخبره النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فكان يداوم بعده على قيام الليل^(٥) » ، قال نافع : كان يصلي بالليل ثم يقول : يا نافع أسحرنا؟ فأقول : لا ، فيقوم لصلاته ثم يقول يا نافع أسحرنا؟ فأقول : نعم ، فيقعد فيستغفر الله تعالى حتى يطلع الصجر . وقال علي بن أبي طالب شبع يحيى بن زكريا عليهما السلام من خبز شعير فنام عن ورده حتى أصبح فأوحى الله تعالى إليه : يا يحيى أوحدت دارا خيرا لك من داري؟ أم وحدث جوارا خيرا لك من جوارى؟ فوعزني وجلالى يا يحيى لو اطلعت إلى الفردوس اطلاعة لذاب شمك ولزهقت نفسك اشتياقا ولو اطلعت إلى جهنم اطلاعة لذاب شمكك ولبكيت الصديد بعد الدموع ولبست الجلد بعد المسوح . وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن فلانا يصلي بالليل فإذا أصبح سرق فقال : سينهاه ما يعمل^(٦) » ، وقال صلى الله عليه وسلم ، رحم الله رجلا قام من الليل فصلى ثم أيقظ امرأته فصلت فإن أبت نضح في وجهها الماء^(٧) » وقال صلى الله عليه وسلم « رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت ثم أيقظت زوجها فصلى فإن أبت نضحت في وجهها الماء » ، وقال صلى الله عليه وسلم « من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كتبنا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات^(٨) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل^(٩) » ، وقال

(١) حديث « عليكم قيام الليل فإنه دأب الصالحين عليكم . . . الحديث » أخرجه الترمذى من حديث بلال وقال عريب ولا يصح ورواه الطبرانى والبيهقى من حديث أبي أمامة بسند حسن وقال الترمذى له أصح .

(٢) حديث « ما من امرئ يكون له صلاة بالليل يلمبه عليها نوم إلا كتب له أجر صلاته وكان نومه صدقة عليه » أخرجه أبو داود والنسائي من حديث عائشة وفيه رجل لم يسم سماه النسائي في رواية الاسود بن يزيد لكس في طريقه ابن جعفر الرازى قال النسائي ليس بالقوى ورواه النسائي وابن ماجه من حديث أنى الدرءاء نحوه بسند صحيح وتقدم في الباب قبله .

(٣) حديث « لو أردت سفرا أعددت له عدة فكيف سفر طريق القيامة ألا أنبئك يا أبا ذر بما ينفعك ذلك اليوم قال بلى بأبي وأمي قال صم يوما شديد الحر ليوم النشور وصل ركعتين في ظلمة الليل لوحشة القبور . . . الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب التهمذ من رواية السرى بن مخلد ومرسلا والسرى ضعفه الأردى .

(٤) حديث « أنه كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا إذا أخذ الناس مضاجعهم وهدأت العيون قام يصلي ويقرأ القرآن ويقول : يارب النار أجرني منها . فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : إذا كان ذلك فأذنوني . . . الحديث » لم أقف له على أصل . (٥) حديث « أن جبريل قال للنبي صلى الله عليه وسلم : نعم الرجل ابن عمر لو كان يصلي بالليل . . .

الحديث » متفق عليه من حديث ابن عمر « أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك » وليس فيه ذكر لجبريل . (٦) حديث « قيل له لمن فلانا يصلي بالليل فإذا أصبح سرق قال سينهاه ما يعمل » أخرجه ابن حبان من حديث أبي هريرة . (٧) حديث « رحم الله رجلا قام من الليل فصلى ثم أيقظ امرأته فصلت . . . الحديث » أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث أبي هريرة . (٨) حديث « من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كتبنا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات » أخرجه أبو داود والنسائي من

حديث أبي هريرة وأبي سعيد بسند صحيح . (٩) حديث « أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة

عمر بن الخطاب رضى الله عنه : قال صلى الله عليه وسلم « من نام عن حربه أو عن شيء منه بالليل فقرأه بين صلاة الفجر والظهر كتب له كأنما قرأه من الليل (١) » الآثار : روى أن عمر رضى الله عنه كان يمز بالآية من ورده بالليل فيسقط حتى يعاد منها أياما كثيرة كما يعاد المريض . وكان ابن مسعود رضى الله عنه إذا هدأت العيون قام فيسمع له دوى كدوى الجهل حتى يصبح ويقال : إن سفيان الثوري رحمه الله شبع ليلة فقال : إن الحمار إذا زيد في علفه زيد في عمله فقام تلك الليلة حتى أصبح . وكان طاوس رحمه الله إذا اضطجع على فراشه يتقلى عليه كما تتقلى الحبة على المقلاة ثم يثب ويصلى إلى الصباح ثم يقول : طير ذكر جهنم نوم العابدين . وقال الحسن رحمه الله : ما نعلم عملا أشد من مكابدة الليل ونفقة هذا المال فقيل له : ما بال المتجهدين من أحسن الناس وجوها ؟ قال : لأنهم خلوا بالرحن وألبسهم نورا من نوره . وقدم بعض الصالحين من سفره فهد له فراش فنام عليه حتى فاته ورده فحلف أن لا ينام بعدها على فراش أبدا . وكان عبد العزيز بن رواد إذا جن عليه الليل يأتي فراشه فيمؤيده عليه ويقول : إنك للين ووالله إن في الجنة لألين منك ولا يزال يصلى الليل كله . وقال الفضيل : إنى لاستقبل الليل من أوله فيهلونى طولوه فأفتح القرآن فأصبح وما قضيت نهمنى . وقال الحسن : إن الرجل ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل . وقال الفضيل : إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك محروم وقد كثرت خطيئتك . وكان صلة بن أشيم رحمه الله يصلى الليل كله فإذا كان في السحر قال : إلهى ليس مثلى يطلب الجنة ولكن أجرنى برحمتك من النار . وقال رجل لبعض الحكماء : إنى لأضعف عن قيام الليل ، فقال له « يا أخى لا تعص الله تعالى ولا تقم بالليل . وكان للحسن بن صالح جارية فباعها من قوم فلما كان في جوف الليل قامت الجارية فقالت : يا أهل الدار الصلاة الصلاة فقالوا : أصبحنا أطلع الفجر ؟ فقالت : وما تصلون إلا المكتوبة ؟ قالوا : نعم ؛ فرجعت إلى الحسن فقالت : يا مولاي بعتنى من قوم لا يصلون إلا المكتوبة ؟ ردى . فردها ، وقال الربيع : بت في منزل الشافعى رضى الله عنه ليالى كثيرة فلم يكن ينام من الليل إلا يسيرا . وقال أبو الحويرية . لقد صحبت أبا حنيفة رضى الله عنه ستة أشهر فما فيها ليلة وضع جنبه على الأرض . وكان أبو حنيفة يحى نصف الليل فتر يقوم فقالوا : إن هذا يحى الليل كله : فقال : إنى أستحى أن أوصف بما لا أفعل فكان بعد ذلك يحى الليل كله . ويروى أنه ما كان له فراش بالليل . ويقال : إن مالك بن دينار رضى الله عنه بات يردد هذه الآية ليلة حتى أصبح (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات) الآية : وقال المغيرة بن حبيب : رمقت مالك بن دينار فتوصأ بعد العشاء ثم قام إلى مصلاه فقبض على لحيته فخنقته العبرة فجعل يقول حرم شيمة مالك على النار إلهى قد علمت ساكن الجنة من ساكن النار فأى الرجلين مالك ؟ وأنى الدارين دار مالك ؟ فلم يزل ذلك قوله حتى طلع الفجر . وقال مالك بن دينار : سهوت ليلة عن وردى ونمت فإذا أنا في المنام بجارية كأحسن ما يكون وفي يدها رقعة فقالت لى : أتمسحن تقرأ ؟ فقلت : نعم ، فدفعتنى إلى الرقعة فإذا فيها :

ألهتك اللذائذ والأمانى عن البيض الأوانس في الجنان
تعيش مخلدا لاموت فيها وتلهو في الجنان مع الحسان
تنبه من منامك إن خيرا من النوم التهجى بالقران

وقبل حج مسروق فما بات ليلة إلا ساجدا . ويروى عن أزهر بن مغيث وكان من القوامين أنه قال : رأيت في

(١) حديث عمر « من ام عن حربه أو عن شيء منه فقرأه بين صلاة الفجر والظهر كتب له كأنه قرأه من الليل » رواه مسلم

النام امرأة لا تشبه نساء أهل الدنيا فقلت لها : من أنت ؟ قالت : حوراء ؛ فقلت : زوجيني نفسك ؛ فقالت اخطبني إلى سيدي وأمهرني ؛ فقلت : وما مورك ؟ قالت : طول التهجد وقال يوسف بن مهران : بلغني أن تحت العرش ملكا في صورة ديك برائته من لؤلؤ وصنصنه من زبرجد أخضر فإذا مضى ثلث الليل الأول ضرب بجناحيه وزقا وقال : ليقيم القائمون فإذا مضى نصف الليل ضرب بجناحيه وزقا وقال : ليقيم المتجدون ؛ فإذا مضى ثلثا الليل ضرب بجناحيه وزقا وقال : ليقيم المصلون ؛ فإذا طلع الفجر ضرب بجناحيه وزقا وقال : ليقيم الغافلون وعليهم أوزارهم . وفيل إن وهب بن منبه اليماني ما وضع جنبه إلى الأرض ثلاثين سنة وكان يقول : لأن أرى في بيتي شيطانا أحب إلى من أن أرى في بيتي وسادة لأنها تدعو إلى النوم ، وكانت له مسورة من آدم إذا غلبه النوم وضع صدره عليها وخفق خفقات ثم يفرغ إلى الصلاة . وقال بعضهم : رأيت رب العزة في النوم فسمعته يقول : وعزتي وجلالي لا كرم من مثوى سليمان التيمي فإنه صلى لي الغداة بوضوء العشاء أربعين سنة . ويقال كان مذهبه أن النوم إذا حامر القلب بطل الوضوء ، وروى في بعض الكتب القديمة عن الله تعالى أنه قال : إن عبدى الذى هو عبدى حقا الذى لا ينتظر بقيامه صباح الديكة .

بيان الأسباب التي بها يتيسر قيام الليل

اعلم أن قيام الليل عسير على الخلق إلا على من وفق للقيام بشروطه الميسرة له ظاهرا وباطنا

فأما الظاهرة فأربعة أمور (الأول) أن لا يكثر الأكل فيكثر الشرب فيغلبه النوم ويثقل عليه القيام . كان بعض الشيوخ يقف على المائدة كل ليلة ويقول : معاشر المرادين لا تأكلوا كثيرا فتشربوا كثيرا فترقدوا كثيرا فتتحسروا عند الموت كثيرا . وهذا هو الأصل الكبير وهو تخفيف المعدة عن ثقل الطعام (الثاني) أن لا يتعب نفسه بالنهار في الأعمال التي تعياها الجوارح وتضعف بها الأعصاب فإن ذلك أيضا مجلبة للنوم (الثالث) أن لا يترك القيلولة بالنهار فإنها سنة للاستعانة على قيام الليل (١) (الرابع) أن لا يحتجب الأوزار بالنهار فإن ذلك مما يقسى القلب ويحول بينه وبين أسباب الرحمة . قال رجل للحسن : يا أبا سعيد إنى أبيت معافى وأحب قيام الليل وأعدت ظهورى فما بالى لا أقوم ؟ فقال : ذنوبك قيدتك . وكان الحسن رحمه الله إذا دخل السوق فسمع لغظهم ولغومهم يقول : أظن أن ليل هؤلاء ليل سوء فإنهم لا يقيمون . وقال الثوري : حرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أذنبت ، قيل وما ذاك الذنب ؟ قال : رأيت رجلا يبكي فقلت في نفسي هذا مرء وقال بعضهم : دخلت على كرز بن وبرة وهو يبكي فقلت أتاك نعى بعض أهلك ؟ فقال : أشد ؛ فقلت : وجع يؤمك ؟ قال : أشد ؛ قلت : فذاك ؟ قال : بان مغلق وستى مسبل ولم أقرأ حزبي البارحة وما ذاك إلا بدنب أحدثته . وهذا لأن الخير يدعو إلى الخير والشريد يدعو إلى الشر والقليل من كل واحد منهما يجر إلى الكثير . ولذلك قال أبو سليمان الداراني : لاتفوت أحدا صلاة الجماعة إلا بدنب وكان يقول الاحتلام بالليل عقوبة والجنابة بعد . وقال بعض العلماء : إذا صمت يا مسكين فأنظر عند من تفطر وعلى أى شيء تفطر فإن العبد ليأكل أكلة فينقلب قلبه عما كان عليه ولا يعود إلى حالته الأولى . فالذنوب كلها تورث قساوة القلب وتمنع من قيام الليل ، وأخصها بالتأثير تناول الحرام . وتؤثر اللقمة الحلال في تصفية القلب وتحريكه إلى الخير مالا يؤثر غيرها ويعرف ذلك أهل المراقبة للقلوب بالتجربة بعد شهادة الشرع له . ولذلك قال بعضهم : كم من أكلة منعت قيام ليلة وكم من نظرة منعت قراءة سورة ؟ وإن العبد ليأكل أكلة أو يفعل فعلة فيحرم بها قيام سنة . وكما أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر فكذلك الفحشاء تنهى عن الصلاة وسائر الخيرات . وقال بعض السجابين

(١) حديث « الاستعانة بقيلولة النهار على قيام الليل » أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عباس وقد تقدم .

كنت سجانا نيما وثلاثين سنة أسأل كل مأخوذ بالليل أنه هل صلى العشاء في جماعة فكانوا يقولون : لا ؟ وهذا تتيبه على أن بركة الجماعة تنهى عن تعاطي الفحشاء والمنكر .

وأما الميسرات الباطنة وأربعة أمور : (الأول) سلامة القلب عن الحقد على المسلمين وعن البدع وعن فضول هموم الدنيا فالمستغرق لهم بتدبير الدنيا لا يتيسر له القيام ، وإن قام فلا يتفكر في صلاته إلا في مهماته ولا يجول إلا في وساوسه وفي مثل ذلك يقال :

يحبرني البواب أنك نائم وأنت إذا استيقظت أيضاً فنائم

(الثاني) : خوف غالب يلزم القلب مع قصر الأمل فإنه إذا تفكر في أهوال الآخرة ودركات جهنم طار نومه وعظم حدره كما قال طاوس : إن ذكر جهنم طير يوم العابدين . وكما حكى أن غلاماً بالبصرة اسمه صهيب كان يقوم الليل كله فقالت له سيده : إن قيامك بالليل يضرب عملك بالنهار ، فقال : إن صهيباً إذا ذكر النار لا يأتيه النوم وقيل لغلام آخر وهو يقوم كل الليل فقال : إذا ذكرت النار اشتد خوفاً وإذا ذكرت الجنة اشتد شوقاً فلا أقدر أن أنام وقال ذو النون المصري رحمه الله :

مع القران بوعدده ووعيده مقل العيون بليها أن تهجعا
فهموا عن الملك الجليل كلامه فرقابهم ذلت إليه تخضعا

وأشدوا أيضاً :

يا طويل الرقاد والغضلات كثرة النوم تورث الحشرات
إن في القبر إن نزلت إليه لرقادا يطول بعد الممات
ومهادا ممهدا لك فيه بذنوب عملت أو حسنات
أمنت البيات من ملك الموت وكم نال آمنة ببيات

وقال ابن المبارك :

إذا ما الليل أظلم كابدوه فيسمر عنهم وهم ركوع
أطار الخوف نومهم فقاموا وأهل الأمن في الدنيا هجوع

(الثالث) أن يعرف فضل قيام الليل بسماع الآيات والأخبار والآثار حتى يستحکم به رجاءه وشوقه إلى ثوابه فيميجه الشوق لطلب المزيد والرغبة في درحات الجنان ؛ كما حكى أن بعض الصالحين رجع من غزوته فهدت امرأته فراشها وجلست تنتظره فدخل المسجد ولم يزل يصل حتى أصبح فقالت له زوجته : كنا ننتظرك مدة فلما قدمت صليت إلى الصبح ؟ قال : والله إنى كنت أتفكر في حوراء من حور الجنة طول الليل فنسيت الزوجة والمنزل فقصت طول ليلتي شوقاً إليها .

(الرابع) وهو أشرف البواعث ؛ الحب لله وفوة الإيمان بأنه في قيامه لا يتكلم بحرف إلا وهو مناج ربه وهو مطلع عليه مع مشاهدة ما يحظر بقلبه وأن تلك الخطرات من الله تعالى خطاب معه ، فإذا أحب الله تعالى أحب لأحباله الحلوة به وتلذذ بالمناجاة فتحمله لذة المناجاة بالحبيب على طول القيام . ولا ينبغي أن يستبعد هذه اللذة إذ يشهد لها العقل والنقل . فأما العقل فليعتبر حال المحب لشخص بسبب جماله أو الملك بسبب إنعامه وأمواله أنه كيف يتلذذ به في الخلوة ومناجاته حتى لا يأتيه النوم طول الليله فإن قلت : إن الجميل يتلذذ بالنظر إليه وإن الله تعالى لا يرى ؟ فاعلم

أنه لو كان الجميل المحبوب وراء ستر أو كان في بيت مظلم لكان المحب يتلذذ بمجاورته المجردة دون النظر ودون الطمع في أمر آخر سواه . وكان يتنعم بإظهار حبه عليه وذكره بلسانه بمسمع منه وإن كان ذلك أيضا معلوما عنده * فإن قلت : إنه ينتظر جوابه فليتلذذ بسماع جوابه ولبس يسمع كلام الله تعالى ؟ فاعلم أنه إن كان يعلم أنه لا يجيبه ويسكت عنه فقد بقيت له أيضا لذة في عرض أحواله عليه ورفع سريره إليه كيف والموقف يسمع من الله تعالى كل ما يرد على خاطره في أثناء مناجاته فيتلذذ به ؟ وكذا الذي يخلو بالملك ويعرض عليه حاجاته في جنح الليل يتلذذ به في رحاء إنعامه . والرجاء في حق الله تعالى أصدق وما عند الله خير وأبقى وأنفع مما عند غيره فكيف لا يتلذذ بعرض الحاجات عليه في الخلوات ؟ وأما النقل فيشهد له أحوال قوام الليل في تلذذهم بقيام الليل واستقصارهم له كما يستقصر المحب ليلة وصال الحبيب حتى قيل لبعضهم : كيف أنت والليل ؟ قال : ماراعته قط يريني وجهه ثم ينصرف وماتأملته بعد . وقال آخر : أنا والليل فرسا رهان مرة يسبقني إلى الفجر ومرة يقطنني عن الفكر . وقيل لبعضهم : كيف الليل عليك ؟ فقال : ساعة أنا فيها بين حالتين أفرح بظلمته إذا جاء وأغتم بفجره إذا طلع ، ماتم فرحى به قط وقال على بن بكر : منذ أربعين سنة ما أحزنتي شيء سوى طلوع الفجر . وقال الفضيل بن عياض : إذا غربت الشمس فرحت بالظلام لملوحي بربي وإذا طلعت حزنت لدخول الناس على . وقال أبو سليمان : أهل الليل في ليلهم ألد من أهل اللهوى لهوهم ولولا الليل ما أجببت البقاء في الدنيا . وقال أيضا : لو عوض الله أهل الليل من ثواب أعمالهم ما يجدونه من اللذة لكان ذلك أكثر من ثواب أعمالهم . وقال بعض العلماء : ليس في الدنيا وقت يشبه نعيم أهل الجنة إلا ما يجده أهل التلق في قلوبهم بالليل من حلاوة المواجه . وقال بعضهم : لذة المناجاة أيسر من الدنيا إنما هي من الجنة أظهرها الله تعالى لأولياته لا يجدها سواهم ، وقال ابن المنكدر : ما بقي من لذات الدنيا إلا ثلاث قيام الليل ولقاء الإخوان والصلاة في الجماعة . وقال بعض العارفين : إن الله تعالى ينظر بالأصباح إلى قلوب المتيقظين فيملؤها أنواراً فترد الفوائد على قلوبهم فتستدير ثم تنتشر من قلوبهم العوافي إلى قلوب الغافلين . وقال بعض العلماء من القدماء : إن الله تعالى أوحى إلى بعض الصديقين إن لي عبادة من عبادي أحبهم ويحبونني ويشتاقون إلى وأشتاق إليهم ويدكرونني وأذكروهم وينظرون إلى وأنظر إليهم فإن حذوت طريقهم أحببتك وإن عدات عنهم مقتك ، قال يارب وما علامتهم؟ قال يراعون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى غنمه ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها فإذا جهم الليل واختلط الظلام وخال كل حبيب بحبيبه نصبوا إلى أقدامهم واقترشوا إلى وجوههم وناجوني بكلامي وتملقوا إلى يانعاتي فبين صارح وباكي وبين متأوه وشاكي بعيني ما يتحملون من أجلي وبسمعي ما يشتكون من حي أول ما أعطيهم أقذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عني كما أخبر عنهم . والثانية : لو كانت السموات السبع والأرضون السبع وما فيهما في موازينهم لاستقلتها لهم . والثالثة : أقبل بوجهي عليهم أفترى من أقبلت بوجهي عليه أعلم أحد ما أريد أن أعطيه ؟ وقال مالك بن دينار رحمه الله إذا قام العبد يتعهد من الليل قرب منه الجبار عز وجل . وكانوا يرون ما يجدون من الرقة والحلاوة في قلوبهم والأنوار من قرب الرب تعالى من القلب وهذا له سر وتحقيق ستأق الإشارة إليه في كتاب الحجة . وفي الأخبار عن الله عز وجل : أي عبدي أنا الله الذي اقتربت من قلبك وبالغيب رأيت نوري ، وشكا بعض المريدين إلى أستاذه طول سهر الليل وطلب حيلة يجلب بها النوم فقال أستاذه : يابني إن لله نعمات في الليل والنهار تصيب القلوب المتيقظة وتخطي القلوب النائمة فتعرض لتلك النفحات ؛ فقال : ياسيدي تركتني لأنام بالليل ولا بالنهار

واعلم أن هذه النفحات بالليل أرجى لما في قيام الليل من صفاء القلب واندفاع الشواغل ، وفي الخبر الصحيح عن جابر بن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن من الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى خيراً إلا أعطاه إياه ^(١) ، وفي رواية أخرى : يسأل الله خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه وذلك كل ليلة ، ومطلوب التأمين تلك الساعة وهي مهمة في جملة الليل قليلة القدر في شهر رمضان وكساعة يوم الجمعة وهي ساعة النفحات المذكورة والله أعلم .

بيان طرق القسمة لأجزاء الليل

اعلم أن إحياء الليل من حيث المقدار له سبع مراتب (الأولى) لإحياء كل الليل وهذا شأن الأقباء الذين تجردوا لعبادة الليل وتلدؤوا بمناجاته وصار ذلك غذاء لهم وحياة لقلوبهم فلم يتعبوا بطول القيام وردوا المنام إلى النهار وفي وقت اشتغال الناس ، وقد كان ذلك طريق جماعة من السلف كانوا يصلون الصبح بوضوء العشاء . حكى أبو طالب المكي أن ذلك حكى على سبيل التواتر والاشتهار عن أربعين من التابعين وكان فيهم من واطب عليه أربعين سنة ، قال : منهم سعيدين المسيب وصعوان بن سليم - المدنيان - وفصيل بن عياض ووهيب بن الورد - المكيان - وطاوس ووهب بن منبه - اليمانيان - والربيع بن خيثم والحكم - الكوفيان - وأبوسليمان الداراني وعلي بن بكر - الشاميان - وأبو عبد الله الخواص وأبو عاصم - العباديان - وحبيب أبو محمد وأبو حابر السلمي - الفارسيان - ومالك بن دينار سلمي التيمي ويزيد الرقاشي وحبيب بن أبي ثابت ويحيى البكاء - البصريون - وكهمس بن المهال وكان يختم في الشهر تسعين ختمة ومالم يفهمه رجوع وقرأه مرة أخرى . وأيضاً من أهل المدينة : أبو حازم ومحمد بن المنكدر في جماعة يكثر عددهم (المرتبة الثانية) أن يقوم نصف الليل : وهذا لا ينحصر عدد المواظبين عليه من السلف . وأحسن فيه أن ينام الثلث الأول من الليل والسدس الأخير منه حتى يقع قيامه في حوف الليل ووسطه فهو الأفضل (المرتبة الثالثة) أن يقوم ثلث الليل : فينبغي أن ينام النصف الأول والسدس الأخير ، وبالجملة نوم آخر الليل محبوب لأنه يذهب النعاس بالغداة ، وكانوا يكرهون ذلك ، ويقال صفرة الوجه والشهرة به فلو قام أكثر الليل ونام سحراً قلت صفرة وجهه وقل فعاسه . وقالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أوتر من آخر الليل فإن كانت له حاجة إلى أهله دنا منهم وإلا اصطجع في مصلاه حتى يأتيه بلال فيؤذنه للصلاة ^(٢) ، وقالت أيضاً رضي الله عنها : ما ألفتيه بعد السحر إلا نائماً ^(٣) ، حتى قال بعض السلف : هذه الضجعة قبل الصبح سنة ، منهم أبو هريرة رضي الله عنه . وكان نوم هذا الوقت سبباً للكاشفة والمشاهدة من وراء حجب الغيب وذلك لأرباب القلوب وفيه استراحة

(١) حديث جابر « إن من الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه وذلك كل

ليلة » رواه مسلم .

(٢) حديث « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أوتر من آخر الليل فإن كانت له حاجة إلى أهله دنا منهم وإلا اصطجع في مصلاه حتى يأتيه بلال فيؤذن بالصلاة » أخرجه مسلم من حديث عائشة « كان ينام أول الليل ويحيى آخره ثم إن كان له حاجة إلى أهله قضى حاجته ثم ينام » وقال النسائي « فإذا كان من السحر أوتر ثم أتى فراشه فإذا كان له حاجة إلى أهله » ولأبي داود « كان إذا قضى صلاته من آخر الليل نظر فإن كنت مستيقظة حدثني وإن كنت نائمة أيقظني وصل الركعتين ثم اصطجع حتى يأتيه المؤذن فيؤذنه صلاة الصبح فيصل ركعتين خفيفتين ثم يخرج إلى الصلاة » وهو متفق عليه بلفظ « كان إذا صلى فإن كنت مستيقظة حدثني وإلا اصطجع حتى يود - بالصلاة » وقال مسلم « إذا صلى ركعتي العجر » (٣) حديث عائشة « ما ألفتيه بعد السحر الأعلى إلا نائماً » متفق عليه بلفظ « ما ألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم السحر الأعلى في بيتي أو عندي إلا نائماً » لم يقل البخاري « الأعلى » وقال ابن ماجة « ما كنت أتى أو ألقى النبي صلى الله عليه وسلم من آخر الليل إلا وهو نائم عندي »

تعيين على الورد الأول من أورد النهار وقبام ثلث الليل من النصف الأخير . ونوم السدس الأخير قيام داود صلى الله عليه وسلم (المرتبة الرابعة) أن يقوم سدس الليل أوحسه وأفضله أن يكون في النصف الأخير وقبل السدس الأخير منه (المرتبة الخامسة) أن لا يراعى التقدير فإن ذلك إنما يتيسر لنبي يوحى إليه أو لمن يعرف منازل القمر ويوكل به من يراقبه ويواظبه ويوقظة ثم ربما يضطرب ليالى الغيم ، ولكنه يقوم من أول الليل إلى أن يغلبه النوم فإذا انتبه قام فإذا غلبه النوم عاد إلى النوم . فيكون له في الليل نومتان وقومتان وهو من مكابدة الليل وأسد الأعمال وأفضلها ، وقد كان هذا من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) ، وهو طريقة ابن عمرو وأولى العزم من الصحابة وجماعة من التابعين رضى الله عنهم . وكان بعض السلف يقول : هي أول نومة فإذا انتبهت ثم عدت إلى النوم فلا أنام الله لي عينا . فأما قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم من حيث المقدار فلم يكن على ترتيب واحد بل ربما كان يقوم نصف الليل أو ثلثه أو سدسه ^(٢) يختلف ذلك في الليالي ودل عليه قوله تعالى في الموضعين من سورة المرملة (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه) فأدنى من ثلثي الليل كأنه بصفه ونصف سدسه فإن كسر قوله (ونصفه وثلثه) كان نصف الثلثين وثلثه ويقرب من الثلث والرابع وإن نصب كان نصف الليل وقالت عائسة رضى الله عنها كان صلى الله عليه وسلم يقوم إذا سمع الصارخ ^(٣) « يعنى الديك وهذا يكون السدس فما دونه . وروى غير واحد أنه قال « راعيت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم في السفر لئلا أقام بعد العشاء زماناً ثم استيقظ فنظر في الأفق فقال (ربنا ما خلقت هذا باطلاً) حتى بلغ (لك لا تخلف الميعاد) ثم استلم من فراشه سوا كافاستاك به وتوضأ وصلى حتى قلت : صلى مثل الذى نام . ثم اضطجع حتى قلت نام مثل ما صلى . ثم استيقظ فقال ما قال أول مرة وفعل ما فعل أول مرة ^(٤) » (المرتبة السادسة) وهى الأقل : أن يقوم مقدار أربع ركعات أو ركعتين أو تتعدر عليه الطهارة فيحطس مستقبل القبلة ساعة مشغلا بالذكر والدعاء فيكتب في حمله قوام الليل برحمة الله وفضله . وقد جاء في الأثر : صل من الليل ولو قدر حلب شاة ^(٥) فهذه طرق القسمة فليختر المريد لنفسه ما يراه أيسر عليه . وحيث يتعذر عليه القيام في وسط الليل فلا ينبغي أن يهمل لإحياء ما بين العشاءين والورد الذى بعد العشاء . ثم يقوم قبل الصبح وقت السحر فلا يدركه الصبح

(١) حديث « قيامه أول الليل إلى أن يبله النوم فادا انبه قام فاذا غلبه عاد إلى النوم فيكون له في الليل نومتان » أخرجه أبو داود والترمذى وصححه وابن ماجه من حديث أم سلمة « كان يصلى ويام قدر ما صلى ثم يصلى قدر ما نام ثم يام قدر ما صلى حتى يصبح » ولليخارى من حديث ابن عباس « صلى العشاء ثم جاء فصلى أربع ركعات ثم نام ثم قام » وفيه « فصلى خمس ركعات ثم صلى ركعتين ثم نام حتى سمعت غطيطه ... الحديث » .

(٢) حديث « ربما كان يقوم نصف الليل أو ثلثه أو سدسه » أخرجه الشيطان من حديث ابن عباس « قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اتصف الليل أو قبله قليلاً أو بعده قليلاً استيقظ ... الحديث » وفي رواية لليخارى « لما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء ... الحديث » ولأبى داود « قام حتى إذا ذهب ثلث الليل أو نصحه استيقظ ... الحديث » لمسلم من حديث عائسة « نبيته الله عنها شاء أن يبعثه من الليل » . (٣) حديث عائسة « كان يقوم إذا سمع الصارخ متيقظ عليه . » (٤) حديث « غير واحد قال : راعيت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم في السفر ليلاً فنام بعد العشاء زماناً ثم استيقظ فنظر في الأفق فقال ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبجانك - حتى بلغ - أنك لا تخلف الميعاد ثم استلم من فراشه سوا كافاستاك وتوضأ وصلى حتى قلت صلى مثل ما نام . الحديث » أخرجه النسائى من رواية حميد بن عبد الرحمن بن عوف « أن رجلاً من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قال : قلت وأنا في سفر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لأرقتن رسول الله صلى الله عليه وسلم » فذكر نحوه وروى أبو الوليد بن ميث في كتاب الصلاة من رواية اسحق بن عبد الله بن أبى طلحة « أن رجلاً قال لأرقتن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم » فذكر الحديث وفيه « أنه أخذ سواكه من مؤخر الرجل » وهذا يدل أنه أيضاً كان في سفر .

(٥) حديث « صل من الليل ولو قدر حلب شاة » أخرجه أبو يعلى من حديث ابن عباس في صلاة الليل صفوفاً « نصه ثلثه ربعة فواق حلب ناقة فواق حلب شاة » ولأبى الوليد بن ميث من رواية إياس بن معاوية صرسلا « لا بد من صلاة الليل ولو حلة ناقة أو حلبة شاة » ،

نأتمها ويقوم بطرفي الليل (وهذه هي المرتبة السابعة ومهما كان النظر إلى المقدار فترتيب هذه المراتب بحسب طول الوقت وقصره : وأما في الرتبة الخامسة والسابعة لم ينظر فيما إلى القدر فليس يجرى أمرهما في التقدّم والتأخر على الترتيب المذكور إذ السابعة ليست دون ما ذكرناه في السادسة ، ولا الخامسة دون الرابعة .

بيان الليالي والأيام الفاضلة

اعلم أن الليالي المخصوصة بمزيد الفضل التي يتأكد فيها استحباب الإحياء في السنة خمس عشرة ليلة لا ينبغي أن يغفل المرید عنها فإنها مواسم الخيرات ومظان التجارات . ومتى غفل التاجر عن المواسم لم يربح ومتى غفل المرید عن فضائل الأوقات لم ينجح . فسته من هذه الليالي في شهر رمضان : خمس في أوتار العشر الأخير إذ فيها يطلب ليلة القدر . وليلة سبع عشرة من رمضان - فهي ليلة صبيحتها يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ، فيه كانت وقعة بدر ، وقال ابن الزبير رحمه الله : هي ليلة القدر - وأما التسع الأخر : فأول ليلة من المحرم . وليلة عاشوراء وأول ليلة من رجب وليلة النصف منه . وليلة سبع وعشرين منه وهي ليلة المعراج وفيها صلاة مأثورة فقد قال صلى الله عليه وسلم ، للعامل في هذه الليلة حسنة مائة سنة (١) ، فمن صلى في هذه الليلة اثنتي عشرة ركعة يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة من القرآن ويتشهد في كل ركعتين ويسلم في آخرهن ثم يقول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر مائة مرة ثم يستغفر الله مائة مرة ويصلي على النبي صلى الله عليه وسلم مائة مرة ويدعو لنفسه بما شاء من أمر دينه وآخرته ويصبح صائماً فإن الله يستجيب دعاءه كله إلا أن يدعو في معصية - وليلة النصف من شعبان - ففيها مائة ركعة يقرأ في كل ركعة بعد الفاتحة سورة الإخلاص عشر مرات كانوا لا يتركونها كما أوردناه في صلاة التطوع - وليلة عرفة . وليلتا العيدين : قال صلى الله عليه وسلم : من أحيا ليلتي العيدين لم يموت قلبه يوم تموت القلوب (٢) .

وأما الأيام الفاضلة فثلاثة عشر يستحب مواصلة الأوراد فيها : يوم عرفة . ويوم عاشوراء . ويوم سبعة وعشرين من رجب - له شرف عظيم روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من صام يوم سبعة وعشرين من رجب كتب الله له صيام ستين شهراً (٣) ، وهو اليوم الذي أهبط الله فيه جبرائيل عليه السلام على محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة - ويوم سبعة عشر من رمضان - وهو يوم وقعة بدر - ويوم النصف من شعبان . ويوم الجمعة ، ويوم العيدين والأيام المعلومات وهي عشر من ذي الحجة . والأيام المعدودات وهي أيام التشريق . وقد روى أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : إذا سلم يوم الجمعة سلمت الأيام وإذا سلم شهر رمضان سلمت السنة (٤) ، وقال بعض العلماء : من أخذ مهنة في الأيام الخمسة في الدنيا لم ينل مهنة في الآخرة وأراد به العيدين والجمعة وعرفة وعاشوراء ومن فواضل الأيام في الأسبوع يوم الخميس والاثنتين ترفع فيهما الأعمال إلى الله تعالى : وقد ذكرنا فضائل الأشهر والأيام للصيام في كتاب الصوم فلا حاجة إلى الإعادة والله أعلم ، وصلى الله على كل عبد مصطنع من كل العالمين .

(١) حديث « الصلاة المأثورة في ليلة السابع والعشرين من رجب » ذكر أبو موسى المديني في كتاب فضائل الأيام الليالي : أن أبا محمد الحارثي روى عن طريق الحاكم أبي عبد الله من رواية محمد بن الفضل عن أبان عن أنس مرفوعاً ، ومحمد بن الفضل وأبان ضعيفان جداً والحديث مسكوك . (٢) حديث « من أحيا ليلتي العيدين لم يموت قلبه يوم تموت القلوب » أخرجه بإسناد ضعيف من حديث أبي أمامة . (٣) حديث أبي هريرة « من صام يوم سبعة وعشرين من رجب كتب الله له صيام ستين شهراً وهو اليوم الذي هبط فيه جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم » روى أبو موسى المديني في كتاب فضائل الليالي والأيام من رواية شهر بن حوشب عنه . (٤) حديث أنس « إذا سلم يوم الجمعة سلمت الأيام وإذا سلم شهر رمضان سلمت السنة » تقدم في الباب الخامس من الصلاة فذكر يوم الجمعة فقط وقد رواه بحجته ابن حبان في الضعفاء وأبو نعيم في الحلية من حديث عائشة وهو ضعيف .

تم الربع الأول من كتاب : إحياء علوم الدين ، وهو ربيع العبادات ويتلوه : الربع الثاني ، وهو ربيع العادات



فهرس

الجبرء الأقرء

من إءناء علوم الدين

صحيحة	صحيحة
فآدابه ووظائفه الظاهرة كثيرة ولو لم يكن	ب ترجمة الإمام الغزالي
تنتظم تماريقها في عشر جمل	د ترجمة الإمام العراقي
٥٥ بيان وظائف المرشد المعلم	١ خطبة الكتاب
٥٨ الباب السادس في آفات العلم وبيان علامات	٤ كتاب العلم وفيه سبعة أبواب
علماء الآخرة والعلماء السوء	الباب الأول في فضل العلم والتعليم والتعلم
٨٣ الباب السابع في العقل وشرفه وحقيقته	وشواهد من النقل والعقل
وأقسامه . بيان شرف العقل	هضيلة العلم
٨٥ بيان حقيقة العقل وأقسامه	٨ هضيلة التعلم
٨٧ بيان تفاوت النفوس في العقل	٩ هضيلة التعليم
٨٩ كتاب قواعد العقائد	١٢ في الشواهد العقائدية
وفيه أربعة فصول	١٣ الباب الثاني في العلم المحمود والمدموم
الفصل الأول في ترجمه عقيدة أهل السنة	وأقسامهما وأحكامهما وفيه بيان ماهو
في كلمتي الشهادة الخ	فرض عين وما هو فرض كفاية وبيان أن
٩٤ الفصل الثاني في وجه التدرج إلى الإرشاد	موقع الكلام والفقهاء من علم الدين إلى أي حد
وترتيب درجات الاعتقاد	هو وتفضيل علم الآخرة
١٠٤ الفصل الثالث من كتاب قواعد العقائد في	بيان العلم الذي هو فرض عين
لوامع الأدلة للعقيدة التي ترجمناها بالقدس	١٩ بيان العلم الذي هو فرض كفاية
وفيها أركان أربعة	٢٩ الباب الثالث فيما بعده العامة من العلوم
١٠٥ وأما الركن الأول من أركان الإيمان	المحمودة وليس منها وفيه بيان الوحد الذي
معرفة ذات الله سبحانه وتعالى وأن الله	قد يكون به بعض العلوم مدموما . بيان
تعالى واحد ومداره على عشرة أصول	تبديل أسماء العلوم وهو الحق والعلم
١٨ الركن الثاني العلم بصفات الله تعالى ومداره	والتوحيد والتذكير والحكمة وبيان القدر
على عشرة أصول	المحمود من العلوم الشرعية والقدر المدموم
١١٠ الركن الثالث العلم بأفعال الله تعالى	منها . بيان علة دم العلم المدموم
ومداره على عشرة أصول	٣١ بيان ما بدل من ألقاظ العلوم
١١٤ الركن الرابع في السمعيات وتصديقه <small>عليه السلام</small>	٣٨ بيان القدر المحمود من العلوم المحموده
فما أخبر عنه ومداره على عشرة أصول	٤١ الباب الرابع في سبب إقبال الخاق على
١١٦ الفصل الرابع في الإيمان والإسلام	علم الخلاف وتفصيل آفات المناظرة
وما بينهما من الاتصال والانفصال	والجدل وشروط لإباحتها
وما يتطرق إليه من الزيادة والنقصان	٤٢ بيان التلبس في تشبيه هذه المناظرات
ووجه استثناء السالف فيه وفيه ثلاث مسائل	بمشاررات الصحابة ومفاديات السلف
مسألة اختلفوا في أن الإسلام هو	رحمهم الله تعالى
الإيمان أو غيره الخ	٤٥ بيان آفات المناظرة وما يتولد منها من
	مهلكات الأخلاق
	٤٨ الباب الخامس في آداب المتعلم والمعلم أما المتعلم

صحيفة

- ١٤٩ فضيلة السجود
١٥٠ فضيلة الخشوع
١٥١ فضيلة المسجد وموضع الصلاة
١٥٢ الباب الثاني في كيفية الأعمال الظاهرة
من الصلاة والبداءة بالتكبير وما قبله
١٥٣ القراءة
١٥٤ الركوع ولواحقه
السجود
١٥٥ التشهد
١٥٦ المنهيات
١٥٧ تمييز الفرائض والسنن
١٥٩ الباب الثالث في الشروط الباطنة من
أعمال القلب الخ
بيان اشترائط الخشوع وحضور القلب
١٦١ بيان المعاني الباطنة التي تتمها حياة الصلاة
١٦٣ بيان الدواء الدافع في حضور القلب
١٦٥ بيان تفصيل ما ينبغي أن يحضر في القلب
عند كل ركن وشروط من أعمال الصلاة
١٧١ حكايات وأخبار في صلاة الخاشعين
١٧٣ الباب الرابع في الإمامة والقدوة الخ
١٧٨ الباب الخامس في فضل الجمعة وآدابها
وسننها وشروطها
فضيلة الجمعة
١٧٩ بيان شروط الجمعة
وأما السنن الخ
١٨٠ بيان آداب الجمعة على ترتيب العادة وهي
عشر جعل
١٨٥ بيان الآداب والسنن الخارجة عن الترتيب
السابق الذي يعم جميع النهار وهي سبعة أمور
١٨٨ الباب السادس في مسائل متفرقة تعم بها
البلوى ، ويحتاج المرید إلى معرفتها
١٩٢ الباب الرابع في النوافل من الصلوات
وفيه أربعة أقسام

صحيفة

- ١٢٠ مسألة فإن قلت فقد اتفق السلف على
أن الإيمان يزيد وينقص الخ
١٢١ مسألة فإن قلت ما وجه قول السلف
أنا مؤمن لأن شاء الله الخ
١٢٥ كتاب أسرار الطهارة
وهو الكتاب الثالث من ربيع العبادات
١٢٨ القسم الأول في طهارة الخبث والنظر فيه
يتعلق بالمزال والمزال به والإزالة. الطرف
الأول في المزال
الطرف الثاني في المزال به
١٣٠ الطرف الثالث في كيفية الإزالة
القسم الثاني طهارة الأحداث ومنها الوضوء
والغسل والقهيم ويتقدمها الاستنجاء
باب آداب قضاء الحاجة
١٣٢ كيفية الاستنجاء
كيفية الوضوء
١٣٥ فضيلة الوضوء
١٣٦ كيفية الغسل
كيفية التيمم
١٣٧ القسم الثالث في النظافة والتنظيف عن
الفضلات الظاهرة وهي نيطان أو ساخ
وأجزاء
النوع الأول الأوساخ والرطوبات
المترسخة وهي ثمانية
١٤٠ النوع الثاني فيما يحدث في البدن من
الأجزاء وهي ثمانية
١٤٥ كتاب أسرار الصلاة ومهماتها
وفيه سبعة أبواب
١٤٦ الباب الأول في فضائل الصلاة والسجود
والجماعة والأذان وغيرها
فضيلة الأذان
فضيلة المكتوبة
١٤٧ فضيلة إتمام الأركان
١٤٨ فضيلة الجماعة

صحيفة

١٩٣ القسم الأول ما يتكرر بتكرر الأيام والليالي وهي ثمانية

١٩٧ القسم الثاني ما يتكرر بتكرر الأسابيع

٢٠٠ القسم الثالث ما يتكرر بتكرر السنين

٢٠٣ القسم الرابع من الترافل ما يتعلق بأسباب عارضة ولا يتعلق بالمواقيت وهي تسعة

٢٠٨ كتاب أسرار الزكاة وفيه أربعة فصول

٢٠٩ الفصل الأول في أنواع الزكاة وأسباب وجوبها

النوع الأول زكاة النعم

٢١٠ النوع الثاني زكاة المعشرات

النوع الثالث زكاة النقدين

٢١١ النوع الرابع زكاة العجارة

النوع الخامس الركاز والمعدن

النوع السادس في صدقة الفطر

٢١٢ الفصل الثاني في الأداء وشروطه الباطنة والظاهرة

٢١٣ بيان دقائق الآداب الباطنة في الزكاة

الوظيفة الأولى أي من الوظائف التي على مر يد طريق الآخرة بهم وجوب الزكاة الخ

٢١٥ الوظيفة الثانية في وقت الأداء

الوظيفة الثالثة الإسرار

٢١٦ الوظيفة الرابعة أن يظهر حيث يعلم أن في إظهاره ترغيباً للناس الخ

الوظيفة الخامسة أن لا يفسد صدقة بالمن والأذى

٢١٨ الوظيفة السادسة أن يستصغر العطية

الوظيفة السابعة أن ينتقى من ماله أجوده وأحبه إليه وأجله وأطيبه

٢١٩ الوظيفة الثامنة أن يطلب لصدقته من تزكو به الصدقة الخ

٢٢١ الفصل الثالث في القايض وأسباب استحقاقه ووظائف قبضه

بيان أسباب الاستحقاق

صحيفة

٢٢٢ بيان وظائف القايض

٢٢٥ الفصل الرابع في صدقة التطوع وفضلها وآداب أخذها وإعطائها

بيان فضيلة الصدقة

٢٢٧ بيان إخفاء الصدقة وإظهارها

٢٣٠ بيان الأفضل من أخذ الصدقة أو الزكاة

كتاب أسرار الصوم وفيه ثلاثة فصول

٢٣٢ الفصل الأول في الواجبات والسنن الظاهرة واللازم بإفساده

أما الواجبات الظاهرة فستة

٢٣٣ لوازم الإفطار أربعة

٢٣٤ الفصل الثاني في أسرار الصوم وشروطه الباطنة

٣٣٧ الفصل الثالث في التطوع بالصيام وترتيب الأوراد فيه

٢٣٩ كتاب أسرار الحج وفيه ثلاثة أبواب

الباب الأول وفيه فصلان

الفصل الأول في فضائل الحج وفضيلة البيت ومكة والمدينة حرسهما الله تعالى

وشد الرجال إلى المساجد

فضيلة الحج

٢٤١ فضيلة البيت ومكة المشرفة

فضيلة المقام مكة حرسها الله وكرامته

٢٤٣ فضيلة المدينة الشريفة على سائر البلاد

٢٤٥ الفصل الثاني في شروط وجوب الحج

وصحة أركانه وواجباته ومحظوراته

٢٤٦ الباب الثاني في ترتيب الأعمال الظاهرة من أول السفر إلى الرجوع وهي عشرة حمل

الجملة الأولى في السير من أول الخروج إلى الإحرام وهي ثمانية

٢٤٨ الجملة الثانية في آداب الإحرام من الميقات إلى دخول مكة وهي خمسة

صحيفة

- ٢٩٤ الباب الاول في فضيلة الذكر وقائده على
الجملة والتفصيل من الآيات والاخبار
والآثار
- ٢٩٦ فضيلة مجالس الذكر
- ٢٩٧ فضيلة التهليل
- ٢٩٨ فضيلة التسبيح والتحميد وبقية الاذكار
- ٣٠٣ الباب الثاني في آداب الدعاء وفضله
وفضل بعض الادعية المأثورة وفضيلة
الاستغفار والصلاة على رسول الله
صلى الله عليه وسلم . فضيلة الدعاء
- ٣٠٤ آداب الدعاء وهي عشرة
- ٣٠٩ فضيلة الصلاة على رسول الله صلى الله
عليه وسلم وفضله
- ٣٠٩ فضيلة الاستغفار
- ٣١٣ الباب الثالث في ادعية مأثورة ومعزية
إلى اسبابها وارباعها بما يستحب أن يدعو
بها المرء صباحا ومساء . وبمقب كل صلاة
- ٣١٤ دعاء عائشة رضی الله عنها
- دعاء فاطمة رضی الله عنها
- دعاء أبي بكر الصديق رضی الله عنه
- ٣١٥ دعاء بريدة الاسلمی رضی الله عنه
- دعاء قبيصة بن المخارق
- دعاء أبي الدرداء رضی الله عنه
- دعاء الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام
- دعاء عيسى صلى الله عليه وسلم
- دعاء الخضر عليه السلام
- دعاء معروف الكرخي رضی الله عنه
- دعاء عتبة الغلام
- دعاء آدم عليه الصلاة والسلام
- ٣١٧ دعاء علي بن أبي طالب رضی الله عنه
- دعاء ابن المعتز وهو سليمان التيمي
وتسبيحاته رضی الله عنه
- دعاء إبراهيم بن آدم رضی الله عنه

صحيفة

- ٢٤٩ الجملة الثالثة في آداب دخول مكة إلى
الطواف وهي ستة
- ٢٥٠ الجملة الرابعة في الطواف الخ .
- ٢٥٢ الجملة الخامسة في السعي
- ٢٥٣ الجملة السادسة في الوقوف وما قبله
- ٢٥٥ الجملة السابعة في بقية أعمال الحج بعد
الوقوف من المبيت والرمي والتحرر
والحاق والطواف
- ٢٥٧ الجملة الثامنة في صفة العمرة وما بعدها
إلى طواف الوداع
- ٢٥٨ الجملة التاسعة في طواف الوداع
الجملة العاشرة في زيارة المدينة وآدابها
- ٢٦١ فصل في سنن الرجوع من السفر
الباب الثالث في الآداب الدقيقة والاعمال
الباطنية
- بيان دقائق الآداب وهي عشرة
- ٢٦٥ بيان الاعمال الباطنة ووجه الاخلاص
في النية وطريق الاعتبار بالمشاهد
التسريفة وكيفية الافتكار فيها والتذكر
لاسرارها ومعانيها من أول الحج إلى آخره
- ٣٧٢ كتاب آداب تلاوة القرآن
وفيه أربعة ابواب
- الباب الاول في فضل القرآن وأمله وذم
المقصرين في تلاوته
- فضيلة القرآن
- ٢٧٤ في ذم تلاوة الغافلين
- ٢٧٥ الباب الثاني في ظاهر آداب التلاوة
وهي عشرة
- ٢٨٠ الباب الثالث في أعمال الباطن في التلاوة
وهي عشرة
- ٢٨٨ الباب الرابع في فهم القرآن وتفسيره
بالرأى من غير نقل
- ٢٩٣ كتاب الاذكار والدعوات
وفيه خمسة ابواب

صحيفة

٣١٨ الباب الرابع في ادعية مأثورة عن النبي
صلى الله عليه وسلم وعن اصحابه رضى
الله عنهم محذوفة الاسانيد منتخبة من
جملة ما جمعه ابو طالب المكي وابن
خزيمة وابن منذر رحمهم الله
٣٢٩ انواع الاستعاذة المأثورة عن النبي
صلى الله عليه وسلم
٣٢٣ الباب الخامس في الادعية المأثورة
عند حدوث كل حادث من الحوادث
٣٢٩ كتاب ترتيب الاوراد وتفصيل احياء
الليل وهو الكتاب العاشر من احياء
علوم الدين وبه اختتام ربع العبادات
وفيه بابان
٣٣٠ الباب الاول في فضيلة الاوراد وترتيبها
واحكامها

صحيفة

٣٣٠ فضيلة الاوراد وبيان أن المواظبة عليهما
هى الطريق إلى الله تعالى
٣٣١ بيان أعداد الاوراد وترتيبها
٣٣٢ بيان اورد الليل والنهار
٣٤٨ بيان اختلاف الاوراد باختلاف
الاحوال
٣٥١ الباب الثانى فى الاسباب الميسرة لقيام
الليل وفى الليالى التى يستحب احيائها
وفى فضيلة احياء الليل وما بين العشاءين
وكيفية قسمة الليل
٣٥١ فضيلة احياء ما بين العشاءين
٣٥٣ فضيلة احياء الليل
٣٥٦ بيان الاسباب التى بها يتيسر قيام الليل
٣٥٩ بيان طرق القسمة لاجزاء الليل
٣٦١ بيان الليالى والايام الفاضلة

تم الفهرس